

جواهر الأدب

في

أدبيات وإنشاء لغة العرب

تأليف
المرحوم السيد أحمد الهاشمي

مدير مدارس فؤاد الأول
ومراقب مدارس فيكتوريا سابقا

الجزء الأول

يطلب من
المكتبة التجارية الكبرى
بمصر ب ٥٧٨

مسجل بالمحاكم المختلطة وبرخصة وزارة الداخلية الجليلة
والإعادة وحقوق الطبع محفوظة لحضرة مؤلفه وولده
الطبعة السابعة والعشرون سنة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م

قرظت على طبعه مشيخة الأزهر الشريف
وقرظه أيضا كثير من فضلاء وزارة التربية والتعليم

بسم الله الرحمن الرحيم

أحلى ما سجت به بلابلُ الأقلام ، وأغلى ما انتظمت فيه عقودُ البلاغة
والانسجام ، وأشهى ما ينعت به (جواهر الأدب) حمدُ مولانا الذى شَرَّفَ
لغة العرب ، وأرسل لنا نبياً عربياً منزهاً عن جميع الرِّيب ، سيدنا محمداً
صلى الله عليه وعلى آله ومنْ صَحَب .

(أما بعدُ) فهذا كتاب سمَّيته «جواهر الأدب» ، فى أدبيات وإنشاء لغة
العرب «أودعته ما وقع عليه اختيارى ، لا من نثرى وأشعارى ، فليس لى فى
تأليفه من الافتخار ، أكثرُ من الاختيار ، واختيار المرء قطعةً من عقله ، تدلُّ
على تخلُّقه وفضله . وفضيلة هذا التأليف هى جمع ما افترق ، مما تناسبَ
وأتسقَ ، واختيار عيون ، وترتيب فنون ، من أحاديث نبوية ، ومكاتبات
أدبية ، وحكم باهرة ، وأبيات نادرة ، وأمثال شاردة ، وأخبار واردة ، ووصايا
نافعة ، ومواعظ جامعة ، ومناظرات مستطرفة ، ومقامات مستطرفة ، وأوصاف
عليّة ، وخطب اجتماعية ، لينتفع به مُقتنيه ، ويستغنى عن غيره الرَّاغبُ فيه ،
إذ كان أحسنَ من الزهر والرياض ، والحدائق والغياض ، والزبرجد والمرجان ،
والدرّ والعقيان ، والأكاليل والتيجان ، والنزه والبستان ، إن دُعِيَ أسرع ، وإن
تحدث أمتع ، وإن سُئِلَ أجاب ، وإن حكم أصاب ، جليس لصاحبه فى الحضر
وأنيس له فى السفر ، نديم ظريف ، وسمير حصيف ، بالغتُ فى تهذيبه ،
وبذلت مجهوداً فى حسن ترتيبه ، وأجزلتُ التُّحفه ، وانتقيت الطرفه ؛
وبالله نستعين ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

المؤلف

السيد أحمد الهاشمي

تقريظ

وتقدير العلماء والعظماء لكتاب جواهر الادب

١ - كتب إلى صاحب الفضيلة أستاذي الأكبر شيخ الأزهر الشيخ

حسونة النواوى :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذى علّم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ،
والصلاة والسلام على أفصح العرب ، وعلى آله وصحبه الذين انتهجوا منهج الأدب .
أما بعد ، فقد اطلعت على الكتاب المسمى « بجواهر الأدب فى أدبيات وإنشاء
لغة العرب » لمؤلفه الأملئ ولدنا الأستاذ الفاضل السيد أحمد الهاشمى ، فألفيته
مشمئلاً على فن الإنشاء والأمثال وافيئاً بالمقصود ، واسع المجال ، صحيح العبارة .
واضح الإشارة ، نافعاً فى بابيه ، مفيداً لمطالعيه وطلابه ؛ نفع الله به وبمؤلفه
ومحبيه بجاه نبيه وآله وصحبه وتابعيه .

٢ - وكتب إلى أستاذي الإمام الحكيم فيلسوف الشرق المرحوم الشيخ

محمد عبده مفتى الديار المصرية :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن
عبد الله وعلى آله وصحبه ومن اتبعه فوالاه . وبعد ، فقد اطلعت على مجموع
كتاب « جواهر الأدب » المنتخب من حقائق العرب ، فإذا هو مجموعة لا
بأس بها ، وافيئاً بما تريده الطلبة من الكتابة ووسائلها :

كما أزهرت روضات حسن وأثمرت فأضحت وعُجْمُ الطير فيها تُغرّد
فقد جمع لهم من عيون الكلام وروائع اللفظ ما يحتذون حذوه ، وينسجون على
منواله ، حتى لا تستعصى عليهم الكتابة بل يسلس لهم قيادها ، وبُعَيْدَ أن يصل
من يحاول صناعة الإنشاء إلى ما يرضى منه بدون أن يرد الطرف فى كثير من
كلام الفصحاء ، ويرد من مناهله كل عذب صاف ، ويحيط بشئ عظيم من

أساليب الكتاب حتى يتشبع من كلامهم ، وتنطبع فيه صورة من مجموع صورهم ولم يكن فيما بين أيديهم من الكتب ما يفي لهم بهذا الغرض ، حتى وُفِّقَ حضرة ولدنا الأستاذ الهاشمي لسد هذه الثلمة بما كابدته من التعليم زمناً كبيراً . ولا بدع فخير الأطباء من عرف حقيقة الداء ، فيصف له أنجع الدواء ، ولقد عرف هذا الأستاذ العصامي حاجة العصر وناشئته إلى كتاب موضوع على أسلوب عصري يلائم أذواق بني العصر من معلمين ومتعلمين ، فإذا حاول أهل العلم والتعالم أن يشكروا له صنيعه فقد حاولوا عظيماً وطلبوا خطيراً ، وحسب العامل أن يقوم بشكره عمله ، فالعمل أعرف شئاً بجميل عامله ، وفقنا الله وإياه لما يُحِبُّه ويرضاه ، وأسأله أن ينفع به الطلاب ، ويجزل فيه الثواب .

٣ - وكتب شيخ الإسلام صاحب الفضيلة أستاذي الأكبر المرحوم الشيخ سليم البشري شيخ الجامع الأزهر :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذي أنشأ العالم على أبدع مثال ، ونظم أحواله بمعارف أرباب العلوم حتى بلغ حد الكمال ، ونثر عجائب المعارف في أرجائه ، وغرائب العوارف في أنحائه ، والصلاة والسلام على ينبوع العلم وجواهر الأدب سيدنا ونبيينا محمد أشرف مخلوق في العجم والعرب ، وعلى آله وصحبه ذوى المناصب والرتب . أما بعد ، فقد تناولت كتاب « جواهر الأدب في إنشاء لغة العرب » كما يتناول الكتاب المرقوم ، وفضضته كما يفض الرحيق المختوم ، واطلعت عليه فوجدته حوى من المبانى أدقها ، ومن المعاني أرقها ، ومن النثر أعلاه ، ومن النظم أحلاه ؛ ارتحت لعيانه ، واهتزرت لعنوانه ، إذ قد جمع فيه الأجناس وما لا يستحيل الانعكاس ما أدهش قاطبة الناس ؛ فلو شامه « البهائي » قبل تأليف « مخلاته وكشكوله » لاعترف لهذا المؤلف وارعوى من فضوله ، وهو حضرة العالم الهمام اللوذعي ، الإمام ولدنا السيد أحمد الهاشمي ، أكثر الله من أمثاله ، بجاه النبي وآله .

٤ - وكتب إلى فضيلة أستاذي المرحوم الشيخ حمزة فتح الله المفتش الأول بوزارة المعارف العمومية :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أي بني الجهد التحرير والفذ العبقري « السيد أحمد الهاشمي » قد تصفحت مجموعتك المختارة التي سميتها « جواهر الأدب » في أدبيات وإنشاء لغة العرب « فإذا هي دائرة معارف كبرى لا يستغنى عنها أديب ، كلها صحاح وعلم صراح :

وما عسى أن يقال في وصف صحاح الجوهري إلى ورثتي إنه لكتاب صرح على المخض زبده ، وأسفر عن الأدب ، فلم تتلف بفضل مثرها دعد ، وانفردت سطوره عن فضل اختيار ، وتعرى ليل عن بياض نهار ، جلالة الفرناس ، على صفحات القرطاس .

اختار في كتابه هذا من منتخبات الكتاب والشعراء ما يشفي الغلة ، ويروى الصدى ، ولقد أتى فيما انتقاه لكتابه الثمين بيوت الكلام من أبوابها ، وميز أبكارها من أترابها ، وأهدى إلى هؤلاء الشاديين كلاماً يلطف كالهواء رقة ، ويسيل كالماء عذوبة ، يمتزج بالنفوس لنفاسته ، ويشرب بالقلوب لسلاسته : أحاديث لو صيغت لألهمت بحسنها عن الوشي أو شئت لأغنت عن المسك وبعد ، فإن سنن مؤلفك العظيم القويم ، ما منى بشين ، فخشيت عليه العين ، وما أطيب الخزامى في قول بعض القدامى :

ما كان أحوج ذا الكمال إلى عيب يوقيه من العين
كيف لا ، وقد عرفنا هذا المؤلف النابغة كاتباً مجيداً يفلح الحز ، ويطبق الفصل ، له حل من البلاغة يتقلدها فيكاد السحر يحسدها ، يدل عليه بيانه كما يدل على الجواد عنانه ، فمن عرفه فقد اكتفى ، ومن قصر فلينشد :

قد عرفناك باختيارك إذ كان دليلاً على اللبيب اختياره
فما أجدر كتابه أن يختص بسرعة المجال في المجالس ، وخفة المدار في المدارس

بل إن (هذا الكتاب يهدي التي هي أقوم) جرى الله مولفه خير الجزاء وأثابه أحسن المثوبة ، وأكثر في الأمة من أمثاله ، لتبلغ من حسن القول والفعل غاية الكمال .

٥ - وكتب إلى صديق المرحوم حسن أفندي توفيق العدل المدرس بكلية كمبردج - بانجلترا :

عزيزي حضرة الأستاذ الفاضل السيد أحمد الهاشمي

تشرفت بكتابك المسمى « جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب » فوجدت بين اسمه ومسامه مناسبة اقتضاها طبعك السليم ، واتصالاً قريباً كاتصال الصديق الحميم ؛ فما أنفس فرائده ، وأثمن فوائده ، وأفصح مقالة ، وأفصح مجاله . صدر هذا الكتاب عن علم سابق ، وفكر ثاقب ، وذهن رائق ، ونفس صادق ، ورؤية ملأت تصانيفها المغارب والمشارق ؛ فأكرم به من كتاب « جواهر » تكونت من ألفاظ عذاب ، ومواهب لا تدرك بيد اكتساب ، فسبحان من يرزق من يشاء بغير حساب . إذا تدبره الأديب أغنته تلك الأفانين عن نغمات القوانين ، وإذا تأمله الأريب نزه طرفه رياض البساتين ، قد سور على كل فن من البديع باب ، لا يدخله إلا من خصص من البلاغة باللباب ، والله تعالى يؤتية الحكمة وفصل الخطاب .

حسن توفيق العدل

المدرس بمدرسة المعلمين الناصرية بنظارة المعارف العمومية

وقال صاحب الدولة المرحوم سعد باشا زغلول مخاطباً لي :

كتابك هذا يا أستاذ « فضل ونعمة » ، « ذلك فضل الله يؤتية من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

ولأنه لدائرة معارف أدبية كبرى ، وأنفس كتاب ألف في اللغة العربية وتاريخ آدابها ، صدر عن تجربة وحكمة « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » .

سعد زغلول

اليكم معشر الكتاب

أما بعد - حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة وحاطكم ووفقكم وأرشدكم
فإن الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم
أجمعين ومن بعد الملوك المكرمين ، أصنافاً وإن كانوا في الحقيقة سواء ، وصرفهم
في صنوف الصناعات وضرُوب المحاولات إلى أسباب معاشهم وأبواب أرزاقهم .
فجعلكم معشر الكتّاب في أشرف الجهات أهل الأدب والمروءة والعلم والرواية بكم
تنظم للخلافة محاسنها ، وتستقيم أمورها ، وينصائحكم يُصلح الله للخلق سلطانهم
ويَعْمُرُ بلدانهم . لا يستغنى الملك عنكم ، ولا يوجد كافٍ إلا منكم . فموقعكم من
الملوك موقعُ أسماعهم التي بها يَسْمَعُونَ ، وأبصارهم التي بها يُبْصِرُونَ ، وألسنتهم
التي بها يَنْطِقُونَ ، وأيديهم التي بها يَبْطِشُونَ (١) ، فامتّعكم (٢) الله بما خصكم
من فضل صناعتكم ولا نزع عنكم ما أضافه (٣) من النعمة عليكم ، وليس أحدٌ
من أهل الصناعات كلها أحوَج إلى اجتماع خلال الخير المحمودة وخِصال
الفضل المذكورة المعدودة منكم .

أيها الكتّاب : إذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صِفَتِكُمْ ، فإن
الكاتب يحتاج من نفسه ويحتاج منه صاحبه الذي يثقُ به في مهمّات أموره
أن يكون حليماً في موضع الحلم فهيماً في موضع الحكم ، مقدّماً في موضع الإقدام
محجّماً في موضع الإحجام (٤) ، مؤثراً (٥) للعفاف والعدل والإنصاف ، كتوماً
للأسرار ، وفيّاً عند الشدائد ، عالماً بما يأتي من التّوازل ، يضع الأمور مواضعها

(٣) أفاضه

(٢) ابتقاكم

(١) يدافعون

(٥) مختاراً له

(٤) التأخر

وَالطَّوَارِقَ أَمَا كُنْهَا . قَدْ نَظَرَ فِي كُلِّ فَنٍ مِنْ فَنُونِ الْعِلْمِ فَأَحْكَمَهُ فَإِنْ لَمْ يُحْكَمْهُ
أَخَذَ مِنْهُ بِمَقْدَارِ مَا يَكْتَفِي بِهِ ، يَعْرِفُ بِغَرِيزَةِ عَقْلِهِ وَحَسَنِ أَدْبِهِ وَفَضْلِ تَجْرِبَتِهِ
مَا يَرُدُّ عَلَيْهِ قَبْلَ وَرُودِهِ ، وَعَاقِبَةُ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ قَبْلَ صُدُورِهِ ، فَيَعْدُّ لِكُلِّ
أَمْرٍ عُدَّتَهُ (١) وَعَتَادَهُ (٢) وَيَهَيِّئُ لِكُلِّ وَجْهِ هَيْئَتِهِ وَعَادَتِهِ .

فَتَنَافَسُوا يَا مَعْشَرَ الْكِتَابِ صَنُوفَ الْآدَابِ ، وَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَابْدَعُوا
بِعِلْمِ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْفَرَائِضِ ثُمَّ الْعَرَبِيَّةِ ، فَإِنَّهَا ثِقَافٌ (٣) أَلَسْتُمْكُمْ ، ثُمَّ
أَجِيدُوا الْخَطَّ . فَإِنَّهُ حَلِيَّةُ كُتُبِكُمْ ، وَارْوُوا الْأَشْعَارَ وَاعْرِفُوا غَرِيبَهَا وَمَعَانِيَهَا وَأَيَّامَ
الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَأَحَادِيثَهَا وَسِيرَهَا ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَعِينٌ لَكُمْ مَا تَسْمُو إِلَيْهِ هَمَمَكُمْ ،
وَلَا تُضَيِّعُوا النَّظَرَ فِي الْحِسَابِ فَإِنَّهُ قَوَامٌ (٤) كُتَّابُ الْخَرَجِ ، وَارْغَبُوا بِأَنْفُسِكُمْ
عَنِ الْمَطَامِعِ سَنِيَّهَا (٥) وَدُنْيَيْهَا ، وَسَنَسَافِ (٦) الْأُمُورِ وَمَحَاقِرَهَا فَإِنَّهَا مَذَلَّةٌ لِلرَّقَابِ
مُفْسِدَةٌ لِلْكِتَابِ ، وَنَزْهُوا صِنَاعَتَكُمْ عَنِ الدَّنَاءَةِ وَارْبِأُوا (٧) بِأَنْفُسِكُمْ عَنِ السَّعَايَةِ
وَالنَّمِيمَةِ وَمَا فِيهِ أَهْلُ الْجَهَالَاتِ . وَإِيَّاكُمْ وَالْكِبَرَ وَالصِّلَفَ وَالْعِظْمَةَ فَإِنَّهَا عِدَاوَةٌ
مُجْتَلِبَةٌ مِنْ غَيْرِ إِحْنَةٍ (٨) وَتَحَابُّوا فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي صِنَاعَتِكُمْ وَتَوَاصَوْا عَلَيْهِ بِالَّذِي
هُوَ أَلَيٌّ بِأَهْلِ الْفَضْلِ وَالْعَدْلِ وَالنُّبْلِ (٩) مِنْ سَلَفِكُمْ ، وَإِنْ نَبَأَ (١٠) الزَّمَانُ بِرَجُلٍ
مِنْكُمْ فَاعْظَمُوا عَلَيْهِ وَوَأَسُوهُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ حَالَهُ ، وَيَكُتُوبَ (١١) إِلَيْهِ أَمْرَهُ ، وَإِنْ أَقْعَدَ
أَحَدًا مِنْكُمْ الْكِبَرَ عَنْ مَكْسَبِهِ وَلِقَاءِ إِخْوَانِهِ فزُورُوهُ وَعَظِّمُوهُ وَشَاوَرُوهُ وَاسْتَظْهَرُوا
بِفَضْلِ تَجْرِبَتِهِ وَقَدِيمِ مَعْرِفَتِهِ ، وَلِيَكُنَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ عَلَى مَنْ اصْطَنَعَهُ وَاسْتَظْهَرَ بِهِ
لِيَوْمِ حَاجَتِهِ إِلَيْهِ أَحْفَظَ . مِنْهُ عَلَى وَلَدِهِ وَأَخِيهِ ، فَإِنْ عَرَضَتْ فِي الشَّغْلِ مُحَمَدَةٌ فَلَا
يَصْرِفُهَا إِلَّا إِلَى صَاحِبِهِ ، وَإِنْ عَرَضَتْ مَذْمَةٌ فَيَحْمِلُهَا هُوَ مِنْ دُونِهِ ، وَلِيَحْذَرَ

(١) مَا أَعْدَدْتَهُ لِحَوَادِثِ الدَّهْرِ (٢) الْعِدَّةُ (٣) تَعْدِيلُهَا (٤) نِظَامُ

(٥) رَفَعَهَا (٦) الرَّدَى مِنْ كُلِّ شَيْءٍ (٧) أَعْرَضُوا وَفَرُّوا

(٨) اِضْمارُ حَقْلٍ (٩) الرِّفْعَةُ وَالسُّمُو (١٠) قَصْرٌ وَنَفَرٌ (١١) يَرْجِعُ

المسقطه والزلة والملل عند تغير الحال ، فإن العيب إليكم معشر الكتاب أسرع منه إلى الفراء (١) وهو لكم أفسد منه لها ، فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبه الرجل يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه وشكره ، واحتماله وخيره ونصيحته وكتمان سره وتدبير أمره ما هو جزاء لحقه ، ويصدق ذلك فعله له عند الحاجة إليه والاضطرار إلى ما لديه ، فاستشعروا ذلك وفقكم الله من أنفسكم في حالي الشدة والرخاء والحرمان والمواساة والإحسان والسراء (٢) والضراء ، فنعمت الشيمة هذه لمن وسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة المنيفة .

وإذا ولي الرجل منكم أو صير إليه من أمر خلق الله أمرٌ فليرقب الله عز وجل وليؤثر طاعته وليكن على الضعيف رفيقاً وللمظلوم منصفاً ، فإن الخلق عيال الله وأحبهم إليه أرفقهم بعياله ، ثم ليكن بالعدل حاكماً ، وللأشراف مكرماً ، وللفقهاء (٣) مؤقراً ، وللبلاد عامراً ، وللرعية متألفاً ، وعن أذاهم متخلفاً ، وليكن في مجلسه متواضعاً حليماً ، وفي سجلات خراجه واستقصاء حقوقه دقيقاً ، وإذا صحب أحدكم رجلاً فليختبر خلائقه ، فإذا عرف حسنها وقبيحها أعانه على ما يوافقه من الحسن ، واحتال على صرفه عما يهواه من القبيح بالأطف حيلة وأجمل وسيلة ، وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيراً بسياستها التمس معرفة أخلاقها ، فإن كانت رموحاً لم يهجهها إذا ركبها ، وإن كانت شبوباً اتقأها من بين يديها ، وإن خاف منها شروداً توقأها من ناحية رأسها ، وإن كانت حرونأً قمع هواها برفق في طريقها (٣) فإن استمرت عطفها يسيراً فيسلس (٤) له قيادها ، وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وجربهم وداخلهم .

(١) الجلد ، لأنه سريع العطب

(٢) الغنيمة والخراج

(٣) في مرة من المرات

(٤) وفي نسخة يسلس أى ينقاد ويسهل

والكاتب بفضل أدبه وشريف صنعه ولطيف خيلته ومعاملته لمن يحاول من الناس وينظره ويفهم عنه أو يخاف سطوته أولى بالرفق بصاحبه ، ومداراة وتقويم أوديه من سائس البهيمة التي لا تفقه جواباً ولا تعرف ضواهاً ولا تفهم خطاباً إلا بقدر ما يصيرها إليه صاحبها الراكب عليها ؛ ألا فامعروا رحمكم الله في النظر ، واعملوا فيه ما أمكنكم من الرؤية والفكر تأمنوا بإذن الله ممن صحبتموه النبوة (١) والاستثقال والجفوة ويصير منكم إلى الموافقة وتصيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة إن شاء الله .

ولا يُجاوِزَنَّ الرجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وخدمه وغير ذلك من فنون أمره قدر حقه ، فإنكم مع ما فضلكم به الله من شرف صنعتكم خدمة لا تحملون في خدمتكم على التقصير ، وحفظة لا تحمل منكم أفعال التضييع والتبذير . واستعينوا على أفعالكم بالقصد في كل ما ذكرته لكم وقصصته عليكم ، واحذروا متالف السرف وسوء عاقبة الترف (٢) فإنهما يُعقبان الفقر ويذلان الرقاب ويفضحان أهلها ولا سيما الكتاب وأرباب الآداب وللأمور أشباه وبعضها دليل على بعض فاستدلوا على مؤتلف (٣) أعمالكم بما سبقت إليه تجربتكم ، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحها محجة وأصدقها حجة وأحمدها عاقبة ، واعلموا أن للتدبير آفة متلفة وهو الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ علمه ورؤيته ، فليقصد الرجل في مجلسه قصد الكافي من منطقته ، وليوجز في ابتدائه وجوابه وليأخذ بمجامع حججه ، فإن ذلك مصلحة لفعله ومدفعة للشاغل من إكثاره .

وليضرع إلى الله في صلة توفيقه وإمداده بتسديده مخافة وقوعه في الغلط. المضرع بيدنه وعقله وأدبه ، فإنه إن ظن منكم ظاناً أو قال قائل إن الذي برز من جميل

صنعتة وقوة حركته إنما هو بفضل حيلته وحسن تدبيره ، فقد تعرض بظنه
أو مقالته إلى أن يكله الله عز وجل إلى نفسه فيصيرُ منها إلى غير كاف ،
وذلك على من تأملهُ غيرُ خافٍ .

ولا يقلُّ أحدٌ منكم إنه أبصر بالأمور ، وأحمل لعبء التدبير من مرافقه في
صناعاته ومصاحبه في خدمته ، فإن أعقل الرجلين عند ذوى الألباب من رمى
بالعجب وراء ظهره ، ورأى أن صاحبه أعقلُ منه وأجمل في طريقته .

وعلى كل واحد من الفريقين أن يعرف فضل نعم الله عليه جل ثناؤه من
غير اغترار برأيه ولا تزكية لنفسه ولا تكاثر على أخيه أو نظيره وصاحبه
وعشيرته . وحمدُ الله واجب على الجميع ، وذلك بالتواضع لعظمته ، والتذلل
لعزته ، والتحدث بنعمته .

وأنا أقول في كتابي هذا ما سبق به المثل « مَنْ تَلَزَمَهُ النَّصِيحَةُ يَلْزِمَهُ الْعَمَلُ »
وهو « جواهر » هذا الكتاب وغُرّة كلامه بعد الذى فيه من ذكر الله جلّ
جلاله ، فلذلك جعلته آخره وتممته به ، تَوَلَّانا الله وإياكم يامعشر الكتبة بما
يتولى به من سبق علمه بإيساعاده وإرشاده ، فإن ذلك إليه وبيده ، والسلام
عليكم ورحمة الله وبركاته . (عبد الحميد الكاتب المتوفى سنة ١٣٢ هـ (١))

(١) هو عبد الحميد بن يحيى العامرى ، كاتب دولة مروان بن محمد
آخر خلفاء الأمويين - قتله السفاح ١٣٢ هـ .

تمهيد في مبادئ علم الأدب

الأدب عبارة عن معرفة ما يُحْتَرَزُ به من جميع أنواع الخطأ وهو قسبان : طبعي كسبي ؛ فالطبعي ما فُطِرَ عليه الإنسان من الأخلاق الحسنة والصفات المحمودة كالكرم والحلم . والكسبي ما اكتسبه بالدرس والحفظ . والنظر ، وهو المقصود لنا في هذا الكتاب ، وحينئذ يعرف بأنه علم صناعي تُعرف به أساليب الكلام البليغ في كل حال من أحواله ، وهو المدعو « علم الأدب » ،

وموضوعه الكلام المنظوم والمنثور من حيث فصاحته وبلاغته .
وغايته الإجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ، وتهذيب العقل وتذكية الجنان .

وفائده : أنه يعصم صاحبه من زلة الجهل ، وأنه يُروّض الأخلاق ويلين الطباع ، وأنه يعين على المروءة ، وينهض بالهمم إلى طلب المعالي والأُمور الشريفة .
وأركانها أربعة ، الأول : قوى العقل الغريزية ، وهي خمسة : الذكاء (١) والخيال (٢) . والحافظة (٣) ، والحس (٤) ، والذوق (٥) .

الثاني : معرفة الأصول وهي مجموع قوانين الكتابة ، وفيها طرق حسن التأليف وضروب الإنشاء وفنون الخطابة .

(١) الاستعداد التام لادراك العاوم والمعارف بالفكر وفي كتب اللغة الذكاء عبارة عن حدة الفؤاد وسرعة الفطنة (٢) باطنة تحفظ صور المحسوسات بعد غيبوبة المادة وهو من أكبر أسباب النجاح في فن الكتابة (٣) قوة من شأنها حفظ ما يدركه العقل من المعاني فتذكره عند الحاجة ولذلك سميت ذاكرة (٤) قوة يتأثر بها الإنسان من صور المدركات كالذلة والالم وهو من شروط الكتابة إذ يعين الكاتب مما يحدث فيه من التأثير على رسم صور المحسوسات رسماً محكماً فيقتدر إذ ذاك على تحريك العواطف واستمالة القلوب ، إلا ترى أن الكلام العذب إذا حل في القلب أحدث فيه حركة وهزة ؟
(٥) قوة غريزية لها اختصاص بادرار لطائف الكلام ومحاسنه الخفية وتحصل بالمشاهدة على الدرس وبالممارسة لكلام البلقاء وتكراره على السمع والتفطن لخواص معانيه وتراكيبه وبتنزيه العقل والقلب عما يفسد الأخلاق والآداب .

وتنقسم هذه الأصول إلى قسمين : عامة ، وخاصة . فالعامة : كالتأليف الأدبية من منظوم ومنثور في أغراض شتى . والخاصة : كالتأليف المفردة بالرسائل أو بالأمثال .

الثالث - مطالعة تصانيف البلغاء بالتأني والتبصر فيها ، ليدخر الكاتب كل لفظ مؤنق شريف وكل معنى بديع بحيث يتصرف بهما عند الضرورة . وشروطها ثلاثة ، الأول : أن يستقل المطالع بعض علماء اللغة وأئمة الأدب فيقتصر على درسهم حتى ينسج على منوالهم . الثاني : أن يطيل النظر في هذه المطالعة ويردّد مراراً ما استحسّنه من تصانيفهم كي يروض الذهن في حلبة (١) سباقهم فيقف على غريب أسلوبهم وعجيب تراكيبهم . الثالث : أن ينتقى منها شيئاً مما استجاده (٢) من اللفظ. الحرو والتراكب الصحيحة والمعاني البليغة ذُخراً لذاكرته ومهمازاً (٣) لقريحته .

الرابع - الارتياض ، وهو التدرب بوجوه الإنشاء بأن تتوسع في شرح بعض المعاني فتبينه بأوجه شتى وتُنمّقه بأشكال البديع ، وبأن تجتهد في وضع بعض مواضيع وجيزة فتصوغ تارة وصف مدينة أو مدحاً أو تهنئة ، وأخرى تسرد مثلاً أو تسبك رواية إلى غير ذلك . وأن تحذو حذو المتقدمين في أوضاعهم باستعمال ألفاظهم ومعانيهم ، وبأن تحلّ النظم فتأني به نشرأً أنيقاً (٤) وتعتقد النشر فتصوغه صوغاً رقيقاً (٥) .

مقدمة في علم الانشاء

الإنشاء لغة : الشَّرْعُ والإيجادُ والوضع ، تقول : أنشأ الغلام يمشي إذا شَرَعَ في المشي ، وأنشأ الله العالم : أوجدهم ، وأنشأ فلان الحديث : وضعه .

(١) الميدان (٢) وجده جيداً (٣) حديدة تكون في مؤخر خف الرائد للمهر (٤) معجبا (٥) حسنا

واصطلاحاً علم يُعرف به كيفية استنباط المعاني وتأليفها مع التعبير عنها بلفظ. لائق بالمقام . وهو مُستمد من جميع العلوم وذلك لأن الكاتب لا يستثنى صنفاً من الكتابة فيخوض في كل المباحث ويتعمد الإنشاء في كل المعارف البشرية . وينحصر المقصود منه في ثلاثة أبواب وخاتمة ومُلحق .

الباب الأول : في أصول الإنشاء

وهي أربعة : موادهُ وخواصهُ وطبقاتهُ ومحاسنُهُ .

أما مواده فتلاث : الأولى الألفاظ الفصيحة (١) الصريحة (٢) الثانية المعاني (٣) الثالثة إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة ومرجعها إلى الفصاحة وعلمى المعاني والبيان.

(١) الألفاظ البينة الظاهرة المتبادرة الى الفهم والمأنوسة الاستعمال لمكان حسنها .

(٢) الألفاظ التى تدل على نفس المطلوب بحيث تكون كقالب لمعناها ويتوصل الى ذلك بمعرفة المترادفات والصفات والابدال .

(٣) بحيث يكون المعنى واضحاً ، أى سهل المأخذ خالياً من اللبس والاشكال كقول الأخطل :

وإذا افتقرت الى الذخائر لم تجد ذخرا يكون كصالح الأعمال

وأن يكون المعنى سديداً أى أن يكون القول مطابقاً للواقع كقول لبيد :

الا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وأن يكون مطابقاً لمقتضى الحال كقول أبى العتاهية :

إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصداً ندمت على التفريط فى زمن البذر

ولهذا قال أبو الفتح البستي :

تكلم وسدد ما استطعت فانما كلامك حى والسكوت جماد

فان لم تجد قولاً سديداً تقوله فصمتك عن غير السداد سداد

والمراد بمقتضى الحال الأمر الذى يقتضيه الداعى الى المتكلم على وجه مخصوص الناشئ عن مراعاة أحوال المتكلم والمخاطب ومقام الكلام ، والمعنى أما أن يكون مبتكراً أى مخترعاً كقول ابن النبيه :

الناس للموت كخيلى الطراد فالسابق السابق منها الجواد

وكقول آخر فى وصف الشتاء :

والنار فأكهة الشتاء فمن يرد أكل الفواكه شاتياً فليصطل =

= أو دقيقا فهو ما لطف مأخذه وبعد مرامه ودل على توقد فهم قائله كقول ابن عنين في فخر الدين الرازي وكانت قد دخلت الى مجلسه حمامة خلفها صقر يريد صيدها فاستجارب بحجرتة :

جاءت سليمان الزمان حمامة والموت يلح في جناحي خاطف
من أنبا الورقاء أن محلكم حرم ، وأنت ملجأ للخائف

أو فطريا وهو ما أورده الطبع السليم بلا تصنع ولا أعمال روية ودل على بعض السذاجة في قائله ، كقول أحدهم وقد سئل هلا تسافر بحرا؟ فأشدد :

لا أركب البحر أخشى على منه المعاطب
طين أنا ، وهو ماء ، والطين في الماء ذائب

وكقول الصياد :

سبحان ربى يعطى ذا ويحرم ذا هذا يصيد وهذا يأكل السمكه
أو لينا وهو ما كان لطيف التعبير سلس الالفاظ دالا على أشياء تطرب
المسامع وتبهج القلب كقوله :

أن السماء اذا لم تبك مقلتها لم تضحك الأرض عن شيء من الزهر
أو نافذا وهو ما وصل الى الفهم بسرعة البرق وأخذ لحدته ومضائه
بمجامع القاب كقول عنترة :

وما دانيت شخص الموت الا كما يدنو الشجاع من الجبان
أو جامعا وهو ما أفاد باللفظ القليل المعنى الكثير كقول أبى تمام فى
المعتصم :

تراه اذا ما جئته متهللا كأنك تعطيه الذى أنت سائله
تعود بسط الكف حتى لو أنه أراد انقباضا لم تطعه أنامله

وكقول المتنبى :

وقد شرف الله أرضا أنت ساكنها وشرف الناس اذ سواك انسانا
أو متينا وهو ما اتسم بالضبط والحزم وتمكن من ذهن سامعه كقول أبى
العتاهية :

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير الى ذهاب
والموغل أو الايفال هو ما فتن بسموه القلب وسبى العقل وبلغ الغاية
القصى من البلاغة كما قال قائل على لسان ربه :
=

وأما خواصه فهي محاسنه السبعة ، وهي ؛ أولاً : الوُضوح (١) بأن يختارَ المفردات البينة الدالة على المقصود وأن يعدل عن كثرة العوامل (٢) في الجملة الواحدة ، وأن يتحاشى الالتباس في استعمال الضمائر ، وأن يسبك الجمل سبكاً جلياً بدون تعقيد والتباس ، وأن يتحاشى كثرة الجمل الاعتراضية .

وثانياً : الصراحة بأن يكون الإنشاء سالماً من ضعف التأليف وغرابة التعبير بحيث يكون الكلام حُرّاً مهذباً تناسب ألفاظه المعاني المقصودة كما قيل :

تَزِينُ مَعَانِيهِ أَلْفَاظُهُ وَأَلْفَاظُهُ زَائِنَاتُ الْمَعَانِي

ويكون الكلام صريحاً بانتقاء الألفاظ الفصيحة والمفردات الحرة الكريمة وكذا بإصابة المعاني وتنقيح العبارات مع جودة مقاطع الكلام وحسن صوغه وتأليفه ، وكذا بمراعاة الفصل والوصل وهو العلم بمواضع العطف والاستئناف والاهتداء إلى كيفية إيقاف حروف العطف في مواقعها .

وثالثاً : الضبط . وهو حذف فضول الكلام وإسقاط مشتركات الألفاظ

كقول قيس بن الخطيم المتوفى سنة ٦١٢ م :

= سألت عبدي وانت في كنفى وكل ما قلت قد سمعناه
سلنى بلا خشية ولا رهب ولا تخف ، انى أنسا الله

واعلم أنه ليس لهذه المعاني مصدر خاص ، وإنما يحصل عليها الأديب من مطالعة كتب البلغاء وأعمال الفكرة الطويلة والتبصر في الموضوع الذى يقصد وصفه ليست منه المعاني اللاتقة به ، وإنما يلتجئ الأديب الى هذه المعاني عند مسيس الحاجة وذلك يختلف باختلاف أحوال المتكلم ، ومقام المخاطب ومواقع الكلام .

(١) كقوله :

ليس الجمال بأثواب تزيننا ان الجمال جمال العلم والأدب
ليس اليتيم الذى قد مات والده بل اليتيم يتيم العلم والحسب

(٢) كقول بعضهم :

* أقسم لا أعود أقوم أخطب فيكم *

أَرَى الْمَوْتَ لَا يَرَعَى عَلَى ذِي قَرَابَةٍ وَإِنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا عَزِيزًا بِمَقْعَدٍ
لَعَمْرُكَ مَا الْآيَامُ إِلَّا مُعَارَةٌ فَمَا اسْطَعْتَ مِنْ مَعْرِفِهَا فَتَزَوَّدْ
ورابعاً : الطَّبْعِيَّةُ بَأَنَّ يَخْلُو الْكَلَامَ مِنَ التَّكْلُفِ وَالتَّصْنُوعِ كَمَا قَالَ
فِي رِثَاءِ ابْنِهِ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ الْمُتَوَفَى سَنَةَ ٢١١ هـ :

بِكَيْتِكَ يَا بُنَىَّ بَدَمَعَ عَيْنِي فَلَمْ يُغْنِ الْبُكَاءُ عَلَيْكَ شَيْئًا
وَكَانَتْ فِي حَيَاتِكَ لِي عِظَاتٌ وَأَنْتَ الْيَوْمَ أَوْعِظُ مِنْكَ حَيًّا
وَذَلِكَ لِأَنَّ مِنْ تَطَبُّعٍ بِغَيْرِ طَبْعِهِ نَزَعَتْهُ الْعَادَةُ حَتَّى تَرُدَّهُ إِلَى طَبْعِهِ كَمَا أَنَّ الْمَاءَ
إِذَا أَسْخَنَتْهُ وَتَرَكْتَهُ عَادَ إِلَى طَبْعِهِ مِنَ الْبُرُودَةِ وَحِينَئِذٍ فَالطَّبْعُ أَمْلَكَ .
وخامساً : السَّهْوَةُ بِأَنَّ يَخْلُصَ الْكَلَامُ مِنَ التَّعَسُّفِ فِي السَّبْكِ وَأَنْ يَخْتَارَ
مَا لَا مِنْهَا كَمَا قَالَ فِي الْأَشْوَاقِ بَهَاءُ الدِّينِ زَهِيرُ الْمُتَوَفَى سَنَةَ ٦٥٦ هـ :

شَوْقِي إِلَيْكَ شَدِيدٌ كَمَا عَلِمْتَ وَأَزِيدُ
فَكَيْفَ تَنْكُرُ حَبًّا بِهِ ضَمِيرُكَ يَشْهَدُ
وَأَنْ تُهْذَبَ الْجُمْلُ وَأَنْ يَأْتَلَفَ اللَّفْظُ . مَعَ مُرَاعَاةِ النَّظِيرِ كَمَا قَالَ
الشَّاعِرُ فِي الْوَدَاعِ :

فِي كَنَفِ اللَّهِ ظَاعِنٌ ظَعَنًا أَوْدَعَ قَلْبِي وَدَاعَهُ حَزَنًا
لَا أَبْصَرْتُ مُقْلَتِي مُحَاسِنَهُ إِنْ كُنْتُ أَبْصَرْتُ بَعْدَهُ حَسَنًا
قَالَ بَعْضُ الْبُلْغَاءِ : أَحْذَرُكُمْ مِنَ التَّقْيِيرِ وَالتَّعَمُّقِ فِي الْقَوْلِ وَعَلَيْكُمْ بِمُحَاسِنِ
الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي الْمُسْتَخَفَّةِ الْمُسْتَمْلِحَةِ فَإِنَّ الْمَعْنَى الْمَلِيحَةَ إِذَا كُتِبَتْ لَفْظًا حَسَنًا وَأَعَارَهُ
الْبَلِيغُ مَخْرَجًا سَهْلًا كَانَ فِي قَلْبِ السَّامِعِ أَحْلَى وَلِصَدْرِهِ أَمْلَأُ - قَالَ الْبُسْتِيُّ :
إِذَا انْقَادَ الْكَلَامُ فَقْدُهُ عَفْوًا إِلَى مَا تَشْتَهِيهِ مِنَ الْمَعَانِي
وَلَا تُكْرَهُ بَيَانُكَ إِنْ تَأَبَّى فَلَا إِكْرَاهَ فِي دِينِ الْبَيَانِ
وسادساً : الْإِتْسَاقُ بِأَنَّ تَتَنَاسَبَ الْمَعَانِي كَقَوْلِ الْمُتَبْنِي الْمُتَوَفَى سَنَةَ

وما زلت حتى قادنى الشوق نحوه يسأيرنى فى كل ركب له ذكر (١)
وأستكبر الأخبار قبل لقائه فلما التقينا صغر الخبر الخبر

وسابعاً : الجزالة وهى إبراز المعانى الشريفة فى معارض من الألفاظ.

الأنيقة (٢) اللطيفة كقول الصائى المتوفى سنة ٣٨٤ هـ :

لك فى المحافل منطق يشفى الجوى (٣) ويسوغ فى أذن الأديب سلافه (٤)
فكأن لفظك لؤلؤ متنخل (٥) وكأنما آذنا أصدافه

وأما عيوبه فسبعة : الهجنة بأن يكون اللفظ سخيلاً والمعنى مستقبحاً كقوله :

وإذا أدنيت منه بصلاً غلب المسك على ريح البصل

والوحشية : كون الكلام غليظاً تمجده الأسماع وتنفر منه الطباع كقوله :

وما أرضى لمقلته بحلم إذا انتبهت توهمه ابتشاكاً (٦)

والركاكة أى ضعف التأليف وسخافة العبارة كقول المتنبي المتوفى سنة ٣٤٥ هـ :

إن كان مثلك كان أو هو كائن فبرئت حينئذ من الإسلام

والسهو عبارة عن ضعف البصر بمواقع الكلام كقول المتنبي يشبه

مدوحه بالله تعالى (وهو كفر) :

تتقاصر الأفهام عن إدراكه مثل الذى الأفلاك منه والذى (٧)

والإسهاب أى الإطالة الزائدة المملة فى شرح المادة والعدول إلى الحشو كقوله :

وأعنى فتى لم تذر الشمس طالعة يوماً من الدهر إلا ضر أو نفعاً

(١) خبر زلت يسأيرنى ، والركب : جماعة الركاب ، أى ما زلت أسمع ذكره فى كل ركب صحبتته حتى قادنى الشوق إلى زيارته ، والمتبى يمدح علياً الأنطاكى ، ومعنى البيت الثانى : انى ما زلت أستعظم ما يذكر لى من أخباره حتى لقيته فصغرت عندى تلك الأخبار بالنسبة إليه لأنى وجدته أعظم مما وصفوا (٢) المعجبة .

(٣) الحرقة . (٤) الخمرة (٥) مصطفى ومختار

(٦) يقول : وان حدثه حلم فى نومه عن شكرى له فلا أرضى به لعسله

يتوهمه كذباً (٧) الدنيا .

والجفاف : الإيجاز والاختصار المخل كقول الحارث بن حلزة المتوفى سنة ٢٣٢هـ :
 والعيش خيرٌ في ظلال النسيك (١) ممن عاش كذا (٢)
 ووحدة السياق التزام أسلوب واحد من التعبير وطريقة واحدة من
 التركيب بحيث تكون للأذهان كاللا (٣) وللقلوب ملالا (٤) .
 وللكلام عيوب كثيرة منها اللحن ومخالفة القياس الصرفي وضعف التأليف
 والتعقيد اللفظي والمعنوي والتكرار وتتابع الإضافات إلى غير ذلك من الأشياء
 التي تكون ثقيلة على اللسان مخالفة للذوق والعرف غريبة على السمع (٥) .
 وأما طبقاته فتثلاث (الأولى الطبقة السفلى) ومرجعها إلى الإنشاء الساذج
 وهو ما عرى عن رقة المعاني وجزالة الألفاظ والتأنق في التعبير فهو بالكلام العادي
 أشبه لسهولة مأخذه وقرب مورده ، ويستعمل في المحافل العمومية ليقرب
 مثال المعاني على جمهور السامعين وفي المقالات والتأليف العلمية لينصرف الذهن
 إلى أخذ المعنى وليس دونه حائل من جهة العبارة ، وفي المكاتبات الأهلية
 والرحلات والأسفار والأخبار وما شابه ذلك . (الثانية الطبقة العليا) ومرجعها إلى
 الإنشاء العالي ، وهو ما شُحن بغرر الألفاظ ، وتعلّق بأهداب المجاز ولطائف
 التخيلات وبدائع التشابيه فيفتن ببراغته العقول ويسحر الأبواب ويصلح في
 الترسل بين بلغاء الكتاب وفي المجالس الأدبية وديباجة بعض التصانيف
 إلى غير ذلك من المواضع التي من شأنها الزجر وتحريك العواطف والحماسة .

(١) بفتح النون وضمها الحمق (٢) تعباً (٣) سيئة (٤) سأمه . (٥) حكى عن الصفي الحلبي أن بعض الفضلاء بلغه
 أنه طلع على ديوانه وقال لا عيب فيه سوى أنه خال من الألفاظ العربية
 فاجابه الصفي :

أما الحيزبون والدرديس والطخا والنقح والعلطيس
 لغة تنفر للسامع منها حين تروى وتشمئز النفوس
 وقبيح أن يسلك النافر الوحشي منها ويترك المأنوس
 أن خير الألفاظ ما طرب السامع منه وطاب فيه الجليس
 ولزيد الألفاظ مغناطيس

(الثالثة الطبقة الوسطى) ومَرَّجَعُهَا إِلَى الْإِنشَاءِ الْإِنْتِقَاطِيِّ (١) وهو ما توسط .
بين الإنشاء العالى والساذج فيأخذ من الأول رَوْنَهُ وَرَشَاقَتَهُ ومن الثانى جلاءه
وسلاسته - وَيَصْلُحُ فِي مُرَاسَلَاتِ ذَوَى الْمَرَاتِبِ ، وفي الروايات المُنَمَّقة
والأوصاف المُسَهَّبة ، وفي خطب المحافل وما أشبه ذلك (٢) .

وأما محاسنه فهي أساليب وطرائق معلومة وُضِعَتْ لتزيين الكلام وتَمْنِيقاً
لغرض أن يتمكن البليغ من ذهن السامع بما يورده من أساليب الكلام
المُستَحْسنة ، فيحرك أهواء النفس ويثير كامن حركاتها . والغرض أن يكون
قوله أشد اتصالاً بالعقل وأقرب للادراك بتصرفه في فنون البلاغة .

كيفية الشروع في عمل مواضيع الانشاء

إِذَا عَنَّ (٣) لك أو اقترح عليك إنشاء موضوع فأنت مُنَوِّطٌ (٤) إِذَا بِأَمْرَيْنِ :
التَّفَكُّرُ أَوَّلًا ، والكتابة ثانياً . فإذا أُنْعِمْتَ الفكر ملياً (٥) في أجزاء الموضوع
بعد استيلاء الإحساس بها على قلبك ، وقلبتَها على جميع الأوجه الممكنة فيها
تولد في خيالك لكل جزء عدة صور (٦) تتفاوت في تأديته كتفاوت صور
المنظوم في الحس والقياس ؛ فبعضها يستميل النفوس بتأثيره في الحواس ، وبعضها

(١) المحب .

(٢) الذى اشتهر بالانشاء الساذج السيوطى والماوردى والغزالي وأبو
الفرج الاصبهاني وابن الاثير وأبو الفداء . والذى اشتهر بالانشاء الانتقائى
الثعالبي وابن خلكان وابن خلدون والطبري والفخرى وابن المعتز والبيهقي
زهير وابن المقفع والمسعودي . والذى اشتهر بالانشاء العالى الحريري
والهمداني والمعري والاخلط وجريز وأبو تمام البحتري والمتنبي وابن خاقان
والعتبي والفارسي . واعلم أن طبقات الانشاء كثيرا ما تختلط ببعضها
فيصعب تعيين طبقته فربما جاء في القطعة الواحدة أشياء من الطبقات الثلاث
لا يميزها الا المنتقد البصير .

(٣) عرض (٤) ملزم (٥) ساعة طويلة .

(٦) أما اذا تساوت في حسن تأدية الغرض أخذ احداها فقط ولا يحسن
جمعها .

يوجب نُفُورَهَا ، بين بين ، وإذا تَشَخَّصَتِ الصُّورُ في الخيال يتخيَّر العقل منها ماله المكانة الرفيعة في حُسن تأدية الغرض المناسب للمقام ، فإن كان المقام للتَّحريض على القتال مثلا انتخب الصورة المهيَّجَة للاحساس ، المشجَّعة للنفس على اقْتِحَامِ الأخطار (١) ، وإن كان المقام مَقَامَ فرحٍ وسُرور انتخب ما يشرح الصدور .

وبعد تشخص الصُّور وتخير المناسبة منها تعين -أيها المنشئ- بحُسن تأليف وترتيب ما تخيرته أن تجمع الصور المناسبة التي يرتبط بعضها ببعض بدون تكلف بحيث يكون منسجماً يَمْضَى وحده مع النَّفس دون علاج وتعب في فهم الغرض منه وحينئذ يُمكنك إظهار هذه الصورة المعقولة في صورة محسوسة بواسطة القلم .

أركان الكتابة

اعلم أَنَّ للكتابة أَرْكَاناً لا بُدَّ من إيداعها في كل كتاب بلاغِيّ ذِي شأن ؛ أولها : أَنْ يكون مَطْلَعُ الكتاب عليه جِدَّةٌ (٢) وَرَشَاقَةٌ ، فَإِنَّ الكاتب مَنْ أجاد المطلع والمقطع ، أو يكون مَبْنِيّاً على مقصد الكتاب . الثاني أَنْ يكون خُرُوجُ الكاتب من معنى إلى معنى برابطةٍ لَتَكُونَ رِقَابُ المعاني آخذة بعضها ببعض

(١) الأحزان . (٢) صار جديدا مبتكرا ، وهو تقيض الخلق الذائب . تنبيه : يراعى حُلُّ المخاطب ومنزلته فان ما يحسن عند الذكي لا يحسن عند الغبي ، وما يناسب ذا الجد لا يناسب الهزلي ، وما يصاح للرئيس لا يصلح للمرءوس . فمخاطب كلا على قدر أهته وجلالته وعلوه وارتفاعه وفطنته ونباهته ، فزن اللفظة قبل أن تخرجها بميزان التصريف اذا عرضت وعابر الكلمة بمعيارها اذا سنحت فكلما احلوا لى الكلام وعذب وراق وسهلت مخارجه كان أسهل ولوجا في الأسماع واشد اتصالا بالقلوب وأخف على الافواه ، ولا سيما اذا كان المعنى البديع مترجما بلفظ مؤنق شريف ومعايرا بكلام عذب بدون تكلف ولا تعقيد ، فالعنى الخفى أشبه بالروح الخفى واللفظ الظاهر ، والا تضاعل المعنى الحسن تحت اللفظ القبيح كتضالول الحسنة في الأطمار الرثة .

ولا تكون مقتضية . الثالث أن تكون ألفاظ الكتاب غير مخلوقة بكثرة الاستعمال . ولا أريد بذلك أن تكون ألفاظاً غريبة فإن ذلك عيب فاحش بل أريد أن تكون الألفاظ المستعملة مسبوكة سبكاً غريباً يظن السامع أنها غير ما في أيدي الناس ، وهي مما في أيدي الناس ، وهناك مُعْتَرَك الفصاحة التي تظهر فيه الخواطر براعتها والأقلام شجاعته . وهذا الموضع بعيد المنال كثير الإشكال يحتاج إلى لطف ذوق وشهامة خاطر ، وليس كل خاطر بَرَّاق إلى هذه الدرجة (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) . ومع هذا فلا تظن - أيها الناظر في كتابي - أنني أردت بهذا القول إهمال جانب المعاني بحيث يؤتى باللفظ الموصوف بصفات الحسن والملاحة ، ولا يكون تحته من المعنى ما يماثله ويساويه ، فإنه إذا كان كذلك كان كصورة حسنة بديعة في حسننها إلا أن صاحبها بليد أبله . والمراد أن تكون هذه الألفاظ المشار إليها جسماً لمعنى شريف ، على أن تحصيل المعاني الشريفة على الوجه الذي أشرت إليه أيسر من تحصيل الألفاظ المشار إليها . ولقد رأيت كثيراً من الجُهاال الذين هم من السُّوقَة أرباب الحرف والصنائع ، وما منهم إلا من يقع له المعنى الشريف ويظهر من خاطره المعنى الدقيق ، ولكنه لا يحسن أن يزوّج بين لفظتين . فالعبارة عن المعاني هي التي بها تخلب العقول ، وعلى هذا فالناس كلهم مشتركون في استخراج المعاني ، فإنه لا يمنع الجاهل الذي لا يعرف علماً من العلوم أن يكون ذكياً بالفطرة .

واستخراج المعاني إنما هو بالذكاء لا يتعلم العلم .

فإذا استكملت معرفة هذه الأركان وأتيت بها في كل كتاب بلاغى ذى شأن فقد استحققت حينئذ فضيلة التقدم ، ووجب لك أن تسمى نفسك كاتباً .

(عن «المثل السائر» باختصار)

كيفية نظم الكلام

إذا أردت أن تصنع كلاماً فأخطر معانيه ببالك ، وتنق له كرائم اللفظ ، واجعلها على ذكر منك ليقرّب عليك تناولها ولا يتعبك تطليها ، واعمله ما دمت في شباب نشاطك ، فإذا غشيك الفتور وتخونك الملل فأمسك ، فإن الكثير مع الملل قليل ، والنفيس مع الضجر خسيس ، والخواطر كالينابيع يسقى منها شيء بعد شيء ، فتجد حاجتك من الرى ، وتنال إربك من المنفعة ، فإذا أكرت عليها نضب ماؤها ، وقلّ عنك عناؤها . واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطالبة والمجاهدة والتكلف والمعاودة . وإياك والتوغر ، فإن التوغر يسلمك إلى التعقيد والتعقيد هو الذى يستهلك معانيك ويشين ألفاظك .

ومن أراد معنى كريماً فليلتمس له لفظاً كريماً ، فإن من حق المعنى الشريف اللفظ الشريف .

فإذا لم تجد اللفظة واقعة موقعها صائرة إلى مستقرها حالة في مركزها متصلة بسلكها ، بل وجدتها قلقة في موضعها نافرة عن مكانها فلا تكررهما على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها . فإنك إن لم تتعاط قريض الشعر المنظوم ولم تتكلف اختيار الكلام المنشور ، لم يعبك بذلك أحد . وإن تكلفتة ولم تكن حاذقاً مطبوعاً ولا مُحْكماً لسانك بصيراً ، عابك من أنت أقل عيباً منه ، وزرى (١) عليك من هو دونك .

فإن لم تسمح لك الطبيعة بنظم الكلام في أول وهلة ، وتعصى عليك بعد إجمالة الفكرة ، فلا تعجل ، ودعه سحابة يومك ولا تضجر ، وأمهله سواد ليلتك وعادده عند نشاطك ، فإنك لا تعدم الإجابة والمؤاتاة . فإن تمنع عليك بعد ذلك - مع ترويح خاطر وطول الإمهال - فتحول من هذه

الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك وأخفها عليك ، فإنك لم تشتهها إلا وبينكما نسب .

والنبي لا يحن إلا إلى ما شاكله .

وينبغي أن تعرف أقدار المعاني ، فتوازن بينها وبين أوزان المستمعين وبين أقدار الحالات ، فتجعل لكل طبقة كلاماً ، ولكل حال مقاماً ، حتى تقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار الحالات .
(من « كتاب الصناعتين » باختصار)

الطريق الى تعلم الكتابة

إن الطريق إلى تعلم الكتابة على ثلاث شعب :

الأولى : أن يتصفح الكاتب كتابة المتقدمين ، ويطلع على أوضاعهم في استعمال الألفاظ والمعاني ، ثم يحذو حذوهم ؛ وهذه أدنى الطبقات عندى .
والثانية : أن يمزج كتابة المتقدمين بما يستجيده لنفسه من زيادة حسنة ، إما في تحسين ألفاظ ، أو في تحسين معاني . وهذه هى الطبقة الوسطى ، وهى أعلى من التى قبلها .

والثالثة : أن لا يتصفح كتابة المتقدمين ولا يطلع على شئ منها ، بل يصرف همه إلى حفظ القرآن الكريم وعدة من دواوين فحول الشعراء ممن غلب على شعره الإجادة فى المعاني والألفاظ . ثم يأخذ فى الاقتباس ، فيقوم ويقع ويخطئ ويصيب ويضل ويهتدى حتى يستقيم على طريقة يفتحها لنفسه ، وأخلق بتلك الطريق أن تكون مبتدعة غريبة لا شركة لأحد من المتقدمين فيها . وهذه الطريق هى طريق الاجتهاد وصاحبها يعد إماماً فى فن الكتابة ، إلا أنها مستوعرة جداً ، ولا يستطيعها إلا من رزقه الله لساناً هجاءً وخاطراً رقماً . ولا أريد بهذه الطريق أن يكون الكاتب مرتبطاً فى كتابته بما يستخرجه من القرآن الكريم .

والشعر ، بحيثُ أَنَّهُ لَا يُنْشَى كِتَاباً إِلَّا مِنْ ذَلِكَ ، بَلْ أُرِيدُ أَنَّهُ إِذَا حَفِظَ الْقُرْآنَ وَأَكْثَرَ مِنْ حَفْظِ الْأَشْعَارِ ثُمَّ نَقَّبَ عَنْ ذَلِكَ تَنْقِيبَ مُطَّلَعٍ عَلَى مَعَانِيهِ مَفْتِشٍ عَنْ دِفَائِنِهِ وَقَلْبُهُ ظَهْراً لِبَطْنِ عَرَفٍ حِينَئِذٍ مِنْ أَيْنَ تَوَكَّلَ الْكَتِفُ فِيمَا يُنْشِئُهُ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهِ ، وَاسْتَعَانَ بِالْمَحْفُوظِ عَلَى الْغَرِيزَةِ الطَّبِيعِيَّةِ .
(عن «المثل السائر» باختصار)

كيفية تهذيب الكلام وأوقات تأليفه

تهذيبُ الكلامِ : عبارة عن تردادِ النظرِ فيه بعد عمله - نظماً كان أو نثراً - وتغييره ما يجبُ تغييرُهُ ، وحذف ما ينبغي حذفُهُ وإصلاح ما يتعينُ إصلاحُهُ ، وتحرير ما يدقُّ مِنْ مَعَانِيهِ ، وإطراح ما يتجافى عن مضاجع الرقة من غليظ. ألفاظه ، لتُشْرِقَ شُمُوسُ التَّهْذِيبِ فِي سَمَاءِ بِلَاغَتِهِ ، وَتُرْشَفَ الْأَسْمَاعُ عَلَى الطَّرَبِ رَقِيقِ سُلَافَتِهِ ، فَإِنَّ الْكَلَامَ إِذَا كَانَ مَوْصُوفاً بِالمُهَذَّبِ ، مَنَعَتْهُ بِالْمَنْقَحِ ، عُلْتُ رُتْبَتُهُ وَإِنْ كَانَتْ مَعَانِيهِ غَيْرَ مَبْتَكِرَةٍ ، وَكُلُّ كَلَامٍ قِيلَ فِيهِ : لَوْ كَانَ مَوْضِعَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ غَيْرُهَا ، وَلَوْ تَقَدَّمَ هَذَا الْمَتَأَخَّرُ وَتَأَخَّرَ هَذَا الْمَتَقَدَّمُ ، أَوْ لَوْ تُمِمَ هَذَا النِّقْصُ بِكَذَا ، أَوْ لَوْ حُذِفَتْ هَذِهِ اللَّفْظَةُ ، أَوْ لَوْ اتَّضَحَ هَذَا الْمَقْصِدُ وَسُهِلَ هَذَا الْمَطْلَبُ لَكَانَ الْكَلَامُ أَحْسَنَ وَالْمَعْنَى أَبْيَنَ - كَانَ ذَلِكَ الْكَلَامُ غَيْرَ مُنْتَظَمٍ فِي نَوْعِ التَّهْذِيبِ .

وَكَانَ زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلَمَى مَعْرُوفاً بِالتَّنْقِيحِ وَالتَّهْذِيبِ ، وَلَهُ قِصَائِدٌ تُعْرَفُ بِالْحَوَالِيَّاتِ - قِيلَ : إِنَّهُ كَانَ يَنْظُمُ الْقَصِيدَةَ فِي أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ، وَيُهْذِبُهَا وَيُنْقِّحُهَا فِي أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ، وَيَعْرِضُهَا عَلَى عُلَمَاءِ قَبِيلَتِهِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ، وَلِهَذَا كَانَ الْخَلِيفَةُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - مَعَ جَلَالَتِهِ فِي الْعِلْمِ ، وَتَقَدُّمِهِ فِي النِّقْدِ - يَقْدِّمُهُ عَلَى سَائِرِ الْفُحُولِ مِنْ طَبَقَتِهِ .

وَمَا أَحْسَنَ مَا أَشَارَ أَبُو تَمَامٍ إِلَى التَّهْذِيبِ بِقَوْلِهِ :
خُذْهَا ابْنَةُ الْفَكْرِ الْمُهَذَّبِ فِي الدُّجَى وَاللَّيْلِ أَسْوَدَ رَقْعَةِ الْجِلْبَابِ

فإنه خصّ تهذيب الفكر بالدُّجى لكون اللَّيْلِ تهادً فيه الأصوات وتسكُّنُ الحركاتُ ، فيكونُ الفكرُ فيه مجتمعاً ومرتآة التهذيب فيه صقيلة ، لخلو الخاطر وصفاء القريحة ، لاسيما وسط الليل .

قال أبو عبادة البُخترى : كنتُ في حدائثي أروى الشُّعرَ ، وكنتُ أرجع فيه إلى طبع سليم ، ولم أكنُ وقفت له على تسهيل مأخذٍ ووجوه اقتضاب حتى قصدت أبا تمامٍ وانقطعتُ إليه واتكلتُ في تعريفه عليه ، فكان أوّل ما قال لى : يا أبا عبادة ، تخيّر الأوقات وأنت قليلُ الهموم ، صفرٌ من الغوم .

واعلم أن العادة في الأوقات إذا قصد الإنسان تأليف شيء أو حفظه أن يختار وقت السحر ؛ وذلك أن النفس تكون قد أخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم وخف عليها ثقل الغذاء ؛ واحذر المجهول من المعاني وإيّاك أن تشين شعرك بالألفاظ الوحشية وناسب بين الألفاظ والمعاني في تأليف الكلام ، وكُنْ كأنك خياطٌ تُقدّر الثياب على مقادير الأجسام ، وإذا عارضك الضجرُ فأرخ نفسك ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب ولا تنظم إلا بشهوة ، فإن الشهوة نعم المعين على حسن النظم ، وجُملة الحال : أن تعتبر شعرك بما سلف من أشعار الماضين ، فما استحسن العلماء فاقصده وما استقبحوه فاجتنبه .

(عن «خزانة الأدب - وزهر الآداب» باختصار)

محاسن الإنشاء ومعايبه

إنّ للنثر محاسن ومعايب ، يجبُ على المنشئ أن يفرّق بينهما مُحترزاً استعمال الألفاظ الغريبة ، ولا يخلُ بفهم المراد ويوجبُ صعوبة - ولا بد من أن يجعل الألفاظ تابعة للمعاني دون العكس ، لأنّ المعاني إذا تركت على

سَجِيَّتْهَا طَلِبْتُ لَأَنْفَسِهَا أَلْفَاظاً تَلِيْقُ بِهَا فَيَحْسُنُ اللَّفْظُ. والمعنى جميعاً ، وأما جعلُ الألفاظِ متكلفةً والمعاني تابعةً لها ، فهو شأنٌ من لهم شغفٌ بإيراد شيءٍ من المحسنات اللفظية فيصرفون العنايةَ إليها ، ويجعلون الكلامَ كأنه غير مسبوقٍ لإفادة المعنى ، فلا يُبالون بخفاء الدلالات وركاكة المعنى .

ومن أعظم ما يليق بمن يتعاطى الإنشاء أن يكتب ما يُراد لا ما يُريد ، كما قيل في الصَّاحِبِ والصَّائِ : إن الصَّائِ يكتب ما يُراد ، والصَّاحِبُ يكتب ما يُريد .

(عن «آداب المنشيء» ببعض تصرف)

فصاحة الألفاظ ومطابقتها للمعاني

فصاحة الألفاظ تكون بثلاثة أوجه :

الأول : مجانبةُ الغريب الوحشيِّ حتى لا يمجَّه سَمْعٌ ، ولا ينفر منه طَبْعٌ .

والثاني : تنكُّبُ اللفظِ . المبتذلِ ، والبعد عن الكلام المسترذل حتى لا يستسقيطُه خاصيُّ ، ولا ينبو عنه فهمُ عاميِّ ، كما قال الجاحظ . في كتاب البيان : أما أنا فلم أرَ قوماً أمثلَ طريقة في البلاغة من الكتابِ : وذلك أنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن مُتَوَعِّراً وحشياً ، ولا ساقطاً عامياً .

والثالثُ : أن يكونَ بينَ الألفاظِ ومعانيها مُناسبةٌ ومُطابقةٌ .

أما المُطابَقَةُ : فهي أن يكونَ بينَ الألفاظِ كالقوالب لمعانيها فلا تَزِيدُ عليها ولا تنقصُ عنها .

[] وأما المُناسِبَةُ : فهي أن يكونَ المعنى يليقُ ببعض الألفاظِ - إما لِعُرْفِ مستعملٍ ، أو لانفاقٍ مستحسنٍ - حتى إذا ذُكرت تلك المعاني بغير تلك

الألفاظ كانت نافرة عنها ، وإن كانت أفصح وأوضح لاعتياد ماسواها .
(عن « أدب الدين والدنيا » باختصار)

حقيقة الفصاحة

اعلم أنَّ هذا موضوع متعذرٌ على الوالج ، ومسلكٌ متوعرٌ على الناهج ، ولم تنزل العلماء من قديم الوقت وحديثه يكثرون القول فيه والبحث عنه ، ولم أجِدْ من ذلك ما يعول عليه إلا القليل ، وغاية ما يقال في هذا الباب : إنَّ الفصاحة هي الظهور والبيان في أصل الوضع اللغوي - يقال : أفصح الصبحُ إذا ظهر ، ثم إنهم يَقِفُونَ عند ذلك ولا يَكْشِفُونَ عن السرِّ فيه ، وبهذا القول لا تتبين حقيقة الفصاحة ، لأنَّه يُعْتَرَضُ عليه بوجوه من الاعتراضات .

الوجه الأول : إذا لم يَكُنْ اللفظ ظاهراً بيّناً لم يَكُنْ فصيحاً ثم إذا ظهر وتبيّن صار فصيحاً .

الوجه الثاني : أنه إذا كان اللفظ الفصيح هو الظاهر البيّن فقد صار ذلك بالنسب والإضافات إلى الأشخاص ؛ فإنَّ اللفظ قد يكون ظاهراً لزيد ولا يكون ظاهراً لعمرو ، فهو إذاً فصيحٌ عند هذا ، وغير فصيحٍ عند ذاك ؛ وليس كذلك بل الفصيح هو فصيحٌ عند الجميع لاختلاف فيه بحالٍ من الأحوال ولأنَّه إذا تحقّق حدُّ الفصاحة وعُرف ما هي ، لم يبق في اللفظ الذي يختصُّ به خلافٌ .

الوجه الثالث : أنه إذا جرى بلفظ قبيح ينبو عنه السَّمْعُ وهو مع ذلك ظاهر بيّن ينبغي أن يكون فصيحاً ، وليس كذلك لأنَّ الفصاحة وصفٌ حُسْنٍ للفظ لا وصفٌ قبيح .

ولما وقفتُ على أقوال الناس في هذا الباب ملكتني الحيرة فيها ،

ولم يثبتْ عندى منها ما أُعَوِّلُ عليه ، ولكثرة مُلابستى هذا الفنِّ ومُعاركتى إِيَّاهُ ، انكشف لي السِّرُّ فيه . وسأُوضِّحُه في كتابى هذا وأُحَقِّقُ القول فيه فَأَقُولُ :

إنَّ الكلامَ الفصيحَ هو الظاهرُ البَيِّنُ ، وأعنى بالظاهر البَيِّنُ : أن تكون ألفاظه مفهومة لا يُحتاجُ في فهمها إلى استخراج لُغَةٍ .

وإنما كانت بهذه الصفةِ لأنَّها تكونُ مألوفة الاستعمال بين أربابِ النظم والنثر دائرةً في كلامهم ، وإنما كانت مألوفة الاستعمال دائرةً في الكلام دون غيرها من الألفاظ لمكان حُسْنِها ، وذلك أنَّ أربابِ النظم والنثر غرَّبُوا اللغة باعتبارِ ألفاظها ، وسبَّروا وقَسَّمُوا ، فاخترُوا الحسَنَ من الألفاظِ حتى استعملوه وعلموا القبيحَ منها فلم يستعملوه ، فحَسُنُ الاستعمال سببُ استعمالها دون غيرها ، واستعمالها دون غيرها سببُ ظُهورها وبيانها ؛ فالفَصيحُ إذاً مِنَ الألفاظِ هو الحسنُ .

فإن قيل : مِنْ أَى وجه عَلِمَ أربابُ النَّظْمِ والنَّثر الحسنَ مِنَ الألفاظِ حتى استعملوه ، وعلموا القبيحَ منها حتى نَفَوْهُ ، ولم يستعملوه ؟ قُلْتُ في الجواب : إنَّ هذا من الأمور المحسوسة التي شاهدهُها من نفسها ؛ لأنَّ الألفاظَ داخلةً في حيزِ الأصوات ، فالذى يستلذه السَّمْعُ منها ويميلُ إليه هو الحسنُ والذى يكرههُ وَيَنفِرُ عنه هُوَ القبيحُ . ألا تَرى أَنَّ السَّمْعَ يستلذُّ صَوْتَ البُلبُلِ من الطيرِ وصوتَ الشَّخَرِ ويميلُ إليهما ، ويكرهُ صوتَ الغرابِ وَيَنفِرُ عنه ؟ وكذلك يكرهُ نبيقَ الحمار ، ولا يجدُ ذلك في صهيلِ الفَرَسِ ؟ والألفاظُ جاريةٌ هذا المجرى ، فإنه لا خلاف في أنَّ لفظَةَ المُرْنةِ والديمةِ حسنةٌ يستلذُّها السَّمْعُ ، وأنَّ لفظَةَ البُعاقِ قبيحةٌ يكرهاها السَّمْعُ ، وهذه اللفظَات من صفةِ المطر ، وهى

تدلُّ على معنى واحد ، ومع هذا فإنك ترى لفظي المزنَةِ والدِّمَةِ وما جرى مجرَّاهما مألوفى الاستعمال ، وترى لفظ البعاقِ ، وما جرى مجراه متروكاً لا يُستعملُ ، وإن استُعمل فإنما يَستعمله جاهلٌ بحقيقة الفصاحة ، أو من ذَوْقه غير ذوق سليم .

ولا جرم أنه ذمُّ وقُدح فيه ولم يلتفت إليه وكان عربياً محضاً من الجاهلية الأقدمين ؛ فإن حقيقة الشيء إذا عُلِمَتْ وجب الوقوفُ عندها ولم يُعرج على ما خرج عنها .

(عن «ابن الأثير» باختصار)

الانسجام

الانسجامُ لغة : جريان الماء ، وعند أهل البلاغة : هو أن يأتى الناظم أو الناصر بكلام خالٍ من التّعقيد اللفظي والتّعقيد المعنوي ، بسيطاً مفهوماً دقيق الألفاظٍ جليل المعنى ، لا تكلف ولا تعسف فيه ، يتحدّر كتحدّر الماء المنسجم ، فيكادُ لسهولة تركيبه ، وعذوبة ألفاظه ، أن يسيل رِقَةً .

ولا يكون ذلك إلا في من هو مطبوعٌ على سلامة الذوق ، وتوقد الفكرة وبراعة الإنشاء وحسن الأساليب .

وإنَّ فحول هذا الميدانِ ما أثقلوا كاهل سُهولته بنوعٍ من أنواع البديع ، اللهم إلا أن يأتى عفواً من غير قصد .

وعلى هذا أجمع علماء البديع في حدِّ هذا النوع ، فإنهم قرروا أن يكون بعيداً عن التصنع ، خالياً من الأنواع البديعية إلا أن يأتى في ضمن السهولة من غير قصد ، فإن كان الانسجام في النثر تكون أغلب فقراته موزونة من غير

قصيد . وإن كلن في النظم فتكادُ الأبياتُ أن تسيلَ رقةً وعدوبةً ، وربما دخلت في المُطَرَّبِ المُرْقَصِ .

(عن « بديعة العميان وبديعة الحموى »)

حل الشعر

حلُّ الأبيات الشعرية ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول منها وهو أدناها مرتبةً : أن يأخذ الناثر بيتاً من الشعر فينشره بلفظه من غير زيادة . وهذا عيبٌ فاحشٌ . ومثاله كمن أخذ عقداً قد أتمن نظمه وأحسن تأليفه فأوهاهُ وبَدَّدَهُ ، وكان يقوم عذره في ذلك أن لو نقله عن كونه عقداً إلى صورة أخرى مثله أو أحسن منه ، وأيضاً فإنه إذا نُثر الشعر بلفظه كان صاحبه مشهور السرقة ، فيقال : هذا شعرُ فلان بعينه ، لكون ألفاظه باقيةً لم يتغير منها شيء ؛ وقد سلك هذا المسلك بعض العراقيين فجاء مُستهجنًا ، كقوله في حل بعض أبيات الحماسة :

وَأَلَدَّ ذِي حَنْتٍ عَلَى كَأَنَّمَا تَغْلِي عَدَاوَةُ صَدْرِهِ فِي مِرْجَلٍ

أَزْجِيَّتُهُ عَنِي فَأَبْصَرَ قَصْدَهُ وَكَوَيْتُهُ فَوْقَ النَّوَظِرِ مِنْ عَلٍ

إذ قال في نشر هذين البيتين : « فكم لقي ألدَّ ذا حنق كأنه ينظر إلى الكواكب من عل ، وتغلي عداوة صدره في مرجل ، فكواه فوق ناظريه وأكبَّه لقمه ويديه » . فلم يزد هذا الناثر على أن أزال رونق الوزن وطلاوة النظم لا غير .

ومن هذا القسم ضربٌ محمودٌ لا عيب فيه ، وهو أن يكون البيت من الشعر قد تضمن شيئاً لا يمكن تغيير لفظه فحينئذ يُعذر ناثره إذا أتى بذلك اللفظ ، وكذلك الأمثال السائرة فإنه لا بد من ذكرها على ما جاءت في الشعر .

وأما القسم الثاني - وهو وَسْطُ - بين الأول والثالث في المرتبة - فهو أن ينثر المعنى المنظوم ببعض ألفاظه ، ويعبر عن البعض بألفاظٍ أُخَر ، وهناك تظهر الصنعة في المماثلة والمشابهة ، ومؤاخاة الألفاظ - الباقية بالألفاظ - المُرْتَجلة . فإنه إذا أخذ لفظاً لشاعر مجيد ، قد نَقَحَهُ وَصَحَّحَهُ فَقَرَنَهُ بما لا يلائمه ، كان كمن جمع بين لُؤْلُؤة وحصاة ، ولا خفاء في ذلك من الانتصاب للقبح والاستهداف للطعن ، والطريق المسلوك إلى هذا القسم : أن تأخذ بعض بيت من الأبيات الشعرية هو أحسن ما فيه ثم تماثله .

وسأوردُ هنا مثالا واحداً ، ليكون قدوةً للمتعلم ، فأقول : قد ورد هذا البيت من شعر أُنَى تمام في وصف قصيدة له :

حداً تَمَلُّ كلُّ أذنٍ حِكْمَةً وبلاغةً وتُدِرُّ كلُّ وريدٍ

فقلوه (تملُّ كلُّ أذنٍ حكمةً) من الكلام الحسن ، وهو أحسن ما في البيت فإذا أردت أن تنثر هذا البيت فلا بد من استعمال لفظه بعينه ، لأنه في الغاية القُصْوَى من الفصاحة والبلاغة ، فعليك حينئذ أن تؤاخيه بمثله .

وهذا عَسِرٌ جداً ، وهو عندى أصعب منالاً من نثر الشعر بغير لفظه ، لأنه مسلك ضيقٌ لما فيه من التعرض لمماثلة ما هو في غاية الحسن والجودة . وأما نثر الشعر بغير لفظه فذلك يتصرف فيه نائزُهُ على حسب ما يراه ، ولا يكون مقيداً فيه بمثال يضطر إلى مؤاخاته ، وقد نشرْتُ هذه الكلمات المشار إليها وأتيتُ بها في جملة كتاب فقلتُ : وكلامى قد عرف بين الناس واشتهر ، وفاق مسير الشمس والقمر ، وإذا عُرِفَ الكلام صارت المعرفة له علامةً وأَمَنَ من سرقة ، إذ لو سُرِقَ لدلَّتْ عليه الوسامة ، ومن خصائص صفاته أن يملأ كلُّ أذنٍ حكمة ، ويجعل فصاحة كل لسان عجة ، وإذا جرت نفثاته في الأفهام ، قالت : أهذه بنت فكرة أم بنت كَرَمَة ؟

فانظر كيف فعلت في هذا الموضع ، فإنني [حين] أَخَذْتُ تلك الكلمات من البيت الشعري التزمت بأن أُؤاخيها بما هو مثلها أو أحسن منها ، فجئْتُ بهذا الفصل كما تراه ، وكذلك ينبغي أن يُفعل في ما هذا سبيله .

وأما القسم الثالث - وهو أعلى من القسمين الأولين - فهو أن يؤخذ المعنى فيصاغ باللفاظ. غير ألفاظه . ومن ثم يتبين حِدْقُ الصائغ في صياغته ويعلم مقدار تَصَرُّفه في صناعته ، فإن استطاع الزيادة على المعنى فتلك الدَّرَجَةُ العالية ، وإِلَّا أَحْسَن التصرف وأتقن التأليف ليكون أولى بذلك المعنى من صاحبه الأول .

واعلم أن من أبيات الشعر ما يتسع المجال لناثره فيُورِدُه بضروب من العبارات وذلك عِندى شبيهه بالمسائل السَّيِّئَةِ في الحساب التي يُجَآوب عنها بعدة من الأجوبة ومن الأبيات ما يَضِيق فيه المجال حتى ما يكاد الماهر في هذه الصناعة أن يخرج من ذلك اللفظ ، وإنما يكون هذا لعدم النظير . فأمَّا ما يتسع المجال في نشره فكقول المتنبي :

لا تعذِلُ المشتاق في أشواقه حتى يكون حشاك في أحشائه
وقد نشرت هذا المعنى ، فمن ذلك قولي : لا تعذل المحب في ما يهواه حتى تطوى القلب على ما طواه . ومن ذلك وجه آخر ، وهو : إذا اختلفت العينان في النظر فالعذل ضرب من الهذر ، وأمَّا ما يَضِيق فيه المجال فيعسر على الناثر تبديل ألفاظه كقول أبي تمام :

تردَّى ثياب الموت حُمراً فما أتى لها الليلُ إلا وهى من سندس خضر
قصد أبو تمام المؤاخاة في ذكر لوني الثياب من الأحمر والأخضر ، وجاء ذلك واقعاً على المعنى الذي أرادَهُ من لون ثياب القتلى وثياب الجنة . وهذا البيت لا يمكن تبديل ألفاظه ، وهو وأمثاله مما يجب على الناثر أن يُحَسِّن

الصنعة في فك نظامه لأنه يتصدى لنشره بألفاظه ، فإن كان عنده قُوَّةُ تصرُّفٍ وبَسْطَةِ عبارة ، فإنه يأتى به حسناً رائعاً .

وقد قلت في نشره : لم تَكُسه المَنايا نسج شفارها حتى كَسَتْهُ الجنة نسج شعارها فَبَدَّلَ أَحمر ثوبه بأخضره . وكأْس حمامه بكأْس كَوثره .

وإذا انتهى بنا الكلام إلى ههنا في التنبيه على نشر الشعر ، وكيفية نشره وذكر ما يسهل منه ، وما يعسرُ ، فلنتبع ذلك بقولٍ كُلِّ في هذا الباب فنقول :

من أَحَبَّ أَنْ يكون كاتباً ، أو كَانَ عنده طبعٌ مجيبٌ ، فعليه بحفظ الدواوين ذوات العدد ، ولا يقنع بالقليل من ذلك ، ثم يأخذ في نشر الشعر من محفوظاته .

وطريقه : أَنْ يبتدى فيأخذ قصيداً من القصائد ، فينشره بيتاً بيتاً على التوالى .

ولا يستنكف في الابتداء أَنْ ينشر الشعر بألفاظه أو بأغلبها ، فإنه لا يستطيع إلا ذلك .

وإذا مَرِنَتْ نفسه ، وتدرَّبَ خاطره ، ارتفع عن هذه الدرجة ، وصار يأخذ المعنى ويكسوه عبارة من عنده ، ثم يرتفع عن ذلك فيكسوه ضرباً من العبارات المختلفة ، وحينئذ يَحْضُلُ لخاطره بمباشرة المعانى لِقَاحٌ ، فيستنتج منها معانى غير تلك المعانى .

وسبيله : أَنْ يكثُر الإدمان ليلاً ونهاراً ، ولا يزال على ذلك مدة طويلة حتى تصير له ملكة ، فإذا كَتَبَ كِتَاباً أو خطب خطبة تدفَّقَت المعانى في أَثْناء كلامه وجاءت ألفاظه معسولة ، وكان عليها جدة حتى تكاد ترقص رقصاً ، وهذا شيء خبرته بالتجربة ، ولا ينبئك مثل خبير .

(عن « المثل السائر » باختصار)

التخلص والاقتضاب في مواضيع الانشاء

التخلص : هو أن يأخذَ مؤلف الكلام في معنى من المعاني ، فبينما هو فيه إذ أخذ في معنى آخر غيره ، وجعل الأول سبباً إليه ، فيكون بعضه آخلاً برقاب بعض من غير أن يقطع كلامه ، ويستأنف كلاماً آخر . بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفراغاً ، وذلك مما يدلُّ على حذق الشاعر وقوة تصرفه من أجل أن نطاق الكلام يضيق عليه ، ويكون متبعا للوزن والقافية ، تؤاتيه الألفاظ . على حسب إرادته .

وأما النثر فإنه مطلق العنان يمضي حيث شاء ، فلذلك يشقُّ التخلصُ على الشاعر أكثر مما يشقُّ على النثر ، ومما جاء من التخلصات الحسنة قول المتنبي المتوفى سنة ٣٤٤ هـ :

خَلِيلِيَّ إِنِّي لَا أَرَى غَيْرَ شَاعِرٍ فَلِمَ مِنْهُمْ الدَّعْوَى وَمَنْى الْقَصَائِدُ
فَلَا تَعْجَبَا إِنْ السُّيُوفَ كَثِيرَةً ، وَلَكِنَّ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الْيَوْمَ وَاحِدٌ

وهذا هو الكلام الآخذ بعضه برقاب بعض ، ألا ترى أن الخروج إلى مدح الممدوح في هذه الأبيات كأنه أفرغ في قالب واحد ؟

والاقتضاب : أن يقطع الشاعر كلامه الذى هو فيه ، ويستأنف كلاماً آخر غيره من مديح أو هجاء أو غير ذلك ، ولا يكون للثاني علاقة بالأول : كقول أبي نواس - المتوفى سنة ١٩٨ هـ - في قصيدته النونية التي لم يكمل حسننها بالتخلص من الغزل إلى المديح ، بل اقتضبه اقتضاباً ؛ فبينما هو يصف الخمر ويقول :

فَاسْقِنِي كَأْساً عَلَى عَذْلِ كَرِهْتُ مَسْمُوعَهُ أَذْنِي
مَنْ كُمَيْتِ اللَّوْنِ صَافِيَةٍ خَيْرَ مَا سَلَسَتْ فِي بَدْنِي
مَا اسْتَهْقَرْتُ فِي فُؤَادِ فَتًى فَلَرَى مَا لَوْعَةِ الْحَزَنِ

حتى قال :

تَضْحَكُ الدُّنْيَا إِلَى مَلِكٍ قَامَ بِالْآثَارِ وَالسَّنَنِ
سَنَ لِلنَّاسِ النَّدَى فَنَدَوْا فَكَأَنَّ الْبُخْلَ لَمْ يَكُنْ
وَإِذَا لَمْ يَحْسَنِ التَّخْلُصُ ، بَأَنَّ كَانَ قَبِيحاً مَسْخُوراً فَلَا قِتْضَابُ أَوَّلَى مِنْهُ .
فَيَنْبَغِي لِسَالِكِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَا يَصُوغُهُ ، فَإِنْ أَتَاهُ التَّخْلُصُ
حَسَناً كَمَا يَنْبَغِي ، وَإِلَّا فَلْيَدَعِهِ وَلَا يَسْتَكْرِهْهُ ، حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ هَذَا .
وَاعْلَمْ أَنَّ التَّخْلُصَ غَيْرُ مُمْكِنٍ فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ ، وَهُوَ مِنْ مُسْتَصْعِبَاتِ عِلْمِ
الْبَيَانِ فَلْيَتَدَبَّرِ الشَّاعِرُ ذَلِكَ .

(عن «المثل السائر» بتصرف)

كيفية افتتاح مواضيع الانشاء وختامها

الافتتاحُ أَنْ تَجْعَلَ مَطْلِعَ الْكَلَامِ مِنَ الشُّعْرِ أَوْ الرِّسَائِلِ دَالًّا عَلَى الْمَعْنَى
الْمَقْصُودِ مِنْ ذَلِكَ الْكَلَامِ : إِنْ كَانَ فَتَحاً فَفَتْحاً ، وَإِنْ كَانَ هَنَاءً فَهَنَاءً ،
أَوْ كَانَ عِزًّا فَعِزًّا وَهَكَذَا . وَفَائِدَتُهُ أَنْ يُعْرَفَ مِنْ مَبْدِئِ الْكَلَامِ مَا الْمُرَادُ مِنْهُ ،
فَإِذَا نَظَّمَ الشَّاعِرُ قَصِيدَةً - فَإِنْ كَانَتْ مَدِيحاً صِرْفاً لَا يَخْتَصُّ بِحَادِثَةٍ مِنَ
الْحَوَادِثِ ؛ فَهُوَ مَخِيرٌ بَيْنَ أَنْ يَفْتَتِحَهَا بِغَزَلٍ ، وَبَيْنَ أَنْ يَرْتَجِلَ الْمَدِيحَ
أَرْتَجَالاً مِنْ أَوَّلِهَا - كَقَوْلِ الْقَائِلِ :

إِنْ حَارَتْ الْأَلْبَابُ كَيْفَ تَقُولُ فِي ذَا الْمَقَامِ فَعُدُّهَا مَقْبُولُ
سَامِحْ بِفَضْلِكَ مَا دَحِيكَ فَمَا لَهُمْ أَبَدًا إِلَى مَا تَسْتَحِقُّ سَبِيلُ
إِنْ كَانَ لَا يُرْضِيكَ إِلَّا مُحْسِنُ فَالْمُحْسِنُونَ إِذَنْ لَدَيْكَ قَلِيلُ

وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْقَصِيدُ فِي حَادِثَةٍ مِنَ الْحَوَادِثِ كَفَتْحِ مُقْفَلٍ ، أَوْ هَزِيمَةِ جَيْشٍ
أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُبْدَأَ فِيهِ بِغَزَلٍ ، وَمِنْ أَدَبِ هَذَا النُّوعِ أَنْ لَا يَذْكُرَ
الشَّاعِرُ فِي افْتِتَاحِ قَصِيدَةِ الْمَدِيحِ مَا يُتَطَيَّرُ مِنْهُ أَوْ يُسْتَقْبَحُ ، لَا سِوَا إِذَا كَانَ فِي التَّهَانِي

فإنه يكون أشدَّ قبحاً ، وإنما يُستعملُ في الخطوب النازلة ، والنوائب الحادثة ، ومتى كان الكلامُ في المديح مفتتحاً بشيءٍ من ذلك ، تطير منه سامعه ، وإنما خُصَّتْ الابتداءات بالاختيار لأنها أول ما يطرُق السمعُ من الكلام ، فإذا كان الابتداء لائقاً بالمعنى الوارد بعده توفرت الدواعي على استعماله . والختام : أن يكون الكلامُ مؤذناً بتمامه ، بحيث يكون واقعاً على آخر المعنى ، فلا ينتظر السامع شيئاً بعده ؛ فعلى الشاعر والناثر أن يتأنقاً فيه غاية التأنق ، ويجوداً فيه ما استطاعاً لأنه آخر ما ينتهي إلى السمع ، ويتدردُّ صدهُ في الأذن ، ويعلقُ بحواشي الذكر فهو كمنقطع الشراب . يكون آخر ما يمرُّ بالفم ، ويُعرضُ على الذوق ، فيشعرُ منه بما لا يشعرُ من سواه ، ولذلك ينبغي أن يكون الختامُ مُميزاً عن سائر الكلام قبله بنكتةٍ لطيفةٍ أو أسلوبٍ رشيقٍ أو معنىٍ بليغٍ ، ويختار له من اللفظ الرقيق الحاشية ، الخفيف المحمل على السمع والسهل الورد على الطبع ، ويتجافى به عن الإسهاب والتعقيد والثقل ، وغير ذلك . وحكمُ الختام كما سبق أن يكون مؤذناً بتمام الكلام بحيث يكون واقعاً على آخر المعنى فلا ينتظر السامع شيئاً بعده ، وإذا لم يكن المعنى دالاً بنفسه على الختام حسن أن يدلَّ عليه بكلام آخر ، يُذكر عقب الفراغ من سياقه الأغراض السابقة ، وحكمه أن يكون مُنتزِعاً مما سبقه فيُقفى به تقريراً لشيءٍ من الأغراض أو إجمالاً لمفصلها ، مُورداً على وجه من وجوه البلاغة ، أو الكلام الجامع ، أو مخرج المثل ، أو الحكمة ، أو ما شا كل ذلك ، مما تعلقه الخواطر وتقيده الأذهان ، كقول المتنبي المتوفى سنة ٣٤٤ هـ :

وَمَا أَخْصَكَ فِي بُرِّي بِتَهْنِئَةٍ إِذَا سَلِمْتَ فَكُلَّ النَّاسِ قَدْ سَلِمُوا

وكقول الزمخشري المتوفى سنة ٥٢٨ هـ في ختام إحدى مقالاته : « إن الطيش في الكلام يُترجمُ عن خِفةِ الأحلام ، وما دَخَلَ الرَّفْقُ شيئاً إلا زانه ، وما زان المتكلم إلا الرزانه » .

وأما فى غير ذلك ، فالأكثر فيه يُضمَّنُ غرضاً آخر من الدعا ، أو عَرَضُ النفس على خدمة المكتوب إليه ، أو توقُّع الجواب منه ، أو غير ذلك مما تحتمله مقاماتُ الكلام ، وتقتضيه دواعى الحال .

وأكثر ما يهتمونها فى النثر بعد الأغراض المذكورة بقولهم : « إن شاء الله » أو « بمن الله وفضله » وما أشبه ذلك .

وكثيرا ما يختمُ النثر بقوله : « والسلام » أو « بلا حَوْل ولا قُوَّة إلا بالله » أو بقوله : « والله المستعان » أو بقوله : « والحمد لله أولاً وآخراً ، باطناً وظاهراً » أو بقوله : « والله أعلم » أو غير ذلك .

ورُبما ختم بِمَثَلٍ ، كخِتام الخوارزمي المتوفى سنة ٣٨٣ هـ رسالته بقوله : « ولقد سلك الأمير من الكرم طريقاً يستوحش فيها لِقَلَّةِ سالكيها ، ويتيه فى قفارها لدروس آثارها ، وانهدام منازلها ، أعانه الله على صعوبة الطريق ، وقلة الرفيق ، وألهمه صبراً يهون عليه احتمال المغارم ، ويقرب عليه مسافة المكارم . فبالصبر تنال العلا ، وعند الصباح يُحمدُ القوم السرى » .

ومن أمثلته فى الشعر قول ابن الوردي المتوفى سنة ٧٤٩ هـ :

سلامٌ عليكم ما أحبَّ وصالكم وغايةُ مجهودِ المُقلِّ سلام

تقسيم الانشاء الى فنى النظم والنثر

اعلم أن لسان العرب وكلامهم يدور على فنين : فن الشعر المنظوم ، وهو الكلام الملقى الموزون بأوزان مخصوصة ، وفن النثر ، وهو الكلام غير الموزون . فلما الشعر فمته المدح والهجاء ، والثناء . وأما النثر فمته ما يؤتى به قطعاً ويلتزم فى كل كلمتين منه فافيةٌ واحدة ويسمى سَجْعاً . وهو ثلاثة أقسام : القسم الأول :

أن يكون الفصلان متساويين ، لا يزيد أحدهما على الآخر ، مثل قوله تعالى :
(فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَاتَتَقَهَرْ ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَاتَنْهَرْ) وهو أشرف السجع منزلة
للاعتدال الذى يبه .

والقسم الثانى أن يكون الفصل الثانى أطول من الأول ، طويلاً لا يخرج به
عن الاعتدال خروجاً كثيراً ، فإنه يقبح عند ذلك ويُسْتَكْرَه ، ويعد عيباً ،
فمما جاء من ذلك قوله تعالى : (بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ
سَعِيرًا . إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا . وَإِذَا أَلْفَوْا مِنْهَا
مَكَانًا ضَيِّقًا دَعَوْا هَٰذَا لِكَ ثُبُورًا) (١) . والفصل الأول ثمان لفظات ، والثانى
والثالث تسع تسع : ويستثنى من هذا القسم : ما كان من السجع على ثلاث
فَقَرٍ ، فإن الفقرتين الأوليين تحسبان فى عدة واحدة ، ثم تأتى الثالثة فينبغى
أن تكون طويلة طويلاً يزيد عليهما . وقد تكون الثلاث متساويات ، كقوله
تعالى : (فى سِدْرٍ (٢) مَخْضُودٍ (٣) وَطَلْحٍ (٤) مَنْضُودٍ وَظِلٌّ مَّدُودٍ (٥)) .

والقسم الثالث : أن يكون الفصل الآخر أقصر من الأول ، وهو عيب
فاحش (٦) . وأما النثر المرسل ، فهو ما يؤتى به قطعاً من غير تقييد بقافية ولا
غيرها وهو الذى يطلق فيه الكلام إطلاقاً ، ولا يُقَطَّعُ أجزاءً . بل يُرْسَلُ
إرسالاً من غير تقييد بقافية .

(من « المثل السائر » باختصار)

(١) ويلا . (٢) شجر النبق .

(٣) مقطوع شوكة . (٤) الموز .

(٥) متراكب بعضه فوق بعض .

(٦) للسجع أربعة شروط : اختيار المفردات الفصيحة ، واختيار التاليف
الفصيح ، وكون اللفظ تابعاً للمعنى لا عكسه ، وكون كل واحدة من الفقرتين
أو الفقرة دالة على معنى ثلثا يصبح الكلام طويلاً معيباً .

كيفية عمل الشعر

اعلم أن لعمل الشعر وإحكام صناعته شروطاً :

أولهما : الحفظ. (١) من جنسه - أى من جنس شعر العرب - حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها ، ويُتخير المحفوظ. من الحر النقي الكثير الأساليب وهذا المحفوظ. المختار أقل ما يكفي فيه شعر شاعر من فحول الإسلام ، مثل : عمر بن أبي ربيعة ، وكثير ، وذو الرمة ، وجريز ، وأبي نواس ، وأبي تمام ، والبُخترى ، والشريف الرضى ، وأبي فراس ، وأكثره شعر « كتاب الأغاني » لأنه جمع شعر أهل الطبقة الإسلامية كله ، والمختار من شعر الجاهلية .

ثم لا بد له من الخلوة واستجادة المكان المنظوم فيه ، باشتماله على مثل المياه والأزهار ، كما يستحسن استجادة المسموع ، لاستنارة القريحة باستجماعها وتنشيطها بملاذ السرور . ثم مع هذا كله ، فشرطه أن يكون على جمام (٢) ونشاط فذلك أجمع له ، وأنشط للقريحة أن تأتي بمثل ذلك المنوال الذى يساعد في حفظه ، قالوا : وخير الأوقات لذلك أوقات البكر (٣) عند الهبوب من النوم ، وفراغ المعدة ، ونشاط الفكر ، وربما يكون من بواعثه العشق والإنشاء .

(١) ومن كان خاليا من المحفوظ فنظمه قاصر ردىء - ولا يعطيه الرونق والحلاوة الا كثرة المحفوظ فمن قل حفظه أو عدم لم يكن له شعر وانما هو نظم ساقط . واجتناب الشعر أولى بمن لم يكن له محفوظ . ثم بعد الامتلاء من الحفظ ، وشحد القريحة للنسج على المنوال ، يقبل على النظم وبالاكتثار منه تستحكم الملكة وترسخ ، وربما يقال : ان من شروطه نسيان ذلك المحفوظ لتمحى رسومه الحرفية الظاهرة ، اذ هى صادرة عن استعمالها بعينها . فاذا نسبها ، وقد تكيفت النفس بها انتقش الاسلوب فيها كأنه منوال يأخذ في النسيج عليه بمثالها من كلمات أخرى ضرورة .

(٢) الراحة . (٣) جمع بكرة وهو الصباح ووزانه غرفة وغرف

قالوا : فإن استصعب عليه بعد ذلك ، فليتركه إلى وقت آخر ، ولا يُكره نفسه عليه ، وليكن بناء البيت على القافية من أول صوغه ونسجه ، يضعها ويبني الكلام عليها إلى آخره ، لأنه إن غفل عن بناء البيت على القافية صعب وضعها في محلها ، وربما تجيء نافرة قلقة . وإذا سمح خاطر بالبيت ولم يناسب الذي عنده ، فليتركه إلى موضعه الأليق به ، فإن كل بيت مستقل بنفسه ، ولم تبق إلا المناسبة ، فليتخير فيها كما يشاء ، وليراجع شعره بعد الخلاص منه ، بالتنقيح (١) والنقد ، ولا يضمن (٢) به على الترك إذا لم يبلغ الإجابة ، فإن الإنسان مفتون بشعره ، إذ هوبات فكره واختراع قريحته ، ولا يستعمل فيه إلا الأفصح من التراكيب . والخالص من الضرورات اللسانية فليهجرها فإنها تنزل بالكلام عن طبقة البلاغة وقد حظر أئمة اللسان على المولد (٣) ارتكاب الضرورة ، إذ هو في سعة منها بالعدول عنها إلى الطريقة المثلى من الملكة ، ويجتنب أيضاً للمقعد من التراكيب جهده ، بحيث تكون ألفاظه على طبق معانيه تسابق ألفاظه إلى الفهم ، ويجتنب أيضاً الوحشى من الألفاظ . والمقصر ، وكذلك السوق المبتذل ، فإنه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة أيضاً ، فيصير مبتذلاً ، ويقرب من عدم الإفادة ، وفي هذا القدر كفاية لمتعاطي صناعة الإنشاء .

(عن «ابن خلدون» باختصار)

(١) بالتهذيب .

(٢) بفتح الضاد وكسرهما لا يبخل .

(٣) هو من وجد بعد اختلاط العجم بالعرب كالعباس بن الأحنف ومن

بعده .

فنون الإنشاء

فنون الإنشاء سبعة وهى : المكاتبات ، والمُنَاطرات ، والأمثال ،
والأوصاف ، والمقامات ، والروايات ، والتاريخ

الفن الأول

فى المكاتبات والمراسلات

المكاتبة ، وتعرف أيضاً بالمراسلة ، هى مخاطبة الغائب بلسان القلم ؛ وفائدتها
أوسع من أن تحصر من حيث أنها تُرْجِمان الجنان ، ونائب الغائب فى قضاء
أوطاره (١) ، ورباط الوداد مع تباعد البلاد .

وطريقة المكاتبة هى طريقة المخاطبة البليغة مع مُراعاة أحوال الكاتب
والمكتوب إليه والنسبة بينهما (٢) ؛ وخواصها خمس : السذاجة ، والجلاء ،
والإيجاز ، والملاءمة ، والطلاوة (٣) . فالسذاجة : تجعل الكلام فطرياً سليماً من
شوائب التكلف ، منزهاً عن زخرف (٤) القول ، بعيداً عن بهرجة (٥) الكلام .
والجلاء : هو العدول عن الكلام المغلق ، والتشابه المستبعدة ، والتراكيب
الملتبسة إلى الكلام المهدب الصريح . والإيجاز : تنقيح الرسالة من حشو
الكلام ، وتطويل الجمل ، فيبرزها وافية الدلالة على المقصود ، مقتصرة على

(١) الحاجات . (٢) قال إبراهيم بن محمد الشيبانى : اذا احتجت
الى مخاطبة أعيان الناس أو أوساطهم أو سوقيتهم فخطب كلا على قدر أبته
وجلالته وعلو مكانته وانتباهه وفطنته . ولكل طبقة من هذه الطبقات معان
ومذاهب يجب عليك أن ترعاها فى مراسلتك . فلا تكتب لمن أصيب فى ماله
أو فى عياله كما تكتب لمن فرغ باله ووفر ماله . وقال آخر : ان بلاغسة
الرسالة تستفاد من ملاحظة مقامات الكلام وأوقاته ومراعاة أحوال المخاطبين
بالنسبة الى المتكلم - واعلم ان لكل مقام مقالا .

(٣) بتثليث الطاء . (٤) مزوره . (٥) العدول عن الجادة
للمقصودة .

المُحَسَّنَات القريبة المنزل (١) . والملاءمة : تنزل الألفاظ والمعاني على قدر الكاتب والمكتوب إليه ، فلا تُعطى خسيس الناس رفيع الكلام ، ولا رفيع الناس خسيس الكلام ، على أنها تجعل الرسالة وتعاييرها مُستعذبة الأوضح ، حسنة الارتباط ، يأخذ بعضها بأزمة بعض . والطلاوة : تكسو الكلام رونقاً وإشراقاً بجودة العبارة وسلامة المعاني وسلاسة الألفاظ (٢) . وتجعله بذلك أحسن موقعاً عند سامعه.

أبواب الرسائل

تنقسم الرسائلُ باعتبار موضوعها إلى ثلاثة أقسام : الأول الرسائل الأهلية والثاني الرسائل المتداولة ، والثالث الرسائل العلمية

الكلام على الرسائل الأهلية

الرسائلُ الأهلية - وتُعرفُ برسائل الأشواق - هي ما دارت بين الأقارب والأصدقاء ، وأسفرت (٣) عن مكشور (٤) الوداد ، وسرائر الفؤاد ، ولا حرج على الكاتب إذا بسط فيها الكلام على سجيته ، وأخفى السؤال في أحوال أصحابه . وتنفرد هذه الرسائل بأن يُطلق الكاتب فيها العنان للقلم ، ويتجافى عن الكلفة ويعدل عن الانقباض . وقد قيل : « الأنس يُذهبُ المهابة ، والانقباض يُضيعُ المودة » . هذا ولا بد من مراعاة مقتضى الحال ، والاعتصام بركن الفطنة أخذاً بقول أبي الأسود الدؤلي :

لا تُرسلَنَّ رسالة مشهورة لا تستطيع إذا مضت إدراكها

(١) ولا يعد مناقضا للإيجاز ما يستدعيه المقام من البسط في الموضوع : أما تعزيزا للمعنى وأما حذراً من الإبهام ، أو دلالة على عواطف القلب ، أو رغبة في تفكيه الخواطر . قال الاقدمون : « خير الكلام ما قل ودل ، ولم يطل فيمل » .

(٣) كشف .

(٢) سهولتها .

(٤) مستور .

وإلى هذا الباب ترجع مكاتبات الشوق ، والتعارف قبل اللقاء ، والهدايا ، والاستعطاف ، والاعتذار وغير ذلك ولنذكر شذرات من أقوال الكتّاب (١) :

الفصل الأول : فى الشوق

كَتَبَ أَبُو منصور الثعالبي النيسابورى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :

شوقى إليك رهينُ قلبي ، وقرينُ صدري ، والزعيم (٢) بتعليق فكرى ، وتفريق صبرى ، وسميرُ ذكري ، ونديمُ فكري ؛ زادى فى سفرى ، وعتادى (٣) فى حضرى ، لا يستقلُّ به صدرى ولا يقوى عليه صبرى ، يكاد يكونُ لزاماً ويعدُّ غراماً ، لا يرحل مقيمهُ ، ولا يُصرف غريمهُ . استخفَّ نفسى واستفزَّها ، وحركَ جوانحى وهزَّها . شوقى أخذَ بسمع خاطرى وبصرة ، وحال بين مورد (٤) قلبي ومصدره (٥) شوق قد استنفدَ جلدى (٦) وملكَ خلدى (٧) . شوق براقى برى الخلال (٨) ، ومحققى مَحَقِّ الهلال . شوق تركنى حرَضاً (٩) وأوسغنى مضضاً (١٠) أَرانى الصبر حسرة ، والوجد مِنة ويسرة . شوق يزيد الأيام (١١) توقداً وتاجُّجاً وتضرماً وتوهجاً . نار الشوق حشو ضلوعى ، وماء الصبابة ملءُ جُفونى . أنا من لبواعج الشوق بين غمائم ، لا تمطر إلا صواعق وسمائم (١٢) . قد قرحت كبدى من الحرقه بهذه الفرقة ، ما يفوت أيسره حد الشكايه ، ويجوز أضعفه كُتته الكتابة . شوق الروض الماحل (١٣) إلى الغيث الهاطل .

(١) قد أفردنا للرسائل الأهلية كتاباً خاصاً أسميناه (انشاء المكاتبات العصرية والمراسلات العربية) وطبعناه عدة طبعات متوالية ، فارجع اليه اذا شئت ، ولهذا نختصر فى هذا الكتاب أبواب الرسائل ونذكر ما تمس اليه الحاجة فقط . (٢) الرئيس .

(٣) ما أعددتَه لحوادث الدهر (٤) موضع الورود (٥) الرجوع (٦) القوة . (٧) القلب (٨) الضعف (٩) مريضاً (١٠) وجعا . (١١) بضم الهمزة وكسرهما الدخان (١٢) الرياح الحارة (١٣) المجذب .

وكتب في تشبيهه الشوق :

ما الأعرابية حنّت إلى نجد ، وأنّنت من وجد ، بأشدّ منى كلفاً (١) ، وأنتم
منى شغفاً ؛ أنا في شدة الشوق إليك كالعطشان كُشف له عن ماءٍ عذب ،
ومُنِع منه بمنع ؛ شوق لو فُرق على القلوب الخالية لاشتغلت ، ولو قُسم على
الأكباد الباردة لاشتغلت ؛ أنا أشتاقك مع كل صباح طالع ، وضياء شارق ،
ونجم طارق (٢) .

وفي أثر الفراق :

وجدت يتكرر على كُرّ الجديدين (٣) ، ويستغرق ساعات الملوّين (٤) قد تحمات
مع يسير الفرقة عظيم الحرقه ، ومع قليل البعد كثير الوجد ؛ قد انشئتُ بجسم
ناحل وصيرتُ من صبرى على مراحل ، فافترقني (٥) وفترقت جميع صبرى ،
واستصحبته فريقاً من قلبي ؛ فرقت بين عيني والرقاد (٦) وجنبي والمهاد (٧) ،
ما أعولُ إلا على العويل (٨) لو كان يُغنى ، ولا أستنصر غير الوجد لو كان
يُجدي (٩) يدي لا تساعِدني ، وخطي لا يُشبهه في الدقة إلا بدني ، لولا حصانة (١٠)
الأجل لخرجت روحى على عجل ؛ فافترقني ففترقت عني شمل أنس منتظم ، وتمكّن
منى براح شوق مضطرم ؛ فافترقني ففترقت بين الروح والبدن ، وتركتني
والنزاع في قرن (١١) ؛ قد صرتُ حليف وحشة وإن كنتُ ثائياً (١٢) في وطن ،
وقرين كربة وإن كنتُ بين جيرة وسكن :

عيني الدهر يُدنينا ويُدنى دياركم ويجمع ما بيني وبينكمو الشمالا

(١) كلفا مصدر كلف من باب فرح : التغير (٢) الآتى ليلا (٣) الليل والنهار . (٤) الليل والنهار أيضا (٥) أسهرتني (٦) النوم (٧) مكان النوم .
(٨) رفع الصوت بالبكاء (٩) ينفع (١٠) حفظ وهو مصدر .
(١١) قرن وقرن من باب فرح التقى (١٢) مقيما .

فَأَشْكُو تَبَارِيحَ الْغَرَامِ إِلَيْكُمُ وَحَرَّ جَوَى يُبْنِي عِظَامِي وَمَا يَبْنِي

وكتب البسطامي المتوفى سنة ٣٣٢ هـ :

قَلْبِي بِنَارِ الْهَوَى مُعَذَّبٌ شَوْقاً إِلَى حَضْرَةِ الْمُهَذَّبِ
شَوْقاً إِلَى مَاجِدِ كَرِيمٍ يَخْطُرُ لِي ذِكْرُهُ فَأَطْرَبُ

وبعد ، فالعبدُ ينهى من لواقع (٢) شوقه ، وَلَوْ أَفْحَ (٢) تَوَقُّه (٣) إلى شهود
ذاتكم الجميلة ، ومشاهدة صفاتكم الجليلة ، لَيَسْتَشْقَ عَرْفُكُمْ (٤) الفائح ،
وبخور عَرْفُكُمْ (٥) الفائح ، مَدَّ اللَّهُ - سبحانه وتعالى ! - ظلكم ، وَأَدْرَّ وِبلَكم (٦)
وطلَكم (٧) .

أَحِبُّ الْوَعْدَ مِنْكَ وَإِنْ تَمَادَى وَأَقْنَعُ بِالْخِيَالِ إِذَا أَلَمَّا
عَسَى الْأَيَّامُ تَسْمَحَ لِي بِوَصْلِ وَتَأْخُذُ لِي مِنَ الْهَجْرَانِ سِلْمًا
وَالجَنَابُ مِنْذُ طَوَى عَنَا أَبْوَابُ مُلَاقَاتِهِ ، وَزَوَى مِنَّا أَطْيَابَ أَوْقَاتِهِ ،
قبض العبدُ عنان مقالته وخفض لسان حاله :

شَكَوْتُ وَمَا الشُّكْوَى بِمِثْلَى عَادَةٍ وَلَكِنْ تَفِيضُ الْعَيْنِ عِنْدَ امْتِلَانِهَا
فَجَلَسَ الْفِرَاقُ بِعَظِيمِ حِجَابِهِ وَأَلِيمِ عَذَابِهِ ، عَلَى ذِرْوَةِ (٨) عَرْشِهِ ، وَافْتَرَسَ
بِقُوَّةِ بَطْشِهِ ، وَصَارَ لِلْسَّرِّ جَاراً ، وَأَوْقَدَ لِلْحَرْبِ نَاراً جَهَاراً :

طَوْعاً لِقَاضِيٍّ أَتَى فِي حُكْمِهِ عَجَباً أَفْتَى بِسَفْكِ دَمِي فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ
وهذه حالته المفصح عنها مقالته :

إِنَّ الْأُمُورَ إِذَا التَوَتْ وَتَعَقَّدَتْ جَاءَ الْقَضَاءُ مِنَ الْكَرِيمِ فَحَلَّهَا

-
- (١) الرياح . (٢) الريح الحارة . (٣) الشوق الطيب .
(٤) الريح الطيبة . (٥) نبت يقال له التمام طيب الرائحة .
(٦) المطر الكثير . (٧) الندى .
(٨) بضم الذال وكسرهما أعلاه .

فَلَعَلَّ يُسْرًا بَعْدَ عُسْرِ عَلَّهَا وَلَعَلَّ مَنْ عَقَدَ الْعُقُودَ يَحْلُهَا
 فَلَعَلَّ غُرُوسَ التَّمَنَّى قَدْ أَثْمَرَتْ ، وَلِيَالِي الْحُظِّ قَدْ أَقْمَرَتْ :
 سَأَلْتُ أَجَبْتِي مَا كَانَ ذَنْبِي أَجَابُونِي وَأَحْشَانِي تَذُوبُ
 إِذَا كَانَ الْمُحِبُّ قَلِيلَ حُظٍّ فَمَا حَسَنَاتُهُ إِلَّا ذُنُوبُ
 فَرَعَى اللَّهُ أَيَّامًا لَاحِتَ (١) فِيهَا أَقْمَارُ غُرُوزِهَا (٢) ، وَفَاحَتْ فِيهَا أَطْرَازُ
 طُرُوزِهَا ، مِنْ بَهَاءِ سَمَائِهَا ، عَلَى مَنَارِ ضِيَائِهَا ، مِنْ ذَاتِ جَلَالِهَا ، وَصِفَاتِ دَلَالِهَا ،
 فِي جَنَاتٍ عَوَاطِفُهَا وَجَنَاتٍ تَعَاطَفُهَا .

فَإِنْ كُنْتُ لَا أَطْرُقُ (٣) رَحْبَ (٤) فِنَائِكُمْ (٥) ، فَقَدْ أَطْرُقُ بَابَ ثَنَائِكُمْ :
 لَعْنُ غَيْبَتِي عَنْ ذُرَاكَ حَوَادِثُ فَلَيْسَ ثَنَائِي عَنْ فِنَاكَ بِغَائِبِ
 وَكَتَبَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ مُحَمَّدُ بْنُ طَاهِرٍ الْمَتَوْفَى سَنَةَ ٩٣١ هـ :

كُنْتُ - أَعَزَّكَ اللَّهُ - عَنْ ضَمِيرِ انْدِمَاجِ (٦) عَلَى سِرِّ اعْتِقَادِكَ دُرَّهُ ، وَتَبْلِجِ (٧)
 فِي أَفْقٍ وَدَادِكَ بَدْرُهُ ، وَسَالَ عَلَى صَفْحَاتِ ثَنَائِكَ مَسْكُهُ ، وَصَارَ فِي رَاحَتِي
 سَنَائِكَ (٨) مَلَاكُهُ . وَلَمَّا ظَفَرْتَ بِفِلَانٍ حَمَلْتَهُ مِنْ تَحِيَّتِي زَهْرًا جَنِيًّا ، يُؤَافِيكَ
 عَرَفُهُ ذَكِيًّا ، وَيُؤَالِيكَ أُنْسُهُ نَجِيًّا (٩) ، وَيَقْضِي مِنْ حَقِّكَ فَرَضًا مَاتِيًّا (١٠)
 عَلَى أَنَّ شَخْصَ جَلَالِكَ لِي مَائِلٌ (١١) ، وَبَيْنَ ضُلُوعِي نَازِلٌ . لَا يَمْلَهُ خَاطِرُ ،
 وَلَا يَمَسُّهُ عَرَضُ دَائِرِ (١٢) ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ .

وَكَتَبَ أَبُو الْفَضْلِ بْنُ الْعَمِيدِ الْمَتَوْفَى سَنَةَ ٣٦٠ هـ :
 قَدْ قَرُبَ - أَيْدِكَ اللَّهُ - بِحَلِّكَ عَلَى تَرَاحِيهِ . وَتَصَاقَبَ مُسْتَقَرُّكَ عَلَى تَدَائِيهِ ،

(١) ظهرت (٢) مراده ماتخرجه الأغصان من النوار (٣) آتى ليلا
 (٤) المتسع (٥) بكسر الفاء متسع البيت (٦) خفى واستتر (٧) أضاء
 (٨) رفعتك (٩) مناجيا (١٠) آتيا (١١) متمثل (١٢) هالك
 (٤ - جواهر الادب ج ١)

لأنَّ الشوقَ يمثلك ، والذكرُ يُحَيِّلك ، فنحنُ في الظاهرِ على إفتراق ، وفي الباطنِ على تلاقٍ ، وفي النسبةِ مُتباينون ، وفي المعنى متواصلون ، ولئن تفرقت الأشباحُ لقد تعانقت الأرواحُ .

ويكتب بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ :
يعزُّ عليَّ - أطل الله بقاء مولاي - أن يَنُوبَ في خدمته قلمي عن قَدَمي
ويَسْعِدَ برويته رسولي دون وُصُولي ، وَيَرِدَ مشرعة الأُنس به كتابي قبل
ركابي ولكن : ما الحيلة والعوائق جمة !!

وعليَّ أن أسعى وليس عليَّ إدراكُ النجاح
وقد حضرتُ دارَهُ وقبَلْتُ جِدَارَهُ ، وما بي حُبُّ الحيطان ، ولكن شغفًا
بالقُطَّان ، ولا عشقُ الجدران ولكن شوقًا إلى السكان :
أمرُّ على الديارِ ديار سَلَمي أُقبِلُ ذا الجدارِ وذا الجدارِ
وما حُبُّ الديارِ شَغَفَنَ قلبي ولكن حُبُّ من سَكَنَ الديارِ
وحين عدت العَوَادي عنه ، أَمَلَيْتُ ضمير الشوق على لسان القلم ، معذرةً
إلى مولاي على الحقيقة عن تقصير وقع ، وفُتُور في الخدمة عَرَض ، ولكني أقول :
إن يكن تركي لقصدك ذنباً فكُفِّ أن لا أراك عقاباً
وكتب أبو محمد عبد الله البَطْلِيُّ المتوفى سنة ٦٢٧ هـ :

يا سيدى الأعلى ، وعمادى الأسنى ، وحسنة الدهر الحسنى ، الذى
جلَّ قدره وسار مسير الشمس ذكره ، ومن أطل الله بقاءه ، لفضل يعلى
مناره ، وعلم يُحيي آثاره . نحن - أعزك الله - نَتَدَانِي إخلاصاً وإن تناءينا
أشخاصاً ، ويجمعنا الأدبُ ، وإن فرَّقنا النسبُ ، فالأشكال أقاربُ ،
والآدابُ مناسِبُ ، وليس يضر تنائي الأشباح ، إذا تقاربت الأرواح :
نسيبى في رأيي وعلمي ومذهبي وإن باعدتنا في الأصول المناسِبُ

وكتب بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ :

أَرَانِي أَذْكُرُ « مَوْلَايَ » إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ ، أَوْ هَبَّتِ الرِّيحُ ، أَوْ نَجَمَ
النَّجْمُ ، أَوْ لَمَعَ الْبَرْقُ ، أَوْ عَرَضَ الْغَيْثُ ، أَوْ ذُكِرَ اللَّيْثُ ، أَوْ ضَحِكَ
الرَّوْضُ ، وَأَنْتَى (١) لِلشَّمْسِ مُحْيَاهُ (٢) ، وَلِلرِّيحِ رِيَّاهُ (٣) ، وَلِلنَّجْمِ حُلَاهُ
وَعُلَاهُ ، وَلِلْبَرْقِ سَنَاؤُهُ (٤) وَسَنَاهُ (٥) ، وَلِلغَيْثِ نِدَاهُ (٦) وَنَدَاهُ (٧) ،
وَفِي كُلِّ صَالِحَةٍ ذِكْرَاهُ ، وَفِي كُلِّ حَادِثَةٍ أَرَاهُ ، فَمَتَى أَنْسَاهُ ؟ وَاشِدَّةَ شَوْقَاهُ ؟
عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْمَعَنِي وَإِيَّاهُ .

وكتب الشيخ إبراهيم اليازجي المتوفى سنة ١٣٢٤ هـ :

مَا زِلْتُ أُدْفَعُ النَّفْسَ عَمَّا تَتَقَاضَانِي مِنْ شَكْوَى أَشْوَاقِهَا ، وَفِي الشَّكْوَى
شِفَاءٌ ، وَاسْتَنْزَالُ أَثَرٍ مِنْ لَدُنْكَ تَتَعَلَّقُ بِهِ مَسَافَةُ الْبَيْنِ (٨) ، إِلَى أَنْ يُمْنَّ اللَّهُ
بِالْمُلْقَاءِ ، وَمِنْ دُونِ إِجَابَتِهَا مَشَادَةٌ (٩) قَدْ شَغَلَتْ الذَّرْعَ (١٠) ، وَشَوَاغِلُ قَدْ أُفْرِغَ
مِنْ دُونِهَا الْوَسْعُ ؛ إِلَى أَنْ غَلَبَ جَيْشُ الْوَجْدِ عَلَى مَعَاقِلِ الصَّبْرِ ، وَزَاحَمَ مَنَاكِبَ
الْعُدُوِّ حَتَّى ضَرَبَ أَطْنَابَهُ (١١) بَيْنَ الْحِجَابِ (١٢) وَالصَّدْرِ ، فَاتَّخَذَتْ هَذِهِ
الرَّقْعَةُ أَزْجِيهَا (١٣) إِلَيْكَ ، وَفِيهَا مِنْ وَقْرِ (١٤) الشُّوقِ مَا يَنْوُو (١٥) بِرَسُولِهَا ،
وَمِنْ رِقَّةِ الصَّبَابَةِ مَا يَكَادُ يَطِيرُ بِهَا ، أَوْ يَخْلُفُهَا فَيَصَافِحُ الْأَعْتَابَ قَبْلَ وُصُولِهَا
رَاجِيًا لَهَا أَنْ تُتَلَقَّى بِمَا عُهِدَ فِي سَيْدِي مِنَ الطَّلَاقَةِ وَالْبِشْرِ ، وَأَنْ لَا يَضِنَّ (١٦) عَلَيْهَا
بِمَا عَوَّدَنِي مِنْ تَمْهِيدِ الْعَذْرِ ، وَيَصِلَنِي مِنْ بَعْدِهَا بِأَنْبَاءِ (١٧) الطَّيْبَةِ ، عَائِدَةً عَنْهُ
بِمَا يَكُونُ لِلنَّازِلِ قَرَّةً ، وَلِلخَاطِرِ مَسْرَّةً . إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ .

- (١) أَيْ مِنْ أَيْنَ (٢) وَجْهَهُ (٣) رَائِحَةُ طَيِّبَةٍ (٤) الرِّفْعَةُ
(٥) بِالْقَصْرِ الضَّوِّءُ (٦) بَضْمُ النَّوْنِ وَكُسْرُهَا أَشْهَرُ الصَّوْتِ (٧) الْعَطَاءُ
(٨) (٨) الْبَعْدُ (٩) مَشَاغِلُ (١٠) بَسْطُ الْيَدِ (١١) الْحَبْلُ يَشُدُّ بِهِ سَرَادِقُ

الْبَيْتِ .

- (١٢) لَحْمَةُ رَقِيقَةٍ بَيْنَ الْجَنْبَيْنِ (١٣) أَرَفَعَهَا (١٤) بِكُسْرِ الْوَاوِ الْحَمْلُ
الثَّقِيلُ . (١٥) يَثْقُلُ بِهِ (١٦) أَيْ لَا يَبْخُلُ (١٧) أَخْبَارُهُ .

وكتب أيضاً :

وافانى كتابك العزيز - فأهلاً بأكرم رسول : جاء ببيّنات الإخلاص
والوفاء ، مصداقاً لما بين يديه من ذمة الوداد والإخاء ، يتلو على من حديث
الشوق ، ما شهد بصحته سقمى ، وهتف مؤذنه فى مفصل من جسمى ،
ويذكّرني من عهدك ، ما طالما أذكّرنيه البرق إذا لمع ، والبدر إذا طلع ،
والقمرى^(١) إذا سجع ، إنما عدانى عنك : ما أنا فيه من مجاذبة الشواغل ،
ومساورة^(٢) البلابل^(٣) :

وفى القلب ما فى القلب من شجن الهوى تبدلت الحالات وهو مُقيمٌ
وأنا - على ما بى من غلّ البنان^(٤) ، وشغلّ الجّان^(٥) - ما زالت
أنباؤك^(٦) عندى ، لا يخطئنى بريدها ، ولا ينقطع عني ورودها ، أهنئ
النفْس منها بما تتمنى لك من سلامة لا يرث^(٧) لها شعار ، وإقبال
لا يعترضه بإذن الله إدبار .

وقصارى المأمول فى كرمك : أن تُعامِلنى بما سبق لك من جميل الصّلة ،
إلى أن يمنّ الله بالاجتماع ، ويغنى بالعيان عن السماع ، وما ذلك على الله بعزيز .
وكتب أبو العباس الغسانى المتوفى سنة ٤٩٨ هـ :

سرّ إلى مجلس يكاد يسير شوقاً ، ويطير بأجنحة من جواء حتى يحلّ
بين يديك ، فله دُر^(٨) كماله : إن طلعت بدرًا بأعلاه ، وجماله : إن
ظهرت غرة بمُحيّاه ، فهو أفق قد حوى نجومًا نتشوق إلى طلوع بدورها ،
وقطر قد اشتمل على أنهار يتشوق إلى بحرها ، لنستمد منها - إن مننت
بالحضور ، وإلا فياخية السرور .

(١) طير من جنس الحمام يقال لأنشاه قمرية ، وللذكر ساق أحمر .

(٢) ملابسة (٣) الاحزان (٤) الاصابع (٥) القلب

(٦) أخبارك (٧) لايبلى (٨) كلمة تعجب

وكتب الصاحب إسماعيل بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ :

مجلسنا ياسيدى مُتَقَرُّ إِلَيْكَ ، مَعُولٌ فِي شَوْقِهِ عَلَيْكَ ، وَلَقَدْ تَوَرَدَتْ
خُدُودُ بِنَفْسِهِ : وَفَتَقَتْ قَارَةَ (١) نَارِنَجِهِ (٢) ، وَانْطَلَقَتْ أَلْسُنُ الْأَوْتَارِ ،
وَقَامَتْ خُطْبَاءُ الْأَطْيَارِ ، وَهَبَتْ رِيَّاحُ الْأَقْدَاحِ ، وَنَفَقَتْ (٣) سَوَاقُ الْأَنْسِ
وَالْأَفْرَاحِ . وَقَدْ أَبَتْ رَاحَتَهُ أَنْ تَصْفُوَ إِلَّا أَنْ تَتَنَاوَلَهَا يَمْنَاكَ ، وَأَقْسَمَ غَنَاؤُهُ
لَا طِيبَ حَتَّى تَعِيَهُ أَذْنَاكَ ، وَوَجَنَاتُ أُتْرَجِهِ قَدْ احْمَرَّتْ خَجَلًا لِإِبْطَانِكَ ،
وَعَيُونَ نَرَجِسِهِ قَدْ حَدَقَتْ (٤) تَأْمِيلًا لِلْقَائِكَ ، وَنَحْنُ لَغَيْبَتِكَ كَعَقْدِ ذَهَبَتْ
وَاسِطَتُهُ (٥) ، وَشِبَابٌ قَدْ أُخْذَتْ جَدَّتُهُ (٦) ، وَإِذَا غَابَتْ شَمْسُ السَّمَاءِ عَنَّا ،
فَلَا أَنْ تَدْنُو شَمْسُ الْأَرْضِ مِنَّا . فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَحْضُرَ لَتَتَّصِلَ الْوَاسِطَةُ بِالْعَقْدِ ،
وَنَحْصِلُ بِكَ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ . فَكُنْ إِلَيْنَا أَسْرَعَ مِنَ السَّهْمِ فِي مَمَرِهِ ، وَالْمَاءِ إِلَى
مَقَرِّهِ ، لَثَلَا يَخْبِثُ مِنْ يَوْمِي مَا طَابَ ، وَيَعُودُ مِنْ نَوْمِي مَا طَارَ .

وكتب أبو بكر الخوارزمي المتوفى سنة ٣٨٣ هـ :

كِتَابِي : وَأَنَا بِمَا يَبْلُغُنِي مِنْ صَالِحِ أَخْبَارِ «السَّيِّدِ» مُغْتَبِطٌ مُسْرُورٌ ، وَبِمَا
يَعْرِفُهُ الزَّمَانُ وَأَهْلُهُ مِنْ اعْتِضَادِي (٧) بِهِ مَصُونٌ مَوْفُورٌ ، وَاللَّهُ عَلَى الْأَوَّلَى مَحْمُودٌ ،
وَعَلَى الْآخِرَى مُشْكُورٌ ؛ التَّطَفُّلُ وَإِنْ كَانَ مُحْظُورًا فِي غَيْرِ مَوَاطِنِهِ ، فَإِنَّهُ مَبَاحٌ فِي
أَمَّا كُنْهُ وَهُوَ وَإِنْ كَانَ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ يَجْمَعُ عَارًا وَوُزْرًا ، فَإِنَّهُ فِي بَعْضِهَا يَجْمَعُ
فَخْرًا وَذَخْرًا ، وَرَبُّ فَعْلٍ يَصَابُ بِهِ وَقْتُهُ فَيَكُونُ سُنَّةً ، وَهُوَ فِي غَيْرِ وَقْتِهِ بَدْعَةٌ ،
وَقَدْ تَطَفَّلْتُ عَلَى «السَّيِّدِ» هَذِهِ الْأَحْرَفَ ، أَخْطَبُ بِهَا مَوْدَّتَهُ إِلَيْهِ ، وَأَعْرِضُ فِيهَا
مَوْدَّتِي عَلَيْهِ وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَرْسِمَ لِي فِي لِسَانِي وَقَلْبِي رَسْمًا ، وَيَخْتَمَ عَلَيْهِمَا خَتَمًا .

(١) فجأت المسك (٢) تمر معرب باريك (٣) راجت

(٤) تاقَت (٥) الجوهرة التي في وسطه وهي أجوده

(٦) الطريقة (٧) استعانتى

فقد جعلتهما باسمه وقصرتهما على حكمه ، وسأضعهما تحت ختمه ، وبرئت
إليه منهما ، وصرتُ وكيله فيهما ، فهما على غيره حمى (١) لا يُقربُ ،
وبحيرة (٢) لا تحلبُ ولا تتركب . ولما نظرتُ إلى آثار السيد على الأحرار ،
ونُشِرتُ طرازُ محاسنه من أيدي القاصدين والزوّار ، ورأيتُ نفسى غفلاً (٣)
من سِمة (٤) مودته ، وعظلاً (٥) من جمال عِشرته حَسِيتُها من أن يحمى عليها
ورْدُ مورود ، ويحسر (٦) عنها ظلُّ على الجميع ممدود ، وعجبتُ من :
سحاب خطائى جوده (٧) وهو صيب (٨) وبحرُ عدائى سيلُهُ وهو مُفْعَم (٩)
وبدر أضاء الأرض شرقاً وغرباً وموضع رجلٍ منه أسودٌ مُظلم
وكتب الشيخ حمزة فتح الله المتوفى ١٣٣٦ هـ :

مولاي : أَمَّا الشَّوْقُ إلى رويتك فشديدٌ . وسلُ فؤادك عن صديق حميم (١٠)
وودّ صميم (١١) وخلة لا يزيدُها تعاقبُ الملوك (١٢) وتألَّق (١٣) النيرين (١٤) إلا وثوقاً
في العرى ، وإحكاماً في البناء ، ونماءً في الغراس وتشبيهاً في الدعائم (١٥) ولا يظنن
سیدی أن عدم ازديارى (١٦) ساحته الشريفة واجتلائي طلعتة المنيفة لتقاعس (١٧)
أو تقصير ؛ فإن لى في ذلك معذرة اقتضت التأخير . والسيد (أطال الله بقاءه)
أجدز (١٨) من قبل معذرة صديقه وأغضى عن ريث (١٩) استدعته الضرورة .

(وبعدُ) فرجائي من مقامكم السامى أن لا تكون معذرتى هذه عائقاً لكم
عن زيارتى ، فلكم منى طوقتمونها ولكم فيها فضلُ البداءة ! وعلى دوام
الشكران . والسلام .

- (١) محظور (٢) الشاة التى اذا نتجت عشرة ابطن شقوا اذنهما
فكانت حراما لحمها ولبنها وركوبها (٣) من علامة عليها (٤) العلامة
(٥) من لاحت عليها (٦) يكشف (٧) المطر الشديد (٨) ذو المطر (٩) المتلىء
(١٠) القريب الذى يهتم لامره (١١) الخالص (١٢) الليل والنهار
(١٣) اللمعان (١٤) الشمس والقمر (١٥) الأركان
(١٦) زيارتى (١٧) التأخير (١٨) أحق (١٩) البطء

وكتب المرحوم محمد بك دياب المتوفى سنة ١٣٣٩ هـ :

كتابي إليك : وقد طالَ بِي الانتظار ، وشوقى يجعلُ عن الكيف والانعصار
فشخصُك دائم المثل (١) أمام إنسانى (٢) ، وعن سواك من الأَخِلَاءِ أَلْهَانِي
وَأَنْسَانِي . فَلَهِ أَيَّامٌ قَضِينَاهَا ، وَلِيَالٍ مِنَ الدَّهْرِ اخْتَلَسْنَاهَا (٣) ، كَانَ السَّرُورُ
فِيهَا ضَارِباً خِيَامَهُ ، وَالْأُنْسُ نَاشِراً أَعْلَامَهُ - طُوى بِسَاطُهَا ، وَكَانَ الْأَمْرُ مَا كَانَ
غَيْرَ أَنَّهَا زَرَعَتْ بِفَوَادِي شَجَرَةَ الْأَشْجَانِ (٤) ، لَكِنْ عَوْدُهَا حَلِيفُ أَوْبَتِكَ (٥)
وَتَجِدُهَا رَهِينُ إِشَارَتِكَ . فَمَتَى يَقْرُبُ الْمَزَارُ ، وَتَنْجَلِي سُحْبُ الْأَكْدَارِ ؟
فَاضْرِبْ لِعَوْدِكَ أَجْلاً ، فَالْعَوْدُ لَا شَكَّ أَحْمَدُ ، وَاسْكُتْ بِقُرْبِكَ وَصَلاً فَالْوَصْلُ
أَضْمَنُ لِلْعَهْدِ ، وَعَهْدِي مِنْ خُلُقِكَ الْوَفَاءُ ، وَحُسْنُ الْوِلَايَةِ ، فَلَا تَجْعَلْ صَفْقَةً (٦)
شَوْقِي إِلَيْكَ خُسْراً ، بَلْ هَبْنِي بَعْدَ الْعَسْرِ يَسْراً .

وكتب وفاء أفندى محمد المتوفى سنة ١٣١٩ هـ :

أما بعدُ سلامي عليك ، فهذا كتابي إليك ، يُنبئُك (٧) عَنِّي وعن شوقي
وعن وُدِّي . وَلَا أَزِيدُكَ عِلْماً أَنِّي مَا كَتَبْتُهُ مِنْ دَوَائِقِ ، وَلَا أَجْرِيْتُ عَلَيْهِ قَلْماً ،
وَلَكِنَّهَا دُمُوعٌ وَشَوْقٌ سَالَتْ عَلَى الْقُرطَاسِ ، وَجَرَتْ عَلَى حَرَكَاتِ الْخَوَاطِرِ
وَالْأَنْفَاسِ وَهَبَتْ عَلَيْهِ حَرَارَةَ كَبْدِي بِالْأَشْوَاقِ ، وَوَجَدِي بِالْفِرَاقِ ؛ فَبَيْنَمَا هِيَ
عَقِيقَةُ حَمَرَاءُ ، إِذْ صَارَتْ فَحْمَةً سُودَاءَ ! أَلَا وَإِنَّ كِتَابِي هُوَ قَلْبِي وَلِسَانِي . أَمَّا
تَرَاهُ عَلَى رِقَّتِهِ ، وَلُطْفِ عِبَارَتِهِ ، وَصِدْقِ طَوِيلَتِهِ ، بَيْنَ يَدَيْكَ مُقْبِلاً عَلَيْكَ ؟
يَنْشُرُهُ الشَّوْقُ وَيَطْوِيهِ لَا يُخْفِي عَلَيْكَ أَمْرًا وَلَا يَكْتُمُ عَنْكَ سِرًّا ، وَتِلْكَ صِفَاتُ
لِسَانِي وَقَلْبِي مَعَكَ . فَمَا الَّذِي ابْتَغَيْتَهُ بَعْدُ ؟ ! وَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكَ بِالْأَصْغَرَيْنِ (٨)

(١) القيام منتصباً (٢) إنسان عبنى وهو ما يرى فى السواد .

(٣) انتهر فرصتها (٤) الاحزان (٥) رجوعك (٦) أصلها

لعقد البيع (٧) يخبرك (٨) القلب واللسان .

وما أنا إلا بهذين ! نعم أرجو بقاءك ، ممتعاً بنعمائك ، لأكونَ على الدوام محلَّ نظرك . والسلام .

وكتب مؤلف هذا الكتاب :

كتابي لديك ، يصفُ شوقَ إليك ، ولا يخفى عليك ، فمُذ فارقتنِي
فرَّقْت بينَ أنسى ونفسي ، بلُ بينَ رُوحِي وجسمي . ولا تعجَّب إذا كنتُ
أغدو وأروح فالطيرُ يمشي من الألم وهو مذبوح ، وإنني أشكو إليك من ألمِ
الوحشة غراماً لا يشعرُ به إلا من ذاقَ أنسك وعرفَ مقدارَ نفسك وشاهدَ
جمالَ لطفك ، ورأى كمالَ أدبك وظرفك . ولقد أودع الله في شخصك
نوراً لعيني ، وفي حديثك سُوراً لفؤادي ، وفي صفاتك ترويحاً لروحي ،
وفي كرم خُلُقك تفريحاً لنفسي :

وإذا وصفَ الناسُ أشواقَهُمُ فشوق لوجهك لا يوصفُ
فعندى لك من المحبة والشوق ، والتلهُّف والتوق ، مالا يصفه الواصفون
ولا يُعبّر عن حقيقته العارفون :

الشوق فوق الذي أشكو إليك وهلْ تخفى عليك صَبَابِي وأشواقي ؟ !
فيأشوقُ إلى لُقيَاكَ ! ووَاللهي على جَمال مُحيَاكَ ! قَيَّدْتَ أَملي عن سِوَاكَ
وبهرت ناظري بنظرة سَنَاكَ ، وكسرتَ جيشَ قراري ، وتركتني لا أُفرِّقُ
بين ليلي ونهاري :

فؤادي والهوى سِلْمٌ وحربٌ وسُلْواني أقامَ على الحَيَاةِ
وشوقٌ كاملٌ ما فيهِ نقصٌ فلَسْتُ عليه أَطمع في الزِيَادَةِ

فليت شعري ، ماذا أصنع في شوقٍ أنا مدفوعٌ إليه من صادقٍ حي ،
بعواملٍ صادفتُ مني قلباً خالياً ، فتمكّنت بالتعارف ، ولم تدع للسُلْوان سبيلاً ؟
عرَفْتُ هواه قَبْلَ أَنْ أعرَفَ الهوى فصَادَفَ قلباً خالياً فتمكّنا

إي وربى ، إن شوقى إليك شوقُ الظمآن إلى بردِ الشراب ، وحنينى لك
حنينُ الشيخ إلى زمن الشباب ؛ فما الإبلُ وقد حنت إلى أعطانها ، والغرباءُ
وقد أنت إلى أوطانها ، بأعدم منى حنينًا ، ولا أكثر أنينًا .

ولكنَّ التفرُّق طال حتَّى توقَّدَ فى الضُّلوع له حريق
فكلما تخطرُ ببالى ، فى أى وقتٍ من الأوقات ، يمثُلُ لى التذكُّر منك
محاسنَ ولطائفَ ، تجذبني مِيلًا إليك ، وتُطربني شغفًا واغتيابًا بإخائك ،
فلا عجب أن كان شوقى لرؤيتك عظيمًا ، لأنَّه كما قيل « من كرم الرجل
حزينه إلى أوطانه ، وشوقه إلى إخوانه » :

يا خلاص الأسير يا صِحةَ المُدِّ نف يا زورةً على غيرِ وعدٍ
يا نِجاةَ الغريقِ يا فرحةَ الأوَّ بة يا قفلةً أتتْ بعد بُعدٍ
إِرض عني فِدَتَكَ نفسى إني لك عبد أدلُّ من كلِّ عبدٍ
ناشدتُك الله أن ترفُقَ بحالى ، وتعيدَ وصالى ؛ وارِع الودَّ القديم ،
وأبدلْ شقاءَ محبِّك بالنعيم ؛ وأغمد سيفَ ظلماتِ القطيعة المسلول ، وأؤف
بالعهدِ إنَّ العهد كان مسئولًا .

الفصل الثاني : فى التعارف قبل اللقاء

كتب أبو منصور الثعالبي النيسابورى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :

نحن فى الظَّاهرِ على افتراق ، وفى الباطن على تلاق ، نحن نتناجى
بالضمائر ونتخاطبُ بالسرائر ، إذا حصَلَ القُربُ بالإخلاص ، لم يُضر البُعدُ
بالأشخاص ، أنا أناجيكَ بخواطرِ قلبى ، وإن كان قد غاب شخصُك عني ، إن
أخطأتك يدي بالمكاتبة ، ناجاك سرى بالمواصلة ، ربَّ غائبٍ بشخصه حاضرٌ

بخلوص نفسه إن تراخى اللقاء ، فإننا نتلاقى على البعاد ، وتتلاقى (١) نظر العين بالفؤاد .

وكتب أيضاً :

أنا أشتاقك كما تُشتاقُ الجنان ، وإن لم تتقدّم لها العينان ، أنا وإن كنتِ بمن لا يسعدُ ببقائك ، فقد اشتمل على الأنس ببقائك ، والشوق إلى محاسنك التى سارت أخبارها ، ولاحت آثارها . لازالت الأيام تكشف لى من فضلك ، والأخبار تعرض على من عقلك ، ما يشوقنى إليك ، وإن لم أرك ، ويزيدنى رغبةً فى ودك وقد سمعتُ خبرك .

وكتب الشيخ حمزة فتح الله المتوفى سنة ١٣٣٦ هـ :

كما أن شغف (٢) الجنان (٣) بالحسن والإحسان ، تكون داعيته المشاهدة وتسريح الأنظار ، فى مُحيا الكمال ، ومُجلى الجمال ، فترى العين من تلك الغرة ، ما يملؤها قرة ، فكذلك السماع يستدعى هذا الشغف ، فيتأثر الفؤاد بما يُشغف (٤) الأذن ، مما تهديه إليه طرائف (٥) الأخبار ، حتى كأن حاسى السمع والبصر فى ذلك صنوان (٦) ، بل أخوان فى هيكَل هذا الجسمان (٧) .

وقد يعلمُ السيد (أطال الله بقاءه وأدام ارتقاءه) أن ذلك الأمر (أى الشغف بالسمع) ليس بالحديث العهد ، والقريب الجدة (٨) ، بل هو أمرٌ عُرِفَ قديماً أن يهدى السماع إلى سويداء القلب لالعج (٩) الحب سعة (١٠) من الأنبياء (١١) عُرِفَ (١٢) شميم (١٣) فتهيم (١٤) بمجرد استنشاق ذلك الشميم (١٥) حتى يقول الشاعر العربى :

* والأذن تعشقُ قبل العين أحياناً *

- | | | |
|------------|-----------------------------|--------------------|
| (١) تتدارك | (٢) دخول الحب فى غلاف القلب | (٣) القلب |
| (٤) يزين | (٥) المستملحة | (٦) هما فرع النخلة |
| (٧) بالشاء | (٨) الخطوة | (٩) المتردد |
| (١٠) أوقده | (١١) الأخبار | (١٢) الريح الطيبة |
| (١٣) مشموم | (١٤) تذهب | (١٥) المرتفع |

أَجَلْ ! (١) والقُدْرَةُ في هذا المعنى ، والأس (٢) لذلك المَبْنَى ، قوله صلى الله عليه وسلم : « إني لأشْمُ نفسَ (٣) الرَّحْمَنِ مِنْ قِبَلِ الْيَمَنِ » لما أَمَلْتَهُ العِزَّةَ الرَّبَّانِيَّةَ ، والمَلِكُ الرَّوحَانِي ، على قلبه الشَّرِيف من نَبَأ (٤) القرنى (٥) أُويس (٦) ولم يكن رآه بعدُ .

ألا وإن محاسن السيد الأجل ، لما سارت بها الركبان ، وأُنْفَى عليها كلِّ لسان مابين أخلاق أبهى من الرّوض النّضير (٧) ، وأعراق أشهى من عذيب النّمير (٨) قد احتلت من فؤادى ، لا أقول منزلاً رحيباً ، ولا وادياً خصيباً ، بل منزلة شاء (٩) ، ودارة (١٠) علياء ، وأوجاً (١١) بطولها السّعيدة يسعد ، ويلوح بها من ذكرها كلّ حين فرقد (١٢) فلم أنشِب (١٣) أن قدّمت كتابي هذا للمولاي بين يدي اللّقاء علّه أن يسمح به الزّمان ، وتُسفر (١٤) عنه الليالي والأيام لِيَتَاح (١٥) لى رى الفؤاد بما أرويه من حديث زيد الخيل ، الذى سَمَّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد الخير ، وقال له : « ما وُصِفَ لى أحد فرأيتُهُ إلا وجدته دونَ ما وُصِفَ لى سِوَاكَ ، وإن فيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ : الحِلْمُ ، والأَنَاة » . مقتدياً بالإمام « محمود جارِ الله » فى تقديم هذا الحديث الشريف ، على ما أنشده إياه « الشريفُ بن الشجرى » أوّل ما لقيه ، وكان قد تحابّا بالسّماع :

كانت مُساءلةُ الرُّكْبَانِ تخبرنا عن جابر بن رباحٍ أَطيبَ الخَبرِ
حتى اجْتَمَعْنَا فَلَا والله ما سَمِعْتَ أُذنى بأحسنَ مما قد رأى بَصَرى

(١) حرف جواب مثل نعم (٢) الاصل (٣) كناية عن الوحي (٤) الخبر (٥) نسبة الى قرن وهى قبيلة (٦) هو سيد الثّائفين أُويس بن عامر قتل فى واقعة صفين مع على كرم الله وجهه وخبره قوله صلى الله عليه وسلم يأتىكم أُويس بن عامر مع أعداد اليمن من مراد ثم من قرن كان به برص فبرئ منه الا موضع درهم وله والدّة هو بها بار ولو أقسم على الله لآبره (٧) الحسن (٨) الماء الزّاكى (٩) مرتفعة (١٠) دارا (١١) علوا (١٢) النجم (١٣) لم تزل (١٤) تكشف (١٥) يعطى

وكتب حفى بك ناصف المتوفى سنة ١٩١٩ م :

يعلم الله ما عندى من الشوق إلى لقاء السيد ، وإن لم يَرَهُ البصر ، والشوق إلى شهوده ، وإن لم يَكْتَحِلْ بِإِثْمِدِ (١) محاسنه النَّظَرِ وَالشَّغْفُ بِسَمَاعِ الْحَدِيثِ مِنْهُ ، كما سمعته عنه ، فَقَدْ سَبَقَتْ ذِكْرِي محاسنه إلى السمع ، ووصل خبرُ لطائفه إلى النَّفْسِ (وما المرءُ إِلَّا ذِكْرُهُ وَمآثره) وَحَسَدَتِ الْعَيْنُ عَلَيْهِ الْأُذُنَ ، وَوَدَّتْ لو أَنَّهَا السَّابِقَةُ إِلَى اجْتِلَاءِ رِقَائِقِهِ ، وشهود حقائقه .

* فَللْعَيْنِ عَشْقٌ مِثْلُ مَا يَعَشْقُ السَّمْعُ *

لا جَرَمَ أَنَّ ما تعارف من الأرواح ائْتَلَفَ ، وما تناكر منها كما قيل ائْتَلَفَ ، ونحن - وإن بَعُدَتْ بَيْنَنَا الشَّقَّةُ (٢) ، ولم يسبق لنا بِاللُّقْمَاءِ عَهْد - فَلُحْمَةُ (٣) الْأَدَبِ تَجْمَعُنَا ، ووحدة الوجهة تَضْمُنُنَا ، وَلُحْمَةُ الْأَدَبِ أَقْوَى مِنْ لُحْمَةِ النِّسَبِ ، وجامعة الوجهة فوق اجتماع الوجوه ؛ وقد رأيت أَنَّ أَرْدَلَفَ (٤) إِلَيْكَ بِالْمَكَاتِبَةِ ، وَأَتَوَسَّلُ إِلَى شَرَفِ التَّعَرُّفِ بِالْمُرَاسَلَةِ ، حتى لم يبق فى الصَّبْرِ عَلَى الْإِفْتِرَاقِ مَسْكَةٌ (٥) . ولجى الجسم دَعْوَةَ الرُّوحِ ، فاندفع إلى الاجتماع ، أَكُونُ قد مَهَّدْتُ لَهُ سَبِيلًا ، ووطأت (٦) له طريقًا ، فلا تبهرنى (٧) فرحة اللقيا ، ولا يغرنى (٨) طَرَبُ الظَّفَرِ « فمن فرح النَّفْسِ ما يقتلُ ، ومن نشوة (٩) الرِّاحِ (١٠) ما يزهِقُ الأرواحَ » .

فإن رأى السيد أَنَّ يَكَاتِبَ عبده ، ويعتقه من رِقِّ الفِرْقَةِ ، عَجَّلَ بِجَوَابِ هَذَا الْكِتَابِ ، ليعلم العبد أَنَّ نَمِيقَتَهُ صَادَفَتْ (١١) قَبُولًا ، وَأَنَّ وَسِيلَتَهُ اتَّخَذَتْ

(١) كحل بالحجاز (٢) بالضم والكسر الناحية (٣) قرأته (٤) أتقرب (٥) قوة أو عقد (٦) بالتخفيف والتشديد هيات (٧) لانقلبنى (٨) لا يعلونى (٩) بفتح النون وكسرهما السكر (١٠) الخمر (١١) وجدت .

إلى سَيِّده سَبِيلاً ، قَرَّبَ الله زمنَ اللِّقاءِ وَقَصَّرَ أمدَ النَّوى (١) ، حتَّى أُشِيدَ
فى الختام :

تطابقَ الخَبْرُ فى عليك والخَبْرُ وصدقَ السَّمْعُ فى أوَصافِكَ البَصْرُ

وكتب أحمد أفندى سمير المتوفى سنة ١٣٢٩ هـ :

يعلم سيِّدى أن المودة لا تُباع ولا تُشترى ، وإنما هى نتيجة الاجتماع والتعارف ،
وقد خُلِقَ الإنسان مضطراً إليهما ، لأن انتظام العمران عليهما موقوف ، ولهذا
شهد العيان بأنَّ المنفرد بأعماله المستبد بآرائه ، عرضة للخطأ ، مظنة لعدم
الثقة ، بخلاف ما إذا كان الاشتراك فى الفكر قاعدة للعمل فلا بد أن
الصواب يتمحّضُ منه ، لضعف التفرد وقوَّة الاجتماع ، إذ لا جرم أن المرّة
كما قيل : « قليل بنفسه كثير بإخوانه » .

وقد سمعت عن السيد ، وقرأت من آثاره الماثورة ماحبَّه إلى ، وشافنى
للتعرُّف به ، لنشترك فى منفعة تبادل الأفكار ، فإنى لا أكتفى بمجرد السماع
ولا أقول : « إن الأذن تعشق قبل العين » فإنما هى جارحة صغيرة - ولكن
كلِّ مَيَّالٍ إليه ، محب لاستجلاء مَرَّآه ، عالم أنى إذا دخلت إلى مودَّته
من باب التلاقي ، لا أجد دهرى .

يصرّب مِنِّى كل شخصٍ كرهته ويبعد عَنِّى من إِلَيْهِ أَمِيلُ
فإن لم يتيسر أن يروانى أو أراه ، فليسعدنى ببضعة أسطرٍ تضمن لى رضاه
عن هذه المعرفة الترسُّليَّة ؛ لنتراءى بأعينِ الطروس (٢) ، قبل أعينِ الرؤوس ،
ونتجاذب أحاديثَ المراسلة . إن عَزَّتْ المقابلة . وقد وقفت عليه خالص
وُدِّى ، واختَرْتُه من بين رجال العصر ، سعيًّا لكسب المعالى بمعرفته ، فكلُّ

امرى بما كَسَبَ رهين (١) ، وَأَنْ لَيْسَ لِلانسان إِلَّا ما سَعَى .

عن المرء لا تسألْ وَنَمَلْ عن قَرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى

وكتب الشيخ أحمد مفتاح المتوفى سنة ١٣٢٩ هـ :

لم أَكُنْ فيما أَكتبه لك إِلَّا سارياً فى ليل التعارف على ضياءِ خِلَالِكَ (٢) ،
التي أَمَلّاها عَلَى لسان المدح ، الذى شَرَّقَ وَغَرَّبَ ، وطبق الأرض صيته ؛
وَإِنى وَإِنْ لَمْ أَكُنْ أُسْعِدْتُ من قبل باجتلاء طلعتك الزاهرة ، واجتناء مُفَاكِهِتِكَ
الغضة (٣) ، فقد دَلِنى على الليث زئيرُهُ (٤) وعلى البحر خَريره (٥) ، وعلى
العقل أثره ، وعلى السيف أثره (٦) وَلَئِنْ لَمْ تَجْمَعْنَا لُحْمَةَ (٧) النسب ، فقد
جَمَعْنَا حَرْفَةَ الأَدب ، أَوْ لَمْ يَضْمَنَا قَبْلُ مَصِيفٌ وَمُرْتَبِعٌ ، فالطيور على
أَشْكَالِها تقع . وشبه الشئ مُنْجَذِبٌ إِلَيْهِ ، وَأَخُو الفضائل هُوَ المَعُولُ عليه .

وهذه الرُّقعة وَإِنْ وَصَفْتَ لك بعض ما أَنَا مَطْوِيٌّ عليه من التهافتِ على
رُؤْيَيْتِكَ ، والميل إلى صداقتك ؛ فَقَلِّمًا تَنْوِبُ عن المشافهة ، أَوْ تَقْضِي حاجات
فى النَّفْسِ طالما تَرَدَّدَ صداها ، وفى ظَنِّى أَنَّ (سيدى) يودُّ ما أودُّه ، وعما
قليل يُسْفر صبح اللقاء ، ونتجاذبُ أَهداب المعرفة ، وَأَرى من (سيدى)
فَوْقَ ما تَوَسَّمْتَهُ وسمعتَه ، ويرى منى ما يرضيه . والسلام .

وكتب الشيخ طه محمود المتوفى سنة ١٣٢٥ هـ :

أيها (السيد) العزيز الجنب ، العزيز الآداب :

قد علمت - ولا أَزِيدُكَ علماً ، زادك الله ولا نقصك - أَنَّ الإنسان كما
اشتق اسمه من الأُنْس ، كذلك جُبِلَ عليه مسماه ، وَأَنَّ المجتمع الإنسانى عقد

(١) مرهون (٢) مصادقتك وإخائك (٣) اللينة (٤) صوته
(٥) صوته أيضاً (٦) جوهره (٧) القرابة

يتخلى به صدر الزمان ، نظامه متآلف ، ووساطته (١) التعارف ، فهذان الأمران هما قطب المدار فى هذه الدار ، لهذا العالم ، من لدن آدم ، وليس إلا بهما يحسن الحال وينعم البال ، وتدر ضرور المنافع ، وتتفجر عيون القوائد ، ومن ثم كان أوفر الناس حظا من مغنم الإنسانية ، من يآلف ويؤلف ، ولا خير فيمن لا . . . ولا ، وناهيك بخلق امتن الله به على عباده ، إذ قال عز من قائل : « وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا » .

ذلك - أيها السيد - هو الذى بعنى أن أكتب إليك ، أستفتح باب مودتك بمفتاح الترسل وأستصبح فى سبيل صحبتك بمصباح التوسل ، لا أبالى بما ينسب إلىّ ويُنْتَقَمُ علىّ ، ممن عسى أن يقول : مالك ولهذا الفضول ! وكيف تتطفل على مادية أدبية لم تدع إليها !! وهل هذا منك إلا أشبهه بالتبرج (٢) لغير خاطب ؟

أيها المنتقد : هون عليك ما تجد ، فلو علمت أن ظل الآداب شامل ، ودعوة المودة الجفلى (٣) لايزاد (٤) عنها وأغل (٥) ، لأسرعت معى إلى الوغول (٦) ، ولم تر فى التودد إلى أهل الفضل من فضول . وأى عيب على النكرة فى التحلى بحلية المعرفة ؟ ومصاحبة الأعلام ؟ ! أما سمعت قول القائل :

بُصْحَبَتِكَ الْكَرَامُ تَعْدُ مِنْهُمْ وَتَأْمَنُ مِنْ مُلَمَّاتِ الزَّمَانِ !

وكيف أضع نفسى بحيث يقول الأول :

دع المكارم لا ترحل لبُعَيْتِهَا (٧) واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى !
وشتان ما بين الرجلين : رجل يهوى المكارم وبنيتها ، ويبتغى المناقب

(١) الجوهرة التى فى وسط العقد وهى أجوده (٢) إظهار المرأة زينتها للرجال (٣) العمامة للجماعة (٤) لايطرد (٥) المتطفل (٦) التطفل (٨) بكسر الباء وبضمها الحاجة .

وذويها ، ويَقِفُ نفسه على مسألة يعلمها . وفضيلة يتحلى بها ، وآخر يبذل وجهه المصون ، فى ملءِ الحقائق (١) والبطون !

هذا : وقد رجوت أن أكون الرجل الأول بصحبتك - أيها السيد - فكم رَوَى لنا من أحاديث فضائلك الصراح ، وتلى علينا من آيات فضائلك الحسان ، ما (٢) أشخص إليك القلوب قبل قوالبها ، وأوفد عليك الأرواح قبل أشباحها ، وأعجلنى أن أكتب إليك بهذا الرقيم ، ألتمس بالتعرف إلى جنابك الكريم ، ما التمس الكليم من صحبة ذى الوجه النضر (٣) ، أبى العباس الخضر . وإني وإن كنت والحمد لله ممن آمنوا بالغيب ، وليس عندى فى صدق هذه الآيات مزية (٤) ولا ريب ، بَيَدَ (٥) أن للصحبة فضلاً لا ينكر ، وللمؤاخاة مزية لا يمارى (٦) فيها اثنان .

فإذا ورد على السيد كتابى هذا : وانشرح صدره - شرح الله صدره - إلى إجابة سؤلى ، وارتاحت نفسه إلى اصطناعى ، كتب إلى عبده بما يكون آية جليلة على ارتياعه ؛ لتحقيق هذه الأمنية .

حتى أقولَ لوجهِ آمالى ابتهج لأوليئِكَ قِبَلَةً تَرْضَاهَا
وكتب المرحوم محمود بك أبو النصر المتوفى سنة ١٩٣٠ م :
إنسان العين . وعَيْنُ الإنسان :

المودة - وصل الله بأجفان الأشواق أهدابها ، وفتح لنا أبوابها - أمر عزيز المرتقى ، على من يصطفى صديقه ، ويرعى حقوقه . وإني اصطفتك على الناس برسالتى هذه ، وعهدى بكرم سجايك أن تصافحها براحة القبول ، وتتخذها فاتحة ودٍّ طارت به إليك رياح فضلك بعد ما مَثَلَتْ آياته لك فى القلوب معنى ظهرت فى مرآة الأعين صورته .

(١) الزكاتب (٢) ما : فاعل روى (٣) الحسن (٤) شك (٥) غير (٦) لا يختلف

فَإِنْ أَبَيْتَ وَدَادِي غَيْرَ مَكْتَرٍ فَعَنْكَ مَا دُمْتُ حَيًّا لَا أَرَى بَدَلًا
وحاشاك عن مثل ذلك الإباء ، ونحن وإن لم تحظ. أشباحنا باللقاء ،
فأرواحنا من قبل جنود ، وأعیننا شهود ، فإن أنت منحتني ولاء خالصاً ،
وإخاء صادقاً ، (وإلا فهبني امرأة هالكاً) ولا إخالك ترضاه ، وإن كنت
المتطفل على مائدة مودتك ، فلي نفس أديب لا ترى العز إلا في الترامي على
ذرى الكمال ، لا زلت على مرقى الجلال ، والسلام .

وكتب الفاضل السيد محمد البلاوى :

سَيِّدِي : إِنَّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ وَمَعَالِيَ الْهِمَمِ مِمَّا تَسْتَرْقُّ الْقُلُوبَ ، وَتَسْرِقُ
العقول ، وتمتلك الأرواح ، وَإِنْ لَمْ تَتَلَقَ الْأَشْبَاحُ ، فَإِنِّي مُذْ سَرَى إِلَى النِّسَمِ
بِأَخْلَاقِكُمُ الْغَرَاءِ ، وَابْتَسَمَ لِي ثَغْرُ هَذَا الْعَصْرِ عَنْ آثَارِكُمُ الزَّهْرَاءِ ، وَتَوَاتَرَتْ
الْأَخْبَارُ بِحُبِّكُمْ لِلْفَضْلِ وَأَهْلِهِ ، وَارْتِيَا حُكْمُ الْعِلْمِ وَذَوِيهِ ، وَأَنَا مَشْغُوفُ الْفُؤَادِ
بِالتَّعَرُّفِ بِسَيَادَتِكُمْ ، مَشْغُولُ الْبَالِ بِالتَّوَسُّلِ إِلَى رِيَاضِ مَوْدَتِكُمْ . وَلِيَعْلَمَى أَنَّ
لِلصَّدَاقَةِ حَقُوقًا ، وَلِلْمُصَاحَبَةِ شُرُوطًا ، رَبَّمَا صُعِبَتْ عَلَى مَنْ حَاوَلَهَا ، وَعَزَّتْ عَلَى
مَنْ أَرَادَ الْوَفَاءَ بِهَا ، كُنْتُ أَرَى الْوَحْدَةَ لِي أَوْلَى ، وَالْانْفِرَادَ بِي أَسْلَمَ ، وَلَكِنْ
مَا زَالَتْ تَنْمِي (١) إِلَى أَحَاسِنُ شَمَائِلِكُمُ الْمَشْرِفَةِ ، وَتَتَوَارَدُ عَلَى مَسَامِعِي مُحَاسِنُ
سِيرَتِكُمُ الْمُطَهَّرَةِ ، فَيَنْمُو الْوَجْدُ وَيَزْدَادُ الشُّوقُ «وَالْأُذُنُ تَعَشِقُ قَبْلَ الْعَيْنِ
أَحْيَانًا» وَمَا كُنْتُ أَجِدُ سَبِيلًا لِلتَّعَرُّفِ وَلَا سَبِيلًا لِلتَّوَدُّدِ ، وَلَا تَجَسَّرُ نَفْسِي عَلَى
الْمُرَاسَلَةِ ابْتِدَاءً ، إِلَى أَنَّ رَأَيْتُ سَيِّدِي قَدْ أَهْتَمَّ لِلْأَدَبِ فَأَعْلَى مَنَارِهِ ، وَنَظَرَ
لِلْإِنْشَاءِ فَرَفَعَ مَقْدَارَهُ ، وَنَصَرَ دَوْلَتَهُ وَأَحْيَا صَوْلَتَهُ ، وَأَعَادَ شَبَابَهُ ، وَفَتَحَ لِأَدْبَاءِ
هَذَا الْعَصْرِ بَابَهُ ، فَعَلِمْتُ أَنَّ الدَّهْرَ قَدْ سَاعَدَنِي ، وَالْفُرْصَةَ قَدْ أَمَكَّنَتْنِي مِنْ مُصَافَحَةِ
مَا أَمَلْتُ وَمُصَافَاةِ مَا أَرَدْتُ ، مِنْ اجْتِنَاءِ ثَمَارِ مَوْدَةِ سَيِّدِي ، وَالتَّعَرُّفِ بِهِ

والتمسكُ بأهداب فضائله والتزوُّد من آدابه ، فإنَّ الأدبَ أحسنُ ما يُستَصْبَحُ
بأنوارِهِ (١) ، وأشرف ما يُتَسَابَقُ لاقتطافِ أثمارِهِ (٢) ويُحَمَّدُ التطفُّلُ على
موائده ، ويُمَدِّحُ التنافسُ فى التِّقَاطِ فوائده ، فجعلت طلبَ الانتظامِ فى
سلك أرباب الأقلام وسيلةً لورودِ عَذْبِ وداده ، ونمير (٣) التعرفِ به ، فإن
رأى سيدى أن يعُدَّ نفسَ حرِّ فى عِدَادِ معارفه ، ويُقَابِلَ رسالتهُ بما اشتهرَ من
لطفائِهِ حتى تتمتع بالروية الأبصارُ ، كما تمتعت المِسامعُ بطيبِ الأخبارِ ،
كنت مُدِيمَ الشكر لأفضالِهِ ، مُستمرَّ الثناء على كماله .

وكتب الشيخ عبد الكريم سلمان المتوفى سنة ١٣٣٦ هـ :

أما بعد - فهذه رسالة أكتبُها إلى من لم تكنْ لى به جامعة جسيمة ، ولم
تضمنى وإياهُ حفلةُ تعارف شخصية ، وهى وإن كانت فى عُرْفٍ غيرى تعدُّ
هُجُوءاً ، أو تُحَسِّسُ فضولاً ، إلا أنى أعتقِدُ أنها أوفدتْ على كريم يُكرم وفادتها
ويتقبَّلُ ما تهديه إليه من زعيم تحية وجيل إجلال ، ويجتلى من خلالها إرادة
وُدٍّ ، ورجاءٍ ولأى وبُغْيَةٍ فضل ورغبة فى إخاء ، فيُحلها منه محلَّ القبولِ ويدراً (٤)
عنها وصمة (٥) الفضول . إنَّ لسيدى آثاراً شاهدناها ، فاستفدناها ، وما أثر
سمعناها ، فرويناها أو تناقلناها ، ولا مِرية (٦) فى أن ما غابَ عنا منها أكثرُ مما
وعينا ، وأوفى مما سمعنا ، ونحنُ - والله يعلم - طلابُ كمالٍ ، ومنتجعو أفضالٍ (٧)
ورؤود (٨) ما خصب من فيجاء العلوم . وقد توسَّمتنا (٩) فى السيد - أطال الله
بقاءه - طلبتنا ، ووجدنا لديه ضالتنا ، فحثنا إلى رحابه مطيَّة المكاتبه ، ولنا
أملٌ كبيرٌ فى نوال المأمولِ ، لعله يعنِّح (١٠) إلى مُقابلة المثل بالمثلِ ، فيكتب

(١) أضوائه (٢) أزهاره (٣) الزاكى (٤) يدفع (٥) العار

(٦) بضم الميم وكسرهما الشك (٧) طالبو معروف (٨) طالبون له

(٩) تفرسنا (١٠) بتثليث النون : يميل

لأخيه بعض كَلِمَاتٍ . يعرف منها أنه قَبِلَ الإِخاءَ . ومال إلى مقتضى طبعه من الوفاء . ولا أظن ذلك إلا وقد كان أقرب ما يكون من الزمان . فإنَّ الأرواح ما تعارف منها ائتلف . كما برهنه الأصحاب في معاشراتهم خلفاً عن خلف .

وكتب مؤلف هذا الكتاب :

لقد سَمِعْنَا بأوصافٍ لكم كَمِلَتْ فسرنا ما سَمِعْنَاهُ وأحيانا
من قبل رؤيتكم نِلْنَا محبتكم (والأذنُ تعشقُ قبل العين أحيانا)

سیدی ومولای :

لقد بلغني عنك في وفائك وفضلك ، ما يدعوني لخطب ودك ، ويرغبني في إichائك ، ويحببني في التوصل إلى معرفة جنابك ؛ وإن لم تجمعنا جامعة شخصية ولم تضمنا حفلة تعارف ذاتية . إلا أن أحاديث فضائلك الصالح ، أوفدت عليك الأرواح قبل الأشباح ، والولاء والإخلاص قبل الأجسام والأشخاص . ولا غرابة في ذلك ، فإن من سنة الله في خلقه : أن يؤلفَ بينَ الأرواح وأمثالها ، وإنَّ لله ملائكة يسوقون الأشكال إلى أشكالها ؛ وشبه الشيء مُنجذبٌ إليه ، وأخو الفضائل هو المعول عليه .

إنَّ القلوبَ لأجنادٌ مُجَنَّدَةٌ لله في الأرض بالآهواء تعترفُ
فما تعارفَ منها فهو مُؤْتَلَفٌ وما تناكرَ منها فهو مُخْتَلَفٌ
فلذا اصطفتيك لنفسى ، واخترتك لمودتى وأنسى . نتجأ بالضمائر ، ونتخاطب بالسرائر . وإن بُعدنا في الظاهر قُربٌ غائبٌ بنفسه . حاضرٌ بخلوص نفسه .

فإنَّ أبیتَ ودادى غيرَ مكترثٍ فعنكَ ما دُمْتَ حياً لا أرى بدلاً
وحاشاك عن مثل هذا الإباء ، والهجرِ والجفاء .

لكلِّ امرئٍ شكلٌ من الناسِ وكلُّ امرئٍ يَهْوَى إلى من يشاكله
ناشدتك الله أن تقبلَ مِنِّى الإخاءَ ، وتضمنَ لى الوفاءَ ؛ وأنا أَرْضَى بك
من الدنيا نصيباً ، وأختارك من العالمين حبيباً .

الفصل الثالث : فى رسائل الهدايا

وكتب سعيد بن حميد المتوفى سنة ١٠٥هـ يوم النيروز إلى بعض أهل السلطان :
أيها الشريف :

عشت أطول الأعمار بزيادة من العمر ، مَوْضُوعَةٍ بفرائضها من الشكر .
لا ينقضى حق نِعْمَةٍ حتى يجددَ لك أخرى ، ولا يمر بك يوم إلا كان مُقَصِّراً
عماً بعده ، موفياً عما قبله .

إني تصفحت أحوال الأتباع الذين يجب عليهم الهدايا إلى السادة ، والتمست
الناسى بهم فى الإهداء - وإن قصرتُ بى الحال عن الواجب - فوجدت
أنى إن أهديت نفسى فهى ملكٌ لك . لاحظ. فيها لغيرك . ورميت بطرقى
إلى كرائم مالى . فوجدتها منك . فإن كنتُ أهديتُ منها شيئاً . فإنى لمهدٍ
مالك إليك . ونزعتُ إلى مودتى . فوجدتها خالصةً لك قديمةً غير مُستحدثة .
فرأيت إن جعلتها هديتى . أنى لم أجدد لهذا اليوم الجديد براً ولطفاً .
ولم أُمِيزَ منزلة من شكرى بمنزلة من نعمتك . إلا كان الشكر مُقَصِّراً
عن الحق . والنعمة زائدة على ما تبلغه الطاقة . فجعلتُ الاعتراف بالتقصير
عن حقلك . هدية إليك . والإقرار بالتقصير عما يجبُ لك . براً أتوسلُ به
إليك . وقلت فى ذلك :

إن أهد مالا فهو واهبه وهو الحقيق عليه بالشكر
أو أهد شكرى فهو مُرتَهَنٌ بجميل فعلك آخر الدهر

والشمس تستغنى إذا طلعت أن تستضىءِ بِسُنَّةِ (١) الدهر

وكتب حنفى بك ناصف المتوفى سنة ١٣٣٧ هـ - ١٩١٩ م :

الهدية فى نظر الأصفياء جليلة ، وإن كانت فى نفسها قليلة ، ومكانتها خطيرة وإن كانت يسيرة ، وسنة حسنة اجتمعت على فضلها الألسنة .

مَضَتْ الدُّهُورُ وَأَمْرُهَا مُسْتَحْسَنٌ وتعاقت بمديحها الأيام

اللَّهُمَّ إِلَّا إِنْ لَبَسْتَ جَلْبَابَ (٢) الرياء ، وَوَلَجْتَ (٣) أبواب الارتشاء ، ولا مِرَاءَ (٤) إِنْ الْأَوْدَاءُ مِنْ ذَلِكَ بَرَاءُ .

وما زالت الهدية شعار الأصدقاء ، وعنوان تذكار الولاء ، وكم جددت بين الأصحاب عهدو التحاب .

وتعهدت وُدًا فعادَ شَتِيَّتُهُ وَلَشَمْلِهِ بعد البَدَادِ (٥) نظامٌ

قد وصلتنى يدُ العصا فحبذا الإهداء ، وأهلاً بتلك اليد البيضاء ، وليست هذه أولُ أياديك على ، ولا أكبر عارِفَةٍ جاءت من ناديك إلى ، أمنت بها النوبَ (٦) واعتضدت بها (٧) على تفريق شمل الكُرب .

فإذا طغا (٨) بحر الهموم ضربته بعصاى فاجتازت (٩) به الأقدام

تنفلق بها الأيام صخور ، فتنبجس (١٠) منها عيونُ السُّرُورِ ، وتلقف ما يصنع الأعداء ، فتذهبُ البَغْضَاءُ ، وإذا اشتدَّ هَجِيرُ (١١) الوحشة ، نشرتُ زلال أنسها ، أو عصى فرعونُ الدهرَ ، راعته (١٢) بِبِاسِهَا (١٣) .

(١) الوجه (٢) القميص (٣) دخلت (٤) جدال (٥) التفريق

(٦) جمع نائبة : مصيبة (٧) استعنت (٨) علا (٩) سلكت

(١٠) تنفجر (١١) حرها (١٢) أرعجته (١٣) بشدتها

فكأنما أوصى الكلم (١) لنا بها حتى يرى آياته الأقوام
وقد فكرتُ ماذا أقبلُ به طُرفتك (٢) ، وأتلقى به تحفتك ، إلى أن هدانى
الله أن يد المنعم إنما تقابل بالآفواه ، ليعزز القبول بالقبل ، ويؤدى الرسم
باللثم ، فأرسلت لك فم سيجارة . وجعلته لهذا المعنى إشارة ، وقلت :

مولاي كم فاضت يمينك بالندى (٣) حتى غدوت غريق بحر الأنعم
والشكر أوجب أن أقبل راحها فكنت عن هذا بإهداء الفم
وقد علمت أن المنظر البهيج ، يتم بالتدبيج (٤) ، فاخترت أن يكون
مبدؤه كالليل إذا عسعس (٥) ، ومُنتهاه كالصبح إذا تنفس (٦) . إيداناً (٧)
بزوال الشرور بالسرور ، ورمزاً إلى الخروج من الظلمات إلى النور.

وكتب المرحوم محمود بك أبو النصر :

يا أيها المولى الذى عمت أياديهِ الجميله
أقبلْ هدية من يرى فى حقك الدنيا قليله
غرة وجه السعود وقره عين الوجود - الأمير الجليل .

يا جليل الفضائل - إليك توجه الآمال ، ويا جميل الشئال بساحتك تحط.
الرحال، تلك هى الساحة الفيحاء (٨) ، والشئمة (٩) الحسناء ، والهمة العليا ، واليد
البيضاء ، والأعمال التى تُضرب بها الأمثال ، كم من نعم أسديتها (١٠) ، ومكارم
أوليتها وعلوم أحيتها ، فأنت المصدر والمورد ، والمقصد والموعِد ، إليك أقدمُ
تلك الهدية المرضية ، وأرفعُ ذلك الكتاب المُستطاب ، مشفعاً فى قبوله كرم
سجايك ، وعظمَ مزايك ؛ وإن كنت أعلم أن مقامك العلى ، يجل عن أن يرفع
إليه مثله ، فقد عرفناك متواضعاً فى علاك ، قريباً مع اعتلاك .

(١) سيدنا موسى عليه السلام (٢) احسانك (٣) العطاء
(٤) التزين (٥) أقبل بظلامه (٦) أضاء (٧) اعلاما (٨) الواسعة
(٩) الخلق (١٠) أعطيتها

دَنُوتَ تَوَاضِعاً وَعَلَوْتَ مَجْداً فَشَأْنَاكَ انْخِفَاضُ وَارْتِفَاعُ

كَذَاكَ الشَّمْسُ يَبْعُدُ أَنَّ تُسَامَى وَيَدْنُو الضُّوءُ مِنْهَا وَالشُّعَاعُ (١)

وحاشاك أن أهدي للقمر نوراً ، أو للشمس ضياءً ، أو أبعث ببنية القطر (٢) إلى ذلك البحر ؛ ولكننى أحببتُ أن يحظى بلثم بنانك (٣) ، وينال من كرمك وإحسانك . وقد عهدناك تهزُّ للمكارم اهتزاز الصارم (٤) ، وترتاح لإسداء الجميل كما يرتاح للكریم النزيلُ ، وللشفاء العليل ، وما هو إلا من نور فكرك مقتبس (٥) فعساه يحظى بالقبول ، فأبلغ غاية المأمول ، والسلام .

وكتب الأستاذ عبد الله بك الأنصارى المتوفى سنة ١٩٣٢ م :

المولى - أدام الله وجوده ممتعاً بهدايا الأيام ، وتحف الأعوام - طالما أوفدَ (٦) من الرِّفْدِ (٧) إلى ، ووجه من الخيرات ما أفعمَ (٨) يدي ، حتى أصبحت - وله الفضل والمنّة - أجرُ ذيول النعماء (٩) على غبراء (١٠) البأساء (١١) وأجتلى معارف (١٢) السَّراء بعوارفه البيضاء ، التى لا يُوازِيها ثناءٌ وحمد ، ولا يوازنها عطاءٌ ورِفْد ، ولا يطاولها سماءٌ وبحر ، ولا يُغالبها بؤس وفقر . وإن لى من آلاء (١٣) السيد - حفظه الله وأدام علاه - ما أينعَ وأزهر وأورق وأثمر حدائق قامت لشكره عيدانها وسجدت لفضله أغصانها ، وترنمت طرباً وتمايلت عجباً ، بنفحات هى عَرْفُهُ (١٤) ، وبركات هى عُرْفُهُ . ولّى أمل فى جنابه ، وأنا سليل (١٥) نعمته ، وعهدى بأخلاقه وأبا ابن مودته ، أن يمنَّ بقبول ما أهديته ؛ وهو من نفسه ، وثمره غرسه (باكورة تُفّاح) يرفعها إجلال وإعظام .

(١) تفاخر (٢) المطر (٣) الاصابع (٤) السيف القاطع (٥) مأخوذ (٦) أرسل (٧) العطاء والصلة (٨) ملأها (٩) بالفتح النعمة (١٠) الأرض (١١) الداهية (١٢) انظر إليها بجلوة (١٣) نعم (١٤) بالفتح الريح الطيبة (١٥) ابن نعمته

وكتب الشيخ أحمد مفتاح المتوفى سنة ١٣٢٩ هـ :

الهدية - غمرك الله بالمعروف - تَبَسُّطُ. يد المودة ، وتَدْرُّ بها أَخلاف (١)
القرب وتغرس بين المتحابين من الائتلاف ، بقدر ما تقطع بينهما من شجر
الخلاف ، وما أَنَا فيما أهديه إِلَيْكَ إِلَّا كَمَسْتَبْضِع (٢) تمرّاً إِلَى أَرْضِ خَيْبَرَ (٣) ،
أَوْ كَالوَاهِبِ الْمَاءِ لِلْبَحْرِ ، والضوء للبدر ، والملك لسليمان (٤) ، والمال لقارون (٥)
والحلم لأحنف (٦) والذكاء لإياس (٧) ، والتفسير لابن عباس (٨) ؛ وما ذاك إِلَّا
كتاب كما تراه ضربَ فى الإحكام بسهم ، ووعى من الأحكام ، ما خلت
منه مُفَعَمَاتُ (٩) الأسفار (١٠) ، وموجزات الرسائل ، فهو كما قيل : « كل
الصَّيد فى جَوْفِ الْفَرَا » (١١) .

تزيينُ معانيه ألفاظه وألفاظه زائنات المعانى

على أَنى وَإِنْ تطفلت عليك ، وسقتُ لك هذا الكتاب مُزْدَلَفاً (١٢) إِلَى
جَنَابِكَ الرَّحْبِ ، ومقامك الأسنى ، فقد أَصِبتُ كبد الصَّوَابِ ، وَوَضَعْتُهُ حَيْثُ
يعرفه أَهلوه ، ويتقبله من باذله عالموه ، علماً بِأَنَّكَ عماد العلوم ، وَأَسَاسُ
الفضائل لا تغادرُ (١٣) شاردة إِلَّا وعيتها ، ولا نادرة إِلَّا رويتها ، وإِلَّا :

(١) جمع خلف بالكسر الضرع (٢) جاعله بضاعة (٣) موضع
بالحجاز (٤) ابن داود النبى عليهما الصلاة والسلام (٥) من قوم موسى
عليه السلام أعطاه الله من الكنوز ما لم يعطه لغيره (٦) هو أبو بحر
صخر بن قيس تابعى كبير يضرب به المثل فى الحلم توفى سنة ٦٧ هـ
(٧) هو أبو وائلة بن معاوية بن مرة المزنى يضرب به المثل فى الذكاء توفى
سنة ١٢٢ هـ (٨) هو أبو العباس عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن
هاشم القرشى الهاشمى ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابى
جليل يلقب ترجمان القرآن توفى سنة ٩٨ هـ (٩) مملوآت (١٠) الكتب
(١١) حمار الوحش ، ومعناه - كل ما عداه دونه قاله النبى عليه الصلاة
والسلام تطميناً لرجل خرج يضطاد مع أصحابه فلم يصب غير الحمار
الوحشى (١٢) متقرباً (١٣) لا تترك .

لو كان يُهْدَى على قَدْرِى وقدركم لَكُنْتُ أَهْدِى لك الدنيا وما فيها
وكتب مؤلف هذا الكتاب إلى أستاذه الحكيم الشيخ محمد عبده :

سيدى ومولاي . . .

أَطَالَ اللهُ بقاءك ، ورفع فى الدارين عُلاك - الهدية مفتاح باب المودة ،
وعنوان تذكار المحبة ، يتسابق إليه كِرَامُ السَّجَايَا (١) ، ويتسارع إلى إحياء
شعائرها عُشَّاقُ المزايا ، حرصاً على حفظ. عهود الوداد والتآلف ، وإذهاباً
لوحشة التقاطُع والتخالف :

هدايا الناس بعضهم لبعض تُؤَلِّدُ فى قلوبهم الوصالا
وتزرع فى القلوب هوى ووداً وتكسوك المهابة والجلالا
ولقد وجدتك إماماً حكيماً ، وفيلسوفاً عليماً ، تقدرُ الأعمال حق قدرها ،
وتضعُ الأشياء فى مواضعها ، سباقاً إلى نشر العلوم والمعارف ، بين أرجاء
المشارك والمغرب :

يبقى الثناء وتنفيذ الأموال ولكل دهر دولة ورجال
ما نال مَحَمْدَةَ الرِّجَالِ وشكرهم إلا الصُّبُور عليهم المفضل
سيدى ومولاي . . .

أُهديك كتابى « جواهر الأدب » ، فى أدبيات وإنشاء لغة العرب « جمع
فأوعى من الآداب والحكم ما خلت منه الأسفار (٢) ، فهو بلا شك ولا مِراً ،
كل الصيد فى جوفِ الفراء .

تزين معانيه ألفاظه وألفاظه زائناً المعانى

على أنى - وإن تَطَفَّلْتُ عليك ، ووضعت كتابى هذا بين يديك - فقد ولجت الأمور من الأبواب وأصبت كبد الصواب ، حيث يعرف الفضل من الناس ذووه ، ويتقبله بقبول حسن عالموه :

شكراً وحمداً إن قبلت هديتى وجعلت لى فضلاً على أقرانى
فبتنازلك بقبوله يكون الإقبال جليلاً ، ويعجز لسانى عن أن أشكرك
شكراً جزيلاً ، والسلام .

وكتب مؤلف هذا الكتاب إلى المرحوم سعد باشا زغلول يُهديه كتابه
« جواهر الأدب ، فى أدبيات وإنشاء لغة العرب » :

مولائى ، أطل الله بقاءك فى أهنأ عيشة وأزغدها ، وأتم نعمة وأسعدها ،
وأعم عافية وأزيدها ، وأولاك من الآلاء بأمدها مزيداً ، ومن السلامة
بأسبيلها سيراً ، ومن السرور بأوفره حظاً ، ومن العز بأشدّه ركناً ، والعمر
بأبعده مدى ؛ تولاك المولى بحفظه وحياطته ، وحرّك تحت جناح السلامة
بكلاءته ورعايته .

إن الله تعالى قد خصّك بالعز المنيع ، والشرف الرفيع ، والخلق السنّى ،
والفخر البهى ، والرأى والحزم ، والبلاغة والفهم ، والبراعة والكمال ، والبذل
والنوال ، والجود والإفضال ، والحمد والثناء . والكرم والوفاء ، والمذهب
الجميل ، والقدر الجليل .

فأنت - أدام الله كرامتك ، وأكرم حياتك - معدن الفضائل وزين
المحافل ، غياث اللاجئ إليك ، وسند المعول عليك ، لا يُجحدُ فضلك ولا يُنسى
ذكرك ، عرفك شائع ، وجودك واسع ، ومعروفك ذائع ، وفضلك شامل ،
ولبّك كامل ، سلّم لأوليائك ، حرب لأعدائك ، سحائب كفيك تمطر ديم

الإِنعام ، وشآبيبُ يَدِيكَ تفوق أفعال الكرام ، زَادَكَ اللهُ أَيُّهَا الرَّئِيسُ عَقْلاً
إِلَى عَقْلِكَ ، وفخراً إِلَى فخرِكَ ، وفضلاً إِلَى فضلك ، وطَوْلاً إِلَى طَوْلِكَ ،
وَسُودَداً إِلَى سُودْدِكَ ، إِنَّهُ لطيف كريم .

لَمَّا رَأَيْتُكَ - أَدَامَ اللهُ عُلوَّكَ ، وَأَجْزَلَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ حَظَّكَ وقسمَكَ -
تَغْنَى عَنِ التَّوَسُّلِ إِلَيْكَ بِكَرِيمِ أَخْلَاقِكَ ، وشَرِيفِ أَعْرَاقِكَ ، جعلْتُ كَرَمَكَ
ذَرِيعَتِي إِلَيْكَ . لما دَلَّنِي مِنْ فَضْلِكَ عَلَيْكَ ، وكَفَى بِهِ عَنِ اللَّيْبِ شَاهِداً ،
وإِلَى الْكَرِيمِ قَائِداً ، فَاطْمَعْنِي فِيكَ مَا رَأَيْتُ مِنْ جُودِكَ وَسِمَاحَتِكَ ، وَحُسْنِ
بِشْرِكَ وَطَلَّاقَتِكَ ، وَلِئِنْ أَمَلْتُكَ عِنْدَ الشَّدَائِدِ ، ودَفَعْتَ بِكَ صَوْلَةَ النُّوَابِثِ
وَرَجَوْتُكَ لِكَشْفِ الْمَلَمَّاتِ ، والْحَوَادِثِ الطَّارِقَاتِ ، واستَغْنَتْ بِسَيِّبِكَ
وَجُدُوكَ عَلَى غَيْرِ شَافِعٍ ، أَطْمَعُ فِي شَفَاعَتِهِ إِلَيْكَ ، أَوْ مُتَوَسِّلُ فِي مَا لَدَيْكَ ،
فِيَّ أَقُولُ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

مَنْ غَيْرُ مَا سَبَبُ يُلْذِنِي كَفَى سَبَباً لِلْحُرِّ أَنْ يَجْتَدِيَ حُرّاً بِلا سَبَبٍ
ولما كانت الوسيلة إِلَى السَّادَاتِ ، وَأَهْلِ الْأَخْطَارِ وَالْمُرُوءَاتِ ، إِنَّمَا هِيَ
وَكَيْدُ حُرْمَةٍ أَوْ قَدِيمِ خِدْمَةٍ ، وَكُنْتُ صَفِيراً مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ، غَيْرَ دَاخِلٍ فِي جُمْلَةِ
أَهْلِهِ ، تَوَسَّلْتُ بِكِتَابِي « جَوَاهِرِ الْأَدَبِ » ، فِي أَدَبِيَّاتٍ وَإِنْشَاءٍ لُغَةِ الْعَرَبِ » ،
إِذْ كَانَ الْمُتَوَسِّلُ بِهَا عَلَى ثِقَةٍ مِمَّنْ عَرَفَ قَدْرَهَا ، لِأَنَّ الْأَدَابَ عِنْدَ ذَوِي الْكَرَمِ ،
أَعْطَفُ مِنْ صَلَةِ الرَّحْمِ ، وَهُوَ سَبَبُ بَيْنِ الْكَرَامِ مُوصُولٌ يَنْزِعُونَ إِلَيْهِ ، وَحَقُّ
يَتَعَاطَفُونَ عَلَيْهِ ، وَفِيهِ قَالَ الشَّاعِرُ :

أَدَبٌ بَيْنُنَا تَوَلَّدَ مِنْهُ نَسَبُ وَالْأَدِيبُ صِنُو الْأَدِيبِ

وقال الآخر :

حَقُّ الْأَدِيبِ وَإِنْ لَمْ يُدْنِهِ نَسَبٌ فَرَضَ عَلَى كُلِّ مَنْ أَمْسَى لَهُ أَدَبٌ
وقد ضمنتُ كِتَابِي هَذَا مِنَ الْأَدَابِ أَظْرَفَهَا ، وَمِنْ الْأَشْعَارِ أَفْضَلَهَا وَأَجْمَلَهَا

وجعلته سبباً أمتُّ به إليك ، وهديّة أَصْعُها بين يديك . فتنازل دولتكم بشرف القَبُول ، يكون غاية مطلوبى ، ونهاية المأمُول .

الفصل الرابع : فى رسائل الاستعطاف والاعتذار

كتب أبو منصور الثعالبي النيسابورى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :

الكريم إذا قَدَرَ غفرَ ، وإذا أَوْثَقَ أطلقَ ، وإذا أَسَرَ أعتقَ ، قد هربت منك إليك ، واستعنتُ بعفوك عليك ، فأذقنى حلاوة رضاك عني ، كما أذقتنى مرارة انتقامك مني الحرُّ كريم الظفر ، إذا نالَ أقال (١) ، واللثيمُ إذا نال استطال (٢) ، قد هابك من استتر ، ولم يُذنب إليك من اعتذر ، تكلفُ الاعتذار بلا زَلَة (٣) ، كتكلف الدواء بلا علة ، مولاي يوجبُ الصَفْحَ عند الزَلَة (٤) ، كما يلتزم البذل عند الخلة (٥) ، مولاي يُوليتى صفيحة (٦) صفحه ، ويؤتيني العفو من عفوه ، زَلت وقديزلُ العالمُ الذى لا أساويه ، وعثرتُ وقد يعثر الجوادُ الذى لا أجاريه ، لا تضيقن عني سعة خلقك ، ولا تكدرن على صفو ودك ، مالى ذَنْبٌ يضيقُ عنه عفوك ، ولا جُرْمٌ يتجافى تجافى تجاوزك وصفحك . والسلام .

وكتب عبد الله بن معاوية المتوفى سنة ١٣٤ هـ إلى أبي مسلم :

من الأسيرِ فى يديه ، بلا ذنبٍ إليه ولا خلافٍ عليه . (أما بعد) فقد آتاك الله حفظ. الوصية ، ومنحك نصيحة الرعية ، وألهمك عدل القضية فإنك مُستودعُ الودائع ، ومولى الصنائع ، فاحفظ. ودائعك ، بحسن صنائعك . فالودائع عارية . والصنائع مرعية . وما النعم عليك وعلينا فيك بمنزور نداها . ولا بمبلوغ مداها . فنيه للتفكير قلبك . واتقِ ربك وأعط. من نفسك من هو تحتك . ما تحب

(١) ترك (٢) اتملك وتمسك (٣) بالفتح السقطه (٤) بالفتح
القلظة (٥) بفتح الخاء الحاجة والفقر (٦) صفيحة - عريضة . أى
عظيم صفحه .

أَنْ يعطيك من فوقك من العدل والرفقة ، والأمن من المخافة . فقد أنعم الله عليك ، بأن فوّض أمرنا إليك . فاعرف لنا لين شكر المودة . واغتفار مَسّ الشدة والرضا بما رضيت والقناعة بما هويت . فإن علينا من سملك الحديد وثقله أذى شديداً ، مع معالجة الأغلال . وقله رحمة العمال الذين تسهيلهم الغلظة وتيسيرهم الفظاظة ، وإيرادهم علينا الغموم ، وتوجيههم إلينا الهموم ؛ زيارتهم الحراسة ، وبشارتهم الإياسة ! فيإليك - بعد الله - نرفعُ كربة الشكوى ، ونشكوشدة البلوى . فمتى تمل إلينا طرفاً . وتولنا منك عطفاً تجد عندنا نصحاً صريحاً ووُداً صحيحاً . لا يضيعُ مثلك مثله ، ولا ينفي مثلك أهله ؛ فارع حُرمة من أدركت بحرمته ، واعرف حجة من فلتجت بحجته (١) فإن الناس من حوضك رِواءً ، ونحن منه ظمأئ . يمشون فى الأبراد . ونحن فى الأقياد ، بعد الخيز والسعة . والخفض والدعة ؛ والله المستعان ؛ وعليه التكلان .

وكتب بدر محمد بن حبيب الحلبي المتوفى سنة ٧٩٩ هـ :

رفقاً بمن ملك الوجد قياده . وعطفاً على من أذاب الشوق فواده . مُتِمِّمٌ (٢)
أقلقه فرط . صدودك . ومغرماً أغراه بحبك قول حسودك . وسقيم لا شفاء له
دون مزارك . ومقيم على عهدك ولو طالت مدة نفارك . إلآمَ هذا التناثي (٣) والنفور !
وعلام ياذا القد العادل تجور ؟! لقد تضاعف الأسف والأسى . وتطاول التعلل
بلعلل : وعسى :

هبنى تخطيتُ إلى زلة ولم أكنُ أذنبتُ فيما مضى
أليس لى من بعدها حرمة ؟ تُوجب لى منك جميل الرضا ؟!
ولست ألوذ إلا بباب نعمك ، ولا أعتمد فى محو الإساءة إلا على حلمك وكرمك
وما جل (٤) ذنب يضاف إلى صفحك . ولا عظم جرْمٌ (٥) يسند إلى عفوك .

(١) فلج بحجته - أثبتها
(٢) مستعبد ذليل
(٣) التباعد
(٤) ما عظم
(٥) ذنب .

ومثلك من يقيلُ العثراتِ ، ويتجاوز عن الهفوات :

وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ جِبَالَ رِضْوَى (١) تَزُولُ وَأَنَّ وَدَّكَ لَا يَزُولُ
ولكنَّ القلوبَ لها انقلابٌ وحالاتُ ابنِ آدمَ تستحيلُ
طالما آنتسنى بقربك ، وَدَنَوْتُ مِنِّى مفارقاً ظبياءَ سُرْبِكَ ، وأنجزتُ
وُعُودى ، وَأَطَعْتُ نجومَ سَعُودى :

وَكُنْتُ إِذَا مَا جِئْتُ أَدْنَيْتُ مَجْلِسِى ووجهك من ماءِ البشاشةِ يَقْطُرُ
فَمَنْ لِي بِالْعَيْنِ الَّتِي كُنْتُ مَرَّةً إِلَيَّ بِهَا فِي سَالِفِ الدَّهْرِ تَنْظُرُ
قيدت أُملى عن سواك ، وَبَهَرْتُ نَاضِرِى بِنَظَرَةِ سَنَّاكَ (٢) ، وكسرت جيش
قَرَارِى ، وتركتنى لا أَفَرِّقُ بَيْنَ لَيْلِى وَنَهَارِى ، أَحُومُ حَوْلَ الدِّيَارِ ، وَأَعُومُ
فِي بَحْرِ الْأَفْكَارِ ، وَأَتَمَسَّكُ بِعُطْفِ عَظْفِكَ ، وَأَتَعَلَّقُ بِأَذْيَالِ مَكَارِمِكَ وَلُطْفِكَ .
أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْكَرِيمَ إِذَا قَدَّرَ غُفْرَ ؟ وَإِذَا صَدَرَتْ مِنْ عَبْدِهِ زَلَّةٌ أَسْبَلَ عَلَيْهَا رِداءَ
الْعَفْوِ وَسُتْرَ ؟ وَأَنَّ شَفِيعَ الْمَذْنِبِ إِقْرَارُهُ ؟ وَرَفْضَ خَطِيئَتِهِ عِنْدَ مَوْلَاهُ اسْتِغْفَارُهُ ؟
وَمَنْ كَانَ ذَا عُذْرٍ لَدَيْكَ وَحِجَّةٍ فَعُذْرَى إِقْرَارِى بِأَنَّ لَيْسَ لِي عَذْرُ

لهنِّى عَلَى عَيْشِ بَسْلَافِ (٣) حَدِيثِكَ سَلَفِ ! وَأَوْقَاتِ حَلْتِ ، ثُمَّ خَلْتِ
وَأَوْرَثْتَ التَّلَفِ ! وَآهًا لِأَيَّامِ أُنْسِكَ مَضَتْ ! وَبُرُوقِ لِيَالٍ لَوْلَا قُرْبُكَ
مَا أَوْمَضَتْ (٤) :

قَدْ كُنْتُ أَعْرِفُ فِي الْهَوَى مَقْدَارَهَا رَحَلْتُ وَبِالْأَسْفِ الْمَبْرُحِ عَوَّضْتُ
كَيْفَ السَّبِيلِ إِلَى إِعَادَةِ مِثْلِهَا وَهَى الَّتِي بِالْبَعْدِ قَلْبِى أَمْرَضْتُ
فَجُدُّ بِالْتَدَانِ ، وَاسْمَحْ بِنَيْلِ الْأَمَانِ ، وَأَلِّينُ قَلْبِكَ الْقَاسِى ، وَعَدُ عَنِ التَّنَائِى

والتناسى ، وأزَع الود القديم وأبدل شقاء محبك بالنعيم ، ولا تعذر عن منهاج
المعدلة ، وسلم فقد أخذت حقها المسألة ، وأغمد سيف حيف (١) صيرته
مسلولاً ، وأوف بالعهْد إِنَّ العهْد كَانَ مَسْئولاً .

وكتب أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى بالبصرة سنة ٢٥٥ هـ :
ليس عندى - أعزك الله - سبب ولا أقدر على شفيح ، إلا ما طبعك الله
عليه من الكرم والرحمة . والتأمل الذى لا يكون إلا من نتاج حُسن الظن ،
وإثبات الفضل بحال المأمول . وأرجو أن أكون من الشاكرين ، فتكون خير
مُعْتَب (٢) ، وأكون أفضل شاكر ، ولعل الله يجعل هذا الأمر سبباً لهذا الإنعام ،
وهذا الإنعام سبباً للانقطاع إليكم ، والكون تحت أجنحتكم (٣) ، فيكون
لا أعظم بركة ولا أنمى بقية من ذنب أصبحت فيه ، وبمثلك (جعلت فداك)
عَاد الذنب وسيلةً والسَّيئة حسنةً . ومثلك من انقلب به الشر خيراً ،
والغرم غناً (٥) .

من عاقب فقد أخذ حظه . وإنما الأجر فى الآخرة وطيب الذِّكْر فى الدنيا ،
على قدر الاحتمال ، وتجزع المرائر . وأرجو أن لا أضيع (وأهلك) فيما بين
كرمك وعقلك . وما أكثر من يعفو عن صغر ذنبه ، وعظم حقه . وإنما الفضل
والثناء العفو عن عظيم الجرم ضعيف الحرمة . وإن كان العفو العظيم مستطراً (٦)
من غيركم فهو تلاد (٧) فيكم ، حتى دعا ذلك كثيراً من الناس إلى مخالفة
أمركم ، فلا أنتم عن ذلك تنكلون (٨) ، ولا على سالف إحسانكم تندمون .
ولا مثلكم إلا كمثل عيسى بن مريم ؛ حين كان لا يمر بملا من بنى إسرائيل
إلا أسمعوه شراً ، وأسمعهم خيراً ، فقال له (شمعون الصفار) (٩) : ما رأيت

(١) الجور (٢) مسر بعد اساءة (٣) حمايتكم (٤) ما يلزم
أداؤه (٥) الفنيمة (٦) مستحدثا (٧) المال القديم (٨) ترجعوا
(٩) شمعون الصفار : هو أحد حوارى عيسى عليه السلام .

كالـيوم ! كلـما أسمعوك شراً ، أسمعـتهم خيراً ؟ ! فقـال : « كلُّ امرئ يُنفق مما عنده » وليس عندكم إلا الخير ، ولا فى أوعيتكم إلا الرحمة . وكل إناء بالذى فيه ينضح .

وكتب ابن مكرم إلى بعض الرؤساء :

تَبَت (١) بى غرّة الحداثة ، فردتنى التجربة ، وأفادتنى الضرورة ؛ ثقةً بإسراعك إلى وإن أبطأت عنك . وقبولك لعذرى وإن قصّرت عن واجبك . وإن كانت ذنوبى سدّت على مسالك الصّبح عني ، فراجع فى مجدك وسوددك (٢) وإنى لا أعرف موقفاً أذل من موقفى ، لولا أن المخاطبة فيه لك ، ولا خطّة أذنأ من خطّى ، لولا أنّها فى طلب رضاك - والسلام .

وكتب أبو بكر الخوارزمى المتوفى سنة ٧٤٠ هـ :

لو بغير الماء حلّقى شرق كنت كالغصان بالماء اعتصارى

كيف يقدر (بقى الله السيد) على الدواء ، من لا يهتدى إلى أوجه الداء ؟ وكيف يدارى أعداءه ، من لا يعرف الأصدقاء من الأعداء ، وكيف يعالج علة القرحة العمياء ؟ أم كيف يسرى بلا دليل فى الظلماء ؟ ! أم كيف يخرج الهارب من الأرض والسماء ؟ ! الكريم إذا قدر غفر ، وإذا أوثق أطلق ، وإذا أسر أعتق . ولقد هربت من السيد إليه ، وتسلمت (٣) بعفوه عليه ، وألقيت ربة (٤) حياى ومماى بيديه . فليذقنى حلاوة رضاه عني كما أذاقنى مرارة انتقامه منى ، وتلّح (٥) على حالى غرة عفوه ، كما لاحت عليها مواسم (٦) غضبه وسطوه . وليعلم أن الحر كريم الظفر إذا نال أقال ، وأن اللّيم لئيم الظفر إذا نال استطال . وليغم التجاوز عن عشرات الأحرار ، ولينتهز فرص الاقتدار .

(١) أبعدتنى (٢) السيادة (٣) استعنت (٤) العروة التى

يربط بها والمراد بها الزمام (٥) تظهر (٦) العلامات .

وَلِيُحْمَدَ اللَّهُ الَّذِي أَقَامَهُ مَقَامَ مَنْ يُرْتَجَى وَيَخْشَى ، وَرَكَّبَ نَصَابَهُ فِي رُتْبَةِ شَابِ الزَّمَانِ وَمَجْدَهَا فَتَى ، وَأَخْلَقَ الْعَالَمَ وَذَكَرَهَا طَرِيًّا ، وَلِيَعْتَقِدَ أَنَّهُ قَدْ هَابَهُ مَنْ اسْتَرَّ . وَلَمْ يَذْنِبْ إِلَيْهِ مَنْ اعْتَذَرَ ، وَأَنَّ مَنْ رُدَّ عَلَيْهِ عُذْرُهُ ، فَقَدْ أُخْرِجَ إِلَى الشَّجَاعَةِ بَعْدَ الْعُجْبَنِ ، وَأُخْرِجَ ذَنْبُهُ إِلَى صَحْنِ الْيَقِينِ مِنْ سُتْرَةِ الظَّنِّ . وَفَقَّ اللَّهُ السَّيِّدَ لَمَّا يَحْفَظُ عَلَيْهِ قُلُوبَ أَوْلِيَائِهِ ، وَعَصْمَهُ مِمَّا يَزِيدُ بِهِ فِي عِدَدِ جَمَاجِمِ أَعْدَائِهِ .

وكتب بعضهم إلى رئيسه :

وَجَدْتُ اسْتِصْغَارَكَ لِعَظِيمِ ذَنْبِي أَعْظَمَ بِقَدْرِ تَجَاوُزِكَ عَنِّي ، وَلِعَمْرَى ! مَا جَلَّ ذَنْبٌ يُقَاسُ إِلَى فَضْلِكَ ، وَلَا عَظَمَ جُرْمٌ يُضَافُ إِلَى صَفْحِكَ ، وَيُعَوَّلُ فِيهِ عَلَى كَرَمِ عَفْوِكَ . وَإِنْ كَانَ قَدْ وَسَّعَ حِلْمُكَ ، فَأَصْبَحَ جَلِيلُهُ عِنْدَكَ مُحْتَقَرًا ، وَعَظِيمُهُ لَدَيْكَ مُسْتِصْغَرًا ، إِنَّهُ عِنْدِي لَنِي أَقْبَحُ صُورِ الذُّنُوبِ ، وَأَعْلَى رُتَبِ الْعُيُوبِ . غَيْرَ أَنَّهُ لَوْلَا بَوَادِرُ (١) السُّفَهَاءِ ، لَمْ تَعْرِفْ فُضَائِلُ الْحُلَمَاءِ ، وَلَوْلَا ظُهُورُ نَقْصِ بَعْضِ الْآتِبَاعِ ، لَمْ يَبَيَّنْ جَمَالُ الرُّؤَسَاءِ ، وَلَوْلَا إِمَامُ الْمَلَمِّينَ بِالذَّنْبِ ، لَبْطَلَتْ تَطَوُّلُ الْمُتَطَوِّلِينَ بِالصَّفْحِ . وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنَّ يَمْنَحَكَ اللَّهُ السَّلَامَةَ بِطَلْبِكَ لَهَا . وَيُقِيلِكَ الْعَثَرَاتُ بِإِقَالَتِكَ أَهْلِهَا . وَمَا عَلِمْتُ أَنِّي وَقَفْتُ مِنْكَ عَلَى نِعْمَةٍ أَتَدَبَّرُهَا ، إِلَّا وَجَدْتُهَا تَشْتَمِلُ عَلَى فَائِدَةٍ فَضْلٍ ، تَتْبَعُهَا عَائِدَةٌ عَقْلٍ .

وكتب فقيد اللغة الشيخ إبراهيم اليازجى المتوفى سنة ١٣٠٦ هـ :

بِمَ يَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مَنْ لَا يَرَى لِنَفْسِهِ عُذْرًا ؟ ! وَكَيْفَ يَسْتَرُّ مِنْ عَتَبِكَ مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ لَذَنْبِهِ سِتْرًا ؟ ! بَلْ كَفَانِي مِنَ الْعَتَبِ : تَعْنِيفُ نَفْسِي عَلَى مَا أَلْقَيْتُ عَلَيْهَا مِنْ تَبْعَةٍ تَقْصِيرِي ، وَمَا حُلْتُ بِهِ مِنَ التَّفْرِيطِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَعَاضِيرِي . وَاللَّهُ

(١) جمع بادرة : وهى الحدة عند الغضب .

يعلم ما كان تقصيرى شيئاً أرذته وكان تفريطى أمراً قصدته ، ولكنها الأيام !
 إن صاحبتها لم تصحب ، وإن عاتبتها لم تُعْتَب ، فلقد عبرتْ بى هذه البرهة كلها
 وأنا بين شواغل لا يشغلها عني شغل ، وبلايل (١) قد اختلط حابلها بالنابل ،
 فتنازعتُها هذه النهضة (٢) اليسيرة ، أُجِدُّ فيها التذكرة ، إلى أن يَمَنَّ الله بصلة
 الحبل واجتماع الشمل ، وأمنزلُ أحرُفاً من حظك يكتحلُ بها الناظر ، ويأنس
 إليها خاطر ، متوقفاً بعد ذلك أن أبقى بين يدي مودتك مذكوراً ، وألا يكون
 عجزى لديك شيئاً منظوراً ، وأن تجرى بى على عادة حلمك ، إلى أن يجمع
 الله الشيتيتين ويغنى العين (٣) عن الأثر بالعين (٤) إن شاء الله تعالى . والسلام .
 وكتب أيضاً :

وافانى كتابك العزيز ، والنفسُ نازعة (٥) إلى ما يزيلُ نِفَارَها ، والقريحة (٦)
 تائقة (٧) إلى ما يشحذُ (٨) غرارها (٩) ؛ فكان روضةً باسمه (١٠) الكمائم (١١)
 فاتحة النسائم ، وقد ردت على النفس انبساطها وأحيلت البادرة فاستأنفت
 نشاطها ؛ فأننا منه ما بينَ وشى (١٢) يُخجلُ طِرَازَ العبقريّة (١٣) ، وزُخرفٍ (١٤)
 دونهُ نضرة (١٥) السابرية (١٦) تُناجيني منه رشاقة (١٧) ألفاظٍ تفضحُ قُدود (١٨)
 الحسان ، وغضاضة (١٩) أنفاسٍ يُغارُ منها ورْدُ الجنان ، ورقة خطاب يشف (٢٠)

(١) هموم ، والحابل : قيل ناصب الحباله للصيد ، وقيل : سدى
 الثوب . والنابل : صاحب النبال وقيل : لحمه الثوب ولفظ المثل «اختلط
 الحابل بالنابل» وهو مثل يضرب فى ارتباك الامر (٢) بضم النون
 الفرصة (٣) الباصرة (٤) الذات (٥) مشتاقة (٦) الملكة
 التى يقتدر بها على استنباط العلم بحدّة الطبع (٧) مشتاقة (٨) يحد،
 وأصله السكين (٩) بكسر الفين والمراد أن الملكة مشتاقة الى ما يجعلها
 قوية مصيبة (١٠) ضاحكة (١١) الزهر (١٢) نقش الثوب
 (١٣) ثياب تبلغ الغاية فى الحسن (١٤) كمال الحسن (١٥) الحسن
 (١٦) ثياب رفيقة جيدة وأصلها للدروع السابرية نسبة الى سابور كورة
 بفارس ، بينها وبين شيراز ستة عشر فرسخا (١٧) لطافة (١٨) جمع
 قد وهو القامة الرشيقة (١٩) الحسن (٢٠) يحكى .

عن ودّ صنيّ ، ولطف خفيّ (١) ، وكرمٍ وفّيّ ، وعتبٍ أعذبَ من الماء القراح (٢) ،
وأرقّ من نسَمَاتِ الصبا في الصّباح ؛ حتى لقد حَبَّبَ إِلَيَّ تفصيري ،
وشفّعَ عند نفسي في قبول معاذيري . على أَنَّ ما عندي من الولاءِ
لا يعتريه - معاذ الله ! - وهن (٣) ، ولا يخلفه (٤) تَمَادى زمن أو ترائى وطن .
ولكن صُرِفَ الأحداث (٥) قد قصّرت الجهد (٦) ، وصرفت جواد العزيمة عن
القصْد . والله يعلم أنّي لو نزلت على حكم نوازل الدَّهر ، ولم أدافع طلائعها
ما بقى من ساقاة (٧) الصبر ، لما كان في هِمَّتِي إِلَّا كَسْرُ البِرَاعِ (٨) وهجرُ
المحابرِ والرُّقاعِ (٩) . وحسبي من العذر ما أعرفه من حلمك المألوف ، وما
ألفته من كرمك المعروف .

والله أسأل أن يبقيك لى من الدَّهرِ نصيباً ، ويمتغنى بلفائك قريباً ،
بمنه وكرمه .

وكتب أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. المتوفى بالبصرة سنة ٢٥٥ هـ :
أما بعدُ : فنعمَ البديلُ من الزلة الاعتذار ، وبِئْسَ العِوَضُ من التوبة
الإِصرارُ ؛ فإنه لا عِوَضَ من إِيْثاك ولا خلف من حُسْنِ رأيك . وقد انتقمْت
مَنِّي في زِلَّتِي بجفائك ، فأطلقَ أسيرَ تشوّقي إلى لقائك . فإنني بمعرفتي
بمبلغ حلمك وغاية عفوك ، ضَمَنْتُ لِنَفْسِي العَفْوَ مِنْ زِلَّتِهَا عندك . وقد
مَسَنِي مِنَ الْآلَمِ مَا لَمْ يَشْفِهِ غير مواصلتك .

وكتبت زبيدة زوجة الرشيد المتروفاة سنة ٢١٦ هـ إلى المأمون :

كلُّ ذنبٍ - يا أمير المؤمنين - وإن عظم صغير في جنب عفوك . وكل

(١) ظاهر فهو من الاضداد (٢) بفتح القاف الخالص (٣) ضعف
(٤) لا يبليه (٥) كلاهما مصائب الدهر (٦) بفتح الجيم وضمها
أى الطاقة (٧) آخره (٨) الاقلام (٩) الرقاع بكسر الراء مفردة
رقعة وبضمها القطعة من الورق التى تكتب .

إِسَاءَةً وَإِنْ جَلَّتْ يَسِيرَةٌ لَدَى حَلْمِكَ ، وَذَلِكَ الَّذِى عَوَّدَكَ اللَّهُ أَطَالَ مَدَّتَكَ ،
وَتَمَّ نِعْمَتُكَ ، وَأَدَامَ بِكَ الْخَيْرَ ، وَدَفَعَ عَنْكَ الشَّرَّ وَالضَّرِيرَ .

وبعد : فهذه رُقعة الولهى - التى ترجوك فى الحياة لنوائب الدهر ،
رفى الممات لجميل الذكر - فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَرْحَمَ ضَعْفَى وَاسْتَكَانَتِ وَقَلَّةَ
حِيلَتِ ، وَأَنْ تَصِلَ رَحْمَى . وَتَحْتَسِبَ فِيمَا جَعَلَكَ اللَّهُ لَهُ طَالِباً ، وَفِيهِ رَاعِياً -
فَافْعَلْ - وَتَذَكَّرْ مَنْ لَوْ كَانَ حَيًّا لَكَانَ شَفِيعَى إِلَيْكَ .

وكتب إليها المأمون جواب المواساة الآتى :

وصلت رقعتك يا أمأه - أحاطك الله وتولاك بالرعاية (١) - ووقفتُ
عليها ، وسأعنى - شهد الله ! (٢) - جميع ما أَوْصَحْتَ فيها ، لكن الأقدار
نافذة (٣) ، والأحكام جارية ، والأمور متصرفة ، والمخلوقون فى قبضتها ،
لا يقدرُونَ على دفاعها (٤) ، والدنيا كلها إلى شتات (٥) ، وكل حَيٌّ إلى ممات ،
والغدر والبغى حنف الإنسان (٦) ، والمكر راجع إلى صاحبه .

وقد أَمَرْتُ بِرَدِّ جَمِيعِ مَا أَخَذَ لَكَ ، وَلَمْ تَفْقِدْ مَنْ مَضَى إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ
إِلَّا وَجْهَهُ ، وَأَنَا بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى أَكْثَرِ مَا تَخْتَارِينَ (٧) . والسلام .

وكتب بعضهم :

إِنِّى وَإِنْ جَنَيْتُ عَلَى نَفْسِى ، وَخَرَجْتُ عَنْ حَدِّ الْأَدَبِ ، فِيمَا يَجِبُ عَلَى
الْعَبْدِ لِسَيِّدِهِ - فَإِنِّى عَبْدُ نِعْمَتِكَ وَصَنِيعِ إِحْسَانِكَ . وَذَنْبِ وَإِنْ عَظُمَ وَضَاقَ
بَابُ التَّوْبَةِ عَنْ قَبُولِ الْمَعْذَرَةِ ، فَالْعَفْوُ عَنْهُ بَعْضُ حَسَنَاتِكَ الَّتِى فُطِرَتْ
عَلَيْهَا ، وَالْإِغْضَاءُ عَنِّى سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِكَ الَّتِى تَمِيلُ إِلَيْهَا . فَاجْعَلِ الْعَفْوَ عَنِّى

(١) يعنى حفظك الله وصانك برعايته (٢) جملة معترضة يقصد
بها تأكيد ما يقول (٣) يعنى ما قدرة الله لا بد أن يكون (٤) يعنى أن
المخلوقات مستسلمة لأحكام الله وأقداره (٥) مآلها التفرق (٦) يعنى
أن البغى فيه هلاك الباغى (٧) يعنى أقوم لك بجميع ما تحبين وزيادة

قُرْبَةً إِلَى مَوْلَى الْمَوْلَى ، وَاتْرَكَ الْعَبْدَ عَتِيقَ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، وَإِلَّا فَضَعَ سَيْفَ نَقْمَتِكَ ، فِى نَحْرِ عَبْدٍ نَعْمَتِكَ ، وَأَنْتَ حِلٌّ مِنْ دَمِ أَرَاقِهِ أَهْلُهُ ، أَوْ آلِ أَمْرِهِ إِلَى وَارِثٍ لَا يَسْعُهُ إِلَّا النُّزُولُ عَنِ الْمَطَالِبَةِ بِهِ ، أَلَا وَهُوَ مَقَامُ جَلَالَتِكُمُ السَّامِى .
وَحَاشَاكَ أَنْ تَعْدَمَ الصَّادِقُ فِى خِدْمَتِكَ بِهْفَوَةٍ لَمْ يَقْصِدْهَا ، وَذَنْبَ أَقْلَعَ عَنْهُ .
وَعَلَى كُلِّ فَالْعَبْدُ بَيْنَ يَدَيْكَ ، وَأَمْرُهُ مِنْكَ وَإِلَيْكَ ، فَقَدْ أَتَى إِلَيْكَ مَقَالِيدَ الْأَجَلِ ، فَافْعَلْ مَا تَشَاءُ ، وَاتَّقِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ .

استعطاف أم جعفر (١) بن يحيى الرشيد

لأجل يحيى زوجها

قال سهل بن هارون :

كَانَتْ أُمُّ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى أَرْضَعَتْ الرَّشِيدَ مَعَ جَعْفَرِ (٢) وَرَبَّتَهُ فِى حَجْرِهَا وَغَذَّتْهُ بِرَسُولِهَا (٣) وَكَانَ الرَّشِيدُ يَشَاوِرُهَا مَظْهَرًا لِأَكْرَامِهَا ، وَالتَّبَرُّكَ بِرَأْيِهَا . وَكَانَ آلَى وَهُوَ فِى كِفَالَتِهَا أَلَّا يَحْجُبُهَا وَلَا اسْتَشْفَعَتْهُ لِأَحَدٍ إِلَّا شَفَعَهَا .
وَأَلَتْ أُمُّ جَعْفَرٍ أَنْ لَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ إِلَّا مَأْذُونًا لَهَا ، وَلَا شَفَعَتْ لِأَحَدٍ مَقْتَرَفٍ ذَنْبًا ؛ فَكَمْ أُسِيرَ فَكْتُ ، وَمُبْهَمٌ عِنْدَهُ فَتَحَتْ ، وَمُسْتَغْلَقٌ (٤) مِنْهُ فَرَجَتْ .
فَلَمَّا قَتَلَ ابْنُهَا جَعْفَرًا وَحَبَسَ يَحْيَى زَوْجَهَا وَسَائِرَ أَهْلِ بَيْتِهِ طَلَبَتْ الْإِذْنَ عَلَيْهِ ، وَمَتَتْ (٥) بِوَسَائِلِهَا إِلَيْهِ ، فَلَمْ يَأْذَنْ لَهَا وَلَا أَمَرَ بِشَيْءٍ فِيهَا ؛ فَلَمَّا طَالَ بِهَا خَرَجَتْ كَاشِفَةً وَجْهَهَا ، وَاضْعَةً لِثَامِهَا مُحْتَفِيَةً فِى مَشِيَّتِهَا ، حَتَّى

(١) ذَكَرَ صَاحِبُ الْعَقْدِ أَنَّ اسْمَهَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ حَظْبَةِ ، وَذَكَرَ الطَّبْرَى أَنَّ اسْمَهَا زَيْنَبُ بِنْتُ مَنِيرٍ ، وَذَكَرَ ابْنُ خُلْكَانَ أَنَّ اسْمَهَا عُنَابَةُ وَكَذَا صَاحِبُ نَجْبَاءِ الْإِبْنَاءِ . وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّ اسْمَهَا عَادَةُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ (٢) كَذَا ذَكَرَ صَاحِبُ الْعَقْدِ وَقَالَ الطَّبْرَى أَنَّهَا أَرْضَعَتْهُ مَعَ الْفَضْلِ وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُ سَلِيمَانَ الْأَعْمَى يَرِثُ جَعْفَرًا وَيَسْتَعْطِفُ الرَّشِيدَ لِلْفَضْلِ :

أَمِينَ اللَّهِ فِى الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى رَضِيْعُكَ ، وَالرَّضِيْعُ لَهُ ذِمَامٌ (٣) الرِّسْلُ : اللَّبَنُ (٤) الْمُسْتَغْلَقُ : الْعَسِيرُ فَتَحَهُ (٥) مَتَّ إِلَيْهِ : تَوَسَّلَ بِقُرْبَةٍ أَوْ نَحْوِهَا .

صارت بباب قصر الرشيد ، فدخل عبد الملك بن الفضل الحاجب ، فقال :
 ظئر^(١) أمير المؤمنين بالباب ، فى حالة تقلب شماتة الحاسد ، إلى شفقة أم
 الواحد ، فقال الرشيد : ويحك يا عبد الملك أوساعية ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين ،
 حافية ، قال : أدخلها يا عبد الملك قرب كبد غزتها ، وكربة فرجتها ، وعورة
 سترتها ، فدخلت . فلما نظر الرشيد إليها داخله مُحْتَفِيَةٌ قام مُحْتَفِباً حتى تلقاها
 بين عمَد المجلس وأَكَبَ على تقبيل رأسها ومواضع ثدييها ثم أجلسها معه فقالت :
 يا أمير المؤمنين أيعدو علينا الزمان ؟ ويجفوننا خوفاً لك الأعوان ؟ ويُحَرِّدك^(٢) علينا
 البهتان ، وقد رببتك فى حجرى ، وأخذت برضاعك الأمان من عدوى ودهرى ؟ فقال
 لها : وما ذلك يا أم الرشيد ؟ فقالت : ظئرك يحيى وأبوك بعد أبيك ، ولا أصفه
 بأكثر مما عرفه به أمير المؤمنين من نصيحته وإشفاقه عليه وتعرضه لِلْحُتْفِ فى
 شأن موسى أخيه^(٣) ، فقال لها : يا أم الرشيد أمر سَبَقَ وقضاء حُمٍّ^(٤) وغضب
 من الله نفذ ، قالت : يا أمير المؤمنين « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم
 الكتاب »^(٥) قال : صدقت ، فهذا مما لم يحه الله ، فقالت : الغيب محجوب
 عن النبيين فكيف عنك يا أمير المؤمنين ؟ فأطرق الرشيد ملياً ثم قال :
 وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كل تيمة لا تنفع^(٦)
 فقالت بغير روية : ما أنا ليحيى بتميمة يا أمير المؤمنين وقد قال الأول :
 وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال
 هذا بعد قول الله عز وجل « والكاظمين الغيظ . والعافين عن الناس
 والله يحب المحسنين » . فأطرق ملياً ثم قال : يا أم الرشيد أقول :

(١) الظئر : المُرْضِعَةُ (٢) أحرده : أغضبه (٣) تشير إلى ما كان
 أراده الهادى وهو موسى بن المهدي من حرمان أخيه الرشيد الخلافة من
 بعده ونقلها إلى ولده واحتيال يحيى بن خالد فى رد الهادى عن عزمه بأذلا
 فى ذلك جهده (٤) حم الامر : قضى ونفذ (٥) أم الكتاب أصله أو
 اللوح المحفوظ (٦) التيمة : ما يعلق للأولاد من كتابة أو غيرها دفعاً
 للعين أو للمرص .

إذا انصرفت نفسى عن الشيء لم تكذب إليه بوجه آخر تُقْبِلُ
فقلت : يا أمير المؤمنين وأقول :

سَتَقْطَعُ فى الدنيا إذا ما قطعنى يمينك فانظر أى كَفٍّ تَبْدُلُ (١)

قال هارون : رَضِيتُ . قالت : فهبه لى يا أمير المؤمنين فلقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ترك شيئاً لله لم يُوجدْه (٢) الله لفقده » فأكتب هارون مَلِيًّا ثم رفع رأسه يقول : « لله الأمر من قبل ومن بعد » قالت : يا أمير المؤمنين « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » واذكر يا أمير المؤمنين أَلَيْتِكَ (٣) . ما استشفعتك إلا شفعتنى ، قال : واذكرى يا أم الرشيد أَلَيْتِكَ أَنْ لاشفعت لمقترِفٍ ذنباً . فلما رأته صرح بمنعها ولاذ (٤) عن مَطْلَبِهَا ، أخرجت حقاً من زُمُرْدَةٍ (٥) خضراء فوضعت بين يديه ، فقال الرشيد : ما هذا ؟ ففتحت عنه قُفْلاً من ذهب فأخرجت منه خَفْضَهُ وذوائبه وثناياه قد غَمَسَتْ جميع ذلك فى المسك ، فقلت : يا أمير المؤمنين أَسْتَشْفَعُ إِلَيْكَ ، وَأَسْتَعِينُ بالله عليك وبما صار معى من كريم جَسَدِكَ ، وطيب جوارحك ليحيى عبدك ، فآخذ هارون ذلك فَلَثَمَهُ ثم استعبر (٦) وبكى بكاءً شديداً وبكى أهل المجلس . فلما أفاق رى جميع ذلك فى الحق وقال لها . لحسن ما (٧) حفظت الوديعة ، فقلت : وأهل للمكافأة أنت يا أمير المؤمنين ، فسكت وأقفل الحق ودفعه إليها وقال : « إِنْ الله يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا » قالت : والله يقول : « وَإِذَا حُكِمَ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ » ، ويقول : « وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ » قال : وما ذلك يا أم الرشيد ؟ قالت : أو ما أقسمت لى أَنْ لا تحجبنى ولَا

(١) البیتان من قصيدة معن بن اوس الآتية فى باب العتاب .
(٢) أوجده : أحزنه (٣) الآية : الحلف (٤) لا يلوذ : راغ وانحرف
(٥) الزمرد : من الاحجار النفيسة (٦) استعبر : جرت عبرته وهى
الدمعة قبل أن تفيض (٧) ما مصدرية .

وَلَا تَمْتَهِنِي (١) ؟ قال : أُحِبُّ يَا أُمَّ الرَّشِيدِ أَنْ تَشْتَرِيَهُ مُحَكَّمَةً (٢) فِيهِ .
 قَالَتْ : أَنْصَفْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَدْ فَعَلْتُ غَيْرَ مُسْتَقْبَلَةٍ لَكَ وَلَا رَاجِعَةٍ
 عَنْكَ . قَالَ : بِكُمْ ؟ قَالَتْ : بِرِضَاكَ عَمَّنْ لَمْ يُسَخِّطْكَ . قَالَ : يَا أُمَّ الرَّشِيدِ أَمَالِي
 عَلَيْكَ مِنَ الْحَقِّ مِثْلَ الَّذِي لَهُمْ ؟ قَالَتْ : بَلَى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْتَ أَعَزُّ عَلَى ، وَهُمْ
 أَحَبُّ إِلَيَّ . قَالَ : فَتَحَكَّمِي فِي تَمَنِّيَةِ (٣) بَغِيرِهِمْ . قَالَتْ : كَلَّا . قَدْ وَهَبْتُكَ
 وَجَعَلْتُكَ فِي حِلٍّ مِنْهُ . وَقَامَتْ عَنْهُ وَبَقِيَ مَبْهُوتًا مَا يَحِيرُ (٤) لَفْظَةً .
 قَالَ سَهْلُ بْنُ هَارُونَ . وَخَرَجَتْ فَلَمْ تَعُدْ ، وَلَا وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ لَهَا عِبْرَةً .
 وَلَا سَمِعْتُ لَهَا أَنَّهُ .

استعطاف ابراهيم بن المهدي (٥) للمأمون

أَمْرُ الْمَأْمُونِ بِإِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ فَأَدْخَلَ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ :
 هِيَه (٦) ، يَا إِبْرَاهِيمَ ! فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِي الثَّأْرُ مُحَكَّمٌ فِي الْقَصَاصِ
 « وَالْعَفْوُ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » وَعَنْ تَنَاوُلِهِ الْإِغْتِرَارَ بِمَا مَدَّ لَهُ مِنْ أَسْبَابِ الشِّفَاءِ
 أَمَكْنَ عَادِيَةِ الدَّهْرِ مِنْ نَفْسِهِ ، وَقَدْ جَعَلَكَ اللَّهُ فَوْقَ كُلِّ ذِي ذَنْبٍ ، كَمَا جَعَلَ
 كُلَّ ذِي ذَنْبٍ دُونَكَ ، فَإِنْ أَخَذْتَ بِحَقِّكَ ، وَإِنْ عَفَوْتَ بِفَضْلِكَ . ثُمَّ قَالَ :

ذَنْبِي إِلَيْكَ عَظِيمٌ وَأَنْتَ أَعْظَمُ مِنْهُ
 فَخُذْ بِحَقِّكَ أَوْ لَا فَاصْفَحْ بِفَضْلِكَ عَنْهُ
 إِنْ لَمْ أَكُنْ فِي فَعَالٍ مِنَ الْكِرَامِ فَكُنْهُ

(١) امتنهه ابتذله : وأهانه (٢) يقول أن تطلبى ما تشائين ازا
 هذا القسم (٣) التمنية والمنية : بمعنى واحد (٤) يقال : هو
 لا يحير جوابا أى لا يرد (٥) كان ابراهيم بن المهدي أخو الرشيد لايه
 قد ادعى الخلافة بعد قتل الامين وقبل عودة المأمون من خراسان الى
 بغداد واعانه على ذلك كثير من أهل بغداد ثم خلع وغلب على أمره فاخفى
 حتى ظفر به المأمون . وكان ابراهيم بارعا في الادب حسن الغناء جيد
 الشعر توفى سنة ٢٤٢ هـ فى خلافة اخيه المعتصم .
 (٦) هيه مثل ايه للاستزادة او للاستنطاق فهى اسم فعل .

فقال المأمون : شاورت أبا إسحاق (١) والعباس فى قتلِكَ فأشارا به ، فقال :
 فما قلت لهما يا أمير المؤمنين ؟ قال المأمون : قلتُ لهما نبذوه بإحسان ونستأمره (٢)
 فيه فإنَّ غيرَ الله يغيرُ ما به . قال : أمّا أن يكونا قد نصحا فى عظيم بما جرت
 عليه السياسة فقد فعلا وبَلَّغَا ما يلزمهما وهو الرأى السديدُ ، ولكنك أبيت
 أن تستجلبَ النصر إلا من حيث عَوَّدَكَ الله . ثم استعبرَ باكيًا ، فقال له
 المأمون : ما يُبكيك ؟ قال : جَذَلًا إذ كان ذنبى إلى من هذه صفته فى الإنعام ؛
 ثم قال : إنه وإن كان قد بلغ جُرْمى استحلالَ دى فحلُم أمير المؤمنين وفضله
 يبلِّغَانى عفوه ولى بعدهما شفاعة الإقرار بالذنب ، وحق الأوبة بعد الأب . فقال
 المأمون : يا إبراهيم لقد حُبِّبَ إلىَّ العفو حتى خفتُ أن لا أوجر عليه . أمّا لو علم
 الناس ما لنا فى العفو من اللذة لتقرَّبوا إلينا بالجنيَّات ، لا تشريب (٣) عليك يغفر
 الله لك ، ولو لم يكن حق نَسَبِكَ ما يُبَلِّغُ الصفحَ عن جُرمك لبَلَّغت ما أملت
 حسنُ تنصُّلِكَ ، ولُطف توَصُّلِكَ ، ثم أمر بردَّ ضياعه وأمواله ؛ فقال إبراهيم :

رددت مالى ولم تبخل عَلىَّ به وقبل ردِّكَ مالى قد حَقَنْتَ دى
 وقام عِلْمُكَ بى فاحتجَّ عندك لى مقامَ شاهد عدل غير متهم
 فلو بذلت دى أبغى رضاك به والمال حتى أسلَّ النعل من قدى
 ما كان ذاك سوى عارية سلفت لو لم تهبَّها لكنت اليوم لم تُلم

(١) أبو إسحاق هو المعتصم بن الرشيد ، والعباس هو ابن المأمون
 ولقد أحسن إبراهيم فى تصويب رأيهما لأن ذلك أنجع فى طلب الرضا
 وأبلغ فى دفع المكروه من الاتِّدراء عليهما فى رأيهما (٢) أصل الاستأمر :
 المشاورة : والمراد هنا التجربة (٣) التشريب : اللوم والتعيير بالذنب
 (٤) حقن الدم : صانه .

استعطاف اسحاق بن العباس للمأمون

قال المأمون لإسحاق بن العباس : تحسبني أغفلتُ أمر ابن المهدي وتأيدك له وإيقادك لناره ؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين لأجرام قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم من جرئى إليك ، ولرحمى بك أمتن من أرحامهم ، وقد قال لهم كما قال يوسف - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - لإخوته (لا تشربَ عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) وأنت يا أمير المؤمنين أحق وارث لهذه الأمة فى الطول ، ومُتمثل^(١) لخلال العفو والفضل .

قال : هيهات ، تلك أجرام جاهلية عفا عنها الإسلام وجُرمك جرم فى أسلافك وفى دار خلافتك .

قال : يا أمير المؤمنين ، فوالله للمسلم أحق بإقالة العثرة وغفران الذنب من الكافر ، وهذا كتاب الله بينى وبينكم إذ يقول (سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أُعدت للمتقين * الذين يُنفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ . والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) والناس يا أمير المؤمنين نسبة دخل فيها المسلم والكافر والشريف والمشروف .

قال المأمون : صدقت ، ورت^(٢) بك زنادى ، ولا برحتُ أرى من أهلك أمثالك .

(١) امتثل طريقته : تبعها فلم يعدها . (٢) ورت بك زنادى ووقدت بك زنادى مثلان يقالان لمن أنجذك أو أرشدك . والمراد بهما اللعاء .

استعطاف الفصل (١) بن الربيع للمأمون

قال المأمون للفضل بن الربيع لما ظفر به : يا فضل ، أكان من حقّ عليك
وحق آباءى ونعمهم عند أبيك وعندك أن تثلبنى (٢) وتُسبى وتحرّض
على دى ؟ أتحبُّ أن أفعل بك ما فعلته بى ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، إن عذرى يحقُّدك إذا كان واضحاً جميلاً ،
فكيف إذا أخفّته العيوب ! وقبّخته الذنوب ! فلا يضيق عنى من عفوك
ما وسع غيرى منك ، فأنت كما قل الشاعر (٣) فيك :

صَفُوحٌ عن الأجرام حتى كَانَهُ من العفو لم يَعْرِف من الناس مجرماً
وليس يبالى أن يكون به الأذى إذا ما الأذى لم يغش بالكره مسلماً

استعطاف تميم بن جميل للمعتصم

كان تميم بن جميل السدوسى (٤) قد خرج بشاطئ الفرات ، واجتمع إليه
كثير من الأعراب ، فعظم أمره ، وبعد ذكره ، ثم ظفّر به ، وحمل موثقاً إلى باب
المعتصم ، فقال أحمد بن أبى دؤاد : ما رأيت رجلاً عاين الموت ، فما هاله (٥)
ولا شغله عما كان يجب عليه أن يفعله إلا تميم بن جميل ، فإنه لما مثّل بين

(١) هو الفضل بن الربيع بن يونس حاجب الرشيد ثم وزيره بعد
نكبة البرامكة ثم وزير الامين فى خلافته ويقال : انه هو الذى أوغر صدر
الرشيد على البرامكة حسدا لهم على منزلتهم وفيه يقول أبو نؤاس :
توفى الفضل سنة ٢٠٨ هـ . (٢) ثلّبه : تنقصه وصرح بعيبه . قال
الشاعر :

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

* لا يحسن التعريض الا ثلّبا *

(٣) القائل هو الحسن بن رجاء (٤) سدوس : بطن من بنى
شيبان ثم من بنى بكر (٥) هاله : أفزعه .

يدى المعتصم ، فَأَحْضِرَ السيفَ والنَّطْعُ^(١) وأوقف بينهما ، تَأَمَّلَهُ المعتصم -
وَكَانَ جَمِيلًا وَسِيمًا - فَأَحَبَّ أَنْ يَعْلَمَ أَيْنَ لِسَانُهُ وَجَنَانُهُ مِنْ مَنْظَرِهِ ، فَقَالَ :
تَكَلِّمْ يَا تَائِم . فَقَالَ : أَمَّا إِذَا أَذْنْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَأَنَا أَقُولُ الْحَمْدَ لِلَّهِ الَّذِي
أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ
مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ، جَبَّرَ بِكَ صَدْعَ^(٢) الدِّينِ ، وَلَمَّ بِكَ شَعَثَ^(٣) الْمُسْلِمِينَ ،
وَأَوْضَحَ بِكَ سُبُلَ الْحَقِّ ، وَأَخْمَدَ بِكَ شُهَابَ الْبَاطِلِ . إِنَّ الدُّنُوبَ تُخْرِسُ
الْأَلْسِنَةَ الْفَصِيحَةَ ، وَتُغَيِّى الْأَفْئِدَةَ الصَّحِيحَةَ ؛ وَلَقَدْ عَظُمَتِ الْجَرِيرَةُ ، وَانْقَطَعَتِ
الْحُجَّةُ ، وَسَاءَ الظَّنُّ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا عَفْوُكَ أَوْ انْتِقَامُكَ ، وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ أَقْرَبَهُمَا
مِنْكَ وَأَسْرَعَهُمَا إِلَى أَشْبَهَهُمَا بِكَ وَأَوْلَاهُمَا بِكَرَمِكَ ، ثُمَّ قَالَ عَلَى الْبَلْدِيَةِ .

أَرَى الْمَوْتَ بَيْنَ السِّيفِ وَالنَّطْعِ كَأَمِنًا يُلَاحِظُنِي مِنْ حَيْثَا أَتَلَفْتُ
وَأَكْبَرُ ظَنِّي أَنَّكَ الْيَوْمَ قَاتِلِي وَأَيُّ أَمْرٍ مِمَّا قَضَى اللَّهُ يُفْلِتُ؟^(٤)
وَأَيُّ أَمْرٍ يَأْتِي بِعَذْرِ وَحُجَّةٍ وَسَيْفُ الْمَنَايَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ مُصْلَتٌ
وَمَا جَزَعَنِي مِنْ أَنْ أَمُوتَ وَإِنِّي لِأَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْتَ شَيْءٌ مُوقَّتٌ
وَلَكِنْ خَلَقَنِي صَبِيئَةً قَدْ تَرَكْتُهُمْ وَأَكْبَادُهُمْ مِنْ حَسْرَةٍ تَتَفَتَّتْ
كَأَنِّي أَرَاهُمْ حِينَ أُنْعَى إِلَيْهِمْ وَقَدْ خَمَشُوا تِلْكَ الْوُجُوهُ وَصَوَّتُوا^(٥)
فَإِنْ عَشْتُ عَاشُوا خَافِضِينَ بِغَبْطَةٍ أَذُودُ الرَّدَى عَنْهُمْ وَإِنْ مِتُّ مُوتُوا^(٦)
وَكَمْ قَائِلٌ لَا يُبْعِدُ اللَّهَ رُوحَهُ وَآخِرُ جَذْلَانٍ يُسَرُّ وَيَشْمَتُ
فَتَبَسَّمَ الْمُعْتَصِمُ وَقَالَ : كَادَ وَاللَّهِ يَا تَائِمُ أَنْ يَسْبِقَ السِّيفُ الْعَدْلَ ، قَدْ وَهَبْتُكَ

(١) النطع : بساط من الجلد يفرش تحت من يراد قتله حتى لا يسقط دمه على الأرض (٢) الصدع : الشق فى الحائط ونحوه
(٣) الشعث : انتشار الامر والاشياء المتطرفة (٤) أفلت : تخلص ونجا
(٥) أصلت السيف : استله من غموه (٦) خمش وجهه : لطمه وهو من اب ضرب ونصر (٧) موتوا : كثر فيهم الموت .

للصبية ، وغفرت لك الصبوة (١) . ثم أمر بفك قيوده وخلع (٢) عليه .
وكتب الجاحظ إلى ابن الزيات يستعطفه وكان قد تنكر (٣) له وتلون عليه :

أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سرف (٤) الهوى ، وصرف
ما أعادك من الفوة إلى حب الإنصاف ، ورَجَّحَ فى قلبك إيثار الإنانة (٥) فقد
خفت - أيدك الله ! - أن أكون عندك عن المنسوبين إلى نزق (٦) السفهاء ،
ومجانبة سبل الحكماء ، وبعد فقد قال عبد الرحمن (٧) بن حسان بن ثابت :

وإن امرئاً أمسى وأصبح سالماً من الناس إلا ما جنى لسعيد

وقال الآخر (٨) :

ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطل

فإن كنتُ اجتُرأت - أصلحك الله ! - فلم أجترئ إلا لأن دوام تغافلك عنى
شبيهه بالإهمال الذى يورث الإغفال ، والعفو المتتابع يؤمن من المكافأة ، ولذلك
قال عُيَيْنَةَ (٩) بن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله : عمر كان خيراً لى منك
أرهبني فاتقاني (١٠) وأعطاني فأغداني ، فإن كنت لاتهب عقابي - أيدك الله ! -
لخدمة فهبه لأيديك عندي ، فإن النعمة تشفع فى النقمة ، وإلا تفعل ذلك
فعد إلى حسن العادة ، وإلا فافعل ذلك لحسن الأحداث (١١) ، وإلا فأت
ما أنت أهلّه من العفو دون ما أنا أهلّه من استحقاق العقوبة ؛ فسبحان من

(١) الصبوة : الزلة وجهلة الشباب (٢) خلع عليه خلعة : منحه
بعض ثيابه وقد يراد به مطلق العطاء (٣) تنكر له : تغير (٤) السرف :
مجاوزة الحد (٥) الإنانة : الحلم والوقار (٦) النزق : الخفة والطيش
(٧) هكذا يقول الجاحظ ، وغيره ينسب البيت لحسان نفسه . راجع
الآغانى (٨) من الناس من يروى هذا البيت فى جملة أبيات لكعب بن
زهير ، ومنهم من يرويه لمحمد بن حازم الباهلى ، راجع الآغانى (٩) هو
سيد بنى ذبيان فى صدر الاسلام وهى سلالة حذيفة بن بدر الفزارى
الذى كان السبب فى حرب داحس والغبراء (١٠) اتقاه : صيره تقياً
(١١) الأحداث : الحديث والسيرة . جمعها أحاديث .

جعلك تغفو عن المتعمد وتتجافى (١) عن عقاب المصير (٢) ؛ حتى إذا صرت إلى من هفوت ذكر (٣) ، وذنبه نسيان ، ومن لا يعرف الشكر إلا لك والإنعام إلا منك هجمت عليه بالعقوبة . واعلم - أيدك الله ! - أن شين غضبك على كزين صفحك عني ، وأن موت ذكرى مع انقطاع سبى منك كحياة ذكرى مع اتصال سبى بك (٤) . واعلم أن لك فطنة عليم وغفلة كريم والسلام .

استعطاف رجل من أهل الشام للمنصور

يا أمير المؤمنين من انتقم فقد شفى غيظه وانتصف ، ومن عفا تفضل ، ومن أخذ حقه لم يجب شكره ، ولم يذكر فضله ، وكظم الغيظ . حلم والتشفي طرف من الجزع ، ولم يمدح أهل التقوى والنهى من كان حليماً بشدة العقاب ولكن بحسن الصفح والاعتفار وشدة التغافل . وبعد : فالمعاقب مستودع لعداوة أولياء المذنب (٥) والعافى مُسترع لشكرهم آمن من مكافأهم ، ولأن يُثنى عليك باتساع الصدر خير من أن توصف بضيقه ، على أن إقالتك عثرات عباد الله موجبة لإقالة عثرتك من ربهم موصولة بعفوه ، وعقابك إياهم موصول بعقابه . قال الله عز وجل : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » .

روح بن زنباع يستعطف معاوية

أراد معاوية معاقبة رُوح بن زنباع ، فقال : يا أمير المؤمنين أنشدك الله تعالى

(١) تتجافى : تتباعد (٢) أصر على الذنب استمر (٣) يقول : هفوته هى تذكر الهفوة أو جريها على لسانه (٤) التشبيه فى هاتين الفقرتين من قبيل قولهم فى التفضيل : العسل أحلى من الخل . يقول : ان مقدار قبح الفضب كمقدار حسن الصفح وان مقدار موت الذكر عند الانقطاع مثل مقدار حياته عند الاتصال (٥) الاولياء : الاهل والاقارب

أَلَا تَضَعُ مِنِّى خَسِيسَةً أَنْتَ رَفَعْتَهَا أَوْ تَنْقُصُ مِنِّى مَرِيرَةً (١) أَنْتَ أَبْرَمْتَهَا (٢)
أَوْ تَشْمِتُ بِّى عَدُوًّا أَنْتَ كَبَبْتَهُ (٣) ، وَحَاسِدًا بِكَ وَقَمْتَهُ (٤) وَأَسْأَلُكَ بِاللَّهِ
إِلَّا أَرَبِّى حِلْمَكَ عَلَى خَطِئٍ وَصَفْحَكَ عَلَى جَهْلِى . فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : إِذَا اللَّهُ سَنَى (٥)
عَقْدَ شَيْءٍ تَيْسَرَا ، وَعَفَا عَنْهُ .

وقد أَلَمَّ المتنبي يقول رَوْحٌ إِذْ يَقُولُ :

أَزَلَّ حَسَدَ الْحُسَادِ عَنِّى بِكَبَبَتِهِمْ فَأَنْتَ الَّذِى صَيَّرْتَهُمْ لِّى حُسَدًا
إِذَا شَدَّ زَنْدِى حُسْنُ رَأْيِكَ فِى يَدِى [] ضَرَبْتُ بِسَيْفٍ يَقْطَعُ الْهَامَ مَغْمَدًا

ابن الرومى يستعطف القاسم (٦) بن عبيد الله

كتب ابن الرومى يستعطف القاسم بن عبيد الله :
تَرَفَّعَ عَن ظُلْمِى إِنْ كُنْتُ بَرِيئًا ، وَتَفَضَّلَ بِالْعَفْوِ إِنْ كُنْتُ مُسِيئًا ؛ فَوَاللَّهِ
إِنِّى لَأَطْلُبُ عَفْوَ ذَنْبٍ لَمْ أَجْزِهِ ، وَأَلْتَمَسُ الْإِقَالَةَ مِمَّا لَا أَعْرِفُهُ ، لِيَتَزَادَ تَطَوُّلًا (٧)
وَأَزْدَادَ تَذَلُّلًا . وَأَنَا أُعِيدُ حَالِى عِنْدَكَ بِكَرَمِكَ مِنْ وَاشٍ يَكِيدُهَا ، وَأَحْرُسُهَا
بِوَفَائِكَ مِنْ بَاغٍ يُحَاوِلُ إِفْسَادَهَا ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ حَظِّى مِنْكَ بِقَدْرِ
وُدِّى لَكَ ، وَمَحَلِّى مِنْ رَجَائِكَ بِحَيْثُ أَسْتَحِقُّ مِنْكَ . وَالسَّلَامُ .

(١) المريرة : الحبل الشديد القتل (٢) أبرم الحبل : أجاد قتله ،
والامر : أحكمه (٣) كبته : أذله وغازله وصرعه لوجهه (٤) وقمه :
قهره (٥) سنى الشيء : فتحه وسهله ، وهذا شطر بيت وهو :
وأعلم علما ليس بالظن أنه إذا الله سنى عقد شيء تيسرا
(٦) هو القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب وبيته بيت وزارة وكتابة
وأدب ، فقد كان وزيرا ابن وزير اما الكتابة فهو فيها معرق لانه يرثها عن ثمانية
آباء متعاقبين منذ خلافة يزيد بن معاوية وكان عظيم الهيبة شديد الاقدام
سفاكا للدماء وهو الذى دس لابن الرومى السم فى الطعام خوفا من لسانه
توفى سنة ٢٩١ هـ وعمره نيف وثلاثون (٧) التطول : الانعام .

وكتب إليه :

لو كان فى الصَّمت موضع يَسعُ حالى لَخَفَفْتُ عَنْ سَمْعِ الوَزيزِ ونَظَرِهِ ،
ولم أَشْغَلْ وَجْهًا من فِكرِهِ ، وما زالت الشكوى تُعربُ عن لسان البَلى .
ومن اختلت حالته كان فى الصَّمت هَلَكته (١) ، وقد كان الصَّبر يَنْصُرُنِي عَلَى
سِترِ أَمْرِى حَتَّى خَذَلَنِي .

استعطاف للخوارزمي

لَوْ بِغَيْرِ المَاءِ حَلَقِي شَرْقُ كُنْتُ كَالْغَصَّانِ بِالماءِ اعْتِصَارِي (٢)
كيف يَقْدِرُ - أَبْقَى اللهُ السَّيدَ ! - عَلَى الدَّوَاءِ ، مَنْ لَا يَهْتَدِي إِلَى أَوْجِه الدَّاءِ ؟
وكيف يَدَارِي أَعْدَاءَهُ مَنْ لَا يَعْرِفُ الْأَعْدَاءَ مِنَ الْأَصْدِقَاءِ ؟ أَمْ كَيْفَ يَسْرِي
بِلا دَلِيلٍ فى الظُّلُماءِ ؟ أَمْ كَيْفَ يَخْرُجُ الهَارِبُ مِنْ بَيْنِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ؟ الْكَرِيمُ
- أَيْدَ اللهُ مَوْلَايَ ! - إِذَا قَدَّرَ غَفَرَ ، وَإِذَا أَوْثَقَ أَطْلَقَ ، وَإِذَا أَسْرَ أَعْتَقَ . وَلَقَدْ
هَرَبْتُ مِنَ الشَّيْخِ إِلَيْهِ ، وَتَسَلَّحْتُ بِعَفْوِهِ عَلَيْهِ ، وَأَلْقَيْتُ رِبْقَةَ (٣) حَيَاتِي وَمِمَاتِي
بِيَدَيْهِ ، فَلْيَذِقْنِي حَلَاوَةَ رِضَاهِ عَنى كَمَا أَذَاقَنِى مَرَارَةَ انْتِقَامِهِ مِنِّى ، وَلْتُلْحِ (٤) عَلَى
حَالِي غُرَّةَ (٥) عَفْوِهِ كَمَا لَاحَتْ عَلَيْهَا مَوَاسِمُ (٦) غَضَبِهِ وَسُطُوهُ ، وَلِيَعْلَمْ أَنَّ الْحَرَّ
كَرِيمَ الظَّفَرِ إِذَا نَالَ أَقَالَ ، وَأَنَّ اللَّئِيمَ لئيمَ الظَّفَرِ إِذَا نَالَ اسْتَطَالَ (٧) ، وَلِيُغْتَنَمَ
التَّجَاوُزُ عَنْ عَثَرَاتِ الْأَحْرَارِ ، وَلِيُنْتَهَزَ فُرْصُ الْاِقْتِدَارِ ، وَلِيُحْمَدَ الَّذِى أَقَامَهُ
مَقَامَ مَنْ يَرْتَجَى وَيَخْشَى ، وَرَكِبَ نَصَابَهُ فى رَتْبَةِ شَابِ الزَّمَانِ وَمَجْدُهَا فِى ،

(١) الهلكة الهلاك (٢) الشرق بالماء كالغصة بالطعام والاعتصار
معالجة الفصص بشرب الماء قليلا قليلا ، والبيت لعدي بن زيد العبادي
الشاعر الجاهلي من قصيدة يستعطف بها النعمان بن المنذر يقول ان
الانسان اذا غص بالطعام عاجله بالماء فماذا يصنع اذا كانت غصته بالماء
نفسه (٣) الرقيقة العروة التى يربط بها ويراد بها الزمام (٤) لاح
ظهر (٥) الغرة بياض فى وجه الحيوان والمراد هنا الاثر (٦) المواسم:
العلامات (٧) استطال : تطاول واعتدى .

وَأَخْلَقَ الْعَالَمَ وَذَكَرَهَا طَرِيًّا ، وَلِيَعْتَقِدَ أَنَّهُ قَدْ هَابَهُ مِنْ اسْتَتَرَ ، وَلَمْ يَذْنِبْ إِلَيْهِ مِنْ اعْتَذَرَ . وَفَقَ اللَّهُ تَعَالَى الشَّيْخَ لَمَّا يَحْفَظُ عَلَيْهِ قُلُوبَ أَوْلِيَائِهِ ، وَعَصَمَهُ مِمَّا يَزِيدُ بِهِ فِي جَمَاعِمِ أَعْدَائِهِ .

اعتذار لسعيد بن حميد

كتب سعيد (١) بن حميد يعتذر :

أَنَا مِنْ لَا يَحَاجُّكَ عَنْ نَفْسِهِ ، وَلَا يُغَالِطُكَ عَنْ جُرْمِهِ ، وَلَا يَلْتَمِسُ رِضَاكَ إِلَّا مِنْ جِهَتِهِ ، وَلَا يَسْتَدْعِي بِرِّكَ إِلَّا مِنْ طَرِيقَتِهِ ، وَلَا يَسْتَغْفِرُكَ إِلَّا بِالْإِقْرَارِ بِالذَّنْبِ ، وَلَا يَسْتَمِيلُكَ إِلَّا بِالْاعْتِرَافِ بِالْجُرْمِ . نَبَتْ بِي عَنْكَ غِرَّةُ الْحَدَاثَةِ ، وَرَدَّتْنِي إِلَيْكَ الْحُنُكَةُ (٢) ، وَبَاعَدْتَنِي مِنْكَ الثِّقَةُ بِالْأَيَّامِ ، وَقَادَتْنِي إِلَيْكَ الضَّرُورَةُ ؛ فَإِنْ رَأَيْتَ أَنَّ تَسْتَقْبِلُ الصَّنِيعَةَ بِقَبُولِ الْعُذْرِ ، وَتَجِدُّ النِّعْمَةَ بِاطْرَاحِ الْحَقْدِ فَإِنْ قَدِيمِ الْحَرَمَةِ وَحَدِيثِ التَّوْبَةِ يَمَحِقَانِ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْإِسَاءَةِ ، وَإِنْ أَيَّامُ الْحَيَاةِ وَإِنْ طَالَتْ قَصِيرَةً ، وَالْمُتَعَّةُ بِهَا وَإِنْ كَثُرَتْ قَلِيلَةً .

اعتذار لابی على البصير

كتب أبو على البصير يعتذر :

أَنَا أَحَدُ مَنْ أَسْكَنْتَهُ ظِلَّكَ ، وَأَعْلَقْتَهُ حَبْلُكَ (٣) ، وَحَبَوْتَهُ بِلَطِيفِ بِرِّكَ وَخَاصَ عَنَائِتِكَ ، وَانْتَصَفَ بِكَ ، وَلَا يَعْتَمِدُ إِلَّا عَلَيْكَ ، وَلَا يَسْتَنْجِحُ (٤) طَلِبُهُ إِلَّا بِكَ ، وَقَدْ كَانَ فَرَطَ . مِنْنِي قَوْلُ إِنْ تَأَوَّلْتَهُ (٥) لِي أَرَاكَ وَجْهَ عُذْرِي وَقَامَ

(١) هو من أولاد الدهاقين ، كاتب شاعر مترسل حسن الكلام فصيح ، أخذ عن الإمام الاعرابي ويؤخذ عليه أنه كثير الإخذ للكلام غيره .
(٢) الحنكة : خبرة التجارب (٣) وصلته وقيدته بزمام مسودتك (٤) استنجح حاجة وتنجحها : تنجزها وطلب نجاحها (٥) أول الكلام وتأوله فسرّه .

عندك بحجتي ، فأغثنى عن تأكيد الإيمان على حُسن نيّتي ، وإن تأولته على أحاق (١) بى لائمك (٢) وحبسنى على أسوأ حال عندك . وقد أتيتنى معترفاً بالزلة ، مُستكيناً (٣) للموجدة (٤) عائداً بالصفح والإقامة ، فإن رأيت [أن] تُقرّ عيناً قرت بنعمتك عندى ، ولا تسلبنى منها ما ألبستنى ، وأن تقتصر من عقوبتى على المكروه الذى نالنى بسبب عتبك علىّ ، وتأمّر بتعريفى رأيك بما يُطامن (٥) هلى ، وتَسْكُنُ إليه نفسى ، ويأْمُنُ به رَوْعى (٦) ، فعلت ، إن شاء الله .

وكتب البديع إلى القاسم الكرخى يعتذر :

يعزّ علىّ - أطال الله بقاء الشيخ الرئيس ! - أن ينوب فى خدمته قللى ، عن قدمى ، ويسعد برؤيته رسولى ، دون وصولى ، ويرد شرعة (٧) الأنسى به كتابى قبل ركابى ، ولكن ما الحيلة والعوائق جمّة :

وَعَلَى أَنْ أَسْعَى وَلَيْسَ عَلَى إِدْرَاكِ النَّجَاحِ

وقد حضرت داره ، وقبّلت جدّاره ، وما بى حب الجدران ، ولكن شغفاً بالقُطان ، ولا عشق الحيطان ، ولكن شوقاً إلى السكان (٨) ، وحين عدّت (٩) العوادى عنك أملت ضمير الشوق على لسان القلم معتذراً إلى مولاي عن تقصير وقع ، وفُتور فى الخدمة عرض ، ولكنى أقول :

إن يكن تركى لقصدك ذنباً فكفى أن لا أراك عقاباً

(١) أحاق : أنزل (٢) اللائمة : اللوم (٣) استكان : خضع ، وهو من الكون فوزنه افتعال بزيادة الالف للشباع كما قالوا فى انظر (انظور) ويرى بعض الناس أنه من الكون وليس بوجه لان المعنى لايعنيه (٤) الموجدة : الفضب (٥) يطامن : يخفض يخفف (٦) الروع القلب وهو أيضا الفزع والخوف (٧) الشريعة والشرعة والمشرعة مورد الشاربة من الماء (٨) ألم البديع هنا بقول الشاعر :

أمر على الديار ديار ليلي

أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شفقن قلبى
ولكن حب من سكن الديارا

(٩) منعت الموانع .

الباب الثاني

الفصل الثانى (١) فى رسائل حسن التقاضى والطلب

كتب عبد الله بن سليمان أبو العيناء المتوفى سنة ٢٨٢ هـ :
 أنا - أعزك الله ! - وعيالى زرعٌ من زرعك ، إن أسقيته راع (٢) وزكا ،
 وإن جفوته ذبل وذوى (٣) ، وقد مسنى منك جفاء بعد بر ، وإغفال بعد
 تعاهد ، حتى تكلم عدو ، وشميت حاسد ، ولعبت بى ظنون رجال كنت بهم
 لاعباً ، ولهم مخرساً :

لا تهنى بعد أن أكرمتنى وشديداً عادةً منتزعة

وكتب المرحوم عبد الخالق باشا ثروت :

إليك - يا من قد استأسر النفوس بكرمه ، واسترق الأحرار بجميل صنعه ،
 وأولى النعم والخيرات ، وأسدى المعروف والمبرات - أرفع كتاباً ، تبعته إلى
 ناديك العالى عوامل الحاجة ، وتنزجيه (٤) إلى ساحتك دواعى الشدة ، أمل أن
 يكون تذكرة بأمرى (والذكرى تنفع المؤمنين) وتذكرة بحالى (والله لا يضيع
 أجر المحسنين) فقد كان سيدى ، رفع الله قدره وأعلى مرتبته ، وعدى - ومثله
 من يتمسك من الوفاء بالعروة (٥) الوثقى ، ويقطع حبل الإخلاف بسيف الوفاء ،
 ويطرز خلعة الوعد بوشى العطاء - أن يرسل إلى من خيراته ويوليبنى من آلائه
 وحسناته ، ويضاعف لى من مننه ، ويزيدنى من عطائه ما أشد به أزرى (٦) على
 الزمان ، وأطاول به نوائب الحدثان (٧) ، فقد بارزنى الدهر بسيوفه ، ورمانى

(١) والفصل الأول فى الرسائل التجارية التى أغفلناها فى كتابنا
 هذا لان لها مؤلفات خاصة بها فارجع اليها اذا شئت (٢) نما وزاد .
 (٣) ذبل (٤) تدفعه (٥) من الحبل الوثيق المحكم (٦) ظهري .
 (٧) بفتح الحاء والدال أو بكسر الحاء وسكون الدال حوادث الدهر .

بسهامه ، وأناخ (١) على بكلا كليه (٢) . وقد طال الأمد (٣) على حاجتى عند سيدى - أطال الله بقاءه ! - حتى شاب غراب شبابها ، وصاح بجانب ليلها ، فخنفت أن تكون هبت عليها ريح النسيان ، وعصفت (٤) بها عاصفة (٥) الجِدْثان (٦) . فكتبتُ إلى سيدى ومولاي تلك الرقعة ، أستعجلُ بها برّه ، وأستدِرُّ بها ضرعَ عطائه ، علماً بأن التعجيل يُكَبِّرُ العطية وإن كانت صغيرة ، ويكثرها وإن كانت يسميرة ؛ فعسى أن يكون قد لآح نجم النجاح ، وهب نسيم الفلاح فيُرسلُ إلى سيدى سحاب كرمه ، ويمطرني من غياث فضله ، فتَرِفُ (٧) غصون آملى بعد ذبولها ، وتضحك وجوه مطالبي بعد عبوسها ، وأملئ فى ذلك فسيح ، فإن سيدى من أكرم الناس نسباً وأشرفهم حسباً ، ومثله جدير (٨) بحفظ العهد وإنجاز الوعد . فإن رأى سيدى أن يخفف ثقل الحاجة عني ، ويرد ما سلبه الدهر منى بقطرة من بحر عطائه ، ومِنَّة (٩) من بعض آلائه (١٠) ، ويُجبر ما كسره الفقر من جناحي ، ويرد عني النوائب لا تفتأ (١١) تتولانى ، عقدت لسانى على مدحه ، ووقفت نفسى على شكره ، فيُحرز من الله أجراً جزيلاً ، ومنى شكراً جميلاً ، إن شاء الله بمنه وكرمه .

وكتب المرحوم أحمد بك رأفت :

السيد الكامل - أدام الله علاؤه ، وأطال بقاءه ، وجعله مؤثلاً (١٢) الكرم ، ومُسْدِي النعم - قد غمرني بنعمائه ، وطوقني بآلائه ، حتى قصرتُ حَمْدِي عليه ، وأمسكت لسانى عن الشكر إلا إليه . وكان من مَنِّهِ على وأياديه البيضاء لدى أن

(١) مال (٢) مصائبه (٣) الفاية (٤) اشتدت (٥) الريح (٦) حوادث الدهر (٧) تتلألا (٨) حقيق (٩) نعمة (١٠) آلائه : أفضاله (١١) تستمر (١٢) ملجأ .

وعندى يُقْلَدُنِي فى أول العام وظيفةً عاليةً ، ومرتبةً ساميةً ، فاخضَلْ (١) رَوْضُ
الْأَمَلِ بعد ذبوله ، وبزغ (٢) كوكبُه بعد أفوله (٣) واتسع نطاقه (٤) واستبشَرَ
الْقَلْبُ بنيل أمنيته ، والحصول على طَلْبَتِهِ . واشتدَّ أَزْرِي (٥) على مقارعة
كُتَّاب (٦) الزمان ، وقوى جنائى على صد جيوش الحداث ؛ وما زالت بي الأيام
حتى حان أولُ العام ، وما تحقَّق الرعدُ ، أو أوفى العهدُ . ومثل السيّد من إذا
وعد وفَّى ، أو تعهد أوفى :

أَوْفَى دِينَ ذِي الْمَعْرُوفِ يَجْمَلُ أَنْنِي تنوءُ بِي الْبُؤْسَى وَيُثْقِلُنِي الْعُسْرُ
وَأَنْتَ الَّذِي أَعْطَى الْمَكَارِمَ حَقَّهَا ولم يحكْ جَدُّوَاكُ السَّحَابَ وَلَا الْبَحْرُ
فَعَجَّلَ فَخِيرُ الْبِرِّ يُحْمَدُ عَاجِلًا وَأَوْفَ فَوْعَدِ الْحَرِّ دِينَ بِهِ الْحَرُّ

هذا ؛ ولكننى رجعت وحرَّمت العقل ، فعذرتُ السيد ، وحملتُ ذلك
على أنه إنما لم يعجلُ بإنجاز وعده ، وإيفاء عهده ، إلا لتقليد عبده وظيفةً
أسمى ومرتبةً أعلى ، علّه يستدرك ما فات ، ويُحسنُ إلى عبده فيما هو آت .

وكتب الفاضل عبد العزيز بك محمد :

عهدى بالسيد الجليل - أدامه الله مصدراً للمكارم تَشْتَقُّ مِنْهُ صِفَاتُهَا ،
ومظهرًا للمفضائل تتجلى فيه آياتها ، سبَّاقاً إلى غايات المجد دَرَاكَا لِمَطَالِبِ الْحَمْدِ ،
أَرِيحِيًّا (٧) لَا يَصْبُو (٨) إِلَّا إِلَى إِسْدَاءِ الْمُنَى (٩) ، جَوَادًا لَا يَطْمَعُ طَرْفُهُ فِي بَثِّ
عَوَارِفِهِ إِلَى ثَمَنِ ، مَا أَمَّهُ (١٠) أَسِيرُ فَاقَةِ (١١) إِلَّا وَالنِّي (١٢) لَدَيْهِ كَهْنًا مَنِعًا ؛
وَجَاهًا رَفِيعًا ، وَمَا قَصْدُهُ ذُو حَاجَةٍ إِلَّا وَصَدَرَ (١٣) عَنْ مُورِدِ (١٤) فَضْلِهِ

(١) صار نديا (٢) طلع (٣) غيبته (٤) ثوبه (٥) ظهري
(٦) الجيوش (٧) يرتاح للعطاء (٨) لا يميل (٩) احسان
(١٠) قصد (١١) فقر (١٢) وجد (١٣) رجع (١٤) مكان
الورود .

شادياً (١) بثنائه ، معلناً بولائه . وإن لى إلى السيد حاجة إن لم يُسعف بقضائها .
فياحسرة نفسى وطول شقائها . وليست هذه بأول مرة استمحت (٢) فيها على
مروءته ، واستمطرت صيب (٣) همته ، فإنه طالما طوّفتى قلائد نعمه ، وأرسل
على مدرار (٤) كرمه ، فليجرفى هذه أيضاً عادته ويقابلنى بما عودنى من كرامته .
ومعاذ الله أن أسأله ما ليس فى وسعه ، أو أن أستقضيه شيئاً يحرض على
منعه . ولكننى :

أريدُ بسطةً كفَّ أَسْتَعِينُ بها على قضاءِ حقوقِ للعلَى قِبَلِي

والذى يكفل لى البسطة : أن يقلدنى سيدى وظيفة مناسبة لحالى ، حتى
تكون لى درعاً أتقى بها مهانة الفقر ، وسيفاً أكفُّ به عوادم الدهر ، ومالى
والإقسام عليه فى إنالتى هذه البغية ، بنفيس وقت قضيته فى خدمة العلم ، واقتناء
أبكاره ، وطويل عناء تحملته فى مزاوله (٥) الأدب واكتشاف أسرارهِ ، ونفسي
ارتاضت (٦) بالفضل ، وآثرت (٧) غصة الفقر على منّة البذل ، وله من سنيات (٨)
الفضائل (٩) وعليات الفواضل (١٠) وجليات المآثر ، وجليات المفاخر - ما لو
أقسم به عليه فى إنالة أعز المطالب ، لألزمه كرم سجاياه برّ ذلك القسم ،
وإجابة دواعى الهمم ، وإنك لفاعل إن شاء الله تعالى .

وكتب فقيد الأدب حسن افندى توفيق العدل ، المتوفى ببلندن سنة
١٣٤٢ للهجرة :

كتابى إلى ربّ النعماء ، واليدِ البيضاء ، وقد أصبحت كما قال الحريرى :

(١) مترنماً (٢) سأله العطاء (٣) السحاب (٤) ما يدبر بالمطر
(٥) معاناته (٦) تمرنت (٧) اخترت (٨) عاليات (٩) جمع
فضيلة . وهى الدرجة (١٠) جمع فاضلة ، وهى النعمة الجليلة .

«خاوى» (١) الوفاض (٢) بادی (٣) الإنفاض (٤) ، لا أملك بُلغة (٥) ، ولا أجد فى جرابى مضنة « (٦) - قد التوى على أمرى ، وثقل من حاجتى ظهري ومدّ الاحتياجُ إلى أطنابه (٧) ، وسرْبلى (٨) الافتقار إهابه (٩) ، والدنيا مكدوة بأحداثها (١٠) وقصورها منغصةٌ بأحداثها (١١) نعيمها يصفو (١٢) ولكن لا يصفو. وأنت - كما أعلم - مفرّج كُرْبتى ، ومُنقِذ من شدتى ، بطُرفة (١٣) من طرف رِفدك (١٤) ، ولمحةٍ من لمحات برك (١٥) فإن استدرّرت (١٦) حلوبة (١٧) مالك ، فقد لاذ غيرى بجاهلك ، ما يمت (١٨) غيرك . وكيف يقصد النهر ، من جاور البحر ، ويحتاجُ إلى النجم من يسرى فى ضوء البدر ؟ فاستهز عطف (١٩) جودك وأستمطرُ سحاب كرمك . كيف لا وأنت قبلة المعروف ! وملاذ الملهوف ! إليك تُشد الرّحال ، وبك تُناط. الآمال ، أولياؤك منك فى ظلّ ممدود ، وهناك وسعود . أفأنت الشمس عمّت بالإشراق ؟ ! أو الغيث والى الاندفاق ؟ ! - لكن :

مَنْ قاسَ جدواك يوماً بالسحب أخطأ مدحك
فالسحبُ تعطى وتبكي وأنت تعطى وتضحك
نسب الكرم بك عريق ، وروض المجد أنيق ، أصل راسخ ، وفروع شامخ ، تهتز للمكارم اهتزاز الحسام ، وثبتت أمام الشدائد بغير بسام :
ترأه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذى أنت سائله
حكمت الآمال فى أموالك ، واستعبدت الأحرار بفعالك ، ينباع الجود من أملك تتفجر ، وربيع السماح بك ضاحك لا يضجر ، فلا زلت

(١) خالى (٢) بكسر الواو جراب الزاد (٣) ظاهر (٤) فناء الزاد والمال (٥) بضم الباء المؤنة القليلة (٦) انتهى كلام الحريرى (٧) حبال الخيمة (٨) البسنيه قميصاً (٩) جلدة (١٠) مصائبها (١١) حدوثها (١٢) يكسو (١٣) بنعمة (١٤) عطائك (١٥) احسانك (١٦) استحلّبت (١٧) ما تحلب (١٨) ما قصدت (١٩) جانب

مولاي ممتعاً بشرف سجاياك وشيمك . مستمداً الشكر من غراس نعمك ،
ولا زالت الأدام تنتفع بتلك الشيم وتجنى ثمار ذلك الكرم . ودمت للمكارم
بندرتيم لا يزاله خسوف ، وشمس فضل لا يلحقها كسوف ، أطال الله لك
البقاء ، كتطول يديك بالعطاء ، آمين .

استمناح رجل لعبد الملك بن مروان

وَقَدْ رَجُلٌ مِنْ بَنِي ضَبَّةَ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فَقَالَ :

وَاللَّهِ مَا نَدْرِي إِذَا مَا فَانَدَا طَلَبَ إِلَيْكَ مِنَ الَّذِي نَتَطَلَّبُ ؟
فَلَقَدْ ضَرَبْنَا (١) فِي الْبِلَادِ فَلَمْ نَجِدْ أَحَدًا سِوَاكَ إِلَى الْمَكَارِمِ يُنْسَبُ ؟
فَاصْبِرْ لِعَادَاتِنَا الَّتِي عَوَّدْتَنَا أَوَّلًا ، فَأَرْشَدْنَا إِلَى مَنْ نَذْهَبُ ؟

فقال عبد الملك : إِلَى ! إِلَى ! وَأمر له بألف دينار ، ثم أتاه في العام
المقبل فقال :

يَرْبُّ (٢) الَّذِي يَأْتِي مِنَ الْخَيْرِ أَنَّهُ إِذَا فَعَلَ الْمَعْرُوفَ زَادَ وَتَمَمَّا
وَلَيْسَ كِبَانٍ حِينَ تَمَّ بِنَاؤُهُ تَتَبَّعَهُ بِالنَّقْضِ حَتَّى تَهْلُمَّا

فأعطاه ألفي دينار . ثم أتاه في العام الثالث فقال :

إِذَا اسْتَمَطَرُوا كَانُوا مَغَازِيرَ (٣) فِي النَّدَى يَجُودُونَ بِالْمَعْرُوفِ عَوْدًا عَلَى بَدْءِ
فأعطاه ثلاثة آلاف دينار .

(١) ضرب فى الارض سافر (٢) رب : زاد وأصلح (٣) أغزر
المعروف جعله غزيرا . والمغازير لا يكون الا جمعا لمغزار أو مغزير من صيغ
المبالغة ولم أجدهما فى اللسان والقاموس ، وفى المخصوص سحابة
مغزار : غزيرة فيكون جمعا لمغزار (حتا) .

استمناح العتّابى لاحد اصدقائه

كتب كلثوم^(١) بن عمرو العتّابى إلى صديق له :
 أَمَا بَعْدُ - أَطالَ اللهُ بقاءَكَ ، وجعله يمتدّ بك إلى رضوانه ، وَالْجَنَّةُ - فَإِنَّكَ
 كنتَ عندنا رَوْضَةً من رياض الكَرَمِ ، تبتَهجُ النفوسُ بها ، وتستريحُ القلوبُ
 إليها ، وَكُنَّا نُعْفِيهِهَا من النُّجْجَةِ^(٢) امتتاماً لَزَهْرَتِهَا ، وشفقة على خُضْرَتِهَا :
 وادّخاراً لثمرتها ، حتّى أصابتنا سَنَةٌ كانتَ عندى قطعةً من سِنَى يوسف ،
 واشتدّ علينا كَلْبُهَا^(٣) ، وغابت قِطْعَتُهَا وكذبنا غُيُومُهَا ، وَأَخْلَفَتْنَا بِرُوقُهَا :
 وفقدنا صالح الإخوان فيها ، فَانْتَجَعْتُكَ . وَأَنَا بَانْتِجَاعِي إِيَّاكَ شديد الشَّفَقَةِ
 عليك ، مع عِلْمِي بِأَنَّكَ موضع الرائد^(٤) ، وَأَنَّكَ تُعْطَى عين الحاسد ، والله
 يعلم أنّى ما أَعْدُكَ إِلَّا فى حِوْمَةِ^(٥) الأهل .

واعلم أنّ الكَرِيمَ إذا استَحيا من إعطاء القليل ولم يُمكنه الكثير لم يُعرَفْ
 جودُهُ ولم تَظهر هِمَّتُهُ ، وَأَنَا أَقول فى ذلك^(٦) :

إذا تَكَرَّمْتَ عن بذل القليل ولم تَقْدِرْ على سَمَةِ لم يَظْهر الجودُ
 بُثَّ النَّوَالُ ولا تَمْنَعُكَ قِلَّتُهُ فكلُّ ما سَدَّ فَقراً فهو محمود

قيل : فشاطره جميع ماله .

(١) من سلالة عمرو بن كلثوم صاحب المعلقة ، وكان شاعراً مترسلاً
 بليفاً مطبوعاً متصرفاً فى فنون الشعر من شعراء الدولة العباسية ومن
 شعره فى الشكر :

فألو كان للشكر شخص يبين إذا ما تأمله الناظر
 لمئاته لك حتى تراه لتعلم أنى امرؤ شاكر

وله مع الرشيد والمأمون والبرامكة أخبار ونوادر .

(٢) النجعة طاب الكلا فى موضعه (٣) الكلب : القحط وبلاء
 الشتاء ومرض يصيب الكلاب (٤) الرائد الطالب (٥) الحومة هنا
 الجماعة والطائفة (٦) كذا ذكر القالى فى أماليه وقد حذفنا من روايته
 ثلاثة أبيات قليلة الاتصال بالفرض . هذا والمعروف أن هذه الأبيات
 لشاعر سُمى حماد عجرد أو لشاعر بن برد لا للعتّابى وتبعة هذا على
 القالى .

استمناح أعرابية لعبد الله بن أبى بكره

دخلت أعرابية على عبد الله بن أبى بكره (١) بالبصرة ، فوقفت بين السماطين (٢) ، فقالت : أصلح الله الأمير وأمتع به - حذرنا إليك سنة اشتد بلاؤها ، وانكشف غطاؤها ، أقود صبية صغاراً ، وآخرين كباراً ، فى بلدة شامعة تخفينا خافضة ، وترفعنا رافعة ، للممات من الدهر أذهب لحمى وبرين عظمى ، وتركنى والهة (٣) أدور بالحضيض ، وقد ضاق بى البلد العريض ، فسألت فى أحياء العرب : من الكاملة فضائله ، الموعطى سائله ، الكافى نائله ؟ فذلت عليك - أصلحك الله تعالى ! - وأنا امرأة من هوازن (٤) ، قد مات الوالد ، وغاب الرافد ، وأنت بعد الله غيائى ومنتهى أملى ، فاصنع بى إحدى ثلاث خصال : إما أن تردنى إلى بلدى أو تحسن صفدى (٥) ، أو تقيم أودى (٦) .

فقال : بل أجمعهن لك ، ولم يزل يجرى عليها كما يجرى على عياله حتى ماتت .

استمناح حكيم فارسى للمهلب

قال الهيثم بن عدى : قدم حكيم من حكماء أهل فارس على المهلب بن أبى صفرة فقال : - أصلح الله الأمير ! - ما أشخصتنى الحاجة ، وما قنعت بالمقام ، ولا أَرْضى منك بالنصف إذ قمت هذا المقام . قال : ولم ذلك ؟ قال : لأن الناس ثلاثة : غنى ، وفقير ، ومُستزید . فالغنى من أعطى ما يستحقه ، والفقير من أُمِنَحَ حقه ، والمستزید الذى يطلب الفضل بعد الغنى ، وإنى نظرت

(١) هو ابن زياد ابن أبيه (٢) السماط الصف (٣) الوالهة والولهى الشديدة الحزن (٤) هوازن قسم من قيس وعبد الله بن أبى بكره نسبته فى ثقيف وهم من هوازن فهى تريد أن تميله بعاطفة القرابة (٥) الصفد : العطاء (٦) الاود : الاعوجاج .

فى أمرِكَ فرأيتُ أنَّكَ قد أدَّيتُ إلىَّ حتَّى ، فتأقَّتْ نفسى إلى استزادتك :
فإنَّ منعتنى فقد أنصفتنى وإنَّ زدتنى زادت نعمتك على . فأعجَب المهلب
كلامه وقضى حوائجه .

تلف رجل من أهل الشام فى استمناح المنصور

قدم رجل من أهل الشام على أبى جعفر المنصور فتكلَّم كلاماً حسناً ،
فقال له أبو جعفر : حاجتك ؟ فقال : يُملِكُ الله يا أمير المؤمنين . قال : حاجتك .
فإنه ليس كلُّ ساعة يملكك هذا ولا تؤمربه . فقال : والله ما أستقصِّر عمرك .
ولا أخاف بُخلك ، ولا أغتَنم مالك ، وإنَّ سُؤالك لشرفٌ ، وإنَّ عطاءك لزيْنٌ .
وما بامرئٍ بذل وجهه إليك نقض ولا شينٌ . فأمر له المنصور بمنحة سنِيَّة .

وقد أَلَمَّ الرجل فى أكثر معانيه بقول أمِيَّة بن أبى الصَّلْت يستمنح
عبد الله بن جُدعان (١) القرشى :

عطاوك زَيْنٌ لامرئٍ إنَّ حبوتَه ببذل وما كلَّ العطاء يزِينُ
وليَسْ بشينٍ لامرئٍ بذل وجهه إليك كما بعض السُّؤال يشين

* * *

ومن ألطف الاستمناح قول أمِيَّة يَخاطب ابن جُدعان أيضاً :

أأذكر حاجتى أم قد كدائى حبؤك إن شيمتك الحباء
وعلمك بالأُمور وأنت قَرَم لك الحسب المهذب والسَّناء (٢)
كريم لا يُغيِّرُه صباح عن الخلق الجميل ولا مساء

(١) عبد الله بن جدعان من تيم رهط سيدنا أبى بكر الصديق ، وهو جواد مشهور . وكان أمية مداحاً له منقطعاً إليه ، وتوفى أمية بين بدى الاسلام .

(٢) القرم : الفحل والسيد ، والسناء : الشرف والسنا : الضوء .

تُبَارَى الرِّيحَ مَكْرُومَةً وَمَجْدًا إِذَا مَا الْكَلْبُ أَجْحَرَهُ الشَّنَاءُ (١)
إِذَا أَثْنَى عَلَيْكَ الْمَرْءُ يَوْمًا كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الشَّنَاءُ (٢)

استمناح عبد العزيز بن زرارعة لمعاوية

قال العُتْبَى : وفدَ عبدُ العزيز بن زرارعة على معاوية ، فلما أذن له وقف بين يديه وقال : يا أمير المؤمنين ! لم أزل أَهْزُ ذَوَائِبَ (٣) الرِّحَالِ إِلَيْكَ ، إِذْ لَمْ أَجِدْ مُعَوَّلًا إِلَّا عَلَيْكَ ، أَمْتَطَى اللَّيْلَ بَعْدَ النَّهَارِ ، وَأَسْمَ (٤) الْمَجَاهِلِ بِالْآثَارِ بِقُوْدُنِي إِلَيْكَ أَمَلٌ وَتَسْوِقُنِي بَلَوَى ، وَالْمَجْتَهِدُ يُعْذَرُ ، وَإِذَا قَدْ بَلَغْتَكَ فَقَطْنِي (٥)
فقال معاوية : احْطُطْ. عن راحلتك .

* * *

ولما وَلَّى الْخَلِيفَةُ الْمُهْتَدَى سُلَيْمَانَ (٦) بَنَ وَهَبَ وَزَارَتَهُ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ ذَوَى حُرْمَتِهِ فَقَالَ : - أَعَزَّ اللَّهُ الْوَزِيرَ ! - أَنَا خَادِمُكَ الْمُؤْمِلُ لِدَوْلَتِكَ ، السَّعِيدُ بِأَيَّامِكَ ، الْمَنْطَوَى الْقَلْبَ عَلَى وَدِّكَ ، الْمَنْشُورُ اللِّسَانَ بِمَدْحِكَ ، الْمُرْتَهَنُ بِشُكْرِ نِعَمَتِكَ ، وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ :

وَفِيَتْ كُلَّ صَدِيقٍ وَدَّيْتُ ثَمَنًا إِلَّا مُؤْمِلَ دَوْلَاتِي وَأَيَّامِي
فِيَانِي ضَامِنٌ أَنْ لَا أَكَافئه إِلَّا بِتَسْوِيغِهِ فَضْلِي وَإِنْعَامِي (٧)
وإني لَكَمَا قَالَ الْقَيْسِيُّ (٨) : مَا زِلْتُ أَمْتَطِي النَّهَارَ إِلَيْكَ وَأَسْتَدِلُّ بِفَضْلِكَ

(١) أَجْحَرَهُ : أَلْجَاهُ (٢) يَقُولُ : أَنْكَ لَا تَجْشِمُ الْمَحْتَاجَ مَثُونَةً السُّؤَالُ لِأَنَّكَ تَسْتَفْنِي بِشَنَائِهِ عَنْ اسْتِجْدَائِهِ (٣) الذَوَائِبُ : جَمْعُ ذَوَابَةٍ وَهِيَ الْجِلْدَةُ الْمُتَمَلِّقَةُ عَلَى آخِرِ الرَّحْلِ (٤) وَسَمِ الْآرِضِ كَوَعْدُ : تَرَكَ فِيهَا أَتْرَا (٥) قَطْنِي اسْمُ الْفِعْلِ بِمَعْنَى يَكْفِينِي وَمِثْلُهَا قَدْنِي (٦) سُلَيْمَانُ بْنُ وَهَبٍ مِنْ كِبَارِ وَزَرَاءِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ ابْنِهِ عُبَيْدِ اللَّهِ وَحَفِيدِ الْقَاسِمِ . تَوَفَّى سُلَيْمَانُ سَنَةَ ٢٧٢ هـ (٧) سَوَّغَهُ : أَنَالَهُ (٨) يَرِيدُ بِالْقَيْسِيِّ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ زَرَارَةَ الْمُتَقَدِّمَ ذِكْرَهُ لِأَنَّهُ مِنْ بَنِي عَامِرِ ثُمَّ مِنْ قَيْسٍ . وَقَدْ ذَكَرَ عِبَارَتَهُ بِمَعْنَاهَا لَا بِلَفْظِهَا .

عبيك ، حتى إذا اجتنب الليل فغض البصر ، ومحا الأثر ، قام الرجاء يدينى
سائر أملى ، والنفس راغبة والاجتهاد عاذر ؛ وإذ قد بلغتكَ فقيدينى .

فقال سليمان : لا عليك ، فيأينى عارف بوسيتك ، محتاج إلى اصطناعك
وكفائيتك ، ولست أؤخر عن يومى هذا توليتك ما يحسنُ عليك أثره ،
ويطيب لك خبره .

وكتب رجل من أهل البصرة إلى أخ له :

أما بعد ، فإنه يسهل على طلب الحاجة أمران فيك ، وأمران لى ، وأمر
من قبل الله وبه تمامها . فأما اللذان فيك فاجتهادك فى التَّجَحُّج ، ومبالغتك فى
الاعتذار ، وأما اللذان لى فيأينى أضيق عليك بعُدري ، ولا أصون عنك شكرى ،
وأما الذى من قبَلِ الله عز وجل فيأيمانى بأن كل مقدر كائن ، والسلام .

وكتب المرحوم السيد مصطفى لطفى المنفلوطى :

أنا إن سألتك حاجتى - أعزك الله ! - وبسطت إليك يد رجائى فقد
طرقت باب المكارم ، واستمطرت غيث المراحم ، ورجوت واحد الدهر هِمةً
وحَرَمًا ، ونادرة الوجود كَرَمًا وفضلاً . فإن أنجزتها فليست أولى الهمم ، ولا
وَاحِدَةَ النعم ، فلكم سبقت إلى منك أيادٍ تخرس دونها ألسنة الشكر ، وتضيقُ
بها جرائدُ (١) الحضر ؛ ولقد مثلت - أيدك الله ! - بين [أن] أَسْتَشْفَعُ إليك
بِنَدْوَى العجاء عندك ، والزُلْفَى (٢) لديك . وبين (٣) أن أَكِلُ ذلك إلى كَرَمِكَ
وفضلك وما طبعت عليه نفسك الشريفة من خلال الخير وسجايا البر ،
فرايت أن الثانية بك أَحْرَى ، وبفضالك أَجْدَر ، والسلام .

(١) الجرائد : جمع جريدة وهى السعفة وكانت يكتب فيها ، فالمراد
الصحائف (٢) الزلفى : القربة والمنزلة . (٣) كرر الكاتب بين
توكيدا ، وهو جائز مسموع : وأنا استحسنه اذا أطال ما قبل المعطوف
كما هنا .

استمناح الصابىء لاحد الرؤساء

وكتب أبو إسحاق الصابىء (١) إلى بعض الرؤساء :

قد جرت العادة - أطال الله بقاء الأمير ! - بالتمهيد للحاجة قبل
مؤردها وإسلاف (٢) الظنون الداعية إلى نجاحها . وسالك هذه السبيل يُسئُ
الظن بالمستول ، فهو لا يلتبس فضله إلا جزاءً ، ولا يستدعى طوله إلا
قضاءً . والأمير بكرمه الغريب ، ومذهبه البديع ، يؤثر أن يكون السلف له
الابتداء منه ، ويوجبُ على المهاجم برغبته إليه حق الثقة به . فالحمدُ لله
الذى أفرده بالطرائق الشريفة ، ووَحَّده بالخلالِ المنيقة ، وجعله عين زمانه
البصيرة ، ولمعته (٣) الباقية المنيرة .

وكتب محمد بن عياد إلى جعفر بن محمد وزير المعتز وكان يتقرب إليه :
ما زلتُ - أيدك الله تعالى ! - أذمُّ الدهر بِذمِّكَ إياه ، وأنتظرُ لنفسى
ولك عُقْبَاهُ ، وأتمنى زوال من لا ذنبَ له ، إلى عاقبه مخمودة تكون بزوال
حاله وأترك الإغذار (٤) فى الطلب على الاختلال (٥) الشديد ضناً بالمعروف عندى
إلا عن أهله ، وَحُباً لرجائى إلا عن مستحقه .

ومن أرق الاستمache (٦) ما كتبه عبيد بن طاهر إلى سليمان بن وهب :

أبى دهرنا إسعافنا فى نفوسنا وَأَسْعَفَنَا فيمن نجبٌ ونُكْرِمُ

(١) الصابىء : هو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال كاتب ديوان الإنشاء
عن الخليفة ومن عز الدولة بن بويه ، وهو معدود من رجالات الكتابة ،
توفى عام ٣٨٤ هـ (٢) الأسلاف : التقديم (٣) اللمعة : البقعة
والقطعة من الجسد تبرق (٤) أعذر : بالغ (٥) الاختلال : الاحتياج
(٦) الاستمache : الاستمناح .

فقلتُ له : نِعْمَاكَ فيها أتمها وَدَعْ أَمْرَنَا إِن الْمُهِمُّ الْمُقَدَّمُ
فَأَعْجَبَ سُلَيْمَانُ بِلَطْفِ طَلِبِهِ فِي تَهْنِئَتِهِ وَقَضَى حَوَائِجَهُ .
وقال أعرابي لرجل : ما اتهمت حسن ظنى بك ، منذ توجه رجائى نحوك ،
ولا قعدت بجد قاتل (١) باعتمادى عليك ، ولا استدعتنى رغبة عنك إلى من
سواك ، ولا أراى الاختيار غيرك عوضاً منك .
وكتب البديع الهمداني فى بابيه إلى بعض أصحابه :
لك - أعزك الله ! - عادة فضل فى كل فضل ، ولنا شبه مقت فى كل
وقت ، ولعمري أن ذا الحاجة مقيت (٢) الطلعة ، ثقیل الوطأة ، ولكن
ليسوا سواء .

الفصل الثالث : فى رسائل الشكر

كتب أبو منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :
الشكر ترجمان النية ، ولسان الطوية ، وشاهد الإخلاص ، وعنوان
الاختصاص ، عندى من إنعامه ، وخاص برّه وعامّه ، ما يستغرق منه الشكر ،
ويستنفد قوة النشر ، شكر الأسير لمن أطلقه ، والمملوك لمن أعتقه ، شكر
كأنفاس الأحبار ، أو أنفاس الرياض غب الأمطار .

وكتب الحسن بن وهب المتوفى سنة ٤٨٢ هـ :
ومن شكرك على درجة رفعته إليها ، أو ثروة أقدرته عليها ، فإن شكركى
لك على مهجة أحيتها ، وحشاشة أبقيتها ، ورمى أمسكت به ، وقمت بين
التلف وبينه ، فلكل نعمة من نعم الدنيا حد تنتهى إليه ، ومدى تقف عنده ،
وغاية من الشكر لا يسمو إليها الطرف ، خلا هذه النعمة التى فاقت الوصف
وأطالت الشكر وتجاوزت قدره .

(١) الجد : الحظ . والقاتل المخطئ (٢) المقيت والممقوت : البفيض
والمكروه .

وَأَنْتَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ غَايَةٍ : رَدَدْتَ عَنَّا كَيْدَ الْعَدُوِّ وَأَرْغَمْتَ أَنْفَ الْحَسُودِ
فَنَحْنُ نَلْجَأُ مِنْكَ إِلَى ظِلِّ ظَلِيلٍ ، وَكَذِفِ (١) كَرِيمٍ ، فَكَيْفَ يَشْكُرُ الشَّاكِرُ ؟
وَأَيْنَ يَبْلُغُ الْمُجْتَهِدُ ؟ !

وكتب الأمير أبو الفضل الميكالى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ :

فَأَمَّا الشُّكْرُ الَّذِى أَعَارَنِي رِذَاءَهُ ، وَقَلَدَنِي طَوْقَهُ وَسَنَاءَهُ (٢) ، فَهِيَاهُ أَنْ
يَنْتَسِبَ إِلَّا إِلَى عَادَاتِ فَضْلِهِ وَإِفْضَالِهِ ، أَوْ يَسِيرَ إِلَّا تَحْتَ رَايَاتِ عَرْفِهِ (٣)
وَنَوَالِهِ (٤) ! وَهُوَ ثَوْبٌ لَا يَحِلُّ إِلَّا بِذِكْرِ طَرَاذِهِ وَاسْمِ حَقِيقَتِهِ ، وَلِسَوَاهِ مَجَازِهِ ،
وَلَوْ أَنَّهُ - حِينَ مَلَكَ رِقِّي بِأَيَادِيهِ ، وَأَعْجَزَ وَسْعَى عَنْ حَقُوقِ مَكَارِمِهِ وَمَسَاعِيهِ -
خَلَّى لِي مَذْهَبَ (٥) الشُّكْرِ وَمِيدَانَهُ ، وَلَمْ يَجَاذِبْنِي زَمَامُهُ وَعَنَانُهُ - لَتَعَلَّقْتُ فِي
بَلَوِّهِ بَعْضَ الْوَاجِبِ بِعُرْوَةِ طَمَعٍ ، وَنَهَضْتُ فِيهِ وَلَوْ عَلَى وَهْنٍ وَظَلَعٍ (٦) ،
وَلَكِنَّهُ يَأْنِي إِلَّا أَنْ يَسْتَوِلَى عَلَى أَمَدِ الْفَضَائِلِ (٧) ذَرَى (٨) الْغَوَارِبِ (٩) مِنْهَا
وَالْكُوَاهِلِ (١٠) ، فَلَا يَدْعُ فِي الْمَجْدِ غَايَةً إِلَّا سَبَقَ إِلَيْهَا فَارِضاً (١١) ، وَتَخَلَّفَ
سِوَاهُ عَنْهَا حَسِيراً (١٢) سَاقِطاً ، لِتَكُونَ الْمَعَالَى بِأَسْرَافِهَا مَجْمُوعَةً فِي مَلِكِهِ ، مَنْظُومَةً
فِي سِلْكِهِ ، خَالِصَةً لَهُ مِنْ دَعْوَى الْقِسْمِ وَشَرَكِهِ (١٣) .

وكتب أستاذى الشيخ محمد عبده (١٤) يشكر للمرحوم حافظ إبراهيم

تعريبه كتاب البؤساء :

لَوْ كَانَ لِي أَنْ أَشْكُرَكَ لَظَنَ بِالْغَتِ فِي تَحْسِينِهِ ، أَوْ أَحْمَدُكَ لَرَأَى لَكَ فِينَا

(١) جانب (٢) رفعتة (٣) معرفة (٤) عطائه (٥) ريق
(٦) كلاهما الضعف (٧) يعلو (٨) أعالي (٩) جمع غارب ما بين
الظهر والعقب (١٠) جمع كاهل ما بين الكتفين (١١) سابقا (١٢) كليلا
(١٣) مشاركته (١٤) هو الاستاذ الامام مفتى الديار المصرية سابقا ولد
سنة ١٢٥٨ هـ وتوفى سنة ١٣٢٣ هـ وكتب هذا المکتوب شكراً لمترجم کتاب
البؤساء وقد نظم قصيدة أثناء مرضه ومنها :

ولست أبالي أن يقال محمد أبل أو اكتظت عليه العمائم
ولكن دينا قد أردت صلاحه أحاذر أن تقضى عليه العمائم

أبدعت فى تزيينه - لكان لقلمى مطمعٌ أن يدنو من الوفاء بما يُوجبُهُ حقك ، ويجرى فى الشكر إلى الغاية كما يطلبُهُ فضلك ، لكنك لم تقف بعرفك (١) عندنا ، بل عسمت به من حولنا ، وبسطته على القريب والبعيد من أبناء لغتنا ، زفقت إلى أهل اللغة العربية عذراء من بنات الحكمة الغربية ، سحرت قومها وملكت فيهم يومها ، ولا تزال تُنبئهم خامداً وتهز فيهم جامداً ، بل لاتنفك تُحيى من قلوبهم ما أماتته القسوة ، وتقوم من نفوسهم ما أعوزت فيه الأسوة (٢) حكمة أفاضها الله على رجلٍ منهم ، فهدى إلى التقاطها رجلاً منا ، فجردها من ثوبها الغريب ، وكساها حلة من نسيج الأديب ، وجلاها للناظر ، وحلاها للطالب ، بعد ما أصلح من خلقها وزان من معارفها ، حتى ظهرت مُحبة إلى القلوب ، شيقة (٣) إلى مؤانسة البصائر ، تهش (٤) للفهم وتبش (٥) للطف الذوق ، وتسابق الفكر إلى موطن العلم ، فلا يكاد يلحظها الوهم ، إلا وهى من النفس فى مكان الإلهام .

حاول قومٌ من قبلك أن يبلغوا من ترجمة الأعجم مبلغك فوقف العجز بأغلبهم عند مبتدئ الطريق ، ووصل منهم فريق إلى ما يحبُّ من مقصده ، ولكنه لم يُعن بأن يعيد إلى اللغة العربية ما فقدت من أساليبها . ويردُّ إليها ما سلبه المعتدون عليها من متانة التأليف ، وحسن الصياغة ، وارتفاع البيان فيها إلى أعلى مراتبه .

أما أنت ، فقد وفيت من ذلك ما لا غاية لمزيد بعده ، ولا مَطْمَع لطالب أن يبلغ حدّه ، ولو كنت ممن يقول بالتناسخ ، لذهبتُ إلى أن روح «ابن المُقفع» كانت من طيِّبات الأرواح ، فظهرت لك اليوم فى صورة أبدع ، ومعنى أنفع ،

(١) المعروف (٢) بالكسر والضم : القدوة (٣) لطيفة (٤) بفتح التاء : تصل إليه بسهولة (٥) بفتح الباء : من البشاشة .

ولعلك قد سننت بطريقتك فى التعريب سنة يعمل عليها من يحاوله بعد ظهور كتابك ويحملها الزمان إلى أبناء ما يُستقبلُ منه ، فتكون قد أحسنت إلى الأبناء كما أجملت فى الصُّنع إلى الآباء ، وحكمت للغة العربية أن لا يدخلها بعدُ من العُجْمَة سِوَى ما هو فى أسماء (الأسماء الأماكن والأشخاص ، لا أسماء المعانى والأجناس) ومثلنى من يعرف قدرَ الإحسان إذا عمَّ ، ويعلى مكان المعروف إذا شمل ، ويتمثل فى رأيه الحكيم العربى أبى العلاء المعرى :

ولو أنى حُببتُ الخلد فردًا لما أَحْبَبْتُ بالخلد انفرادا

فلا هَطَلْتُ على ولا بَارَضِي سَحَابُ ليس تنتظم البلادا

فما أعجز قلمي عن الشكر لك ! وما أحقك بأن ترضى من الوفاء باللقاء !
وكتب أيضاً فى الشكر مع توثيق المودة إلى أصحابه :

لك فى قلوبنا من المودة ما يزيكه سَنَاؤُك ، وفى مناطقنا من الحمد ما يوجبه كَمَالُكَ ، وفى صدورنا من الإجلال ما يرفعه بهَاؤُكَ !

وما بيننا من المودَّة لا تحده مدة ، ولا تخلق جدَّة ، نعيذه من حاجة للتجديد واستدعاء للمزيد ، فلا المواصلة تربيد ، ولا المجاهلة تُوهيه - نعم إنَّ ما يحفظُ لك فى الأنفس هو تجلى فضلك ، ومثالُ علائِكَ ونبلِكَ ؛ وذلك الخالد بخلود الأرواح ، والباقي فى تفانى الأشباح .

وبعدُ - فقد تلقيت منك كتاباً يَبُوحُ بسرَّ المحبة ، وينشرُ طيَّ الصداقة ، فيه تبيان وُجْدَانِكَ مما وجدنا ، وتأثرك على ما فقدنا ، فكان نبأ عما نعلم ، وقضاء بما نحكم ، ولكن شكرنا لك فضلَ المراسلة ، وأريحية المجاملة ، والله يتولى إيفاءك ، مثوبة تكافئُ وفاءك .

وكتب أيضاً فى الشكر لآخر :

لو كان فى الثناء ، وملازمة الدُّعاء ، وحفظِ الجميل ، والقيام بالخدمة جهد المستطيع ما ينى بشكر من يفتح باب المحبة ، ويبدأ بصنائع المعروف ،

لكنك والحمد لله من أقدر الناس عليه ، ولكن أنى يكون فى ذلك وفاءً ؟ والمحبة سر نظام الأكوان ! والإحسان قوام عالم الإمكان ! والقائم على كذبه جميعه قيوم السموات والأرض ! والمفتتحون لأبواب العرف على هذه النسبة الجليلة منه : فليس لى إلا أن أَلجأ إلى الله فى مكافأة فضيلتكم ، على ما كان منكم أيام الإقامة بينكم ، ثم أسلى نفسى عن عجزى بما أتخيل أن كرمكم سيروى :

سيكفى الكريم إخاء الكريم ويقنع بالود منه نوالا

وبعد هذا أرجو عفوكم عن التقصير فى المبادرة إلى المكاتبة ، لأنى شغلت بما شغلنى عن نفسى ، ولكن زالت العوارض (والحمد لله) وفاتنى لهذا العذر تهنتكم بالعيد ، وإنما للمؤمن فى كل يوم بربه عيد ، فنهنتكم برضا الله عنكم وتقبله صالح الأعمال منكم ، وسلامى على نجلكم ومن ينتمى إليكم .

الفصل الرابع : فى رسائل النصح والمشورة

كتب بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٥٣٩٨ هـ :

اسمع نصيحة ناصح جمع النصيحة والبيعة^(١)

إياك واحذر أن تكون من الثقات على ثقته

صدق الشاعر وأجاد ، وللثقات خيانة فى بعض الأوقات : هذه العين

تريك السراب^(٢) شراباً ، وهذه الأذن تُسمعك الخطأ صواباً ، فلست بمعذور إن وثقت بمعذور ، وهذه حالة الواثق بعيثه ، السامع بأذنه .

وأرى فلاناً يُكثر غشيانك^(٣) وهو الدنيء دُخْتُه^(٤) ، الرديء جملته ،

السئ وصلته ، الخبيث كلمته ، وقد قاسمته فى زرك^(٥) ، وجعلته موضع سرك ،

(١) المحبة (٢) ماتراه نصف النهار عند اشتداد الحر كالماء يلصق بالارض وهو مثل فى المخادع الكاذب (٣) اتيانك (٤) بتثليث الدال : نيته (٥) قوام القلب .

فَأَرَى مَوْضِعَ غَلْطِكَ فِيهِ ، حَتَّى أُرِيكَ مَوْضِعَ ^١إِثْلَافِيهِ (١) : أَفْظَاهِرُهُ غَرْكَ ؟
أَمْ بَاطِنُهُ سَرْكَ ؟ ؟

يَا مَوْلَايَ : يُورِدُكَ (٢) ثُمَّ لَا يُصْدِرُكَ (٣) وَيُوقِعُكَ ثُمَّ لَا يَعْدُرُكَ ،
فَاجْتَنِبْهُ وَلَا تَقْرِبْهُ ، وَإِنْ حَضَرَ بِابِكَ ، فَانْكُسْ جَنَابَكَ (٤) ، وَإِنْ مَسَّ
ثَوْبُكَ فَاغْسِلْ ثِيَابَكَ ، وَإِنْ لَصِقَ بِجِلْدِكَ ، فَاسْلُخْ إِهَابَكَ ، ثُمَّ افْتَتِحِ الصَّلَاةَ
بِلَعْنِهِ ، وَإِذَا اسْتَعَذْتَ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ فَاعْنِهِ (٥) .

وَكَتَبَ الإسْكَندَرُ المَقْدُونِى إِلَى أَسْتَازِهِ الحَكِيمِ أَرَسْطُو يَسْتَشِيرُهُ فِيمَا يَفْعَلُهُ
بِأَبْنَاءِ مَلُوكِ فَارَسَ بَعْدَ أَنْ قَتَلَ آبَاءَهُمْ وَتَغَلَّبَ عَلَى بِلَادِهِمْ :

عَلَيْكَ أَيُّهَا الحَكِيمُ مِنَ السَّلَامِ ، أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْأَمْلَاقَ الدَّائِرَةَ وَالْعُلُلَ السَّمَاوِيَّةَ
وَإِنْ كَانَتْ أَسْعَدَتْنَا بِالْأُمُورِ الَّتِي أَصْبَحَ النَّاسُ لَنَا بِهَا دَائِنِينَ - فَإِنَّا مُضْطَرُونَ
إِلَى حِكْمَتِكَ ، غَيْرُ جَاهِدِينَ لِفَضْلِكَ وَالْاجْتِنَاءِ (٦) لِرَأْيِكَ ، لَمَّا بَلَوْنَا مِنْ إِجْدَاءِ (٧)
ذَلِكَ عَلَيْنَا ، وَذُقْنَا مِنْ جَنَى (٨) مَنْفَعَتِهِ ، حَتَّى صَارَ ذَلِكَ بِنُجُوعِهِ (٩) فِينَا ، وَتَرْسَخِهِ
فِي أَذْهَانِنَا ، كَالْغَذَاءِ (١٠) لَنَا ، فَمَا نَنْفَكُ نَعُولُ عَلَيْهِ ، وَنَسْتَمِدُّ مِنْهُ اسْتِمْدَادَ
الْجُدَاوِلِ مِنَ الْبَحَارِ . وَقَدْ كَانَ مِمَّا سَبَقَ إِلَيْنَا النَّصْرُ ، وَبَلَّغْنَا مِنَ النِّكَايَةِ فِي الْعَدُوِّ
مَا يَعْجِزُ الْقَوْلُ عَنْ وَصْفِهِ ، وَالشُّكْرُ عَلَى الْإِنْعَامِ بِهِ ، وَكَانَ مِنْ ذَلِكَ أَنَا جَاوِزْنَا
أَرْضَ سُورِيَّةَ وَالْجَزِيرَةَ ، إِلَى أَرْضِ بَابِلَ وَفَارَسَ ، فَلَمَّا نَزَلْنَا بِأَهْلِهَا ، لَمْ يَكُنْ
إِلَّا رَيْبًا (١١) تَلَقَّانَا نَفَرٌ مِنْهُمْ بِرَأْسِ مَلِكِهِمْ هَدِيَّةً ، وَطَلِبًا لِلْحِظْوَةِ عِنْدَنَا ، فَأَمَرْنَا

(١) تَدَارَكَهُ (٢) يُوَصِّلُكَ إِلَى مَكَانٍ وَرَدَ الْمَاءُ (٣) لَا يَرْجِعُكَ
(٤) الْفَنَاءُ وَالنَّاحِبَةُ (٥) أَقْصَدَهُ (٦) الْإِخْتِيَارُ (٧) أَعْطَاهُ (٨) مَا
يَجْنَى وَيُؤْخَذُ مِنَ الثَّمَرِ (٩) بِتَأْثِيرِهِ (١٠) يَكْسِرُ الْفَيْنَ مَا يَتَفَذَى بِهِ
(١١) مَقْدَارٌ .

يصلب من جاء به وشهرته ، لسوء بلائه وقلة ارعائه ووفائه ، ثم أمرنا بجمع من كان هنالك من أولاد ملوكهم وأحرارهم : وذوى الشرف منهم ، فرأينا رجالاً عظيمَةً أجسامهم وأحلامهم (١) ، حاضرةً ألبابهم وأذهانهم ، رائقةً (٢) مناظرهم ومناطقهم ، دليلاً على أن وراء ذلك ما لم يكن معه سبيلٌ إلى غلبتهم ، ولولا أن القضاء أدالنا (٣) منهم ، وأظهرنا عليهم ، ولم نرَ بعيداً من الرأي في أن نستأصل (٤) شأفتهم (٥) ، ونجث (٦) أصلهم ، ونلحقهم بمن مضى من أسلافهم لتسكن القلوب بذلك إلى الأمن من جرائرهم (٧) وبوائقهم (٨) ، فرأينا أن لا نعجل ببادرة (٩) الرأي في قتلهم ، دون الاستظهار بمشورتك فيهم ، فرفع إلينا رأيك في ما استشرناك فيه صحته عندك ، وتقليبك إياه بجلي نظرك .

والسلام على أهل السلام ، فليكن علينا وعليك .

فكتب أرسطو المتوفى قبل الميلاد إلى الإسكندر المقدوني :

إن لكل تربة - ولا محالة - قسماً من كل فضيلة ، وإن لفارس قسماً من النجدة والقوة ، وإنك إن تقتل أشرفهم ، تخلف الوضعاء منهم على أعقابهم وتورث سفلتها (١٠) ، منازل عليتهم ، وتغلب أدنياءهم ، على مراتب ذوى أخطارهم ؛ ولم تبتل الملوك قط . ببلاء هو أعظم عليهم من غلبة السفلة وذل الوجوه . واحذر الحذر كله أن تمكن تلك الطبقة من الغلبة ، فإنهم إن نجم منهم

(١) جمع حلم بكسر الحاء العقل وبضمها المنام ليلاً (الرؤيا) (٢) زائدة
(٣) جعل لنا الكرة عليهم (٤) نقطع . (٥) عداوتهم (٦) نقتلع
(٧) كناية عن ضرورهم (٨) الدواهي (٩) ما يظهر عند الغضب
(١٠) يفتح السين وكسر الفاء السقاط من الناس ، وبعض العرب يخفف
فينقل كسرة الفاء الى السين .

ناجِمٌ على جُنْدِكَ وأهل بلادك ، دهمهم مالا رَوِيَّة فيه ولا منفعة معه . فانصرف عن هذا الرأى إلى غيره ، واعمد إلى من قبلك من العظماء والأحرار ، فوزع بينهم مملكتهم ، وألزم اسم الملك كل من وَلِيَّتُهُ منهم ناحية ، واعقد التاج على رأسه ، وإن صغر ملكه ، فَإِنَّ الْمُتَسَمَّى بالملك لازمٌ لاسمه ، والمعقود له التاج لا يخضع لغيره ، ولا يلبث ذلك أن يوقع بين كل ملك منهم وصاحبه ، تدابراً وتغالبا على الملك وتفاخراً بالمال والجند ، حتى ينسوا بذلك أضغانهم عليك ، وتعود بذلك حربهم لك حرباً بينهم ، ثُمَّ لا يزدادون بذلك بصيرةً إلا أحدثوا هنالك استقامة لك ، فَإِنَّ دنوت منهم كانوا لك ، وإن نأيت عنهم تعزُّوا بك ، حتى يَتَّيَّبَ كلُّ منهم على جاره باسمك ، وفى ذلك شاغلٌ لهم عنك ، وأمانٌ لأحداثهم بعدك - وإن كان لا أمان للذَّهْرِ - وقد أدَّيت للملك ما رأيته خطأ ، وعلى حقاً ، والملك أَبْعَدُ رَوِيَّة ، وأعلى عيناً فى ما استعان بى عليه .

والسلام الذى لا انقضاء له ولا انتهاء ولا غاية ولا فناء ، فليكن على الملك .

ومن رسالة للإمام على المتوفى سنة ٤٠ هـ كرم الله وجهه :

دَعِ الإسْرَافَ مقتصدًا ، واذكر فى اليَوْمِ غداً ، وأمسك من المال بقدر ضرورتك ، وقدم الفضل (١) ليَوْمِ حاجتك ، أترَجُّوْ أَنْ يُعْطِيكَ اللهُ أَجْرَ المتواضعين وَأَنْتَ عنده من المتكبرين ؟ أَوْ تَطْمَعُ وَأَنْتَ مُتَمَرِّغٌ فى نعيم تمنعه الضعيف والأرملة ، أَنْ يوجب (٢) لك ثواب المتصدقين ؟ وَإِنَّمَا للمرء مجزئ بما أسلف (٣) وقادمٌ على ما قدم ، والسلام .

(١) ما فضل عندك من مال وأعمال فقدمه .

(٢) أَنْ ومدخلها مجرور بحرف جر محذوف متعلق بتطمع .

(٣) قدمه فى سالف أيامه .

وكتب أيضاً - كرم الله وجهه - إلى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما :
أما بعد! - فإنَّ المرءَ قد يسره درك ما لم يكن ليفوته ، ويسوءه فوت ما لم
يكن يُدركه ، فليكن سرورك بما نلت من آخرتك ، وليكن أسفك على
ما فات منها ، وما نلت من دُنْيَاكَ فلا تُكثِرْ فيه فرحاً ، وما فاتك منها فلا
تأسفُ عليه جزعاً ، وليكن همك فيما بعد الموت .

وكتب بطل الوطنية السيد عبد الله النديم المتوفى سنة ١٣١٤ هـ :

لا حول ولا قُوَّةَ إِلَّا (بالله) اشتبه المراقبُ بالَّلاه (١) ! واستبدل الحُلُوُّ بالمرِّ ،
وقُدِّمَ الرقيقُ على الحرِّ ! وبيع الدرُّ بالخزف ! والخزُّ بالخشف (٢) ، وأظهر كل
لثيم كبره ! إن فى ذلك لَعِبْرَةٌ ! سَمْعاً سمعاً ، فالوشاةُ إن سَعَوْا لا يعقلون ، ويُحِبُّون
أَن يُحَمَّدُوا بما لم يفعلوا ، فكيف تشترون منهم القار (٣) فى صفة العنبر ؟ وقد
بدت (٤) البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر ! وكيف تسمع الأحبابُ
لمن نهى منهم وَزَجَرَ ؟ ولقد جاءهم من الأنبياء (٥) ما فيه مُزْدَجَر ! (٦) عَجِبْتُ
لهم وقد دخلوا دارنا وهم عنها معرضون ! فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون
فقابلوهم بنبال الطُّرْدِ فى الأعناق ، حتى إذا أَثخنْتُمُوهم (٧) فشدُّوا الوثاق (٨) ،
أيدخلون بما لا ينفع ، فى بَيُوتِ أَذِنَ اللهُ أَن ترفع ! سيعلمون مقام الهبوط
والعُروج (٩) ، «يومَ يسمعون الصَّيْحَةَ بالحقّ ، ذلك يومُ الخُروجِ» ويقولون
إذا لم يجدوا ملاذاً يا ويلينا قد كنّا فى غَفْلَةٍ من هذا ! فإنهم عزموا على الإقامة مدّة ،
ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عُدَّة (١٠) . وأنت عزيز العليا ، ووحيد الدنيا

(١) باللهى الذى يكون ملهيا - وغالبا الشيطان (٢) بفتح الخاء
أو بضمها الردىء من الصوف (٣) الزفت (٤) ظهرت (٥) الاخبار
(٦) النهى بشدة (٧) أكثرتم القتل فيهم (٨) ما يربط به (٩) الطلوع
(١٠) ما أعدده الانسان لحوادث الدهر من المال والسلاح .

قد بينتُ لك فعلهم ، فَبِمَا (١) رَحْمَةٍ من الله لَئِنْتَ لَهُمْ . ولكنهم طمعوا فى عميم طَوْلِكَ (٢) ، ولو كنتَ فظًّا (٣) غليظَ القلبِ (٤) لانفضوا (٥) من حولك أترأهم يعقلون كلامك أَمْ يفهمون ؟ لَعَمْرُكَ (٦) إِنْهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧) . لهم قلوبٌ لا يدرُونَ بها للحسد قرارًا ، لو اطلعتَ عليهم لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا . وإِنِّى قد شيدتُ (٨) لك بقلبي حصنًا (٩) صعبًا (١٠) ما استطاعوا أَنْ يظهروه (١١) وما استطاعوا لَهُ نَقَبًا (١٢) ، نسيتُ بالعاذلِ (١٣) جميل الصوتِ (١٤) وَأَنكره ، وما أَنسانيه إِلا الشيطانُ أَن أَذْكُرَهُ (١٥) . رُمِيتَ أَيُّهَا العاذلُ بسيفِ الغدرِ فى نحرِكَ ، أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ ! فَإِنْ لَمْ تَرْجِعْ عَنِ السِّحْرِ وفعله ، فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مثله ، كيف يسعى العاذلُ بينَ النديم وإِلفه ، وقد خَلَّتِ النَّذْرُ من بين يديه ومنْ خلفِهِ ! فياسادقِ دعوى من المعجبِ والمطربِ ! لَيْسَ البرَّ أَن تُوَلُّوا وجوهَكُمْ قِبَلَ المشرقِ والمغربِ ، واجعلوا سيفَ ثباتكم للعدالِ مسلولا ، وأوفُوا بالعهدِ إِنْ العهدَ كانَ مِسْئولا ، فَإِنَّهُمْ إِنْ قالوا كَذِبَ النديمِ أَوْ بَطَرٍ ، سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الكَذَابِ الأَشْرِ (١٦) ، وها قد صارَ أمرُ الحزبينِ عندك جليًّا ، فأَيُّ الفَرِيقَيْنِ خيرَ مقامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ! (١٧) أَتَظُنُّ عهدَ العاذلِ عند غضبك لا ينكثُ (١٨) مثله كَمَثَلِ الكَلْبِ إِنْ تحملَ عليه يلهثُ ، إِنَّهُ لَكُمْ

-
- (١) فبرحمة وما للتوكيد وللدلالة على أن لينه ما كان الا برحمة من الله
 (٢) احسانك (٣) سىء الخلق (٤) قاسيه (٥) لتفرقوا (٦) لحياتك
 واللام لتوكيد الابتداء والخبر محذوف وتقديره قسمي (٧) بتحيرون
 (٨) زينت (٩) موضعا حصينا (١٠) لا يقدر أحد أن يدخله والمراد
 المبالغة فى حصين المحبة (١١) لا يقدرُونَ أن يعاوا ظهره لارتفاعه ونعومته
 (١٢) خرقا لصلابته وسمكه (١٣) اللائم (١٤) الذكر الجميل ولا
 يستعمل الصوت بهذا المعنى الا فى الجميل (١٥) أنساني ذكره (١٦) المتكبر
 (١٧) مجلس القوم (١٨) لا ينقض .

عندو كبير ، ففروا إلى الله إني لكم منه نذير ، فإنه جمع لقتالك الأولاد ،
والأحفاد (١) وآخرين مُقرنين (٢) فى الأصفا (٣) ، تركوا أمر الله بما لا يرضونه ،
فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه . وظنى إن وصل إليك كتابى ،
أنهم يطردون ويُرَدُّعون ، وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ،
أيُعجبك إذا مشى هذا اللاه ، ثانى عطفه (٤) ليُضل عن سبيل (٥) الله .

وإنك وإن فرحت بعلم ما يجهلون ، قد نعلم أنه ليحزنك الذى يقولون .
فإن قلت إن اجتماعي بهم لأجل الصدقة أو شئ من هذا القبيل ، إنما الصدقات
للفقراء والمساكين والعاملين (٦) عليها والمؤلفة قلوبهم (٧) ، وفى الرقاب (٨) ،
والغارمين (٩) ، وفى سبيل الله (١٠) وابن السبيل (١١) ؛ على أنه لا تحل
الصدقة لذميم (١٢) هماز (١٣) مشاء بنميم (١٤) ، وطباعهم كما تعلم منكراً
مُستقدرة ! كأنهم حمراء (١٥) مستنفرة (١٦) فرت من قسورة (١٧) .

وقد قال وفائى : خاطب عزيزك هذه المرة ، وإن لم يعمل فيك فكراً ،
وما يُدريك لعله يزكى (١٨) ، أو يذكرك فتنتفعه الذكرى .

فقال لسانى : إن الود هو الرسول المأمون ، فأرسله معي ردءاً (١٩)
يصدقنى ، إني أخاف أن يكذبون . فقلت : سيروا مع المحبة ذات

-
- (١) أولاد الإبناء (٢) مشدودين (٣) القيود (٤) لاوى عنقه
تكبرا (٥) عن دين الله (٦) السعاة الذين يقبضون الصدقات بأمر
الحاكم (٧) أشراف من العرب كان النبى صلى الله عليه وسلم يستألفهم
للاسلام (٨) المكاتبون من العبد (٩) من تحملوا الدين (١٠) الفقراء
فى الجهاد (١١) المسافرين والمنقطع عن ماله (١٢) القبيح والمراد قبيح
الفعال ذميم الخصال (١٣) عياب يعيب الناس (١٤) ساع بالانميمة
والفساد (١٥) جمع حمار (١٦) نافرة (١٧) الاسد (١٨) يتطهر
من الذنوب (١٩) معينا .

الْفُتُوَّةُ (١) ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قُوَّة ، وقولوا له عند الغاية قد جئناك بآية . ولا تهابوا الجيش وإن كبر ، سيهزمُ الجمعُ ويولون الدُّبرُ (٢) ولا تنظنوا من ظاهر الأمر حُلُولَ البلوى ، إذ أنتم بالعدوة (٣) الدنيا (٤) وهم بالعدوة القصوى (٥) ، بل قاتلوهم قتالَ المستشهدين ، وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أنَّ الله مع المتقين .

وإذا اشتبك القتالُ فليذب كلُّ منكم عن مولاه (٦) ، وإن جنحوا (٧) المسلم (٨) فاجنح لها وتوكلْ عَلَى اللَّهِ ، فسيروا ودعوا الأولاد والجُنَّة (٩) ، وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنَّة ، ولا تسألوا عن الميرة (١٠) من أصله ، وإن خفتم عيلة (١١) فسوف يغنيكم الله من فضله ، فإن الله قد أناركم (١٢) لقتالِ العذالِ العائبين ، ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم (١٣) ، فينقلبوا خائبين .

ءاحملوا عليهم فإنهم متى طعنوا فى جنوبهم رَضُوا أن يكونوا مع الخوالف (١٤) وطبع (١٥) الله على قلوبهم ، ولا تُدبروا إذا رأيتموهم قدامكم (١٦) ، إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . ١١١

وإن أخذتم أسرى فقاتلوا أنصارها ، فإما منا (١٧) بعدُ وإما فداء حتى يضع الحرب (١٨) أوزارها (١٩) ، فإن أطعتم دفعتهم وأصلحَ الله بالكم ، وإن تنولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم .

(١) الكرم والتسامح (٢) الظهر (٣) بضم العين وكسرهما جانب الوادى (٤) القرية (٥) البعيد (٦) صاحبه (٧) مالوا (٨) الصلح (٩) المراد بها هنا النساء وأصلها لما تغطى بها المرأة وجهها (١٠) جلب الطعام (١١) فقرا (١٢) نشركم (١٣) يصرفهم ويذلهم (١٤) النساء (١٥) كناية عن اعماء بصائرهم (١٦) سابقينكم (١٧) تمنون عليهم باطلاقهم من غير شيء (١٨) أهل الحرب (١٩) أثقالها من سلاح وغيره .

وسأتلو فى خطبتكم عند قدومكم سالمين : فقطع دابر^(١) القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين .

* * *

وكتب أستاذنا الإمام الحكيم المرحوم الشيخ محمد عبده المتوفى سنة ١٣٣٣هـ :

عرض لى مامنعنى من قراءة الجرائد نحو أسبوع ، وكنت أسمع فيه بحادثة (ميت غمر) من بعض الأفواه ، أظنها من الحوادث المعتاد وقوعها ، حتى تمكنت من مراجعة الجرائد ليلة الخميس الماضى ، فإذا لهب ذلك الحريق يأكل قاي أكله لجسوم أولئك المساكين : سكان (ميت غمر) ، ويصهر^(٢) من فؤادى ما يصهره من لحومهم ، حتى أرقى^(٣) تلك الليلة ولم تغمض عينى إلا قليلاً وكيف ينأى من بيت يتقلب فى نعم الله ، وله هذا العدد الجم من إخوة وأخوات يتقلبون فى شدة البأساء ؟ ! (٤) فأردت أن أبادر بما أستطيع من المعونة - وما أستطيعه قليل لا يغنى من الحاجة ولا يكشف البلاء - ثم رأيت أن أدعو جمعاً من أعيان العاصمة ليشاركونى فى أفضل أعمال البر فى أقرب وقت ، وكان ذلك يوم السبت فحضر منهم سابقون ، وتأخر آخرون ، وكتب بعضهم يعتذرون ، فشكر الله سعى من حضر ، وجزى خيراً من اعتذر ، وغفر لمن تأخر . على أنه ليس الحادث بذى الخطب اليسير ، فالمصابون خمسة آلاف وبضع^(٥) مئتين منهم الأطفال الذين فقدوا عائلتهم^(٦) والتجار والصناع الذين هلك آلتهم ورؤوس أموالهم ، ويتعذر عليهم أن يبتدئوا الحياة مرة أخرى إلا بمعونة من إخوانهم ، وإلا أصبحوا متلصصين أو سائلين ، والذين

(١) أهلكوا عن آخرهم (٢) يذيب (٣) سهرت (٤) الضرر والفقير (٥) بكسر التاء أو بفتحها ما بين الثلاث الى التسع - وبالضم الفرج (٦) من ينفقون .

فقدوا بيوتهم ولا يجدون ما يأتون إليه ، ولا مال لهم يقيمون ما يؤويهم من مثل بيوتهم المتخربة - لهذا رأيت ورأى كل من تفكر فى الأمر ، أن يجمع مبلغ وافر يتمكن به من تخفيف المصاب عن جميع أولئك المصابين .

وكتب أيضاً فى الغرض المذكور :

قد بلغكم - ولا ريب - من أخبار الجرائد ، ما عليه أهل (ميت غمر) بعد الحريق الذى أصاب مدينتهم ، فهم بلا قوت ولا ساتر ولا مأوى ، فليتصور أحدكم أن الأمر نزل بساحته ، أفما كان يتمنى أن يكون جميع الناس ، فى معونته ؟ فليطالب الآن كل منا نفسه بما كان يطالب به الناس ، لو نزل به ما نزل بهم ، ولينفق مما له ما يدفع الله به عنه مكروه الدهر . . . فأرجو من همتكم أن تدفعوا شيئاً من مالكم فى مساعدة إخوانكم ، وأن تبدلوا ما فى وسعكم ليحث من عندكم على مشاركتكم فى هذا العمل المبرور والسلام .

الفصل الخامس : فى رسائل الملامة والعتاب

كتب بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٧ هـ :

لئن ساءنى أن نلتينى بمساءة لقد سرنى أنى خطرْتُ ببالك (١)
الأمير - أطال الله بقاءه - فى حالى برّه وجفائه متفضل ، وفى يومى إدنائه وإبعاده متطوّل ، وهنيئاً له من حمانا ما يحله (٢) ، ومن عرانا ما يحله (٣)
ومن أعراضنا ما يستحلّه .

بلغنى أنه - أدام الله عزّه ! - استزاد (٤) صنيعه (٥) ، فكنت أظننى

(١) هذا البيت لعبد الله بن عبيد الله أحد بنى عامر المشهور بابن الدمينه من قصيدة والخطاب لمؤث (٢) ينزل فيه (٣) يفكه (٤) زاد (٥) معروفه واحسانه .

مجنيًا (١) عليه مساءً إليه ، فإذا أنا فى قرارة الذنب ، ومثارة (٢) العتب ، وليت شعري (٣) أى محذور (٤) فى العشرة حضرته ، أو مفروض من الخدمة رفضته (٥) أو واجب فى الزيارة أهملته ! وهل كنت إلا ضيفاً أهده منزعاً (٦) شاسع (٧) وأداه أمل واسع ، وحده (٨) فضل وإن قل ، وهده رأى وإن ضل ، ثم لم يلق إلا فى آل مكال رحله (٩) ولم يصل إلا بهم حبله ، ولم ينظم إلا فيهم شعره ، ولم يقف إلا عليهم شكره .

ثم ما بُعدت صحبةً إلا دنت مهانة ، ولا زادت حرمةً إلا نقصت صيانة ، ولا تضاغت منةً إلا تراجع منلة ، ولم تزل الصفة بنا حتى صار وابل (١٠) الأعظام قطره ، وعاد قميص القيام صدره (١١) ، ودخلت مجلسه وحوله من الأعداء كتيبة (١٢) ، فصار ذلك التقريب أزوراراً (١٣) ، وذلك السلام اختصاراً ، والاهتزاز إيماءً ، والعبارة إشارة . وحين عاتبته آمل أعتابه (١٤) ، وكاتبته أنتظر جوابه ، وسألته أرجو إيجابه ، أجاب بالسكوت فما ازددت له إلا ولاءً ، وعليه ثناءً ؛ ولا جرم (١٥) أنى اليوم أبيض وجه العهد ، واضح حجة الود ، طويل لسان القول ، رفيع حكم العذر . وقد حملت فلاناً من الرسالة ما تجافى القلم عنه .

والأمير الرئيس - أطال الله بقاءه - يُنعم بالإصغاء لما يورده مُوفقاً إن شاء الله تعالى .

(١) المؤاخذه بجنايته (٢) مكان الثوران (٣) ليتنى أشعر وأخبر بالحقيقة والواقع (٤) ممنوع (٥) أبطلته (٦) مصدر ميمى بمعنى العبد (٧) بعيد (٨) ساقه ودفعه (٩) ما يأخذه المسافر من الأثاث وحوائج السفر (١٠) المراد به الكثير من الانعام وأصله المطر (١١) ثوب يلبس فيغطى الصدر (١٢) جماعة (١٣) انحرافاً (١٤) إزالة عتبه وملامته (١٥) كلمة كانت فى الأصل بمنزلة لابد ولا محالة فجرت على ذلك وكثرت حتى تحولت الى معنى القسم وصارت بمنزلة حقا .

وكتب أيضاً إلى القاسم الكرجى المتوفى سنة ٤٠٠ هـ :

أنا - وإن لم ألقَ تطاول الإخوان إلا بالتَّطَوُّل ، وتحاملَ الأحرار إلا بالتَّحَمُّل - أحاسبُ مولاي - أيده الله ! - على أخلاقه ، ضناً (١) بما عقدتُ يدي عليه من الظن به ، والتقدير فى مذهبه ، ولولا ذلك ، لقلتُ فى الأرض مجالاً ، إن ضاقت ظلالُك (٢) ، وفى الناس واصلٌ ، إن رثتُ (٣) حبالك ، وآخذهُ بأفعاله .

فإن أعارنى أذنًا واعية ، ونفساً مراعية ، وقلباً متعظاً ، ورجوعاً عن ذهابه ، ونزوعاً (٤) عن هذا الباب الذى بقرعُه (٥) ، ونزولاً عن الصُّعود الذى يفرعُه (٦) ؛ فرشتُ لمودته خُوان (٧) صدرى ، وعقدتُ عليه جوامعَ خصرى ومجامع عمرى (٨) . وإن ركب من التَّعالى غير مركبه (٩) وذهب من التَّعالى فى غير مذهبه (١٠) أقطعته خُطة (١١) أخلاقه ، وولَّيتُهُ جانبَ إعراضه .

لا أذودُ (١٢) الطَّير عن شجر قد بلوت المُرَّ من ثمره

فإنى وإن كنتُ فى مقتبل السنِّ والعُمر ، قد حلبتُ شطرى الدهر (١٣) وركبتُ ظهرى البرِّ والبحر (١٤) ، ولقيتُ وفدى (١٥) الخير والشرِّ : وصافحتُ يدي النفع والضَّرَّ ، وضربتُ إبطى العسرِ واليسرِ ، وبلوتُ

(١) بكسر الضاد وفتحها حرصاً (٢) أماكن الظل (٣) بليت وذابت (٤) انتهاء وتركاً (٥) يده بيده ليفتح له (٦) يصعدده ويعلوه (٧) بضم الخاء أو بكسرهما ما يؤكل عليه الطعام ومراده تمكين مودته من صدره (٨) مراده التمسك بمودته مدة حياته (٩) مراده وإن تكبر (١٠) طريقه (١١) بضم الخاء الطريقة ، مراده أنه يتركه وإن أخذ فى غير طريق طباعه (١٢) لا أطرد (١٣) مراده مربيه من خيره وشره وجرب نفعه وضره (١٤) مراده أنه جرب الأمور فى البر والبحر (١٥) الوفد الجماعة التى ترد على الأمير أو غيره ، ومراده أنه عرف الخير والشر .

طعمى الحُلُو والمِر ، وَرَضَعْتُ ضُرْعَى العُرْفِ والنكر (١) ؛ فما تكاد الأيام
ترينى من أفعالها غريباً وتسميعنى من أحوالها عجيباً ، ولقيتُ الأفراد ،
وَطَرَحْتُ الآحاد (٢) ، فما رأيتُ أحداً إلا ملأتُ حافتي (٣) سمعه وبصره ،
وشغلتُ حيزى (٤) فكره ونظره ، وأثقلتُ كتفه فى الحزن وكفته فى الوزن ،
ووددت لو بادر القرن (٥) صحيفتى (٦) أو لقي صفحتى (٧) فمالى صغرت
هذا الصغر فى عينه ، وما الذى أزرى (٨) بى عنده حتى احتجب وقد
قصده ، ولزم أرضه وقد حضرته .

وأنا أحاشيه (٩) أن يجهل قدر الفضل ، أو يجحد فضل العلم ، أو يمتطى (١٠)
ظهر التيه (١١) على أهليه ، وأسأله أن يختصنى من بينهم بفضل إعظام ، إن زلت
بى مرة قدم فى قصده . وكأنى به وقد غضب لهذه المخاطبة المجحفة (١٢) والرتبة
المتحيفة (١٣) وهو فى جنب جفائه يسير ، فإن أقلع (١٤) عن عادته ونزع عن
شيمته (١٥) فى الجفاء ، فأطال الله بقاء الأستاذ الفاضل ، وأدام عزه وتأييده .

وكتب أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى بالبصرة سنة ٢٥٥ هـ :

والله يا قليب : لولا أن كبدى فى هواك مقرّوحة (١٦) ، ورؤحى مجروحة
لساجلتك (١٧) هذه القطيعة وما ددتك حبل المصارمة (١٨) وأرجو أن الله تعالى
يديل (١٩) لصبرى من جفائك ، فيردك إلى مودتى وأنف القلى (٢٠) راغم .

(١) المعروف والنكر ضده (٢) هذا والذى قبله كله بمعنى أنه
جرب الأيام واختبرها من أول نشأته (٣) جانبى (٤) ناجيتى
(٥) المقارن الكفاء عند ملاقة الإبطال (٦) كتابى (٧) وجهى معناه
تمنى لقائى (٨) حظ من قدرى وشأنى (٩) أنزعه (١٠) يركب
(١١) الكبر والعجب (١٢) من الإجحاف وهو الذهاب بالشئ (١٣) من
التحيف وهو الظلم والجور (١٤) رجع (١٥) خلقه (١٦) مجروحة
(١٧) معناه لقابلتك (١٨) المقاطعة (١٩) الفلبة والنصر (٢٠) أنف
صاحب البغض .

فتمد طال العهد بالاجتماع حتى كدنا نتناكر عند اللقاء والسلام .

وكتب أبو بكر الخوارزمى المتوفى سنة ٣٧٣ هـ إلى تلميذه :

كتابى ، وقد خرجت من البلاء خروج السيف من الجلاء (١) ، وبروز
البدر من الظلماء ، وقد فارقتنى المحنة (٢) ، وهى مُفارقٌ لا يشاق إليه ،
وودعتنى وهى مودع لا يبكى عليه ، والحمد لله تعالى على محنة يجليها ، ونعمة
ينيلها ويوليها ، كنت أتوقع أمس كتاب مولاى بالتسليّة ، واليوم بالتهنية ،
فلم يكتبني فى أيام البرحاء (٣) بأنّها غمّته ، ولا فى أيام الرخاء بأنّها سرّته !
وقد اعتذرت عنه إلى نفسى وجادلت عنه قلبى فقلت : أما إخلاله بالأولى ، فلأنّه
شغلّ الاهتمام بها عن الكلام فيها . وأما تغافله عن الأخرى فلأنّه أحبّ أن يوفّر
على مرتبة السّابق إلى الابتداء ، بنفسه على محل الاقتداء ، لتكون نعم الله
سبحانه على موفورة من كل جهة ومحفوفة بى من كل رتبة ، فإن كنت أحسنت
الاعتذار عن سىدى ، فليعرف لى حق الإحسان ، وليكتب إلى بالاستحسان ، وإن
كنت أسأت ، فليخبرنى بعذرهِ أعرف منى بسرهِ ، وليرض منى بأن حاربت
عنه قلبى ، واعتذرت عن ذنبه ، حتى كأنّه ذنبى ، وقلت يا نفس اعذرى
أخاك ، وكفّاك منه ما أعطاك ، فمع اليوم غد - والعود أحمد .

وكتب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر المتوفى سنة ٨٠ هـ :

أما بعد : فقد عاقبنى الشك فى أمرك ، عن عزيمة الرأى فيك . وذلك أنك
ابتدأتنى بلطفك عن غير خبرة ، ثم أعقبته جفاءً من غير ذنب ، فأطمعنى أولك

(١) صقله بازالة ما عليه حتى يرى له لمعان .

(٢) البلية .

(٣) شدة الأذى .

فى إِيْخَانُكَ ، وَأَيَّاسُنِي آخِرُكَ مِنْ وَفَائِكَ . فسبِحَانِ مَنْ لَوْ شَاءَ لَكَشَفَ
بِإِيْضَاحِ الرَّأْيِ فى أَمْرِكَ عَنْ عَزِيمَةِ الشُّكِّ فِيهِ ، فَاجْتَمَعْنَا عَلَى ائْتِلَافٍ وَافْتَرَقْنَا
عَلَى اخْتِلَافٍ . وَالسَّلَامُ .

وكتب صديقى زعيم الوطنىة المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش :

سيدى : مالى أراك كمن نسيَ الخَليط (١) وتجرد فى الصُحبة عن المحيط .
والمُخِيط ؟ فإِذَا مَا صَادَفْتِكَ (٢) صَدَفْتُ (٣) أَوْ أَنْصَفْتُكَ مَا نَصَفْتُ (٤) ، أَتُظَنُّ أَنَّى قَعِيدَةٌ
بَيْتِكَ (٥) أَوْ رَهِينِ كَيْتِكَ وَذَيْتِكَ (٦) فَوْحَقَّكَ إِذَا آذَنْتَ (٧) مِنْ يَدِي مَالًا ، أَوْ مِنْ
قَدَمِي كَلَالًا (٨) لِنَجْزِيهَا (٩) الْبِتَاتِ (١٠) وَكَلَّتْ بِنَقْضِهَا الذَّاتِ ، وَلَوْ أَنَّى آتَيْتَ مِنَ الزَّادِ
لَمُتَرَةٍ (١١) أَوْ مِنَ الشَّرَابِ عُشْرَةٍ ، لَطَعَمْتُ الطَّوْى (١٢) وَاسْتَقَيْتُ الْجَوَى (١٣) فَكَيْفَ
أَدَّاعِبُ (١٤) وَتَصَاعِبُ ؟ وَأُحَالِفُ وَتُخَالِفُ ؟ وَأُوَاصِلُ وَتُفَاصِلُ ؟ وَأُجَالِبُ وَتُجَانِبُ ؟
لَبِئْسَتْ مَطِيئَتُكَ الَّتِي اقْتَدَعْتَ (١٥) وَشَرَعْتَكَ (١٦) الَّتِي شَرَعْتَ (١٧) . فَوَاللَّهِ لَوْلَا
أَنَّ الْحُبَّ حَادِثٌ لَا يَتَّقِي بِالتَّرُوسِ ، وَمَعْنَى لَا يَدْبُ إِلَّا فِي النُّفُوسِ ، وَسَهَامٌ
لَا تَرْمِي إِلَّا مِنْ قَسَى الْحَوَاجِبِ ، وَنَحْوُ أَوَّلِهِ الْمَعْيَةِ وَآخِرِهِ الْجَوَازِمِ ، لَمَا افْتَرَسَتْ
الظُّبَاءُ الْأَسْوَدُ الصَّيْدَ (١٨) وَلَا مَلَكَتِ الْأَحْرَارُ الْعَبِيدَ . وَلَوْلَا أَنَّى كَرَعْتُ (١٩)
مِنْ صَابِيهِ (٢٠) ، وَالتَّخَفْتُ بِبَرْدَةِ أَوْصَابِيهِ (٢١) لَتَعَوَّذْتَ مِنْكَ بِسُورَةِ الْفُلُقِ ،
وَنَبَذْتَكَ (٢٢) نَبْذَ الرَّدَاءِ الْخَلْقِ (٢٣) ، وَلِهَانٍ عَلَى أَنَّ أَدْعَكَ أَوْ أَسْمَعَكَ .

(١) الصَّاحِبُ (٢) وَجَدْتُكَ (٣) أَعْرَضْتُ (٤) كَلَاهِمَا بِمَعْنَى
سَاعَدْتُكَ (٥) الْمَرَاةَ الَّتِي فِي الْبَيْتِ (٦) كَلَاهِمَا بِمَعْنَى كَذَا وَكَذَا
وَالْمُرَادُ أَنِّي لَسْتُ رَهِينِ قَوْلِكَ : أَفْعَلُ كَذَا وَكَذَا (٧) عَلِمْتُ (٨) أَعْيَاءُ
وَضَعْفًا (٩) قَضَيْتُهَا (١٠) الْقَطْعَ الْمُسْتَأْصِلَ (١١) ضَعْفًا وَقَلَّةً
(١٢) الْجُوعَ (١٣) الْحَرَقَةَ (١٤) أَمَازَحَ (١٥) دَفَعْتُ (١٦) مَكَانَ
الْمَاءِ (١٧) دَخَلْتُ (١٨) الْمَتْرَفَةَ (١٩) بِكَسْرِ الرَّاءِ وَفَتْحِهَا شَرِبْتُ
بِفَمِي (٢٠) مَائِهِ الْمُرِّ وَأَصْلُهُ عَصَاةُ شَجَرٍ مَرٍّ (٢١) أَمْرَاضُهُ (٢٢) رَمَيْتُكَ
(٢٣) الْقَدِيمَ الْبَالِيَّ .

تَمْرُونَ عَلَى الدِّيار وَلَنْ تَعُوجُوا كَلَامِكُمْ عَلَى إِذَا حَرَامُ (١)
 غَيْرَ أَنَّ لى نَفْسًا شَبَّتْ عَلَى الحَبِّ فَلَمْ أَفْطَمْهَا وَتَقَادَعَتْ (٢) نَارَهُ فَلَمْ
 أَعْصَمْهَا ، حَتَّى بَلَغَ السَّيْلُ الزَّبِي (٣) وَتَبَدَّدَتْ (٤) النَّفْسُ أَيْدَى سَبَابٍ (٥)
 إِلَّا حُشَّاشَةً غَفَلَ عَنْهَا الْوَجْدُ ، وَبَقِيَّةَ رَمَقٍ أَلْفَيْتَهَا (٦) مِنْ بَعْدِ . وَكَلِمَا
 رَأَيْتَ مِنْكَ الشُّطْطَ (٧) وَاعْتَسَافَ (٨) الْخَطْطَ (٩) عَمَدْتَ إِلَى أَنَّ أَثْنَى (١٠)
 مِنْ رَسْنِهَا (١١) وَأَذُودَ (١٢) عَنْ عَطْنِهَا (١٣) وَشَخَصْتَ إِلَى الْمَكَافِحَةِ وَالْمَكَافَأَةِ .
 وَأَنَّ لَا أَكْيَلِكَ إِلَّا مَثَلًا ، وَلَا أَسْقِيكَ إِلَّا وَشَلًا (١٤) وَلَا أَزِيدُكَ إِلَّا فَشَلًا :

وَلَسْتُ أَجْزِيكَ الْجَزَاءَ الَّذِى أَعْطَاكَ الصَّنْعَ لَا بِخَسْهٍ
 وَلَيْسَ يَبْكِي صَاحِبًا مِنْ إِذَا أَهْمِينَ لَا يَبْكِي عَلَى نَفْسِهِ
 عَلَى أَنَّى بِالرَّغْمِ أَصْبَحَ فِي نَهَارٍ أَحْلَكَ (١٥) مِنْ لَيْلٍ ، وَأَمْسَى فِي لَيْلٍ أَشَقَّ
 عَلَى النَّفْسِ مِنْ وَيَل :

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ (١٦) عَلَى بِأَنْوَاعِ الْهَمُومِ لِيَتَبَنَّى (١٧)
 فَإِنْ تَخَلَّصْتَ مِنْ لِقَائِكَ فَإِلَى الشَّقَاءِ ، وَإِذَا لَجَأْتَ مِنْ عَسْفِكَ فَإِلَى الْعَذَاءِ ،
 وَإِذَا اسْتَجَرْتَ بِفِرَاقِكَ ، فَقَدْ اسْتَجَرْتَ مِنَ الرَّمْضِ (١٨) ، وَكَأَنَّكَ لَمْ تَدْرَ أَنَّ دَوْلَةَ
 الْحَسَنِ سَرِيعةُ التَّقْوِيضِ (١٩) وَأَنَّهُ لَا بَدَمِنْ هَبُوطِ الْقَمَرِ إِلَى الْحَضِيضِ وَلَسَوْفَ تَبْلَى

(١) لَنْ تَقِيمُوا (٢) تَسَابَقَتْ (٣) مِثْلُ يَضْرِبُ لَمَّا جَاوَزَ الْحَدَّ
 (٤) ذَهَبَتْ (٥) هُوَ مِثْلُ يُقَالُ ، وَتَبَدَّدُوا أَيْدَى سَبَابٍ مَعْنَاهُ ذَهَبُوا مَتَفَرِّقِينَ ،
 وَأَصْلُهُ فِي الَّذِينَ ذَهَبَتْ جَنَاتُهُمْ وَغَرِقَ مَكَانُهُمْ وَقَدْ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ
 قَالَ « لَقَدْ كَانَ لِسَبَآ » إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ (٦) وَجَدْتُهُمْ (٧) يَجَاوِزُ الْحَدَّ
 (٨) الْمِيلَ عَنِ الطَّرِيقِ الْمَأْلُوفِ (٩) الْأُمُورِ (١٠) أَرَدَ (١١) زَمَامَهَا
 (١٢) أَمْنَعُ (١٣) مَكَانَهَا (١٤) الْمَاءُ الْقَلِيلُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ وَالْمَاءُ الْكَثِيرُ
 فِي غَيْرِهِ (١٥) أَشَدُّ سَوَادًا (١٦) أَسْتَارَهُ (١٧) لَتَخْتَبِرْنِي
 (١٨) الْأَرْضَ الْحَارَةَ (١٩) التَّفَرَّقَ .

بعارض (١) بيد (٢) أنه غير مطر ، وبساعة مقبلك فيها مدبر ، وستصبح عما قريب
قد عفت (٣) رسومك (٤) . ولم تجد فى سوق الصحة من يسومك . والعقل من
لا يخلط بنفسه . ولا يبنى على غير أسسه (٥) فإنك مانضت (٦) لؤلؤة مبسمك ، ولا
نضرت (٧) صورة معصمك (٨) ، ولا شئت فخلقت كما تشاء ، ولا اتخذت عند الله
عهداً وهذا الوفاء . ولكن مثلك من أفرغه الله فى القالب الذى اختار ، وجعله
مرتفع النفوس ومسرح الأبصار ، وإني أيها العزيز قد تقدمت إليك :

ولى أمل قطعت به الليالى أرانى قد فنيت به وداما
فلا تحرمنى من سائع العفو وسابغه ، ولا تجعلنى كباسط . كفيه إلى الماء
ليبلغ فاه وما هو ببالغه :

فأشد ما لقيت من ألم الجوى (٩) قرب الحبيب وما إليه وُصولُ
كالعيس (١٠) فى البيداء يقتلها الظما (١١) والماء فوق ظهورها محمولُ
فاعمل فى يومك لعدك ، واستجز غيرك ببسط يدك ، ولا تأخذنى بجرم
الجانى المتلبس ، ولا تبتغ منى صحيفة المتلمس (١٢) بيد أنى أنشدك الذى بلى
العاشق بالمعشوق وكلفه فى الحب بيض الأنوق (١٣) وسهد (١٤) طرفه بنواعس
العيون ، وخول (١٥) للحسن إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، كما
قرن الهوى بالنوى (١٦) ، والقلب بالجوى (١٧) وقضى على المحب ، ونشر
العشق فلم يحتجب ، ما الذى أغرى بك إلى الاعتساف وعدم الإنصاف ؟

(١) السحاب الذى يعترض فى الافق (٢) غير أنه (٣) درست
وذهبت (٤) آثارك (٥) أساسه (٦) ما ظهرت (٧) ولا حسنت
(٨) موضع السوار من البدن (٩) الحزن (١٠) الابل البيضاء يخالط
بياضها شقرة أو ظلمة خفية (١١) العطش (١٢) الطالب مرة بعد
أخرى (١٣) الأنوق العقاب ، ولفظ المثل : هو أعز من بيض الأنوق .
وهو مثل يضرب للمحال أو لما لا سبيل إليه (١٤) أسهره (١٥) ملكه
(١٦) البعد (١٧) الحرقه .

أَلَيْنُ الْأَعْطَافُ ؟ أَمْ فُتُورُ (١) الْأَجْفَانِ ؟ أَمْ تَكْسُرُ الْكَلَامَ ؟ أَمْ هَيْفُ الْقَوَامِ ؟ لَقَدْ شَدَدْتَ أَزْرَكَ (٢) - وَاللَّهِ - بِضِعَافٍ ، وَاسْتَسَمَنْتَ تِلْكَ الْعَجَافَ ، وَهَلْ حَدَا (٣) إِلَى قَطِيعَتِي بِكَ أَنَّى خَشِنَ الْمَلْمَسُ ، رَثُّ الْمَلْبَسِ ؟ وَلَمْ أُمْنَحْ (٤) كَمَا مُنِحَتْ نَضْرَةٌ ، وَلَمْ أَلْبَسْ بَرْقَعَ الْبَيَاضِ وَالْحَمْرَةَ ؟ ! فَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ أَبَدَرْتَنِي بَعِينَ الرِّضَا (٥) ، وَرَحِمْتَ فَوْادًا يَتَقَلَّبُ مِنْكَ عَلَى جَمْرِ الْغَضَا (٦) فَسَتَجِدُنِي صَدِيقَكَ الَّذِي لَا يَبْطِرُهُ الْوَفَاءُ ، وَلَا يُثْنِيهِ الْجَفَاءُ ، أَمَلَّكَ لَكَ مِنْ لِسَانٍ ، وَأَطْوَعَ لِأَمْرِكَ مِنْ بَنَانٍ .

أَكْتُبُ ، فَأَيَّنَ لِعَبْدِ الْحَمِيدِ الْكَاتِبِ قَلَمِي ، وَأَشْعِرُ ، فَأَيَّنَ الشُّعْرَاءُ إِلَّا تَحْتَ عِلْمِي ؟ وَأَبْذُلُ ، فَأَيَّنَ حَاتِمُ (٧) مِنْ كَرَمِي ؟ وَأَحْلُمُ ، فَأَيَّنَ الْأَحْنَفُ ابْنِ قَيْسٍ (٨) مِنْ حِلْمِي ؟

وَمَنْ يَحْتَمِلُ فِي الْحُبِّ مَا فَوْقَ كَاهِلِي فَحَسْبُكَ حِلْمًا أَنْ يَقِيمَ عَلَى الْهَجْرِ (٩) فَإِنْ أَصَحَّتْ (١٠) إِلَى الدَّاعِيَةِ (١١) وَوَعِيَتْ كَلِمَاتٍ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِأَغْيَةِ (١٢) ، إِلَيْكَ الْجَزَاءُ وَعَلَى الْوَفَاءِ ، وَإِلَّا فَالْفَرَارُ إِلَى الْمَوْتِ أَمْرٌ يَسِيرُ وَالْقَبْرِ لِلْعِشَاقِ قَلِيلٌ مِنْ كَثِيرٍ .

وَكُتِبَ مُعَاوِيَةَ إِلَى ابْنِهِ يَزِيدَ يَوْئُبُهُ :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ أَدَّتِ أَلْسِنَةُ التَّصْرِيحِ إِلَى أُذُنِ الْعَنَايَةِ بِكَ ، مَا فَجَعَ الْأَمَلُ فِيكَ وَبَاعَدَ الرَّجَاءُ مِنْكَ ، إِذْ مَلَأْتَ الْعَيُونَ بِهَجَّةٍ وَالْقُلُوبَ هَيْبَةً ، وَتَرَامْتَ إِلَيْكَ آمَالَ

(١) ذَبُولُهَا (٢) ظَهَرَكَ (٣) سَاقَ إِلَى (٤) أَعْطَى (٥) حَسَنًا
(٦) شَجَرٌ خَشَبُهُ فِيهِ صَلَابَةٌ (٧) أَبُو عَدَى حَاتِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدِ
الطَّائِي وَبِهِ يَضْرِبُ الْمَثَلُ فِي الْكَرَمِ مِنْ شُعْرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ (٨) الْأَحْنَفُ بْنُ
قَيْسٍ يَضْرِبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْحِلْمِ (٩) مَا بَيْنَ الْكَتِفَيْنِ (١٠) اسْتَمَعَتْ
(١١) مَرَادُهُ بِهِ الْوَأَشَى الْعَاذِلُ (١٢) الْفَوُ مِنْ الْكَلَامِ .

الراغبين ، وهم المنافسين . فسخت بك فتیان قريش . وكهول أهلك .
فما يسوغ لهم ذكرك إلا على الجِرَّة المَهْوَعَة (١) والكُظ . الجشء (٢) . افتحمت
البوائق (٣) وانقدت إلى المعابر ، واعتضتها من سمو الفضل ، ورفيع القدر .
فليتك - يزيد - إذا كنت لم تكن ، سررت يافعاً ناشئاً وأثقلت كهلاً
ضالماً (٤) ، فوا حزناً عليك يزيد ! وياحر صدر المثل بك . ما أشمت
فتيان بنى هاشم وأذل فتیان بنى عبد شمس عند تفاوض المفاخر ودراسة
المناقب ! فمن لصالح ما أفسدت ورتق ما فتقت ؟

هيهات ! خمشت (٥) الدربة (٦) وجه النصر بك ، وأبت الجناية إلا تحدرأعلى
الأسن ! وحلاوة على المناطق ، وما أربح فائدة نالوها وفرصة انتهبوها ! انتبه
يزيد للعظة ، وشاور الفكرة ، ولاتكن إلى سمعك أسرع منها إلى عقلك ،
واعلم أن الذى وطأك وسوسة الشيطان وزخرفة السلطان ، مما حسن قبضه واحلولى
عندك مُرّة ، مُر شركك فيه السواد (٧) وناقسكه الأعبد ، فأضعت به من
قدرك ، وأمكنت به من نفسك ... فمن لهذا كله ؟ !

واعلم يا يزيد أنك طريد الموت وأسير الحياة ، بلغنى أنك اتخذت المصانع
والمجالس للملاهى والمزامير كما قال تعالى «أتبنون بكل ريع آية تعبثون
وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون» (٨) ، وأجهرت الفاحشة حتى اتخذت
سريرتها عندك جهراً .

اعلم يا يزيد أن أول سَلْبِكَ السكر معرفة مواطن الشكر لله تعالى على نعمه

(١) الجرة : ما يفيض به البعير فيأكله ثانية ، وكذا غيره من النعم .
والمهوعة : من هويع أى قيأه وهذا تمثيل ، أى أنهم يستقلون ذكرك (٢) الكظ :
الامتلاء من الطعام ، والجشء : الكثير وهذا تمثيل أيضاً (٣) البوائق :
جمع بائقة وهى الداهية (٤) الضالع والضليع : القوى (٥) خمش :
لطم (٦) الدربة : التجربة (٧) السواد : العامة (٨) تقدم شرح
غريب الآية فى خطبة قطرى .

المتظاهرة وآلائه المتواترة ، وهى الجرحه العظمى والفجعة الكبرى ترك الصلوات المفروضات فى أوقاتها . وهى من أعظم ما يحدث من آفاتهما ؛ ثم استحسن العيوب وركوب الذنوب ، وإظهار العورة ، وإباحة السر ، فلا تأمن نفسك على سر ، ولا تعتقد (١) على فعلك ، فما خير لذة تعتب الندم ، وتعنى (٢) الكرم ، وقد توقف أمير المؤمنين بين شطرين من أمرك لما يتوقعه من غلبة الآفة واستهلاك الشهوة ، فكن الحاكم على نفسك ، واجعل المحكوم عليه ذهنك ترشد إن شاء الله تعالى . ولبلى أمير المؤمنين ما يردُّ شارداً من نومه : فقد أصبح نصب (٣) الاعتزال من كل مؤانس ودريئة (٤) الألسن الشامتة ، وفقك الله فأحسن .

وكتب أعرابي لابنه وسمعه يكذب :

يابنى ، عجبت من الكذاب المشيد بكذبه ، وإنما يدل على عيبه ، ويتعرض للعقاب من ربه . فالآثام له عادة ، والأخبار عنه متضادة ، إن قال حقاً لم يصدق ، وإن أراد خيراً لم يوفق ؛ فهو الجانى على نفسه بفعالة ، والدال على فضيحته بمقاله ، وما صح من صدقه نسب إلى غيره ، وما صح من كذب غيره نسب إليه . فهو كما قال الشاعر :

حَسْبُ الكَذُوبِ مِنَ المَها نة بعض ما يُحَكى عليه

فإذا سمعت بكذبة من غيره نُسبت إليه

وكتب المرحوم حنفى بك ناصف إلى سماحة السيد توفيق البكرى :

كتابى إلى السيد السند ، ولا أجشّمه (٥) الجواب عنه ! فذلك ما لا أنتظره منه ، وإنما أسأله أن ينشط إلى قراءته ، ويتنزل إلى مطالعته ، وله الرأى بعد

(١) يقول : تفقد بالشراب الإرادة والعزيمة (٢) تعنى : تذهب (٣) النصب هنا : الفرض والهدف (٤) الدريئة : التى يتعلم الرامى الطعن والرمى عليها (٥) لا اكلفه .

ذلك أن يحاسب نفسه أو يزيكها ، ويحكم عليها أو لها :

قد تنفع الذكرى إذا كان هجرهم دلالاً فأماً إن ملالا فلا نفعاً
زرتُ السيد ، ويعلم الله أن شوقى إلى لقائه كحرصى على بقاءه ، وكلفى
بشهوده كشغفى بوجوده ، فقد بُعد - والله - عهدُ هذا التلاق ، وطال أمدُ
الفراق ، وتصرَّم الزمان ، وأنا من رؤيته فى حرمان . فسألت عنه ، فقبل لى :
إنه خرج لتشيع (١) زائر ، وهو عما قليل حاضر ، فانتظرت رجوعه ،
وترقبت طلوعه ، ولم أزل أعدُّ اللحظات وأستطيل الأوقات ، حتى بزغت
الأنوار ، وارتج صحنُ الدار ، وظهر الاستبشارُ فى وجوه الزوّار ، وجاء السيد
فى موكبه ، وجلالة محتده (٢) ومنصبه ، فقمنا لاستقباله ، وهينما (٣)
بكماله . فمرَّ يتعرّف وجوه القوم حتى حازانى ، وكبّر فى عينه أن يرانى ،
فغادرنى (٤) ومن على يسارى ، وأخذ فى السلام على جارى ، وجرّ السلام
الكلام ، وتكرّر القعود والقيام ، وأنا فى هذه الحال أوهم جارى أنى فى
دارى ، وأظهر للناس أن شدة الألفة ، تُسقط الكلفة . ومرّ السيّد بعد ذلك
من أمى ثلاث مرات ، ومن الغريب أنه لم يستدرك ما فات :

تمرون على الديار ولن تعوجوا كلامكم على إذن حرام

وكنْتُ أَظُنُّ أَنَّ مَكَانَتِي عِنْدَ السَّيِّدِ لَا تَنْكَرُ ، وَأَنَّ عَهْدِي لَدَيْهِ لَا يُخْفَرُ (٥)
فَإِذَا أَنَا لَسْتُ فِي الْعِيرِ (٦) وَلَا فِي النَّفِيرِ (٧) ، وَغَيْرِي عِنْدَ السَّيِّدِ كَثِيرٌ ،
وَذَهَابُ صَاحِبٍ أَوْ أَكْثَرٍ عَلَيْهِ يَسِيرُ .

وَمَنْ مَدَّتِ الْعِلْيَا إِلَيْهِ يَمِينَهَا فَأَكْبَرُ إِنْسَانٍ لَدَيْهِ صَغِيرُ

(١) لتوديع (٢) أصله من جهة النسب (٣) تكلمنا بصوت خفى
(٤) تركنى (٥) لا ينقض (٦) الجماعة (٧) الجماعة أيضا .

ولا أدعى أنى أوازى السيد - صانه الله - فى علوّ حسبه ، أو أدانيه فى علمه وأدبه ، أو أقاربه فى مناصبه ورتبه ، أو أكاثره فى فضته وذهبه ؛ وإنما أقول : ينبغى للسيد أن يميز بين من يزوره ، لسماع الأغاني والأذكار ، وشهود الأواني على مائدة الإفطار ، وبين من يزوره للسلام ، وتأييد جامعة الإسلام ، وأن يفرق بين من يتردد عليه استخلاصاً للخلاص ، ومن يتردد إجابة لدعوة الإخلاص ، وأن لا يشتبه عليه طلاب الفوائد بطلاب العوائد ، وقناص (١) الشوارد (٢) بنقباء الموالد ، وزواد الطرف (٣) ، بأرباب الحرف :

فما كل من لقيتَ صاحبَ حاجة ولا كل من قابلتَ سائلك العُرفاً (٤)
فإن حَسُنَ عند السيد أن يغضى عن بعض الأجناس ، فلا يحسن أن يغضى عن جميع الناس ، وإلا فلماذا يطوف على الضيوف ، ويحييهم بصنوف من المعروف ويتخطى (٥) الرقاب « لصُروف » (٦) ، ويخترق لأجله الصفوف ؟ فإن زعم السيد أنه أعلم بتصريف الأفلام ، فليس بأقدم هجرة فى الإسلام ، وإن رأى أنه أقدر منى على إطرائه (٧) ، فليس بممكن أن يتخذ من أوليائه ! ولا أرومُ بحمد الله منزلة غيرى أحق بها منى إذا راما

وإنما أصون نفسى عن المهانة والفضعة ، وأن أعرضها للضيّق وفى الدنيا سعة :
وأُكْرِمُ نفسى إننى إن أهنتها وَحَقِّكَ لا تَكْرُمُ على أحد بعدى
فلا يُصَغِّرُ (٨) السيد من خده ، فقد رضيتُ بما ألزمنى من بعده ،
ولا يُغْضُ عني عينه (٩) ، فهذا فراق بينى وبينه ، وليتخذنى صاحباً من بعيد ، ولا يكلمنى إلى يوم الوعيد .

(١) جمع قانص بفتح القاف : الصائد (٢) المتفرقات والمراد طالبو متفرقات العلوم (٣) جمع طرفة : وهى ما ترى مليحة ، والمراد أهل المراتب العالية (٤) المعروف (٥) يتجاوز (٦) هو الدكتور يعقوب صروف المتوفى فى آخر يولييه سنة ١٩٢٧ م وهو أحد أصحاب مجلة المقتطف وجريدة المقطم اليومية (٧) الثناء عليه (٨) لا يميل خده كبرا وخيلاء (٩) لا يغمض .

كِلَانَا غَنِيٌّ عَنْ أَخِيهِ حَيَاتِهِ وَنَحْنُ إِذَا مِتْنَا أَشَدُّ تَغَانِيًا
وَمَنَّى عَلَى السَّيِّدِ السَّلَامِ عَلَى الدَّوَامِ ، وَمُبَارَكٌ إِذَا لَبَسَ جَدِيدًا ، وَكُلُّ
عَامٍ وَهُوَ بِخَيْرٍ إِذَا اسْتَقْبَلَ عِيدًا ، وَمَرَحَى (١) إِذَا أَصَابَ ، وَشَيْعَتُهُ (٢)
السَّلَامَةُ إِذَا غَابَ ، وَقُدُومًا مَبَارَكًا إِذَا آبَ (٣) ، وَبِالرَّفَاءِ وَالبَيْنِ (٤) إِذَا
أَعْرَسَ (٥) ، وَبِالطَّالِعِ الْمَسْعُودِ إِذَا أَنْجَبَ (٦) ، وَرَحِمَهُ اللَّهُ إِذَا عَطَسَ ، وَنَوْمِ
العَافِيَةِ إِذَا نَعَسَ ، وَصَحَّ نَوْمُهُ إِذَا اسْتَيْقَظَ . وَهَنِيئًا إِذَا شَرِبَ ، وَمَا شَاءَ اللَّهُ
كَانَ إِذَا رَكِبَ ، وَنِعَمَ صَبَاحُهُ إِذَا أَنْفَجَرَ الْفَجْرَ ، وَسَعِدَ مَسَاوُهُ إِذَا أَدَّنَ
العَصْرَ . وَبِخٍ بِخٍ (٧) إِذَا نَثَرَ ، وَلَا فُضَّ (٨) فُوهُ إِذَا شَعَرَ (٩) ، وَأَجَادَ وَأَفَادَ
إِذَا خُطِبَ ، وَأَطْرَبَ وَأَغْرَبَ إِذَا كَتَبَ ، وَإِذَا حَجَّ الْبَيْتَ فَحَجًّا مَبْرورًا ،
وإِذَا شَيَعَ جَنَازَتِي فَسَعِيًّا مَشْكورًا ، وَالسَّلَامَ .

وكتب القاضى الفاضل إلى أخيه عبد الكريم يؤنِّبه على إيذائه علم الدين
ابن النحاس :

سبب إصدار هذه المكاتبة إلى الأخ - أصلحه الله ! - إعلامه ما صح عندي
ن الأحوال التى أخفاها . والله مبديها ، فى حق علم الدين .
وبالله أقسم لئن لم تُدَاوِ ماجرحت ، وتستدرك ما فعلت ، وتمحُّ ما أثبتَّ ،
وتستأنف ضدَّ القبيح الذى كتبت به وشافهت ، وتعتذر بالجميل فيما
قاطعت الله به وبارزت ، ليكوننَّ الحديث منى بغير الكتاب ، ولأُزِيلَنَّ
السبب الذى قدرت به على مضرَّة الأصحاب ، وما أشد معرفتى بأنَّ الطباع
لا تتغيَّر ، وبأنَّك ستحوجنى بعد هذا الكتاب إلى ما لا يتأخَّر ، وبالجمله
فاستدرك بفعلك لآبائك لى وتنصلك إلى .

(١) كلمة تقال عند الإصابة فى الرمى مدحا للمصيب (٢) ودعته
(٣) رجع (٤) كلمة تقال لمن تزوج ومعناه الدعاء بالالتئام وجمع الشمل
(٥) تزوج (٦) ولد له (٧) كلمة تقال عند الرضا والاعجاب بالشيء أو
عند الفخر والمدح وكررها للمبالغة (٨) لا كسرت أسنانه (٩) قال
الشعر .

* فالدم فى النصل شاهد عجب *

وويل لمن كانت غنيمته من الأيام عقد القلوب على البغضاء ، وإطلاق الألسنة بالمذام ، ولولا أننى شريكك فى كل ما تستوجه من الناس ، لألقيت حبلك على غاربك وتركتك وما اخترت لنفسك ، ولكن كيف بمن يرى وليس برام ؟ ولكن سكوت الناس عن قبيحك مقابلة لجميل كثير منى ، فإذا أنت لا تنفق إلا من كيسى ، فأشفق على نفسك ، إن كنت تنظر فى غد ، وعلى بيتك إن كنت تنظر فى أمس . وعلى مكانك منى إن كنت لا تنظر إلا فى اليوم ، ولا تجاوبنى إلا بلسان الرجل شاكراً لك ، فإنه وإن كان - والله - ما ذمك فقد ذمك به عنه . وما أظن أنك تذكر أننى كتبت إليك كتاباً ، ولا كنت أؤثره ، ولولا حافظ . غليظ . ما كتبت . ولولا علمى أن الكثير مما قيل عنك فى أمر الرجل هو القليل مما فعلته ، لأضربت عن هذا كما أضربت عن غيره ، وستعرفك الأيام ما كنت تجهل .

والله يأخذ بناصيتك إلى رضاه ويغمد سيف حيلتك عن مقلتك ، والسلام .

الفصل السادس : فى رسائل الشكوى

كتب الأمير أبو الفضل الميكالى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ :

إنما أشكو إليك زماناً سلب ضعف ما وهب ، وفجع بأكثر مما متع ، وأوحش فوق ما آنس ، وعنف فى نزع ما ألبس ؛ فإنه لم يذقنا حلاوة الاجتماع حتى جرّعنا مرارة الفراق ، ولم يمتعنا بأنس الالتقاء ، حتى غادرنا (١) رهن التلف ، والاشتياق .

والحمد لله تعالى على كل حال يسوء ويسر ، ويحلو ويمر ، ولا أياس من روح (٢)

الله فى إباحة صنع (١) يجعل ربه (٢) مُناخى (٣) ، ويقصر مدة البعاد والتراخى ، فألاحظ الزمان بعين راض ، ويقبل إلى حظى بعد إعراض ، وأستأنف (٤) بعزته عيشاً عذب الموارد (٥) والمناهل (٦) ، مأمون الآفات والغوائل (٧) .

وكتب عبد الحميد بن يحيى المقتول سنة ١٣٢ هـ إلى أهله ، وهو منهزم مع مروان (٨) :

أما بعد : فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور ، فمن ساعده الحظ. فيها سكن إليها ، ومن عضته (٩) بناها ذمها ساخطاً عليها ، وشكاها مستزيداً لها .

وقد كانت أذاقتنا أفويق (١٠) استحليناها ، ثم جمحت (١١) بنا نافرة ، ورمحتنا (١٢) مولية ، فملح عذبها ، وخشن لينها ، فأبعدتنا من الأوطان ، وفرقتنا عن الإخوان ، فالدار نازحة (١٣) ، والطير بارحة (١٤) ، وقد كتبتُ والأيام تزيدنا منكم بعداً ، وإليكم وجداً ، فإن تمّ البلية إلى أقصى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا ، وإن يلحقنا ظفر جارح من أظفار من يليكم ، نرجع إليكم بذل الأسار (١٥) ، والذل شرُّ جار .

(١) المعروف (٢) دار (٣) مكان النوم ومراده أنه لا يئأس من معروف يحظى به مدة حياته (٤) أجدد (٥) أمكنه اتيان الماء (٦) المواضع التى فيها والمراد أنه يجدد عيشاً هنيئاً لا حزن معه (٧) الدواهى (٨) هو مروان بن محمد بن الحكم بن أبى العاص الاموى آخر ملوك بنى أمية المعروف بالجعدى قتل سنة ١٣٢ هـ (٩) كناية عن سلطها عليه بنوائها ومصائبها (١٠) ألبانها والمراد نعيمها وخيراتها (١١) اسرعت غالبية ايانا (١٢) طعننا برمحها والمراد مصائبها (١٣) بعيد (١٤) البارح من الطير ما يمر من اليمين الى الشمال والعرب تتشاءم به ، وذلك أنه كان من عاداتهم اذا أرادوا أمراً عمدوا الى الطير فأطاروها فان طارت شمالاً يتشاءمون ويرجعون وتسمى بارحات وان طارت يميناً تفاءلوا باليمين ومضوا فى أمرهم وتسمى سانحات (١٥) الاسر هو القبض على الرجل وأخذه أسيراً .

نسأل الله الذى يُعز من يشاء ويذل من يشاء أن يهب لنا ولكم ألفة
جامعة فى دار آمنة ، تجمع سلامة الأبدان ، والأديان ، فإنه رب العالمين ،
وأرحم الراحمين .

وكتب أستاذنا الحكيم المرحوم الشيخ محمد عبده ، وهو مسجون
بسبب الحوادث العرابية :

تَقَلَّدَتْنِي اللَّيَالَى وَهِيَ مُدْبِرَةٌ كَأَنِّي صَارِمٌ فِي كَفِّ مُنْهَزِمٍ

عزيزى (هذه حالتى) اشتدَّ ظلام الفتن حتى تجسَّم بل تحجَّر ، فأخذت
صخوره من مركز (١) الأرض إلى المحيط . (٢) الأعلى ، واعترضت ما بين المشرق
والمغرب وامتدت إلى القطبين (٣) ، فاستحجرت فى طبقاتها طباع الناس إذ
تغلبت طبيعتها ، وامتدت على المواد الحيوانية أو الإنسانية ، فأصبحت
قلوب الثقلين (٤) كالحجارة أو أشد قسوة ، فتبارك الله أقدر الخالقين ،
انتشرت نجوم الهدى وَتَدَهَوَّرَتْ (٥) الشمس والأقمار ، وَتَغَيَّيَّتْ الثوابت
النيرة ، وفَرَ كل مضيءٍ منهزماً من عالم الظلام ، ودارت الأفلاك دورة العكس
ذاهبة بنيراتها إلى عوالم غير عالمنا هذا ؛ فولى معه آلهة الخير أجمعين ،
وتمحضت السلطة لآلهة الشر فقلبوا الطباع ، وبدَّلوا الخلق ، وغيروا خلق الله ،
وكانوا على ذلك قادرين .

رأيت نفسى اليوم فى مَهْمَةٍ (٦) لا يأتى البصر على أطرافه . فى ليلة

(١) وسط دائرتها (٢) الدائرة المحيطة بالكرة الأرضية (٣) الشمالى
والجنوبى وهما طرفا محور الأرض والمحور هو القطر الوهمى الذى تدور
عليه الأرض من المغرب إلى المشرق أثناء حركتها .
(٤) الانس والجن (٥) أدبرت (٦) مفازة واسعة .

داجية (١) غُطِّيَ فيها وجه السماء بغمام سوء فتكاثف (٢) رُكَّامًا رُكَّامًا (٣) لا أرى إنساناً! ولا أسمع ناطقاً! ولا أتوهم مجيباً! أسمع ذئاباً تعوى! وسباعاً تزار! (٤) وكلاباً تنبح! (٥) كلها يطلب فريسة واحدة ، هى ذات الكاتب ، والتفَّ على رجلى تَنِينان (٦) عظيمان ، وقد خَوِيَتْ (٧) بطون الكل ، وتحكم فيها سلطان الجوع ، ومن كانت هذه حاله ، فهو لا ريب من الهالكين .

تَقَطَّعَ الأمل ، وانفصمت (٨) عروة الرِّجاء ، وانحلت الثقة بالأولياء ، وضلَّ الاعتقاد بالأصفياء ، وبطل القول بإجابة الدعاء ، وانفطر (٩) من صدمة الباطل كَبِدُ السماء ، وحقت على أهل الأرض لعنة الله والملائكة والأنبياء وجميع العالمين .

سقطت الهمم ، وخربت الذمم ، وغاض (١٠) ماء الوفاء ، وطمست معالم الحق ، وحرفت الشرائع ، وبُدِّلَت القوانين ، ولم يبق إلا هوى يتحكم ، وشهوات تقضى ، وغیظ يحترق (١١) ، وخشونة تنفذ (تلك سنة القدر) والله لا يهدى كيد الخائنين .

ذهب ذوو السلطة فى بُحور الحوادث الماضية ، يغيصون لطلب أصداف من الشُّبُه ، ومقذوفات من التهم ، وسواقط من اللمم (١٢) لِيُموَّهُوها (١٣) بمياه السفسطة ويغشوها بأغشية من معادن القوة ، لينبرزوها فى معرض السطوة ويغشوا بها أعين الناظرين ، لا يطلبون ذلك لغامض يبينونه ، أو

(١) مظلمة (٢) كثر وتراكم (٣) السحاب المتراكم (٤) بفتح عينه أو بكسرهما تصوت (٥) بفتح عينه أو بكسرهما تصوت (٦) تثنية تنين وهو الحية العظيمة (٧) خلت (٨) انقطعت (٩) انشق (١٠) ذهب (١١) يتحرك ويشند (١٢) المتقارب من الذنوب ، واللّم أيضا طرف من الجنون (١٣) من التمويه وهو التلبیس .

لمستور يكشفونه ، أو لحق خفىً فيظهرونه ، أو خرّق بدا فيرقعونه ، أو نظام فاسد فيُصلّحونه ! كلّاً ، بل ليثبتوا أنهم فى حبس من حبسوا غير مخطئين ، وقد وجدوا لذلك أعواناً من حلفاء الدناءة ، وأعداء المروءة ، وفاسدى الأخلاق ، وخبثاء الأعراق (١) : رضوا لأنفسهم قول الزور ، وافتراء البهتان ، واختلاق الإفك (٢) ، وقد تقدموا إلى مجلس التحقيق بتقارير محشوة من الأباطيل ليكونوا بها علينا من الشاهدين .

كل ذلك لم تأخذنى فيه دهشة ، ولم تحل قلبى وحشة ، بل أنا على أتم أوصافى التى تعلمها ، غير مبال بما يصدر به الحكم أو يبرمه القضاء ، عالماً بأن كل ما يسوقه القدر ، وما ساقه من البلاء فهو نتيجة ظلم لا شبهة للحق فيه ، لأن الله تعالى يعلم كما أنت تعلم أننى برىء من كل ما رمونى به ولو اطلعت عليه لوليت منه رعباً ، وكنت من الضاحكين .

نعم خنقنى الغم ، وأحمى فؤادى الهم ، وفارقنى النوم ليلة كاملة عندما رأيتُ اسمك الكريم ، واسم بقية الأبناء والإخوان . تنسب إليهم أعمال لم تكن ، وأقوال لم تصدر عنهم ، لقصد زجهم فى المسجونين .

لكن اطمأن قلبى ، وسكن جأشى (٣) عندما رأيت تواريخ التقارير متقدمة ، ومع ذلك لم يصلكم شرر الشر ، فرجوت أن الحكومة لم تُرد أن تفتح باباً لا يذر (٤) الأحياء ولا الميتين .

قدّم فلان وفلان تقريرين ، جعلاً فيهما تبعات الحوادث الماضية على عنق ولم يتركاً شيئاً من التخريف إلا قالاه ، وذكرأ أسماءكم فى أمور أنتم جميعاً أبعد الناس عنها ، لكن لاحرج عليهما ، فإنى أراهما من المجانين ، ولم أعجب من

(١) الاخلاق (٢) الكذب (٣) اضطرب القلب عند الفزع

(٤) لا يدع ولا يترك .

هذين الشيخين إذ يعملان مثل ذلك الذنب القبيح ، ويرتكبان هذا الجرم الشنيع ! ولكن أخذنى العجب - كلُّ العجب غاية العجبُ بالغ ما شئت فى عجبى - إذ أخبرنى المدافع عني بتقرير قدمه فلان ، الذى أرسلت إليه السلام ، وأبلغته سرورى عند ما سمعت باستخدامه ، وأنا فى هذا الحبس رهين .

إلى هذا الوقت لم يصلنى التقرير ، ولكن سيصل إلى ، إنما فيما بلغنى أنه شهادة بأقبح شيء ، لا يشهد به إلا عدو مبين .

هذا اللئيم الذى كنت أظن أنه يالُم لآلى ، ويأخذُه الأسف لحالى ، ويبذل وسعه إن أمكنه فى المدافعة عني ! فكُم قدمتُ له نفعاً ، ورفعتُ له ذكراً ، وجعلتُ له منزلة فى قلوب الحاكمين ! كم سمعنى أقاوم هجاء الجرائد ؟ ! وأوسع محرريها لوماً وتقريراً ؟ وأهزأ بتلك الحركات الجنونية ، وكان هو على فى بعض أفكارى هذه من اللائمين ! كان ينسبُ فلاناً لسوء القصد اتباعاً لرأى فلان . وأعارضه أشد المعارضة .

ثم لم أنقض له عهداً . ولم أبخس له ودّاً ، وحقيقة كنت مسروراً بوجوده موظفاً . فما باله أصبح من الناكثين ؟ !

آه ما أطيب هذا القلب الذى يُملى هذه الأحرف ! ما أشدَّ حفظه للولاء ، ما أغرُّه على حقوق الأولياء ! ما أثبتته على الوفاء ! ما أرقَّه على الضعفاء ! ما أشدَّ اهتمامه بشئون الأصدقاء ! ما أعظم أسفه لمصائب مَنْ بينهم وبينه أدنى مودة وإن كانوا فيها غير صادقين ! ما أبعد هذا القلب من الإيذاء ولو للأعداء ! ما أشدَّه محافظة على العهد ! ما أعظم حذره من كل ما تُوبخ عليه الذم الطاهرة ! ما أقواه على العمل الحق ، والقول الحق لا يطلب عليه جزاء !

وكم اهتم بمصالح قوم وكانوا عنها غافلين ؟ !

هذا القلب الذى يؤلمونه بأكاذيبهم ، هو الذى سرَّ قلوبهم بالترقية ، وملاًها فرحاً بالتقدم ، ولطفَ خواطرهم بحُسن المُعاملة ، وشرحَ صدورهم بلطيف المجاملة ، ودافع عنهم أزماناً خصوصاً هذا اللثيم !

أفَنشرحُ الصدور وهم يُخرِجون ؟ ونشفي القلوب وهم يؤلمون ؟ ونفرحها وهم يحزنون ؟ تالله قد أضلوا وما كانوا مُهتدين . هذا القلب ذابَ مُعظمه من الأسف على ما يَلُمُّ بالهيئة العمومية من مصائب هذه التقلبات ، وما ينشأ عنها من فساد الطباع الذى يجعل العموم فى قلق مستديم ، وما بقى من هذا القلب فهو فى خوف على من يعرفهم على عهد مودته ، فإن تسللوا جميعاً بمثل هذه الأعمال أصبحوا من مودته خالين ، واتخذوه وقاية لهم من المضرة ، وجعلوه ترساً يُعرضونه لتلقى سهام النوائب التى يتوهمون تفويقها إليهم ، كما اتخذوه قبل ذلك سهماً يصيبون به أغراضهم فينالون منها حظوظهم ، فقد أراحوا تلك البقية من الفكر فيهم ، والله يتولى حسابهم وهو أسرع الحاسبين . آه ! ما أظن أن تلك البقية تستريح من شاغل الفكر فى شؤون الأحبة وإن جاروا فى تصرفهم .

إن طبيعة هذا القلب لطبيعة ناعم الخز إذا اتصل بذى الود وإن كان خشناً ، فصعبٌ أن ينفصل ولو مزقته خشونته ، وإن هذا القلب فى علاقة مع الأوداء كالضياء مع الحرارة ، أيما حادث يحدث ، وأيما كيمائى يدقق ، لا يجد للتحليل بينها سبيلاً . وأظنك فى العلم بثبوت تلك الطبيعة فيه كنت من المتحققين .

وكتب المرحوم محمد حافظ بك إبراهيم (١) إلى الأستاذ الإمام الحكيم الشيخ محمد عبده :

كتابى إلى سيدى : وأنا من وعده بين الجنة والسلسبيل (٢) ، ومن

(١) يشكو إليه حاله وهو ضابط بالسودان .

(٢) عين فى الجنة وهو الشراب السهل فى الحلق .

تبهى (١) به ، فوق النثرة (٢) والإكليل (٣) وقد تعجلت السرور ، وتسلفت
الجبور (٤) ، وقطعت ما بينى وبين النوائب :

وبشّرت أهلى بالذى قد سمعته فما محنتى (٥) إلا ليال قلائل

وقلت لهم : للشيخ فينا مشيئة فليس لنا من دهرنا ما ننازل (٦)

وجمعت فيه بين ثقة الزبيدي (٧) بالصمصامة (٨) والحارث بالنعامة (٩) ،
فلم أقل فيه ما قال الهذلى (١٠) لصاحبه ، حين نسى وعده (١١) وحجب رفته (١٢) :
« يادار عاتكة التى أتغزل » بل أناديه نداء الأخيذة (١٣) فى عمورية (١٤) ،
شجاع الدولة العباسية ، وأمد صوتى بذكر إحسانه ، مد المؤذن صوته فى أذانه
وأعتمد عليه فى البعد والقرب ، اعتماد الملاح (١٥) على نجمة القطب (١٦) :

وقال : أصبحابى هالى النوى (١٧) وهالهم أمرى متى أنت قافل (١٨)

فقلت : إذا شاء الإمام فأوتى (١٩) قريب ورعى (٢٠) بالسعادة آهل

(١) عجبى (٢) كوكبان متقاربان بينهما قدر شبر وفيهما لطح
يباض كأنه قطعة سحاب (٣) من منازل القمر أربعة أنجم مصطفة
(٤) الفرع ومعنى تسلق : تسور أى أتى الفرع من غير بابهِ ويروى تسلفت
بالفاء (٥) محنتى : بليتى (٦) نضارب لأن الشيخ كفانا صدمات
الدهر (٧) أبو ربيعة عمرو بن معدى كرب ينتهى نسبه الى قحطان
صحابى من شجعان الجاهلية والاسلام وزيدى نسبة الى زيد بضم الزاى
قوم من اليمن (٨) اسم سيف عمرو (٩) اسم فرس للحارث بن عباد
البكرى شيخ من العرب (١٠) نديم الخليفة أبى جعفر المنصورى العباسى
كان لا يكلم الخليفة الا جوابا (١١) وعده ولم يوف ولما مرا على دار عاتكة
بنت عوف قال الهذلى هذه دار عاتكة التى قال فيها الشاعر - يادار عاتكة
الخ فعجب الخليفة كيف بداه بالكلام على غير عادة ثم نظر الملك فى قصيدة
الشاعر فوجد فيها « وأراك تفعل ما تقول » فتذكر الخليفة الوعد (١٢) عطاء
(١٣) الاسيرة ويريد بها امرأة من بنى هاشم أسرها الروم فنادت وامعتصم
تعنى المعتصم من خلفاء بنى العباس فوصل الخبر الى المعتصم فقال: ليك!
ليك ! وهم فحاربهم وخلصها (١٤) بلدة من بلاد الروم (١٥) صاحب
السفينة (١٦) كوكب فى السماء تدور عليه الكواكب وهو ثابت مكانه
ينظر اليه صاحب السفينة فيعرف الجهة التى هو قاصدها (١٧) العبد
(١٨) راجع (١٩) رجعتى (٢٠) دارى

وها أنا متماسكٌ حتى تنحسر (١) هذه الغمرة (٢) ، وينطوى أجلُ تلك
الفترة (٣) ، وينظر إلى سيدي نظرةً ترفعني من ذات (٤) الصدع (٥) إلى ذات (٦)
الرجع (٧) ، وتردني إلى وكري (٨) الذى فيه درجت (٩) ، ردَّ الشمس قطرة
المزن (١٠) إلى أصلها ، وردَّ الوفى الأمانة إلى أهلها :

فإن شاء فالقربُ الذى قدرجوته وإن شاء فالعز الذى أنا آمِلُ
وإلا فإني قافٌ رؤية (١١) لم أزل بَقِيدُ النَّوى حتى تغول الغوائلُ
فلقد حللتُ السودان حلولَ الكليم (١٢) فى التابوت (١٣) ، والمغاضب (١٤)
فى جوف الحُوت ، بين الضيق والشدة والوحشة والوحدة ، لابل حلول الوزير (١٥)
فى تنور العذاب ، والكافر فى موقف الحساب بين نارين : نار القيظ (١٦)
ونار الغيظ

فذا ديتُ باسم الشيخ والقيظ جَمْرَةٌ تذيب دماغ الضب والعقلُ ذاهلُ
فَصِرْتُ كَأَنى بين رَوْضٍ وَمَنْهَلٍ تَهْبُ الصَّبَا فيه وتشدو البلابلُ
واليوم أكتب إليه وقد قعدت همة النجمين ، وقصرت يدا الجديدين (١٧)
عن إزالة ما فى نفس ذلك الجبار العنيد ، فلقد غمى ضِبُّ (١٨) ضغنه (١٩) على ،
وبدرت (٢٠) بوادر (٢١) السوء منه إلى ، فأصبحتُ كما سرَّ العدو وساء الحميم (٢٢)
وآلامى كأنها جلود أهل الجحيم . كلما نضج منها أديمٌ تجدد أديم (٢٣) وأمسيْتُ
وملَّك آمالى إلى الزوال ، أسرع من أثر الشَّهاب فى السماء ، ودولة صبرى إلى

(١) تنكشف (٢) الشدة (٣) يريد المدة بينهما (٤) الأرض
(٥) الشق (٦) السماء (٧) صوت الرعد (٨) يريد وطنه وأصله
عش الطائر (٩) مشيت (١٠) المطر (١١) رجل من العرب كان أكثر
روى أراجيزه على القاف الساكنة (١٢) سيدنا موسى عليه السلام
(١٣) الذى وضعته أمه فيه وألقته فى البحر (١٤) سيدنا يونس بن متى
عليه السلام (١٥) محمد الزيات وزير الخليفة مروان الحمار أدخله تنور
العذاب الذى اصطنعه لتعذيب من يأمر بتعذيبه (١٦) شدة الحر
(١٧) الليل والنهار (١٨) بكسر الضاد القيظ (١٩) حقه (٢٠) أسرع
(٢١) جمع بادرة الحدة عند الغضب (٢٢) القريب الذى يهتم لأمره
(٢٣) الجلد .

الاضمحلال ، أحثُّ (١) من حباب (٢) الماء ، فنظرتُ فى وجوه تلك العباد ،
وإني لفارسُ العين والفؤاد ، فلم تقف فِرَاسَتِي على غير بابك .

وإني أهديكَ سلاماً لو امتزج بالسحاب ، واختلطَ منه باللعاب ،
لأصبحتُ تنهادي (٣) بقطره الأكاسرة (٤) ، وأمستُ تدخر معه الرهبان
فى الأديرة ، ولأغنى ذات الحجاب عن الغالية (٥) والمالاب (٦) .

ولا يدع إذا جاد السيد بالرد ، فقد يرى وجه المليك فى المرآة ، وخيال القمر
فى الإضاءة ، وإن حال حائلٌ ، دون أمنية هذا السائل ، فهو لا يذم يومك ، ولا
ييأس من غدك ، فأنت خيرٌ ما تكون حين لا تظنُّ نفسٌ بنفس خيراً ، والسلام .

الفصل السابع : فى رسائل العيادة

كتب ابن الرومى المتوفى سنة ٢٨٤ هـ إلى بعضهم :

أذن الله فى شفائك ، وتلقى داءك بدوائك ، ومسحَ بيد العافية عليك ، ووجه
وفد السلامة إليك ، وجعل عِلَّتكَ ماحيةً لذُنُوبِكَ مضاعفةً لِشَوَابِكَ .

وكتب أبو بكر الخوارزمي المتوفى سنة ٣٨٣ هـ :

وصل كتابك ياسيدى ، فبسرني نظرى إليه ، ثم غمّنى اطلاعى عليه ،
لما تَضَمَّنَهُ مِنْ ذِكْرِ عِلَّتِكَ ، جعلَ الله أولها كفارةً ، وآخرها عافيةً ،
ولا أعدمك على الأولى أجراً ، وعلى الأخرى شكراً .

وبودى لو قُربَ عَلَى متناول عيادتكَ . فاحتملت عنك بالتعهد والمساعدة
بعضُ أعباء (٧) علتك ، فلقد خَصَّنِي من هذه العلة قسمٌ كَقَسْمِكَ ، ومرض قلبي
فيك لمرض جسمك ، وَأَظُنُّ أَنِي أَوْلَقِينِكَ عِلِيلاً لا نصرفت عنك ، وأنا أعلُّ منك
فإني بحمد الله جلدُ (٨) على أوجاع أعضائى ، غير جلد على أوجاع أصدقائى ،
شفاك الله وعافاك .

(١) أسرع (٢) ما يرى على وجه الماء من الفقائيع (٣) تجعله
هدية (٤) الملوك (٥) الطيب (٦) الزعفران (٧) جمع عبء
(٨) شديد .

الفصل الثامن : فى رسائل التهانى

كتب فى التهنة بميلاد الأولاد أبو منصور الشعلى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :
أَهْلًا وَسَهْلًا بِعَقِيلَةِ (١) النِّسَاءِ ، وَأُمِّ الْأَبْنَاءِ ، وَجَالِبَةِ الْأَصْهَارِ ،
وَالْأَوْلَادِ الْأَطْهَارِ :

ولو كان النِّسَاءُ كمثُلِ هَذِي لَفَضَلْتُ النِّسَاءَ عَلَى الرِّجَالِ
فَمَا التَّائِيثُ لاسمِ الشَّمْسِ عَيْبٌ وَلَا التَّذْكِيرُ فَخْرٌ لِلْهَلَالِ
وَاللَّهُ يُعْرِفُكَ الْبِرْكَهَ فِي مَطْلَعِهَا ، وَالسَّعَادَةَ بِمَوْقِعِهَا ، فَالدُّنْيَا مُؤَنَّثَةٌ ، وَالنَّاسُ
يَعْدُمُونَهَا ، وَالذَّكُورُ يَعْبُدُونَهَا ، وَالْأَرْضُ مُؤَنَّثَةٌ ، وَمِنْهَا خُلِقَتِ الْبَرِيَّةُ ، وَفِيهَا
كَثُرَتِ الذَّرِيَّةُ ، وَالسَّمَاءُ مُؤَنَّثَةٌ ، وَقَدْ زِينَتْ بِالْكَوَاكِبِ ، وَحُلِّيَتْ بِالنَّجُومِ
الثَّوَابِقِ (٢) ، وَالنَّفْسُ مُؤَنَّثَةٌ ، وَهِيَ قِيَامُ الْأَبْدَانِ ، وَمَلَكَ الْحَيَوَانَ ، وَالْحَيَاةُ
مُؤَنَّثَةٌ وَلَوْلَاهَا لَمْ تَتَصَرَّفِ الْأَجْسَامُ ، وَلَا تَحْرُكَ الْأَنَامُ ، وَالْجَنَّةُ مُؤَنَّثَةٌ ، وَبِهَا
وَعِدَ الْمُتَّقُونَ ، وَفِيهَا تَنْعَمُ الْمُرْسَلُونَ فَهَنِيئًا هَنِيئًا مَا أُولِيَتْ وَأَوْزَعَكَ (٣) اللَّهُ
شُكْرَ مَا أُعْطِيَتْ ، وَأَطَالَ بَقَاءَكَ مَا عُرِفَ النَّسْلُ وَبَقِيَ الْأَبَدُ .

وكتب بديع الزمان الهمداني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ إلى الداوردى يهنئه بمولود :
حَقًّا لَقَدْ أَنْجَزَ الْإِفْبَالَ وَعَدَهُ ، وَوَافَقَ الطَّالِعَ سَعْدَهُ ، وَإِنْ الشَّأْنَ لَفِيَا بَعْدَهُ ،
وَحَبِذَا الْأَصْلُ وَفِرْعُهُ ، وَبُورِكَ الْغَيْثُ وَصُوبُهُ (٤) ، وَأَيَّنَعَ الرَّوْضَ وَنُورُهُ (٥) ،
وَحَبِذَا سَمَاءٌ أَطْلَعَتْ فِرْقَدًا ، وَغَابَةُ (٦) أَبْرَزَتْ أَسَدًا ، وَظَهَرَ وَافِقٌ سِنْدًا ،
وَذَكَرَ يَبْقَى أَبَدًا ، وَمَجْدٌ يُسَمَّى وَلَدًا ، وَشَرَفٌ لَحْمَةٌ وَسَدَى (٧) :

أَنْجَبَ (٨) كُلُّ مَنْ وَالِدِيهِ بِهِ إِذَا نَجَلَاهُ فَنَعْمَ مَا نَجَلَا
فَأَفْهِيَاهُ (٩) شِهَابَ ذِكَاةٍ ، وَبَدْرَ عِلَاءِ .

(١) كريمتهن (٢) المضيئات (٣) أقدرك (٤) مطره وهنا
كنية عن الولد (٥) زهرة الشجرة وهو كناية عن الولد أيضا (٦) موضع
الأسد الذى يألغه والمراد أصوله (٧) كلاهما من لحمة الثوب وسداه وهو
كنية عن الصرف ظاهرا وباطنا (٨) ولداه كريما (٩) وجداه .

وَوَجَدَاهُ ابْنِ جَلَا (١) أَبْيَضَ (٢) يَدْعَى الْجَفْلَى (٣)
لِثَلْه أُولَى فَلَا إِذَا النَّدَى (٤) احْتَفَلَا

وكتب فى التهئة بالقدوم أبو منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :
أَهْنِي سَيِّدِي ، وَنَفْسِي تَطِيبُ بِمَا يَسَّرَ اللَّهُ مِنْ قُدُومِهِ سَالِمًا ، وَأَشْكُرُ
اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ شُكْرًا دَائِمًا . جَعَلَ اللَّهُ قُدُومَكَ مَقْرُونًا بِالْخَيْرَةِ التَّامَةِ الْعَامَةِ ،
وَالْكَفَايَةِ الشَّامِلَةِ الْكَامِلَةِ .

غِيبة المكارم مقرونة بغيبتك ، وَأَوْبَةُ النِّعَمِ مَوْصُولَةٌ بِأَوْبَتِكَ ، فَوَصَلَ اللَّهُ
قُدُومَكَ مِنَ الْكِرَامَةِ ، بِأَضْعَافِ مَا قَرْنَ بِهِ مَسِيرَكَ مِنَ السَّلَامَةِ ، وَهَذَا بِإِيَابِكَ
وَبَلِّغْكَ غَايَةَ مُحَابِكَ ، مَازَلْتُ بِالنِّيَّةِ مَعَكَ مُسَافِرًا ، وَبِاتِّصَالِ الذِّكْرِ وَالْفِكْرِ
مَلَاقِيًا إِلَى أَنْ جُمِعَ شَمْلُ سُرُورِي بِأَوْبَتِكَ وَسَكَنَ نَافِرُ قَلْبِي بِعَوْدَتِكَ .
وكتب أيضاً فى التهئة بـرمضان :

سَاقَ اللَّهُ إِلَيْكَ سَعَادَةً إِهْلَالَهُ ، وَعَرَّفَكَ بَرَكَةَ كَمَالِهِ ، لَقَّاهُ فِيهِ مَا تَرْجُوهُ وَرَقَّاهُ
إِلَى مَا تَحِبُّ فِيمَا يَتْلُوهُ ، جَعَلَ اللَّهُ مَا يَطُولُ مِنْ هَذَا الصُّومِ مَقْدَرًا بِأَفْضَلِ الْقَبُولِ ،
مُؤْذَنًا بِدَرْكِ الْبَغْيَةِ وَنَجِّحَ الْمَأْمُولِ ، وَلَا أَخْلَاكَ مِنْ بَرِّ مَرْفُوعٍ ، وَدَعَا مَسْمُوعٍ ،
قَابَلَ اللَّهُ بِالْقَبُولِ صِيَامَكَ ، وَبِعَظِيمِ الْمُثُوبَةِ تَهْجِدَكَ وَقِيَامَكَ ، أَعَادَ اللَّهُ إِلَى مَوْلَايَ
أَمَثَالَهُ ، وَتَقَبَّلَ فِيهِ أَعْمَالَهُ ، وَأَصْحَحَ فِي الدِّينِ وَالْدُّنْيَا أَحْوَالَهُ وَبَلَّغَهُ مِنْهَا آمَالَهُ .
أَسْعَدَ اللَّهُ مَوْلَايَ بِهَذَا الشَّهْرِ ، وَوَفَّاهُ فِيهِ أَجْرَ الْمُثُوبَةِ وَالْأَجْرِ .

وكتب أبو الفرج البغراء المتوفى سنة ٣٩٨ هـ تهنته :

سَيِّدِي - أَيَّدَهُ اللَّهُ ! - أَرْفَعُ قَدْرًا ، وَأَنْبِيَهُ ذِكْرًا ، وَأَعْظِمُ نَبْلًا ، وَأَشْهَرُ

(١) واضح الامر (٢) نقى العرض شريفا (٣) دعاهم بجماعتهم
وعامتهم (٤) مكان اجتماع الناس والاحتفال هو التجمع : أى ، لثله
نصوغ التهانى أولى فلا يحسن أن تصاغ لغيره :
بشرى فقد انجز الاقبال ما وعدا وكوكب المجدنى أفق العلاصعدا

فضلاً ، من أن نهنته بولاية ، وإن جَلَّ خطرُها وعظم قدرُها ، لأن الواجب تهنئة الأعمال بفائض عدله ، والرعية بحمود فعله ، والأقاليم بآثار سياسته والولايات بسماة سياسته ، فعرفه الله يُمن ما تولاه ورعاه في سائر ما استرعاه ، ولا أخلاه من التوفيق فيما يعانيه ، والتسديد فيما يُبرمه ويمضيه .

وكتب أستاذنا الشيخ حمزة فتح الله :

أى جهابذة (١) الكنانة (٢) نبأ المجنابة (٣) مياه الاجانة (٤) أبناء تلك اللغى صناديد هذه الوغى ، إليكم يساق هذا الحديث ، في القديم والحديث ، عن هذا النبأ العظيم والمجد الصميم ، مالى أرى في لغتنا الشريفة - ويعلم أول النهى آية من اللغات أحق بهذا النبر (٥) أن يُصرف إليها عند الإطلاق - هُبُوباً غِبَّ خمول ، وترة (٦) بعد نحول ، ونوراً عقيب أفول ، ونوراً إثر ذبول ، وصَباً وراء قبُول ، وعدلا ولا حَيْف (٧) وقوة ولا ضعف ، وما يشاء المطرى (٨) في هذا القبيل من العطف ، آمنت بالقدر المقدور والبعث والنشور ، كذلك يحيى الله الموتى .

أليس رجلٌ واحدٌ أسفرت (٩) عنه عذاية التوفيق ، فألقت إليه المقاليد (١٠) ، بلى (١١) ، ولكنه الواحد الذى يقول فى مثله صاحب بنى ميكال :

والناس أَلْفٌ منهم كواحد وَوَاحِدٌ كالألفِ إن أَمُرْ عني (١٢)

إى (١٣) ورب تلك البنية (١٤) ، بارئ (١٥) نسيم البرية ، إنه لرجلُ البلاد ، رجل الحزم والسداد : أَلَمْ نرِ جَنَانَهُ (١٦) ، وحنانه وبذانه (١٧) وبيانه ، عوامل لهذه اللغة : لغة الفرقان (١٨) ، لغة الأوطان ! لا - بل أمضى من العوامل حتى

(١) الحذاق ذوو النقد (٢) ما يوضع فيها السهام والمراد أنهم نقادون للمسائل (٣) بضم الجيم الترس التى يتقى بها (٤) الاجابة بالكسر اناء تغلى فيه الثياب وما حول الفراس شبه الاحواض والجمع اجاجين (٥) اللقب الرفيع (٦) امتلاء الجسم بالسمن (٧) الظلم والجور (٨) المدح (٩) ظهرت (١٠) المفاتيح (١١) حرف جواب تثبت المنفى (١٢) أهم الناس وأقلهم (١٣) حرف جواب مثل نعم (١٤) فتح الباء وزن غنية الكعبة (١٥) خالق (١٦) قلبه (١٧) انامل أصابعه (١٨) لغة القرآن الكريم

ظلت (آدابها) فرائض ، وقد كانت وما بالعهد من قِدم (نوافل) ومن حُلِيِّها أجياد (١) اللهجات عواطل . اللهم إلا بقية ثمد ، قد منيت (٢) صُحُفُها الأود (٣) ، ففقدتُ الجِلْدَ والجِلْدَ (٤) وبعد أن راج سوق الرطانة (٥) ونضب (٦) ماء الإبانة وخبت (٧) أنوارُ البلاغة ، وذوت (٨) أنوار (٩) النباعة وكسد البيان وقوُص (١٠) منه البنيان ، وأصبحت العربية لُقى (١١) وبضاعة مُزجاة (١٢) ، فأيهذا اليراع (١٣) لا أقل من نفثات فى صَوُغ كَلِمَات تقدر هذه النعمة قدرها ، وتمنحها (١٤) شكرها . . .

وَيْحَكَ ! (١٥) هُبَّ (١٦) من سِنَتِكَ (١٧) فى حلية مِقَتِكَ (١٨) ، وانض (١٩) حِسامك (٢٠) واشحذ كهامك (٢١) وانثُل (٢٢) كِنَانَتِكَ (٢٣) واعمل بنانتك (٢٤) وصغ إن استطعت تهانى غُرا ، بل عقوداً درّاً بل أنجماً زُهراً ، مُشْتَاراً (٢٥) من خلايا ذلك الأرى (٢٦) الشهى (٢٧) الندى الزكى ، ما جَرَسَتْ (٢٨) نحلة الشيخ (٢٩) والخزَامى (٣٠) وأطايب الثار ، وأزاهى الأزهار تهدين أولئك المصانع (٣١) شكراناً لتلك النعم تجميعاً لشواردها وتقييداً لأوابدها (٣٢) .

(١) الاعناق (٢) اختبرت (٣) الاود الكد والتعب ومراده اعتنى الناس بها لا عن بذل جهد (٤) القوة (٥) كل لسان يخالف العربية (٦) غار وذهب (٧) خفيت (٨) ذبلت (٩) جمع نور بالفتح الزهر (١٠) نقض (١١) بالقصر مطروحة (١٢) قليلة (١٣) القلم (١٤) تعطيها (١٥) كلمة رحمة (١٦) استيقظ (١٧) نومك (١٨) محبتك (١٩) سله من غمده (٢٠) السيف القاطع (٢١) شحذه حده ، والكهام بفتح الكاف السيف الكليل (٢٢) استخرج ما فيها من النبال (٢٣) الجراب الذى توضع فيه النبال والسهام (٢٤) أصبعك (٢٥) كثير الشرى (٢٦) العسل (٢٧) ما يشتهى (٢٨) أكلت وأصله جرس الشئ جرساً لحسه بلسانه (٢٩) نبت طيب الرائحة (٣٠) بضم الخاء نبت زهره أطيّب الأزهار (٣١) جمع مصقع البليغ (٣٢) لغرائبها .

كما شبهها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصطدوق ، وإشفاقاً عليها من الجماح (١) ، بعد ذلك من الارتياح .

فإليكم بنى هذه اللغة (كتابى هذا) تهنئة بتلك النهضة العربية فى إبان - كما تعلمون - وجهه مكفهر^(٢) وبدنه مقشعر^(٣) ، وثناء على العزلة (التوفيقية) والعناية (الرياضية) .

على أن لذلك الوزير سوى ذلك أيادى^(٣) مبرورة ، ومساعى مشكورة أكسبت الوطن وأهليه نهضات ، وأقالاته كثيراً من العثرات .

لكننى آثرت (٤) تلکم النهضة العربية بتهنئتكُم بها ، أى بنى جلدتى (٥) ، وإخوان حرفتى ، لكونها فيما أخال لا بل فيما أتيقن ويتيقن أولو الحجاج^(٦) أعظم النهضات وأيمن (٧) ما اجتازته (٨) الوطن من عقبات ، ولو كان فى نطاق الإمكان زيادة البيان فى هذا الشأن ، لأسهبت^(٩) وأوسعت ، وأطربت^(١٠) ، وأطنبت ، ولو لم يكن فى تلك النهضة إلا أن حياة الأمة لغتها فحسب لكفالك وشفالك وأغنأك ، وكان ذلك قصارك^(١١) وحمداك^(١٢) .

وكتب المرحوم الأستاذ محمود بك أبو النصر :

إنسان عين الفضائل ، عزيزى فلان المحترم : نور على نور ، وشفاء لما فى الصدور شفاؤك أيها العزيز من ذلك الرمد . قد أنجز الإقبال ما وعد ، وابتهجت النفوس وتزينت الطروس ، واهتزت الأقلام وأعلنت بالسلام .

وكيف لا ! وأنت واحد الكتاب وإنسان عين الآداب ؟ ! رمدت فرمدت

(١) الذهاب بسرعة (٢) متعبس (٣) نعماً من ذلك الوزير الخطير مصطفى باشا رياض المتوفى سنة ١٣٣١ هـ (٤) اخترت (٥) بنى عشيرتى (٦) العقل (٧) أكثر بركة (٨) سلكه (٩) لاكثر الكلام (١٠) مدحت (١١) مبلغ جهدك وغايتك (١٢) غاية ما تحمد عليه .

وشفيت فاهتزت وربت . وقد كان طرفها كليلا ، وفؤادها عليلا . واليوم
زال العناء ، وحق الهناء ووافى الشفاء ؛ فكان برداً وسلاماً على القلوب وقميص
يوسف فى أجفان يعقوب :

فلك الهناء بصحة ميمونة أبداً على مرّ الدهور تدوم
وإن الله ما قضى بما قد مضى ، إلا ليُعرف سيدي ما عانت من القلوب ومنزلته
من الفضل . وهذه حال العافية قد خلعت عليك ، وثياب السلامة سبقت إليك
فوافى السرور ، وعم الجبور . والله يبلغك بالصحة والأعمال . منتهى الآمال والسلام .
وكتب الوزير المرحوم عبد الله باشا فكرى المتوفى سنة ١٣٠٨ هـ فى تهنئة العيد :
هذا يوم نشر البشر فيه أعلامه ، وأضاءت الدنيا وازدانت الآفاق ،
ببهبهة هذا العيد السعيد ، وأخذ الأحبة يتهادون رسائل البشائر فيما بينهم ،
وكل حزب فرحون بما لديهم ، بما أودع فيهم من روابط المحبة وعوامل
الاتحاد السارية فى النفوس ؛ أما أنا فعيدى ، وبهجة نفسى ، وسرور فؤادى
دوام إقبال الزمان عليك بوجه النصر وعود أعياد السرور على جنابك الرفيع
فمثلك تشرق الدنيا بطلعته ، وتفرح الأعياد برؤيته :

وأرى الحياة لذيذة بحياته وأرى الوجود مشرقاً بوجوده
لو أننى خيرت من دهرى المنى لاخترت طول بقائه وخلوده
أعاد الله عليك أيها الأخ أمثاله وأمثال أمثاله فى صفاء وهناء .

الفصل التاسع : فى رسائل التعازى والتأبين

كتب أبو منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :

خبر عز علىّ مستمعاً ، وأثر فى قلبي موقعه . خبر تستاء (١) له المسامع وترتج
منه الأضالع ، خبر يهدئ الرواسي (٢) ويفاق الحجر القاسي . كادت له القلوب
تطير ، والعقول تطيش ، والنفوس تطيح (٣) . خبر يشيب الوليد ، ويذيب

(١) تتألم وتتأثر من أجله (٢) الجبال (٣) تهلك .

الحديد ، قد كاد من الحزن أن تنقبض الألسن عن هذا النعى الفادح (١) وتخرس ، وتقصر الأيدى عن التعزية بهذا الرزء الفادح (٢) وتيبس .

وكتب أبو الفضل بديع الزمان الهمداني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ :

إذا ما الدهر جرَّ على أناس مصائبه أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

أحسن ما فى الدهر عمومُه بالنوائب ، وخصوصه بالرغائب ، فهو يدعو الجفلى (٣) إذا ساء ، ويخص بالنعمة إذا شاء . فليكفر الشامت : فإن كان أفلت (٤) فله أن يشمت . ولينظر الإنسان فى الدهر وصروفه ، والموت وصفوفه ، من فاتحة أمره إلى خاتمة عمره ، هل يجد لنفسه أثراً فى نفسه ؟ أو لتدبيره عوناً على تصويره ؟ أم لعمله تقديماً لأمله ؟ أم لحيله تأخيراً لأجله ؟ كلا . بل هو العبد لم يكن شيئاً مذكوراً ، خلُق مقهوراً ، فهو يحيا جبراً ، ويهلك صبراً ، وليتأمل المرء كيف كان قبلاً ؟ ! فإن كان العدم أصلاً ، والوجود فضلاً ، فليعلم الموت عدلاً .

والموت - أطال الله بقاء مولاي - خطب قد عظم حتى هان ، وأمر قد خشن حتى لان ، ولعل هذا السهم قد صار آخر ما فى كينانتها (٥) وأزكى (٦) ما فى خزانتها ، ونحن معاشر التابع نعلم الأدب من أقواله ، والجميل من أفعاله ، فلا نحثه على الجميل وهو الصبر ، ولا نرغبه فى الجزيل وهو الأجر ، فليَرَ فيهما رأيه .
وكتب أيضاً :

ياسيدى : المصاب لعمر الله كبير ، وأنت بالجزع جدير ، ولكنك بالصبر أجدر . والعزاء على الأعزة رشد كأنه الغى ، وقد مات الميت ، فليحى الحى .

(١) الذى يثقل الناس ويهمهم (٢) المصيبة (٣) يدعو الناس بعامتهم وجماعاتهم (٤) أطلق وخلص وسلم من نوائب الدهر (٥) الجراب الذى توضع فيه السهام (٦) أظهر وأنفس لانه لا يحرز الا ما كان نفيسا .

وكتب فقيده اللغة الشيخ إبراهيم اليازجى المتوفى سنة ١٩٠٦ م :

أشباحُ تروح وتجىءُ ، وآجال تسمى وتغتدى ، وأنفاس تتقطع من دونها
حزناً وأسفاً ، وعبرات تتفطر وجداً ولهفاً . وما عمدت الأقدار إلى استنزاف
مدمع ، ولا أرادت الأيام إيلام موجد . إنما هى سُنَّةُ الخلق : كون يليه زوال
وعقد يسبقه انحلال . إن لكل شئ أجلاً موقوتاً . وإن لكل أجل سبباً
مقدوراً ، وإن الإنسان لفي كل ذلك شاهدٌ يسمع لاهياً ويبصر ساهياً . وليس
في يده أن يسترد ماضياً ولا أن يرد آتياً . لقد ودَّدت أن أعزبك ، لولا ما
يُغالبني على العزاء من كبد حرى ، ومُؤقلة شكري ، وزفرة تترى . ثم ودَّدت أن
أستبكيك ، لولا أني بكيت حتى لم أدع في البكاء من واد ، وأحييت ليالي بالنوح
حتى أَلَمَّ بي مبالانجم من سهاد ، ثم لم يزدني البكاء على سقم جسدى ، ولم
يزدني النوح على صفر يدي إلا من كبدى . وإن الأقدار سهام إذا انطلقت
لم ترد ، وإن المتطلع إلى الفاتئ لطويل شقة الكمد ، وإن الخطوب ليهي
هى وإنما تتفاوت عند الجلد :

وإن الحصى عند الجزوع ثقيلة وضخم الصفا عند الصبور خفيف
والله المسئول فى إطالة بقائك قررة للعيون وجبراً لخاطر المحزون بمنه وكرمه .

تأبين الأحنف بن قيس (١) :

مات الأحنف بن قيس بالكوفة فمشى مصعب بن الزبير فى جنازته بغير
رداء (٢) . وقال قوم : مات سيد العرب . فلما دفن قامت امرأة على قبره فقالت :

(١) اسمه الضحاك وكان سيد تميم فى عهده معروفاً بالعقل والدهاء
والعلم والحلم الى ثبات جنان وحسن بيان ، وحياته مملوءة بجلال الاعمال
وكرم الفعال توفى سنة ٦٧ هـ (٢) كانت عاداتهم فى جناز العظماء .

لله دَرَكٌ (١) من مِجَنٍّ (٢) فى جنن ومُدْرَج فى كفن . فنسأل الذى فَجَعَنَا بموتك وابتلانا بفقدك أن يجعل سبيل الخير سبيلك ، ودليل الرشد دليلك ، وأن يوسع لك فى قبرك ، ويغفر لك يوم حشرِك . فوالله لقد كنت فى المحافل شريفاً ، وعلى الأرامل عطوفاً . ولقد كُنت فى الحى مُسَوِّداً وإلى الخليفة موفداً ، ولقد كانوا لقولك مستمعين ولرأيك متبعين .

ثم أقبلت على الناس فقالت : ألا إن أولياء الله فى بلاده شهود عباده وإنى لقائلة حقاً مُثنية صدقاً ، وهو أهل لحسن الثناء وطيب البقاء . أما والذى كنت من أجله فى علة ومن الحياة إلى مدة ومن المقدار إلى غاية ومن الآثار إلى نهاية ، الذى رفع عملك لما قضى أَجَلَكَ ، لقد عشت حميداً مودوداً ، ومِت سعيداً منقوداً (٣) . ثم انصرفت وهى تقول :

لله دَرَكٌ يا أبا بحر ماذا تغيب منك فى القبر
لله درك ! أى حشو ثرى أصبحت من عُرف ومن نكر
إن كان دهر فيك جدًّا لنا حدثانه ووهت قوى الصبر (٤)
فلكم يد أسديتها ويد كانت ترد جرائر الدهر (٥)

ثم انصرفت . فسئل عنها فإذا هى امرأته وابنة عمه (٥) فقال الناس : ما سمعنا كلام امرأة قط . أصدق ولا أبلغ منه .

تأبين الإسكندر :

لما جُعِل الإسكندر فى تابوت من ذهب تقدم إليه أحد الحكماء فقال :

(١) الدر : اللبن والعمل ، والله درك : كلمة تعجب (٢) أجنه : ستره والجنن : القبر ومن بدائع العربية أن مادة (جنن) تدل على السستر كالجن والجنون والجنة والمجن والجنان والجنين (٣) يقولون مات فلان غير حميد ولا فقيد أى غير مكترث لفقدانه فقولها : مفقودا تريد يحزن الناس فقذك (٤) حدثان الدهر : نوابه (٥) ذكر صاحب إلیغات النساء أن اسمها صفية بنت هشام المنقروية .

كان الملك يخبأ الذهب وقد صار الآن الذهب يخبؤه .

وتقدم إليه آخر والناس يبيكون حوله فقال : حَرَكْنَا بسكونه .

وتقدم إليه آخر فقال : كان الملك يعظنا فى حياته وهو اليوم أوعظ منه أمس (١) . وتقدم إليه آخر قائلاً : قد طَوَّفَ الأرض وتَمَلَّكَهَا ثم جُعِلَ منها فى أربعة أذرع . ووقف عليه آخر : انظر إلى حلم النائم كيف انقضى ، وإلى ظل الغمام وقد انجلى . ووقف عليه آخر : مالك لا تُقِلُّ عضواً من أعضائك وقد كنت تستقلُّ مُلْكَ العباد ؟ !

وقال آخر : مالك لا ترغب بنفسك عن ضيق المكان ، وقد كنت ترغب بها عن رَحْبِ البلاد ؟ !

الفصل العاشر : فى رسائل الأجوبة

كتب عبد الله باشا فكرى المتوفى سنة ١٣٠٨ هـ :

سَيِّدِي سَلَّمَكَ اللَّهُ وَحَيَّكَ وَأَسْعَدَنِي بِرُؤْيَا حُصَيَّاكَ ، وزاد عَزَّكَ وَعُليَاكَ وحرس دينك وذنباك ، وجمعني على بساط المسرة وإياك ، ولا حرمني دوام لقياك ولا بَرَح مبتسم الثغر بمحاسن معاليك . مباهياً أعصار الأوائل بأيامك ولياليك محلياً أجياد المفاخر بزواهر لآليك . ورد على كتابك الكريم مورد إعزاز وتكريم ، فبَلَّ بعض ما بالجوانح من الصدى ، وأنعش ولا انتعاش الزهر بمباكرة الندى ، وجلا على من البلاغة رَوْضاً غَضّاً ، وأدار لدى صفواً من سُلَاف المحبة محضاً ؛ وهزنى هزة النشوان شوقاً وطرباً ، واستفزني بمعجز آياته الحسان عَجَباً ، وعَجَباً ونشر على من محاسن لفظك الحر وكلماتك الغر ، ما يخجل الدراري ويفضح الدر .

(١) أخذ أبو العتاهية هذا المعنى فقال :

وكانت فى حياتك لى عظات وأنت اليوم أوعظ منك حيا

وكتب أيضاً وهو بالآستانة في يوم برد كثير الأمطار :

كتبْتُ إليك والأمطارُ ساجمةً (١) بطلَّها (٢) ووبلَّها (٣) وعساكر البردِ والبردِ
هاجمة بخيلها ورجلها (٤) والسماءُ متلفعة بأذيال السحاب ، وكان الشمس خافت
من الطل فتوارت بالحجاب ، والجو مسكى الرداء ، عنبرى الأرجاء ، كأنه وعليه
ثوب الغيم مزروء ، قد وجَل (٥) من صولة البرد فلبس فروة السمور والغمام قد أناخ
على الأفق بكلاكله (٦) . وهز من البرق بيض مناصله (٧) ، ونشر في الجو طرائق
مطارفه (٨) ، وجاد على الأرض بتليده (٩) ، وطأرفه ، وثقل على كاهل الهواء كالطير
بكل جناحه بالماء ، وقرب حتى كاد يمسك باليدين ويعتصر ريا راحتين ، أو كأنه
مرآة مذهبة تبدو وتخفي ، أو جذوة (١٠) ملتهبة توقد وتطفى ، والرعد يهدد
بزواجر زماجره السحاب فيبكيها ، والطير يتلوى سطور الندى في طروس
الثرى (١١) فيمليها ، ويضطرب بأفنان (١٢) الألحان أفنان (١٣) البان فيعليها ويشنيها
ويقرأ على رؤوس الأغصان أوراذه الحسان فيقريها ويرقيها ، وقوس السماء
يرمى بسهام وبلي (١٤) جنوب الشقائق (١٥) فيضميها (١٦) ويذميها ، والريح تمسح
أخلاف (١٧) الغمام فتُمريها (١٨) ، وترضع بذرها بنات النبات في جحور أراضيها
فتربيها وتربيها ، وترضع بذرها تيجان القضبان ، وتارة تجعله عقوداً في
تراقيها (١٩) ، أو دموعاً في مآقيها ، وكأن الحرَّ خاف من بنادق البرد ، ومدافع

-
- (١) سائله (٢) الندى (٣) المطر الكثير (٤) المشاة على أرجالهم (٥) خف (٦) بجماعاته (٧) سيفوفه (٨) ثياب من خز مربعة والمراد أنه كثر حتى غطى السماء (٩) المال القديم والطارف ضده والمراد كثر عطره (١٠) بتثليث الجيم الجمرة (١١) الأرض (١٢) جمع فنن الغصن (١٣) الأغصان الناعمة (١٤) المطر الكثير (١٥) شقائق النعمان نبت أحمر (١٦) ليرميها ومراده أنه يرويها بالمطر حتى تزهو فتحمر (١٧) جمع خلف بالكسر الضرع (١٨) مرى الناقة يمر بها اذا مسح ضرعها لتدر اللبن (١٩) أعناقها .

الرَّعد ، ففرَّ إلى مصر ونواحيها ، وأصبح نزيل من فيها ، لكرم أهلها ،
وكأن غيرها بخلت عليه فلم تقبله عندها ضيفاً ، أو غلط الناس في حساب
الفُصول فظنوا شتاها صيفاً .

وكتب حفنى بك ناصف إلى الشيخ على الليثي :

وصل يا مولاي إلى هذا الطَّرف ، ما خصصت به العبد من الطَّرف « قفص »
من عنب كاللؤلؤ في الصدف ، تتألق عناقيده كأنها من صناعة « النّجف » ولعمري
الحق إنها تحفة من أحلى التحف لا يُعثر على مثلها إلا بطريق الصّدْف فقابلناه لثماً
بالأفواه ورشفاً بالشفاه ، واحتفينا (١) بقدمه كل الاحتفاء ، ولم نفرط في حبة
عند اللقاء ، بل حللنا له الحُبى (٢) ، وقلنا أهلاً وسهلاً ومرحباً ، وأوسّعناهُ عضاً
ولثماً ، وتناولناه تخميشاً (٣) وضماً ، وحفظنا في صدورنا سره المكنون وطويناه في
غُضون (٤) البطون ، فطربت من تعاطيه الأرواح ، ولا غرو فهو أصلُ الرّاح (٥) ،
وانتشينا (٦) ولم نحمل وزراً ، وثملنا (٧) ولم نذق طعاماً مرّاً . فهو كبيان مُهديه
سِحْرٍ ولكنه حلال ، ولِعَبٌ إلا أنه كمال . فإن أكسبت الشمول شاربها قوة في
الجنان . ونفحت (٨) ذائقها طلاقة في اللسان ، فقد سرت في أجسامنا من حرارته
شجاعة « ليثية » ودبت في كلامنا من مذاقته فصاحة « علوية » وخلّصت إلينا
منه فوائد لا يحيط بها العلم ، ونجمت (٩) عنه منافع ليس يصحبها إثم . فإن زعم
الأولون أن في الخمر معنى ليس في العنب ، فقد تغير الحال في هذه الهدية وانقلب ،
وانكشف للمتأخرين حقيقة الأمر أن في العنب معنى ليس في الخمر . وكان
الأحرى بهذا العنب أن يُنَاط (١٠) بالنُّحور أو تُزين به الصدور ، فما هو إلا
اللؤلؤ لكنه سلّم من سجن البحار ، وما هو إلا الدرّ لكن ليس فيه صغار (١١) .

(١) بالغنا في اكرامه وأظهرنا الفرح والسرور (٢) الجبال
(٣) المغازلة والملاعبة (٤) طيات البطون (٥) الخمرة (٦) شكرنا
(٧) شكرنا أيضاً (٨) أعطت (٩) أظهرت (١٠) يعلق (١١) بضم
الصاد الصغيرة .

وما ضره أن ضمّه القفص حصّةً من الحصص . فإن كريم الطير يودع فى الأفقاص ، والقلب ليس له من حنايا الضلوع خلاص . فلا بدع أن تُسْتَقِلَّ فى حباته حبات القلوب ، ويُسْتَمْلَح فى جنب حلاوته رُضَاب (١) المحبوب . وكأن الثريا لما أخذت شكله فَغَزَ (٢) الهلالُ فاه لعنقودها يريد أكله فهو يطاردها فى السماء ويأخذ عليها الطريق من وراء ، وهى تجرى من الأمام مخافة الاتهام ؛ هذا لمجرد تشابه فى الشكل ، فكيف بالثريا لو أشبهته حلاوة ورياً (٣) فله تلك العناقيد وما أشدّ تالّقها ! وأصنى ماءها وأحمن رونقها ! من كل عنقود تخاله عمود الصبح أحاطت به الدّارارى ، أو غصن البان تعلقت به القمارى . فسقى الغيث أرضاً أنبتته ، ولا ثلّ (٤) الدهر عُروشاً حملته ، وأرضاً عرفتنا بأثمارها حلاوة الجنة ، وأبرزت لنا لمحةً من محاسنها المستكنّة ، وأنسانا عنبها ذكرى دمشق (٥) وأزمير ، وأنباناً غارسها أن مصر خير مُسْتَقَر ، ولا ينبئك مثل خبير ، وعووساً كالعروس : تتيه (٦) فى الحلى والملبّوس تحسدها المجرة (٧) فى السماء وتودُّ لها هذه البهجة والرواء (٨) . ولا زال مولاى بُهْدَى وَيَهْدَى ، وصنائه تعيد فى ثنائه وتُبْدَى .

فأجابه الشيخ على الليثى :

أما بعد . فقد وصل كتاب القاضى الفاضل ، فأرج الأرجاء بلطيف فواضله شريف الفضائل . ما كنت أظن أن يحصل من زيبية خمّاره ، حتى رأيتُ القاضى الفاضل سبكه فى قوالب شتى وصاغه ، وأتى بما أدهش اللب من أساليب البلاغة . فتارة عقدأ فى النحور ، وتارة فى ميادين الطلب تطاردهُ البدور ،

(١) ريقه (٢) فتح (٣) منظرا حسنا (٤) لا هرم (٥) عاصمة الشام سميت باسم بانيتها دمشق بن دمشق بن كنعان (٦) تتبختر (٧) نجوم كثيرة لا تدرك بمجرد البصر وانما ينشر ضوءها فيرى كأنه بقعة بيضاء (٨) يضم الراء حسن المنظر .

وآونة دراً مكبراً ، ومرةً خمرًا معتبراً ، وساعة دوالي « نجفة » ، وساعة غصناً تعلق به الهزار (١) وألفه :

تكاثرت الطباء على خراش فما يدري خراش ما يصيد

عجباً لك أيها الفاضل ! هذا مع اشتغال بالك ، وإقبالك على ما لديك من مراعاة عدلك واعتدالك ! فكيف لو تفرغت لهذا الأمر ! ؟ ولاراحة النفس ، اعتصرت من العنقود قدحاً من خمر ، وامتنطيت (٢) طرف اليراع منتهجاً مناهج الطرس ، ودبجت (٣) بياض صفحاته بمحاسن حلى النفس (٤) فله أنت من بليغ بلغ ما يريد ، وقلد فرائد آدابه كل جيد ! وأفاد السحر منشوراً في فواصله ، وأقام بعوامل أفلامه تثقيف عوامله ! وأوجب علينا الشهادة له بالسبق ، فأذعنّا مسلمين والحق أحق - هذا ، ولولا أن يقال فلان جفاً ، وما احتفل بكتاب أخيه ولا احتفى (٥) ، وإن كان شيبى يلزمنى ذلك ، كما أن شباب (البيك) يسلك به أقوم المسالك ، لسترت عيى وما أشرت ، ورأيت طيى خيراً لى مما نشرت ، وجعلت كتاب سيدى فى عنق تيممة (٦) وروحت النفس تيمناً (٧) بمس آياته الكريمة ، وقلت : كفى ما أحاط بالعنق من قلائده ، حيث العبد لا يبلغ الفخامة كمال سيده .

وهبنى قلت هذا الصبح ليل أيعمى العالمون عن الضياء ؟

لا زالت بُردُ الترسل بيننا مُستمرة ، ومدد التوسل على جناح التقرب مستقرة ، ولا برح الجنب فى كل بداية . يترقى كما يحب من غاية إلى غاية والسلام .

الفصل الحادى عشر : فى رسائل الوصايا والشفاعات

من وصية عمر بن الخطاب لسعد بن أبى وقاص فى غزوة الفرس :

إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلة ، وهو دين الله

(١) بفتح الهاء طائر يقال له العندليب (٢) علوت (٣) نقشت (٤) بكسر النون الحبر (٥) ولا سأل (٦) ما تكتب وتعلق فى عنق الصبيان للحرز (٧) تبركا

الذى أظهره وجُنْدُه الذى أعدّه وأمدّه ، حتى بلغ ما بلغ ، وطلع حينما طلع ، ونحنُ على موعد من الله ، والله مُنْجِزٌ وَعَدَه ، وناصرٌ جُنْدَه - ومكان القِيمِ بالأمر مكان النّظام من الخرز يجمعه ويضمّه ، فإذا انقطع النّظام تفرّق الخرز وذهب ، ثمّ لم يجتمع بحذافيره أبداً .

والعَرَبُ اليَوْمَ ، وإن كانوا قليلاً فهم كثيرون بالإسلام ، عزيزون بالاجتماع ، فكن قُطْباً ، واستدِر الرّحى بالعرب ، وأصلهم دونك نار الحرب ، فإنك إن شخصت من هذه الأرض انقضّت عليك العرب من أطرافها وأقطارها ، حتى يكون ما تدعُ ورآءك مِنَ العَوْرَاتِ أهمّ إليك مما بين يديك .

إن الأعاجم إن يَنْظُرُوا إِلَيْكَ غداً يقولوا هذا أصل العَرَبِ ، فإذا قَطَعْتُمُوهُ اسْتَرْحْتُمْ ؛ فيكون ذلك أَشَدَّ لِكَلْبِهِمْ عَلَيْكَ وطمعهم فيك . فأما ما ذكرت من مسير القوم إلى قتال المسلمين ؛ فإن الله سُبْحَانَهُ هو أَكْرَمَ لِمَسِيرِهِمْ مِنْكَ ، وهو أَقْدَرُ على تغيير ما يَكْرَهُ . وأما ما ذكرت من عددهم فإننا لم نَكُنْ نُقَاتِلُ فيما مضى بالكثرة ، وإنما كُنَّا نُقَاتِلُ بالنّصر والمَعُونَة .

ومن وصية للنبي عليه الصلاة والسلام :

أما بَعْدُ ؛ فقد جعل الله لى عليكم حقّاً بولاية أَمْرِكُمْ ، ولكم على من الحق مثل الذى لى عليكم ، فالحقُّ أَوْسَعُ الْأَشْيَاءِ فى التّواصِفِ ، وَأَضْيَقُهَا فى التّناصُفِ لايجرى لأَحَدٍ إِلَّا جَرى عليه ، ولايجرى عليه إِلَّا جَرى لَهُ ، ولو كان لأحد أن يجرى له ولايجرى عليه لكان ذلك خالصاً لله سُبْحَانَهُ دون خلقه ، لقدرته على عباد ، ولعدله فى كل ما جَرَتْ عليه صُرُوفُ قضاياه ، وَلَكِنَّهُ جَعَلَ حَقَّهُ على العباد أَنْ يُطْلَعُوهُ ، وَجَعَلَ جَزَاءَهُمْ عليه مُضَاعَفَةُ الثَّوَابِ تفضلاً منه وتوسعاً بما هو من المزيّد أهله ، ثم جعل الله سُبْحَانَهُ من حقوقه حُقُوقاً افتَرَضَهَا لبعض الناس على بعض ؛ فجعلها تتكافأ فى وجوها ، ويوجب بعضها بعضاً ، ولا يُسْتَوْجَب

بعضها إلا ببعض ، وأعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق ، حقُّ الوالى على الرعية ، وحقُّ الرعية على الوالى ؛ فريضة فرضها سبحانه لكل على كل ، فجعلها جمعاً لألفتهم وعزاً لدينهم ، فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاة ، ولا تصلح الولاة إلا باستقامة الرعية . فإذا أدت الرعية إلى الوالى حقه ، وأدى الوالى إليها حقه ، عزَّ الحق بينهم ، وقامت مناهج الدين ، واعتدلت معالم العدل وجرت على إذلالها السنن . فصلح بذلك الزمان ، وطُيع في بقاء الدولة ، ويشتت مطامع الأعداء ، وإذا غلبت الرعية واليهما ، وأجحف الوالى برعيته ، اختلفت هنالك الكلمة ، وظهرت معالم الجور ، وكثر الإدغال فى الدين ، وتركت محاج السنن ، فعمل بالهوى ، وعظمت الأحكام ، وكثرت علل النفوس ؛ فلا يستوحش لعظيم حق عطل ولا لعظيم باطل فعل ؛ فهناك تذلل الأبرار وتعز الأشرار ، وتعظم تبعات الله عند العباد . فعليكم بالتناصح فى ذلك وحسن التعاون عليه ، فليس أحد وإن اشتد على رضاء الله حرصه ، وطال على العمل اجتهداه ، ببالغ حقيقة ما الله أهله من الطاعة ، ولكن من واجب حقوق الله على عباده ، النصيحة بمبلغ جهدهم ، والتعاون على إقامة الحق بينهم . وليس امرؤ وإن عظمت فى الحق منزلته ، وتقدمت فى الدين فضيلته ، بفوق أن يعان على ما حملة الله من حقه ، ولا امرؤ وإن صغرته النفوس ، واقتحمت العيون بدون أن يعين على ذلك ، أو يعان عليه .

فأجابه عليه الصلاة والسلام رجل من أصحابه بكلام طويل يكثر فيه من الثناء عليه ويذكر سمعه وطاعته ، فقال عليه الصلاة والسلام : إن من حق من عظم جلال الله فى نفسه ، وجل موضعه من قلبه ، أن يصغر عنده لعظم ذلك كل ما سواه ، وإن أحق من كان كذلك لمن عظم نعمة الله عليه ولطف إحسانه إليه ، فإنه لم تعظم نعمة الله على أحد إلا ازداد حق الله عظمًا ، وإن من أسخف حالات الولاة عند صالح الناس ، أن يظن بهم حب

الفخر ، ويوضع أمرهم على الكبر ، وقد كرهت أن يكون جالاً فى ظنكم
أنى أحب الإطراء واستماع الثناء ، ولست بحمد الله كذلك ، ولو كنت أحب
أن يقال ذلك لتركته انحطاطاً لله سبحانه عن تناول ما هو أحق به من
العظمة والكبرياء ، وربما استحل الناس الثناء بعد البلاء ، فلا تشنوا على
بجميل ثناء لإخراجى نفسى إلى الله وإليكم من التقيّة فى حقوق لم أفرغ من
أدائها ، وفرائض لا بدّ من إمضاها ، فلا تكلمونى بما تكلم به الجبابرة ،
ولا تتحفظوا منى بما يتحفظ به عند أهل البادرة ، ولا تخالطونى بالمصانعة ،
ولا تظنّوا بى استثقلاً فى حقّ قىل لى ، ولا التماس إعظام لنفسى ، فإنه من
استثقل الحقّ أن يقال له ، أو العدل أن يعرض عليه ، كان العمل بهما أثقل
عليه ، فلا تكفوا عن مقالة بحقّ ، أو مشورة بعدل ، فإنى لست فى نفسى
بفوق أن أخطئ ولا آمن ذلك من فعلى ، إلا أن يكفينى الله من نفسى ما هو
أملك به منى ، فإنما أنا وأنتم عبيد مملوكون لرّب لا رب غيره ، يملك منى
ما لا نملك من أنفسنا ، وأخرجنا مما كنّا فيه إلى ما صلحنا عليه ، فأبدلنا
بعد الضلالة بالهدى ، وأعطانا البصيرة بعد العمى .

ومن وصية له عليه الصلاة والسلام وصّى بها جيشاً بعثه إلى العدو :

فإذا نزلتم بعدوّ ، أو نزل بكم ، فليكن معسكركم فى قبيل الأشراف ،
وسفاح الجبال ، أو أثناء الأنهار . كما يكون لكم ردى ، ودونكم مرداً ،
ولتكن مقاتلكم من وجه واحد أو اثنين ، واجعلوا لكم رقباء فى صياصى
الجبال ، ومناكب الهضاب ، لئلا يأتىكم العدو من مكان مخافة أو أمن .
واعلموا أن مقدّمة القوم عيونهم وعيون المقدّمة طلائعهم . وإياكم والتفرّق ،
فإذا نزلتم فانزلوا جميعاً ، وإذا ارتحلتم فارتحلوا جميعاً ، وإذا غشاكم الليل
فاجعلوا الرّماح كقّة ، ولا تدنّوا النوم إلا غراراً أو مضمضة .

ومن وصية له عليه الصلاة والسلام كان يكتبها لمن يستعمله على الصدقات :
انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له ، ولا تُروِّعَنَّ مسلماً ، ولا تجتازَنَّ
عليه كارهاً ، ولا تأخذَنَّ منه أكثر من حق الله في ماله . فإذا قدمت على الحي
فانزل بمائهم من غير أن تخالطَ. أبياتهم ، ثم امض إليهم بالسكينة والوقار ،
حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم ، ولا تخرج بالتحية لهم . ثم تقول : عباد الله ،
أرسلني إليكم وليُّ الله وخليفته . لاخذَ منكم حقَّ الله في أموالكم ، فهل لله في
أموالكم من حقٍّ فتؤدوه إلى وليِّه ؟ فإن قال قائلٌ منهم : لا ، فلا تراجع .
وإن أنعم لك مُنعماً ، فانطلق معه من غير أن تُخيفه أو تُوعده ، أو تُعسفه أو
ترهقه ، فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة ، فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها
إلا بإذنه ، فإن أكثرها له ، فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخولَ مُتسلط . عليه ،
ولا عنيف به ، ولا تنفرنَّ بهيمة ، ولا تُفرِّعنَّها ، ولا تُسَوِّنَ صاحبها فيها ،
واصدع المأل صدعين ثم خيرهُ ، فإذا اختار فلا تتعرضنَّ لما اختاره ، ثم اصدع
الباقى صدعين ثم خيرهُ ، فإذا اختار فلا تتعرضنَّ لما اختاره ، فلاتزال بذلك
حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله في ماله فاقبض حقَّ الله منه ، فإن استقالكَ
فأقله ، ثم اخلطها ثم اصنع مثل الذي صنعت أولاً حتى تأخذ حق الله في ماله ،
ولا تأخذنَّ عوداً ولاهرمة ولا مكسورة ولا مهلوسة ولا ذات عوار ، ولا تأمننَّ
عليها إلا من تثق بدينه رافقاً بمال المسلمين حتى يوصله إلى وليهم فيقسمه
بينهم ، ولا تُوكل بها إلا ناصحاً شفيقاً وأميناً حفيظاً غير معنف ولا مُجحف
ولا مُغلب ولا متعب ، ثم احذر إلينا ما اجتمع عندك نُصيرهُ حيث أمر الله ،
فإذا أخذها أمينك ، فأوعزْ إليه أن لا يحول بين ناقةٍ وبين فصيلها ، ولا
يمضُر لبنها فيضر ذلك بولدها ، ولا يجهدنَّها ركوباً ، ولْيعدل بين صواحبها
في ذلك وبينها ، وليرفقه على اللأغب ، وليستأن بالنقب والظالم وليوردها
ما تمرُّ به من الغدْرِ ، ولا يعدل بها نبت الأرض إلى جواد الطرُق ولْيروحها في

الساعات ، ولئيمهلها عند النّطاف والأعشاب حتى تأتينا بإذن الله بُدنا مُنقيات ، غير مُتعبات ولا مجهودات ، لنقسّمها على كتاب الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وعلى آله) فإن ذلك أعظم لأجرِكَ ، وأقرّ لرُشدك إن شاء الله .

وقال عليه الصلاة والسلام وقد سمع رجلاً يذم الدنيا :
 أَيُّهَا الدَّامُ لِلدُّنْيَا الْمُغْتَرُّ بِغُرُورِهَا ، الْمَخْدُوعُ بِأَبَاطِيلِهَا ، أَتَغْتَرُّ بِالدُّنْيَا
 ثُمَّ تَذُمُّهَا ؟ ! أَنْتَ الْمُتَجَرِّمُ عَلَيْهَا أَمْ هِيَ الْمُتَجَرِّمَةُ عَلَيْكَ ؟ ! مَتَى اسْتَهْوَتْكَ ؟ !
 أَمْ مَتَى غَرَّتْكَ ؟ ! أَبْصَارُ آبَائِكَ مِنَ الْبَلَى ؟ أَمْ بِمُضَاجِعِ أُمَهَاتِكَ تَحْتَ
 الثَّرَى ؟ ! كَمْ عَلَلَّتْ بِكَفِّكَ ؟ ! وَكَمْ مَرَّضَتْ بِيَدَيْكَ ؟ ! تَبْغَى لَهُمُ الشِّفَاءَ ،
 وَتُسْتَوْصَفُ لَهُمُ الْأَطْبَاءُ ، لَمْ يَنْفَعِ أَحَدَهُمْ إِشْفَاؤُكَ ، وَلَمْ تَسْعِفْهُ بَطْلِبَتُكَ ،
 وَلَمْ تَدْفَعْ عَنْهُ بِقُوَّتِكَ ، وَقَدْ مَثَلَتْ لَكَ بِهِ الدُّنْيَا نَفْسَكَ وَمِصْرَعَهُ مِصْرَعَكَ .
 إِنْ الدُّنْيَا دَارُ صَدَقَ لِمَنْ صَدَّقَهَا ، وَدَارُ عَافِيَةٍ لِمَنْ فَهَمَ عَنْهَا ، وَدَارُ غِنًى
 لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنْهَا ، وَدَارُ مَوْعِظَةٍ لِمَنْ اتَّعَظَ بِهَا . مَسْجِدُ أَحِبَّاءِ اللَّهِ ، وَمُصَلًى مَلَائِكَةِ
 اللَّهِ ، وَمَهْبِطُ وَحَى اللَّهِ ، وَمَتَجَرُّ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ ، اكِتَسَبُوا فِيهَا الرَّحْمَةَ وَرَبَّحُوا
 فِيهَا الْجَنَّةَ ، فَمَنْ ذَا يَذُمُّهَا وَقَدْ آذَنْتَ بَيْنَئِهَا ، وَنَادَتْ بِفِرَاقِهَا ، وَنَعَتْ
 نَفْسَهَا وَأَهْلَهَا ، فَمَثَلَتْ لَهُمْ بِبَلَائِهَا الْبَلَاءَ ، وَشَوَّقَتْهُمْ بِسُرُورِهَا إِلَى السُّرُورِ ،
 رَاحَتْ بِعَافِيَةٍ ، وَابْتَكُرَتْ بِفَجِيعَةٍ ، تَرْغِيبًا وَتَرْهِيبًا ، وَتَخْوِيفًا وَتَحْذِيرًا ،
 فَذَمُّهَا رِجَالُ غَدَاةِ النَّدَامَةِ ، وَحَمْدُهَا آخِرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ذَكَرْتَهُمُ الدُّنْيَا
 فَتَذَكَّرُوا ، وَحَدَّثْتَهُمْ فَصَدَقُوا ، وَوَعظْتُهُمْ فَاتَّعَظُوا .

عهد الإمام على المتوفى سنة ٤٠هـ لما لك بن الحارث الأشتر النخعى ، حين
 ولاه مصر وجباية خراجها وجهاد عدوها وإصلاح أهلها وعمارة بلادها :

اعلم يامالكُ أَنَّى قَدْ وَجَّهْتُكَ إِلَى بِلَادٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُورٌ قَبْلَكَ مِنْ عَدْلِ
 وَجور ، وَأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورِ
 الْوَلَاةِ قَبْلَكَ ، وَيَقُولُونَ فِيكَ كَمَا كُنْتَ تَقُولُ فِيهِمْ ، وَإِنَّمَا يَسْتَدِلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ

بما يجرى الله لهم على ألسنة عباده ، فليكن أحبّ الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح ، فأملك هواك ، وشح بنفسك عما لا يحل لك ، فإنّ الشحّ بالنفس الإنصاف منها فيما أحبّت أو كرهت .

وأشعر قلبك الرحمة للرعية ، والمحبة لهم واللطف بهم ، ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغنم أكلهم ، فإنهم صنفان : إمّا أخ لك في الدين ، وإمّا نظير لك في الخلق ، يفرط منهم الزلل ، وتعرض لهم العلل ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ ، فأعطهم من عفوك وصفحك ، مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه . فإنك فوقهم ، وإلى الأمر عليك فوقك ، والله فوق من ولأك ، وقد استكفأك أمرهم وابتلاك بهم ، ولا تنصبن نفسك لحرب الله ، فإنه لا قبل لك بنقمته ، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته ، ولا تندمن على عفوه ، ولا تبجنن بعقوبة . ولا تسرعن إلى بادرة وجدت عنها مندوحة ، ولا تقولن إني مؤمر أمر فأتطاع ، فإن ذلك إدغال في القلب ، ومنهكة للدين ، وتقرب من الغير . وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة ، فانظر إلى عظم ملك الله فوقك ، وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك فإن ذلك يطامن إليك من طماحك ، ويكف عنك من غربك ، وينبئ إليك بما عزب عنك من عقلك . وإياك ومساماة الله في عظمته ، والتشبه به في جبروته فإن الله يذل كل جبار ، ويهين كل مختال . أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصّة أهلك ومن لك فيه هوى من رعيّتك ؛ فإنك إن لم تفعل تظلم . ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده ، ومن خاصمه الله أدخض حجبته ، وكان الله حربا عليه حتى ينزع ويتوب . وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم ، فإن الله سميع دعوة المظلومين وهو للظالمين بالمرصاد . وليكن أحبّ الأمور إليك أوسطها في الحق وأعمها في العدل وأجمعها لرضاء الرعية فإن سخط العامة يجحف برضاء الخاصة وإن

سخط. الخاصة يُغتفر مع رضا العامة ، وليس أحد من الرعية أثقل على الوالى مؤونة في الرخاء وأقل معونة في البلاء ، وأكره للانصاف ، وأسأل بالإنصاف ، وأقل شكراً عند الإعطاء وأبطأ عذراً عند المنع ، وأخف صبراً عند ملّات الدهر ، من أهل الخاصة . وإنما عماد الدين ، وجماع المسلمين ، والعدة للأعداء ، العامة من الأمة ؛ فليكن صفوك لهم وميلك معهم ، وليكن أبعد رعيك منك وأشنائهم عندك ، أطلبهم لمعايب الناس فإن في الناس عيوباً ، الوالى أحق من سترها ، فلا تكشف عن غاب عنك منها ، فإنما عليك تظهير ما ظهر لك ، والله يحكم على ما غاب عنك ، فاستر العورة ما استطعت يستر الله منك ماتحب ستره من عورتك .

أطلق عن الناس عقدة كلّ حقد ، واقطع عنك سبب كلّ وتر ، وتغاب عن كلّ ما لا يصح لك ، ولا تعجلن إلى تصديق ساع ، فإن الساعي غاش بالتأصحين ، ولا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر ، ولا جباناً يضعفك عن الأمور ، ولا حريصاً يزین لك الشرّ بالجور ، فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى ، يجمعها سوء الظن . إن شرّ وزرائك من كان قبلك للأشرار وزيراً ومن شركهم في الآثام ، فلا يكونن لك بطانة ، فإنهم أعوان الأثمة ، وإخوان الظلمة ، وأنت واجد منهم خير الخلف من هو مثل آرائهم ونفادهم ، وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم ، ممن لا يُعاون ظالماً على ظلمه أو آثماً على إثمه ، أولئك أخفّ عليك مؤونة وأحسن لك معونة ، وأخفى عليك عطفاً ، وأقلّ غيرك إلماً ، فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك . ثم ليكن أثرهم عندك أقولهم لك بمرّ الحق ، وأقلهم مُساعداً فيما يكون منك مما كره الله لأوليائه ، واقعاً ذلك هواه حيث وقع ، وألصق بأهل الورع والصدق . ثم رُضهم على أن لا يُطروك ، ولا يُبجّحوك بباطل لم تفعله ؛ فإن كثرة الإطراء تُحدث الزهو ، وتُدنّي من العزة ، ولا يكونن المحسن والمسيء

عندك بمنزلة سواء ، فإن في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان ، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة . وألزم كلاً منهم ما ألزم نفسه . واعلم أنه ليس شيء يادعى إلى حُسن ظنِّ والٍ برعيته من إحسانه إليهم ، وتخفيفه المؤونات عليهم ، وترك استكراهه إياهم على ما ليس له قبلهم ؛ فليكن منك في ذلك أمرٌ يجمع لك حُسن الظنِّ برعيّتك ، فإن حُسن الظنِّ يقطعُ عنك نصيباً طويلاً ، وإن أحقَّ مَنْ حُسنَ ظنِّكَ به . لمن حسن بلاؤك عنده ، وإن أحقَّ مَنْ ساءَ ظنُّكَ به ، لمن ساءَ بلاؤك عنده ، ولا تنقض سنةً صالحةً عمل بها صُدُّور هذه الأمة ، واجتمعت بها الأئمة ، وصَلَحَتْ عليها الرعية ، ولا تُحدِثَنَّ سنةً تُضرُّ بشيءٍ مما مضى من تلك السنن فيكون الأجر لمن سنّها . والوزرُ عليك بما نقضت منها . وأكثرِ مَدَارَسَةَ العلماء ومناقشة الحكماء في تثبيت ما صَلَحَ عليه أمرُ بلادك ، وإقامة ما استقام به الناس قبلك . واعلم أنَّ الرعية طبقاتٌ لا يصلح بعضها إلا ببعض ، ولا غنى لبعضها عن بعض ، فمنها جنود الله ، ومنها كُتَّاب العامة والخاصة ، ومنها قُضاة العدل ، ومنها عُمال الإنصاف والرفق ، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومُسْلِمَةُ الناس ، ومنها التُّجَّار وأهل الصناعات ، ومنها الطبقة السفلى من ذوى الحاجة والمسكنة ؛ وكلاً قد سَمَّى الله سهمه ، ووضع على حده فريضةً في كتابه ، أو سُنَّةً نبيّه صلى الله عليه وسلم عهداً منه عندنا محفوظاً . فالجنود بإذن الله حُصُون الرعية ، وزينُ الولاة ، وعز الدين وسُبُل الأمن ، وليس تقوم الرعية إلا بهم ، ثم لا قِوَامَ للجنود إلا بما يخرج الله تعالى لهم من الخراج الذى يَقْوُونَ به في جهاد عدوهم ، ويعتمدون عليه فيما يصلحهم ، ويكون من وراء حاجتهم . ثم لا قِوَامَ لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتَّاب ، لما يحكمون من المعاهد ، ويجمعون من المنافع ، ويؤتمنون عليه من خواص الأمور وَعَوَامِهَا . ولا قِوَامَ لهم جميعاً إلا بالتجار وذوى الصناعات فيما

يجتمعون عليه من مرافقيهم ، ويقيمونه من أسواقهم ، ويكفونهم من الترفق بأيديهم ، مالا يبلغ رفق غيرهم ، ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفدهم ومعونتهم ، وفى الله لكل سعة ، ولكل على الوالى حق بقدر ما يصلحه . وليس يخرج الوالى من حقيقة ما ألزمه الله من ذلك إلا بالاهتمام والاستعانة بالله ، وتوطئن نفسه على لزومه الحق والصبر عليه فيما خفَّ عليه أو ثَقُلَ . فَوَلِّ من جنودك أنصحهم فى نفسك لله ولرسوله ولإمامك ، وأظهرهم جيباً وأفضاهم حاماً ممن يُبْطى عن الغضب ، ويستريح إلى العذر ، ويرأف بالضعفاء وينبو على الأقوياء ، ممن لا يثيره العنف ، ولا يقعد به الضعف ، ثم الصق بِذَوَى المروآت والأحساب ، وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة ، ثم أهل النجدة والشجاعة والسخاء والساحة ، فإنهم جُماعُ من الكرم ، وشُعَب من العُرف ، ثم تفقّد مِنْ أُمُورهم ما يتفقده الوالدان من ولدهما ، ولا يتفاقمَنَّ فى نفسك شىءٌ قويتهم به ، ولا تحقِرَنَّ لطفاً تتعاهدهم به وإن قَلَّ ، فإنه داعيةٌ إلى بذل النصيحة لك وحُسن الظن بك ، ولا تدع تفقد لطيف أُمُورهم اتكالا على جسيمها ، فإن لليسير من لُطفِكَ موضعاً ينتفعون به وللجسيم مَوْقعاً لا يستغنون عنه . وليكن أثر رؤوس جنودك عندك من واساهم فى معونته ، وأفضلَ عليهم مِنْ جدته بما يسعهم ويسع من وراءهم من خُلوْف أهلهم حتى يكون همهم همّاً واحداً فى جهاد العدو ، فإن عطفك عليهم يُعطِف قلوبهم عليك ، وإن أفضل قُرّة عين الولاة استقامة العدل فى البلاد ، وظهور مَوَدّة الرعية . وإنه لا تظهر مودتهم إلا بسلامة صدورهم ، ولا تصح نصيحتهم إلا بحيطتهم على ولاة أُمُورهم ، وقلة استثقال دُولهم ، وترك استبطاء انقطاع مدتهم . فأفسح فى آمالهم ، وواصل فى حُسن الثناء عليهم ، وتعيد ما أبلى ذوو البلاء منهم ؛ فإن كثرة الذِّكر لِحُسنِ فعالهم تَهز الشجاع وتحَرِّض الناكل إن شاء الله تعالى . ثم اعرف لكل امرئ منهم ما أبلى ، ولا تضيفن بلاء امرئ إلى غيره ، ولا تُقصِّرَنَّ دُونَ غاية بلائه ، ولا يدعونك شرف امرئ إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيراً

ولاضعةً امرئ أن تستصغر من بلائه ما كان عظيماً ، وارُدُّد إلى الله ورُسُوله ما يضلُّعك من الخطوب ويشتببه عليك من الأمور ؛ فقد قال سبحانه لقوم أحبَّ إرشادهم « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شئٍ فردُّوه إلى الله والرسول » فالرَّد إلى الله الأخذ بمُحكم كتابه ، والرَّد إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة . ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيته في نفسك ممن لا تضيقُ به الأمور ولا تمحكه الخصوم ، ولا يتمادى في الزلة ، ولا يحصر عن الفئء إلى الحق إذا عرفه ، ولا تشرف نفسه على طمع ، ولا يكتفى بأدنى فهمٍ دون أقصاه ؛ أوقفهم في الشبهات ، وآخذهم بالحُجج ، وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم وأصبرهم على تكشيف الأمور ، وأصرمهم عند اتضاح الحكم ، مِمَّن لا يزدْهيه إطرأ ، ولا يستميله إغراء ، وأولئك قليل . ثم أكثر تعاهد قضاائه ، وأفسح في البذل ما يزيح علته وتقل معه حاجته إلى الناس ، وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ، لتأمن بذلك اغتياص الرجال له عندك . فانظر في ذلك نظراً بليغاً ، فإن هذا الدين قد كان أسيراً في أيدي الأشرار ، يُعمل فيه بالهوى وتطلب به الدنيا . ثم انظر في أمور عمالك ، فاستعملهم اختباراً ، ولا تولهم محاباةً وأثرة ، فإن ذلك جماعٌ من شعب الجور والخيانة ، وتوخَّ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقُدَم في الإسلام ، فإنهم أكرمُ أخلاقاً وأصحَّ أعراضاً ، وأقل في المطامع إشفاقاً ، وأبلغ في عواقب الأمور نظراً ، ثم أسبغ عليهم الأرزاق ، فإن ذلك قوَّة لهم على استصلاح أنفسهم ، وغنى لهم عن تناولٍ ماتحت أيديهم ، وحُجَّة عليهم إن خالفوا أمرَكَ أو خانوا أمانتَكَ . ثم تفقَّد أعمالهم وابعث العيُون من أهل الصدق والوفاء عليهم ، فإن تعاهدَكَ في السرِّ لأموالهم حدوداً لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية . وتحفظ . من الأعوان فإنَّ أحدٌ منهم بسط . يدهُ إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك ، اكتفيت

بذلك شاهداً ، فبسطت عليه العقوبة فى بدنه وأخذته بما أصاب من عمله ، ثم نصبته بمقام المذلة ووسمته بالخيانة ، وقلدته عار التهمة .

وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله ، فإن فى صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله ، وليكن نظرك فى عمارة الأرض ، أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يُذكر إلا بالعمارة ؛ ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد ، وأهلك العباد ، ولم يستقم أمره إلا قليلاً . فإن شكوا ثقلًا أو علة أو انقطاع شرب أو بالة أو حالة أرض اعتمرها غرق ، أو أجحف بها عطش ، خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم ، ولا يثقلن عليك شئ خففت به المؤونة عنهم ، فإنه ذخر يعودون به عليك فى عمارة بلدك وتزيين ولايتك . مع استجلابك حسن ثنائهم وتبجحك باستفاضة العدل فيهم مُعتمداً على فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من إجمامك لهم ، والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم فى رفقك بهم ، فربما حدث من الأمور ما إذا عول فيه عليهم من بعد احتملوه طيبة أنفسهم به ، فإن العمران يحتمل ما حملته ، وإنما يأتى خراب الأرض من إعواز أهلها ، وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع وسوء ظنهم بالبقاء ، وقلة انتفاعهم بالعبر .

ثم انظر فى حال كتابك قول على أمورك خيرهم ، واخصص رسائللك التى تدخل فيها مكائلك وأسرارك بأجمعهم لوجود صالح الأخلاق ممن لا تبطره الكرامة فيجتري بها عليك فى خلاف لك بحضرة ملائكة ، ولا تقصر به الغفلة عن إيراد مكاتبات عمالك عليك ، وإصدار جواباتها الصواب عنك فيما يأخذ لك ويعطى منك ، ولا يضعف عقداً اعتقده لك ، ولا يعجز عن إطلاق ما عقد عليك ، ولا يجهل مبلغ قدر نفسه فى الأمور ، فإن الجاهل بقدر نفسه ، يكون بقدر غيره أجهل ، ثم لا يكتفى اختيارك إياهم على فراستك واستنامتك وحسن الظن منك ، فإن الرجال يتعرفون لفراست الولاة بتصنعهم وحسن

خدمتهم ، وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شىء ، ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك ، واعمد لأحسنهم فى العامة أثراً وأعرفهم بالأمانة وجهاً ، فإن ذلك دليل على نصيحتك لله ولمن وليت أمره ، واجعل لرأس كل من أمورك رأساً منهم لا يقهره كبيرها ، ولا يتسلط عليه صغيرها ، ومهما كان فى كتابك من عيب تغابيت عنه ألزمته .

ثم استوص بالمتجار وذوى الصناعات وأوص بهم خيراً ، المقيم منهم والمضطرب بماله والمترفق ببذنه ، فإنهم مواد المنافع ، وأسباب المرافق وجلابها من المباعد والمطارح ، فى برك وبحرك ، وسهلك وجبك ، وحيث لا يلتم الناس لمواضعها ، ولا يجترئون عليها ، فإنهم يسلم لا تخاف بائقته ، وصلح لا تخشى غائلته . وتفقد أمورهم بحضرتك وفى حواشى بلادك ، واعلم مع ذلك أن فى كثير منهم ضيقاً فاحشاً وشحاً قبيحاً ، واحتكاراً للمنافع ، وتحكماً فى البياعات ، وذلك باب منصرة للعامة ، وعيب على الولاة ، فامنع من الاحتكار ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم منع منه ، وليكن البيع بيعاً سمحاً ، بموازين عدل ، وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع ، فمن قارف حكرة بعد نهيك إياه فنكّل به وعاقب فى غير إسراف .

ثم الله فى الطبقة السفلى من الذين لاحيلة لهم والمساكين ، والمحتاجين ، وأهل البؤسى والزمنى ، فإن فى هذه الطبقة قانعاً ومعتراً . واحفظ الله ما استخفظك من حقه فيهم ، واجعل لهم قسماً من بيت مالك ، وقسماً من غلات صوافى الإسلام فى كل بلد ، فإن للأقصى منهم مثل الذى للأدنى وكل قد استرعيت حقه ، فلا يشغلنك عنهم بطر ، فإنك لا تعدر بتضييعك إيتافه لإحكامك الكثير المهم ، فلا تشخص همك عنهم ، ولا تُصعّر خدك لهم ، وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم ممن تفتحهم العيون ، وتحتقره الرجال ، وفرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع فليرفع إليك أمورهم .

ثم اعمل فيها بالإعذار إلى الله سبحانه يوم تلقاه ، فإنَّ هؤلاء من بين الرعية أحوَجُ إلى الإنصافِ من غيرهم ، وكلُّ فاعذرُ إلى الله تأدية حقه إليه ، وتعهّد أهل اليَمِّ وذوى الرقة فى السنِّ ممَّن لا حيلة له ، ولا ينصبُ للمسألة نفسه ، وذلك على الوُلاة ثقيل ، والحق كله ثقيل ، وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبرُوا أنفسهم ووَثِّقوا بصدق موعود الله لهم .

واجعل لذوى الحاجات منك قسماً تُفرِّغُ لهم فيه شخصك ، وتجلس لهم مجلساً عاماً فتتواضع فيه لله الذى خلقك ، وتقعّد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك ، حتى يكلمك متكلمهم غير مُتعتع ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول فى غير موطنٍ : « لن تقدس أمةٌ لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوى غير مُتعتع » .

ثم احتمل الخرق منهم والعى وسنَّح عنهم الضيق والأنف ، يبسط. الله عليك بذلك أكناف رحمته ، ويوجب لك ثواب طاعته ، وأعط. ما أعطيت هنيئاً ، وامنع فى إجمال وإعذار .

ثم أمورٌ من أمورك لا بُدُّ لك من مباشرتها ، منها إجابة عُمالك بما يَعيَا عنه كتابك ، ومنها إصدار حاجات الناس يوم ورودها عليك مما تخرج به صدور أعوانك ، وأمّض لكل يوم عمله ، فإن لكل يوم ما فيه ، واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله تعالى أفضل تلك المواقيت ، وأجزل تلك الأقسام ، وإن كانت كلها لله إذا صلحت النية وسلمت منها الرعية ، وليكن فى خاصة ما تُخلِصُ لله به دينك إقامة فرائضه التى هى له خاصة ، فأعط. الله من بدنك ، فى ليلك ونهارك ، ووفِّ ما تقربت به إلى الله سبحانه من ذلك كاملاً غير مثلوم ولا منقوص بالغاً من بدنك ما بلغ ، وإذا قمت فى صلاتك للناس فلا تكونن مُنفرداً ولا مضيعاً ، فإن فى الناس مَنْ به العلة وله الحاجة .

وقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وجهنى إلى اليمن : كيف أصلى بهم ؟ فقال : « صَلِّ بِهِمْ كصلاة أضعفهم ، وكن بالمؤمنين رحيمًا » .

أما بعد ، فلا تطولن احتجاجك عن رَعِيَتِكَ ، فإن احتجاجَ الولاة عن الرعية شعبة من الضيق وقلة علم بالأُمور ، والاحتجاج منهم يقطع عنهم علم ما احتجوا دونه ، فيصغر عندهم الكبير ، ويعظم الصغير ، ويقبح الحسن ، ويحسنُ القبيحُ ، ويشاب الحق بالباطل ، وإنما الوالى بشر لا يعرف ما نَوَارَى عنه الناس به من الأُمور ، وليست على الحق سِمَاتٌ تعرف بها ضروب الصدق من الكذب ، وإنما أنت أحد رجلين : إما امرؤ سخّت نفسك بالبذل فى الحق ، ففيم احتجاجك من واجب حق تُعطيه ؟ أو فعل كريم تسديه ؟ أو مبتلى بالمنع فما أسرع كفّ الناس عن مسألتك إذا أيسوا منك ، مع أن أكثر حاجات الناس إليك مما لا مؤنة فيه عليك ، من شكاة مَظْلَمَةٍ ، أو طلب إنصاف فى معاملة ؟

ثم إن للوالى خاصة بطانة فيهم استئثار وتطاؤلٌ ، وقلة إنصاف فى مُعَامَلَةٍ ، فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال ، ولا تُقْطِعَنَّ لأحد من حاشيتك وخاصتك قطيعة ، ولا يطمعن منك فى اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس فى شرب أو عمل مشترك ، يحملون مؤونته على غيرهم ، فيكون مهناً ذلك لهم دونك وعيبه عليك فى الدنيا والآخرة ، وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد ، وكن فى ذلك صابراً محتسباً ، واقعاً ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع ، وابتغ عاقبته بما يثقل عليك منه ، فإن مغبة ذلك محمودة . وإن ظننت الرعية بك حيفاً فأصحر لهم بعذرِكَ ، وأعدل عنك ظنونهم بإصْحارك ، فإن فى ذلك رياضة منك لنفسك ورفقاً برعيتك ، وإعذاراً تبلغ به حاجتك من تقويم على الحق ، ولا تدفعن صلحاً دعا إليه عدوك ، والله فيه رضا ؛ فإن فى الصلح دعة لجنودك وراحة من همومك ، وأمنًا لبلادك ، ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه فإن العدو ربما قارب ليتغفل ،

فخذ بالحزم ، واتهم فى ذلك حسن الظن . وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة ، أو ألبسته منك ذمة ، فحطّ. عهدك بالوفاء ، وارع ذمتك بالأمانة ، واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت ؛ فإنه ليس من فرائض الله شئ والناس أشد عليه اجتماعاً مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم ، من تعظيم الوفاء بالعهود ، وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين ، لما استوبلوا من عواقب الغدر ، فلا تغدرن بذمتك ، ولا تخيسن بعهدك ، ولا تختلن عدوك ، فإنه لا يجترئ على الله إلا جاهل شقى ، وقد جعل الله عهده وذمته أمناً أفضاه بين العباد برحمته وحصناً يسكنون إلى منعته ، ويستفيضون إلى جواره ؛ فلا إدغال ولا مدلسة ولا خداع فيه ، ولا تعقد عقداً يجوز فيه الفلل ، ولا تعولن على لحن قول بعد التأكيد والتوثقة ، ولا يدعونك ضيق أمر لزمك فيه عهد الله إلى طلب انفساخه بغير الحق ، فإن صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه وفضل عاقبته ، خير من غدر تخاف تبعته . وأن تحيط بك فيه من الله طلباً ، فلا تستقيم فيها دنياك ولا آخرتك .

إياك والدماء ، وسفكها بغير حلها ، فإنه ليس شئ أدعى لنقمة ، ولا أعظم لتبعة ، ولا أحرى بزوال نعمة ، وانقطاع مدة ، من سفك الدماء بغير حقها ، والله سبحانه وتعالى يتولى الحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة ، فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام ، فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه ، بل يزيله ويثقله ، ولا عذر لك عند الله ولا عندى فى قتل العمد ، لأن فيه قود البدن ، وإن ابتليت بخطي وأفرط عليك سوطك ، أو سيفك ، أو يدك ، بعقوبة ، فإن فى الوكرة فما فوقها مقتلة ، فلا تطمح بك نخوة سلطانك ، عن أن لا تؤدى إلى أولياء المقتول حقهم .

وإياك والإعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها وحُب الاطراء ، فإن ذلك من أوثق فُرص الشيطان فى نفسه ، ليُمَحِّق ما يكون من إحسان المحسنين .

وإياك والمن على رَعِيَّتِكَ بإِحْسَانِكَ ، أو التزيد فيما كان من فعلك أو أن تَعِدَهُمْ فتُتَبِعَ موعِدَكَ بِخُلُقِكَ ، فإن المن يبطل الإحسان ، والتزيد يذهب بنور الحق والخلف يوجب المَقْتَ عند الله والناس ، قال الله سبحانه وتعالى : « كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ » .

وإِيَّاكَ وَالْعَجَلَةَ بِالْأُمُورِ قَبْلَ أَوَانِهَا ، أو التَّسْقُطَ فيما عند إمكانها ، أو اللجاجة فيها إذا تَنَكَّرَتْ ، أو الوهن عنها إذا استوضحت ، فضع كل أمر موضعه وأوقه كل عمل موقعه . وإياك والاستئثار بما للناس فيه أُسُوءَةٌ ، والتَّغَابَى عما يعنى به م قد وضح للعيون ، فإنه مأخوذ منك لغيرك وعما قليل تنكشف عنك أغطية الأمور . ويُنتصف منك للمظلوم ، وأملك حمية أنفك ، وسورة حدك وسطوة يدك . حتى يسكن لسانك ، واحتس من كل ذلك بكف المبادرة ، وتأخير السطوة حتى يسكن غضبك فتملك الاختيار ، ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تكثر هُمُوك بذكر المعاد إلى ربك . والواجب عليك أن تتذكر ما مضى لمن تقدمك من حكومة عادلة ، أو سنة فاضلة ، أو أثر عن نبينا صلى الله عليه وعلى آله وسلم أو فريضة فى كتاب الله فتقتدى بما شاهدت مما عملنا به فيها ، وتجتهد لنفسك فى اتباع ما عهدت إليك فى عهدى هذا واستوثقت به من الحجة لنفسى دليلك لكيلا يكون ذلك علة عند تسرع نفسك إلى هواها ، وأنت أسأل الله تعالى بسعة رحمته وعظيم قدرته على إعطاء كل رغبة ، أن يوفقنى وإياك لما فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه ، وإلى خلعه من حسن الثناء فى العباد ، وجميل الأثر فى البلاد ، تمام النعمة ، وتضعيف الكرامة ، وأن يختم لى ولك بالسعادة والشهادة . إنا إلى الله راغبون ، والسلام على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين .

وكتب أبو بكر الصديق المتوفى فى ٧ جمادى الثانية ١٣ هـ إلى بعض قواده ، إذا سِرْتَ فلا تُعْنَفْ أصحابك فى السير ولا تغضبهم ، وشاور ذوى الآراء

منهم واستعمل العدل ، وباعد عنك الجور ، فإنه ما أفلح قوم ظلموا ولا نصروا على عدوهم (وإذا لقيتُم الذين كفروا زحفاً (!) فلا تولوهم الأدبار (٢) ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً (٣) لقتال ، أو متحيزاً (٤) إلى فئة ، فقد باء بغضب من الله) ، وإذا نصرتم عليهم فلا تقتلوا شيخاً ، ولا امرأة ، ولا طفلاً ، ولا تحرقوا زرعاً ، ولا تقطعوا شجراً ، ولا تذبحوا بهيمة ، إلا ما يلزمكم للأكل ، ولا تغدروا إذا هادنتم (٥) ولا تنقضوا إذا صالحتم ، وستمرون على أقوام في الصوامع ، ورهبان ترهبوا الله ، فدعوهم وما انفردوا إليه وما ارتضوه لأنفسهم ، فلا تهدموا صوامعهم ولا تقتلوهم - والسلام .

وكتب عمر بن الخطاب المتوفى في ٢٦ ذى الحجة سنة ٢٢ هـ إلى بعض قواده :
أما بعد : فإنني أوصيك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة في الحرب ، وأن تكون أنت ومن معك أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة « وإلا ننصر عليهم بطاعتنا ، لم نغلبهم بقوتنا » واعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم واسألوا الله العون على أنفسكم ، كما تسألونه النصر على عدوكم .

وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة ، حتى تكون لهم راحة يُحيون فيها أنفسهم ، ويرمُون أسلحتهم وأمتعتهم ، ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تشق به . وليكن منك عند

(١) مجتمعين لكثرتهم يزحفون . (٢) الانهزام . (٣) متعطفاً .

(٤) منضماً الى جماعة يستنجد بها . (٥) صالحتم .

دنوك أرض العدو أن تكثر الطلائع ، وتبث السرايا بينك وبينهم ، ثم أذك
أحراسك على عسكرك ، وتيقظ من البياتات جهدك . والله ولى أمرك ومن
معك ، وولى النصر لكم على عدوكم .

وكتب أبو الفضل بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ إلى ابن أخته :
أنت وكلى ما دُمت : والعلم شأنك ، والمدرسة مكانك ، والمجبرة حليفك ،
والدفتر أليفك ، فإن قصرت ولا إخالك ، فغيرى خالك ، والسلام .

ومن وصية ابن سعيد المغربى المتوفى سنة ٩٦٧ هـ لابنه ، وقد أراد السفر :

أودعك الرحمن فى غربتك	مرتقبا رُحماء فى أوبتك
فلا تطلّ جبل النوى إننى	والله أشواق إلى طلعتك
واختصر التوديع أخذاً فما	لى ناظر يقوى على فرقتك
واجعل وصاقى نُصب عين ولا	تبرح مدى الأيام من فكرتك
خلاصة العمر التى حنكت	فى ساعة زفت إلى فطنتك
فللتجارب أمور إذا	طالعتها تشخذ من غفلتك
فلا تنم عن وعيها ساعة	فإنها عون إلى يقظتك
وكل ما كابدته فى النوى	إياك أن يكسر من همتك
فليس يُدرى أصل ذى غربة	وإنما تعرف من شيمتك
وأمش الهوىنا مظهراً عفة	وأنبغ رضا الأعين عن هيبتك
وانطق بحيث العى مُستقبح	واصمت بحيث الخير فى سكتك
ولج على رزقك من باب	واقصد له ما عشت فى بكرتك
ووفّ كلاً حقه ولتكن	تكسر عند الفخر من حدثك
وحيثما خيمت فاقصد إلى	صحبة من ترجوه فى نصرتك
وللرزايا وثبة ما لها	إلا الذى تذخر من عدتك

ولا تَقُلْ أَسْلَمْتُ لى وحدتى فقد تقاسى الذلَّ فى وحدتك
ولتَجْعَلِ العقلَ مُحْكَمًا وخذ كَلًّا بما يظهر فى نقدتك
واعتبرِ الناسَ بالأفاظهم واصحبْ أخاً يرغب فى صحبتك
كم من صديقٍ مُظْهِرٍ نُصْحِهِ وفكرُهُ وَقَفَّ على عثرتك
إياك أنْ تَقْرَبَهُ إِنَّهُ عَوْنٌ مع الدَّهْرِ على كربتكَ
وَأَنْتُمْ نُمُو النَّبْتِ قد زاره غِيبَ النَّدى واسمُ إلى قدرتك
ولا تُضَيِّعْ زَمَنًا مُمَكَّنًا تذكاره يذكى لظى حسرتك
والشرُّ مهما اسطعت لانتاتِهِ فإنه جَوْرٌ على مهجتك

يأبئى ، الذى لاناصح له مثلى ، ولا منصوح لى مثله - قد قدّمت لك فى هذا
النظم ما إن أخطرته بخاطرِكَ فى كلِّ أوان رَجوت لك حسن العاقبة - إن شاء الله
عالى - وإن أخفّ منه للحفظ ، وأعلق بالفكر ، وأحقّ بالتقدم قولُ الأول :

يزينُ الغريبَ إذا ما اغتربَ ثلاثُ فمَنْهَنَ حسن الأدبِ
وثانيةُ حُسن أخلاقه وثالثةُ اجتنابُ الريبِ

واصح يا بَنِيَّ إلى البيت الذى هو يتيمة الدهر ، وسَلِّمُ الكرم والصبر :
ولو أنَّ أوطان الديار نَبَتْ بكم لكنتم الأخلاق والآداب

إذ حُسن الخُلُقِ أَكْرَمُ نَزِيل ، والأدبُ أرحبُ منزل ، ولتكن كما قال
بعضهم فى أديبٍ مُتَغَرِّبٍ : وكان كلما طرأ على ملك فكأنه معه ولد ، وإليه
لصد ، غير مُستريب بدهره ، ولا منكر شيئاً من أمره .

وإذا دعاكَ قلبُكَ إلى صحبة من أُخِذَ بمجامع هَوَاهُ ، فاجعل التَّكَلُّفَ له
سُلْمًا ، وهبَّ فى روض أخلاقه هُبُوب النسيم ، وحل بطرفه حلول الوَسَنِ ،
وانزل بقلبه نزولَ المسرة ، حتى يتمكن لك ودأده ، ويخلص فيك اعتقاده

وطهر من الوقوع فيه لسانك ، وأغلق سمعك ، ولا تُرخص فى جانبه لحسود لك منه ، يريد إبعادك عنه لمنفعة ، أوحسود له يَغَار لتجملهُ بصحبتك ، ومع هذا ، فلا تغتر بطول صحبتك ، ولا تتمهد بدوام رقدته ، فقد يُنبِّهه الزمان ، ويتغيَّر منه القلب واللسان ، وإنما العاقل من جعل عقله معياراً ، وكان كالمرآة يلقى كل وجه بمثاله ؛ وفى الأمثال العامة : « من سبقك بيوم سبقك بعقل » فاحتذ بأمثلة من جرب ، واستمع إلى ما خلد الماضون بعد جهدهم وتعبهم من الأقوال ، فإنها خلاصة عمرهم ، وزُبدة تجاربهم ، ولا تتكل على عقلك ، فإن النظر فيما تعب فيه الناس طول أعمارهم ، وأبتاعوه غالياً بتجاربهم ، يُربحك ويقع عليك رخيصةً ، وإن رأيت من له عقل ومروءة وتجربة ، فاستفد منه ولا تُضَيِّع قوله ولا فعله ، فإن فيما تلقاه تلقياً لعقلك ، وحقاً لك واهتداء . وليس كل ما تسمع من أقوال الشعراء يحسن بك أن تتبعه ، حتى تتدبره ، فإن كان موافقاً لعملك ، مصلحاً لحالك ، فراع ذلك عندك ، وإلا فانبذه نبذ النواة فليس لكلِّ أحد يُتَّبَع ، ولا كل شخص يُكَلِّم ، ولا الجود مما يُعْم به ، ولا حسن الظن وطيب النفس مما يُعامل به كلُّ أحد ، ولله درُّ القائل :

ومالٍ لا أوفى البرية قِسْطَها على قَدَرٍ ما يعطى وعقلٍ ميزانُ
وإياك أن تعطى من نفسك إلا بقدر ، فلا تعامل الدُّون بمعاملة الكفاء ، ولا الكفاء بمعاملة الأعلى ، ولا تُضَيِّع عمرَكَ فيمن يعاملُك بالمطامع ، ويُثيبك على مصلحة حاضرة عاجلة ، بغائبة آجلة ، ولا تنجف الناس بالجملة ، ولكن يكون ذلك بحيث لا يلحق منه ملل ، ولا ضجر ، ولا جفاء ، فمتى فارقت أحداً ، فعلى حسنى فى القول والفعل ، فإنك لا تدري هل أنت راجعٌ إليه ؟ ! فلذلك قال الأوَّل :

* ولما مضى سلمٌ بكيتُ على سلمٍ *

وإياك والبيت السائر :

وكنْتَ إذا حللتَ بدار قَوْمٍ رحلتَ بخزية وتركتَ عاراً

واحرص على ما جَمَعَ قَوْلُ القائل : «ثلاثة تُبْقَى لك الوُدُّ في صدر أخيك
 أَنْ تَبْدَأَهُ بِالسَّلامِ ، وتوسَّعَ له المجلس ، وتدعُوهُ بِأَحَبِّ الأَسْمَاءِ إليه » ،
 واحذر كل ما بيَّنه لك القائل : «كل ما تغرسه تجنيه ، إلَّا ابن آدم ؛ فإذا
 غرسته يقلعك » . وقول الآخر : «إن ابن آدم ذئب مع الضَّعْف ، أسدُّ مع
 القوَّة » وإياك أَنْ تثبت على صحبة أحد قبل أَنْ تُطيل اختبارَه ، ويحكى
 أَنْ ابن المقفع خطب من الخليل صُحبته ؛ فجاوبه : «إن الصُّحبة رِقٌّ ،
 ولا أضع رُقي في يديك حتى أعرف كيف ملكتك » واستمل من عين مَنْ
 تُعَاشِرُه ، وتفقَّد في فلتات الألسن ، وصفحات الأوجه ، ولا يحملك الحياءُ
 على السُّكوتِ عَمَّا يَضُرُّكَ أَنْ لا تُبَيِّنَه ؛ فَإِنَّ الكلام سلاح السَّلم ، وبالأُنين
 يُعرَفُ ألم الجرح ، واجعل لكلِّ أمرٍ أَخَذْتَ فيه غاية ، وتجعلها نهاية لك :

وخذ من الدَّهرِ ما أتاكَ به من قر عَيْنًا بعيثه نفعه

إِذِ الأفكار تجلب الهموم ، وتُضَاعَفُ الغُوم ، وملازمة القطوب ، عنوان
 المصائب والخطوب ، يستريب به الصاحب ، ويشمت العدو والمُجانب ، ولا
 تضرب بالوساوس إلَّا نفسك ، لِأَنَّكَ تنصربها الدَّهرُ عليك - وللهُ درُّ القائل :

إذا ما كنت للاحزان عوناً عليك مع الزمان فمن تلوم ؟!

مع أَنه لا يردُّ عليك الغائب الحُزن ، ولا يرعون بطول عتبك الزَّمن .
 ولقد شاهدت (يغرناطة) شخصاً قد ألفته الهموم ، وعشقتُه الغُوم ،
 ومن صغره إلى كبره لا تراه أبداً خلياً من فكرة ، حتى لُقِّبَ «بصدر الهم» .
 ومن أعجب ما رأيته منه أَنه يُتنكِّدُ في الشَّدة ، ولا يتعلَّلُ بأن يكون
 بعدها فرج ، ويتنكِّدُ في الرِّخاء خوفاً من أَنْ لا يدوم ، وينشد :

* توقَّع زوالاً إذا قيلَ تمَّ *

* وعِنْدَ التَّنَاهِي يَقْصُرُ المتطاوُلُ *

وله من الحكايات في هذا الشأن عجائب ، ومثل هذا عمره محسور يمر ضياعاً

ومتى رفَعَكَ الزمان إلى قوم يذمون من العلم ما تحسّنه حسداً لك وقصداً
لتصغير قدرك عندك ، وتزهيدا لك فيه ، فلا يحملك ذلك على أن تزهد فى
علمك وتركن إلى العلم الذى مدحوه ؛ فتكون مثل الغراب الذى أعجبه مشى
الحجّلة فرام أن يتعلّمه فصعب عليه ، ثم أراد أن يرجع إلى مشيه فنسيه
فبقى مخبل المشى كما قيل :

إن الغراب وكان يمشى مشية فيما مضى من سالف الأجيال
حسد القطا وأراد يمشى مشيها فأصابه ضربٌ من العقّال
فأضلّ مشيته وأخطأ مشيها فلذلك كنّوه (أبا مرقال)

ولا يُفسد خاطرك من جعل يذم الزمان وأهله ، ويقول : ما بقى فى الدنيا
كريم ولا فاضل ، ولا مكان يُرتاح فيه ؛ فإن الذين تراهم على هذه الصفة
أكثر ما يكونون ممن صاحبهم الحرمان ، واستحقت طلعتهم للهوان ، وأبرموا
على الناس بالسؤال فمقتوهم ، وعَجَزُوا عن طلب الأمور من وجوها ؛
فاستراحوا إلى الوقوع فى الناس ، وأقاموا الأعذار لأنفسهم بقطع أسبابهم ،
ولا تُزلّ هذين البيتين من فكرك :

لِنْ إِذَا مَا نَلْتَ عَزاً فَأَخُو الْعِزِّ يَلِينُ
فَإِذَا نَابَكَ دَهْرٌ فَكَمَا كُنْتَ تَكُونُ

والأمثال تُضرب لذى اللبّ الحكيم ، وذو البصر يمشى على الصراط المستقيم ،
والفطن يقنع بالقليل ، ويستدل باليسير . والله سبحانه خليفتى عليك لارب سواه .
وصية هارون الرشيد لمعلم ولده الأمين :

يا أحمر - إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مُهجة نفسه ، وثمرة قلبه ؛ فصير يدك
عليه مبسوطة ، وطاعته لك واجبة ؛ فكُنْ له بحيث وضعك أمير المؤمنين .
أقرئه القرآن ، وعرفه الأخبار ، وروّه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره

بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك إلا فى أوقاته ، وخذه بتعظيم بنى هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ، ولا تمن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه ، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة ؛ فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة .

وصية بعض نساء العرب إلى ابنها وقد أراد السفر :

قال أبان بن تغلب ، وكان عابداً من عباد أهل البصرة : شهدت أعرابية وهى توصى ولداً لها يريد سفرًا ، وهى تقول له :

أى بُنى : إجلس أمنيك وصيتى وبالله توفيقك ؛ فإن الوصية أجدى (١) عليك من كثير عقلك ، قال أبان : فوقفت مستمعاً لكلامها ، مستحسنًا لوصيتها فإذا هى تقول : أى بُنى إياك والنميمة ، فإنها تزرع الضغينة وتفرق بين المحبين ، وإياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضًا (٢) وخليق ألا يثبت الغرض على كثرة السهام وقلما اعتورت (٣) السهام غرضًا إلا كلمته (٤) حتى يهـى (٥) ما اشتد من قوته . وإياك والجود بدينك ، والبخل بمالك ، وإذا هزرت فاهرز كريمًا يلن لهزتك ، ولا تهز اللئيم فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها .

ومثل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك ، فاعمل به ، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه ، فإن المرة لا يرى عيب نفسه .

ومن كانت مودته بشره ، وخالف ذلك منه فعله ، كان صديقه منه على مثل الريح فى تصرفها ، والعذر ما تعامل به الناس بينهم ، ومن جمع الحلم والسخاء ، فقد أجاد الحلة ريطتها وسربالها .

(١) انفع . (٢) هدف . (٣) تداولت . (٤) جرحته (٥) يضعف .

نصيحة رجل لهشام بن عبد الملك :

خرج الزهرى يوماً من عند هشام بن عبد الملك ، فقال : مارأيت كاليوم ،
ولاسمعت كأربع كلمات تكلم بهن رجل عندهشام ، دخل عليه فقال : يا أمير المؤمنين
احفظ. عنى أربع كلمات ، فيهن صلاح ملكك واستقامة رعيتك ، قال : ماهن ؟
قال : لاتعد عدة ولا تثق من نفسك بإنجازها ، ولا يغرنك المرتقى ، وإن كان
سهلاً إذا كان المنحدر وعراً ، واعلم أن للأعمال جزاء فاتق العواقب ، وأن للأمور
بغتات (١) ، فكن على حذر . قال عيسى بن دأب : فحدثت بهذا الحديث
(المهدى) وفى يده لقمة قد رفعتها إلى فيه فأمسكها وقال : ويحك ! أعد على ،
فقلت : يا أمير المؤمنين : أسغ (٢) لقمتك ، فقال : حديثك أعجب إلى .

نصيحة أعرابي لسليمان بن عبد الملك :

قال أعرابي لسليمان بن عبد الملك : إني أكلّمك يا أمير المؤمنين بكلام
فاتحمله ، فإن وراءه إن قبلته ما تحبه ، قال : هاته يا أعرابي ، فنحن نوجد بسعة
الاحتمال على من لانا من غيبته ، ولا نرجو نصيحته ، وأنت المأمون غيباً الناصح
الجيباً (٣) ، قال : فإنى سأطلق لسانى بما خرست عنه الألسن تأدية لحق الله تعالى ،
أنه قد اكتنفتك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم ، وابتاعوا (٤) دنياك بدينهم ،
ورضاك بسخط ربهم ، وخافوك فى الله ، ولم يخافوا الله فيك فهم حرب للآخرة
وسلم للدنيا فلا تأمنهم على ما آتمنك الله عليه ، فإنهم لم يألوا (٥) الأمانة
تضييعاً . والأمة كسفاً وخسفاً . وأنت مسئول عما اجترموا ، وليسوا مسئولين
عما اجترمت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فإن أعظم الناس عند الله

(١) البغتات : جمع بغتة وهى الفجأة . (٢) أسغ اللقمة : ابتلعها .
(٣) فلان ناصح الجيب : يراد به قلبه وصدره أى أمين ، قال الشاعر :
وحصنت صدرا جيبه لك ناصح * (٤) اتباع : اشترى . (٥) ألا يألوا
الوا : قصر . يقال أبى لا آلوك نصحاً لا أقصره . وقال تعالى : « لا يألونكم
خبالا » أى لا يقصرون فى خبالكم وفسادكم .

غَبْنًا من باع آخرته بدنياه غيره ، فقال سليمان : أما أنت يا أعرابى فقد سَلَلْتَ لسانك وهو سيفك . قال : أجل يا أمير المؤمنين ! لك لا عليك . نصيحة فتاة لأبيها :

قالت أعرابية - تنصح أباهها بمجانبة السرف - حبس المال أنفع للعيال من بذل الوجه فى السؤال ، فقد قل النوال ، وكثر التجال (١) ، وقد أتلفت الطارف والتلاد (٢) وبقيت تطلب مافى أيدي العباد ، ومن لم يحفظ ما ينفعه ، أوشك أن يسعى فيما يضره .

نصيحة البديع الهمداني لوارث مال :

كتب البديع إلى بعض إخوانه يعزيه وينصح له :

وصلت رقعتك (ياسيدى) والمصاب لعمر الله كبير ، وأنت بالجزع جديو ولكنك بالصبر أجدر ، والعزاء عن الأحبة رشد كأنه الغنى ، قد مات الميت فليحى الحى ، فاشدد على مالك بالخمسة (٣) ، فأنت اليوم غيرك بالأمس . قد كان ذلك الشيخ رحمه الله وكيلك ، تضحك ويبكى لك ، وقد مولك (٤) مما ألف بين سراه (٥) وسيره ، وخلفك فقيراً إلى الله غنياً عن غيره ، وسيعجم (٦) الشيطان عودك ، فإن استلانك رماك بقوم يقولون : خير المال ما تنفقه بين الشراب والشباب ، وتنفقه بين الحباب (٧) والأحباب ، والعيش بين القداح والأقداح (٨) ، ولولا الاستعمال لما أريد المال ، فإن أعطتهم فالיום فى الشراب وغداً فى الخراب ، واليوم واطرباً للكاس ، وغداً واحرباً (٩) .

(١) النجال : جمع نجل وهو الولد . (٢) الطارف : المستحدث من المال وغيره ، والتلاد : جمع تليد وهو عكس الطارف . (٣) يريد بالخمسة الأصابع وهى مؤنثة فى الأكثر . (٤) موله : اتخذ له مالا . (٥) السرى : سير الليل . (٦) عجم العود : عضه ليعرف مبلغ صلابته . (٧) حباب الماء والشراب : فقايعه التى تطفو كأنها القوارير . (٨) القداح : سهام المسر ، واحدها قدح كقرد . والأقداح : جمع قدح ، كجبل وهو وعاء الشراب . (٩) الحرب : أن يسلب الرجل ماله ، وقد حرب ماله أى سلب ومن هذا قولهم : واحربا .

من الإفلاس . يامولاي : ذلك الخارج من العود يسميه الجاهل نَقْرًا ،
وانعاقل فقراً ، وذلك المسموع من النّأى (١) هو فى الآذان زَمْرٌ ، وفى الأبواب
سَمَرٌ ، وإن لم يجد الشيطان مَغْمَزًا فى عودك من هذا الوجه ، رماك بآخرين
يُمثلون الفقر حذاء عينيك ، فتجاهد قلبك ، وتحاسب بطنك ، وتناقش
عِرْسك (٢) ، وتمنع نفسك وتبوء فى دُنْيَاك بوزرك ، وتراه فى الآخرة فى ميزان
غيرك ، لا - ولكن قصداً بين الطريقين ، وميلاً عن الفريقين لamenع ولا
إسراف ، والبخل فقر حاضر ، وضير عاجل ، وإنما يبخل المرء خيفة ما هو فيه .

ومن يُنفق الساعات فى جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل الفقر
فليكن لله فى مالك قسم ، وللمرؤءة قسم ، فَصِلِ الرحم ما استطعت وقدر (٣)
إذا قطعت ، فلأن تكون فى جانب التقدير ، خير من أن تكون فى جانب التبذير .

وصية الرياحى لقومه

قال الرياحى فى خطبته بالمربد (٤) :

يا بنى رياح - لا تُحَقِّرُوا صغيراً تأخذون عنه ، فإنى أخذت من الليث
بَسَالته ومن الحمار صبره ، ومن الخنزير حرصه ، ومن الغراب بُكورَه ،
ومن الثعلب روغانه (٥) ، ومن السنور ضَرَعه (٦) ، ومن القرد حكايته ،
ومن الكلب نُصرتَه ، ومن ابن آوى حذره ؛ ولقد تعلمت من القمر
سير الليل ، ومن الشمس ظهور الحين بعد الحين .

(١) النأى : آلة للزمر ، فارسى معرب ، وقد تهمز ياءه ، وقد جمعه على
نأيات .

(٢) العرس : الزوجة . (٣) التقدير : التروية والتفكير فى تسوية
أمر .

(٤) المربد : الجرين ، ثم صار علماً على موضع بالبصرة .

(٥) الروغان : الميل عن الشئ لتجنب الضرر . (٦) الضرع : الخضوع

وصية ذى الاصبع لابنه

لَمَّا اخْتُصِرَ ذُو الْأَصْبَعِ الْعُدَوَانِي (١) دَعَا ابْنَهُ (أَسِيدًا) فَقَالَ لَهُ :
يَا بُنَى : إِنْ أَبَاكَ قَدْ فَنَى وَهُوَ حَى ، وَعَاشَ حَتَّى سَمَّ الْعَيْشَ ، وَإِنِّى
مَوْصِيكَ بِمَا إِنْ حَفِظْتَهُ بَلَغْتَ فِى قَوْمِكَ مَا بَلَغْتَهُ ، أَلَنْ جَانِبِكَ لِقَوْمِكَ يَحْبُوكَ
وَتَوَاضِعَ لَهُمْ يَرْفَعُوكَ ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ يَطِيعُوكَ ، وَلَا تَسْتَأْثِرْ عَلَيْهِمْ
بَشَىءٌ يُسَوِّدُوكَ ، وَأَكْرَمَ صَغَارِهِمْ كَمَا تَكْرَمُ كِبَارِهِمْ يَكْرَمُكَ كِبَارُهُمْ ،
وَيَكْبُرُ عَلَى مَوَدَّتِكَ صَغَارُهُمْ ، وَاسْمَحْ بِمَالِكَ ، وَاعْزِزْ جَارَكَ (٢) وَأَعْنِ مِنْ اسْتِعَانِ
بِكَ ، وَأَكْرَمَ ضَيْفِكَ ، وَأَسْرِعِ النَّهْضَةَ فِى الصَّرِيخِ (٣) فَإِنَّ لَكَ أَجَلًا لَا يَعِدُوكَ
وَصْنِ وَجْهَكَ عَنْ مَسْأَلَةِ أَحَدٍ شَيْئًا ، فَبِذَلِكَ يَتِمُّ سُودُّكَ .

وصية عبد الله بن شداد لابنه

قَالَ الْكَلْبِيُّ : لَمَّا حَضَرَتْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ شَدَادٍ (٤) الْوَفَاةَ دَعَا ابْنًا لَهُ يَقَالُ
لَهُ (مُحَمَّدٌ) فَقَالَ : يَا بُنَى ، إِنِّى أَرَى دَاعِىَ الْمَوْتِ لَا يُقْلَعُ ، وَأَرَى مِنْ مَضَى
لَا يَرْجِعُ ، وَمَنْ بَقِيَ فَإِلَيْهِ يَنْزِعُ (٥) ، وَإِنِّى مَوْصِيكَ بِوَصِيَّةٍ فَاحْفَظْهَا .
عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ الْعَظِيمِ ، وَلِيَكُنْ أَوْلَى الْأُمُورِ بِكَ شُكْرُ اللَّهِ ، وَحَسَنُ النِّيَّةِ فِى
السَّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، فَإِنَّ الشُّكُورَ يَزِدُّادَ وَالتَّقْوَى خَيْرُ زَادٍ ، وَكَنْ كَمَا قَالَ الْحَطِيطَةُ :

وَلَسْتُ أَرَى السَّعَادَةَ جَمَعَ مَالٌ وَلَكِنْ التَّقَى هُوَ السَّعِيدُ
وَتَقْوَى اللَّهِ خَيْرُ الزَّادِ ذَخْرًا وَعِنْدَ اللَّهِ لِلْآتِقِ مَزِيدٌ
وَمَا لَا بُدَّ أَنْ يَأْتَى قَرِيبٌ وَلَكِنْ الَّذِى يَمْضَى بَعِيدٌ

(١) هُوَ حُرْثَانُ بْنُ الْحَارِثِ ، خَطِيبُ حَكِيمٍ ، شَاعِرُ فَارَسٍ ، وَهُوَ أَحَدُ
الْمَعْرُومِينَ فِى الْجَاهِلِيَّةِ (٢) الْجَارُ : الْمَجَاوِرُ وَالَّذِى أَجْرَتْهُ مِنْ أَنْ يَظْلَمَ .
(٣) الصَّرِيخُ : صَوْتُ الْمُسْتَفِثِّ وَهُوَ أَيْضًا الْمَغِثُ وَاحِدًا أَوْ أَكْثَرَ . - (٤) هُوَ
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَدَادٍ بْنِ الْهَادِىِّ اللَّيْثِىِّ كَانَ مِنْ رِجَالِ الْعِرَاقِ وَمِنْ ذَوَى الْمَكَانَةِ
عِنْدَ الْحِجَابِ ، ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْهِ مَعَ ابْنِ الْأَشْعَثِ ، وَيُقَالُ أَنَّهُ قَتَلَ سَنَةَ ٨٣ هـ .
(٥) نَزَعَ إِلَيْهِ كَجَلَسَ : اشْتَقَ .

أى بُنى : لا تزهدَنَّ فى معروف ، فإن الدهر ذو صُرُوف ، والأيام ذات نوائب ، على الشاهد والغائب ، فكم من راغب قد كان مرغوباً إليه ، وطالب أصبح مطلوباً ما لديه ، واعلم أن الزمان ذو ألوان ، ومن يصحب الزمان يرّ الهوان ، وكُنْ أى (بُنَى) كما قال أبو الأسود الدؤلى :

وعدّ من الرحمن فضلاً ونعمة عليك إذا ماجء للعُرف (١) طالبُ
وإن امرأ لا يرْتَجى الخير عنده يكن هيناً ثقيلاً على من يصاحب
فلا تمنعن ذا حاجة جاء طالباً فإنك لا تدري متى أنت راغب
رأيت التّو (٢) هذا الزمان بأهله وبينهم فيه تكون النوائب

أى بُنى : كُنْ جواداً بالمال فى موضع الحق ، بخيلاً بالأسرار عن جميع الخلق فإن أحمد جود المرء الإنفاق فى وجه البرّ ، وإن أحمد بخل الحرّ الضن بمكتوم السرّ ، وكُنْ كما قال قيس بن الخطيم (٣) الأنصارى :

أجود بمكنون التّلاذ وإننى بسرّك عمّن سألنى لضنين (٤)
إذا جاوز الاثنين سرّ فإنه ينثّ وتكثير الحديث قمين (٥)
وعندى له يوماً إذا ائتمنتنى مكان يسوداء الفؤاد مكين (٦)

أى بُنى : وإن غلبت يوماً على المال ، فلا تدع الحيلة على حال ، فإن الكريم يحتال ، والدنىّ عيال ، وكُنْ أحسن ماتكون فى الظاهر حالاً ، وأقلّ ما تكون فى الباطن مالاً ، فإن الكريم من كرمت طبيعته ، وظهرت عند الإنفاد (٧) نعمته ، وكُنْ كما قال ابن حذاق (٨) العبّدى :

(١) العرف : المعروف . (٢) التوامصدر التوى وقصره للضرورة .
والتوى به الزمان : اعوج . وألوى به : أهلكه . (٣) شاعر من أهل يثرب
وبينه وبين حسان بن ثابت مناقضة . (٤) سهل الشاعر همزة سأل للوزن
(٥) قطع همزة اثنين للضرورة ونث الحديث : أفشاه . (٦) سوداء الفؤاد
أو القلب وسويداؤه وأسوده : حبه . (٧) الإنفاد : الفقر . (٨) اسمه
يزيد وهو شاعر قديم .

وجدتُ أبى قد أَوْرَثَهُ أبوه خلالاً قد تُعَدُّ من المعالى (١)
فأَكْرَمَ ما تَكُونُ عَلَى نَفْسى إذا ما قَلَّ فى الأَزْمَاتِ مالى
فَتَحَسَّنْ سِيرَتى وَأَصُونْ عِرْضى ويَجْمَلُ عند أهل الرأى حالى
وإن نلتُ الغنى لم أَغْلُ فيه ولم أَخْصُصْ بِجَنُوتَى الموالى (٢)
أى بُنَى : وإن سمعت كلمة من حاسد ، فكن كأنك لست بالشاهد ،
فإنك إن أمضيتها حيالها (٣) رجع العيب على من قالها ، وكان يقال :
الأريب العاقل هو الفطن المتغافل (٤) ، وكُنْ كما قال حاتم الطائى :

وما من شيمتى شتم ابن عمى وما أنا مُخْلِفٌ من يرتجبنى
وكلمة حاسد فى غير جُرم سمعت فقلت : مُرِّى فأنفذينى (٥)
فعابوها عَلَى ولم تسؤنى ولم يَعْرِقْ لها يوماً جبينى
وذو اللونين يلقانى طليقاً وليس إذا تغيب يأتلينى (٦)
سمعت بعيبه فصفحت عنه محافظة على حَسْبى ودينى

أى بُنَى : لا تواخ امرءاً حتى تعاشره ، وتَتَفَقَّدَ موارده ومصادره ، فإذا
استطعت العشرة ، ورضيت الخبرة (٧) ، فواجهه على إقالة العثرة ، والمؤاساة
فى العُسرة ، وكُنْ كما قال المُقَنَّعُ الكندى (٨) :

أَبْلُ الرَّجَالِ إذا أَرَدْتَ إِخَاءَهُمْ وَتَوَسَّسْ مِنْ فِعَالِهِمْ وَتَفَقَّدْ ...

(١) نقلت حركة الهمزة من اورث الى الواو وحذفت هى للوزن والخلال :
جمع خلة وهى الخصلة . (٢) غلا فى الأمر غلو : جاوز الحد والموالى :
الأقارب . يقول : ان كثر مالى لم أجف أقاربنى . (٣) خيال ظرف فى معنى
أزاء أى تركتها تذهب فى طريقها الخ . (٤) فى معنى هذا قول الشاعر :

ليس الغنى بسيد فى قوم لكن سيد قوم المتغابى

(٥) نفذه : جازه . (٦) أثلى كالأى قصر : يقول اذا غاب عنى فلن يقصر
فى نكايتى (٧) الخبرة ، وبغيرهاء ، العلم بالشيء كالاختبار (٨) هو محمد
ابن عمرة والمقنع لقب شاعر رصين المبانى حكيم المعانى من شعراء الدولة
الاموية .

فإذا ظفرت بذى اللبابة والتقى فبه اليدين قرينَ عين فاشدد (١)
وإذا رأيت ولا محالة زلة فعلى أخيك بفضل حلمك فاردد
أى بنى : إذا أحببت فلا تفرط ، وإذا أبغضت فلا تشطط. (٢) ، فإنه قد كان
يقال أحب حبيبك هوناً ما (٣) عسى أن يكون بغيضك يوماً ما ، وأبغض بغيضك
هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما ، وكُن كما قال هُذْبَةُ (٤) بن الخشرم العذرى :
وَكُنْ مَعْقِلاً للحلم واصفح عن الخنا فإنك راء ما حييت وسماع
واحِب إذا أحببت حبا مقارباً فإنك لا تدرى متى أنت نازع (٥)
وأبغض إذا أبغضت بغضاً مقارباً فإنك لا تدرى متى أنت راجع

الفصل الثاني عشر : فى رسائل التنصل والتبرؤ

كتب أبو الحسن على بن الرومى المتوفى سنة ٣٨٤ هـ إلى القاسم بن عبيد الله :
ترفع عن ظلمى إن كنت بريئاً ، وتفضل بالعمو إن كنت مُسيئاً ،
فوالله لأطلب عفوَ ذنب لم أجنه ، وألتمس الإقالة مما لا أعرفه ، لتزداد
تطوُّلاً ، وأزداد تذللاً ، وأنا أعيد حالى عندك بكرمك من وائس يكيدها ،
وأحرصها بوفائك ممن يحاول إفسادها .
وَأَسْأَلُ اللهَ أَنْ يجعل حظى منك بقدر وُدِّى لك ، ومحلى من رجائك
بحسب أستحقِّق منك ، والسلام .

-
- (١) اللبابة مصدر لب أى صار ذالِب وهو العقل ، وكل ما قيل « فاشدد »
من الشطر الثاني معمول له وتكررت الفاء للربط وكذا فى البيت التالى
(٢) شط وأشط : جاوز الحد . (٣) الهون : الرفق ، وما : أما زائدة ، وأما
صفة لهونا مثلها فى قوله تعالى : « ان الله لا يستجى أن يضرب مثلاً ما » .
(٤) هو شاعر من شعراء الدولة الاموية جيد البديهة وهو القائل :
ولست بمفراح اذا الدهر سرنى ولا جازع من صرفه المتقلب
ولا أتمنى الشر والشر تاركى ولكن متى أحمل على الشر أركب
(٥) نزع عن الأمر نزوعاً : انصرف وانتهى عنه .

وكتب أبو الوليد أحمد بن زيدون الأندلسي ، المتوفي بأشبيلية سنة ٤٦٣ هـ :
يا مولاي (١) وسيدى الذى ودادى له ، واعتمادى عليه ، واعتمادى (٢) به ،
وامتدادى (٣) منه ، ومن أبقاه الله ماضى (٤) حد العزم (٥) ، وارى (٦) زندق (٧)
الأملى (٨) ، ثابت (٩) عهد (١٠) النعمة ، إن سلبتنى (١١) أعزك (١٢) الله لباس (١٣)
نعمائك ، وعطلتنى (١٤) من حلى (١٥) إيناسك (١٦) ، وأظمأتنى (١٧) إلى برود (١٨)
إسعافك (١٩) ، ونفضت (٢٠) بى كف حياطتك (٢١) وغضضت (٢٢) عنى طرف (٢٣)
حمایتك ، بعد أن نظر الأعمى إلى تأملى (٢٤) لك ، وسمع الأصم ثنائى (٢٥)
عليك وأحسن الجماد باستحمادى (٢٦) إليك .

(١) المولى له معان كثيرة والاليق منها هنا السيد أو المنعم ومنها العبد
أيضا قال أبو تمام :

مولاك يا مولاي صاحب لوعة فى يومه وصباة فى أمسه
دنف وجود بنفسه حتى لقد أمسى ضعيفا أن وجود بنفسه
(٢) عدنى ليوم حاجتى . (٣) مزيد خيرى . (٤) قاطع . (٥) قوة
الارادة لا يعزم على أمر الا أمضاه . (٦) الورى : خروج النار من الزندق
وقت الاقتداح . (٧) مقدحة . (٨) الرجا . (٩) متمكن وموثق . -
(١٠) ميثاق أى أن نعمته ثابتة ومحفوظة عليه أبدا وأن محبته مقصورة عليه
وأنه يطلب من الله أن يبقيه ، وعزمه سيف قاطع وأمله نور لامع وخيره
غيث متتابع وأنه لحسن افتتاح وبراعة استهلال . (١١) انتزعت منى .
(١٢) أعزك الله ، جملة اعتراضية الغرض منها الدعاء لسيدته بالعزة والاشارة
الى ما يستلزمه سلب اللباس من المذلة وتنبهها له على ذلك . (١٣) ما
يوارى الجسم أى جردتنى من نعمتك المحيطة بى . (١٤) العطل فى الأصل
خلو جيد المرأة من القلائد . (١٥) مايتحلى به . (١٦) أنسك ، أى حرمتنى
من لذىك أنسك . (١٧) أعطشتنى . (١٨) بارد . (١٩) انجداك .
(٢٠) طرحت . (٢١) احاطتك أى طرحتنى من كف حوزكلى . (٢٢) خفضت
(٢٣) نظر ، أى خفضت طرف وقايتك عنى فتركتنى عرضا لصائبات
الحوادث . (٢٤) التأمل أمر معنوى لا يشاهد وإنما ذلك مبالغة فى شدة
التلبس والاتصاف به . (٢٥) مدحى ، مبالغة فى انتشار مدحه .
(٢٦) استحمادى مبالغة فى تأثير حمده يشير الى تعداد ما حل به من
المصائب وأحرق به من كل جانب ألا وهو تجريده من نعم الأمير المحيطة به
أحاطة الثياب وحرمانه من الانس بذلك الجنب وأعطاشه الى سريع اغاثته =

فلا غرؤ^(١) قد يغص^(٢) بالماء شاربهُ ، ويقتل الدواء المستشفى به ، ويؤتى
الحذر^(٣) من مأمنه^(٤) ، وتكون منية^(٥) المئمنى فى أمنيته^(٦) ، والحين^(٧)
قد يسبقُ جهد^(٨) الحريص :

كلُّ المصائبِ قد تمرُّ على الفتى وتهون غيرَ شمانة^(٩) الحساد
وإني لأتجلد^(١٠) وأرى للشامتين « أنى لريب^(١١) الدهر لا أنضعضع »^(١٢)
فأقول : هل أنا إلا يدُ آدماء^(١٣) سوارها^(١٤) ، وجبينُ عض به إكليله^(١٥)

= واخرجه من محيط دائرته وصرفه عنه نظر ملاحظته خصوصا بعد أن
صبر تأمله فيه جسما مخترعا ولذا رآه الأعمى وجلا مدحه بما جذب اليه
الأذان فدخلها بدون استئذان ولذا سمعه الأصم وبذل قصارى جهده فى
حمده حتى كان مؤتمرا فى كل الكائنات ولذا أدركه الجماد وفيه من المبالغة
ما فى قول المتن :

أنا الذى نظر الأعمى الى أدبى وأسمنت كلمائى من به صمم
وانما أكثر من تعداد مصائبه ليكون ذلك أدل على توجعه وتألمه ، وأسرع
لتلبية ندائه وأمكن لجلب الصفاء وإزالة الجفاء^(١) فلا عجب : الغاء
واقعة فى جواب أن من قوله ان أسليتنى^(٢) غصصت بالماء أغص
غصا اذا شرقت به وأغصصته أنا .^(٣) المتيقظ^(٤) من حيث لا يتوقع
الضرر^(٥) موت^(٦) ما يتمناه^(٧) الهلاك^(٨) طاقة^(٩) الفرح فى
مصائب الغير ، يقول : ان أنتزعت منى ما أعطيت ، وأحلت بى من المصائب
ما حللت : بعد غلوى فى الثناء عليك . والتجائى فى كل الامور اليك ، فليس
ذلك بالأمر العجيب ولا بالنادر بل كثير النظائر والأمثال فالماء الذى به زوال
الفصص قد يكون هو الفاص وأن الأمنية قد تكون فيها المنية وأنه يشير فى
عبارته لقول بعضهم :

قد كنت عدتى التى أسطو بها وبديء اذا اشتد الزمان وساعدى
فرميت منك بغير ما أملتته ، والمرء يشرق بالزلال البارد
ولقول آخر :

تجرى الأمور على وفق القضاء ، وفى طى الحوادث محبوب ومكروه !
فريما سرنى ما بت أحذره ، وربما ساءنى ما بت أرجوه !
والبيت الذى ذكره لابن عيينة . (١٠) أتكلف الصبر والقوة (١١) ريب
الدهر : نوائبه (١٢) أنزلزل : هذا حل بيت لأبى ذؤيب الهذلى وهو :
وتجلدى للشامتين أريهم أنى لريب الدهر لا أتضعضع
(١٣) أسال دمها (١٤) نوع من الحلوى يلبس فى الساعد (١٥) تاجه .

ومشرق^(١) أَلَصَقَهُ بِالْأَرْضِ صَاقِلُهُ^(٢) ، وسمهرى^(٣) عرضه على النار مُثْقِفَهُ^(٤) ،
وعبدٌ ذهب به سيده مذهب الذى يقول :

فقسا ليزدجروا^(٥) ومن يكُ حازماً فليقسُ أحياناً على من يرحم
هذا العتب^(٦) محمود عواقبه ، وهذه النبوة^(٧) غمرة^(٨) ثم تنجلي^(٩) ، وهذه
النكبة^(١٠) سحابة صيفٍ عن قليلٍ تقشع^(١١) ، ولن يربى^(١٢) من سيدى إن
أبطأ سيبه^(١٣) أو تأخر ، غير^(١٤) ضنين غناؤه^(١٥) ، فأبطأ الدلاء فيضاً^(١٦)
أملوها وأثقل السحاب مشياً أحفلها^(١٧) وأنفع الحيا^(١٨) ماصادف جذباً^(١٩)
وَأَلَدَ الشَّرَابُ مَا أَصَابَ غَلِيلاً^(٢٠) ، ومع اليوم غدٌ ولكل أجلٍ كتابٌ .

(١) سيف (٢) جاليه (٣) رمح (٤) مقومه (٥) يمتنعوا : يخاطب
نفسه ويساها ويضرب لها الأمثال ويمنيها ويسهل عليها ما تعانيه ،
ويجنبها ما تعاديه من مزيد استعطاف قلب سيده واستجلاب رحمته
حيث لم يستهجن فعله وعمله معه فقد أنزل نفسه منزلة الحسناء التى
أجرى دمها السوار ، والجبين الذى أثر فيه تاج الافتخار ، والسيف الذى
وضعه على التراب صاقله لصقله لا لهوانه ، والرمح الذى وضعه على النار
مثقفه لتقويمه لا لاحتراقه ، والعبد الذى قسى عليه سيده رحمة به
واحساناً لا استخفافاً به وهواناً ، والبيت لأبى تمام . (٦) اللوم
(٧) الجفوة (٨) شدة (٩) تنكشف (١٠) المصيبة (١١) تقاع ، يقول :
أرجو أن يكون هذا اليوم ختام الجفا ، ومبدأ الألفة والصفاء وأن هذه الجفوة
شدة وتحول وسحابة لا تلبث أن تزول ، يشير الى قول المتنبي :

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل
والى المثلين العربيين « غمرات ثم تنجلي » و« سحابة صيف عن قليل
تقشع » والأول يضرب في حصول السر بعد السر والثانى فى سرعة التغير .
(١٢) يجعلنى شاكاً (١٣) عطؤه (١٤) غير ضنين : احتراس يريد به حمل
سيده على العطف ودفع ما يتوهم من أن التأخير للايقاع به (١٥) نفعه .
(١٦) الفيض : صعود الماء على الضفة ، والمراد هنا مجرد الصعود ، أى أن
أبطأ الدلاء صعوداً أكثرها امتلاء (١٧) أملوها (١٨) الطر (١٩) الأرض
التي لا نبات بها (٢٠) العطش بحرارة ، لما ذكر أن هذا العتب محمود
العاقبة وأن ما حل به عن قريب يزول ، ورأى تأخير الرحمة به وعدم
انتقاده من ورطته ربما يوهم الريبة فى محمدة العاقبة ، دفع ذلك معتذراً عن
سيده فى هذا التأخير معللاً بقوله فأبطأ الدلاء فيضاً أملوها وأثقل السحاب
مشياً أحفلها وغير ذلك مما يدل على أن فى التأخير ما يفعم البال ويقر العين =

لَهُ الحمدُ على اهتِباله (١) . ولا عتب عليه فى اغتفاله (٢) :

فإن يكن الفعلُ الذى ساءَ واحداً فأفعأله اللاتى سَرَرَنُ أُلوف
وأعود فأقول : ما هذا الذنبُ الذى لم يسعه عَفْوُكَ ، والجهلُ الذى لم يأت
من ورائه حلمك ، والتطاوُلُ (٣) الذى لم يستغرقه تطولُك (٤) . والتحامِلُ (٥)
الذى لم يَفِ به احتمالُك (٦) ؟! ولا أخلو من أن أكون بريئاً فأين عدلك ؟
أو مسيئاً ، فأين فضلك ؟

إلا يكن ذنبُ فعدلك واسعُ أو كان لى ذنبُ فضلك أوسعُ
فهبنى مسيئاً كالذى قلت طالباً قصاصاً (٧) فأين الأخذِ اعز (٨) بالفضل
حنانيك (٩) ، قد بلغ السيل الزبى (١٠) ، ونالنى ما حسبى به وكفى .
وما أراى إلا ألو مرت بالسجود لآدم فأبَيْت (١١) واستكبرت !!

= ثم ختم عبارته بما هو أمثل فى التسلية وأدعى للتصبر من حيث يقول:
ومع اليوم غد ولكل أجل كتاب

(١) اغتنامه (٢) تغافله : وهو تركه على ذكر منه بعد أن اعتذر من سيده
بما اعتذر وأخذ يمدحه على أيقاعه به وتغافله منه على أن يرأف به ويعطف
عأيه والبيت للمتنبى (٣) الكبر (٤) فضلك (٥) التكليف بما لا يطاق
(٦) الاحتمال كالحمل الا أنه فى الأمور العظيمة ، قال النابغة الديباني *
فحملت برا واحتملت فجـاراً * (٧) عقابا (٨) اسم امرأة ، رجع بعد
أن عود نفسه فى مخاطبة الأمير الصبر والانتظار التفت منه الى مافى ضميره
من بقايا العتاب فقال يستفهم مريد بذلك الزامه بالصفح عنه بتصفير
ذنبه وتكبير عفو سيده فكأنه يقول : ما هذه الحركة التى زلزلت طودك ،
وما هذه الجيفة التى عكرت بحرك ، ولم لا يشملنى كرمك وجودك مع أن
فضلك وعدلك أكبر شفيع للعاصى والطيع ، وذكر البيتين تأييداً لما قاله فى
نشره ، والاول للبحترى والثانى مأخوذ من قول الحماسى :

هبنى ظلوماً نلت به بمساءة قصاصاً فأين الأخذِ اعز بالفضل

(٩) تشية حنان ، وهو الرحمة (١٠) جمع زبية ، وهى حفرة تحفر لصيد
الأسد فى مكان مرتفع لا يعاوه الماء فاذا وصل اليه السيل كان مجحفاً : يريد
بذلك مزيد استرحام سيده من حيث يقول له : حنانيك ، أى رحمة أثر
رحمة أطلبها منك فان الدل والهوان قد وصلا النهاية ، والصفار والاحتقار
قد بلغا الغاية : وقوله بلغ السيل الزبى مثل عسرى يضرب فى بلوغ الشئ
غايته (١١) أمتنعت : ولقد أحسن كل الاحسان وتلطف ماشاء فى عطف =

وقال لى نوح : اركب معنا . فقلت : ساوى (١) إلى جبل يَعِصْنى (٢) من الماء ، وأمرت ببناء صرح (٣) لعل أُطْلَع إله موسى وعكفت (٤) على العجل ، واعتديت (٥) فى السبت ، وتعاطبت (٦) فعقرت (٧) ، وشربت من النهر الذى

= قلب سيده وطلب العفو عما اجترح من جريمته بأبلغ عبارة وأدق إشارة مبدعا فى وصف ما لاقاه من العقاب والنكال ، وانه لو قسم على ذوى الذنوب من الأولين والآخرين لكان كافيا لتكفير تلك الذنوب جزاء وفاقا ، ملمحا الى ذوى الذنوب المشهورة ووقائع الآثام الماثورة . فقال : وما ارانى .. الخ . يشير الى ذنب ابليس وهو امتناعه واستكباره عن السجود لآدم من حيث أمره الله بذلك « فأبى واستكبر وكان من الكافرين » وقال انا خير منه خالفتنى من نار وخالفته من طين .

(١) سألبأ (٢) يحفظنى ، يشير الى ذنب ابن نوح ، وهو مخالفته لأبيه من حيث قال له لما عم الطوفان وصعد السفينة هو ومن آمن معه : يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين فخالف أباه وقال ساوى .. الخ . (٣) قصر ، يشير الى ذنب فرعون ، وهو انكاره الاله وأدعأؤه أنه هو الاله الحقيقى ، وذلك حينما آتاه موسى عليه السلام بالايمان بالله ، فقال فرعون « ياأيها الاله ما علمت لكم من اله غيرى ، فأوقدلى باهامان على الطين فاجعل لى صرحا » : الآية . (٤) واضطبت ، يشير الى ذنب بنى اسرائيل وهو عبادة العجل ، وذلك أنه لما ذهب موسى عليه السلام لميقات ربه قام رجل صائغ من قبيلة يقال لها سامرة كانت تعبد البقر يقال لبنى اسرائيل ان الحائى الذى استعرتموه من المصريين وبقي معكم بعد غرقهم لا يحل لكم فادفنوه حتى يأتى موسى ويرى رأيه فيه ، ففعلوا ، فأخذوه وصاغه عجلا ووضع فيه القبضة التى أخذها من اثر حافر فرس الحياة فرس جبريل عليه السلام ، فصار العجل يمشى ويخور ، فقال لبنى اسرائيل هذا الهكم واله موسى نسيه وذهب لطلبه ، فافتتن به كثير منهم واتبعوه (٥) جاوزت ، يشير الى ذنب بنى اسرائيل وهو انتهاك حرمة السبت وذلك أنهم نهوا عن الاصطياد فيه وكانت الحيتان تأتى فيه بكثرة رافعة خراطيمها حتى تغطى الماء ولا تأتى فى غيره فتحيلوا بعمل حيضان متصلة بالبحر فاذا جاءت عشية الجمعة فتحوا الاتصال فتدخل الحيتان فى الحيضان فيأخذونها يوم الأحد ، ولما أمهل الله عقوبتهم استحلوا الصيد يوم السبت فحاق بهم العذاب .

(٦) تعاطى : قام على أطراف أصابع رجليه . ثم رفع يديه وضرب . (٧) عقر البعير بالسيف فانعقر ، أى ضرب به قوائمه . يشير الى ذنب قدار وهو قتل ناقة صالح عليه السلام ، وذلك ان امرأة يقال لها عنبرة لها مال وبنتان حسان ، وأخرى يقال لها صدوق بنت المحيا صاحب أوثانهم ، كان =

ابتلى الله (١) به جيش طالوت ، وقُدَّت الفيل لأبرهة (٢) ، وعاهدت (٣) قريشاً على ما في الصحيفة ، وتأولت (٤) في بيعة العقبة (٥) ، واستنفرت إلى العير (٦)

= زوجها أسلم وأنفق ماله على صالح وأتباعه ، وكانتا من أشد الناس عداوة لصالح عليه السلام ، فدعت صدوق مصدقاً لنفسها على قتل الناقصة ، ودعت عنبرة قدارا على ذلك أيضاً فذهب شقياً ثمود وكمن كل منهما في أصل صخرة ، ولما مرت الناقة رماها مصدق بسهم فأصاب ساقها ، وشد عليها قدار بسيفه فأبان عروقتها ، ثم نحروها .

(١) اختبر ، وهو يشير إلى ذنب معظم جيش طالوت عليه السلام وهو مخالفتهم له حينما اشتكوا له قلة الماء ، وهم ذاهبون للقتال ، فقال لهم : « ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ، ومن لم يطعمه فإنه مني الا من اغترف غرفة بيده » فخالقوا وشربوا الا قليلاً منهم .

(٢) كان عامل اليمن من قبل النجاشي ، يشير إلى ذنب أبرهة وهو ذهابه لهدم الكعبة ، وسبب ذلك أنه بنى كنيسة بصنعاء ليصرف الناس عن الكعبة فأتى رجل كنانى ولوثها بالعدرة ، وأتى أقوام من تجار قريش وأضرمو ناراً بجانبها فهبت الريح فأحرقتها ، فغضب النجاشي لذلك ، وقام أبرهة وأخذ الفيلة وفي مقدمتها فيل النجاشي المسمى محموداً ليهدم الكعبة ارضاء له ، ولما وصل إليها وجه الفيل نحوها فأبى ، فوجهه إلى اليمن فقام مهرولاً ، وبعد ذلك أرسل الله عليهم طيراً ابابيل ترميهم بحجارة من سجيل فأهلكتهم .

(٣) أعطيتهم عهداً وميثاقاً ، يشير إلى ذنب قريش ، وهو اتحادهم على عدم نصره الدين ، وذلك انهم لما رأوا ان الدين أخذ في النمو وأن حمزة وعمر أسلموا تعاهدوا على مهاجرة بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، وعلى قطع العلائق بينهم تماماً وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة عهداً لذلك . (٤) خالفت .

(٥) طريق وعر في الجبل . يشير إلى ذنب من نقض بيعة العقبة ، وبيعات العقبة ثلاث ، ولم يتأول فيها أحد ، فذكره لها على سبيل الفرض ، أي هب أني خالفت الاجماع وتعديت الحد وفعلت ما لم يفعل أحد .

(٦) العير - بالكسر - الابل التي تحمل الميرة ، وهو يشير إلى ذنب مضمض الغفاري وهو استنهاض قريش لأبى سفيان ، وذلك أن أباسفيان ابن حرب كان آتياً الشام في عير ، فذهب رسول الله لقتاله ، فشعر بذلك =

بيدر ، وانخذلت (١) بثلث الناس يوم أحد (٢) ، وتخلّفت (٣) عن صلاة العصر في بنى قريظة (٤) ، وجئت بالإفك (٥) على عائشة الصّديقية . وأنّفت (٦)

= أبو سفيان ، فاستأجر ضمضما المذكور ليخبر قريشا . فذهب وصرخ ببطن الوادى واقفا على جمل قد جدعه ، وحول رحله وشق قميصه : يامعشر قريش اللطيمة اموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه لا أرى أن تدركوها، الغوث الغوث ، فتجهزوا جميعا وذهبوا اليه ، وحصلت الواقعة الشهيرة المسماة بغزوة بدر الكبرى، وفيها انتصر النّبي عليه الصلاة والسلام انتصارا باهر .

(١) خذله : ترك عونه ونصرته (٢) أحد : جبل بالمدينة . يشير الى ذنب ابن سلول رأس المنافقين ، وهو رجوعه من الجيش هو ومن معه من المنافقين ، وذلك أن النّبي عليه الصلاة والسلام لما خرج الى أحد ومعه ألف من أصحابه لقتال أعدائه ، وكان من رأى ابن سلول أن يمكث النّبي في المدينة ، فأبى عليه الصلاة والسلام قبول رأيه موافقا لمعظم الصحابة، فرجع هو ومن معه من المنافقين، وقال أطاعهم وعصاني (٣) تأخرت (٤) طائفة من اليهود يشير الى حادثة بنى قريظة ، وذلك أنه عليه الصلاة والسلام بعد رجوعه من غزوة الخندق قال : من كان سميعا مطيعا ، فليصل العصر في بنى قريظة، فبعض الصحابة أخذ بظاهر الحديث وصلى العصر هناك بعد مغيب الشمس، والبعض الآخر رأى أن المقصود الإسراع فصلى في الطريق ، ولمّا اختاف الفريقان في تعيين المصيب ، ترافعا الى الرسول فحكم بإصابتها وإذا تكون عبارته كناية فداحة التخلّف عن الذهاب (٥) الكذب ، يشير الى ذنب مسطح وحسان ومن معهما في مجاهرتهم بالسوء لزوجة عليه الصلاة والسلام : وذلك انه لما ذهب عليه الصلاة والسلام الى غزوة بنى المصطلق كانت معه السيدة عائشة ، حيث كانت قرعتها في العودة ذهبت السيدة لقضاء حاجتها ففاتها الركب ولم ينظر في هودجها فمر صفوان وكان قد تأخر لأمر ما ، فأركبها بعيره وقاده فأشاع هؤلاء ما أشاعوا فبرأها الله تعالى بالآيات البينات (٦) استكبرت ، يشير الى بعض الصحابة ، من حيث استكبروا على أسامة وذلك أن النّبي عليه الصلاة والسلام جهز جيشا ليذهب به الى الشام وقال له سر الى مقتل أبيك فتكلم قوم قالوا : أيّمر هذا الغلام على المهاجرين الأولين فغضب عليه الصلاة والسلام من ذلك وخرج في مرضه عاصبا وصعد المنبر وحمد الله واثنى عليه وقال ما معناه : ولئن طعنتم في أسامة فقد طعنتم في أبيه من قبل وانه لأهل لها فاستوصوا به خيرا .

عن إمارة أسامة . وزعمتُ أن خلافة أبي بكر كانت فلتة (١) ، ورويتُ رمحي من كتيبة (٢) خالد ، ومزقت (٣) الأديم (٤) الذي باركتُ يدُ الله عليه ، وَصَحَّيْتُ بِأَشْمَطِ (٥) عنوان السجود به . وبذلتُ لقطام (٦) ثلاثة آلافٍ وعبدُ وقينة (٧) ، وَضَرَبْتُ عَلَى بالحسام المصمم .

(١) أى من غير احكام ولا روية يشير الى ذنب الشيعة وهو اعتقادهم أن عليا هو الأحق بالخلافة ، ومن سواه غاصب ويقولون ما تقدم . وفى حديث عمر : « ان بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله شرها » فقيل : المراد بالفلتة الخلسة أى الامامة يوم السقيفة مالت الأنفس الى توليها وكثر فيها التشاجر فانزعها واختلسها أبو بكر اختلاسا ، ومثل هذه البيعة مهيجة للشتر والفتنة فعصم الله تعالى من ذلك ووقى (٢) جيش ، يشير الى ذنب أبو شجرة السلمى وهو فتكه بجيش خالد فى حرب الردة ويشير الى قوله فى ذلك :

ورويت رمحي من كتيبة خالد وانى لارجو بعدها ان امرا (٣) قطعت (٤) الجلد ، يشير الى ذنب أبى لؤلؤة وهو قتل عمر عليه الرضوان وذلك ان ابا لؤلؤ طلب منه أن يخفف عنه جعل سيده فقال له : انه ليس بكثير وانك لصانع مجيد ، وأريد أن تصنع لى رحي . فقال : سأصنع لك رحي يسمع دويها أهل المشرق والمغرب وكن له حتى طعنه فى صلاة الصبح ومات بسبب ذلك ويشير الى ذلك ما قاله بعضهم فى رثائه :

جزى الله خيرا من امام وباركت يد الله فى ذاك الأديم الممزق (٥) مختلط شعر الرأس : يشير الى ذنب بعضهم وهو قتل عثمان عليه الرضوان وذلك أنه وفد عليه وفود كثيرة من الجهات يشكون عماله فأرسلهم وأرسل محمد بن أبى بكر ليكون واليا على مصر فبينما هو ذاهب اذ رأى عبدا على هجين يستحثه فأحضره وفتشه فوجد معه كتابا من الخليفة الى عامل مصر يقول : اذا أتاك محمد ومن معه فتحيل فى قتلهم ، فرجع محمد وأعطى الجواب لعثمان فأقر بانه خط كاتبه وهذا ختمه وعبداه وهجينه وأنه لم يرسله ، فطنب منه احد أمرين : الاعتزال أو اعطاه كاتبه الحكم فأبى فحصلت الفتنة وحاصروه الى أن قتل ويشير الى ما قاله بعض نعاته :

ضحوا بأشْمَطِ عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحا وقرأنا (٦) اسم امرأة (٧) جارية : يشير بذلك الى ذنب ابن ملجم وهو قتل على كرم الله وجهه وذلك أن هذه المرأة أعجبت له لنضارتها فأراد أن يتزوجها فطلبت ما فى البيت فقال لها : لك ما طلبت وقال البيت وبعده : =

وكتبت إلى عمر بن سعد : أَن جَعَجَعَ (١) بالحسين ، وتمثلت عندما بلغني من وقعة الحرة (٢) :

ليت أشياخي ببدر شهدوا جَزَعَ الخزرج من وَقَع الأسَل
ورجمت (٣) الكعبة ، وصلبت العائذ (٤) على الثنية (٥) ، لكان فيما جرى
عَلَيَّ (٦) ما يحتمل أَن يكون نكالا (٧) ، ويدعى لو على المجاز عقاباً :
وحسبك من حادّثات بامرئ ترى حاسديه له رَاحِمِينَا

= فلا مهر أغلى من على وان غلا ولا فتك الا دون فتك ابن ملجم
(١) ضيق : يشير الى ذنب عبيد الله بن زياد وهو تحريضه على قتل الحسين ، وذلك انه أبى مبايعة يزيد وأراد الذهاب الى الكوفة من حيث أنهم طلبوا مبايعته فأخبر يزيد عامله هناك عبيد الله بن زياد بذلك فأرسل لقتاله عمر بن سعد ولما أبطأ جهز له « شمرا » وكتب عبيد الله له ما تقدم فانتشبت الحرب بينهما وانتهت باستشهاده رضى الله عنه .

(٢) أرض بظاهر المدينة كانت بها الوقعة بين عقبة بن مسالم وأهل المدينة يشير الى ذنب يزيد وهو تشفيه من أهل المدينة وذلك أنه أرسل عقبة بن مسلم الى محاربة أهل المدينة وابتاحتها ثلاثة أيام فقتل وأسرف وأباح . فلما بلغ يزيد ذلك قال بيت ابن الزبير المذكور مظهرا لما في الضمير المستتر وهو كراهة الأنصار والمهاجرين .

(٣) رميت بالحجارة (٤) المتأجىء (٥) طريق العقبة : يشير الى ذنب الحجاج وهو رجمه الكعبة وصلبه عبدالله بن الزبير وذلك أنه لما حاربه التجأ عبد الله وأصحابه الى الكعبة فنصب الحجاج المنجنيق عليها ورجمها وبعدما انتصر عليه صلبه منكسا وآلى أن لا ينزله الا اذا شفعت أمه فيه فبعد سنة مرت عليه أمه وقالت أما آن لهذا الفارس أن يترجل فاعتبر قولها شفاعا وأنزله ومن قولها لابنها يوم مقتله : يا بني لا تقبأ منهم خطة تخاف منها على نفسك الذل مخافة القتل فوالله لضربة بالسيف في عز ، خير من ضربة بالسوط في مدلة . فقال لها : انما أخاف المثلة . قالت : يا بني ان الشاة لا يضرها سلعها بعد ذبحها (٦) حصل لى (٧) عذابا يريد أنى لو أتيت بهذه الذنوب كلها كان ما حصل لى من التعذيب والاهانة والذل والاستكانة كافيا لتمحيص هذه الذنوب . كيف لا وقد صرت الى حالة يرثى لها العدو والحبیب والبعید والقريب ، وذلك أدل على طلب الرحمة وأحكم في الاستعطاف والبيت الذى ذكره للعتبى .

فكيف ولا ذنب إلا نعمة^(١) أهدها كاشح^(٢) ! ونبأ^(٣) جاء به فاسق وهم الهمازون^(٤) المشاؤون^(٥) بنميم ، والواشون^(٦) الذين لا يلبثون^(٧) أن يصدعوا^(٨) العصا ، والغواة^(٩) الذين لا يتركون أدياً^(١٠) صحيحاً ، والسعاة الذين ذكرهم الأحنف بن قيس فقال : « ما ظنك بقوم الصدق محمود إلا منهم ؟! » .

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة^(١١) وليس وراء الله للمرء مطلب

والله ما غششتك بعد النصيحة ولا انحرفت^(١٢) عنك بعد الصاغية^(١٣) إليك ولا نصبت^(١٤) لك بعد التشيع فيك ولا أزمعت^(١٥) ياساً منك ، مع ضمان تكفلت به الثقة عنك ، وعهد أخذه حسن الظن عليك ، فقيم عبت^(١٦) الجفاء بأذمتي^(١٧)

(١) نقل الكلام للافساد (٢) مضمحل العدواة « أهدها كاشح » كناية عن حسن سبك هذه النعمة وأنه معتنى بها كما يعتنى بالهدية للامير (٣) خير (٤) الغتابون (٥) النمامون (٦) الذين يزنون الحديث للافساد (٧) لبث بالمكان : أقام به (٨) يشقوا (٩) المضلون (١٠) الأديم : الجلد ، يريد سعى النمام وخبر الفاسق وتزيين الفواة والذين يشقون عصا الالفة ويمزقون أعراض الناس ويلمح في عبارته الى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » الآية ، والى قول كثير عزة :

ولا يابث الواشون أن يصدعوا العصا اذا هي لم يصاب على البرى عودها (١١) شبهة : يريد حلفت فلم أترك شبهة في نفسك من براءتي وليس بعد الله يصدق القسم به حتى أقسم به وأذهب اليه . والبيت للنابغة الذبياني من اعتذارياته للنعمان .

(١٢) ملت (١٣) الاصفاء (١٤) الناصبي في العرف من كان عدوا لعلي كرم الله وجهه وهو ضد الشيعي (١٥) خفت ، يقول أقسم بالله أنني مقيم على النصيح لك ثابت على الميل اليك ولم اتخذ مذهب الناصبية مذهباً ولم يستغفرني اليأس منك وتلعب بي أيدي الأهواء فان ثقتي بك وحسن ظني فيك قد ضمنا لي أن أطرد اليأس بالرجاء في عفوك ، وهذا الكلام من الاستقصاء البديعي بمكان فانه استوفى جميع عوارض المحبة بحيث لم يبق لقائل قول (لو) ولا (ليت) استجلاباً للرحمة وطالبا للعفو . (١٦) لعب وهزل . (١٧) حرمتي .

وعاثة (١) العقوق (٢) في مواتي (٣) ، وتمكن الضياع (٤) من وسائل (٥) ؟ ولم ضاقت مذاهي (٦) . وأكذت (٧) مطالي ؟ وعلام رضيت من المركب (٨) بالتعليق (٩) ؟ بل من الغنيمة بالإياب (١٠) ؟ وأنى غلبني الغلب (١١) ، وفجر (١٢) على العاجز الضعيف ولطمتني (١٣) غير ذات سوار ؟ ومالك لم تمنع من قبل أن أفترس ؟ وتدركني ولما أمزق (١٤) ؟ ! أم كيف لا تضطرم (١٥) جوانح (١٦) الأكفاء (١٧) حسدا لي على الخصوص لك ؟ وتنقطع أنفـس (١٨) النظراء (١٩) منافسة (٢٠) لي على الكرامة فيك

(١) أفسد . (٢) ضد البر . (٣) وسائل . (٤) الهلاك . (٥) ما اتقرب به . (٦) طرقي . (٧) ردت . (٨) الركوب . (٩) المراد تعليق الأمتعة . (١٠) الإياب : الرجوع . (١١) الغلب : المغلوب مرارا (١٢) فجر : اجترا . (١٣) ضربتني على وجهي براحتها (١٤) اقطع ، يستفهم عن سبب افساد الجفاء والعقوق لما قدمه من وسائل للرضا حتى ضاقت عليه المذاهب وامتنعت عليه المطالب وحتى رضى من عظيم الأمر بصغيره ومن الغنيمة بالرجوع سالما واجترا عليه كل ضعيف وغلبه من كان له غلابة وظلمه من لم يكن له كفؤا . وقد ضمن عبارته من الأمثال ما هو كالسحر الحلال (أولها) ارض من المركب بالتعليق يضرب في القناعة بادرآك بعض الحاجة (وثانيها) رضيت من الغنيمة بالإياب يضرب في القناعة بالسلامة وهو مأخوذ من قول امرئ القيس :

لقد طوفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب
وثالثها ورابعها مأخوذان من قوله :

فانك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغاب
وقد صحفه ابن زيدون وهو تصحيف حسن وخامسها (لو ذات سوار لطمتني) قاله حاتم حينما لطمته جارية وكانت العادة لبس السوار للحرّة - والثلاثة تضرب عند العجز والدلة - ويشير الى قوله المنقب العبدى :

فان كنت مأكولا فكـن خير آكل والا فأدركني ولما أمزق
وفي هذا الاستفهام تحضيض له على انجاده وسرعة انقاذه .

(١٥) تتقد . (١٦) أضلاع . (١٧) الأمثال .

(١٨) جمع نفس . (١٩) جمع نظير . (٢٠) رغبة شديدة .

وقد زاننى اسم خدمتك ، وزهاني (١) وسم (٢) نعتك ، وأبليت (٣) البلاء الجميل
 في سباطك (٤) ، وقمت المقام المحمود على بساطك ؟ !
 ألسمت الموالي (٥) فيك غر قصائد هي الأنجم اقتادت مع الليل أنجما (٨)
 ثناء يظل الروض منه منوراً ضحى ويخال الوشى (٦) فيه منمنما (٧)
 وهل ليس الصباح إلّا برداً (٨) طرّزته (٩) بفضائلك ، وتقلدت (١٠) الجوزاء (١١)
 إلّا عقداً فصلته (١٢) بما ترك ، واستملى (١٣) الربيع إلّا ثناءً أملتته في محاسنك ،
 وبث (١٤) المسك إلّا حديثاً أذعته (١٥) في محامدك ؟ (ما يوم حليلة بسر)
 وإن كنت لم أكسك سليماً (١٦) ! ولا حليتك عطلاً ! ولا وسمتك غفلاً (١٧)
 بل وجدت آجراً (١٨) وجصاً (١٩) فبنيت ، ومكان القول ذا سعة فقلت :

(١) الزهو : الكبر (٢) علامة (٣) جربت

(٤) السمط : الصف من الناس (٥) المتابع

(٦) ضرب من الحرير ذو ألوان (٧) ثوب موشى بألوان فيها البياض -
 لقد أتى ابن زيدون من كلام السحر وسحر الكلام بما يكبو دونه قلم البليغ
 - وذلك من الاعتراف لسعيده بأنه قد أوقد النار في قلوب الحساد والنظراء
 بتعهده له بالانعام بالصلة حتى انطلق لسانه فيه بالمدائح التي طلعت من
 الليل أنجما والثناء الذي زهرت به الرياض ووشيت به حلل الفضل
 والبيتان من قصيدة للبحترى يعاتب بها الفتى بن خاقان (٨) رداء
 (٩) علمته (١٠) لبست (١١) برج (١٢) تفصيل العقد : جعل خرزة بين
 كل لؤلؤتين (١٣) طلب الاملاء (١٤) نشر (١٥) أشعته : والمعنى
 أن فضائلك التي نشرتها في مدائحك ظهرت للعين ظهور الصباح حتى انه لا
 يضيء الا بسببها : وأن عقد الجوزاء لم ينشرها فيه الا لكونه استملى من الثناء
 المملوء بمحاسنك . ثم أثبت أن ما تقدم حقائق ثابتة بقوله «ما يوم حليلة بسر»
 وهو مثل عربى يضرب في فشو الأمر وانتشاره (١٦) مساويا (١٧) عادم
 العلامة (١٨) الطين المحرق (١٩) الجير : أراد دفع ما يتوهم من
 أنه يتفضل عليه باذاعة المحاسن ونشر المدائح وانه اخترع له هذه السجايا
 والخلال حيث يقول له : انى لم امدحك الا بما هو فيك من خصائص الخصال
 وجميل الخلال وانما أنا صغتها في القلب الذى يلفت الأنظار ويجلى صدا
 الأفكار .

حاشا (١) لك أن أعدّ من العاملة الناصبة (٢) ، وأكون كالذبالة (٣) المنصوبة ،
تضئ للناس وهي تحترق ، فلك المثل الأعلى (٤) ، وهو بك وبى فيك أولى ،
ولعمرك (٥) ما جهلت أن (صريح الرأي (٦) أن أتحوّل إذا بلغت الشمس
و (نبأ بى المنزل (٧) وأصفح (٨) عن المطامع التى تقطع أعناق الرجال فلا
(أستوطى العجز (٩) ولا أطمئن (١٠) إلى الغرور (١١) ، ومن الأمثال
المضروبة : خامرى (١٢) أم عامر (١٣) .

(١) تنزيها لك (٢) من النصب : وهو التعب (٣) الفتيلة (٤) الصفة
العليا - بعد أن عمل جهد المستطيع فى الثناء عليه أراد أن يستميله باطف
ليجعل لعمله فائدة ونتيجة فنزّهه عن أن يجعل مثله معه كمثل الكفار حيث
عملوا وتعنوا فى الدنيا فيما لم يعدد عليهم منه فائدة فى الأخرى ، ويشير
الى قوله تعالى : (وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة ، تصلى نارا حامية)
الآية والى قول العباس بن الأحنف :

صرت كائى ذبالة نصبت تضئ للناس وهي تحترق

وبالغ فى التلطف بقوله : فلك المثل الأعلى والصفة العليا من التجاوز والصفح
وانت أولى من صفح عن زلة المسئء ، وأنا أولى من ادخرت مودته بالصفح عنه
وما أحسن قوله وهو بك الخ . كأنه يقول هو بك أولى وهو بى كذلك
إذا كان فىك فكلا الحالين مخصوص بك وما أطف ما ينسب الى الامام
الشافعى رضى الله تعالى عنه فى الامام أحمد بن حنبل :

قالوا يزورك أحمد وتزوره قلت الفضائل لا تفارق منزله

أن زرتة فلفضله أو زارنى فأفضله فالفضل فى الحالين له

(٥) حياك (٦) شديدة (٧) نبأ بى المنزل : لم يوافقنى (٨) أعرض
(٩) استوطىء العجز : أجده لينا سهلا (١٠) أميل (١١) ما يفتر به من
متاع الدنيا (١٢) اشترى (١٣) كنية الضبع ، يقسم بحياة سيده أنه
جهل أن سديد رأى وجوب التحول عن مقام الإهانة متى شعر بلحاقها به
كما أنه لم يجهل أن الطمع مورد الهلكة وذريعة الخذلان ومقطع اعناق الرجال
وأنه كان عليه أن يرحل ولا يستسهل العجز ولا يميل الى الغرور ولكن خابت
آماله وانعكست أحواله فكان الفرور نصيبه والأمل قائده فاعتر كما اغتر
الضبع بقول القائل خامرى أم عامر . يشير الى قول أبى تمام : =

وإني مع المعرفة أَنَّ الجلاء (١) سبباً (٢) والنقلة (٣) مثله (٤) :

ومن يغترب عن قومه لم يزل يرى مصارعَ مظلوم مجرأً ومحسباً
وتُدفن منه الصالحاتُ وإن يسيُ يكن ما أساء النار في رأس كبكبا (٥)
عارفٌ أَنَّ الأدب الوطنُ لا يُخشى فراقه ، والخليط (٦) لا يتوقع زياله (٧)
والنسيب (٨) لا يخفى ، والجمان لا يُجفى (٩) .

ثم ما قران (١٠) السعد بالكواكب أبهى أثراً ، ولا أثنى خطراً (١١) من اقتران
غنى النفس به ، وانتظامها نسقاً (١٢) معه ، فإن الحائز (١٣) لهما الضارب
بِسهم فيهما - وقليلٌ ما هم (١٩) - أيما توجه ، وردَ منهل (١٥) بر ، وخط. في
جناب (١٦) قبول ، وضوحك قبل إنزال رحله ، وأعطى حكم الصبي على أهله

= وان صريح الراى والحزم بامرىء اذا بلغت الشمس أن يتحولا
والى المثل العربى « العجز وطىء » يضرب لمن استلان فراش العجز
وقعد عن طاب المكاسب وقوله خامرى الخ مثل يضرب لمن عرف الدنيا
وتقلباتها ثم يميل اليها ويفتر بها .

(١) الخروج عن الوطن (٢) أسر (٣) الانتقال (٤) تنكيل (٥) جبل
(٦) المخالط (٧) مفارقتة (٨) ذو النسب (٩) لا يهجر : بعد أن بين
لسيده انه لا يجهل أن الصواب التحول أراد أن يبين له انه يعرف أيضاً أن
الانتقال فيه التمثيل والنكال وأن الغربة كربة والنوى توى وأن حسنات
الغريب مهجورة وسيئاته منشوره فقال انى مع معرفتى بأن خروجى من
وطنى قسر لى ودفن لمحاسنى وانتقالى منه الى غيره مع عدم معرفة أهل
هذه الجهات بما انا متحل به من العلوم والاداب والكمالات تنكيل بمحاسنى
وتضييع لبهجة كمالاتى فيجهل قدرى وتهضم حقوقى وتدفن منى الصالحات
وتشاع على قلتها السيئات غير انى لأعد ذلك البناء هو الوطن الحقيقى بل
وطنى الذى أعول عليه انما هو ملازم لى اينما حللت وارتحللت لاخشى فراقه
وهو سميرى الملازم لى فلا أتوقع غياباً به وان النسيب اينما حل فهو معروف
واينما وجد فهو مألوف وحيث هو كذلك فلا يخشى من الانتقال بأساً ولا من
التحول ضيماً - والبيتان اللعشى ، والنقلة مثله - مثل مـولد
(١٠) مصاحبة (١١) قدرا (١٢) النسق من الكلام وغيره ماجاء على نظام واحد
(١٣) الجامع (١٤) قليل ما هم . يريد بذلك التعريض لسيده بأنه لا
نظير له فى أخلاقه وآدابه (١٥) عين (١٦) ناحية . بعد أن بين أن الادب
كبير النفع عظيم الفائدة حتى جعله وطناً فى الغربة وفرجة عند الكربة بين =

وقيلَ له أهلاً وسهلاً ومرحباً فهذا مَبِيتٌ صالح ومقبل
غير أن الوطنَ محبوبٌ ، والمنشأُ مألوفٌ . واللبيبُ يحزنُ إلى وطنه ،
حنين النجيب (١) إلى عَظَنِهِ (٢) . والكريمُ لا يجفو أرضاً بها قوابله (٣) ،
ولا ينسى بلداً فيها مراضعُه - قال الأول :

أحبُّ بلادَ الله ما بينَ منْعَجٍ (٤) إلىَّ وسلمى أن يصوبَ سحابها
بلاد بها حل الشباب تئامى (٥) وأول أرض مسَّ جلدى ترابها

= أنه يكون أكبر نفعاً وأعظم جدى اذا صاحبه غنى النفس فان المتحلى
بجلاهما القابض على زمامهما أينما يمم فالسعد قرينه والناس أهله
يقبلون عليه من كل جانب ويعظمونه كل التعظيم لاول وهلة أين جرى نظره
يعطونه حكم الصبى على أهله يفعل ما يريد كالسيد بالعبيد ويقولون له لقيت
أهلاً ونزلت مكاناً سهلاً واسعاً رحباً فأنس ولا تستوحش وكن كما تحب
وتختار فأنت رب الدار . وقوله ماقران السعد الخ أخذه من قول
البيستى :

وأتم الأشياء نورا وحسناً بكر شكر زفت الى صهرير
ماقران السعد بالحوت أبهى منظراً من قران بر وشكر
وقوله أعطى حكم الصبى الخ : عبارة كانت تقولها العرب فى مدح من نزلوا
عنده وأكرمهم وأصل البيت المذكور : فقلت له أهلاً وسهلاً ومرحباً فهذا
البيت صالح وصديق .

(١) النجيب من الابل الفحل الكريم (٢) مبرك الابل حول الماء (٣) جمع
قابلة وهى من تتلقى المولود عند خروجه (٤) اسم مكان (٥) تيممة وهو
ما يعلق للطفل حفظاً له ، بعد أن بين له أن سديد الرأى الانتقال وانه لا يخاف
عاقبة ذلك لأدبه وغنى نفسه أراد أن يبين له السبب الحامل على المكث
فقال ان الوطن محبوب والمنشأ مألوف

ما من غريب وان أبدى تجلده الا سيذكر عند الغربة الوطناً
ولا غرو فهو أول أرض وجد بها وأول تربة تضمخ به جسده وأول بقعة
نما فيها فكره وأول جهة قضى فيها الشباب مآربه مع اخوان وأحباب
وخلان وأتراب - فاذا تذكر هذه الجهات تخيل له رغد العيش وحسن الحال
ورأى أغصان شبابه تמיד على تلك الاوطان وتتمايل مع النسيم تمايل لابلان
فيحن اليها حنين الغريب الى وطنه . وانه ليس من كرم الاصل وشرف =

هذا إلى مغالاتى (١) بعقد جوارك ، ومُنافستى (٢) بلحظة من قربك واعتقادى الطمع فى غيرك طبع (٣) والغنى من سواك عناء . والبدل منك أعور ، والعوض لغاء (٤) . وكل الصيد فى جوفِ الفرا (٥) .

وإذا نظرتُ إلى أميرى زادنى ضنا به نظرى إلى الأمراء
وفى كل شجر نار ، واستحمد (المرح والعقار) (٦) ، فما هذه البراءة ممن

= المحتد أن يهجر الانسان قوابله ومراضعه لما لهن عليه من الخير العميم والفضل الجسيم فى أثناء الصغر فالواجب عليه أن يصلهن فى ابان الكبرحتى يجنين ثمرات أتعا بهن ويسرن بحسن معاملته لهن والبيتان لبعض الاعراب .
(١) مجاوزتى الحد (٢) رغبتى فيك على وجه المبادرة (٣) دسر (٤) خسيس (٥) حمار الوحش (٦) نوعان من الشجر سريعا الورى .
واستحمد : استفضل وقيل اقتدح على الهوينا - بعد أن بين محبة الوطن والفة المنشأ ، وسبب ذلك الطبيعى : أراد أن يبين للأمير أن ذلك ليس هو السبب الوحيد الحامل على المكث بل انضم اليه ما هو أشد منه تأثيرا وأعظم خطرا ألا وهو شدة محبته لجوارك وحظوتى بقربك ، وأنت أكرم من حفظ للجوار حرمة ، وأوضح محبته . واعتقادى بأن الطمأنينة الى غيرك غرور والثقة بخلافك خذلان وعدم رضائى بسواك بدلا ولا بغيرك عوضا وكيف استبدل السمين بالغث والراحة بالتعب أم كيف أنظر الى غيرك من الأمراء ، وغيرك فيك :

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد
نعم وان اشتركوا معك فى القلب الا أنهم لم يشتركوا معك فى كمال الأدب
وفى كل شجر نار واستحمد المرح والعقار وفى ذلك من استمالة القلب ما يدهش الأب وقد جمعت هذه العبارة من الأمثال ما يذرى باللال - فأولها « رب طبع يجر الى طمع » وثالثها « كل الصيد فى جوب الفرا » وهو يضرب لمن يفضل نفسه على أقرانه وثانيها « البدل منك أعور » يضرب لكل ما لا يرتضى به ، وأصله أن يزيد بن المهلب لما صرف عن خراسان بقتيبة بن مسلم الباهلى وكان شحيحا أعور قال الناس هذا بدل أعور - ورابعها « رضى من الوفاء باللقاء » يضرب لمن يرضى بالقليل من الكثير - خامسها « وفى كل شجر نار واستحمد المرح والعقار » يضرب فى تفضيل بعض المشتركين فى صفة على بعض .

يتولاك (١) ؟ والميلُ عمن لا ميلُ عنك ؟ ! - وهلاً (٢) كان هواك (٣) فيمن
هواه فيك ؟ ورضاك فيمن رضاه لك ؟ !

يامن يعز علينا أن نفارقهم وجداننا كل شئ بعدكم عدم
أعيزك ونفسي من أن أشيم (٤) خلّبا (٥) ، وأستمطر جهاماً (٦) ، وأكّدم (٧)
في غير مكدم ، وأشكو شكوى الجريح إلى الغربان والرخم (٨) فما أبسست (٩)
لك إلا لتدّر ، ولا حركت لك الحوار (١٠) إلا لتحن ، ولا نبهتك إلا لأنام
ولا سرّيت إلا لأحمد السرى (١١) لديك .

(١) مضارع تولاه صار وليه (٢) كلمة تحضيض (٣) ميل النفس :
بعد أن بين له أنه لا يرضى سواه وأنه يفضل جواره على ماعداه وهو مع
ذلك يعرض عنه ولا يميل إليه رجوع ينكر عليه ذلك بطريق الاستفهام كما
هو الأدب من حيث يقول كيف تتبرا منى وأنا أواليك وتميل عني وتهجرني
وأنا لا أميل إلا اليك وهلا هويت من يهواك ورضيت من يرضاك والبيت
المتنبى (٤) شام البرق : نظر إلى سحابته أين تمطر (٥) البرق الذي
لا يعقبه مطر . (٦) السحاب الذي لا ماء فيه . (٧) أعض (٨) طائر
ضعيف (٩) الإساس : الرفق (١٠) ولد الناقة (١١) السير ليلا -
يطلب منه أن يجعل لأعماله نتيجة يجنى ثمرتها وأن يكون سيده غارس
دوحتها وأن لا يجعله كالسيح الماء من الصخر ، والمستجير عند كربته بعمره
والمستمطر الجهام والناظر الى البرق الخلب بل يرسل عليه عطفه مدرارا ،
وأن يصل رحم الجوار بعد القطيعة ويقر عينها أرضها سهاد الجفوة وأن
يحمد اليه سراه ويحسن عقباه ، ولقد رضع عبارته بجواهر الامثال
وصاغها في قالب غريب المثل ، يشير فيها الى قولة معد يكره :

لا تهنى عادة اكرامك لى فشيّد عادة منتزع
لا يكن برقك برقاً خاباً ان خير البرق ما الفيث معه
والى المثل العربى « كدمت فى غير مكدم » يضرب لمن يطلب شيئاً من غير
أهله ، والى قوله المتنبى :

ولا تشكو الى خلق فتشمتهم شكوى الجريح الى العقبان والرخم
والى الامثال العربية : « الإساس قبل الإيناس » وهو يضرب فى الرفق =

وإنك إن سَنيت (١) عقد امرى تيسر ، ومتى أَعذرت (٢) فى فك أسرى لم يتعذر ، وعلمك محيط . بأن المعروف ثمرة النعمة ، والشفاة زكاة المروءة .
وفَضِّلَ الجاه (٣) يعوذُ به صدقه .

وإذا امرؤُ أهْدَى إليك صنيعَةً من جاهه فكأنها من ماله
لعلى ألقى العصا بذاك (٤) وتستقرُّ بى النوى (٥) فى ظلك ، وأستأنف (٦)
التأدب بأدبك ، والاحتمال على مذهبك ، فلا أوجدُ للحاسد مجال (٧) لحظه (٨)
ولا أدعُ للقادح (٩) مساعً (١٠) لفظه .

= «حرك لها حوارها تحن» وهو يضرب فى استنهاض الهمة ، و«لها عمرائم
نم» يضرب فيمن يعتمد على غيره ، و«عند الصباح يحمد القوم السرى»
وهو يضرب عند حمد العاقبة .

(١) سهلت . (٢) بالقت فى طاب العذر (٣) المنزل - يقول لسيده :
انى ما كلفتك أيها السيد بارتكاب متون الأهوال ولا بمعاناة الأحوال ولا بعد
نجوم السماء ولا رمال الدهناء ، وانما هو أمر يكبر فى عين سائله ويصغر عند
باذله وهو فى يدك وقبضتك وأنت قادر عليه وان سهلت عسيره سهل وان
التمست المعذرة انتقت الصعوبة ، وأنت تعلم - زادك الله علما - أن النعمة
شجرة ثمرها المعروف وان المروءة مال زكاتها الشفاة وشفاة اللسان
أفضل زكاة الانسان وبذل الجاه رقد المستعين - وأيد ذلك بالبيت بعده
وقوله أن سنيت مأخوذ من قول بشار :

فبأنه ثق ان عز ما تبتغى وقل اذا الله سنى عقد امر تيسرا

(٤) كل ما استترت به . (٥) ماينويه المسافر من قرب أو بعد

(٦) ابتدى . (٧) جال : طاف . (٨) نظره . (٩) الطاعن .

(١٠) ساغ الشراب : سهل مدخله فى الحلق - يقول أرجو من سيدي أن
يعفو عن ذنبى وتقصيرى ويأبى ندائى ، هذا كى أسكن فى ظك وكتفك ولا
أذهب الى غيرك وتكون غاية آمالى ومنتهى أسفارى وأتوب عما كنت مرتكبه
ومتمسكا به مما لا يرضيك وأنخلق بأخلاقك واتمسك بطريقتك وأحذو
حذوك وتبع مذهبك وبذلك لايجد عدوى فى مدار لحظه ولا الطاعن ما يسوغ
من لفظه . وقوله لعلى ألقى الخ حل بيت للمعز بن أوس وهو :

والقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالاياب المسافر

والله مُسْرِك من إطلابي (١) بهذه الطُّلبة (٢) وإشكائي (٣) من هذه الشكوى ،
بصنيعة تُصيب منها مكان المصنع ، وتستودعها أحفظ. مُستودع حسباً أنت
خليق (٤) له ، وأنا منك حريٌّ (٥) به ، وذلك بيده وهين عليه .

مكاتبات متفرقة

كتب رئيس الجمهورية التركية إلى إحدى الدول الأوربية :
أيها الوزير الأفخم - إن لفظة تقسيم (تركيا) إفكٌ لا يفوه به عاقل ،
ولا يتصوره إنسان ، تكاد تنفطر له السماء دهشة ، وترتج له الأرض وحشة ،
بل تحرُّ دونه الجبال ، وتنفك عنده الآمال ، كأن أوروبا تستطيعه ، ولكنها
لم تفعله ولن تفعله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، ف«قل اللهم مالك
الملك ، تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعزُّ من تشاء ، وتذلُّ
من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير» .

تقسيم تركيا : كلمة ليست أكبر من أوروبا فقط . بل هي أكبر من
منظومة هذا العالم الشمسي ، الذي تراه ، أو تسمع به ، إن كنت لا تراه ،
فلا يليق أن يفوه به إلا فم القدرة الإلهية «القائم ع كل نفس بما كسبت
والله غالبٌ على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون» .

تقسيم تركيا : ربما يكون ، ولكن متى يكون ؟ حينما يتحلى وجه البسيطة
بدمائنا الطاهرة الزكية ، يوم ترى الأرض لابسة تلك الحلة الأرجوانية الثمينة
حيث تتمشى الدماء على فيروزج الفضاء ، محاطة كواكب الوجود بكتائب جنود

(١) اسعافي (٢) ما أطلبه (٣) ازاء ما أشكوه . (٤) جدير .
(٥) حقيق : يقول لسيدته والحمد لله الذي سهل لك مطلبى واسعافي وإزالة
ما أشكوه من آلام السجن بمعروف تبذله لأهله وتحفظه عند أمين لوقته
حسبما يقتضيه كرم أخلاقك وجميل صفتك وأنا أحق الناس به لمودتي لك
وأخلاصي في ولائك وما ذلك عليك بعزير :

أن الصنيعة لا تكون صنيعة حتى تصيب بها مكان المصنع

العدم المطلق : لا أرض لمن تُقِلُّ ، ولا سماء لمن تُظِلُّ ، ولا قائم موجود ، ولا دائم مقصود - هنالك تتحدث شياطين الخيال في أندية المحال بحديث ذلك التقسيم المشئوم ، ولا من سميع ، ولا من مجيب ؛ فالويل ثم الويل يوم ذلك التقسيم الموهوم ، والثُّبُور إذا تنزلت السماء بقضاء ذلك الهول المقسوم « إن في ذلك لبلاغاً لقومٍ يتفكرون » .

وكتب ابن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ هـ في شكر صديق له على مراسلته إياه :

وصل ما وصلتنى به (١) - جعلنى الله فداك (٢) - من كتابك ، بل نعمتك التامة ، ومنتك العامة (٣) فقرت عيني بوروده (٤) ، وشفيت نفسى بوفوده (٥) ، ونشرته فحكى نسيم الرياض غب المطر (٦) ، وتنفس الأنوار فى السحر (٧) ، وتأملت مفتحة وما اشتمل عليه من لطائف كلمك ، وبدائع حكمك (٨) ؛ فوجدته قد تحمل من فنون البر عنك (٩) ، وضروب الفضل منك (١٠) جداً وهزلاً (١١) ماملاً عيني ، وغمر قلبي (١٢) ، وغلب فكرى ، وبهر لُبى (١٣) ، فبقيت لا أدري ! أَسْمُوطٌ دُرٌّ خصصتنى بها (١٤) ؟ أم عقود جوهر منحتنيها (١٥) ؟ ولا أدري : أجذك أبلغ وألطف ؟ أم هزلك أرفع وأظرف ؟ وأنا أوكّل بتتبع ما انطوى عليه نفساً لا ترى

(١) ورد الى كتابك الذى ربطتنى به معك (٢) فداك : أى وضعنى الله مكانك فى كل مكروه حتى تخلص منه (٣) أى الذى ورد الى هو خطابك الذى أعده بمنزلة نعمتك العمومية وجميلك الشامل . (٤) فاطمأن قلبى بوصوله الى (٥) وطابت نفسى بمجيئه الى (٦) ونشرته أى فتحته فحكى نسيم الرياض غب المطر ، أى يشبه الريح التى تهب من البساتين بعد ما نزل المطر عليها . (٧) وأشبه تفتح الأزهار فى أواخر الليل . (٨) أى وتدبرت فى صدره رقى الكلمات الطيفة التى أودعتها فيه والحكم البديعة التى نثرتها فيه . (٩ و ١٠) أى شأدت منه أنواعاً من الأكرام أثبتتها فيه ، وأصنافاً من الأفضال دونتها فيه . (١١) من الأمور الهامة الجديدة والأمور المفرحة المازحة . (١٢) ملاً عيني : يعنى صرفها عن النظر الى غير احسانك - وغمر قلبى أى : لم يدع له منصرفاً الى غير أفضالك . (١٣) وغلب فى فكرى أى : استحوذ على عقلى ، وبهرنى أى راع عقلى وسبأه (١٤) أى عقود در قصرتها على (١٥) ومنحتنيها أى أعطيتها .

إلا ما اقتنيته منه (١) ، ولا تعدّ الفضل إلا فيما أخذته عنه ، وأمتع بتأمله عينا لا تقر إلا بمثله ، مما يصدر عن يدك ، ويرد من عندك ، وأعطيه نظراً لا يمله ، وطرفاً لا يطرف دونه (٢) ، وأجعله مثالا أرسمه وأحتذيه (٣) ، وأمتع خلق برونقه ، وأغذى نفسى ببهجته ، وأمزج قريحتي بقرته ، وأشرح صدرى بقراءته ، ولئن كنت عن تحصيل ما قلته عاجزاً ، وفى تعديد ما ذكرته متخلفاً ، لقد عرفت أنه ما سمعت به من السحر الحلال .

ومن كتاب للمرحوم السيد توفيق البكرى فى سفرته إلى الآستانة العلية :
 كتابى إلى السيد الأجل ، وأنا أحمد الله إليه ، وأدعوه أن يديم النعمة والسلامة عليه . وبعد : فلما اعتزمت على الرحلة هذا العام ، إلى قبة السلام ، ودار خلافة الإسلام ، وفارقت مصر ، وساكنها ، وأرباضها (٤) ، ومواطنها ، ركبت سفينة عدوئية (٥) إلى الثغور الفرنجية ، فجرت فى خضم (٦) عجاج ، ملتطم الأمواج ، له دوى من جرجرة (٧) الآذى (٨) أخضر الجلد ، كأنه إفرنند (٩) تصخب (١٠) فيه النينان (١١) ، وتجرى فى جوفه الدعاميص (١٢) والحيتان ، إذا مازجه الأصيل (١٣) بالعشى خلته كسرت (١٤) عليه الحلى ، أو مزج بالريحق (١٥) القطر بلى (١٦) ، وإن لاحت به نجوم السماء ، خلته صفائح من فضة بيضاء سمرت بمسامير صغار نضار (١٧) . وأخذت السفينة تشق عبابه (١٨) ، وتفلق حبابه (١٩) بين ريح رخاء (٢٠) ، أو زرع (٢١) هوجاء (٢٢) ، فهى تارة فى طريق معبد (٢٣) ،

(١) اكتسبه . (٢) الطرف العين ، يطرف : يطبق جفنا على الآخر .
 (٣) أرسمه فى فكرى وأقتدى به . (٤) مساكنها . (٥) نسبة الى قرية عدولى بالبحرين أو نسبة الى صانعها ، والمقصود أنها أضخم سفينة
 (٦) البحر (٧) الصوت (٨) الموج (٩) جوهر السيف (١٠) تختلط أصواتها (١١) جمع نون وهو الحوت (١٢) جمع دعموص دودة لها رأسان ترى فى الماء اذا قل (١٣) الوقت بعد العصر حتى تغرب الشمس (١٤) رددت ووضعت (١٥) الخمر (١٦) بضم القاف وسكون الطاء وضم الراء وتشديد اللام الخمر المنسوب الى قطربل قرية بين بغداد وعكبرا مشهورة بالخمر الجيدة (١٧) الذهب (١٨) الموج (١٩) بفتح الحاء ما يعلو (٢٠) بضم الراء الريح اليبنة (٢١) بفتح الزاءين الريح الشديدة (٢٢) بفتح الهاء الريح القوية تقلع الأشجار والبيوت (٢٣) مدلل ومسهل

ورميث (١) مُسَرَّد (٢) ، وطوراً فوق حَزَن (٣) وقرَدَد (٤) ، أو على صرح (٥) مُمَرَّد (٦) ، وكان معنا في الفلك ، رهط. من العرب والترك ، فكنا نتوارد معهم في جوائب (٧) الأخبار ، وطُرف (٨) الأحاديث والأسمار (٩) ، ما يُزرى (١٠) بالمنهل العذب ، واللؤلؤ الرطب ، إلى أن يميل ميزان النهار ، وتغرق ذُكَاة (١١) في البحار ، ويُسمى الكون من السواد في لبوس حديد (١٢) أو لباس حداد ، وتبرق نجوم السماء في أكفاف الظلماء ، كأنها سِكاك (١٣) دِلاص (١٤) ، أو فلق رصاص ، أو عيون جراد ، أو جمر في خلال رماد ، أو دُرٌّ في بحر أو ثُقب في قبة الديجور (١٥) ، يلوح منها النور ، ويبدو الهلال كأنه خنجر من ضياء ، يَشُقُّ طيالس الظلماء ، أو قلادة أو دِمْلُج (١٦) غادة (١٧) ، أو سنان (١٨) لواه الضراب ، أو الليل فيل وهو ناب ، فنأخذ مجلساً نسمة (١٩) الكافور ، وأرضه عنبر مذرور (٢٠) رُفِمت فيه زرابي مبثوثات (٢١) ، ومنابد (٢٢) ، وحُسبانات (٢٣) ، وأنماط (٢٤) ممروشة ، وبُسط. منقوشة :

بُسط. أجادَ الرسم صانعها وزها عليه النقش والشكل

فيكاد يُقَطَفُ من أزهارها ويكاد يسقط. فوقها النحل

وحوله شموع تزهو ، وأضواء تبهر (٢٥) ، وقد دارت عليه سُقاة (٢٦) ،

-
- (١) الأرض السهلة . (٢) منتظم لا صعوبة فيه . (٣) الأرض الصعبة . (٤) الأرض المرتفعة الغليظة . (٥) القصر . (٦) مرد البناء : ملسه حتى صار ناعماً . (٧) الأخبار الطائفة (٨) المحاسن . (٩) الأحاديث وأصله لأحاديث الأبل (١٠) يعيب ويحق (١١) بضم الدال ممنوعة من الصرف اسم الشمس (١٢) بفتح اللام الدرع (١٣) جمع سك المسمار (١٤) بكسر الدال الذي يبرق ويلامع (١٥) الظلام (١٦) بكسر الدال وزن درهم أو بضمها مع ضم اللام : حلى للنساء يابسه في أيديهن (١٧) المرأة الناعمة لينة الأعطاف (١٨) حديدة الرمح (١٩) نسيمه (٢٠) منشور (٢١) منشورات (٢٢) جمع منبذة وزن مكنسة الوسادة التي يتكأ أو ينام عليها (٢٣) جمع حسابانة الوسادة الصغيرة التي يتكأ عليها أيضاً (٢٤) جمع نمط ، ثوب من صوف يطرح على الهودج ذو لون بن الألوان . (٢٥) تزهو وتبهر كلاهما بمعنى تضيء وبأبهما منع . (٢٦) جمع ساق .

كجُمَاع (١) الثريا (٢) ، بأقْداح الحُمَيَّا (٣) ، وأكواب (٤) الفانيذ (٥) ، المروِّق ، وقوارير (٦) الجلاب (٧) المصْفَق (٨) ، ثم تجيُّ قَيْنَةُ (٩) في يدها ناي ، كأنه صور إسرائيل ، يُحيي الرفات (١٠) ، وَيَنْشُرُ (١١) الأموات ، حتى إذا بدا الضياءُ ، كابتسام الشَّفة اللمياء ، دخلنا المضجَع لهجع ، وهَلُمَّ جراً (١٢) ، في أيامنا الأخرى .

وكتبت السيدة وردة اليازجية إلى السيدة عائشة تيمور المتوفاة سنة ١٣٠٠ هـ :

سيدتي ومولاتي - أعرض أنني بينما أنا ألهج بذكر ألطافكم السنية ، وأننسم شذا أنفاسكم العبقريّة ، وأتقرب لقاء أثر من لذنكم يتعلل به الخاطر ، ويكتحل بإثمد مداده الناظر .

وصلتني مكاتبتكم ، فجَلَّتْ عن العين أقْداءها ، وردت إلى النفس صفاءها ، فتناولتها بالقلب لابلانان وتصفحت ما في طيها من السحر البيان ، فقلت : هذا الكتاب الذي هام الفؤاد به يا ليتني قَلَمٌ في كف كاتبه

ولعمري إنه كتاب حَوَى بدائع المنشور والمنظوم ، وتحلّى من درر الفصاحة فأخجلت لديه دراري النجوم ، وقد تطفلت على مقامكم العالي بهذا الجواب ناطقاً بتقصيري ، وضمّنته من مدح سجاياكم الغراء ، ما يشفع لدى مكارمكم في قبول معاذيري ، لازلم للفضل معدناً وذخراً ، وللأدب كنزاً وفخراً .

وكتبت السيدة عائشة تيمور إلى السيدة وردة اليازجية المتوفاة سنة ١٣١٣ هـ :

أستهلُّ براءة سلام حَمَل الشوق رسالته ، وتقلّد الشفق ما نشقَّت ناشقة عرّف الوداد كفالاته ، ولورضيت المجال ، في صدق المقال ، لنطق بخالص الوفاء

(١) بالضم ما جمع وانضم بعضه الى بعض ومراده الغلمان (٢) سبعة كواكب منضمة بعضها الى بعض . (٣) الخمر والمراد الشراب (٤) جمع كوب الكوز المستدير الرأس لا عروة له أو لا خرطوم (٥) نوع من الحلوى فارسي معرب بانيذ . (٦) جمع قارورة : ما يوضع فيها الشراب من الزجاج (٧) ماء الورد فارسي معرب (٨) المرووق الصافي (٩) المغنية (١٠) الحطام البالي ، والمراد الأموات (١١) يحييها (١٢) معناه اتصال الأمر واستدامته

مداد حروفه . وأقام بأداء التحية العاطرة قبل فض ختام مظروفه ، ولِعمرى قد
تَوَجَّه أَزهار الشَّاءِ بِلآئِ غَرَاء ، وكللته زواهر الوفاء ، من خالص الوداد إلى من
لا تزال تَسْتَرُوحُ الأسماع بنسيم أنبائها صباح مساء ، وتشوق الأرواح إلى استطلاع
بدرِ إنسانها الكامل أطرافاً وآناء ، ومما زادنى شوقاً إلى شوق ، حتى لقد شَبَّ فيه
طفل الشفق عن الطوق ، اجتلاى حديقة الورد القدسية ونافجة الأدب
المسكية ؛ فيالها من حديقة رمتها أحداق الأذهان ، فاقتبست نوراً ونوراً
وانتشقتُها مسامُ الآذان ، فتملت طرباً وسروراً ، ومنذ سَرَحْتُ في أرجاء تلك
اليانعة إنسان العيون ، وشرحت بأفكار البصيرة أسرار ذلك الدرّ المصون ،
لم أزل بين طَرَبِ أتوشح بوشاحه ، وأتعجَّبُ من حسن اختتامه وافتتاحه ،
وجعلت أغازل من نرجس تلك الروضة عيوناً ملكت منى الحواس وهَصَرَتْ
من غصون ألفافها كل مشوق أهيف مَيَّاس ، وأتأدب في حضرة وردها خوفاً من
شوكة سلطانها ، وأن حياتي بجميل الالتفات ضاحكة عن نفيس جُمانه ، وإذا
بالياسمين الغضُّ قد ألقى نفسه على الثرى ونادى بلسان الإفصاح : هل لهذه
النضرة نظيرة ياترى ؟! فأشار المنشور بكفّه الخضيب أن لا نظير لتلك الغادة ،
ونطق الزنبق بلسان البيان : لا تكتموا الشهادة ، فعند ذلك صَفَّقَ الطير بأَكْفٍ
الأجنجة وبَشَّرَ ، وجرى الماء لإذاعة نبأ السرور فعثر بذيل النسيم وتكسَّرَ ،
وتمايلت أغصانها المورقة لسماع هذا الحديث ، وأخذت نسماها العاطرة في
السير الحثيث ، إذاعة لتلك البشائر في العشائر ، ونشراً لهذه الفضائل
التي سارت مسير المثل السائر . فقلت بلسان الصادق الأمين ، بعد تحقيق
هذا النبأ اليقين : هكذا تكون الحقائق وإلّا وكذلك لتكتب الفضائل وتُملى :
وحَدَّثَنِي يأسعد عنهم فزدتني غراماً فزدني من حديثك يأسعد
فتحمّل عني أيها الصديق تحيةً إلى ربّة هاتيك الحديقة ، وأشرح لديها
شغفى بفضلها الباهر على الحقيقة ، واعتذر عن كتابي هذا فقد جاء يمشى

على استحياء ، وكلما حركه الشَّوقُ يُبْطِئُهُ الحياءُ . وكيف وقد حلَّ في منبع الفضائل والمقام لم يدع مقالا لقائل ، فكأنَّيْ أهدى التمر إلى هجر ، وأمنح البحرَ الخِضَمَّ بالمطر ؛ أدام الله معالي تلك الحضرة ، وزادها في كل بهجة ونُضرة ، ما لاح جبينُ الهلال ، وبلغ غاية الكمال .

وكتب المرحوم السيد عبد الله النديم المتوفى سنة ١٣١٤ هـ :
أُستاذي وقُدُّوتِي ، وملاذِي وعُمْدَتِي - رَبَّيْتَ فَأَحْسَنْتَ ، وَغَذَّيْتَ فَأَسْمَنْتَ ، مُؤَدِّيًّا لَيْثًا ، وَلَيْسْتَ فَسَوَّدْتَ ، وَجُدْتَ فَعَوَّدْتَ ، مُهْدِبًا غِيثًا ، وَعَلَّمْتَ فَأَفْهَمْتَ ، وَأَشَرْتَ فَأَلْهَمْتَ غَرَضَ سَهْمِكَ ، وَقَدَنْتَ مَا أَمَلْتُ ، فِيمَنْ عَلَيْهِ عَوَّلْتَ بِحَسَنِ فَهْمِكَ :

غلامُكَ الشهيرُ بالنديم من صار في البَيَانِ كالنسيم
وكيف لا يكون لسانی قوس البديع ، وكلامی السهم السريع ، وأنت باريه وراميه ! أم كيف لا يكون مقامی الحِصْنِ المنيع ، وقَدْرِي العزيز الرفيع ، وأنت مُعْلِيهِ وبانيه ! فوجهُ جمالِ العلم أنت غُرَّتُهُ ، وإنسانُ عينِ العلم أنت قُرَّتُهُ ، وحاليه وجاليه ! وجبينُ العقل أنت طُرَّتُهُ ، وكتاب الفضل أنت صُورَتُهُ ، وطاليه وتاليه :

على بابك العالی من الفضل رايةٌ على رأس أرباب المعارف تخفق
فعلمك جنَّاتٌ وحلمك جنةٌ وكلك خيراتٌ وغيثُكَ مُغْدِقٌ
أرى غصن من يدعو إلى الفضل نفسه من الفضل عُريَاناً وغصنك مورك
إذا رُمْتَ إنشاءً فعن صدق قريحةٍ تهادي بكارٍ ، وغيرك يسرق
وكتب أيضاً في التَّوَدُّدِ :

بينما أنا راكب لجة بحر الفكر ، مُجِدُّ في طلب فريدةٍ بَكْرٍ ، تارة أغوص ومرة أسبحُ ، وآونة أقفُ وطوراً أصفحُ ، لا يقرُّ لي قرار ولا يمكنني الفرار ولا يقصر عن طَرَحِ شباكي ذراع ، ولا يُطَوِّي لسفينتي شراع ، كلما أدركني الملل

هاجت على رياح الأمل حتى دخلت في بحر عجاج متلاطم الأمواج ، فاقترحت
 هذا المركب الصعب ، وتهت بين الجزائر والشعب ، فتعلقت أفكارى
 بالصوّارى والحبال ، وبت بليلة نجومها كواحل ، لا يرى فيها برّ ولا ساحل ،
 وقلت : اشتداد الأمر يستدعى ضده ، ولا يأتى الفرج إلا بعد الشدة ؛
 وعينيك ما سل سيفها على مفرق مساها ، حتى سمعت باسم الله مجريها
 ومُرساها ، فكان من تمام حظى وسُعودى أن تركت لجة اليم واستوت على
 الجودى ، وانصرف خوفي وارتباكى ، وبادرت بطرح شبّاكى . فإذا هى قد
 ملئت بأصداف الجواهر وعلقت بها شجرة العنبر ، فتفتح الصدف عن درّ
 يستخدم الأقمار ، وفاح العنبر بما أذهب شذى الأزهار .

وصرت ما بينهما كسرى الزمان له شمس تناديه في مجلس عطر
 ونلت أقصى أمان كنت آملها الأنس في خلدي والنور في نظرى
 ولما جلوت الظرف ، بما فيها من الظرف ، ووقعت عندى الموقع الحسن ،
 أردت أن أسومها بثمر ، فإذا هى دُرّة يتيمة ، لا يقدر لها أحد على قيمة ،
 فاستهديتها من ربها ، لشغفى بحبها . وجعلت القلب لها كنزاً ، والفؤاد لها
 حريراً ألا وهى محبة العزيز الحافظ . أبداع مرثى وأبلغ لافظ .

وكتب إبراهيم بك المويلحى يعزى محمود باشا سامى البارودى :
 أنت فوق أن تُعزى عن الأحبا ب وفوق الذى يعزىك عقلا
 وبألفاظك اهتدى فإذا عزّا ك قال الذى قلت قبلا
 وقتلت الزمان علماً فما يغرب ب قولاً ولا يُجدّد فعلا

نعم ؛ إنك يا «محمود» الخصال و«سامى» الفعال . لأنك الشهم المُجرب
 لصرُوف الحدّثان ، والعالم الخبير بأحوال الزمان . قد أعددت لنوازل المقلدور
 نُزلاً من الصبر المأجور ، وصرفت ضيف الشجون والهموم ، إني فرى الفصائل

والعلوم ، وأخذت بِسُنَّةِ السلف الصالح في مقابلة الخطوب الفواحش ، وأنت لاشك عندنا آخذ فيما دهمك اليوم من المصاب العظيم ، بسيرة ذلك الفيلسوف الحكيم بينما هو جالس يوماً في الدرس بين تلاميذه ، إذ جاءه من أخبره بأن ابنه الوحيد مات وهو رطب الشباب غص العمر ، فلم يتولَّه الفزع ، ولم يظهر عليه الاضطرابُ ، ولم يَبْدُ على وجهه الكدر ، وما زاد على أن استرجَعَ ، واستمر في قراءة درسه ، فلما انتهى بادره أحد الحاضرين من أصحابه من حَيْرَتِهِم الدهشة في أمره يسأله : كيف لم يسلبه الحزن ثوب الثبات برهةً عند مفاجأته بالخبر ؟ فقال له « لو فاجأني النازلة على غِرَّةٍ مني لجزعتُ وحزنت ولكني مازلت أُقَدِّرُ لابني منذ يوم ولادته ، حُلُولَ أَجَلِهِ في كل يوم من أيام حياته ، ومثل هذا اليوم كنت أعدّه من زمان طويلٍ ، وكان كلما مضى عام من أعوامه اعتبرتهُ خُلسةً اختلستها من الدهر ، حتى مضى على هذه العارية عِشرون عاماً ، فشكوى لله اليوم على أن أَبْقَاهَا في يدي طول هذه المدة ، يقوم مقام الحزن عند غيري لدى استردادها » وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة أَقْبَضْتُمْ ولد عبدي ؟ فيقولون : نعم . فيقول : أَقْبَضْتُمْ ثمرة قلبه ؟ فيقولون : نعم . فيقول الله تعالى : ماذا قال عبدي ؟ فيقولون : حمدك واسترجع فيقول : ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة ، وسموه بيت الحمد » وأنت يامحمود ، صلوات الله عليك ورحمته لقوله تعالى : (ولننبلونكم بشيءٍ من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، أولئك عليهم صلواتٌ من ربهم ورحمة ، وأولئك هم الْمُتَهْتَدُونَ) أول من يمتثل لحكم القضاء ، ويسترجع عند نزول البلاء ، ويعمل بِأَدَبِ الدِّينِ في التجلُد والتَّصَبُّر ، ويأخذ بسيرة الحكماء في التدبُّر والتَّصَبُّر :

ومن كان ذا نفس كنفسك حُرَّةً ففيه لها مُغْنٍ ، وفيها له مُسَلِّ

وكتب سهل (١) بن هرون المتوفى سنة ٦٤٩ في البخل :

بسم الله الرحمن الرحيم

أصلح الله أمركم ، وجمع شملكم ، وعلمكم الخير ، وجعلكم من أهله . قال
الأحنف بن قيس : معشر بني تميم لا تسرعوا إلى الفتنة ، فإن أسرع الناس إلى القتال ،
أقلهم حياء من الفرار . وقد كانوا يقولون : إذا أردت أن ترى العيوب جمّة ،
فتأمل عياباً ، فإنه يعيب الناس بفضل ما فيه من العيب . ومن أعيب العيب أن
تعيب ما ليس بعيب ، وقبيح أن تنهى مُرشدًا ، وأن تُغري بمُشفق ، وما أردنا
بما قلنا إلا هدايتكم وتقويم فاسدكم ، وإبقاء النعمة عليكم ، وما أخطأنا
سبيل حُسن النية فيما بيننا وبينكم ، وقد تعلمون أننا ما أوصيناكم إلا بما اخترناه
لكم ، ولأنفسنا قبلكم ، وشهرنا به في الآفاق دونكم ، ثم نقول في ذلك ما قال
العبد الصالح لقومه « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا
الإصلاح ما استطعت وما توفيتي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » فما كان
أحقنا منكم في حرمتنا بكم ، أن ترعوا حق قصدنا بذلك إليكم على ما رعيناه
من واجب حقكم ، فلا العذر المبسوط بلغتم ، ولا بواجب الحرمة قتم ،
ولو كان ذكر العيوب يراد به فخر . لرأينا في أنفسنا عن ذلك شغلًا .

عبتموني بقولي لخادمي : أجيدى العجين فهو أطيب لطعمه ، وأزيد
في ريعه (٢) ، وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « املكوا (٣)
العجين ، فإنه أحد الريعين » .

وعبتموني حين ختمت على ما فيه شيء ثمين من فاكهة رطبة نقيّة ، ومن

(١) هو من أبناء الفرس وكان من رجالات البلاغة والعلم والحكمة في
دولتي الرشيد والمأمون وقد وضع كتابا حاكى به كتاب « كليله ودمنة »
وسماه « ثعلة وعفرة » وكان قيم بيت الحكمة (مدير دار الكتب) في عهد
المأمون .

(٢) الريع النماء والزيادة . (٣) املاك العجين : انعام عجينة .

رُطبة غريبة ، على عبدٍ نهم ، وصبي جَشِع ، وأمة لكُعاء^(١) ، وزوجة مُضيعة .
وعبتموني بالختم ، وقد ختم بعض الأئمة على مزود سويق^(٢) وعلى كيس
فارغ . وقال : « طينه من طيه »^(٣) فأمسكتم عن ختم على لاشيء ، وعبتم
من ختم على شيء .

وعبتموني أن قلت للغلام : « إذا زدت في المرق فزد في الانضاج ،
ليجتمع مع التآدم باللحم طيب المرق » .

وعبتموني بخُصْف^(٤) النعل ، وبتصدير^(٥) القميص ، وحين زعمت أن
المُخْصُوفة من النعل أبقى وأقوى وأشبه بالشد ، وإن الترقيع من العزم ، والتفريط
من التضييع ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَخْصِف نعله ويرُقِّع ثوبه ،
ويقول : « لو أهدى إلى ذِرَاعٍ لقبلت ، ولو دعيت إلى كُرَاعٍ لأجبت » .
وقالت الحكماء : لا جديد لمن لم يلبس الخلق ، وبعث زياد رجلاً يرتاد له
مُحَدَّثًا واشترط عليه أن يكون عاقلًا ، فأتاه به موافقًا ، فقال له : أَكُنْتَ به ذا
معرفة ؟ قال : لا . ولكني رأيته في يوم قائظ . يلبس خلقًا ويلبس الناس
جديدًا . فَتَفَرَّست فيه العقل والأدب . وقد علمت أن الخلق في موضعه ، مثل
الجديد في موضعه ، وقد جعل الله لكل شيء قدرًا ، وسما به موضعًا ، كما جعل
لكل زمان رجالًا ، ولكل مقام مقالًا . وقد أحيا الله بالسم ، وأمات بالدواء ،
وأغص بالماء . وقد زعموا أن الإصلاح أحد الكاسبين ، كما زعموا أن قلة
العيال أحد اليسارين . وقد جبر الأحنف بن قيس يد عنز ، وأمر مالك بن
أنس بفرك النعل . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : من أكل بيضة
فقد أكل دجاجة ، ولبس سالم بن عبد الله جلد أضحية . وقال رجل لبعض
الحكماء : أريد أن أهدى إليك دجاجة ، فقال : إن كان لابد فاجعلها بيوضًا .

(١) اللكعاء : الحمقاء (٢) المزود : وعاء الزاد والسويق : شراب يتخذ
من الحنطة أو الشعير (٣) طينه من طان الشيء أى ختمه بالطين « طيه »
من الطوى وهو الجوع . (٤) خصف النعل : خرزها (٥) تصدير
القميص : أن يجعل لصدرة بطانة .

وعبتموني حين قلت : من لم يعرف مواضع السرف في الموجود الرخيص لم يعرف مواضع الاقتصاد في الممتنع الغالي . ولقد أتيت بماء للوضوء على مبلغ الكفاية وأشد من الكفاية ، فلما صرّت إلى تفريق أجزائه على الأعضاء ، وإلى التوفير عليها من وضیعة (١) الماء ، وجذت في الأعضاء فضلاً عن الماء ، فعلمت أن لو كنت سلكت الاقتصاد في أوائله لخرج آخره على كفاية أوله ، ولكان نصيب الأول كنصيب الآخر . فعبتموني بذلك وشنّتم على ، وقد قال الحسن . وذكر السرف : « أمّا إنه ليكون في الماء ، والكلأ » فلم يرض بذكر الماء حتى أردفه الكلأ .

وعبتموني أن قلت : لا يغترّن أحدكم بطول عمره ، وتقويس ظهره ، ورقة عظمه ، ووهن قوّته . وأن يرى نحوه أكثر ذرّيته ! فيدعوه ذلك إلى إخراج ماله من يده ، وتحويله إلى ملك غيره ، وإلى تحكيم السرف فيه ، وتسليط الشهوات عليه ، فلعله يكون مُعَمَّرًا وهو لا يدري ، ومدوداً له في السن وهو لا يشعر . ولعله أن يُرزق الولد على اليأس ، ويحدث عليه من آفات الدهر مالا يخطر على بال ولا يُذكره عقل ، فيسترده ممن لا يردده ، ويظهر الشكوى إلى من لا يرحمه ، أصعب ما كان عليه الطرب ، وأقبح ما كان به أن يطلب ؛ فعبتموني بذلك . وقد قال الأول : « اعمل لدنياك كبنائك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

وعبتموني بأن قلت : بأن السرف والتبذير إلى مال المواريث ، وأموال الملوك ، وإلى مالا يُعرّض فيه بذهاب الدين ، واهتِضام العِرْض ، ونَصْب البدن واهتِضام القلب أسرع ، وأن الحفظ . للمال المكتسب ، والغنى المحتلب أقرب ، ومن لم يحسب نفقته لم يحسب دخله ، ومن لم يحسب الدخل ، فقد

(١) الوضيعة هنا : النقص .

أَصَاعُ الْأَصْلِ وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ لِلْغَنَى قَدْرَهُ ، فَقَدْ أَوْذِنَ بِالْفَقْرِ ، وَطَابَ نَفْسًا بِالذَّلِّ .
وَعَبْتُمُونِي بِأَنْ قُلْتُ : إِنَّ كَسْبَ الْحَلَالِ يَضْمَنُ الْإِنْفَاقَ فِي الْحَلَالِ ، وَإِنَّ
الْخَبِيثَ يَنْزِعَ الْخَبِيثَ ، وَإِنَّ الطَّيِّبَ يَدْعُو إِلَى الطَّيِّبِ ، وَإِنَّ الْإِنْفَاقَ فِي الْهَوَى
حِجَابٌ دُونَ الْهُدَى ، فَعَبْتُمْ عَلَيَّ هَذَا الْقَوْلَ ، وَقَدْ قَالَ مُعَاوِيَةُ : لَمْ أَرْ تَبْذِيرًا قَطُّ .
إِلَّا وَإِلَى جَنَنِهِ تَضْيِيعٌ ، وَقَدْ قَالَ الْحَسَنُ : إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَعْرِفُوا مِنْ أَيْنَ أَصَابَ
الرَّجُلَ مَالُهُ ، فَانْظُرُوا فِيمَاذَا يُنْفِقُهُ ، فَإِنَّ الْخَبِيثَ إِنَّمَا يُنْفِقُ فِي السَّرَفِ ،
وَقُلْتُ لَكُمْ بِالشَّفَقَةِ عَلَيْكُمْ ، وَحُسْنِ النَّظَرِ مِنِّي لَكُمْ ، وَأَنْتُمْ فِي دَارِ الْآفَاتِ ،
وَالْحَوَائِجِ غَيْرِ مَأْمُونَاتٍ فَإِنْ أَحَاطَتْ بِمَالِ أَحَدِكُمْ آفَةٌ لَمْ يَرْجِعْ إِلَّا إِلَى نَفْسِهِ ،
فاحذروا النَّقْمَ بِاخْتِلَافِ الْأَمَكَةِ فَإِنَّ الْبَنِيَّةَ لَا تَجْرِي فِي الْجَمِيعِ إِلَّا بِمَوْتِ الْجَمِيعِ ،
وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْعَبْدِ وَالْأَمَةِ وَالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ : فَارْقُوا بَيْنَ
الْمَنَائِي . وَقَدْ قَالَ ابْنُ سِيرِينَ لِبَعْضِ الْبَحْرِيِّينَ : كَيْفَ تَصْنَعُونَ بِأَمْوَالِكُمْ ؟
قَالُوا : نَفْرَقُهَا فِي السَّفَنِ ، فَإِنْ عَطِبَ بَعْضُ سَلَمَ بَعْضُ ، وَلَوْ لَا أَنَّ السَّلَامَةَ أَكْثَرَ
مَا حَمَلْنَا أَمْوَالَنَا فِي الْبَحْرِ ، قَالَ ابْنُ سِيرِينَ « تَحْسِبُهَا خَرْقَاءَ وَهِيَ صِنَاعٌ » (١)
وَعَبْتُمُونِي بِأَنْ قُلْتُ لَكُمْ عِنْدَ إِشْفَاقِي عَلَيْكُمْ : إِنْ لِلْغَنَى لُسْكْرًا ، وَلِلْمَالِ
لَنْزَوَةٌ (٢) ، فَمَنْ لَمْ يَحْفَظْ الْغَنَى مِنْ سُكْرِهِ ، فَقَدْ أَضَاهَاهُ ، وَمَنْ لَمْ يَرْبِطْ
الْمَالَ بِخَوْفِ الْفَقْرِ فَقَدْ أَهْمَلَهُ .

فَعَبْتُمُونِي بِذَلِكَ ، وَقَدْ قَالَ زَيْدُ بْنُ جَبَلَةَ : لَيْسَ أَحَدٌ أَقْصَرَ عَقْلًا مِنْ
غَنًى أَمِنْ الْفَقْرِ ، وَسُكْرُ الْغَنَى أَكْثَرُ مِنْ سُكْرِ الْخَمْرِ ؛ وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ فِي
يَحْيَى بْنِ خَالِدِ بْنِ بَرْمَكٍ :

وَهَوْبٌ تِلَادَ الْمَالِ فِيمَا يَنْوِبُهُ مَنُوعٌ إِذَا مَا مَنَعَهُ كَانَ أَحْزَمًا

وَعَبْتُمُونِي حِينَ زَعَمْتُمْ أَنِّي أَقْدَمُ الْمَالِ عَلَى الْعِلْمِ ، لِأَنَّ الْمَالَ بِهِ يَفَادُ الْعِلْمُ ،

(١) هذا مثل يضرب لمن تظن فيه الغفلة وهو فطن يقط .

(٢) النزوة الثورة أو الوثبة .

وبه تقوم النفس ، قبل أن تعرف فضل العلم ، فهو أصل ، والأصل أحق بالتفضيل من الفرع ، فقلتم : كيف هذا ؟ وقد قيل لرئيس الحكماء : الأغنياء أفضل أم العلماء ؟ قال : العلماء . قيل له : فما بال العلماء يأتون أبواب الأغنياء أكثر مما يأتى الأغنياء أبواب العلماء ؟ قال : ذلك لمعرفة العلماء بفضل المال ، وجهل الأغنياء بحق العلم . فقلت : حالهما هي القاضية بينهما ، وكيف يستوى شيء حاجة العامة اليه ، وشيء يغنى فيه بعضهم عن بعض ؟ ؟ وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر الأغنياء باتخاذ الغنم ، والفقراء باتخاذ الدجاج . وقال أبو بكر رضى الله عنه : إني لأبغض أهل بيت يُنْفِقُونَ نفقة الأيام في اليوم الواحد . وكان أبو الأسود الدؤلى يقول لولده : إذا بسط. الله لك الرزق فابسط . ، وإذا قبض فاقبض .

وعبتمونى حين قلت : فضل الغنى على القوت إنما هو كفضل الآلة تكون في البيت إذا احتيج إليها استعملت ، وإن استغنى عنها كانت عُدَّة . وقد قال الحصين بن المنذر : وددت أن لى مثل أحد ذهاباً لا أنتفع منه بشيء . قيل له : فما كنت تصنع به ؟ قال : لكثرة من كان يخدمنى عليه ، لأن المال مخدوم . وقد قال بعض الحكماء : عليك بطلب الغنى ؛ فلو لم يكن فيه إلا أنه عز في قلبك وذل في قلب عدوك ، لكان الحظ فيه جسيماً والنفع فيه عظيماً . ولسنا ندع سيرة الأنبياء ، وتعليم الخلفاء ، وتأديب الحكماء ، لأصحاب اللهو ، ولستم على تردون ولا رأي تفندون ، فقدموا النظر قبل العزم ، وأدركوا مالكم قبل أن تدرِكُوا مآلكم ، والسلام عليكم .

الكلام على الرسائل العلمية

الرسائل العلمية ، هي : مقالات في المطالب العلمية أو المسائل الأدبية ، وإنما سُميت بالرسالات ، لأن أصحابها يرسلونها إلى من اقترحها عليهم ، ويسلك فيها

صاحبها مناهج الاسترسال ، والمخاطبات البليغة . وقد أفردنا لها كتابنا «أسلوب الحكيم ، في منهج الإنشاء القويم» فارجع إليه إن شئت .

الفن الثاني في المناظرات

للمناظرة ثلاثة شروط : (الأول) : أن يُجمع بين خصمين متضادين ، أو متباينين في صفاتهما ، بحيث تظهر خواصها كالربيع ، والخريف ، والصيف ، والشتاء . (الثاني) : أن يأتى كلُّ من الخصمين في نصرته لنفسه ، وتفنيد مزاعم قرنه ، بأدلة من شأنها أن ترفع قدره ، وتحط من مقام الخصم ، بحيث يميل بالسامع عنه إليه . (الثالث) : أن تُصاغ المعاني والمراجعات صوغاً حسناً ، وترتب على سياق مُحكم ليزيد بذلك نشاط السامع ، وتنمي فيه الرغبة في حلّ المشكل .

ولنذكر لك عليها شذرات من أقوال الكتاب فنقول :

مناظرة النعمان بن المنذر وكسرى أنوشروان في شأن العرب

روى ابن القطامي عن الكلبي قال : قدِمَ النعمان بن المنذر على كسرى ، وعنده وفود الروم ، والهند ، والصين ؛ فذكروا من ملوكهم وبلادهم ؛ فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الأمم ، لا يستثنى فارس ولا غيرها ، فقال كسرى ، وأخذته عزة الملك : يانعمان ، لقد فكرتُ في أمر العرب وغيرهم من الأمم ، ونظرت في حالة من يُقدِّم على من وفود الأمم . فوجدت للروم خطاً في اجتماع ألفتها ، وعظم سلطانها ، وكثرة مدائنها ووثيق بُنيانها ، وأن لها ديناً يُبين حلالها وحرامها ، ويرد سفيهاها ويقيم جاهلها . ورأيت الهند نحواً من ذلك في حكمتها وطيبها ، مع كثرة أنهار بلادها وثمارها ، وعجيب صناعتها ، وطيب أشجارها ، ودقيق حسابها ، وكثرة عددها . وكذلك الصين في اجتماعها ، وكثرة صناعات أيديها وفُروسيتها ، وهمتها في آلة الحرب وصناعة الحديد ، وأن لها ملكاً

يَجْمَعُهَا - والترك والخَزَرُ على ما بهم من سوء الحال في المعاش ، وقلة الرِّيف
والثَّارِ والحُصُونِ ، وما هو رأسُ عمارة الدنيا من المساكن والملابس ، لَهم ملوك
تَضُم قَوَاصِيَهُمْ ، وتُدَبِّرُ أَمْرَهُمْ ؛ ولم أَرَ للعرب شيئاً من خصال الخير في أمر دين
ولا دنيا ، ولا حزم ، ولا قوة ، ومع أن مما يَدُلُّ على مهانتها وذلتها ، صِغَرُ هِمَّتِهَا ،
مَحَلَّتِهَا التي هم بها مع الوحوش النافرة والطيور الحائرة ، يقتلون أولادهم من الفاقة
ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة ، قد خرجوا من مطاعيم الدنيا وملابسها ومشاربها
ولَهِوْهَا ولذَاتِهَا ، فَأَفْضَلُ طعام ظَفَر به ناعمهم لُحُوم الإبل التي يَعَافُهَا كثير من
السَّباع لِثِقَلِهَا ، وسوء طعمها ، وخوف دائها ، وإن قرى أحدهم ضعيفاً عَدَّهَا
مَكْرَمَةً ، وإن أُطْعِمَ أَكَلَهَا عَدَّهَا غَنِيمَةً ، تنطق بذلك أشعارهم ، وتفتخر بذلك
رجالهم ، ما خلا هذه التَّنَوُّخِيَّة التي أَسَّسَ جَدُّيَ اجْتِمَاعَهَا وشَدَّ مَمْلَكَتِهَا ، ومنَعَهَا
من عَدُوِّهَا ، فجري لها ذلك إلى يومنا هذا ، وإن مع ذلك آثَاراً ولُبُوساً ،
وقرى وحُصُوناً ، وأُمُوراً تشبه بعضُ أُمُورِ النَّاسِ (يعني اليمن) .

ثم لا أراكم تَسْتَكِينُونَ على ما بكم من المَذَلَّة ، والقَلَّة ، والفاقة ، والبُؤْس ،
حتى تفتخروا ، وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس .

قال النعمان : أصلح الله الملك . حَقُّ لَأَمَةٍ الْمَلِكِ مِنْهَا أَنْ يَسْمُوَ فَضْلُهَا ، وَيَعْظُمَ
خَطْبُهَا ، وتعلو درجتها . إِلَّا أَنَّ عِنْدِي جَوَاباً فِي كُلِّ مَا نَطَقَ بِهِ الْمَلِكُ فِي غَيْرِ رَدٍّ
عَلَيْهِ ، وَلَا تَكْذِيبٍ لَهُ ، فَإِنْ أَمَّنِي مِنْ غَضَبِهِ نَطَقْتُ بِهِ . قال كسرى : قل فأنْتِ
آمِن . قال النعمان : أَمَا أَمْتُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ : فليست تنازعُ في الفضل لموضعها الذي
هِيَ بِهِ مِنْ عَقُولِهَا وَأَحْلَامِهَا وَبَسْطَةِ مَحَلِّهَا ، وبحبوحه عزها ، وما أَكْرَمَهَا اللَّهُ بِهِ
مِنْ وَلايَةِ آبَائِكَ وَوَلَايَتِكَ . وَأَمَّا الْأُمَمُ الَّتِي ذَكَرْتَ فَأَيَّةُ أُمَّةٍ تَقْرُنُهَا بِالْعَرَبِ
إِلَّا فَضْلَتِهَا . قال كسرى : بِمَاذَا ؟ قال النعمان : بعزها ومنعتها ، وحُسن وجوها
وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها ، وشدة عقولها وأنفتها ووفائها .

فَأَمَّا عَزُّهَا وَمَنْعَتُهَا ، فَإِنَّهَا لَمْ تَزَلْ مُجَاوِرَةً لآبَائِكَ الَّذِينَ دَوَّخُوا الْبِلَادَ

ووطَّدُوا المُلْك ، وقادوا الجُنْد ، لم يطمع فيهم طامع ، ولم يَنْلَهم نائل ، حُصُونُهم
ظُهور خيلهم ومِهَادُهم الأَرْض ، وسقوفُهم السَّاء ، وجُنَّتْهم السُّيُوف ، وعُدَّتْهم
الصَّبِر - إِذْ غَيْرَها من الأُمم ، إِنَّمَا عَزَّها الحِجَارَة والطِين ، وجزائر البُحُور .

وأما حُسن وجُوهها وألوانها : فقد يُعرَف فَضْلُهم في ذلك على غيرهم من
الهند المنحرفين ، والصَّين المُنْحَفَة ، والترْك المشوَّمة ، والرُّوم المُقَشَّرة .
وأما أنسابُها وأحسابُها : فليست أُمَّة من الأُمم إِلَّا وقد جَهِلت آباءها
وأصولها وكثيراً من أولها ، حتى إن أَحَدَهم لَيُسْتَل عَمَّن وراء أبيه دنيا فلا
يَنْبُؤه ولا يعرفه ، وليس أَحَد من العَرَب إِلَّا يُسَمَّى آباءه أباً فاباً ، حَاطُوا
بذلك أحسابهم ، وحَفِظُوا به أنسابهم ، فلا يدخل رجل في غير قومه ، ولا
يَنْتَسِب إلى غير نسبه ، ولا يُدعى إلى غير أبيه .

وأما سخاؤها : فَإِنَّ أَذْنَاهُمْ رَجَلاً الذي تكون عنده البَكْرَة والنَّاب ،
عليها بَلاغه في حموله ، وشعبه وريه ، فيطْرِقه الطارق الذي يكتفي بالفِلْدَة ،
ويجتزئ بالشربة فيعقرها له ، ويرْضَى أَنْ يخرج عن دنياه كُلِّها . فيما
يكسبه حُسن الأحداث ، وطيب الذِّكْر .

أما حِكْمَة أَلْسِنَتِهم : فَإِنَّ الله تعالى أعطاهم في أشعارهم ، ورَوْنَق كَلَامِهم
وحسنه ووَزَنه وقوافيه ، مع معرفتهم بالأشياء وضَرْبِهم للأمثال وإبلاغهم في
الصِّفَات ، ما ليس لشيء من أَلْسِنَة الأجناس . ثم خيلهم أَفْضَل الخيل ، ونِسَاؤُهم
أَعَفُّ النِّسَاء ولِبَاسُهم أَفْضَل اللباس ، وَمَعَادِنُهم الذَّهَب والفضة ، وحجارة
جبالهم الْجَزَع ومطاياهم التي لا يُبْلَغ على مِثْلِهَا سَفَرٌ ، ولا يُقَطَع بِمِثْلِهَا بَلَدٌ قَفَرٌ .
وأما دينها وشريعتها : فَإِنَّهم مُتَمَسِّكون به حتى يبلغ أَحَدُهم من نِسْكِه بدينه
أَنْ لهم أَشْهُراً حَرُمًا محرماً ، وَبَيْتًا مَحْجُوجًا ، ينسكُون فيه مناسكهم ، ويذبحون
فيه ذبائحهم ، فيَلْتَقِي الرجل قاتلَ أبيه أو أخيه ، وهو قادر على أَخْذ ثأْره
وإِذْرَاك رَغْمه مِنْهُ ، فيَحْجِزه كَرَمه ويمْنَعُه دينه عن تَنَاوله بِأَذَى .

وَأَمَّا وَفَاؤُهَا : فَإِنَّ أَحَدَهُمْ يَلْحَظُ اللَّحْظَةَ ، وَيُؤْمِي الإِيمَاءَةَ ، فَهِيَ وَلَتْ (أَيْ عَهْدٌ) وَعُقْدَةٌ لَا يَحِلُّهَا إِلَّا خُرُوجُ نَفْسِهِ . وَإِنَّ أَحَدَهُمْ يَرْفَعُ عُودًا مِنْ الْأَرْضِ فَيَكُونُ رَهْنًا بِدَيْنِهِ ، فَلَا يَغْلِقُ رَهْنَهُ ، وَلَا تَخْفَرُ ذِمَّتُهُ . وَإِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَبْلُغُهُ أَنَّ رَجُلًا اسْتَجَارَ بِهِ ، وَعَسَى أَنْ يَكُونَ نَائِبًا عَنْ دَارِهِ فَيُصَابُ فَلَا يَرْضَى حَتَّى يُغْنِي تِلْكَ الْقَبِيلَةَ الَّتِي أَصَابَتْهُ ، أَوْ تَفْنَى قَبِيلَتُهُ لَمَّا أَخْفَرَ مِنْ جَوَارِهِ ، وَإِنَّهُ لَيَلْجَأُ إِلَيْهِمُ الْمَجْرِمُ الْمَحْدُثُ مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ وَلَا قَرَابَةٍ ، فَتَكُونُ أَنْفُسُهُمْ دُونَ نَفْسِهِ ، وَأَمْوَالُهُمْ دُونَ مَالِهِ .

وَأَمَّا قَوْلُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ يَتَذَوِّنُونَ أَوْلَادَهُمْ فَإِنَّمَا يَفْعَلُهُ مَنْ يَفْعَلُهُ مِنْهُمْ بِالْإِنَاثِ أَنْفَةً مِنَ الْعَارِ ، وَغَيْرَةٍ مِنَ الْأَزْوَاجِ .

وَأَمَّا قَوْلُكَ إِنَّ أَفْضَلَ طَعَامِهِمْ لَحُومَ الْإِبِلِ عَلَى مَا وَصَفْتَ مِنْهَا ، فَمَا تَرَكُوا مَا دُونَهَا إِلَّا احْتِقَارًا لَهُ ، فَعَمِدُوا إِلَى أَجْلِّهَا وَأَفْضَلِهَا ، فَكَانَتْ مَرَائِيهِمْ وَطَعَامُهُمْ ؛ مَعَ أَنَّهَا أَكْثَرُ الْبَهَائِمِ شُحُومًا ، وَأَطْيَبُهَا لُحُومًا ، وَأَرْقَاهَا أَلْبَانًا ، وَأَقْلَاهَا غَائِلَةً ، وَأَحْلَاهَا مُضْغَةً ، وَأَنَّهُ لَا شَيْءَ مِنَ اللَّحْمَانِ يُعَالِجُ بِهِ لُحْمَهَا إِلَّا اسْتِبَانُ فَضْلِهَا عَلَيْهِ .

وَأَمَّا تَحَارُّبُهُمْ وَأَكْلَ بَعْضِهِمْ بَعْضًا وَتَرْكَهُمُ الْإِنْقِيَادَ لِرَجُلٍ يَسُوسُهُمْ وَيَجْمَعُهُمْ فَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ مَنْ يَفْعَلُهُ مِنَ الْأُمَمِ إِذَا أَنْسَتْ مِنْ نَفْسِهَا ضَعْفًا ، وَتَخَوَّفَتْ نُهُوضَ عَدُوِّهَا إِلَيْهَا بِالزَّحْفِ ، وَإِنَّهُ إِنَّمَا يَكُونُ فِي الْمَمْلَكَةِ الْعَظِيمَةِ أَهْلُ بَيْتٍ وَاحِدٍ يُعْرِفُ فَضْلَهُمْ عَلَى سَائِرِ غَيْرِهِمْ ، فَيَلْقُونَ إِلَيْهِمْ أُمُورَهُمْ ، وَيَنْقَادُونَ لَهُمْ بِأَزْمَتِهِمْ .

وَأَمَّا الْعَرَبُ فَإِنَّ ذَلِكَ كَثِيرٌ فِيهِمْ ، حَتَّى لَقَدْ حَاوَلُوا أَنْ يَكُونُوا مُلُوكًا أَجْمَعِينَ مَعَ أَنْفَتِهِمْ مِنْ أَدَاءِ الْخَرَاجِ وَالْوِطْثِ (أَيِ الضَّرْبِ الشَّدِيدِ بِالرَّجْلِ عَلَى الْأَرْضِ) بِالْعَسْفِ .

وَأَمَّا الْيَمَنُ الَّتِي وَصَفَهَا الْمَلِكُ ، فَإِنَّمَا أَتَى جَدَّ الْمَلِكِ إِلَيْهَا الَّذِي أَتَاهُ عِنْدَ غَلْبَةِ الْجَيْشِ لَهُ عَلَى مُلْكِ مُتَسِقٍ ، وَأَمْرٍ مُجْتَمِعٍ ، فَأَتَاهُ مَسْلُوبًا طَرِيدًا مُسْتَصْرِخًا ، وَلَوْلَا

ما وُتِرَ به مَنْ يليه من العربِ لِمَالٍ إِلَى مَجَالٍ ؛ وَلَوْجَدَ مَنْ يُجِيدُ الطَّعَانَ ، وَيَغْضِبُ لِلْأَحْرَارِ ، من غلبة العبيد الأشرار .

قال : فعجب كسرى لما أجابه النعمان به ، وقال : إِنَّكَ لِأَهْلٍ لِمَوْضِعِكَ من الرِّياسَةِ فِي أَهْلِ إِقْلِيمِكَ ، ثم كساه من كسوته وسرَّحه إلى موضعه من الحيرة .
فلما قَدِمَ النعمان الحيرة وفي نفسه ما فيها مما سمع من كسرى من تَنْقُصِ العرب وتهجين أمرهم ، بعثَ إلى أَكْثَمَ بن صَيْفِي ، وحاجب بن زُرارة التميميين وإلى الحارث بن ظالم ، وقيس بن مسعود البكريين ، وإلى خالد بن جعفر ، وعَلْقَمَةَ بن عَلائَةَ ، وعامر بن الطفيل العامريين ، وإلى عمرو بن الشريد السلمي وعمرو بن معديكرب الزبيدي ، والحارث بن ظالم المُرِّي - فلما قَدِمُوا عليه في الْخَوَزَنْتِ قال لهم قد عرفتم هذه الأعاجم ، وقُرب جِوَارِ الْعَرَبِ منها ، وقد سمعتُ من كسرى مقالات ، تَخَوَّفْتُ أَنْ يَكُونَ لَهَا غَوْرٌ ، أَوْ يَكُونَ إِنَّمَا أَظْهَرَهَا لِأَمْرٍ أَرَادَ أَنْ يَتَّخِذَ بِهِ الْعَرَبَ خَوْلاً كَبَعْضِ طِمَاطِمَتِهِ فِي تَأْذِيتِهِمُ الْخَرَاجَ إِلَيْهِ ، كما يفعل بملوك الأمم الذين حَوْلَهُ - فاقتَصَصَ عليهم مقالات كسرى ، وما رَدَّ بِهِ عليه . فقالوا : أَيُّهَا الْمَلِكُ وفقك الله ، وما أَحْسَنَ مَا رَدَدْتَ ، وَأَبْلَغَ مَا حَاجَجْتَهُ ، فمرنا بأمرك ، وادْعُنَا إِلَى مَا شِئْتَ .

قال : إِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْكُمْ ، وَإِنَّمَا مَلَكَتُ وَعَزَزْتُ بِمَكَانِكُمْ وَمَا يَتَخَوَّفُ من ناحيتكم ، وليس شيء أحب إليَّ مما سَدَّدَ اللَّهُ أَمْرَكُمْ وَأَصْلَحَ بِهِ شَأْنَكُمْ وَأَدَامَ بِهِ عِزَّكُمْ ، وَالرَّأْيَ أَنْ تَسِيرُوا بِجَمَاعَتِكُمْ أَيُّهَا الرَّهْطُ . وَتَنْطَلِقُوا إِلَى كَسْرَى فَإِذَا دَخَلْتُمْ نَطَقَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَا حَضَرَهُ لِيَعْلَمَ أَنَّ الْعَرَبَ عَلَى غَيْرِ مَا ظَنُّ ، أَوْ حَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ ، وَلَا يَنْطَقُ رَجُلٌ مِنْكُمْ بِمَا يُغْضِبُهُ ، فَإِنَّهُ مَلِكٌ عَظِيمٌ السُّلْطَانِ كَثِيرُ الْأَعْوَانِ مُتَرَفٍّ مُعْجَبٌ بِنَفْسِهِ ، وَلَا تَنْخَذِلُوا لَهُ انْخِذَالَ الْخَاضِعِ الدَّلِيلِ ، وَلَيْكُنْ أَمْرٌ بَيْنَ ذَلِكَ ، تَظْهَرُ بِهِ دِمَائَةُ حُلُومِكُمْ ، وَفَضْلُ مَنْزِلَتِكُمْ ، وَعَظِيمُ أخطاركم ، وَلَيْكُنْ

أول من يَبدأ منكم بالكلام (أئثم بن صيفى) ثم تتابعوا على الأمر من منازلكم التى وضعتكم بها فإنما دعانى إلى التقدمة إليكم علمى بئيل كل رجل منكم إلى التقدم قبل صاحبه ، فلا يكونَنَّ ذلك منكم فيجد فى آدابكم مَطْعناً ، فإنه ملك مُتَرَفٌ ، وقادر مُسَلَّطٌ . ثم دعا لهم بما فى خزانته من طرائف حُلل الملوكة وأعطى كل رجل منهم حُلَّةً ، وعممه عمامة ، وختمه بياقوته ، وأمر لكل رجل منهم بنجيبة مَهْرِيَّة ، وفَرَسٍ نجيبَةٍ ؛ وكتب معهم كتاباً :

أما بعد : فإن الملك ألقى إلى من أمر العرب ما قد علم ، وأجبت به بما قد فهم مما أَحَبَّتْ أَنْ يكون منه على علم ، وَلَا يَتَلَجَّجُ فى نفسه أَنْ أمة من الأمم التى احتجزت دونه بمملكته ، وحمت ما يليها بفضل قوتها ، تَبْلُغُهَا من الأمور التى يَتَعَزَّزُ بها ذُوو الحزم والقوة والتدبير والمكيدة . وقد أوفدتُ أيها الملك رهطاً من العرب ، لهم فضل فى أحسابهم وأنسابهم ، وعقولهم وآدابهم ، فليسمع الملك ، وليُغمض عن جفاء إن ظهر من منطقهم ، وليكرمنى بإكرامهم وتعجيل سراحهم .

وقد نَسَبْتَهُمْ فى أسفل كتابى هذا إلى عشائرتهم .

فخرج القوم فى أَهْبَتِهِمْ ، حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن ، فدفعوا إليه كتاب النعمان ، فقرأه وأمر بإنزالهم إلى أَنْ يجلس لهم مجلساً يسمع منهم ؛ فلما أَنَّ كان بعد ذلك بأيام ، أمر مرازيبته ، ووجوه أهل مملكته فحَضَرُوا وجلسُوا على كراسى عن يمينه وشماله ، ثم دعا بهم على الولاء والمراتب التى وصفهم النعمان بها فى كتابه وأقام التُّرْجُمان لِيُؤدِّيَ إليه كلامهم ، ثم أَذِنَ لَهُمْ فى الكلام .

فقام أئثم بن صيفى فقال : إنَّ أَفْضَلَ الأشياءِ أَعَالِيهَا ، وَأَعْلَى الرِّجَالِ مَلُوكُهَا وَأَفْضَلُ المُلُوكِ أَعْمَهَا نَفْعاً ، وخيرُ الأزمنة أخصبُها ، وأفضل الخطباء أصدقها . الصدق منجاة ، والكذب مهواة ، والشر لجاجة ، والحزم مركب صعب

والعَجْزُ مركب وطىء - آفةُ الرأى الهوى ، والعجز مفتاح الفقر ، وخير الأمور
الصبر ، وحسن الظن ورطة ، وسوء الظن عصمة ، وإصلاح فساد الرعية خير
من إصلاح فساد الراعى ، ومن فسدت بطانته كان كالغاص بالماء .
شرُّ البلاد لا أمير بها ، وشرُّ الملوك من خافه البرىء ، المرء يعجز لا المحالة ،
أفضل الأولاد البررة ، خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة ، أحق الجنود بالنصر
من حسنت سريرته ، يكفيك من الزاد ما بلغك المحل ، حسبك من شر سماعه ،
الصمتُ حكمٌ وقليل فاعله ، البلاغة الإيجاز ، من شدد نفر ، ومن تراخى تألف .
فتعجب كسرى من أكثم ؛ ثم قال : ويحك يا أكثم ما أحكمك وأوثق كلامك !
لولا وضعك كلامك فى غير موضعه ، قال أكثم : الصّدقُ ينبئُ عنك لا الوعيد ،
قال كسرى : لو لم يكن للعرب غيرك لكفى ، قال أكثم : ربّ قول أنفذ من صول .
ثم قام حاجب بن زرارة التميمى وقال : ورى زنديك ، وعلت يدك ، وهيب
سلطانك - إن العرب أمة قد غلظت أكبادها ، واستحصدت مرثتها ، ومُنعت
درتها ، وهى لك وامقة ما تألفتها ، مسترسلة ما لا ينتها ، سامعة إن سامحتها ، وهى
العظم مرارة ، وهى الصاب غضاضة ، والعسل حلاوة ، والماء الزلال سلاسة .
نحن وفودها إليك ، وألستها لديك ، ذمتنا محفوظة ، وأحسابنا ممنوعة ،
وعشائرننا فينا سامعة مطيعة ، إن نشوب لك حامدين خيرا ، فلك بذلك عموم
مُحمدتنا وإن نذم لم نُخص بالذم دونها ؛ قال كسرى : يا حاجب ، ما أشبه حجر
التلال بألوان صخرها ، قال حاجب : بل زئير الأسد بصولتها ، قال كسرى : كفى
ذلك ، ثم قام الحارث البكرى فقال : دامت لك المملكة باستكمال جزيل حظها ،
وعلو سنائها ، من طال رشاؤه كثر متحه (١) ، ومن ذهب ماله قل منحه ، تناقل
الآقاويل يُعرف اللب ، وهذا مقام سيوجف (٢) بما تنطق به الركب ، وتعرف به
كنه حالنا العجم والعرب ، ونحن جيرانك الأدنون ، وأعوانك المعينون ، خيولنا

جمعة وجيوشنا فخمة ، إن استنجدتنا فغير رُبُض ، وإن استطرقتنا فغير جُهْض ،
وإن طلبتنا فغير غُمُض . لانثنى لذر ، ولانتكر لدر ، رماحنا طوال وأعمارنا
قصار . قال كسرى : أنفس عزيزة وأمة ضعيفة . قال الحارث : أيها الملك ، وأنى
يكون لضعيف عزة أو لصغير مرة ؟ (١) قال كسرى : لو قصر عُمرُك لم تستول
على لسانك نفسك . قال الحارث : أيها الملك ، إن الفارس إذا حمل بنفسه على
الكتيبة مُغرراً بنفسه على الموت ، فهي منيةً استقبلها ، وجنان استدبرها ،
والعرب تعلم أنى أبعث الحرب قُدماً ، وأحبسها وهي تصرف بها (٢) حتى إذا
جاشت نارها ، وسعرت لظاها ، وكشفت عن ساقها ، جعلت مقادها رمحى ،
وبرقها سيفى ، ورعدها زئيرى ، ولم أقصر عن خوض خضخاضها ، حتى
أنغمس فى غمرات لججها وأكون فُلُكاً لفرسانى إلى بحبوحة كبشها ،
فأستمطرها هادماً ، وأترك حماتها جزر السباع وكل نسر قشعهم .

ثم قال كسرى لمن حضره من العرب : أكذلك هو ؟ قالوا : فعاله أنطق
من لسانه ، قال : مارأيت كاليوم وفداً أحشد ولا شهوداً أوفد .

ثم قام عمرو بن الشريد السلمى فقال : أيها الملك ، نعم باللك ، ودام فى السرور
حالك ، إن عاقبة الكلام مُتدبرة ، وأشكال الأمور مُعتبرة ، وفى كثير ثقله ،
وفى قليل بلغة ، وفى الملوك سورة العز ، وهذا منطق له ما بعده : شرف فيه من
شرف ، وخمل فيه من خمل ، لم نأت لضيئك ، ولم نغد لسخطك ، ولم نتعرض
ليرفدك ، إن فى أموالنا مُستفداً ، وعلى عزنا معتمداً ، وإن أوزينا ناراً أثقبنا ،
وإن أودد دهرنا اعتدلنا ، إلا أنا مع هذا لجوارك حافظون ، ولمن رامك كافحون
حتى يُحمد الصدر ، ويُستطاب الخبر . قال كسرى : ما يقوم قصدُ منطقك
بإفراطك ولا مدحك بذمك . قال عمرو : كفى بقليل قصدى هادياً ، وبأيسر

إفراطى مخبراً ولم يَلَمْ من غربت عما يعلم ، ورضى من المقصد بما بلغ ، قال كسرى : ما كل ما يعرف المرء ينطق به ، اجلس .

ثم قام خالد بن جعفر الكلابي فقال : أحضر الله الملك إسعاداً ، وأرشدته إرشاداً ؛ إن لكل منطق فرصة ، ولكل حاجة غُصّة ، وعيُّ المنطق أشدُّ من عي السكوت ، وعثار القول أنكأ من عثار الوعث ، وما فرصة المنطق عندنا إلا بما نهوى ، وغُصّة المنطق بما لا نهوى غير مستساغة ، وتركى ما أعلم من نفسى ويعلم من سمعى أننى له مطيق ، أحبّ إلىّ من تكلفى ما أتخوف ويُتخوف منى ؛ وقد أوفدنا إليك ملكنا النعمان ، وهو لك من خير الأعوان ، ونعم حامل المعروف والإحسان ، أنفسنا بالطاعة لك باخعة ، ورقابنا بالنصيحة لك خاضعة ، وأيدينا لك بالوفاء رهينة . قال كسرى : نطقت بعقل وسموت بفضل وعلوت بنبل .

ثم قام علقمة بن علاثة العامري فقال : نهجت لك سُبُل الرشاد ، وخضعت لك رقاب العباد ؛ إن للأقويل مناهج ، وللآراء موالج ، وللعويص مخارج ، وخير القول أصدقه ، وأفضل الطلب أنجح . إنا وإن كانت المحبة أحضرتنا ، والوفادة قربتنا ، فليس من حضرك منا بأفضل ممن عَزُب عنك ، بل لو قِست كل رجل منهم وعلمت منهم ما علمنا ، لو جدت له في آبائه دنيا أنداداً وأكفاء ، كلهم إلى الفضل منسوب ، وبالشرف والسؤدد موصوف ، وبالرأى الفاضل والأدب النافذ معروف ، يحمى حماه ، ويروى نداماه ، ويدود أعداءه ، لاتخمد ناره ، ولا يحترزُ منه جاره . أيها الملك ، من يَبْلُ العرب يعرف فضلهم ، فاصطنع العرب فإنها الجبال الرواسي عزاً والبحور الزواخر طمياً والنجوم الزواهر شُرفاً والحصى عدداً ؛ فإن تعرف لهم فضلهم يعزوك ، وإن تستصرخهم لا يخذلوك . قال كسرى ، وخشى أن يأتى منه كلام يحمله على السخط . عليه : حسبك ، أبلغت وأحسن .

ثم قام قيس بن مسعود الشيباني فقال : أطاب الله بك المرشد ، وجنبك

المصائب . ووقاك مكروه الشدائد . ما أحقنا إذ أتيناك بإسماعك ما لا يُخنقُ صدرك ولا يزرع لنا حقداً في قلبك ، لم نقدم أيها الملك لمساماة ، ولم ننتسب لمعاداة ، ولكن لتعلم أنت ورعيتك ومن حضرك من وفود الأمم ، أنا في المنطق غير محجبين ، وفي الناس غير مقصرين ، إن جورينا غير مسبوقين ، وإن سؤمينا غير مغلوبين . فقال كسرى : غير أنكم إذا عاهدتم غير وافين - وهو يعرض به في تركه الوفاء بضمانه السواد - قال قيس : أيها الملك ، ما كنت في ذلك إلا كواف غدير به ، أو كخافر أخفر بدمته . قال كسرى : ما يكون لضعيف ضمان ولا لذليل خفارة . قال قيس : أيها الملك ما أنا فيما أخفر من ذمتي أحق بالزامي العار منك فيما قتل من رعيتك ، وانتبهك من حرمتك . قال الملك : ذلك لأن من ائتمن الخونة واه تنجد الأئمة ، ناله من الخطأ ما نالني ، وليس كل الناس سواء . كيف رأيت حاجب بن زرارة لم يحكم قواه فيبرم ويعهد فيؤنى . ويعد فينجز ؟ قال : وما أحقه بذلك وما رأيتُهُ إلا لي ، قال : القوم بزل (١) فأفضلها أشدها .

ثم قام عامر بن الطفيل العامري فقال : كثر فنون المنطق . وليس القول أعمى من حِندس الظلماء : وإنما الفخر في الفعل والعجز في النجدة والسود مطاوعة القدرة ، وما أعلمك بقدرنا وأبصرك بفضلنا ، والحرى إن دالت الأيام وثابت الأحلام ، أن تحدث لنا أموراً لها أعلام . قال كسرى : وما تلك الأعلام ؟ قال : مجتمع الأحياء من ربيعة ومضر على أمر يذكّر . قال : وما الأمر الذي يذكّر ؟ قال : مالي علم بأكثر مما خبرني به مخبر . قال : متى تكاهنت يا ابن الطفيل ! قال : لست بكاهن ، ولكني بالرمح طاعن . قال : فإن أتاك آت من جهة عينك العوراء ، ما أنت صانع ؟ قال : ما هيبتى في قفای بدون هيبتى في وجهي ، وما أذهب عيني عبث ، ولكن مطاوعة العبث .

(١) جمع بازل : وهو البعير سن ست سنوات .

ثم قام عمرو بن معديكرب فقال : إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه فبلاغ المنطق الصواب ، وملاك النجدة الارتياح ، وعفو الرؤى خير من استكراه الفكرة ، وتوقيف الخبرة خير من اعتساف الحيرة ، فاجتهد طاعتنا بلفظك واكتظمت بادرنا بحلمك وألین لنا كننك يسلس لك قيادنا ، فإننا أناس لم يؤقس صفاتنا قِرَاع مناقير من أراد لنا قضا ، ولكن منعنا حمانا من كل من رام لنا هضما .

ثم قام الحارث بن ظالم المري فقال : إن من آفة المنطق الكذب ، ومن لؤم الأخلاق الملق ، ومن خطل الرؤى خفة الملك المسلط . فإن أعلمناك أن مواجعتنا لك عن ائتلاف ، وانقيادنا لك عن تصاف ، فما أنت لقبول ذلك منا بخليق ، ولا للاعتماد عليه بحقيق ، ولكن الوفاء بالعهود وإحكام ولت العقود . والأمر بيننا وبينك معتدل . ما لم يأت من قبلك ميل أو زلل . قال كسرى : من أنت ؟ قال : الحارث بن ظالم . قال : إن في أسماء آبائك لدليلاً على قلة وفائك وأن تكون أولى بالصدر وأقرب من الوزر . قال الحارث : إن في الحق مغضبة والسرفى التغافل ولن يستوجب أحد الحلم إلا مع القدرة . فلتشبه أفعالك مجلسك . قال كسرى : هذا فى القوم .

ثم قال : قد فهمت ما نطقت به خطباوكم ، وتفنن فيه متكلموكم . ولولا علمى أن الأدب لم يُثقف أودكم ولم يحكم أمركم . وأنه ليس لكم ملك يجمعكم . فتنتطقون عنده منطق الرعية الخاضعة الباخعة . فنطقتم بما استولى على ألسنتكم وغلب على طباعكم . لم أجزلكم كثيراً مما تكلمتم به . وإنى لأكره أن أجبه وفودى أو أحنق صدورهم والذي أحب من إصلاح مدبركم وتآلف شواذكم ؛ والإعذار إلى الله فيما بينى وبينكم . وقد قبلت ما كان فى منطقكم من صواب وصفحت عما فيه من خلل . فانصرفوا إلى ملككم فأحسنوا مؤازرته والتزموا طاعته . وارعوا سفهاءكم . وأقيموا أودهم . وأحسنوا أدبهم . فإن فى ذلك صلاح العامة .

رُوى عن الكلبي أنه قال : كان كسرى يَحْفِلُ بالعرب ، ويستأنس بمشاهدتهم ويرغب في سماع محادثاتهم ، ومفاخراتهم ومنافراتهم ، ولم يَدَّخِر وسعاً إلا بذله للحصول على ذلك (ومما اتفق له) أَنَّ النعمان بن المنذر ، كان بمجلسه يوماً ، فقال له : هل في العرب من قبيلة تشرفُ على قبيلة ؟ قال : نعم ، قال : فبأي شيء ؟ قال : من كانت له ثلاثة آباء متواليه روساء ، واتصل ذلك بمزية رابعة ، فبيته أشرف بيت ، وإليه تنسب القبيلة ، وبه تعلو على غيرها ، قال : أحضر من هذه صفتهم فطلبهم النعمان فلم يُصِبْهم إلا في آل حذيفة بن بدر ، وآل ذى الجدين ؛ وآل الأشعث بن قيس بن كِنْدَةَ ؛ فأحضرهم في جملة من عشائهم ؛ فعقد لهم كسرى مجلساً عاماً حضره الحكَّام والعدول والأعيان ، ثم قال : ليتكلم كل منكم بماثر قومه وليصدق .

فانتصب حذيفة بن بدر قائماً وكان ألسن القوم فقال : قد علمت العرب أَنَّ فينا الشرف الأقدم والفخر الأعظم ، فقليل له : لِمَ ذاك يا أخا فزارة ؟ قال : أَلَسْنَا الدعائم (١) التي لا ترام ؟ ! والعز الذي لا يضام ؟ فقليل له : صدقت ، ثم قام شاعرهم فقال :

فزارَةُ بيت العز والعز فيهمُ	فزارَةُ بدرٍ حَسْبُ بدرٍ نضالها (٢)
لها العزة القعساء (٣) والحسب الذي	بناه لبدرٍ في القديم رجالها
فهيها قد أعيأ القرون التي مضت	مآثر بدرٍ مجدُّها وفعالها
وهل أحدٌ إن مدَّ يوماً بكفه	إلى الشمس في مجرى النجوم ينالها ؟
فإن يصلحوا يصلح لذك جميعنا	وإن يفسدوا يفسد على الناس حالها

ثم قام الأشعث بن قيس فقال : لقد علمت العرب أَنَا نقاتل عديدها الأكثر ونقهر جمعها الأكبر وَأَنَا غِيَاثُ اللزيات (٤) وبناة المكرمات ، فقليل له لِمَ يا أخا

(١) الأركان (٢) محادثتها ودفاعها (٣) الرفيعة (٤) بتسكين الزاى :

كِنْدَةَ ؟ قال : لَأَنَا ورثنا ملك كِنْدَةَ فاستظللنا بأفْيائِهِ وتقلدنا منكبه الأعظم ؛
وتوسَّطنا يُحبِّبُوه (١) الأكرم ، ثم قام شاعرهم فقال :

إذا قِستَ أبيات الرجال ببيتنا وجَدْتُ له فضلاً على من يفاخرُ
فمن قال : كَلَّا أو أَنَا بخُطَّة يُنافرنا يوماً فنحن نخاطرُ
تعالوا قِفوا كي يعلم الناس أيننا له الفضل فيما أورثته الأكابر
ثم قام بسطام بن قيس ؛ فقال : قد علمتُ العرب أَنَّا بُناة بيتها الذى لا
يزول ومغرُسُ عزها الذى لا يحول ؛ فقليل له : وَلِمَ يا أَخا شيبان ؟ قال : لَأَنَا
أدرَكهم للثَّار وأضربُهم للملك الجبار ، وأقولهم للحق ، وألدهم للخصم .

ثم قام شاعرهم فقال :

لعمري بسطامُ أَحقُّ بفضلها وأول بيت العز عز القبائل
فسائل أَبِيت اللعن عن عز قومها إذا جَدَّ يوم الفخر كل مناضل (٢)
فيخبرك الأقوام عنها فإنها وقائع جدُّ لا ملاعبُ هازل
أَلَسْنَا أعزَّ الناس قوماً وأُسرةً وأضربهم للكيش يوم التخاذل
وقائع عزُّ كلها رِبِيعَةٌ (٣) تذللُّ لهم فيها رقابُ المحافل
إذا ذُكرتْ لم يُنكر الناس فضلها وعاذ بها ، من شرها ، كل قائل
وَأَنَا ملوك الناس فى كل بلدةٍ إذا نزلت بالناس إحدى النوازل

ثم قام حاجب بن زرارة التميمي ، فقال : قد علمتُ العرب أَنَّا فرعُ دعائها
وقادة زحوفها ؛ فقليل له : لِمَ ذلك يا أَخا بنى تميم ؟ قال : لَأَنَا أَكثر الناس عديداً
وَأنجبُهم طُرّاً وليداً ، وأعظامهم للجزيل ، وأحملُهم للثقل .

ثم قام شاعرهم فقال :

لقد علمتُ أَبناء خندف أَنَّا لنا العز قديماً فى الخطوب الأوائل
وَأَنَا كِرَامُ أَهلٍ مجيدٍ وثروة وعزُّ قديم ليس بالمتضائل
فكم فيهم من سيِّد وابن سيِّد أغر نجيب ذى فعال ونائل

فسائل أبيتَ اللعن (١) عنا فيأيننا دعائم هذا الناس عند الجلائل
ثم قام قيس بن عاصم السعدي فقال : لقد علم هؤلاء أنا أرفعهم في المكرمات
وأثبتهم في النائبات ، فقيل له : لِمَ ذاك يا أخا بني سعد؟ قال : لأننا أدركهم للشار
وأمنعهم للجار ، لا نتكل إذا حملنا ، ولا نرام إذا حللنا ، ثم قام شاعرهم فقال :
لقد علمت قيسٌ وخندِفٌ أننا وجلُّ تميم والجموع التي ترى
بأننا ليوثُ البأس في كل مأزق إذا جزَّ بالبيض الجماجم والطلی
وأنا إذا داعٍ دعانا لنجدة أجبنا سِراعاً في العلائم من دعا
فهيها قد أعيا الجميع فعَالهم وقاموا بيوم الفخر مسعاة من سعى
فقال كسرى حينئذ : ليس منها إلا سيد يصلح لموضعه ، ثم أعظم
صلاتهم أجمعين ، وردَّهم إلى أقوامهم مُعظمين .

مناظرات المهدي ومشاورته لأهل بيته في حرب خراسان

هذا ماتراجع فيه المهدي ووزراؤه ، ومادار بينهم من تدبير الرأى في حرب
خراسان ، أيام تحاملت عليهم العمال وأعنف ، فحملتهم الدالة وما تقدم لهم من
المكانة على أن نكثوا بيعتهم ونقضوا موثقهم وطرّدوا العمال ، والتوا بما عليهم
من الخراج ، وحمل المهدي ما يُحب من مصلحتهم ويكره من عنتهم ، على أن قال
عثرهم واغتفر زلتهم واحتمل دالتهم تطولاً بالفضل واتساعاً بالعفو وأخذاً بالحجة
ورفقاً بالسياسة ، ولذلك لم يزل مذحمله الله أعباء الخلافة وقلده أمور الرعية رفيقاً
بمدار سلطانه ، بصيراً بأهل زمانه ، باسطاً للمعدلة في رعيته تسكن إلى كنفه
وتأنس بعفوه ، وتثق بحلمه ، فإذا وقعت الأقضية اللازمة والحقوق الواجبة ،
فليس عنده هودة ولا إغضاء ولا مداينة : أثرة للحق ، وقياماً بالعدل ، وأخذاً بالحزم
فدعا أهل خراسان الاغترار بحلمه والثقة بعفوه ، أن كسروا الخراج وطرّدوا العمال

(١) أبيت أنعن : بغضته ومنعته أى انك لاتفعل ما يوجب لعنك بل تفعل
ما تحمد وتمدح به .

وسألوا ما ليس لهم من الحق ، ثم خلطوا احتجاجاً باعتذار ، وخصومة بإقرار ، وَتَنَصُّلاً باعتلال . فلما انتهى ذلك إلى المهدي خرج إلى مجلس خلائه ، وَبَعَثَ إلى نفر من لُحَمَتِهِ ووزرائه ، فَأَعْلَمَهُمُ الحال واستفهمهم للرعية ، ثم أمر المولى بالابتداء وقال للعباس بن محمد : « أَيَّ عَمٍّ » تعقب قولنا وَكُنْ حكماً بيننا . وَأَرْسَلَ إلى ولديه (موسى وهارون) فَأَحْضَرَهُمَا الأمر وشاركهما في الرأي ، وأمر محمد بن الليث بحفظ مُرَاجَعَتِهِمْ وإثبات مقالتهُم في كتاب . فقال سَلَامُ صاحب المظالم :

أيها المهدي ، إن في كل أمر غاية ، ولكل قوم صناعة ، استفرغت رأيهم ، واستغرقت أشغالهم ، واستنفدت أعمارهم ، وذهبوا بها وذهبت بهم ، وَعُرفوا بها وَعُرفت بهم ، ولهذه الأمور التي جعلتنا فيها غاية ، وَطَلَبَتْ معونتنا عليها أقوام من أبناء الحرب ، وساسة الأمور ، وقادة الجنود ، وفرسان الهزاهز ، وإخوان التجارب وَأَبْطَالُ الوقائع ، الذين رشحتهم سِجَالُهَا ، وفياتهم ظلالُهَا ، وعضتهم شِدَائِدُهَا وَفَرَمَتُهُمْ نَوَاجِدُهَا ، فلو عَجَمْتَ مَا قَبِلَهُمْ وَكَشَفْتَ مَا عِنْدَهُمْ لوجدت نظائر تؤيد أَمْرَكَ ، وتجارب توافق نظرك وأحاديث تقوى قلبك ، فأما نحن معاشرَ عَمَّاكَ وَأَصْحَابِ دَوَاوِينِكَ فَحَسَنُ بِنَا ، وكثيرٌ منا أَنْ نقوم بثقل مَاحَمَلْتَنَا من عملك واستودعتنا من أمانتك وشغلتنا من إمضاء عدلك وإنفاذ حكمك وإظهار حَقِّكَ . فَأَجَابَهُ المهدي : إن في كل قوم حكمة ، ولكل زمان سياسة ، وفي كل حال تدبيراً يُبْطِلُ الْآخِرُ الْأَوَّلَ ، ونحن على علم بزماننا وتدبير سلطاننا .

قال : نعم أيها المهدي أنت متبع الرأي ، وثيق العُقْدَةِ ، قوى المنة ، بليغ الفِطْنَةِ ، معصوم النية ، محضور الروية ، مؤيد البدئية ، موفق العزيمة ، مُعَانَ بِالظفر ، مهدي إلى الخير ، إن هَمَمْتَ ففی عِزِّكَ مَوَاقِعُ الظن ، وإن اجتمعت صَدَعُ فَعَلِكِ مُلْتَبِسُ الشك ، فاعزم يَدَ اللَّهِ إلى الصواب قلبك ، وَقُلْ يُنْطِقُ اللَّهُ بِالْحَقِّ لِسَانُكَ ، فَإِنْ جُنُودُكَ جَمَّةٌ وَخِزَانَتُكَ عَامِرَةٌ ، ونفسك سَخِيَّةٌ ، وَأَمْرُكَ نَافِذٌ .

فأجابه المهدي : إن المشاورة والمناظرة بابا رحمة ومفتاحا بركة ، لا يهلك عليهما رأى ولا يتغيب معهما حزم ، فأشيروا برأيكم وقولوا بما يحضرُكم ، فإني من ورائكم ، وتوفيق الله من وراء ذلك .

قال الربيع : أيها المهدي ، إن تصارييف وجوه الرأى كثيرة ، وإن الإشارة ببعض معاريف القول يسيرة ، ولكن خراسان أرض بعيدة المسافة ، متراخية الشقة متفاوتة السبيل ، فإذا ارتأيت من مُحكم التدبير ومبرم التقدير ولُباب الصواب رأياً ، قد أحكمه نظرك ، وقلبه تدبيرك ؛ فليس وراءه مذهب طاعن ، ولا دونه معلق لخصومة عائب . ثم خبت البرد به ، وانطوت الرُسل عليه كان بالجرى أن لا يصل مُحكمه . إلا وقد حدث منهم ما ينقضه ، فما أيسر أن ترجع إليك الرُسل ، وترد عليك الكتب بحقائق أخبارهم وشوارد آثارهم ومصادر أمورهم فتحدث رأياً غيره وتبتدع تدبيراً سواه . وقد انفرجت الحلقي ، وتحلت العقد ، واسترخى الحجاب ، وامتد الزمان ثم لعلمك موقع الآخرة كمصدر الأولى ولكن الرأى أيها المهدي ، وفقك الله ، أن تصرف إجمالة النظر وتقلب الفكر فيما جمعنا له ، واستشرتنا فيه من التدبير لحربهم والحيل في أمرهم إلى الطلب لرجل ذي دين فاضل وعقل كامل وورع واسع ليس موصوفاً بهوى في سواك ، ولا متهماً في أثره عليك ، ولا ظنيناً على دخلة مكروهة ولا منسوباً إلى بدعة محدورة ، فيقصد في ملكك ويرى في الأمور لغيرك ، ثم تُسند إليه أموره وتُفوض إليه حربهم وتأميره في عهدك . وصيتك إياه بلزوم أمرك ما لزمه الحزم ، وخلاف نيك إذا خالفه الرأى عند استحالة الأمور واشتداد الأحوال التي ينقض (١) أمر الغائب عنها ، ويثبت رأى الشاهد لها ، فإنه إذا فعل ذلك ؛ فواشَب

أَمَرَهُمْ مِنْ قَرِيبٍ ، وَسَقَطَ عَنْهُ مَا يَأْتِي مِنْ بَعِيدٍ ، تَمَّتِ الْحِيلَةُ ، وَقَوِيَتْ الْمَكِيدَةُ ، وَنَفِذَ الْعَمَلُ وَأُحْدِ النَّظَرُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قال الفضل بن عباس :

أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ ، إِنْ وَلَّى الْأُمُورَ وَسَائِسَ الْحُرُوبِ رَجَا نَحْيَ جُنُودِهِ وَفَرَّقَ أَمْوَالَهُ فِي غَيْرِ مَاضِيْقٍ أَمْرِ حَزْبِهِ ، وَلَا ضَغْطَةَ حَالٍ اضْطَرَّتْهُ فَيَقْعُدُ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا وَبَعْدَ التَّفَرُّقَةِ لَهَا عَدِيْعًا مَنَهَا فَاقْدًا لَهَا ، لَا يَتَّقِي بِقُوَّةٍ وَلَا يَصُولُ بَعْدَةً ، وَلَا يَفْرُغُ إِلَى ثِقَةٍ ، فَالرَّأْيُ لَكَ أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ وَقَفَّكَ اللَّهُ أَنَّ تَعْنِيَ خَزَائِنُكَ مِنَ الْإِنْفَاقِ لِلْأَمْوَالِ وَجُنُودِكَ مِنْ مُكَابِدَةِ الْأَسْفَارِ وَمُقَارَعَةِ الْأَخْطَارِ وَتَغْيِيرِ الْقِتَالِ ، وَتُسْرِعَ لِلْقَوْمِ فِي الْإِجَابَةِ إِلَى مَا يَطْلُبُونَ ، وَالْعَطَاءُ لِمَا يَسْأَلُونَ ، فَيَفْسُدُ عَلَيْكَ أَدْبَهُمْ وَتَجْرَى مِنْ رَعِيَّتِكَ غَيْرُهُمْ ، وَلَكِنْ اغْزُهُمْ بِالْحِيلَةِ وَقَاتِلْهُمْ بِالْمَكِيدَةِ وَصَارِعْهُمْ بِاللِّينِ وَخَاتِلْهُمْ بِالرَّفْقِ وَأَبْرِقْ لَهُمْ بِالْقَوْلِ وَأَرْعُدْ نَحْوَهُمْ بِالْفِعْلِ وَابْعَثِ الْبُعُوثَ وَجَنِّدِ الْجُنُودَ وَكُتِّبِ الْكِتَابَ وَاعْقِدِ الْأَلْوِيَةَ وَانْصِبِ الرِّايَاتِ وَأَظْهَرِ أَنَّكَ مُوجَّهٌ إِلَيْهِمْ الْجِيُوشَ مَعَ أَحْنَقِ قَوَادِكَ عَلَيْهِمْ وَأَسْوئُهُمْ أَثَرًا فِيهِمْ ، ثُمَّ أَدَسَسِ الرِّسْلَ ، وَابْتَثُ الْكِتَبَ ، وَضَعْ بَعْضَهُمْ عَلَى طَمْعٍ مِنْ وَعْدِكَ وَبَعْضًا عَلَى خَوْفٍ مِنْ وَعِيدِكَ ، وَأَوْقَدْ بِذَلِكَ وَأَشْبَاهَهُ نِيرَانَ التَّحَاوُسِ فِيهِمْ وَاغْرِسْ أَشْجَارَ التَّنَافُسِ بَيْنَهُمْ ، حَتَّى تَمَلَأَ الْقُلُوبُ مِنَ الْوَحْشَةِ ، وَتَنْطَوِي الصُّدُورُ عَلَى الْبَغْضَةِ ، وَيَدْخُلُ كَلَامٌ مِنْ كُلِّ الْحَذَرِ وَالْهَيْبَةِ . فَإِنْ مَرَامَ الظَّفَرِ بِالْغِيلَةِ وَالْقِتَالِ بِالْحِيلَةِ وَالْمُنَاصِبَةِ بِالْكِتَابِ ، وَالْمُكَايَدَةِ بِالرِّسْلِ ، وَالْمُقَارَعَةَ بِالْكَلَامِ اللَّطِيفِ الْمُدْخِلِ فِي الْقُلُوبِ ، الْقَوَى الْمَوْقِعِ مِنَ النُّفُوسِ ، الْمَعْقُودَ بِالْحَجَجِ الْمَوْصُولَ بِالْحِيلِ الْمَبْنِي عَلَى اللَّيْنِ الَّذِي يَسْتَمِيلُ الْقُلُوبَ ، وَيَسْتَرْقِ الْعُقُولَ وَالْآرَاءَ ، وَيَسْتَمِيلُ الْأَهْوَاءَ ، وَيَسْتَدْعِي الْمَوَاتَانَةَ ؛ أَنْفَذَ مِنَ الْقِتَالِ بَطِّيَّاتَ السُّيُوفِ وَأَسِنَّةَ الرِّمَاحِ ، كَمَا أَنَّ الْوَالِيَّ الَّذِي يَسْتَنْزِلُ طَاعَةَ رَعِيَّتِهِ بِالْحِيلِ ، وَيُفَرِّقُ كَلِمَةَ عَدُوِّهِ بِالْمُكَايَدَةِ أَحْكَمَ عَمَلًا وَأَلْطَفَ مَنْظَرًا وَأَحْسَنَ سِيَاسَةً ، مِنَ الَّذِي لَا يَنْالُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْقِتَالِ ، وَالْإِتْلَافِ لِلْأَمْوَالِ وَالتَّغْيِيرِ ، وَالْخِطَارِ .

وليُعلم المهدي ، أَنَّهُ إِن وَجَّهَ لِقِتَالِهِمْ رَجُلًا لَمْ يَسِرْ لِقِتَالِهِمْ إِلَّا بِجُنُودٍ كَثِيفَةٍ تَخْرُجُ عَنْ حَالٍ شَدِيدَةٍ ، وَتُقَدِّمُ عَلَى أَسْفَارِ ضَيْقَةٍ وَأَمْوَالٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَقُوَادِ غَشَشَةٍ إِنِ اتَّمَنَّهُمْ اسْتَنْفَدُوا مَالَهُ ، وَإِنِ اسْتَنْصَحَهُمْ كَانُوا عَلَيْهِ لَا لَهُ . قَالَ الْمَهْدِيُّ : هَذَا رَأْيٌ قَدْ أَسْفَرَ نُورَهُ ، وَأَبْرَقَ ضَوْؤَهُ ، وَتَمَثَّلَ صَوَابُهُ لِلْعَيُونِ وَمَجْدُ حَقِّهِ فِي الْقُلُوبِ ، وَلَكِنْ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلْمٌ ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى ابْنِهِ عَلَى فَقَالَ : مَا تَقُولُ ؟

قَالَ عَلِيٌّ : أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ إِنِ أَهْلَ خِرَاسَانَ لَمْ يَخْلَعُوا عَنْ طَاعَتِكَ وَلَمْ يَنْصَبُوا مِنْ دُونِكَ أَحَدًا يَقْدَحُ فِي تَغْيِيرِ مُلْكِكَ وَيَرِيضُ الْأُمُورَ لِفَسَادِ دَوْلَتِكَ ، وَلَوْ فَعَلُوا لَكَانَ الْخُطْبُ أَيْسَرَ وَالشَّأْنُ أَصْغَرَ وَالْحَالُ أَدَلَّ ، لِأَنَّ اللَّهَ مَعَ حَقِّهِ الَّذِي لَا يَخْذُلُهُ وَعِنْدَ مَوْعِدِهِ الَّذِي لَا يُخْلِفُهُ ، وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ مِنْ رَعِيَّتِكَ وَطَائِفَةٍ مِنْ شِيعَتِكَ الَّذِينَ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْوَالِيَّ وَجَعَلَ الْعَدْلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ حَاكِمًا ، طَلَبُوا حَقًّا وَسَلَّوْا إِنْصَافًا فَإِنِ أَجَبْتَ إِلَى دَعْوَتِهِمْ وَنَفَسْتَ عَنْهُمْ قَبْلَ أَنْ يَتْلَاحَمَ مِنْهُمْ حَالٌ ، أَوْ يَحْدُثَ مِنْ عِنْدِهِمْ فَتَقٌ ، أَطَعْتَ أَمْرَ الرَّبِّ وَأَطْفَأْتَ ثَائِرَةَ الْحَرْبِ ، وَوَفَرْتَ خَزَائِنَ الْمَالِ وَطَرَحْتَ تَغْيِيرَ الْقِتَالِ ، وَحَمَلْتَ النَّاسَ مَحْمَلًا ذَلِكَ عَلَى طَبِيعَةِ جُودِكَ وَسَجِيَّةِ حِلْمِكَ وَأَسْجَاعِ خَلِيقَتِكَ ، وَمَعْدَلَةَ نَظَرِكَ ، فَأَمَنْتَ أَنْ تَنْسَبَ إِلَى ضَعْفٍ ، أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِيمَا بَقِيَ دُرْبَةٍ ، وَإِنِ مَنَعْتَهُمْ مَا طَلَبُوا وَلَمْ تَجِبْهُمْ إِلَى مَا سَأَلُوا اعْتَدَلْتَ بِكَ وَبِهِمُ الْحَالُ ، وَسَاوَيْتَهُمْ فِي مَيْدَانِ الْخُطَابِ - فَمَا أَرَبَ الْمَهْدِيُّ أَنْ يَعُدَّ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْ رَعِيَّتِهِ مُقَرِّينَ بِمَمْلَكَتِهِ مُذْعِنِينَ بِطَاعَتِهِ لَا يَخْرُجُونَ أَنْفُسَهُمْ عَنْ قُدْرَتِهِ ، وَلَا يَبْرِئُونَهَا مِنْ عِبُودِيَّتِهِ فَيُملِكُهُمْ أَنْفُسَهُمْ ، وَيَخْلَعُ نَفْسَهُ عَنْهُمْ وَيَقِفُ عَلَى الْحِيلِ مَعَهُمْ ، ثُمَّ يَجَازِيهِمُ السُّوءَ فِي حَدِّ الْمَنَازَعَةِ وَمُضْمَارِ الْمَخَاطَرَةِ - أَيْرِيدُ الْمَهْدِيُّ وَفَقَهُ اللَّهُ الْأَمْوَالَ ؟ فَلَعَمْرِي لَا يَنْدَالُهَا ، وَلَا يَظْفَرُ بِهَا إِلَّا بِإِنْفَاقٍ أَكْثَرَ مِنْهَا مِمَّا يَطْلُبُ مِنْهُمْ ، وَأَضْعَافُ مَا يَدَّعَى قَبْلَهُمْ ، وَلَوْ نَالَهَا فَحُمِلَتْ إِلَيْهِ أَوْ وَضَعَتْ بِخَرَائِطِهَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ تَجَافَى لَهُمْ عَنْهَا وَطَالَ عَلَيْهِمْ بِهَا ،

(١٦ - جواهر الأدب ج ١)

لكان مما إليه ينسب وبه يعرف من الجود الذي طبعه الله عليه وجعل قرّة عينه ونهمة نفسه فيه ، فإن قال المهدي هذا رأى مستقيم سديد في أهل الخراج الذين شكوا ظلم عمالنا ، وتحامل ولاننا ؛ فأما الجنود الذين نقضوا موافيق العهود وأنطقوا لسان الإرجاف ، وفتحوا باب المعصية وكسروا قيد الفتنة ، فقد ينبغي لهم أن أجعلهم نكالا لغيرهم وعظة لسواهم ، فيعلم المهدي أنه لو أتى بهم مغلولين في الحديد ، مقررّين في الأصفاة ، ثم اتسع لحقن دمائهم عفوة ، وإقالة عشرتهم صفحه ، واستبقاهم لما فيه من حربه ، أو لمن بإزائهم من عدوه لما كان بدعاً من رأيه ولا مستنكراً من نظره .

لقد علمت العرب أنه أعظم الخلفاء والملوك عفواً وأشدّها وقعاً وأصدقها صولة وأنه لا يتعاضمه عفو ، ولا يتكأده صفح ، وإن عظم الذنب وجل الخطب ، فالرأى للمهدي وفقه الله تعالى أن يحل عقدة الغيظ بالرجاء لحسن ثواب الله في العفو عنهم وأن يذكر أولى حالاتهم وضيعه عيالاتهم براهم ، وتوسعاً لهم فإنهم إخوان دولته وأركان دعوته ، وأساس حقه الذين بعزّتهم يصول ، وبحجّتهم يقول ، وإنما مثلهم فيما دخلوا فيه من مساخطه وتعرضوا له من معاصيه وانطوا فيه عن إجابته ، ومثله في قلة ماغيّر من رأيه فيهم أو نُقل من حاله لهم أو تغيّر من نعمته بهم ، كمثّل رجلين أخوين مُتناصرين متوازيين أصاب أحدهما خجل عارض ولهو حادث فنهض إلى أخيه بالأذى وتحامل عليه بالمكروء ، فلم يزدد أخوه إلا رقة له ولطفاً به واحتياالا لمداواة مرضه ومراجعة حاله عطفاً عليه وبرّاً به ومرحمة .

فقال المهدي : أما على فقد نوى سمت اللّيان وفض القلوب من أهل خراسان ولكل نبأ مستقر . ثم قال : ماذا ترى يا أبا محمد (يعني موسى ابنه) فقال موسى :

أيها المهدي ، لا تسكن إلى حلاوة ما يجري من القول على ألسنتهم وأنت ترى الدماء تسيل من خلل فعلهم ، الحال من القوم ينادى بمضمة شر وخفية

حقد قد جعلوا المعاذير عليها سترا واتخذوا العلل من دونها حجاباً ، رجاء أن يدافعوا الأيام بالتأخير ، والأمور بالتطويل ، فيكسروا حيل المهدي فيهم ويفنوا جنوده عنهم : حتى يتلاحم أمرهم ، وتتلاحق مآذمتهم ، وتستفحل حربهم وتستمر الأمور بهم ؛ والمهدي من قولهم في حال غرّة ولباس أمانة ، قد فتر لها وأنس بها وسكن إليها ، ولولا ما اجتمعت به قلوبهم ، وبردت عليه جلودهم من المناصب بالقتال ، والإضرار للقراع عن داعية ضلال أو شيطان فساد لرهبوا عواقب أخبار الولاة . وغبّ سكون الأمور فليشد المهدي - وفقه الله - أزره لهم ويكتب كتائبه نحوهم ، وليضع الأمر على أشد ما يحضره فيهم ، وليوقن أنه لا يعطيهم خطة يريد بها صلاحهم إلا كانت دربة إلى فسادهم وقوة على معصيتهم ، وداعية إلى عودتهم وسبباً لفساد من بحضرته من الجنود ، ومن ببابه من الوفود ، الذين إن أقرهم وتلك العادة وأجراهم على ذلك الأرب . ولم يبرح في فتق حادث وخلاف حاضر ، لا يصلح عليه دين ، ولا تستقيم به دنيا ، وإن طلب تغييره بعد استحكام العادة ، واستمرار الدربة لم يصل إلى ذلك إلا بالعقوبة المفرطة والمؤونة الشديدة . والرأي للمهدي وفقه الله أن لا يثقل عثرتهم . ولا يقبل معذرتهم حتى تطأهم الجيوش ، وتأخذهم السيوف ، ويستحربهم القتل ويحرق بهم البلاء ويطبق عليهم الذل ، فإن فعل المهدي ذلك كان مقطعة لكل عادة سوء فيهم ؛ وهزيمة لكل بادرة شر منهم ، واحتمال المهدي في مئونة غزوتهم هذه تضع عنه غزوات كثيرة ، ونفقات عظيمة .

فقال المهدي : قد قال القوم ، فاحكم يا أبا الفضل !

فقال العباس بن محمد :

أيها المهدي : أما (الموالي) فأخذوا بفروع الرأي وسلوكوا جنبات الصواب وتعدوا أموراً قصراً بنظرهم عنها أنه لم تأت تجاربهم عليها . وأما (الفضل) فأشار بالأموال أن لا تنفق ، والجنود أن لا تنفرق ، وبأن لا يعطى القوم ما

ما طلبوا ، ولا يبذل لهم ما سألوا ، وجاء بأمرٍ بين ذلك استصغاراً لأمرهم ، واستهانة بحربهم ، وإنما يهيج جسيات الأمور صغارها .

وأما (علي) فأشار باللين وإفراط الرفق ، وإذا جرّد الوالى لمن غمط. أمره وسفه حقه اللين بحثاً ، والخير محضاً ، لم يخلطها بشدة تعطف القلوب عن لينه ، ولا بشر يحبسهم إلى خيره ، فقد ملكهم الخلع لعذرهم ، ووَّسع لهم الفرجة لثنى أعناقهم ، فإن أجابوا دعوته وقبلوا لينه من غير خوف اضطهرهم ولا شدة ، فنزوة فى رغووسهم يستدعون بها إلى أنفسهم ، ويستصرخون بها رأى المهدي فيهم ، وإن لم يقبلوا دعوته ويسرعوا لإجابته باللين المحض والخير الصَّراح ، فذلك ما عليه الظن بهم ، والرأى فيهم ، وما قد يشبه أن يكون من مثلهم ، لأن الله تعالى خلق الجنة وجعل فيها من النعيم المقيم ، والملك الكبير ما لا يخطر على قلب بشر ولا تُدرِّكه الفكر ، ولا تعلمه نفس ، ثم دعا الناس إليها ورغبهم فيها ، فلو لا أنه خلق ناراً جعلها لهم رحمة يسوقهم بها إلى الجنة لما أجابوا ولا قبلوا .

وأما (موسى) فأشار بأن يُعصَّبوا بشدة لالين فيها ، وأن يُرمَوْا بشر لاخير معه ، وإذا أضمر الوالى لمن فارق طاعته وخالف جماعته الخوف مفرداً ، والشرّ مجرداً ليس معهما طمع ولا لين يثنهم اشتدت الأمور بهم ، وانقطعت الحال منهم إلى أحد أمرين إما أن تدخلهم الحمية من الشدة ، والأنفة من الذلة ، والامتعاظ من القهر ، فيدعوهم ذلك إلى التماهى فى الخلاف والاستبسال فى القتال والاستسلام للموت ، وإما أن ينقادوا بالكُرْه ويذعنوا بالقهر على بغضة لازمة وعداوة باقية تورث النفاق وتعقب الشقاق ، فإذا أمكنتهم فرصة أو ثابت لهم قدوة أو قويت لهم حال ، عاد أمرهم إلى أصعب وأغلظ. وأشد مما كان .

وقال فى قول الفضل : أيها المهدي أكفى دليل ، وأوضح برهان ، وأبين خبر بآن قد أجمع رأيه وحزم نظره على الإرشاد ببعثه الجيوش إليهم ، وتوجيه

البعوث نحوهم مع إعطائهم ماسألوا من الحق ، وإجابتهم إلى ماسألوه من العدل .
قال المهدي : ذلك رأى .

قال هارون : ما خلطت الشدة باللين ، فصارت الشدة أَمَرٌ فطام لما
تكره ، وعاد اللين أهدى قائد إلى ماتحب ، ولكن أرى غير ذلك .
قال المهدي : لقد قلت قولاً بديعاً ، وخالفت فيه أهل بيتك جميعاً ،
والمرء مؤتمن بما قال وظنين بما ادعى ، حتى يأتى ببينة عادلة وحجة ظاهرة ،
فاخرج عما قلت .
قال هارون :

أيها المهدي : إن الحرب خُذعة ، والأعاجم قوم مكره . وربما اعتدلت الحال
بهم ، واتفقت الأهواء منهم فكان باطن مأيُسرون على ظاهر ما يُعلنون ، وربما
افترق الحالان ، وخالف القلب اللسان ، فانطوى القلب على محجوبة تبطن
واستسر بمدخولة لاتعلن ، والطبيب الرفيق بطبه ، البصير بأمره ، العالم بمقدم يده
وموضع ميسمه ، لا يتعجل بالدواء حتى يقع على معرفة الداء ، فالرأى للمهدي
وفقه الله أن يَفِرَّ باطن أمرهم فَرَّ المُسِنَّة ويمخض ظاهر حالهم مخض السقاء بمتابعة
الكتب ومظاهرة الرُّسل . وموالاة العُيون ، حتى تُهتَكَ حُجُب عيونهم ، وتكشف
أغطية أُمورهم ، فإن انفرجت الحال ، وأفضت الأمور إلى تغيير حال ، أوداعية
ضلال اشتملت الأهواء عليه ، وانقاد الرجال إليه وامتدت الأعناق نحوه بدين
يعتقدونه وإثم يستحلونه ، عَصَبهم بشدة لالين فيها ، ورماهم بعقوبة لاعفو
معها ، وإن انفرجت العيون واهتُصرت الستور ورُفِعَت الحُجُب ، والحال فيها
مريعة والأُمور بهم معتدلة في أرزاق يطلبونها وأعمال ينكرونها وظلامات يدعونها ،
وحقوق يسألونها ، بماتَّةٍ سابقتهم ودالة مناصحتهم ، فالرأى للمهدي وفقه الله
أن يتسع لهم بما طلبوا ويتجافى لهم عما كرهوا ويشعَبَ من أمرهم ما صدعوا ،
ويَرْتَقَ من فتقهِهم ما قطعوا ، ويولى عليهم من أحبوا ويُداوى بذلك مَرَضَ

قلوبهم وفساد أمورهم ، فإنما المهدي من أمتة وسواد أهل مملكته بمنزلة الطبيب الرفيق والوالد الشفيق والراعي المُجَرَّب الذي يحتال لمرابض غنمه ، وضوال رعيته حتى يُبرئ المريضة من داء علتها ويرد الصحة إلى أنس جماعتها ثم إن خراسان بخاصة الذين لهم دالة محمولة ، ومائة مقبولة ، ووسيلة معروفة ، وحقوق واجبة ؛ لأنهم أيدي دولته وسيوف دعوته وأنصار حقه وأعوان عدله ، فليس من شأن المهدي الاضطغان عليهم ولا المؤاخذه لهم ، ولا التوعر بهم ولا المكافأة بإساءتهم ؛ لأن مبادرة حسم الأمور ضعيفة قبل أن تقوى ، ومحاولة قطع الأصول ضئيلة قبل أن تغلظ . أحزم في الرأي وأصح في التدبير من التأخير لها والتهاون بها حتى يلتئم قليلها بكثيرها وتجتمع أطرافها إلى جمهورها .

قال المهدي : مازال هارون يَقَعُ وَقَعَ الحيا حتى خرج خُروج القدح من الماء وانسل انسلال السيف فيما ادعى ، فدَعُوا ما سبق موسى فيه فإنه هو الرأي وثنى بعده هارون ؛ ولكن من لأَعِنَّة الخيل وسياسة الحرب وقادة الناس إن أمعن بهم اللجاج وأفرطت بهم الدالة ؟ !

قال صالح بن علي : لسنا نبليغ أيها المهدي بدوام البحث وطول الفكر أدنى فِرَاسة رأيك وبعض لحظات نظرك ، وليس يَنْقُصُ عنك من بيوتات العرب ورجالات العجم ذو دين فاضل ورأي كامل وتدبير قوى تقلده حُرْبُك وتستودعه جندك ، ممن يحتمل الأمانة العظيمة ويضطلع بالأعباء الثقيلة ، وأنت ، بحمد الله ، ميمون النقية مبارك العزيمة ، مخبور التجارب ، محمود العواقب ، معصوم العزم فليس يقع اختيارك ولا يقف نظرك على أحد توليه أمرك وتسند إليه ثغرك إلا أراك الله ما تحب وجمع لك منه ما تريد .

قال المهدي : إني لأرجو ذلك لتقديم عادة الله فيه وحسن معاونته عليه ولكني أحب الموافقة على الرأي والاعتبار للمشاورة في الأمر المهم .

قال محمد بن الليث : أهل خراسان قَوْمٌ ذَوُو عِزَّةٍ وَمَنْعَةٍ وشياطين خَدَعَةٍ ،
 زُرُوعِ الْحِمِيَّةِ فِيهِمْ نَابِتَةٌ ، وَمَلَابِسِ الْأَنْفَةِ عَلَيْهِمْ ظَاهِرَةٌ ، فَالرُّوِيَّةُ عَنْهُمْ عَازِبَةٌ
 وَالْعَجَلَةُ عَنْهُمْ حَاضِرَةٌ ، تَسْبِقُ سَيُولُهُمْ مَطَرُهُمْ وَسَيُوفُهُمْ عَذْلُهُمْ ، لِأَنَّهُمْ بَيْنَ سَفَلَةٍ
 لَا يَعْدُو مَبْلَغَ عَقُولِهِمْ مَنْظَرِ عُيُونِهِمْ ، وَبَيْنَ رُؤَسَاءٍ لَا يُلْجِمُونَ إِلَّا بِشِدَّةٍ ،
 وَلَا يَفْتَنُونَ إِلَّا بِالْمُرِّ ، وَإِنْ وَلَّى الْمَهْدَى عَلَيْهِمْ وَضِيْعًا لَمْ تَنْقُدْ لَهُ الْعِظْمَاءُ ،
 إِنْ وَلَّى أَمْرَهُمْ شَرِيفًا تَحَامَلُ عَلَى الضَّعْفَاءِ ، وَإِنْ أَخْرَجَ الْمَهْدَى أَمْرَهُمْ وَدَافِعَ
 حَرْبَهُمْ حَتَّى يَصِيبَ لِنَفْسِهِ مِنْ حَشْمِهِ وَمَوَالِيهِ أَوْ بَنَى عِمَهُ أَوْ بَنَى أَبِيهِ ، نَاصِحًا
 يَتَّفَقُ عَلَيْهِ أَمْرُهُمْ وَثِقَةٌ تَجْتَمِعُ لَهُ أَمَلَاؤُهُمْ بَلَا أَنْفَةٍ تَلْزِمُهُمْ وَلَا حِمِيَّةٍ تَدْخُلُهُمْ
 وَلَا مَصِيبَةٍ تَنْفَرُّهُمْ ، تَنْفَسَتْ الْأَيَّامُ بِهِمْ وَتَرَاحَتْ الْحَالُ بِأَمْرِهِمْ ، فَدَخَلَ بِذَلِكَ
 مِنَ الْفَسَادِ الْكَبِيرِ ، وَالضِّيَاعِ الْعَظِيمِ مَا لَا يَتَلَفَّاهُ صَاحِبُ هَذِهِ الصِّفَةِ وَإِنْ جَدَّ ،
 وَلَا يَسْتَصْلِحُهُ وَإِنْ جَهْدَ ، إِلَّا بَعْدَ دَهْرٍ طَوِيلٍ ، وَشَرِّ كَبِيرٍ ، وَلَيْسَ الْمَهْدَى -
 وَفَقَهُ اللَّهُ - فَاطِمًا عَادَاتِهِمْ وَلَا قَارِعًا صِفَاتِهِمْ بِمَثَلِ أَحَدِ رَجُلَيْنِ لَثَالِثَ لِهَمَّا
 وَلَا عَدَلَ فِي ذَلِكَ بَهُمَا : أَحَدُهُمَا لِسَانٌ نَاطِقٌ مَوْصُولٌ بِسَمْعِكَ وَيَدٌ مُمَثِّلَةٌ لِعَيْنِكَ
 وَصَخْرَةٌ لَا تُزْعَزَعُ وَبَهْمَةٌ لَا تُشْنَى ، وَبَازِلٌ لَا يَفْزَعُهُ صَوْتُ الْمَجْلَجِلِ ، نَقَى الْعَرَضَ
 نَزِيهَ النَّفْسِ جَلِيلَ الْخَطَرِ ، قَدْ اتَّضَعْتَ الدُّنْيَا عَنْ قَدْرِهِ ، وَسَمَا نَحْوِ الْآخِرَةِ
 بِهِمَتِهِ فَجَعَلَ الْغَرَضَ الْأَقْصَى لِعَيْنِهِ نَصْبًا ، وَالْغَرَضَ الْأَدْنَى لِقَدَمِهِ مَوْطَأً ، فَلَيْسَ يَقْبَلُ
 عَمَلًا . وَلَا يَتَعَدَّى أَمَلًا وَهُوَ رَأْسُ مَوَالِيكَ وَأَنْصَحَ بَنَى أَبِيكَ ، رَجُلٌ قَدْ غُذِيَ
 بِلَطِيفِ كِرَامَتِكَ وَنَبَتَ فِي ظِلِّ دَوْلَتِكَ وَنَشَأَ عَلَى قَوَائِمِ أَدْبِكَ فَإِنْ قَلَدْتَهُ أَمْرَهُمْ
 وَحَمَلْتَهُ ثِقْلَهُمْ وَأَسْنَدْتَ إِلَيْهِ ثَغْرَهُمْ ، كَانَ قَفْلًا فَتَحَهُ أَمْرُكَ وَبَابًا أَغْلَقَهُ
 نَيْكَ ، فَجَعَلَ الْعَدْلَ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَمِيرًا وَالْإِنْصَافَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ حَاكِمًا .
 وَإِذَا حَكَمَ الْمُنْصِفَةَ وَسَلَكَ الْمَعْدِلَةَ فَأَعْطَاهُمْ مَا لَهُمْ وَأَخَذَ مِنْهُمْ مَا عَلَيْهِمْ ، غَرَسَ
 لَكَ فِي الَّذِي بَيْنَ صُدُورِهِمْ ، وَأَسْكَنَ لَكَ السُّوَيْدَاءَ دَاخِلَ قُلُوبِهِمْ ، طَاعَةَ رَاسِخَةٍ
 الْعُرُوقِ بِاسْقَةِ الْفُرُوعِ مِتَابِلَةٍ فِي حَوَاشِي عَوَامِهِمْ . مِتْمَكِّنَةٌ مِنْ قُلُوبِ خَوَاصِهِمْ ،

فلا يبقى ريبٌ إلا نفوه ولا يلزمهم حقٌ إلا أدوه ، وهذا أحدهما . والآخر عُودٌ من غيظتكم ، أو نَبْعَةٌ من أرومتِك ، فتيُّ السِّنِّ كهلُ الحِلْمِ راجحُ العقل محمود الصَّرامة مأمونُ الخلاف يُجَرِّدُ فيهم سيفُهُ ويبسطُ عليهم خيرَه بقدر ما يستحقون وعلى حسب ما يستوجبون وهو «فُلَانٌ» أيُّهَا المهدي - فسلطه أَعَزَّكَ اللهُ عليهم ، ووجَّهُهُ بالجيوش إليهم ولا تمنعك ضراعةُ سنِّه وحداثة مولده فإن الحِلْمَ والثقة مع الحداثة خيرٌ من الشكِّ والجَهْلِ مع الكُھُولَةِ ، وإنما أحداثُكم أهلُ البيت فيما طبعكم الله عليه ، واختصَّكم به من مكارم الأخلاق ومحامد الفِعال ومحاسن الأمور و صواب التدبير وصرامة الأنفس كفراخِ عِناق الطير (١) المُحكَّمة لأخذ الصَّيد بلا تَدْرِيب ، والعارفة لوجوه النفع بلا تَأْدِيب ، فالحلم ، والعلم ، والعزم ، والحزم ، والتَّؤَدَةُ ، والرَّفْقُ ، ثابت في صُدُوركم مزروع في قلوبكم ، مُستحکم لکم متکامل عندكم ، بطبائع لازمة ، وغرائز ثابتة .

قال معاوية بن عبد الله :

أفتاء (١) أهل بيتك أيها المهدي في الحلم على ما ذكر ، وأهل خراسان في حال عز على ما وصف ؛ ولكن إن ولي المهدي عليهم رجلاً ليس بقدر الذَّكر في الجنود ولا بنبيه الصوت في الحروب ولا بطويل التَّجربة للأُمُور ، ولا بمعروف السياسة للجيوش والهيبة في الأعداء ، دخل ذلك أمران عظيمان ، وخطران مهولان أحدهما : أَنَّ الأعداء يَغْتَمِزُونَهَا منه ويحتقرونها فيه ويجترئون بها عليه في النهوض به والمقارعة له والخلاف عليه قبل الاختبار لأمره ، والتكشِف لحاله والعلم بطباعه . والأمر الآخر : أَنَّ الجنود التي يقود ، والجيوش التي يمسوس إذا لم يختبروا منه البأس والنَّجْدَةُ ، ولم يعرفوه بالصَّيِّت والهيبة انكسرت شجاعتهم وماتت نجدتهم واستأخرت طاعتهم ، إلى حين اختبارهم

(١) عناق الطير : الجوارح منها .

(٢) أفتاء : أصحاب الفتوة من الشبان ، جمع فتى ، كيتيم وإيتام .

ووقوع معرفتهم ، وربما وقع البوار قبل الاختبار ، وبياب المهدي - وفقه الله - رجل مهيب نبیه حَنِيكُ صَيِّتٌ له نسب زاك وصوت عالٍ قد قاد الجيوش وساد الحروب وتألّف أهل خراسان ، واجتمعوا عليه بالمِقة (١) ووثقوا به كل الثقة ، فلو ولاه المهدي أمرهم لكفاه الله شرهم .

قال المهدي : جانبت قصد الرمية وأبيّت إلا عصبية ، إذ رأى الحدث من أهل بيتنا كراي عشرة حلماء من غيرنا ؛ ولكن أين تركتم ولي العهد ؟

قالوا : لم يَمْنَعْنَا من ذكره إلا كونه شبيه جده ونسيج وحده ، ومن الدين وأهله ، بحيث يقصّر القول عن أدنى فضله ، ولكن وجدنا الله عزّ وجل حجب عن خلقه وسرّ دون عبادته علم ماتخلف به الأيام ، ومعرفة ماتجرى عليه المقادير من حوادث الأمور ، ورّيب المنون المخترمة لخوالى القرون ، ومواضى الملوك ، فكرهنا شُسوعه عن محلة الملك ودار السلطان ، ومقرّ الإمامة والولاية ، وموضع المدائن والخزائن ، ومستقرّ الجنود ومعدن الجود ، ومجمع الأموال التي جعلها الله قُطباً لدار الملك ، ومضيدة لقلوب الناس ، ومثابة لإخوان الطمع وثوار الفتن ، ودواعي البدع ، وفرسان الضلال ، وأبناء الموت ؛ وقلنا : إن وجّه المهدي ولي عهده فحدث في جيوشه وجنوده ما قد يحدث بجنود الرسل من قبله ، لم يستطع المهدي أن يُعقبهم بغيره إلا أن ينهض إليهم بنفسه ، وهذا خطر عظيم وهول شديد ، إن تنفست الأيام بمقامه واستدارت الحال بإمامه ، حتى يقع عوض لا يُستغنى عنه ، أو يحدث أمر لا بد منه صار ما بعده مما هو أعظم هولاً ، وأجل خطراً له تبعاً وبه متصلاً .

قال المهدي : ألُخطب أيّسر مما تذهبون إليه ، وعلى غير ما تصفون الأمر عليه . نحن أهل البيت نجرى من أسباب القضايا ومواقع الأمور على سابق من العلم ،

ومحتوم من الأمر ، قد أنبأت به الكتب ونبأت عليه الرسل ، وقد تناهى ذلك
باجتماعه إلينا وتكامل بحذافيره عندنا ، فيه ندبر وعلى الله نتوكل . إنه لا بُدَّ لِرَؤْيٍ
عهدي وولى عهد عَقْبِي بعدى ، أن يقود إلى خراسان البعوث ويتجه نحوها
بالجنود ؛ أَمَّا الْأَوَّلُ فَإِنَّهُ يَقدم إليهم رسله ويُعمل فيهم حيلة ثم يخرج نشيطاً إليهم
حَنِقاً عليهم ، يريد أن لا يَدَعَ أحداً من إخوان الفتن ودواعى البدع ، وفُرْسَانِ
الضلال إلا توطأه بحرّ القتل وألبسه قِنَاعَ القهر ، وقلده طوقَ الذل ؛ ولا أحداً
من الذين عملوا فى قص جناح الفتنة وإخماد نار البدعة ونُصرةِ وُلاةِ الحقِّ
إلا أجرى عليهم ديمَ فضله وجدّاول نهاله ، فإذا خرج مُزِعِماً به مجمعاً عليه لم يسِرْ
إلا قليلاً حتى تَتَّيَّه أن قد عملت حيلُهُ ، وكدحت كُتُبُهُ ونفذت مكايده ،
فهدأت نافرة القلوب ووقعت طائرة الأهواء واجتمع عليه المختلفون بالرضا فيميل
نظراً لهم وبرّاً بهم وتعطفاً عليهم إلى عَدُوِّ قد أخاف سبيلهم وقطع طريقهم
ومنع حُجَّاجَهُم بيتَ الله الحرام ، وسلب تجارهم رِزْقَ الله الحلال . وأَمَّا الْآخِرُ ،
فإنه يُوجِّه إليهم ، ثم تُعقد له الحجة عليهم بإعطاء ما يطلبون وبذل ما يسألون ،
فإذا سَمِعَتِ الفرقَ بقراباتها له وجنح أهل النواحي بأغناقهم نحوه ، فأصغت
إليه الأئمة واجتمعت له الكلمة وقدمت عليه الوُفودُ قصدَ الأول ناحية بجعت
بطاعتها وألقت بأزماتها ، فآلبسها جناحَ نعمته وأنزلها ظلَّ كرامته وخصها بعظيم
حبائه ، ثم عمَّ الجماعة بالمعدلة وتعطفَ عليهم بالرحمة فلا تبقى فيهم ناحية ذاتية
وما لا فرقة قاصية إلا دخلت عليها بركته ووصلت إليها منفعة فأغنى فقيرها وجبر
كسيرها ورفع وضيعها وزاد رفيعها ، ما خلا ناحيتين : ناحية يغلب عليها الشقاء
وتستميلهم الأهواء ، فتستخف بدعوته ، وتُبْطِئُ عن إجابته وتتشاقل عن حقه ،
فتكون آخر مَنْ يَبْعَثُ وأبطأ مَنْ يوجه ، فيصطلى عليها موجدة ويبغى لها علة ،
لا يلبث أن يجدَّ بحق يلزمهم وأمر يجب عليهم فتستلحمهم الجيوش وتأت كلهم
السيوف ويستحرق بهم القتل ويُحيط بهم الأسر ويُفنيهم التتبع حتى يُخرب

البلاد ويؤتمن الأولاد . وناحية لا يبسط . لهم أماناً ولا يقبل لهم عهداً ولا يجعل لهم ذمة لأنهم أول من فتح باب الفرقة وتدرع جلباب الفتنة وربض في شق العصا ولكنه يقتل أعلامهم ويأسر قوادهم ويطلب هربهم في لجج البوار وقُلل الجبال وحمل الأودية ويطون الأرض تقتيلاً وتنكيلاً حتى يدع الديار خراباً والنساء أيامى . وهذا أمر لا نعرف له في كتبنا وقتاً ولا نصح منه غير ما قلنا تفسيراً - وأما (موسى ولى عهده) فهذا أو أن توجهه إلى خراسان وحلولة بجرجان وما قضى الله له من الشخص خصوص إليها والمقام فيها خير للمسلمين مغبة وله بإذن الله عاقبة بحيث يغمر لجج بحورنا ومدافع سيولنا ومجامع أمواجنا فيتصاغر عظيم فضله ويتذأب مشرق نوره ويتقلل كثير ما هو كائن منه ، فمن يصحبه من الوزراء ويختار له من الناس ؟

قال محمد بن الليث : أيها المهدي - إن ولى عهدك أصبح لأمتك وأهل ملتك علماً قد تشنت نحوه أعناقها ومدت سمته أبصارها ، وقد كان لقرب داره منك ومحل جواره لك عطل الحال غفل الأمر واسع العذر ، فأما إذا انفرد بنفسه وخلا بنظره وصار إلى تدبيره ، فإن من شأن العامة أن تنفق مخرج رأيه . وتستنصت لمواقع آثاره ، وتسأل عن حوادث أحواله في برده ومرحمته ومعدلته ، وتدبيره وسياسته ووزرائه وأصحابه ، ثم يكون ما سبق إليهم أغلب الأشياء عليهم وأمالك الأمور بهم وألزمها لقلوبهم وأشدّها استمالة لرأيهم ، وعظفاً لأهوائهم ، فلا يفتأ المهدي وفقه الله ناظراً له فيما يقوى عمده مملكته ، ويسدد أركان ولايته ، ويستجمع رضاء أمته بأمر هو أزين لحاله ، وأظهر لجماله ، وأفضل مغبة لأمره ، وأجل موقعا في قلوب رعيته ، وأحمد حالاً في نفوس أهل ملته ، ولا أدفع مع ذلك باستجماع الأهواء له ، وأبلغ في استعطاف القلوب عليه من مرحلة تظهر من فعله ، ومعدلة تنتشر عن أثره ، ومجبة للخير وأهله - وأن يختار المهدي وفقه الله من خيار أهل كل بلدة ، وفقهاء أهل كل مصر ، أقواماً

تسكن العامة إليهم إذا ذكروا ، وتأنس الرعية إذا وُصفوا ، ثم تسهل لهم عمارة سبل الإحسان ، وفتح باب المعروف ؛ كما قد كان فتح له وسهل عليه .

قال المهدي : صدقت ونصحت ؛ ثم بعث في طلب ابنه موسى ، فقال له :

أى بُنى - إنك قد أصبحت لِسَمَت وجوه العامة نُصْباً ، ولثنى أعطاف الرعية غايةً ، فحسنتك شاملة وإساءتك نائية ، وأمرُك ظاهر ، فعليك بتقوى الله وطاعته فاحتمل سُخط الناس فيهما ، ولا تطلب رضاهم بخلافهما ، فإن الله عز وجل كافيك من أسخطه عليك إثارك رضا ، وليس بكافيك من يُسخطه عليك إثارك رضا من سواه - ثم اعلم أن الله تعالى في كل زمان فترة من رسله ، وبقايا من صفوة خلقه وخبايا لنصرة حقه يجددُ جبل الإسلام بدعواهم ويشيدُ أركان الدين بنصرتهم ويتخذ لأولياء دينه أنصاراً ، وعلى إقامة عدله أعواناً ، يُسدون الخلل ويُقيمون الميَل ، ويدفعون عن الأرض الفساد ، وإن أهل خراسان أصبحوا أيدي دولتنا ، وسيوف دعوتنا ، الذين نستدفع المكاره بطاعتهم ، ونستصرف نزول العظام بمناصحتهم ، وندافع ريب الزمان بعزائهم ، ونزاحم ركن الدهر ببصائرهم فهم عماد الأرض إذا أُرْجف كنفُها وخوف الأعداء إذا برزت صفحتها ، وحصون الرعية إذا تضايقت الحال بها ، قدمضت لهم وقائع صادقات ، ومواطن صالحات أًحمدت نيران الفتن ، وقسمت داعى البدع ، وأذلت رِقاب الجبارين ، ولم ينفكوا كذلك ما جَرَوْا مع ريح دولتنا ، وأقاموا في ظل دعوتنا ، واعتصموا بحبل طاعتنا التي أعز الله بها ذاتهم ورفع بها ضيمتهم ، وجعلهم بها أرباباً في أقطار الأرض ومُلوكاً على رقاب العالمين ، بعد لباس الذُل وقِناع الخوف ، وإطباق البلاء ومُحالفة الأسى وجهد البأس والضر فظاهر عليهم لبأس كرامتك ، وأنزلهم في حدائق نعمتك ثم اعرف لهم حق طاعتهم ، ووسيلة دوائهم وماتة سابقتهم ، وحرمة مناصحتهم بالإحسان إليهم والتوسعة عليهم ، والإثابة لحسنهم والإقالة لسيئهم .

أَيُّ بُنَى ، ثُمَّ عَلَيْكَ الْعَامَّةُ فَاسْتَدْعِ رِضَاهَا بِالْعَدْلِ عَلَيْهَا ، وَاسْتَجْلِبْ مَوَدَّتَهَا بِالْإِنْصَافِ لَهَا ، وَتَحَسَّنْ بِذَلِكَ لِرَبِّكَ ، وَتَوَثَّقْ بِهِ فِي عَيْنِ رِعْيَتِكَ ، وَاجْعَلْ عُمَالَ الْعُذْرِ وَوُلاةَ الْحُجَجِ مُقَدِّمَةً بَيْنَ يَدَيْ عَمَلِكَ وَنَصْفَةً مِنْكَ لِرِعْيَتِكَ ، وَذَلِكَ أَنَّ تَأْمَرَ قَاضِيَ كُلِّ بَلَدٍ ، وَخِيَارَ أَهْلِ كُلِّ مِصْرٍ أَنْ يَخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ رِجَالًا تَوَكَّلِيهِ أَمْرَهُمْ وَتَجْعَلَ الْعَدْلَ حَاكِمًا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ فَإِنْ أَحْسَنَ حُمِدَتْ ، وَإِنْ أَسَاءَ عُذِرَتْ ، هَؤُلَاءِ عُمَالُ الْعُذْرِ وَوُلاةَ الْحُجَجِ ، فَلَا يَسْقُطَنَّ عَلَيْكَ مَا فِي ذَلِكَ ، إِذَا انْتَشَرَ فِي الْآفَاقِ وَسَبَقَ إِلَى الْأَسْمَاعِ مِنْ انْعِقَادِ أَلْسِنَةِ الْمُرْجَفِينَ وَكَبَتْ قُلُوبُ الْحَاسِدِينَ وَإِطْفَاءُ نِيرَانِ الْحُرُوبِ ، وَسَلَامَةُ عَوَاقِبِ الْأُمُورِ ، وَلَا يَنْفَكَنَّ فِي ظِلِّ كَرَامَتِكَ نَازِلًا ، وَبِعَرَا حَبْلِكَ مُتَعَلِّقًا رَجُلَانِ : أَحَدُهُمَا كَرِيمَةٌ مِنْ كَرَائِمِ رِجَالَاتِ الْعَرَبِ وَأَعْلَامِ بَيُوتَاتِ الشَّرَفِ ، لَهُ أَدَبٌ فَاضِلٌ وَحُلُمٌ رَاجِحٌ وَدِينٌ صَحِيحٌ وَالْآخِرُ لَهُ دِينٌ غَيْرُ مَغْمُوزٍ ، وَمَوْضِعٌ غَيْرُ مَدْخُولٍ ، بِصِيرٌ بِتَقْلِيلِ الْكَلَامِ ، وَتَصْرِيفِ الرَّأْيِ ، وَأَنْحَاءِ الْعَرَبِ وَوَضْعِ الْكُتُبِ ، عَالِمٌ بِحَالَاتِ الْحُرُوبِ ، وَتَصَارِيفِ الْخُطُوبِ ، يَضَعُ آدَابًا نَافِعَةً وَآثَارًا بَاقِيَةً مِنْ مَحَاسِنِكَ وَتَحْسِينِ أَمْرِكَ وَتَحْلِيَةِ ذِكْرِكَ فَتَسْتَشِيرُهُ فِي حَرْبِكَ وَتُدْخِلُهُ فِي أَمْرِكَ ، فَرَجُلٌ أَصَبَتْهُ كَذَلِكَ فَهُوَ يَأْوِي إِلَى مَحَلَّتِي وَيَرْعَى فِي خُضْرَةِ جَنَانِي ، وَلَا تَدْعُ أَنْ يَخْتَارَ لَكَ مِنْ فُقَهَاءِ الْبُلْدَانِ وَخِيَارِ الْأَمْصَارِ أَقْوَامًا يَكُونُونَ جِيرَانِكَ وَسُمَّارِكَ ، وَأَهْلَ مُشَاوَرَتِكَ فِيمَا تُورِدُ ، وَأَصْحَابَ مُنَازَرَتِكَ فِيمَا تُصَدِّرُ ، فَيَسِّرْ عَلَى بَرَكَاتِ اللَّهِ ، أَصْحَابَكَ اللَّهُ مِنْ عَوْنِهِ وَتَوْفِيقِهِ دَلِيلًا يَهْدِي إِلَى الصَّوَابِ قَلْبَكَ ، وَهَادِيًا يُنْطِقُ بِالْخَيْرِ لِسَانَكَ .

وفود بكارة الهلالية على معاوية

اسْتَأذَنْتَ بَكَارَةَ الْهَلَالِيَةِ عَلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ فَأَذِنَ لَهَا ، وَهُوَ يَوْمُئِذٍ بِالْمَدِينَةِ فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ ، وَكَانَتْ امْرَأَةً قَدْ أَسْنَتْ وَعَشِيَ بِصُرْهَا وَضَعُفَتْ قُوَّتُهَا ، تَرَعُّشُ بَيْنَ خَادِمِينَ لَهَا ؛ فَسَلَّمَتْ وَجَلَسْتُ ، فَرَدَّ عَلَيْهَا مُعَاوِيَةَ السَّلَامَ ، وَقَالَ :

كيف أنت يا خالة؟ فقالت: بخير يا أمير المؤمنين، قال: غيرك الدهر. قالت: كذلك هو ذو غير، من عاش كبير، ومن مات قير. فقال عمرو بن العاص: هي والله القائلة يا أمير المؤمنين:

يا زيدُ دونك فاحتر من دارنا سيفاً حُساماً في التراب دفينا
قد كُنتُ أذخره ليوم كريبه فاليوم أبرزه الزمان مصونا
وقال مروان: وهي والله القائلة يا أمير المؤمنين:

أترى ابن هِنْدٍ للخلافة مالكا هيهات ذاك وإن أراد بعيدُ
مَنَّتْكَ نفسك في الخلاء ضلالةً أغراك عمرو للشقا وسعيدُ
وقال سعيد بن العاص: هي والله القائلة:

قد كُنتُ أطمع أن أموت ولا أرى فوق المنابر من أُمِيَّة خاطبا
فالله آخر مدتي فتناولت حتى رأيت من الزمان عجائبا
في كل يوم لا يزال خطيبهم بين الجميع لآل أحمد عائبا
ثم سكتوا، فقالت: يا معاوية، كلامهم أعشى بصرى، وقصر حجتي،
أنا والله قائلة ما قالوا، وما خفي عليك مني أكثر، فضحك معاوية وقال: ليس
يَمْنَعُنَا ذلك من برك، اذكرى حاجتك، قالت: أما الآن فلا.

مناظرة السيف والقلم

لزين الدين عمر بن الوردي المتوفى سنة ٧٤٩ هـ

لَمَّا كَانَ السيفُ والقلمُ عُدَّتِي العملَ والقولَ، وَعُمِدَتِي الدُّولَ، فَإِنْ عَدِمَتَهُمَا
دَوْلَةٌ فَلَا حَوْلَ، وَرُكْنِي إِسْنَادُ الْمُلْكِ الْمَعْرَبَيْنِ عَنِ الْمَخْفُوضِ وَالْمَرْفُوعِ، وَمُقَدِّمَتِي
نَتِيجَةُ الْجَدَلِ الصَّادِرِ عَنْهُمَا الْمَحْمُولُ وَالْمَوْضُوعُ فَكَثُرَتْ أَيُّهُمَا أَعْظَمُ فَخْرًا وَأَعْلَى
قَدْرًا فَجَلَسْتُ لِهَما مَجْلِسَ الْحُكْمِ وَالْفَتْوَى، وَمَثَلْتُهُمَا فِي الْفِكْرِ حَاضِرَيْنِ لِلدَّعْوَى
وَسُوَيْتُ بَيْنَ الْخَصْمَيْنِ فِي الْإِكْرَامِ، وَاسْتَنْطَقْتُ لِسَانَ حَالِهِمَا لِلْإِكْلَامِ. فَقَالَ

القلم : بسم الله مجريها ومُرْسَاها ، والنهار إذا جَلَّاهَا والليل إذا يغشاها ، أما بعد حمد الله خالق القلم ، ومشرفه بالقسم ، وجاعله أول ما خلق ، جَمَلَ الورق بغصنه كما جَمَلَ الغصن الورق ، والصلاة على القائل : جفت الأقلامُ ، فإن للقلم قَصَبَ السباق ، والكاتبُ بسبعة أقلام من طبقات الكتاب في السبع الطباق ، جَرَى بالقضاء والقدر ، ونابَ عن اللسان فيما نهى وأمر ، وطالما أربى على البيض والسمَر في ضرابها وطعناها ، وقاتل في البعد والصوارم في القُربِ ملء أجفانها ، وماذا يُشبه القلم في طاعة ناسه ؟ ومشيه لهم على أمِّ راسه ؟ قال السيف : بسم الله الخافض الرافع ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع ، أما بعد حمد الله الذى أنزل آية السيف فعظم بها حرمة الجرح وآمن خيفة الخيف ، والصلاة على الذى نفذ بالسيف سطور الطروس ، وخدمته الأقلام ماشية على الرؤوس ، وعلى آله وصحبه الذين أُرهِفَتْ سيوفهم ، وبنيت بها على كسر الأعداء حروفهم ، فإن السيف عظيم الدولة شديد الصَّولة ، محاسن البلاغة ، وأساغ ممنوع الإساعة ، من اعتمد على غيره في قهر الأعداء تعب ، وكيف لا وفي حده الحدُّ بين الجدِّ واللعب ؟ ! فإن كان القلمُ شاهداً ، فالسيف قاض ، وإن اقتربت مجادلته بأمر مستقبل قطعهُ السيف بفعل ماض ، به ظهر الدين ، وهو العُدَّة لقمع المعتدين ، حمَلته دون القلم يد نبينا ، فَشَرَفَ بذلك في الأمم شرفاً بيناً ، الجنة تحت ظلاله ، ولا سيما حين يُسَلَّ فتري ودَقَّ الدم يخرج من خلاله ، زينت بزينة الكواكب سماه غمده ، وصدَّق من قال « السيف أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنْ ضده » لا يعثب به الحامل ، ولا يتناوله كالقلم بأطراف الأنامل ، ما هو كالقلم المُشَبَّه يقوم عُروا عن لبوسهم ، ثم نكسوا كما قيل على رُءُوسهم ، فكأنَّ السيف خُلِقَ من ماءٍ دافق ، أو كوكب راشق مقدراً في السرِّد ، فهو الجواهر الفرد ، لا يشتري كالقلم بثمن بخس ، ولا يبلى كما يبلى القلم بسواد وطمس ، كم لقائمه المنتظر ، من أشر في عين أو عين في أثر ، فهو في جراب القوم قوامُ الحرب ، ولهذا جاء مطبوع الشكل داخل الضرب ، قال

القلم : أَوْ مَنْ يُنْشَأُ فِي الْحَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخَصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ، يُفَاخِرُ وَهُوَ الْقَائِمُ عَنْ الشَّامِلِ ، وَأَنَا الْجَالِسُ عَلَى الْيَمِينِ ؟ ! أَنَا الْمَخْصُوصُ بِالرَّأْيِ وَأَنْتَ الْمَخْصُوصُ بِالصَّدَى ، أَنَا آلَةُ الْحَيَاةِ وَأَنْتَ آلَةُ الرَّدَى ، مَا لَنْتَ إِلَّا بَعْدَ دُخُولِ السَّعِيرِ ، وَمَا حُدِّدْتَ إِلَّا عَنْ ذَنْبٍ كَبِيرٍ ، أَنْتَ تَنْفَعُ فِي الْعُمْرِ سَاعَةً ، وَأَنَا أَفْنِي الْعُمْرَ فِي الطَّاعَةِ ، أَنْتَ لِلرَّهَبِ ، وَأَنَا لِلرَّغْبِ ؛ وَإِذَا كَانَ بَصْرُكَ حَدِيدًا فَبَصْرِي مَاءٌ ذَهَبٌ ، أَيْنَ تَقْلِيدُكَ مِنْ اجْتِهَادِي ، وَأَيْنَ نَجَاسَةُ دَمِكَ مِنْ تَطْهِيرِ مَدَادِي ؟ قَالَ السِّيفُ : أَمْثَلُكَ يُعَيِّرُ مِثْلِي بِالْدمَاءِ ؟ ! فَطَالَمَا أَمَرْتُ بَعْضَ فِرَاحِي - وَهِيَ السَّكِينُ - فَاصْبَحْتَ مِنَ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعَقْدِ يَامَسْكِينِ ، فَأَخْلَتَ مِنَ الْحَيَاةِ جُثْمَانَكَ ، وَشَقَّتْ أَنْفُكَ وَقَطَعَتْ لِسَانَكَ .

ويلك ! إِنْ كُنْتَ لِلدِّيْوَانِ فَحَاسِبُ مُهِمُومٍ ، أَوْ لِلانْشَاءِ فَخَادِمٌ لِمَخْدُومٍ ، أَوْ لِلتَّبْلِيغِ فَسَاحِرٌ مَذْمُومٍ ، أَوْ لِلْفَقِيهِ فَنَاقِصٌ فِي الْمَعْلُومِ ، أَوْ لِلشَّاعِرِ فَسَائِلٌ مَحْرُومٍ ، أَوْ لِلشَّاهِدِ فَخَائِفٌ مَسْمُومٍ ، أَوْ لِلْمُعَلِّمِ فَلِلْحَيِّ الْقَيُّومِ . أَمَا أَنَا فَلَی الْوَجْهَ الْأَزْهَرُ وَالْحَلِيَّةُ وَالْجَوْهَرُ وَالْهَيْبَةُ إِذْ أُشْهِرُ ، وَالصُّعُودُ عَلَى الْمَنْبَرِ . ثُمَّ إِنِّي مَمْلُوكٌ كَمَا لَكَ ، فَاتَكَ كُنَاسُكَ ، أَسْلَكَ الطَّرِيقَ ، وَأَقَطَعَ الْعِلَاقَتِ .

قال القلم : أَمَا أَنَا فَابْنُ مَاءِ السَّمَاءِ ، وَأَلِيفُ الْغَدِيرِ وَحَلِيفُ الْهَوَاءِ ، أَمَا أَنْتَ فَابْنُ النَّارِ وَالِدُخَانِ وَنَائِثُ الْأَعْمَارِ وَخَوَّانُ الْإِخْوَانِ تَفْصِلُ مَا لَا يَفْصِلُ وَتَقْطَعُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوَصَّلَ ، لَا جَرَمَ أَنْ صَعَرَ السِّيفُ خَدَّهُ وَصَقَلَ قَفَاهُ ، وَسُقِيَ مَاءَ حَمِيمٍ فَقَطَّعَ مِعَاةَ ، يَا غُرَابَ الْبَيْنِ ، وَيَا عُدَّةَ الْحَيْنِ ، وَيَا مُعْتَلَّ الْعَيْنِ ، وَيَا إِذَا الْوَجْهَيْنِ ، كَمْ أَفْنَيْتَ وَأَعْدَمْتَ ؟ وَأَرْمَلْتَ وَأَيَّتَمْتَ ؟

قال السيف : يَا ابْنَ الطِّينِ ! أَلَسْتُ ضَامِرًا وَأَنْتَ بَطِينُ ! ؟ كَمْ جَرَيْتَ بِعَكْسٍ وَتَصَرَّفْتَ فِي مَكْسٍ ، وَزَوَّرْتَ وَحَرَفْتَ ، وَنَكَرْتَ وَعَرَفْتَ ، وَسَطَّرْتَ هَجَوًّا وَشَمًا ، وَخَلَدْتَ عَارًا وَذَمًّا ، أَبْشَرَ بِفِرْطِ رَوْعَتِكَ ، وَشَدَّةِ خَيْفَتِكَ ، إِذَا قِسَّتَ بَيَاضُ صَحِيفَتِي بِسَوَادِ صَحِيفَتِكَ ، فَالَيْنَ خُطَابِكَ فَأَنْتَ قَصِيرُ الْمُدَّةِ ، وَأَحْسَنُ

جوابك فعندى حده ، وأقل من غلظتك ، وجبهك . واشتغل عن دم في وجهي
 بقيق في وجهك . وإلا فأدنى ضربة منى تروم أرومتك ، فتستأصلك وتجتث
 جرثومتك ، فسقياً لمن غاب لك عن غلبك ، ورعياً لمن لوأهاب بك لسلخ إهابك .

فلما رأى القلم السيف قد احتد ، ألان له من خطابه ما اشتد ، وقال : أما
 الأدب فيؤخذ عني ، وأما اللطف فيكتسب مني ، فإن لنت لنت ، وإن أحسنت
 أحسنت ، نحن أهل السمع والطاعة ، ولهذا نجتمع في الدواة الواحدة مناجمة ،
 وأما أنتم فأهل الحدة والخلاف ، ولهذا لا يجمعون بين سيفين في غلاف . قال
 السيف : أمكراً ودعوى عفة ؟ لأمر ماجدع قصير أنفه ! لو كنت كما زعمت ذا
 أدب . لما قابلت رأس الكاتب بعقدة الذنب ، أنا ذو الصيت والصوت ، وغراري
 لسان مشرق يرتجل غرائب الموت ، أنا من مارج من نار ، والقلم من صلصال
 كالفخار ، وإذا زعم القلم أنه مثلي ، أمرت من يدق رأسه بنعلي . قال القلم :
 صه فصاحب السيف بلاسعادة ، كأعزل . قال السيف : مه فقلم البليغ بغير حظ .
 مغزل . قال القلم : أنا أركي وأطهر ، قال السيف : أنا أبهى وأبهر ؛ فتلا ذو القلم
 لقلمه ، إنا أعطيناك الكوثر ، وتلا صاحب السيف لسيفه : فصل لربك وانحر .
 فتلا ذو القلم لقلمه : إن شانئك هو الأبتر ، قال : أما وكتابي المسطور ، وبيتي
 المعمور ، والتوراة والإنجيل ، والقرآن ذي التبجيل ، إن لم تكف عني غربك ،
 وتبعد مني قربك ، لأكتبنك من الصم البكم ، ولأسطرن عليك بقلمى سجلاً
 بهذا الحكم . قال السيف : أما وستى المتين ، وفتحى المبين ، ولسان الرطبين ،
 ووجهي الصليبين ، إن لم تغب عن بياضى بسوادك ، لأمسن وجهك بمدادك ،
 ولقد كسبت من الأسد في الغابة ، توقيع العين والصلابة ، مع أنى ما ألوتك نصحاً
 أننضرب عنكم الذكر صفحاً ؟ قال القلم : سلم إن كنت أعلى فأنا أعلم ، وإن
 كنت أحلى فأنا أحلم ، وإن كنت أقوى فأنا أقوم ، أو كنت ألوى فأنا ألوم ،

أو كنت أطرى فأنا أطربُ ، أو كنت أغلى فأنا أغلب ، أو كنت أعنى فأنا أعتبُ ، أو كنت أقضى فأنا أقضب . قال السيف : كيف لا أفضلك ، والمقرُّ الفلانيُّ شادُّ أزرى . قال القلم : كيف لا أفضلك وهو (عَرَّ نصره) ولى أمرى ؟ !
قال الحكمُ بين السيف والقلم : فلما رأيتُ الحَجَّتَيْنِ ناهضتَيْنِ ، والبيئَتَيْنِ بينتَيْنِ مُتعارضَتَيْنِ ، وعلمتُ أنَّ لكلِّ واحدٍ منهما نسبةً صحيحةً ، إلى هذا المقرِّ الكريم ، وروايةً مُسندَةً عن حديثه القديم ، لطفَتُ الوسيلة ، ودقَّقتُ الحيلة حتى رددتُ القلمَ إلى كَنِّه ، وأغمدتُ السيفَ فنام ملءَ جفنه ، وأخرتُ بينهما الترجيح ، وسكتَ عما هو عندى الصَّحيح ، إلى أن يحكَمَ المقرُّ بينهما بعلمه ، ويسكُنَ سورة غضبهما الوافر ولجاجهما المديد ببسط. حلمه .

مناظرة للامدى بين صاحب أبى تمام - وصاحب البحرى

صاحب أبى تمام : كيف يجوز لقائل أن يقول : إن البُحترى أشعرُ من أبى تمام ، ومن أبى تمام أخذ ، وعلى حذوه احتذى ، ومن معانيه استقى ! حتى قيل الطائى الأكبر ، والطائى الأصغر !

صاحب البحرى : أما الصحبة له فما صحبه ولا تتلمذ له ، ولا روى ذلك أحد عنه ولا نقله ، ولا رأى قط. أنه محتاج إليه ، ودليل ذلك الخبر المستفيض من اجتماعهما وتعارفهما عند (أبى سعيد محمد بن يوسف الثغرى) وقد دخل عليه البحرى بقصيدته التى أولها * أفاقَ صَبٌّ من هَوَى فأفريقا * وأبو تمام حاضر فلما أنشدها علق أبو تمام منها أبياتاً كثيرة ، فلما فرغ من الإنشاد أقبل أبو تمام على محمد بن يوسف فقال : أيها الأمير ، ما ظننت أن أحداً يُقدِّم على أن يسرق شعرى وينشده بحضورى حتى اليوم . ثم اندفع ينشد ما حفظه ، حتى أتى على أبيات كثيرة من القصيدة . فبهت البحرى ، ورأى أبو تمام الإنكار فى وجه أبى سعيد . فحينئذ قال له أبو تمام : أيها الأمير والله ما الشعر إلا له ، وإنه أحسن فيه

الإحسان كله ، وأقبل يقرظه ويصف معانيه ويذكر محاسنه ، ولم يقنع من محمد بن يوسف حتى ضاعف له الجائزة .

فمن كان يقول مثل هذه القصيدة التى هى من عين شعره وفاخر كلامه قبل أن يعرف أن أبا تمام جديرٌ به أن يستغنى عن أن يصحبه أو يتتلمذ له أو لغيره من الشعراء ، على أنني لا أنكر أنه استعار بعض معانى أبى تمام ، لقرب البلدين وكثرة ما كان يطرق سمع البُحتري من شعره ، وليس ذلك بمقتضى أن يكون أبو تمام أستاذ البُحتري ، ولا بمانع أن يكون البُحتري أشعر من أبى تمام . فهذا « كثير » قد أخذ من « جميل » واستقى من معانيه ، فما رأينا أن أحداً قال إن « جميلاً » أشعرُ منه بل هو عند أهل العلم بالشعر والرواية أشعر من جميل .

صاحب أبى تمام : إن البُحتري نفسه يعترف أن أبا تمام أشعرُ منه ، فقد سئل عنه وعن أبى تمام فقال : إن جيده خيرٌ من جيدي ، وجيدُ أبى تمام كثيرٌ .

صاحب البُحتري : إن كان هذا الخبر صحيحاً فهو للبُحتري لاجل عليه لأن قوله هذا يدل على أن شعر أبى تمام كثير الاختلاف وشعره شديد الاستواء ، والمستوى الشعر أولى بالتقدم من المختلف الشعر ، وقد اجتمعنا نحن وأنتم على أن أبا تمام يعلو علواً حسناً وينحط انحطاطاً قبيحاً ، وأن البُحتري يعلو بتوسط ولا يسقط . ومن لا يسقط . ولا يُسِفُّ أفضلُ ممن يسقط . ويسف .

صاحب أبى تمام : إن أبا تمام انفرد بمذهب اخترعه وصار فيه أولاً ، وإماماً متبوعاً ، وشُهر له حتى قيل هذا مذهب أبى تمام وطريقة أبى تمام ، وسلك الناس نهجه ، واقتفوا أثره ، وهى فضيلة عرى عن مثلها البُحتري .

صاحب البُحتري : ليس الأمر على ما وصفت ، وليس أبو تمام صاحب هذا المذهب ، ولا بأول فيه ولا سابق إليه ، بل سلك فيه سبيل مسلم بن الوليد

واحتذى حذوهُ ، وأفرط. فى ذلك وأسرف ، حتى زال عن النهج المعروف ،
والسنن المألوف .

بل إن مُسلماً غير مبتدع ، ولكنه رأى هذه الأنواع التى وقع عليها اسمُ
البديع متفرقة فى أشعار المتقدمين فقصدها ، وأكثر فى شعره منها ، ولكنه حرص
على أن يضعها فى مواضعها ، ولم يسلم مع ذلك من الطعن عليه ، حتى قيل إنه أول
من أفسد الشعر . فجاء أبو تمام على أثره واستحسن مذهبه ، وأحب أن يجعل كل
بيت من شعره غير خال من هذه الأصناف فسلك طريقاً عراً واستكره الألفاظ.
والمعاني استكراهاً ، ففسد شعره وذهبت طلاوته ونشِفَ ماؤه . فقد سقط. الآن
احتجاجكم باختراع أبى تمام لهذا المذهب وسبقه إليه ، وكلُّ ما فى المسألة أنه
استكثر منه وأفرط. فكان إفراطه من أعظم ذُنُوبه ، وأكبر عيوبه .

أما البحرى فإنه فارق عمود الشعر ، وطريقته المعروفة على كثرة ما جاء فى
شعره من الاستعارة والتجنيس والمطابقة ، فكان انفراده بحسن العبارة وحلاوة
اللفظ وصحة المعنى والبعد عن التكلف والتعمل سبباً فى إجماع الناس على استحسان
شعره واستجادته وتداوله ، ونفَاقُ شعر الشاعر دليلٌ على علوِّ مكانته ، واضطلاعه
بما يلانم الأدواق ، ويُلَامَسُ القلوب ، من أساليب الكلام ومناهجه .

صاحب أبى تمام : إنما أعرض عن شعر أبى تمام مَنْ لم يفهمه لدقَّة معانيه
وقُصُور فهمه عنه ، أما النقاد والعلماء فقد فهموه وعرفوا قدره ، وإذا عرفت
هذه الطبقة فضيلته لم يضره طعنٌ من طعنٍ بعدها عليه *

صاحب البحرى : لا يستطيع أحدٌ أن يُنكر منزلة ابن الأعرابى ، وأحمد بن
يحيى الشيبانى ودُعبل الخزاعى من الشعر ، ومنزلتهم من العلم بكلام العرب . وقد علمتم
مذهبهم فى أبى تمام وازدراءهم بشعره ، حتى قال دُعبل : إن ثلث شعره محال (١)

وثلثه مسروق وثلثه صالح ، وقال : ما جعل الله أباً تمام من الشعراء ، بل شعره بالخطب والكلام المنشور أشبه بالشعر . وقال ابن الأعرابي في شعر أبى تمام : إن كان هذا شعراً فكلام العرب باطلٌ . وهذا محمد بن يزيد المبرديقول : ما علمناه دُونَ له كبير شيء .

صاحب أبى تمام : إن دُعِبَلاً كان يشنأ أباً تمام ويحسده على ما هو معروف ومشهورٌ فلا يقبل قول شاعر في شاعر . وأما ابن الأعرابي فكان شديد التعصب عليه لغرابه مذهبه ، ولأنه كان يرد عليه من معانيه ما لا يفهمه ولا يعلمه ، فكان إذا سُئِلَ عن شيء منها يأنف أن يقول لا أدري فيعدل إلى الطعن عليه .

ولا مانع أن يكون جميع من تذكرونه على هذا القياس .

صاحب البُحتري : لا عيبَ على ابن الأعرابي في طعنه على شاعر عدل في شعره عن مذاهب العرب إلى الاستعارات البعيدة المخرجة للكلام إلى الخطأ والإحاطة ، والعيبُ في ذلك يلحق أباً تمام إذ عدل عن المحجة إلى طريقة يجهلها ابن الأعرابي وأمثاله من المضطلعين بالسليقة العربية .

صاحب أبى تمام : إن العلم في شعر أبى تمام ، أظهرُ منه في شعر البحتري والشاعر العالم ، أفضل من الشاعر غير العالم .

صاحب البحتري : كان الخليل بن أحمد عالماً شاعراً ، وكان الأصمعي شاعراً عالماً ، وكان الكسائي كذلك ، وكان خلف بن حبان الأحمر أشعر العلماء ، وما بلغ بهم العلم طبقة من كان زمانهم من الشعراء غير العلماء ، والتجويد في الشعر ليست علته العلم ، والشائع المشهور أن شعر العلماء دُونَ شعر الشعراء ، وقد كان أبو تمام يعمل على أن يدل في شعره على علمه باللغة وكلام العرب . أما البُحتري فلم يقصد هذا ولا اعتمده ، ولا كان يعدّه فضيلة ولا يراه عالماً ، بل كان يرى أنه شاعر ، لا بد له أن يقرب شعره من فهم سامعه ، فلا يأتى بالغريب إلا أن يتفق له في اللفظة بعد اللفظة في موضعه من غير طلب له ولا حرص عليه ، على أن هذا

العلم الذى تؤثرُونَ به أبا تمام لم ينفعه ، فقد كان يلحن فى شعره لحناً يضيقُ العنبر فيه ، ولا يجد المتأول له مخرجاً منه ، إلا بالحيلة والتحمل الشديد .

صاحب أبى تمام : لسنا نُنكر أن يكون صاحبنا قد وهم فى بعض شعره ، وعدل عن الوجه الأوضح فى كثير من معانيه ، وغير غريب على فكرٍ نتج من المحاسن ما نتج وولد من البدائع ما ولد ، أن يلحقه الكلال فى الأوقات ، والزلل فى الأحيان ، بل من الواجب لمن أحسن إحسانه أن يُسامح فى سهوه ، ويتجاوز له عن أخطائه ، وما رأينا أحداً من شعراء الجاهلية سلم من الطعن ، ولا من أخذ الرواة عليه الغلط والعيب ، وكذلك ما أخذته الرواة عن المحدثين المتأخرين من الغلط والخطأ ، واللحن أشهرُ من أن يحتاج إلى أن نُبرهنه أو ندل عليه ، وما كان أحد من أولئك وهؤلاء مجهول الحق ولا مجهود الفضل ، بل عفا إحسانهم على إساءتهم وتجويدهم عن تقصيرهم .

صاحب البُحترى : أما أخذُ السهو والغلط . على من أخذَ عليهم من المتقدمين والمتأخرين فى البيت الواحد والبيتين والثلاثة . أما أبو تمام فلا تكاد تخلو له قصيدة واحدة من عدة أبيات ، يكون فيها مفسداً أو مُحيلاً أو عادلاً عن السنن أو مستعيراً استعارةً قبيحةً ، أو مخطئاً للمعنى بطاب الطباق والتجنيس ، أو مبهماً بسوء العبارة والتعقيد ، حتى لا يفهم ولا يوجد له مخرج .

صاحب أبى تمام : تُنكرُونَ على أبى تمام من الفضل ما يعترف به البُحترى نفسه ، فقد رثاه بعد موته رثاء اعترف فيه له بالسبق وفضله على شعراء عصره . صاحب البُحترى : لم لا يفعل البحترى ذلك ؟؟ وقد كان هو وأبو تمام صديقين متحابين ، وأخوين متصافيين ، يجمعهما الطلب والنسب والمكتسب ، فليس بمُنكر ولا غريب أن يشهد أحدهما لصاحبه بالفضل ، ويصفه بأحسن ما فيه وينحله ما ليس فيه ، على أن الميت خاصة يُعطى فى تأبينه من التقريظ . والوصف وجميل الذكر أضعاف ما كان يستحقه .

صاحب أبي تمام : كيفما كان الأمر لانستطيعون أن تدفعوا ما أجمع عليه الرواة والعلماء ، أن جيد أبي تمام لا يتعلق به جيد أمثاله ؛ وإذا كان جیده بهذه المكانة ، وكان من الممكن إغفال رديئه واطراحه كأنه لم يَقلْهُ فلا يبقى ريب في أنه أشعر شعراء عصره ، والبحترى واحد منهم .

صاحب البحرى : إنما صار جيد أبي تمام موصوفاً ومذكوراً لِنُدْرَتِهِ ووقوعه في تضاعيف الردىء ، فيكون له رونق وماء عند المقابلة بينه وبين ما يليه ، وجيد البحرى كجيد أبي تمام ، إلا أنه في جيد مثله أو متوسط ، فلا يفاجئ النفس منه ما يفاجئها من جيد صاحبه .

مناظرة بين الليل والنهار

لمحمد أفندى المبارك الجزائرى

لما أسفر النهار عن بياض الغرة قابله الليل بسواد الطرة ثم صار الهزل جدًا ، واشتد النزاع بينهما جدًا ، فاستنجد كل منهما أميره ، وأفشى له سره وضميره ، وإذا بالليل حمل على النهار ، فصبغ حُمرته بِصُفْرة البهار ، وخطر يَجُرُّ ذبول تيهه وعجبه ، مُرْصَعًا تيجان مفاخره بدرر شبهه ، ثم قال : « والليل إذا يَغْشَى » « إنَّ في ذلك لعبرة لمن يَخْشَى » ففتح باب المناقشة في هذا الفصل ، وعقد أسباب المنافسة بقوله الفصل « فإن الحرب أولها كلام » ثم تَنَجَّى عن قتيل ، أو أسير بكلام .

ولما بلغ الليل غايته بزغ الفجر ورفع رايته ، وقال إذ جال في مُعْتَرَكِ المنايا « أنا ابن جَلَا وطلّاع الشنايا » ، فتقدم في ذلك المكان وجلى ، تالياً قوله تعالى « والنَّهَارِ إذا تَجَلَّى » ثم استوى على عرش السنا والسناء ، وأطلع شمس طلعه في الأرض والسماء ، فأعْرَبَ عن غوامض الرقائق والحقائق ، وأغرب في نشر ما انطوى من الأسرار والدقائق ، وما انحدر من منبره حتى أيد دعوى خبره بشاهد

مخبره . فانتدب إليه « الليل » ومال عليه كل الميل ، وقال : أحمد من جعلني
خلوة للأحباب ، وجلوة لعرائس العرفان ونفائس الآداب ، وخلقني مثوى
لراحة العباد ، ومأوى لخاصة النساء والعباد ، والله در من قال فأجاد :

أيها الليل طل بغير جناح ليس للعين راحة في الصباح
كيف لا أبغض الصبح وفيه بان عن نور الوجوه الصبح

أتردد على أبواب المجاهدة بفنون الغرائب ، وأتودد إلى أصحاب المشاهدة
بعيون الرغائب ، تدور في ساحتهم بدور الحسن والبهاء ، وتدار من راحتهم
ككوس الأنس والهناء فتحييهم نغمات السمر ، وتحييهم نسائم السحر ،
فأحيان وصلي بالتهاني مقمرة ، وأفنان فضلى بالأمانى مثمرة ، وحسبي كرامة
أنى للناس خير لباس أقيهم بلطف الإيناس من كل باس ، ومن واصل
الإدلاج وهجر طيب الكرى قيل له (عند الصبح يحمد القوم السرى) .

وما الليل إلا للمجد مطية وميدان سبق فاستبق تبلغ المني

ففتن بمعاني بيان البديع ، وتفنن في أفانين التصريع والترصيع ثم أتم
خطبته بالتماس المغفرة والعفو ، واستعاذ بالله من دواهي الغفلة ودواهي اللهو .
فوثب إليه (النهار) وصال عليه صولة ملك قهار ، وصعد على منبره ثانياً ،
وقد أضحى التيه لعطفه ثانياً ، فأثنى على من جلا ظلمة الحجاب ، وتجلي نه
باسمه النور وتوجه بسورة من الكتاب وزانه بأبهى سراج وهاج ، فأوضح بسناه
السبيل والمنهاج ثم صاح : أيها الليل ، هلاً قصرت من إعجابك الذيل ؟ ! ولئن
دارت رحى الحرب واستعرت نار الطعن والضرب ، فلا تسين مخدراتك ، وهى
عن الوجوه حاسرة ، وأنت تتلو يومئذ « تلك إذا كرة خاسرة » . فما دعاك
إلى حلبة المفاضلة ؟ وما دهاك حتى عرضت بنفسك للمناضلة ؟ ! وهل دأبك
إلا الخداع والمكر ؟ ! وترقب الفرصة وأنت داخل الوكر ؟ ! أما حص القرآن

على التَعَوُّذِ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَنَدَبِ « مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ »
فَبِرَبِّي يُسْتَعَاذُ مِنْ شَرِّكَ وَيَسْتَعَانُ عَلَى صُنُوفِ صُرُوفِ غَدْرِكَ ، وَهَبْ أَنْكَ
تَجْمَعُ الْمَحَبَّ بِالْحَبِيبِ ، إِذَا جَارَ عَلَيْهِ الْهُوَى وَحَارَ الطَّبِيبُ ، فَكَمْ يُقَاسَى
مَنْكَ فِي هَاجِرَةٍ ، وَيُثْنُ أَنْبِيَا الشُّكْلِ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ؟ ! .

يَبِيتُ كَمَا بَاتَ السَّلِيمُ مُسَهَّدًا وَفِي قَلْبِهِ نَارٌ يَشْبُ لَهَا وَقْدُ
فِيُسَاهَرُ النُّجُومُ ، وَيُسَاوِرُ الْوُجُومَ ، وَقَدْ هَاجَتْ لَوَاعِجُ غَرَامِهِ ، وَتَحَرَّكَتْ
سَوَاكِنُ وَجَدِهِ وَهَيَامِهِ ؛ فَأَنْشُدْ وَزَفِيرِهِ يَتَصَعَّدُ :

أَقْضَى نَهَارِي بِالْحَدِيثِ وَبِالْمُنَى وَيَجْمَعُنِي وَالْهَمُّ بِاللَّيْلِ جَامِعُ
نَهَارِي نَهَارِ النَّاسِ حَتَّى إِذَا بَدَأَ لِيَ اللَّيْلِ هَزَّتْنِي إِلَيْكَ الْمَضَاجِعُ
عَلَى أَنَّ الْعَاشِقَ الْوَلَهَ ، يَشْكُو مَنْكَ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ ، فَكَمْ قَطَعَ آثَاكَ بِمَوَاصِلِهِ
أَنْبِيَنِهِ مَتَمَلِّمًا مِنْ فِرَطِ شَوْقِهِ وَحَنِينِهِ ، فَلَمَّا أَنَّ حُظِّيَ بِالْوَصَالِ تَمَثَّلَ بِقَوْلٍ مِنْ قَالَ :
اللَّيْلُ إِنْ وَاصَلْتُكَ كَاللَّيْلِ إِنْ هَجَرْتُ أَشْكُو مِنَ الطُّولِ مَا أَشْكُو مِنَ الْقِصَرِ
وَلَثْنُ افْتَخَرْتَ بِبَدْرِكَ الْبَاهِرِ الْبَاهِي . فَإِنَّمَا تُبَارَى بِبَعْضِ أَنْوَارِي وَتُبَاهِي ،
وَهَلْ لِلْبَدْرِ عِنْدَ إِشْرَاقِ الشَّمْسِ مِنْ نُورٍ ؟ أَوْ لَطَلْعَةِ حَسَنِهِ مِنْ خُلُودِ الْبَطُونِ
ظُهُورٍ ! وَمَنْ ادَّعَى أَنَّكَ تَسَاوِينِي فِي الْفَضْلِ وَالْقَدْرِ ! أَوْ زَعِمَ أَنَّ الشَّمْسَ
تَقْتَبِسُ مِنْ مَشْكَاةِ الْبَدْرِ ! وَمَتَى اسْتَمَدْتَ الْأُصُولَ مِنَ الْفُرُوعِ « وَمَا أَغْنَى
الشَّمْسُ عَنْ الشَّمْعِ » فَبِئْسَ تَنْجَلِي مَحَاسِنَ الْمَظَاهِرِ الْكُونِيَّةِ وَتَتَحَلَّى بِجَوَاهِرِ
الْأَعْرَاضِ اللَّوْنِيَّةِ ، أَوْ يَخْفِي حَسَنِي وَجَمَالِي عَلَى مَشَاهِدٍ ؟ أَوْ يَفْتَقِرُ فَضْلِي وَكَمَالِي
إِلَى شَاهِدٍ ! وَعَرِضِي عَارٍ مِنَ الْعَارِ ، وَجَمِيعُ الْحَسَنِ مِنْ ضِيَائِي مُسْتَعَارٍ !

وَلَيْسَ يَصِحُّ فِي الْأَذْهَانِ شَيْءٌ إِذَا احْتَاجَ النَّهَارُ إِلَى دَلِيلٍ
أَمَّا كِفَاكَ بَيِّنَةٌ ، وَزَادَكَ ذِكْرِي أَوْ تَبْصِرَةٌ ، قَوْلُهُ تَعَالَى : « فَمَحْوَنًا
آيَةُ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً » وَ« هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ » ،

أَمْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ» وَأَيْنَ مَنْزِلُ أَهْلِ الْغَفْلَةِ مِنْ مَنْزِلِ أَهْلِ الْيَقَظَةِ وَالْحَضُورِ! وَإِنْ كُنْتَ مَغْنَى الْأَنْسِ وَالْأَفْرَاحِ ، تَفْعَلُ بِعُقُولِ النَّاسِ فِعْلَ الرَّاحِ ، فَهَلْ حَسِبْتَ أَنَّ السَّكُوتَ خَيْرٌ مِنَ الْحَرَكَةِ ، وَقَدْ أَجْمَعَ الْعَالَمُ عَلَى أَنَّ الْحَرَكَةَ بَرَكَةٌ ، فَإِنْ لِيَ بِكُلِّ خَطْوَةٍ حَظْوَةٌ وَلَيْسَ لِحِجَابِ كِبَوَّةٍ ، وَلَا لِصَارِي نَبَوَّةٍ ، وَإِنْ صَرَخْتَ لِلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سَجْدًا وَقِيَامًا ، مُعْرِضًا بِكُلِّ غَافِلٍ لَاهٍ ، فِي كُلِّ مَجَالٍ رِجَالًا لِاتْلِهِمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، وَأَيْنَ مِنْ أَسْتَجِبُ بِظُلُمَاتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، مِمَّنْ أَضْحَى يَنْظُرُ بَعِينَ الْعَتَبَةِ فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ! وَقَدْ أَتَحَفَّنِي اللَّهُ بِالصَّلَاةِ الْوَسْطَى فَأَوْتَرْتُ بِهَا صَلَوَاتِي ، وَشَرَعَ فِيهَا الْإِسْرَارَ لِأَمْرَارِ اخْتَصَّتْ بِهَا أَهْلُ جُلُوتِي ، وَكَفَانِي شَرَفًا « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ » ، فَمَا تُرَى مَأْثُورَةٌ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ ، وَمَفَاخِرِي مَنْشُورَةٌ فِي الْكِتَابِ وَالْحَدِيثِ ، وَمَحَاسِنِي وَاضِحَةٌ لِأُولَى الْأَبْصَارِ ، وَهَلْ تَخْفَى الشَّمْسُ فِي رَابِعَةِ النَّهَارِ! فَكَفَفَ عَنِ الْجِدَالِ وَأَمْسَكَ ، وَلَا تَجْعَلْ يَوْمَكَ مِثْلَ أَمْسِكَ ، وَسَلِّمْ مِنْ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِ قُدْرَةٌ ، فَقَدْ قِيلَ : « مَا هَلْكَ أَمْرُؤُ عَرَفَ قُدْرَتَهُ » ، أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ آفَةِ الْعُجْبِ وَالْكِبْرِيَاءِ . وَلَمَّا انْهَارَ رُكْنُ النَّهَارِ ، إِنْهَارَ (الليل) وَتَبَرَّقَعَ بِالْإِكْفِهَرَارِ ، فَسَدَّ مَا بَيْنَ الْخَافِقِينَ بِسَوَادِهِ ، وَطَفِقَ يَرْمِي بِسَهَامِ جَدَلِهِ فِي جِلَادِهِ ، وَقَدَّمَ بَيْنَ نَجْوَاهِ سُورَةَ الْقَدْرِ ، آيَةً عَلَى مَا حَازَهُ مِنْ كِمَالِ الرَّفْعَةِ وَالْقَدْرِ ، وَثَنِي بِقَوْلِهِ تَعَالَى : « سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا » فَأَشَارَ إِلَى الْحَبِيبِ حِينَ تَجَلَّتْ لَهُ قُوَّةُ عَيْنِهِ لَيْلًا ، ثُمَّ قَالَ : « مُخَقَّقًا لَكَ أَيُّهَا النَّهَارُ ، فَقَدْ أَمْسَتْ بَنِيَانُكَ عَلَى شِفَا جُرْفِ هَارٍ ، وَمَنِي كَانَ انْسِلَاخُكَ وَظَهْوُكَ ، وَتَفَاضَلْنِي وَبِي أُرُخْتُ أَعْوَامُكَ وَشَهْوُكَ - أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَخْشَعَ لِلذِّكْرِ (١) ! فَتَعْتَرِفَ بِرَتْبَةِ التَّقْدِيمِ فِي الذِّكْرِ (٢) ، وَكَيْفَ تُعِيرُنِي بِلَوْنِ السَّوَادِ ! وَهَلْ يَقْبَحُ السَّوَادُ

(١) الذِّكْرُ : الْقُرْآنُ .

(٢) الذِّكْرُ هُنَا : الشَّرَفُ .

إلا في الفواد؟! أو كيف تعيبنى بالخداع (وَالْحَرْبُ خُدْعَةٌ) وليس الشيء في موطنه بغريب ولا بدعة؟! أما تشهد العوالم من هيبتي حياري؟ «وترى الناس سكارى وما هم بسكارى» فكم أَرَقْتُ (١) ملوكاً أكاسرة؟ وأَرَقْتُ (٢) دماءً أَسْوَدَ كَاسِرَةٍ، وكم أَوْرَيْتُ نار الوغى تحت العجاج؟ وقد أَوْرَتْ اللحاظ واغْبَرَّت الفجاج، فأنا البطل الذي لا يُضْطَلِي بناره، ولا يأخذ منه الموتور بشاره، وَافْتِخَارُكَ عَلَى الصلاة الوسطى، ليس إنصافاً منك ولا قسطاً، وهب أنك انفردت بتلك الصلاة الجليلة، فأين أنت مما أوتيتُهُ من الصلوات الجزيلة، أما كان افتراض الصلاة في ليلة العروج؟! فما بالك تدعى الارتقاء إلى هذه البروج؟!

وما أعجبتني قط. دعوى عريضة ولو قام في تصديقها ألف شاهد وأما افتخارك عَنِّي بفضل شهر رمضان، وما نزل فيه من السبع المثاني والقرآن، فهل صح لك صيامه إلا بي بَدْءاً وختاماً؟! وقد تميّزت عليك بفضيلة إحيائه تَهْجُداً وقياماً، على أني محل النية «ونية المرء خير من عمله» لأنها بمثابة الروح له، وبها يحظى الراجي ببلوغ أمله، هذا: وإني أَتَكَمَّلُ للصائم بمديد الراحة ووافر الأجر حتى يتبين له الخيط. الأبيض من الأسود من الفجر، وكيف تفتخر بالكتاب المنزه في مزاياه عن المشاركة؟ والله تعالى يقول فيه: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ» وهل في مطالع سعودك أشرق بدور العيدين؟! أم على جناح جُنْحِكَ أُسْرِى بنور طلعة الكونين؟! عُرِجَ به عليه الصلاة والسلام إلى منزلة قاب قوسين، وهل في تجليات أسحارك يقول الرب: هل من سائل؟ فيُنَاجِيهِ العبد متضرعاً إليه بقلب خاشع ودمع سائل.

ومما اختصاصت به من الفضائل والمفاخر، أنه في دولتي وُلِدَ سيد الأوائل والأواخر، ونَاهِيكَ بليالي شهر الله رجب، وكيف لا وفي طالعهما السعيد حملت آمنة بسيد العجم والعرب.

فطلع (النهار) طلوع الأسد من غابه ، وكسر جيوش الدجى حين كَشَرَ
 عن نابه ، وَشَمَّرَ للحرب العَوَانِ غيرَ نَاكِيلٍ ولا وَاَنِ ، ناشراً في الأفق رايته
 البيضاء ، وَأَسْنَتُهُ لامعة بين الخضراء والغبراء ، وقال : والذي كسانى حُلل
 الملاحه ، وأطلق لسانى بالبلاغة والفصاحة ، لَأَمْحُوَنَّ سطور الدجى من طُرُوس
 الوجود ، ولأثبتن حسن أحوالى فى مقامات أهل الشهود : فإنى معروف بالوفاء
 وصدق الخبر ، موصوف بالصفاء الذى لايشوب صفوه كَدَر ، كيف يُبَاهِينِ
 (الليل) بِنِكَارم الأخلاق ، ومحاسن الشِّيم ، وأنا أتحدث بنعم الله وهو
 موسوم بِكُفْرَانِ النِّعم ؟ أَلست مظهر الهداية والدلالة ، وهو مظهر الغواية
 والضلالة ؟ ! فكم أَرشدت مَنْ أَضله ، وأعززت من أَهانته وأَذله ، وكَم أَظهرت
 منه عيباً كان غيباً ، فابيضت عينه حُزناً « واشتعل الرأس شيباً » :
 ومن جَهَلَتْ نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى

وكيف يزعم هذا العبد الآبق أنه لَسَيِّده فى حَلْبَةِ الشرف سابق ، وقد قال
 الواحد القهار : « ولا اللَّيْلُ سابقُ النَّهارِ » إن هو وأيم الله كافر ، وبشموس
 أنوار الشهادة غير ظافر ، لو كان من السُّعداء لفاز بدار النعيم ، ولولا شفاؤه
 لما شابه سواد طبقات الجحيم ، وماذا يُؤمله من الجزاء ويرجوه « يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهُ »
 أما درى أن صحيفته سوداء مظلمة ، وصحيفتى تفصح عن نفيس مؤمنة بالله
 مسلمة ! وأنى يرقى كتابه إلى عليين ، وهو من ظلمات الحجاب فى سِجِّين ! .
 ثم أقبل عليه ، وأنشد مشيراً إليه :

يا مُشَبِّهاً فى فِعْلهِ لَوْنَه لم تَعُدْ ما أَوْجبت القِسْمَه
 خُلِّقك من خَلْقك مستخرج والظلم مُشتَق من الظلمه

وقال : كيف تدعى فوق حالك ، وأى فضل لمن منظره أَسود حَالِك !
 أما علمت أن الظاهر للباطن عنوان . كما أن اللسان عن الجنان ترجمان ، قال
 أفضل الخلق عليه الصلاة والسلام : « ابتغوا الخير عند حسان الوجوه » وقال الشاعر :

لا تسأل المرء عن خلائقه في وجهه شاهدٌ من الخبر

فأنا مفتاح خزائن الأرزاق ، وبى يستفتح باب الكريم الرزاق ، وكفانى
دليلاً على الفضل والكمال « إن الله تعالى جميل يُحب الجمال » لقد سمعتُ
أقاييلك التى قدمتها بين يديك ، وزعمت أنها حُجَّة عليك (١) ، ولا جرم أن
لسان الجاهل مفتاح حَتفه ، وكم من باغ قُتل بصارم بغيه وحيفه . أما انسلخى
منك فمن أَمَلَح الملح لى وَالغُرر ، وهل يحق لأَصناف الأَصْداف أن تُنافس نفائس
الدُّرر ؟ أليست « تَلِدُ الأُمَّة ربتها حرَّة نجيبة » وقد قالوا : « إن اللبالبى حَبالى
يَلِدُن كل عجيبة » ، وأما تَقَدُّمك علىَّ فمن العادة تقدم الخدم بين يدى السادة :

أو ما يرى أن النبيَّ محمدًا فاقَ البريةَ وهو آخر مُرْسَل

على أنه « أولُ ما خلق الله النُّور » كما ورد عن جابر فى الخبر المأثور .
وأما تحلى صفوتك بتجلّى الحق تعالى فى السَّحر ، فليس إلا لمن أحيا أحيانك
بالمجاهدة والسهر ، وأما زهُوك بقصة ظهور سيد ولد آدم الذى هو نتيجة مُقدمات
الكون وزُبدة العالم ، فهل وقع اتفاق الرواة على ذلك ؟ وأنتى لك هذا ، وصُبْح طلعت
تمحو سوادك الحالِك ، وأما خبرُ الإسراء فعنّى رَوته الأُمَّة (٢) ثم بلغه الشاهد
للغائب بعد أُمَّة (٣) ؛ فما لاحت أسرارهِ إلا بمطالعى ، ولا راحت أَسْتاره إلا بطوالعى ،
وما أَشْرَتْ إليه من بقية معانيك التى أَضاءَتْ بها فى الخافقين نجومُ معاليك ، فأين
أَنت من يوم عَرَفة ، الذى عرفه بأبهى الخصائص مَنْ عرفه ، وأين أنت من يوم
عاشوراء ، الذى يَعظم فيه الشكر والصبر على السراء والضراء ! وناهيك بِسُوءِ شأنِ
العبيدين ، فما أَجلُّهُما من موسمين سعيدين ، وكيف تُفاخرنى بساعة تبدو
منك مرة فى كل عام ، ولى كل أسبوع أمدٌ تمتد فيه موائد الجُود والإنعام

(١) هكذا بالأصل والاصح أن يقال : « وزعمت أنها حجة لك مع أنها حجة عليك » .
(٢) الأُمَّة : أهل الدين (٣) الأُمَّة: الحين من الدهر ، أى مدة ، أو وقت .

فَأَخْبَارُ أَخْبَارِي سَارَتْ بِهَا الرُّكْبَانُ ، وَمَاسَتْ بِنَسِيمِ رِقَّتِهَا مَعَاطِفُ الْبَيَانِ ،
وقدري فوق ماتصفه الأَلْسُنُ ، وعندى « ما تشتهيهِ الأَنْفُسُ وتلدُ الأَعْيُنُ »
فدع عنك قول الزُّورِ وَالْمَيِّنِ « فقد بين الصبح لذى عينين » .

ولمَّا أَقَاضَ (النهار) فى حديث يفضح الأزهار ، أبدع فى كُنَايَتِهِ وتلويحه
وَأَعْرَبَ فى تعريضه وتصريحه . ابتدر إليه (الليل) وأجلب عليه بالرجل والخيل
وامتطى جواده الأدهم ، واعتم بعمامة سوداء وتلثم ، فأنسى بفتكاته عنتره بنى
عبس ، حين أمسى يتوعد عمارة بالقتل والرَّمس ، ثم نشر فى الأفق ذوائبه
السود ، وعبس وبسر فأسر بسطوته الأسود ، وقال : « فلا أقسمُ بالشفق ،
والليل وما وَسَقَ ، والقَمَرُ إِذَا اتَّسَقَ » لَأَسْبِيَنَّ رُؤْيَى النَّهَارِ ، ولَأَجْعَلَنَّهُ عِبْرَةً
لِلذُّوِيِّ الْإِعْتِبَارِ ؛ فلقد تَزَيَّى المملوكُ بِزَىِّ الملوِكِ ، وادَّعى مقام الوصول إلى
صاحب السير والسلوك ، أما كفاه ازدرائى وتحقيرى ؟ ! حتى حكم بتضليلى
وتكفيرى ! كم أسبَلْتُ عَلَى عَوْرَاتِهِ ذَيْلَ سَتْرِي ، وهو لا يُبَالِي بِهَتِكِ أَسْتَارِي ؟
وكم أَوْدَعْتُ مَكْنُونِ سِرِّهِ فى خزانة سِرِّي ، وهو يبوح بمصون أسرارى ! أُمَّ لَهُ
من فاضح ، أما يكفيه ما فيه من المفاضح ؟ !

أَنَّمْ بِمَا اسْتَوْدَعْتُهُ مِنْ زَجَاجَةٍ يُرَى الشَّيْءَ فِيهَا ظَاهِرًا وَهُوَ بَاطِنٌ
كيف احتج لتقدمه بحديث جابر ، مع أن مارواه لِكَثْرَى أعظمُ جابر ،
فإنه برهن على تقدمى عليه لو أدرك سر ما أوماً إليه ، وعَلَامُ جعل السواد على
النقص علامة ، وهو مُشْتَقٌّ مِنَ السُّوَدِّ لَدَى كُلِّ عِلَامَةٍ ؟ أما درى أَنَّى حُرْتُ
من الكمال الحظ . الأَوْفَرُ ، حتى تحلى ببديع وصفى العنبرُ والمِسْكُ الأَذْفَرُ !
إِنْ كُنْتُ عَبْدًا فَنَفْسِي حُرَّةٌ كَرَمًا أَوْ أَسْوَدُ الْخَلْقِ إِنِّى أَبْيَضُ الْخَلْقِ
وهل يُزْرِى بالخال سواده البارِعُ ، أَوْ يُغْرِى بالبرص بياضه الذاصع ؟
وفى بياض المشيب عِبْرَةٌ وَأَى عِبْرَةٌ ، فكم أجرى من الآماق أعظم عِبْرَةٍ .

له منظر في العين أبيض ناصع ولكنه في القلب أسود أسفع

ومن عاب نعت الشباب ، وفضل وصف الشيب ، فقد غاب عن شهود
العيب وعالم الغيب « فما كلُّ بيضاء شحمة ولا كلُّ حمراء لحمه » ؛ ولما أنهى
مقاله ، ومل مقامه شمرَّ للرحلة أذياله ، وقَوَّض خيامه . فتهلل وجه الصباح ،
وهلل بذكر فالق الإصباح وازدهاه السرور والابتهاج ، كأنه ربُّ السرير والتاج :

فكأن الصبح لما لاح من تحت الثريا
ملك أقبل في التاج يُفدى ويحيى

برز إلى المبارزة من بابها ، إذ كان في فرسانها وأربابها ، فسلب (الليل)
لباسه وأذاقه شدته وباسه ، وقال له : أيها المعجبُ بنفسه ، المغرب في نفسه
صحيفة زوره بنقشه (١) « ما كل سواداء ثمرة ، ولا كل صهباء خمرة » ألم تعلم
أيُّنا أبيض محيياً ، وشتان ما بين الثرى والثريا ، أين سوادك من بياضى ؟ وما زهر
نجمك إن تلاًلاً من زهر رياضى ! وكم أطلعت بُدوراً في مواكب السيارة ،
فأضحت تزهو بجماله على الكواكب السيارة ، وهل لك مثل الغزالة ؟ التى
انفردت في الملاحاة لامحالة ! فأنا الذى ضاء صباح الصبابة من محياه ، وضاع
عبير العنبر من نشر أنفاسه وطيب رياه ، ولولاي ما عُرف الحسن والجمال ،
ولا سعى على وجه الأرض بدر الكمال . فوجم (الليل) لبراعة تلك العبارة ،
وبلاغ ما لاح له من الرمز والإشارة ثم وثب للمقال كأنما أنشط من عقال ، وقال :
« ربُّ ملوم لا ذنب له » ، ومظلوم خيب الدهر أمله ، فإلى متى يسوءنى النهار ؟ وحتام
يسومنى عذاب النار ؟ طالما أعرته أذنأ صماء ، وعيناً عمياء ، وهو لا ينثنى
عن المقابلة . ولا يرعوى عن المحاربة والمقاتلة . أما تعلم أيها المغتر ببياضك
أن السواد حلية أهل الزهد والصلاح ، وهل يسترقُّ الأسود إلا سود أحداق

(١) النقش : ما يكتب به من مادة ، يريد سواده .

المَلّاح ! بيد أن الحر لا يُبْكَى بالجمال الظاهر ، وإنما يُبْاهى بالفعل الجميل ، والقلب الظاهر ، فإن تفاوتت المراتب ، بحسب تفاوت المناقب .

وما الحسن في وجه الفتى شرف له إذا لم يكن في فعله والخلائق
وكم أعددت للأنس مقاعد ، وفي الأمثال : « رَبُّ سَاعٍ لِقَاعِد » فإن ظِلِّي
ظليل ونسيمي عليل ليليل ، تهدأ بي الأنفاس وتسكن الأعضاء والحواس . فقام
(النهار) يعثر بذيله ، وقد كفّ كفّ وَاكِف سيله ، فما لبث أن تنفّس
الصباح ، وأظهر من سناه ما أخفى ضوء الصباح ، ورُفِرَ بجناحه الأبيض
على الدُّجى ، فاقتنصه من وكره بعد ما سكن وسَجَا :

فكأنّ الصباح في الأفق باز والدُّجى بين مِخْلَبَيْهِ غُرَاب
وقال : تَبّاً لك أيّها (الليل) فلقد أُوتيت من المين أوفر نيل ، أى حديث
لك صحيح وَضَعْتُهُ ، وأى حق لك صريح أَضَعْتُهُ ؟ !

عليك بالصدق ولو أنه أحرقك الصدق بنار الوعيد
أَبْغَ رضا الله فأعْجى الوَرَى من أسخط المولى وأرضى العبيد
نعم لك في السمر خبر مرفوع ، بيد أنه مكروه في السنة موضوع ، قد
اشتهرت لكن بأقبح الأوصاف ، وعدلت لكن عن سبيل العدل والإنصاف ، تكتم
عن المرء ما يُرْذِيهِ « وتحفى في نفسك ما الله مُبْدِيهِ » وفي المثل : « الليل أخفى
للويل » فما أصعب مراسك قبل افترار سُهيل ، وهل يترنم بذكرك إلا غافل ؟
وأنى يغتر بك عاقل ، ونجمك آفل ؟ وكيف تفتخر على ، وأنت تفتقر إلى ؟

ولما سلب النهار بأساليب بيّانه العقول ، وسكت الليل ملياً أنشأ يقول :
فعين الرضا عن كل عيب كليله كما أن عين السخط تبدي المساويا
كيف أتصدى للكذب ، وأتردى باللهو واللعب ! ! وأنا المنعوت باللطف
والظرف والموسوم بالصمت وغض الطرف ، كيف أورث الغرور ، وأوثر الغفلة
على الحضور ، وأنا الداعي لذكر الله وحده ، والساعى في ردّ الكثرة الوهمية إلى عين.

الْوَحْدَةَ وَأَنَا الموصوف بالسَّتْرِ الجميل ، والمعروف بشكر المعروف والجميل ، وهلم
أَحْجَبُ البصر عن شهود عالم الكثافة ، إِلَّا لَأَكْشِفُ لعين البصيرة عن عالم
اللطافة ، وبذلك يتحقق العبد بفنائه عن وُجُوده ، فيمده الرب تعالى بسر بقاءه
من خزائن جُودِهِ . ثم قال (النهار الليل) وقد هجم عليه هُجُوم السيل : أيها المدعى
مقام الدعوة إلى الله ، وهو في حال الغفلة عن مولاه لاه ، كيف تَسْنَمْتُ ذَرَوَةَ
هذا المنبر ؟ كَأَنَّكَ تَكْتُبُ بِالْمِسْكِ وتَحْمُ بِالْعَنْبَرِ ! لقد أَطْلَتَ فيما « لا طائل تحته »
ولا معنى ، فكم ذا « أَسْمَعُ جَعَجَعَةً ولا أَرَى طَحْنًا » فلو كنت من انتخب غُرر
الشِّيم وانتقى ، لا تَعْظُتَ بقوله تعالى : « فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن أتى » .
فتنبه من غفلتك أيها « الليل » قبل أن تدعو بالثُّبُور والويل ، وإِلَّا فَرَّقْتُ
طلائع سَوَادِكِ أَى تفريق ، ومزقت سوابغ ظلامِكِ أَى تمزيق « فما كُلُّ مَرَّةٍ
تَسْلَمُ الجَرَّة » . فاسودَّ وجه الليل ، وانقلب « بِحَشَفٍ وَسُوءِ كَيْلٍ » وندم على
مناضلة النهار ، نَدَامَةً الفرزدق حين فارق النُّوَّار (١) ولما سُقِطَ . فى يَدِهِ ،
ورُزِيَّ فى عدده وعُدَّده ، تردى بالسواد ، وَلَبِسَ ثِيَابَ الحِداد ، ثم لاح
هلاله للعين ، كَمِنْجَلٍ صِيغَ من لُجَيْن :

انْظُرْ إِلَى حُسْنِ هَالِلٍ بَدَا يَجْلُو سَنَا طَلْعَتِهِ الْحَنْدِسَا

كَمِنْجَلٍ قَدْ صِيغَ مِنْ فِضَّةٍ يَخْصُدُ مِنْ زَهْرِ الدَّجَى نَرْجِسَا

-
- (١) بنت مجاشع زوج الفرزدق طلقها فى مجلس عبد الملك بن مروان .
وذلك أن الفرزدق قال فى المجلس - وفيه جرير - النوار طالق ثلاثا أن لم
أقل بيتا لا يستطيع جرير أن ينقضه أبدا فقال عبد الملك : ماهو ؟ فقال :
فانى انا الموت الذى هو واقع بنفسك فانظر كيف انت مزاوله
فقال جرير : أم حرزة طالق منى ثلاثا ان لم أكن نقضته وزدت عليه .
فقال عبد الملك هات فأنشد :

أنا الدهر يفنى الموت والدهر خالد فجئتنى بمثل الدهر شيئا يطاوله
فقال عبد الملك : فضلك والله يا أبا فراس وطلق عليك .

وقال : من يُنصفني من هذا الجائر ؟ وينصتُ لي فأبته شكوى الواله الحائر ، فحتام أعانى حدَّ الظبا ، وقد بَلَغَ السيل الزُّبى .

وكنت كالمُتمنى أن يرى فلماً من الصباح فلما أن رآه عمى فانتبه طرف (النهار) وازدهر سراحه أى ازدهار ، وشرع يتلو سورة النور بكمال الابتهاج ، والشمس ترقمُ آية جماله بالذهب الوهاج .

وقابل الصُّبحُ جُنحَ الليل فارتسمتُ سُطورُهُ البيضُ في ألواحهِ السود

ثم قال : أيها « الليل » البهيم « تالله إنك لفي ضلالك القديم » كيف تدعى أنك مظلوم ، وتشكى من جورى وأنت الظلوم ، وهب أنى قاتلتك ظلماً فأنت البادى ، وهل قابلتك إلا بما واجهتنى به في المبادى ، وها أنا برهننت على فضلى بشهود عدول ، ليس للمنصف على تزكية شهادتهم عدول ، فاستقل من دعوى المجد والفخر ، « فقد حصَّص الحق » ووضح الفجر ، وإن أبيت سلوك محجتي ولم تتضح لك أدلة حُجَّتى ، فهلم إلى « حضرة الأمير » ولا ينبئك مثل خبير . فأنكر الليل زعمه التفرد بالفضل وادعائه ، وأجاب في عرض أمرهما على (الأمير) دعاءه ، وقال : على الخبير ، سقطت ، وعند ابن بجדתها حططت .

وكتب أيضا في مناظرة بين الارض والسما

جالت السماء في ذلك المضمار وصالت ، ونوّهت برفيع قدرها وقالت : تبارك الذى جعل في السماء بروجاً ، ومنح أشرف الخلق إلى عُرُوجا ، وقدمنى في الذكر في محكم الذكر ، وشرفنى بحسن القسم ، وأتحفى بأوفر القسم ، وقدسنى من النقائص والعيوب ، وأطلعنى على الغوامض والغيوب ، وقد ورد أن الرب ينزل إلى كل ليلة ، فيولى من تعرض لنفحاته بره ونيله ، فيالها من تحفة جليلة ومنحة جزيلة يحقُّ لى أن أجر بها ذبول العزة والافتخار ، وكيف لا الوجود بأسره باسطاً إلى أيدي الذلة والافتقار ، فلى العز الباذخ ، والمجد الأثيل الشامخ ، لتفردى بالرفعة والسمو وعلو المنزلة دون غلو . فقالت لها « الأرض » ويحك لقد

أكثرت نزرأ وارتكبت بما فُهِتَ به وزراً ، أما إنه لا يُعْجَبُ بنفسه عاقل ، ولا يَأْمَنُ مكر رَبِّهِ إلا غافل ، ومن ادَّعى ما ليس له بقوله أو فعله ، فهلاكه أقربُ إليه من شرك نعله ، وقد قيل : « من سعادة جَدُّك ، وقوفك عند حدِّك » ومن فعلَ ما شاء لقي ما ساء ، أو ما كفاك أَنْ خَطَرْتَ في ميادين التيه والإعجاب ! حتى عرضت لشتى « إِنَّ هذا لشيءٌ عَجَاب » ! وهل اختصك الله بالذكر ؟ أو أقسم بك دوني في الذكر ؟ أو آثرك بالتقديم ، في جميع كلامه القديم ، حتى ترديت بالكبرياء وتعديت طَوْرَ الحياء !

إذا لم تخش عاقبة الليالي ولم تستح فاصنع ما تشاء
فلا وأبيك ما في العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

وكيف تزدرين أهلي بالذنوب والمعاصي ! وأنت تعلمين أن الله هو الآخذ بالنواصي ؟ فقابلتها « السماء » بوجه قد قطبته ، ومِجَنُّ قد قلبته ، وقالت لها في الحال أيتها القانعة بالمحال ، ما كنتُ أحسبُ أنك تجترئين على مُبارزة مثلي ، وتنكرين عليَّ ما ترنمتُ به من شواهد مجدى وفضلى ، وهل خِلتُ أن التحدث بالنعم مما يلام عليه ؟ مع أنه أمرٌ مندوبٌ إليه ؟ ومن أمثال ذوى الفطنة والعقل « ليس من العدل سرعة العدل » وكيف جَحَدْتَ ظهور شمس كمالى ؟ وهل لك من الفضائل والفواضل كما لى ! ولكن لك عند عُذْرًا جلياً ، وإن كنت « لقد جئت شيئاً فرياً » .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رَمَدٍ ويُنْكِرُ الفم طعم الماء من سَقَمٍ
ولو رأيت ما فيك من المساوى عياناً ، لما ثنيت إلى حلبة المفاخرة عناناً . فأنى تفوزين بأشرف الأقدار ، وأنت موضع الفضلات والأقذار ؟ وما هذا التطاول والإقدام ، ووجهك موطى النعال والأقدام ، إن هذا إلا فعل مكابر ، دَعَوَى عريضة وعجز ظاهر ، وهل يحق للكثيف أن يتغالى على اللطيف ، أم ينبغى للوضع

أن يتعالى على الرفيع ؟ فقالت لها « الأرض » أيتها المغترّة بطوالع أقمارها والمُعترّة بلوامع أنوارها « ما كلّ بيضاء شحمة ، ولا كل حمراء لحمه » فبمَ تزعمين أنك أتتني مني وأنقي ، وما عند الله خيرٌ وأبقى ، وأنت واقفةٌ لي على أقدام الخدمة جارية في قضاء ما ربي بحسب الحكمة ، قد كفلك الحق بحل مؤونتي ، وكلفك بمساعدتي ومعونتي ، ووكلك بإيقاد سراجي ومصباحي ، ووكلك إلى القيام بشئوني في ليلى وصباحي ، وليس علوك شاهدًا لك بالرتبة العلية ، فضلا عن أن يُوجب لك مقام الأفضلية - فما كل مُرتفع نجد ، ولا كل مُتعاظم ذو شرف ومجد .
وإن علاني من دوني فلا عجبٌ لي أسوة بانحطاط الشمس عن زحل فمن أعظم ما فقتُ به حسناً وجمالاً ، وكذتُ بإخمصي أطا الثريا فضلاً وكمالاً تكوينُ الله مني وجود سيّد الوجود ، فأفرغ عليّ به خلع المكارم فهو بدر الكمال وشمس الجمال :

وأجملُ منك لم تر قط عينٌ وأكملُ منك لم تلد النساءُ
خلقت مبرءاً من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء
فأكرم به من نبي أسرني به وأرضى ، كيف لا ولولاه ما خلق سماء ولا أرضاً ، وجعلني له مسجداً وطهوراً ، وأقرّ به عيني بطوناً وظهوراً .
فأبرقت « السماء » وأرعدت ، وأرغت وأزبدت ، وقالت : إن لم تتخطى خطّة المكابرة وتتخلّى عن هذه المثابرة ، لأغرقنك في بحر طوفاني ، أو أحرقنك بصواعق نيران ، وهل امتطيت السماكين ، أو انتعلت الفرقدين ، حتى تفتخرى عليّ ، وتشيري بالذم إليّ ، وتلك شهادة لي بالكمال ، ولقد صدق من قال :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي ببائي كامل
أم حسبت أن لك في ذلك حجة ، فخاطرت بنفسك في ركوب هذه اللجة وكنت كالباحث عن حتفه بظلفه ، والجادع مارن أنفه بكفه :
لكل داء دواء يُستطب به إلا الحماقاة أعيت من يداويها

أما دعواك أنى واقفة لك على أقدام الخدمة ، فهى مما يُوجبُ عليك شكر الفضل والنعمة ، فلو تفكرت أن خادم القوم هو السيد والمولى ، وعرفت الفاضل من المفضول ، أو تدبرت أن « اليد العليا خير من اليد السفلى » لاستقلت من هذا الفضول ، فإن قيامى بشئونك أوضح أمارة . وأما قولك منى سيد الوجود ومن اصطفاهم لحضرته الملك الودود ، فإن كنت تفتخرين بأشباحهم الظاهرة ، فأنا أفتخر بأرواحهم الطاهرة ، أما علمت أنها فى ملكوتى تغدو وتروح ، وبواردى (١) بسطى وقبضى تشدو وتنوح ، فأنا أولى بهم ، وأحرى بالافتخار بحزبهم .

فلما سمعت الأرض من السماء مقالة تقطر من خلالها الدماء ، أطرقت لمحة بارق خاطف ، أو نغمة (٢) طائر خائف ، ثم قنعت رأسها ، وصعدت أنفاسها وقالت : لقد أكثرت ياهذه اللغظ . وما آثرت الصواب على الغلط . فعلام تهزئينى وتستخفين بحسبى ونسبى ؟ وإلام تنقضين عرى أدلتى ، ولأنعاميلينى باللتى ؟ وحتام تقابلينى بأنواع التائب ، ولم لا تقنى على حقيقتى بالبحث والتنقيب ؟ أحسبت أن الجسم ما خلق إلا عبثاً ، ولا كان للنفس النفيسة إلا جدناً ؟ وفى ميدانه تتسابق الفهوم ، وتذكر عوارف المعارف والعلوم ، وبه تترق الأرواح فى مراقى الفلاح ! وكيف لا يكون مقدساً من كل غى ومين ؟ وهو لا يفتر عن تسبيح بارئيه طرفة عين ! وإلى متى أنت على متحاملة ؟ وعن آية العدل والإحسان متماحلة ؟ وأنا لك أسمع من خادم ، وأطوع من خاتم ؛ على أن لى من الفضائل ما ثبت بأصح البراهين والدلائل ، أما فى بقعة من أشرف البقاع عن الإطلاق ، لضمها أعضاء من تتم الله به مكارم الأخلاق ! وفى روضة من رياض الجنة ، كما أفصحت عن ذلك السنة السنة ، ومنى الكعبة والمشعر الحرام والحجر وزمزم والركن والمقام ، وعلى بيوت الله تشد إليها الرحال ، ويسبح

فيها بالغُدُو والآصال رجال ، وأخرج منى طيِّبات الرزق فأكرم بها عبادة ،
وَأَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ فجعل الشكر عليها عبادة ؛ وناهيك بما اشتملت عليه من
الرياض والغياض ، ذات الأنهار والحياض ، التي تُشفي بنسيمها العليل ،
وتنفي ببرد زلالها حرَّ الغليل :

لِمَ لَا أَهَيِّمُ عَلَى الرِّيَاضِ وَطَيْبِهَا وَأَظِلُّ مِنْهَا تَحْتَ ظِلِّ ضَافٍ
وَالزَّهْرُ يَضْحَكُ لِي بِشَفْرِ بِاسْمِ وَالنَّهْرُ يَلْقَانِي بِقَلْبِ صَافٍ
فَأَسْفَرْتُ عَنْ بَدْرِ طَلْعَتِهَا « السَّمَاء » وَهِيَ تَزْهَوُ فِي بُرُودِ السَّنَا وَالسَّنَاءِ ، وَقَالَتْ
تَنَاجِي نَفْسَهَا عِنْدَ مَارِقِ السَّمَرِ ، حَتَّى أُرِيهَا السَّهَى وَتُرِينِي الْقَمَرَ ؟ ثُمَّ عَطَفَتْ عَلَيْهَا
تَقُولُ ، وَهِيَ تَسْطُو وَتَصُولُ : أَيَّتُهَا الْمُتَعَدِّيَةُ لِمَفَاضِلِي ، وَالتَّصَدِّيَّةُ لِمَنَاضِلِي مَتَى قَبِيسُ
الْتِرَابِ بِالْعَسْجَدِ ؟ أَوْ شُبَّهَ الْحَصَى بِالزَّبْرِجَدِ ؟ ! إِنْ افْتَخَرْتَ بِشَرَفِ هَاتِيكَ الْبِقَاعِ
الَّتِي زَهَا بِهَا مِنْكَ الْبِقَاعُ وَالْقَاعُ ، فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ عَرْشِ الرَّحْمَنِ ؟ الَّذِي تَعَكْفُ عَلَيْهِ
أَرْوَاحُ أَهْلِ الْإِيمَانِ ؟ وَأَيْنَ أَنْتَ مِنَ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ؟ وَالكَرْسِيِّ الْمَكْلَلِ بِالنُّورِ ؟ !
وَكَيْفَ تَفْتَخَرِينَ عَلَى بَرُوضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ ، وَهِيَ عَلَى بَاسِرِهَا فَضْلًا مِنَ اللَّهِ
وَمِنْهُ ! أَمْ كَيْفَ تَزْعُمِينَ أَنَّهُ كُتِبَ لَكَ بِأَوْفَرِ الْحِظُوظِ ، وَعِنْدِي الْقَلَمُ الْأَعْلَى وَاللَّوْحُ
الْمَحْفُوظُ ؟ وَأَمَا أَزْدَهِأُوكَ بِالْحَيَاضِ وَالْأَنْهَارِ ، وَالرِّيَاضِ الْمُبْتَهِجَةِ بِوُرُودِ (١) الْوَرْدِ
وَالْأَزْهَارِ ، فَلَيْتَ شَعْرِي هَلْ حَوَيْتَ تِلْكَ الْمَعَانِيَ إِلَّا بِنَفْحَاتِ غِيُوْثِي وَأَمْطَارِي ؟ أَمْ
أَشْرَقْتَ مِنْكَ هَاتِيكَ الْمَغَانِيَ إِلَّا بِلَمَحَاتِ شَمُوسِي وَأَقْمَارِي ؟ ! فَكَيْفَ تُبَاهِيْنِي
بِمَا مَنَحْتُكَ إِيَّاهُ ، وَعَطَّرْتُ أَرْجَاءَكَ بِأَرْيَجِ نَشْرِهِ وَرِيَّاهُ ؟ ! وَيَا عَجَبًا مِنْكَ كَلِمَا
لَا حَاجَ عَلَى شِعَارِ الْحَزَنِ ، خَطَرْتُ فِي أَبْهَى حُلَّةٍ مِنْ حُلْلِ الْمَلَاةِ وَالْحُسْنِ ، وَإِنْ افْتَرَّتْ
تُغْوِرُ بِدُورِ أَنْسَى ، وَقَرَّتْ بِبَيْدِيعِ جَمَالِي عَيْنِ شَمْسِي ، زَفَرْتُ زَفْرَةَ الْقَيْظِ ، وَكَدَدْتُ
أَنْ تَتَمَيِّزَنِي مِنَ الْغَيْظِ ، مَا هَذَا الْجَفَاءُ يَا قَلِيلَةَ الْوَفَاءِ ؟ ! وَهَلْ صَفْتُ أَوْقَاتَكَ
إِلَّا بِوُجُودِي ، أَوْ طَابَتْ أَوْقَاتَكَ إِلَّا بِوَابِلِ كَرَمِي وَجُودِي ؟ ! وَلَوْ قَطَعْتُ عَنْكَ

(١) وردت الشجرة ورودا اذا اخرجت وردها .

لطائف الإمداد لخلعت ملابس الأنس ولبست ثياب الحداد ! أو حجبتُ
عنك الشمس والأقمار لما ميّزت بين الليل والنهار ! كُنتَ بفضلِ معترفة حيث
إنك من بحر فيضٍ مغترفة ؟ ! فنزعت « الأرض » عن مُقاتلتها ، وعلمت
أنها لا قبيل لها بمقابلتها . وحين عجزت عن العوم في بحرها ، واستسلمت تمامها
لسحرها ، بسطت لها بساط العتاب ، مُتمثلة بقول ذي اللطف والآداب :

إذا ذهب العتابُ فليس وُدٌ وَيَبْقَى الْوُدُّ مَا بَقِيَ الْعِتَابُ

ثم قالت : اعلمى أيتها الموسومة بسلامة الصدر ، الموصوفة بسمو المنزلة
وَعُلُوِّ القدر ، أن الله ما قارن اسمي باسمك ، ولا قابل صورة جسمي بجسمك
إلا لمناسبة عظيمة ، وألفة بيننا قديمة ، فلا تُسميني بنا الأعداء ، وتُسميني
الأحباء والأوداء ، فإن ذلك من أعظم الرزايا ، وأشدّ المحن والبلايا .

كلّ المصائب قد تمرّ على الفتى فتهون ، غير شتاة الأعداء
ألا وإنّ العبد محلّ النقص والخلل ، وهل يسوغ لأحد أن يُبرئ نفسه
من الزلل ؟ ! وَمَنْ ذا الذى يسلم من القَذْح ، ولو كان أقوام من القَذْح (١) :
وَمَنْ ذا الذى تُرجى مزاياه كلها كفى المرء نبلا أن تُعدّ معايبه

هذا ، وإن لى مفاخر لا تُنكر ، ومآثر تجل عن أن تحصر ، كما أنك فى
الفضل أشهر من نار على علم ، وأجل من أن يحصى ثناء عليك لسان القلم ،
فإلى متى ونحن فى جدالٍ وجلاد ، نتطاعنُ بأسنة ألسنة حداد ، وهل ينبغي أن
يجرّ بعضنا على بعض ذيل الكبر والصلف ، عفا الله عما سلف ، وهذه
لعمري ، حقيقة أمرى ، فانظري إلى بعين الرضا واصفحى بحقك عما مضى .

ولما سمعت السماء هذه المقالة ، التى تجنّحُ إلى طلب السلم والإقالة ، قالت
لها : مآربُ لا حفاوة ، ومشربٌ قد وَجَدْتُ له حلاوة ، وما ندبتُ إليه من المودة

(١) القَذْح : يكسر القاف السهم قبل أن يراش ويركب نصله .

والألفة ، فلأمر ما جَدَعَ قصيرُ أنفه ، ولو لم تُلقَ إلى القياد ، لعانت منى مادونه
 خرط القتاد ، ولكن لاخرج عليك ولاضير ، فإنك اخترت الصلح والصلح خير ،
 وكيف جعلت العتاب شرطاً بين الأحباب أو ما سمعت قول بعض أولى الألباب :
 إذا كنت في كلِّ الأمور مُعَاتِباً صديقك لم تَلَقَ الذي لا تُعَاتِبُهُ
 وإن أنت لم تشرب مِراراً على القذى ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه
 وها أنا رَاةٌ إليك عوائد إحسانى ، وموائد جُودى وامتنانى ، فقرئ عيناً
 وطيبى نفساً ، وتيهى ابتهاجاً وأنساً ، وأبشرى ببلوغ الوطر ، وزوال
 البؤس والخطر . فسجدت الأرض شكراً ، وهامت نشوة وسُكراً ، وتهلل
 وجهها سُروراً ، وامتلأت طرباً وحُبوراً .

مناظرة بين فصول العام لابن حبيب الحلبي المتوفى سنة ٤٠١ هـ

قال الربيع : أنا شبابُ الزمان ، وروح الحيوان ، وإنسان (١) عين الإنسان
 أنا حياة النفوس ، وزينة عروس الغروس ، ونزهة الأبصار ، ومنطق الأطيّار ،
 عرف (٢) أوقاتي ناسم ، وأيامي أعياد ومواسم ، فيها يظهر النّبات ، وتنشر (٣)
 الأموات ، وتردُّ الودائع ، وتتحرك الطبائع ، ويمرح (٤) جنيب (٥) الجنوب (٦) ،
 وينزح (٧) وجيب (٨) القلوب وتفيض عيون الأنهار ويعتدل الليل والنهار ، كم
 لى عقدٌ منظوم ، وطرّاز وشيٍّ مرقوم ، وحلّة فاخرة ، وحليّة ظاهرة ، ونجم سعد
 يُدنى راعيه من الأمل ، وشمس حُسن تنشدنا (٩) : « بُعد ما بين بُرج
 الجدى (١٠) والحمل (١١) » عساكرى منصوره ، وأسلحتى مشهورة فمن سيف غُصْنٍ

(١) ما يرى في سوادها (٢) الريح الطيبة (٣) تحيا (٤) ينشط (٥) مجنوب ،
 والجنوب ريح تخالف الشمال ، مهبها من مطلع سهيل الى مطلع الثريا (٦) ريح
 تخالف الشمال ومنه اذا جاءت الجنوب جاء معها خير كثير (٧) يبعد وبذهب
 (٨) كثرة خفقها (٩) تقول لنا من انشاد الشعر (١٠) برج في السماء وهو
 أحد البروج الاثنى عشر التي تمر بها (١١) برج في السماء أيضا .

مجوهر ، ودُرْع بنمسيح مُشَهَّر ، ومَغْفِر (١) شَقِيق (٢) أحمر ، وتُرْس بهارٍ يَبْهَر ،
وسَهْم آس يرشُق فينشق ، ورُمح سوسن (٣) سِنَانِه أزرق ، تحرسها آيات ،
وتكْنِفُهَا أَلْوِيَةٌ ورايات . بي تحمرُّ من الورد خُدُودُه ، وتهتزُّ من البان قُدُودُه ،
ويخضرُّ عذار الرِّيحان ، وينتبهُ من النرجس طَرفه الوسنان (٤) ، وتخرج الخبايا
من الزوايا ، ويفترُّ ثَغْرُ الأَقْحُوَان (٥) قَائِلًا (أَنَا ابنُ جَلَا وَظِلَاغِ الثَّنَايا) :

إِنَّ هَذَا الرَّبِيعَ شَيْءٌ عَجِيبٌ يُضْحِكُ الْأَرْضَ مِنْ بُكَاءِ السَّمَاءِ
ذَهَبٌ حَيْثُمَا ذَهَبْنَا وَدُرٌّ حَيْثُ دُرْنَا وَفَضَّةٌ فِي الْفَضَاءِ

(وقال الصيف) : أَنَا الخَلِّ المُوَافِقُ ، والصديق الصَادِقُ ، والطبيب الحاذِقُ
أَجْتَهِدُ فِي مَصْلَحَةِ الْأَحْبَابِ ، وَأَرْفَعُ عَنْهُمْ كُلَّفَةَ حَمْلِ الثِّيَابِ ، وَأُخَفِّفُ أَثْقَالَهُمْ ،
وَأُوَفِّرُ أَمْوَالَهُمْ ، وَأَكْفِيهِمُ الْمُوْنَةَ ، وَأَجْزِلُ لَهُمُ الْمَعُونَةَ ، وَأَغْنِيَهُمْ عَنْ شِرَاءِ
الْفِرَا ، وَأُحَقِّقُ عَنْدهُمْ (أَنْ كُلَّ الصَيْدِ فِي جَوْفِ الْفِرَا) نُصِرْتُ بِالصَّبَا ، وَأُوتِيتُ
الْحِكْمَةَ فِي زَمَنِ الصَّبَا ، بِي تَتَضَحُّ الْجَادَةُ (٦) وَتَنْضِجُ مِنَ الْفَوَاكِهِ الْمَادَّةُ ، وَيَزْهَوُ
البُسْرُ والرَّطْبُ وَيَنْصَلِحُ مِزَاجُ الْعِنْبِ ، وَيَقْوَى قَلْبُ اللُّوزِ ، وَيَلِينُ عَطْفُ
التِّينِ والمُوزُ وَيَنْعَقِدُ حَبُّ الرِّمَانِ ، فَيَقْمَعُ الصَّفَرَاءُ . وَيَسْكُنُ الْخَفَقَانُ . وَتَخْضِبُ
وَجَنَاتُ التُّفَاحِ وَيَذْهَبُ عَرَفُ (٧) السَّفَرَجَلِ مَعَ هُبُوبِ الرِّيحِ . وَتَسْوَدُّ
عَيُونُ الزَّيْتُونِ وَتَخْرُجُ تَيْجَانُ النَّارَنْجِ وَاللِّيمُونِ ، مَوَاعِدِي مَنْقُودَةٌ ، وَمَوَائِدِي
مَمْدُودَةٌ . الْخَيْرُ مَوْجُودٌ فِي مَقَامِي ، وَالرِّزْقُ مَقْسُومٌ فِي أَيَامِي .

الْفَقِيرُ يَنْصَاعُ (٨) بِمِلءِ مُدِّهِ وَصَّاعُهُ ، وَالْغَنِيُّ يَرْتَعُ فِي رَيْعِ مُلْكِهِ وَإِقْطَاعِهِ ،
وَالْوَحْشُ تَأْتِي زُرَافَاتٍ (٩) وَوَحْدَانًا ، وَالطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتُرُوحُ بَطَانًا (١٠) .

(١) زرد ينسج من الدروع على قند الرأس (٢) شقائق النعمان وهو
نبت أحمر الزهر مبقع بنقط سوداء كبيرة (٣) نساب طيب الرائحة
(٤) النعسان الانفلان (٥) البابونج نبت طيب الرائحة حواليه ورق أبيض
ووسطه أصفر (٦) الطريق (٧) رائحته الطيبة (٨) يقفل راجعا مسرعا
(٩) جماعات (١٠) تذهب جائعة وترجع ممتلئة .

مصيفٌ له ظلٌ ظليل على الورى وَمَنْ حَلَا طَعْمًا وحلَّ أَخْلَاطًا
يعالج أنواع الفواكه مُبْدِيًا لصَحَّتْهَا حَفْظًا يُعْجِزُ بَقْرَا(١)

(وقال الخريف) : أنا سائق الغيوم ، وكاسر جيش الغوم ، وهازم أحزاب السموم (٢) ، وحادي نجائب السحائب ، وحاسر نقاب المناقب . أنا أصدُّ الصدى (٣) وأجود بالندى ، وأظهر كل معنى جلي ، وأسمو بالوسمي (٤) والولي ؛ في أيامي تقطف الثمار ، وتصفو الأنهار من الأكدار ويترقرق (٥) دمع العيون ، ويتلون ورق الغصون ، طَوَّرَ يحاكي البقم ، وتارة يُشبه الأرقم ، وحيناً يبدو في حلتة الذهبية فيجذبُ إلى خلته القلوب الأبية ، وفيها يُكفي الناس همَّ الهوام ، ويتساوى في لذة الماء الخاص والعام ! وتقدِّمُ الأطيارُ مطربةً بنشيشها رافلةً في الملابس المجددة عن ريشها ، وتُعَصِّرُ بنت العنقود وتوثقُ في سجن الدن بالقيود ، على أنها لم تجترح إثماً ، ولم تعاقب إلا عُذواناً وظلماً ، بي تطيبُ الأوقات ، وتحصلُ اللذات ، وترق النسنيات ، وترمي حصي الجمرات ، وتسكن حرارة القلوب ، وتكثر أنواع المطعوم والمشروب ، كم لي من شجرة أكلها دائم ، وحملها للنفع المتعدى لازم ، ورقها على الدوام غير زائل ، وقدود أغصانها تُخْجَل كل رُمح ذابل :

إن فصل الخريف وافى إلينا يَتَهَادَى في حُلَّةٍ كالعُرُوسِ
غيره كان للعيون ربيعاً وهو ما بيننا ربيعُ النفوسِ

(وقال الشتاء) ، أنا شيخُ الجماعة ، ورب البضاعة ، والمقابلُ بالسمع والطاعة أجمع شمل الأصحاب ، وأسدلُ عليهم الحجاب ، وأتحفهم بالطعام والشراب ، وَمَنْ ليس له في طاقةٌ أغلق من دونه الباب ، أَمِيلُ للمطيع ، القادر

(١) بقراط الحكيم اليوناني وهو لفظ يوناني معناه ناسك الصبح
(٢) الريح الحارة (٣) العطش (٤) المطر الذي يأتي في الخريف ، والولي الذي يأتي بعده (٥) ترقرق الدمع في العين تحرك .

المستطيع المعتضد بالبرود والفرا، المتمسك من الدينار بأوثق العرى، ومن يَعُشْ
عن ذِكْرِي، ولم يمتثل أمرى، أَرْجَفْتَهُ بصوت الرعد، وَأَنْجَزْتُ له من سيف
البرق صادق الوعد، وسَرْتُ إِلَيْهِ بعساكر السحاب، ولم أَقْنَعْ من الغنيمة بالإياب
مَعْرُوفِي معروف، ونَيْلَ نَيْلِي موصوف، وثمار إِحْسَانِي دَانِيَةُ القُطُوف، كم لى
من (وابل) طويل المدى (وجود) وافر الجدا (وقطر) حلا مذاقه (وغيث)
هَيِّدَ العفافة إطلاقه (وديمة) تُطْرِبُ السمع بصوتها (وحياً) يحيى الأرض بعد
موتها، أيامى وجيزة وأوقانى عزيزة، ومجالسى معمورة بذوى السيادة، مغمورة
بالخير والمير والسعادة، نُقِلْهَا يَأْتِي من أنواعه بالعَجَب، ومناقلها تسح بذهب
اللهب، وراحها تُنْعَشُ الأزواح، وسقاتها بجفونهم السقيمة تفتن العقول
الصَّحاح، إن رُدَّتْهَا وَجَدْتُ مالا ممدودا، وإن زُرْتُهَا شاهدت لها بَنِينَ شهودا.

مناظرة بين البر والبحر لبعض الأدباء

قال (البر): يا صاحب الدر، ومعدن الدر، أَطْرَقْتَ رياضى، ومزَّقْتَ
قصورى وأحواضى، وأَغْرَقْتَ جثتى، ودخلت جنتى، وتلاطمت أمواجك على
جنتى، وأَكَلْتَ جزائرى وجروفي، وأَهْلَكْتَ مَرْعَى فصيلي وخروفي، وأَهْزَلْتَ
ثورى وحملى وفرسى وجملى، وأَجَرَيْتَ سفنك على أَرْضٍ لم تَجْرِ عَلَيْهَا، ولم تَمَلْ
طرف غرابها إِلَيْهَا، وغرست أوتادها على أوتاد الأرض، وعرست فى مواطن
النفل والفرض، وجعلت مَجْرَى مَرَاكِبِكَ فى مَجْرَى مراكبى، ومَشَى حوتك
على بطنه فى سعد أخبية مضاربى، وغاص ملاحك فى ديار فرحى، وهاجرت من
القرى إلى أم القرى وحملت فَلَاحِي أَثْقَالِهِ على القرى، وقد تلقيتك من
الجنادل بصدري، وحملتُكَ إلى برزخك على ظهري، وقَبَّلْتُ أمواجك بثغرى
ونخلت مقياسى فرحاً بقدمك إلى مصرى وقد جُرْتُ وعدلت وفعلت ما
فعلت، فلعلك تفيض، ولا يكون ذهابك عن ذهاب بغيض، أو تفارق هذه

هذه الفجاج ، وتختلط. بالبحر العجاج ، وإن لم تفعل شكوناك إلى من أنزلك من السماء ، وأنعم بك علينا من خزائن الماء :

إذا لم تكن ترحم بلاداً ولم تُغثُ عباداً فمولاهم يُغيثُ ويرحمُ
وإن صدرت منهم ذنوبٌ عظيمة فغفوا الذي أجراك يا بحرُ أعظمُ
نُدُّ إليه أيدياً لم نَمُدّها إلى غيره والله بالحالِ أعلمُ

قال (البحر) : يا برُّ ، يا ذا البرُّ ، ومنبتُ البرِّ ، هكذا تخاطب ضيفك وهو يخصك شتاءً وصيفك ، وقد ساقني الله إلى أرضك الجزرُ ، ومعدن الدرّ والخرز لأبْهَج زرعها وخيلها ، وأخرج أبها ونخيلها ، وأكرم ساكنك ، وأنزل البركة في أماكنك ، وأثبت لك في قلب أهلِكَ إحكام المحبة ، وأثبت بك لهم في كلِّ سُنبلة مائة حبة ، وأحييك حياة طيبة ، يبتهجُ بها عمرُكَ الجديد ، وتتلو « كذلك يُحيي الله الموتى » . ألسنة العبيد ، وأطهرَكَ من الأوساخ ، وأحمل إليك الإبلِيز فأطيبيك به من عرق السباخ ، وأنا هدية الله إلى مصرِكَ ، وملكُ عصرِكَ القائم بنصرِكَ ، ولولا برَكَاتي عليك ، ومسيرى كل مسرَى إليك ، لكننت وادياً غيرى ذى زرع ، وصادياً غير ذى ضرع :

سَرَيْتُ أنا ماء الحياة فلا أذى إذا ما حفظتُ الصبحُ فالمال هينُ
فكن خضراً يا برِّ واعلم بأننى إلى طينِكَ الظمآن بالرى أحسنُ
وأسعى إليه من بلادٍ بعيدة وأحسنُ أجرى بالتي هى أحسنُ
إذا طاف طوفانى بمقياسك الذى يُسرُّ باتيان الوفاءِ وَيَعْلُنُ
فقم وتلقاه ببسطتك التى لروضتها فضلٌ على الروض بينُ

ولعمرى : لقد تلطفت (البرُّ) في عتابه وأحسن ، ودفع (البحرُ) في جوابه بالتي هى أحسن ، وقد اصطلحا وهما بحمد الله أخوان مُتضافران على عمارة بلاده ، ونشر الثروة ونمو الخيرات بين عباده ، فالله تعالى يخضب مرعاهما ويعرسهما ويرعاهما .

مناظرة بين الهواء والماء لبعض الأدباء

قال (الهواء) : الحمد لله الذى رفع فلك الهواء ، على عُنصر التراب والماء .
 «أما بعد» فأنا الهواء الذى أُؤلف بين السحاب وأنقلُ نسيم الأحياب ، وأهْبُ تارةً بالرحمة وأخرى بالعذاب ، وأنا الذى سِيرَ بى الفلكُ فى البحر كما تسير العيسُ فى البطاح ، وطار بى فى الجوِّ كل ذى جناح ، وأنا الذى يضطربُ منى الماء اضطراب الأنابيب فى القنا ، إذا صَفَوْتُ صفا العالم ، وكان له نَصْرَةٌ وزَهْوٌ ، وإذا تَكَدَّرْتُ انكدرت النجوم وتكدّر الجوُّ ، لا أَتَلَوْنَ مثل الماء المتلون بلون الإناء ، لولائى ما عاش كل ذى نفس ، ولولائى ما طاب الجوُّ من بخار الأرض الخارج منها بعد ما احتبس ، ولولائى ما تكلم آدمى ولا صَوَّت حيوان ، ولا غرَّد طائر على غُصن بان ، ولولائى ما سُمع كتاب ولا حديث ، ولا عُرف طيب المسموع والمشموم من الخبيث ؛ فكيف يُفاخرنى الماء الذى إذا طال مُكثته ، ظهر خبيثه ، وعلت فوقه الجيف وانحطَّت عنده الآلىء فى الصدف .

فقال (الماء) : الحمد لله الذى خلق كلَّ حيٍّ «أما بعد» فأنا أول مخلوق ولا فخر ، وأنا لذة الدنيا والآخرة ويوم الحشر ، وأنا الجوهر الشفاف ، المشبه بالسيف إذا سُلَّ من الغلاف ، وقد خلق الله فىَّ جميع الجواهر حتى الآلىء والأصداف ، أُحْيى الأرض بعد مماتها ، وأُخرج منها للعالم جميع أقواتها ، وأَكسو عرائس الرياض أنواع الحلل ، وأنثر عليها لآئى الوبل والطلل ، حتى يضرب بها فى الحُسن المثل ، كما قيل :

إِن السَّمَاءَ إِذَا لَمْ تَبْكِ مُقْلَتُهَا لَمْ تَضْحَكِ الْأَرْضُ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الزَّهْرِ
 فكيف يُنْكِرُ فضلى مَنْ دَبَّ أو دَرَج ؟ وأنا البحرُ الذى قيل عنه فى الأمثال « حدَّث عن البحر ولا حَرَج » وأما أنت أيها الهواء : فطلما أَهْلَكَتُ أُنْأَباً بِسَمُومِكَ وزمهريرِكَ ، ولا تقوِّمُ جَنْتَكَ بسعيرِكَ .

وأما قولك : لولايَ ما عاش إنسان ، ولا بقى على الأرض حيوان ، فجوابه :
 لو شاء الله تعالى لعاش العالم بلا هواء ، كما عاش عالم الماء في الماء ، وأنشدك الله
 أما رأيتَ ما حباني الله به عظيم المِنَّة ، حيث جعلني نهراً من أنهار الجنة ، وأنا
 أرفع الأحداث ، وأطهر الأخباث ، وأجلو النظر ، وأزيلُ الوضر ، أما رأيتَ
 الناس إذا غيبتُ عنهم يتضرعون إلى الله بالصوم والصلاة والصدقة والدعاء
 ويسألونه تعالى إِرْسَالِي من قِبَل السماء ؟ واعلم أنني ما نلتُ هذا المقام الذي
 ارتفعتُ به على أبناء جنسي إلا بانحطاطي الذي غيرتني به وتواضعي وهضم نفسي
 وقد كثرَ بينهما النزاع والجدال ، حتى حكم بينهما أميرٌ وقال :

إن كلاً منكما مُحِقٌّ فيما يدَّعيه ، فما أشبهكما في السماء بالفرقدين ، وفي
 الأرض بالعينين ، إلا أن مرآة الحقَّ أرنتني فضيلةً تفضلُ بها أيها الماء أخاك
 الهواء ، وحققت لي بأنكما لستما في الفصل سواء ، وهي (أن الله تعالى خلقَ
 آدمَ من الماء) فاعترف لأخيه بالفضل والذكاء .

مناظرة بين الجمل والحصان للمقدسي المتوفى سنة ٨٧٥ هـ

قال (الجمل) : أنا أحمِلُ الأَحْمَالَ الثقال ، وأقطعُ بها المراحل الطوال ،
 وأكابِدُ الكلال ، وأصبرُ على مرِّ النكال ، ولا يعتريني من ذلك مَلال ، وأصول
 صَوْلَةُ الإِدلال ، بلى أنقادُ للطفل الصغير ، ولو شئتُ استصعبتُ على الأمير الكبير
 فأنا الذَّلُول ، وللأنقال حُمُول ، لستُ بالخائن ولا الغلول ، ولا الصائل عند
 الوُصُول ، أقطعُ في الوُحُول ما يعجزُ عنه الفحول ، وأصابِرُ الظلماء في الهواجر
 ولا أحوُل ، فإذا قضيتُ حقَّ صاحبي ، وبلغتُ ما ربي ألقىتُ حَبْلِي على غاربي ،
 وذهبتُ في البوادي أكتسبُ من الحلال زادي ، فإن سمعتُ صوتَ حاديٍّ سلمتُ
 إليه قيادي ، وواصلتُ فيه سُهادي ، وطلقتُ طيِّبَ رُقادي ، ومددتُ إليه عُني
 ليلوغ مرادي ، فأنا إن ضللتُ فالدليلُ هادي ، وإن زلتُ لأخذَ بيدي من إليه

انقيادى ، وإن ظمئتُ فذكرُ الجبيب زادى ، وأنا المسخر لكم ، بإشارة « وتمخّلُ أثقالكم » فلم أزل بين رحلة ومقام ، حتى أصِلَ إلى ذلك المقام .

فقال (الحصان) : أنا أخمِلُ صاحبى على كاهلى فأجتهدُ به فى السير ، وأنطلقُ به كالطير ، وأهجم هجوماً الليل ، وأقتحمُ اقتحام السيل ، فإن كان طالباً أدركَ بى طلبه ، وإن كان مطلوباً قطعت عنه سببه ، وجعلت أسباب الردى عنه محتجبة ، فلا يدرك منى إلا الغبار ، ولا يُسمع عنى إلا الأخبار ، وإن كان الجملُ هو الصابر المجرب ، فأنا السابق المقرب ، وإن كان هو المقتصد اللاحق ، فأنا المقرب السابق ، فإذا كان يوم اللقاء قدمتُ إقدام الوالِه ، وسبقت سبق نباله ، وذلك مُتخلفٌ لثقل أحماله ، وإن أولقَ سائسى قيدى وأمن قَائِدِى كيدى أوثقتُ بِشكالى ، لكيلا أخول على أشكالى ، وأُلجِئتُ كيلاً أَكِلَ عن إقْدَامِى ، فأنا الموعود بالنجاة ، المعدود لِنيل العِجاء ، المشدود للسلامة ، المقصود للكرامة قد أجزل المنعم على إنعامه ، أمضى بالعناية الأزلية أحكامه « فإن الخير معقودُ بنواصى الخيل إلى يوم القيامة » خُلِقْتُ من الريح ، وألهمت التسبيح ، وما برح ظهري عزّاً ، وبطنى كنزاً ، وصهوتى حرزاً ، فكم رَكَضْتُ فى ميدان السباق وما أبديت عجزاً ، وكم حززت رعووس أهل النفاق حزّاً ، وكم أخلّيت منهم الآفاق (هل تحس منهم من أحدٍ أو تسمع لهم ركزا) .

الفن الثالث فى الأمثال

المثل عبارة عن تأليف لا حقيقة له فى الظاهر ، وقد ضَمَّنَ باطنه الحكيم الشافية وهى ثلاثة أقسام مفترضة ممكنة ، ومخترة مستحيلة ، ومختلطة :
(١) الأمثال المفترضة الممكنة : هى ما نُسِبَ فيها النطق والعمل إلى عاقل (١) .

(١) وتختلف عن الحكاية من وجهين : الأول أن لها مغزى ، والثانى كونها غير واقعة وإن كانت فى حيز الامكان .

(٢) والمخترعة المستحيلة : ما جاءت على ألسنة الحيوانات والجمادات فيعزى لها النطق والعمل لإرشاد الإنسان .

(٣) والمختلطة : ما دار فيها الكلام أو العمل بين الناطق وغير الناطق .
وشروط المثل أربعة : (الأول) أن تكون روايته خالية من كل تعقيد ليُفْضَى المقصود منه إلى ذهن السامع . (الثاني) أن لا يكون مُسهباً مُمِلّاً (الثالث) أن يُسهج السامع بطلوته ويفكه فكرته بهزل كلامه وابتكار معانيه ، ويضبط عقله في فهم الرواية المختلفة وفضْ مُشكلها (الرابع) أن يُورد بصورة محتملة .

وفوائد المثل جمة ، منها نزهة البال وترويح خاطر ، ومنها استقصاء الحكم ؛ وهى قديمة العهد جداً . ولا يعرف اسم أول من تكلم بها ، وكما تكون نثرا تكون نظماً - ونذكر لك من الأمثال ما طاب وراق فنقول :

أمثال القرآن الكريم

أمثال القرآن الكريم قسمان : ظاهر مُصرَّح به ، وكامنٌ لا ذكر للمثل فيه ، أما أمثاله الظاهرة : فكقوله تعالى في شأن المنافقين «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ صُمُّ بُكْمٌ عُمَى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ * أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ » .

وقوله سبحانه تعالى في شأن الذى يُنفق أمواله ابتغاءَ مرضاة الله ، والذى ينفقها رياءً : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ، كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ

صَفْوَانٍ (١) عليه ترابٌ فأصابه وَاِبِلٌ (٢) فتركه صَلْدًا (٣) لا يقدرُونَ على شيءٍ مما كَسَبُوا والله لا يهدي القوم الكافرين ، ومثلُ الذين يُنْفِقُونَ أموالهم ابتغاءَ مَرْضَاةِ الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثلِ جَنَّةٍ بَرْبَوَةٍ (٤) أَصَابَهَا وَاِبِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَاِبِلٌ فَطُلٌّ (٥) والله بما تعملون بصير ، أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ (٦) فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ .

وقوله تعالى في تمثيل الحق والباطل : « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ (٧) زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً (٨) وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ .

وقوله تعالى في تمثيل الحكمة وضدها : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجْتُنِثَتِ (٩) مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ .

وقوله جل شأنه في حال الكفار وما يعبدون من دون الله : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستمعوا له ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ . »
وقوله تعالى : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ، وَإِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتُ لَبِيتَ الْعَنْكَبُوتُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . »

(١) حجر أملس (٢) مطر شديد (٣) صلداً نقيصاً من التراب (٤) مكان مرتفع (٥) مطر خفيف (٦) ريح شديد (٧) ما يعلو على وجه الماء من قدر ونحوه (٨) باطلاً مزمياً به (٩) قطعت من أصلها .

وقوله تعالى في أَنْ عمل الكافرين يذهب هباءً تذرّوه الرياح :

« مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرمادٍ اشتدّت به الرّيح في يومٍ عاصف لا يقدرّون ممّا كَسَبُوا على شيء » .

وقوله تعالى : « والَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ (١) بَقِيعَةٍ (٢) يَحْسِبُهُ الظَّمآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوقَاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ (٣) يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْ رَاهَا ، وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ » .

وقوله تعالى في أَنَّ الدنيا ظلٌّ حائلٌ وخيالٌ باطل :

« واضربْ لهم مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيهاً (٤) تذرّوه الرياح » .

وقوله تعالى : « اعلموا أَنَّما الحياة الدنيا لعبٌ ولهْوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بَيْنَكُمْ وتكاثرٌ في الأموال والأولاد كمثل غيثٍ أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مُصْفراً ثم يكون حُطاماً » .

وأما أمثاله الكامنة ، فهي الآداب البارعة ، والحكم الباهرة ، فمن ذلك قوله تعالى :

٣ إنه كان صادق الوعد .	في الصدق
في الصبر والثبات	١ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ .
١ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ	٢ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ
٢ فاصبر صَبْرًا جميلاً	

(١) شعاع يرى مثل الماء حين اشتداد الحر نصف النهار .
 (٢) جمع قاع وهو الأرض المستوية (٣) عميق (٤) يابساً متفرقة أجزاؤه

٣ واصبر على ما أصابك إِنَّ ذلك
لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ

٤ فصبرٌ جميلٌ

٥ واصبر على ما يَقُولُونَ واهجرهم
هَجْرًا جَمِيلًا

في العلم والاسترشاد

١ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ

٢ وما يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ

٣ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ
وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

٤ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ
لَا تَعْلَمُونَ

في الاتحاد والوئام بعد الخصام

١ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا

واذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ

أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ

بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا

٢ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ

٣ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ غَزْلُهَا

مَنْ بَعْدَ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا

في العفو

١ فاصفح الصفح الجميل

٢ وَالكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ

٣ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ

٤ عفا الله عما سلف

في الوفاء

١ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ
مَسْئُولًا

٢ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ
إِلَى أَهْلِهَا

في الاقتصاد

١ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ

وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ

مَلُومًا مَحْسُورًا

٢ إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ

٣ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا

في الأمر بالمعروف

١ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ

عن الجاهلين

٢ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ

وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

الْمُنْكَرِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

٣ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا

تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ

٤ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ

وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ

الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ

١ بر الوالدين والقريب والجار والصاحب

٢ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ

وبالوالدين إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ

عندك الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا

فَلَاتَنْقُلْ لَّهُمَا أُفًّا وَلَا تَنْهَرَهُمَا وَقُلْ

لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ، وَاخْفِضْ لَهُمَا

جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ

ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا

٢ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ

ببعض

٣ وبالوالدين إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ

وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي

الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ

بِالْجُنُبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ

أَمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ

مُخْتَلًا فُخُورًا

في النصيحة

١ إني لك من النَّاصِحِينَ

٢ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ

٣ وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِيتُونَ

الناصحين

في الشكر

١ لئن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ

٢ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورِ

٣ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ

٤ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ

في الإغضاء والتغافل واللين

١ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعَظِّمْ وَقُلْ لَهُمْ

فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا

٢ لَا تُثْرِبْ عَلَيْهِمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ

اللَّهُ لَكُمْ

٣ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

٤ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ

هَجْرًا جَمِيلًا

٥ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا. الْقَلْبِ

لَا نَفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ

٦ فَاسْرُهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ

يُبْدِهَا لَهُمْ

٧ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا

في المدح

١ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ

كَرِيمٌ

٢ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْشُورًا

٣ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ

٤ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ

٥ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ

٦ خَتَامُهُ مُسَكٌّ

٧ ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ

٨ وَبَرًّا بِوَالِدَيْنِهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا

عَصِيًّا

٩ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا

١٠ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ

١١ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ

١٢ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ

١٣ سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ

١٤ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا

١٥ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ آفَقْتُهُ

أَفَقْتُهُ

١٦ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوَى

الْأَمِينُ

في التبرئة والتنزيه

١ حَاشَا لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ

٢ أُولَئِكَ مُبَرَّغُونَ مِمَّا يَقُولُونَ

٣ فَبِرَأْءِ اللَّهِ مِمَّا قَالُوا

في حُسن الخلق

١ مَا شَاءَ اللَّهُ

٢ وَصُورَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ

٣ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ

٤ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ

٥ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ

في الكذب والزور

١ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ

وَزُورًا

٢ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ

٣ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ

إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا

٤ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ

لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ

٥ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي

قِيلَ لَهُمْ

٦ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ

وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ

في الخيانة ونقض العهد

١ أَوْ كَلِمًا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ

مِنْهُمْ

٢ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ

٣ إِنَّهُمْ لَا آيْمَانَ لَهُمْ

جعلنا لوليِّه سلطاناً فلا يُسْرِفَ
في القتل إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً
٣ ولا تلقوا بأيديكم إلى التَّهْلُكَةِ
٤ ولا تقتلوا أنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
بِكُمْ رَحِيماً

في الزنا

١ ولا تَقْرَبُوا الزَّنا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً
وسَاءَ سَبِيلاً
٢ ولا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ
إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لْتَبْتَغُوا عَرَضَ
الحياة الدنيا

في الخمر والميسر

١ يسأَلونكَ عن الخمرِ والمَيْسِرِ قُلْ
فيهما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ
وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا
٢ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ
وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ
مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ
يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ
فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ
ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ
مُنْتَهُونَ ؟!

٤ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ
٥ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا
أَثِيماً
٦ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ
في السُّخْرِيَةِ وَالْغِيْبَةِ وَالنَّمِيمَةِ وَالْجَهْرِ
١ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرِ قَوْمٌ
مِّن قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا
مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَنْ
يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا
أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ
٢ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم
بَعْضاً

٣ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوِّ مِنَ
الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ
٤ وَيُلْ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٌ
٥ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ
في القتل والانتحار

١ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَقِ
نَحْنُ نَرْزُقْهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ
كَانَ خَطِيئَةً كَبِيرًا
٢ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ
إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا فَقَدْ

في البخل وحب المال

- ١ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَلَى نَفْسِهِ
وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ
- ٢ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ
وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
- ٣ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ يَحْسَبُ
أَنْ مَالَهُ أَخْلَدَهُ
- ٤ وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا وَتُحِبُّونَ
الْمَالَ حُبًّا جَمًّا

في الربا

- ١ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا
- ٢ يَسْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزْبِتُ الصَّدَقَاتِ

في العُجب والكبر

- ١ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ
بِغَيْرِ الْحَقِّ
- ٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى
- ٣ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
- ٤ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ
- ٥ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَا هُمْ
بِبَالِغِيهِ

٦ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ

- فِي الْأَرْضِ مَرَحًا
فِي الْاِسْتِبْدَادِ وَالْاَثَرَةِ
- ١ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ
وَإِنْ تَصِبْهُمْ سَيِّئَةً يَطِئُوهَا بِمُوسَى
وَبِمَنْ مَعَهُ
- ٢ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ
مُذْعِنِينَ
- ٣ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى
فِي التَّفْرِقِ وَالِاخْتِلَافِ
- ١ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى
- ٢ كُلٌّ حِزْبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ
- ٣ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ
- ٤ إِنَّكُمْ لَنِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ
فِي الْجُبْنَ وَالْفِرَارِ
- ١ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا
- ٢ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ
الْعَدُوُّ
- ٣ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ
رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ
أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ
الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ
بِالْسِّنَةِ جِذَابًا

٤ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغَىٰ أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْنَىٰ

٥ قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْثَرَهُ ؟ !

في الدم والإهانة والتهكم والتحقير

١ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا !!

٢ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ؟ ؟

٣ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ

٤ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مَّا تَقُولُ

٥ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا

٦ لَا يُؤْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ

٧ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ

٨ سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتِهِمْ

٩ لَمَقَتْ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مُقْتَكِمِ

أَنْفُسِكُمْ

١٠ يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيَاهُمْ

١١ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ

١٢ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ

بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ

١٣ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ

١٤ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا

١٥ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ

١٦ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ

عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ

فَيَمْنُ يَأْمُرُ بِمَا لَا يَفْعَلُ وَيَعْلَمُ

وَلَا يَعْمَلُ

١ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ

أَنْفُسَكُمْ

٢ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ؟

٣ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا

فِي الْغَفْلَةِ

١ لَعْمَرُكَ إِنَّهُمْ لِنَىٰ سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ

٢ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي

غَمْرَةٍ سَاهُونَ

٣ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ

٤ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ

صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ

٥ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ بِهِمْ فِي غَفْلَةٍ

٦ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ

فِي انْكَارِ الْجَمِيلِ

١ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ذُرَّهٗ مَرَّ كَانَ

لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ذُرِّ مَسِّهِ

٢ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ

ذُرٍّ لِلْجَوِّ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ

٣ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا

فِي الْأَرْضِ

٦ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا
فَافْضِلْنَا السَّبِيلَا

فيمن عميت بصيرتهم وأضلهم هواهم

١ لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم

أعينٌ لا يبصرون بها ولهم آذانٌ

لا يسمعون بها أولئك كالأنعام

بل هم أضلُّ أولئك هم الغافلون

٢ فإنها لا تعنى الأبصار ولكن تعنى

القلوب التى فى الصدور

٣ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله

الله على علم ؟!

فى قرناء السوء ، والغاوين ، والنهى

عن اتباعهم

١ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن

ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً

٢ يدعوا لمن ضره أقرب من نفعه

لبئس المولى ولبئس العشير

٣ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا

فتمسك النار

٤ ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون

٥ وإخوانهم يمددونه فى الغي ثم

لا يقصرون

١٧ كمثل الحمار يحمل أسفارا

١٨ أولئك هم شر البرية

١٩ همأز مشاء بنميم مناع للخير

معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم

٢٠ إنك لغوى مبين

٢١ إن شأنك هو الأبتتر

٢٢ أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة

٢٣ أينما يوجهه لا يأت بخير

٢٤ أولئك حزب الشيطان

٢٥ اتخذوا أيمانهم جنة

٢٦ فما لهؤلاء القوم لا يكادون

يفقهون حديثاً

فى الضالين والمضلين

١ إنهم ألقوا آباءهم ضالين ، فهم

على آثارهم يُهرعون

٢ الشيطان سؤل لهم وأملى لهم

٣ وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم

بغير علم

٤ ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين

٥ وإخوانهم يمددونه فى الغي ثم

لا يقصرون

٥ وَلِيُخْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى

وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ

٦ إِنْ تَمَسَسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ

تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ، وَإِنْ

تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِكُمْ كَيْدُهُمْ

شَيْئًا

٧ مُدْبِذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ

وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ

٨ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ

٩ لَقَدْ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا

لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ

أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ

١٠ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ

مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ

تمثيل أعمال المرائين والمنافقين

١ فَمَثَلٌ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ تَرَابٌ

فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا

٢ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ

فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ

٣ أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بَقِيعَةٍ يَحْسِبُهُ

الظَّمآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ

شَيْئًا

٦ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدُ الْمَشْرِقَيْنِ

فَبُئْسَ الْقَرِينِ

٧ يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا

فِي التَّنْبِيهِ عَلَى الْخَطَا وَالضَّلَالِ

١ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟

٢ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ؟

٣ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي

هُوَ خَيْرٌ ؟

٤ تِلْكَ إِذْ نَ قَسَمَةُ ضِرْيَ

٥ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ

٦ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ

٧ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ

٨ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا

فِي الْمُنَافِقِينَ وَالْمُرَائِينَ

١ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ

وَمَا تُخْفِي صدورُهُمْ أَكْبَرُ

٢ وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ

مِنَ الْغَيْظِ .

٣ يَقُولُونَ بِاللَّيْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي

قُلُوبِهِمْ

٤ يُرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ

في الإنذار والوعيد .

١ فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم

٢ فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به

يستهزون

٣ لكل نبي مُستقرّ وسوف تعلمون

٤ وإن تنتهوا فهو خير لكم وإن

تعودوا نُعدّ . ولن تُغني عنكم

فثقتكم شيئاً ولو كثرت

٥ فانتظروا إلى معكم من المنتظرين

٦ واتقوا فتنة لا تُصيبن الذين ظلموا

منكم خاصةً

٧ إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض

وفساد كبير

٨ ذلك وعدٌ غير مكذوب

٩ وما هي من الظالمين ببعيد

١٠ هذا بلاغٌ للناس ولِيُنذروا به

١١ عما قليلٍ ليُصْبِحَنَّ نادمين

١٢ وسيعلم الذين ظلموا أي مُنقلبٍ

ينقلبون

١٣ فسيعلمون من هو شرُّ مكاناً

وأضعفُ جُنداً

١٤ اعملوا على مكانتكم إني عامل

فسوف تعلمون

١٥ إنه لقولٌ فصلٌ وما هو بالهزل

١٦ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم

الآملُ فسوف يعلمون

١٧ سيعلمون غداً من الكذاب الأثر

١٨ سيُهْزَم الجمع ويُولُون الدبر

١٩ لتنبؤن بما عملتم

٢٠ ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه

مُزْدَجِر

٢١ اعملوا ما شئتم

٢٢ فستعلمون مَنْ هو في ضلال مبين

٢٣ إن ما توعدون لواقع

٢٤ فستذكرون ما أقول لكم

٢٥ فليضحكوا قليلاً وليبْكوا كثيراً

٢٦ فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب

أصحابهم فلا يستعجلون

٢٧ اعملوا على مكانتكم إنا عاملون

وانتظروا إنا منتظرون

٢٨ كلاً سيعلمون ، ثم كلاً سيعلمون

٢٩ وسكنتم في مساكن الذين ظلموا

أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا

بهم وضربنا لكم الأمثال

٣٠ كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون

٣١ ولنخرجنهم منها أدلةً وهم

صاغرون

٤ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ
وَاللرِّجَالِ عَلَيْهِنَ دَرَجَةٌ

٥ وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا
أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ
يُصْلِحَا مَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ

٦ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ

٧ وَاتَّقُوا رَبَّ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ

فِي آدَابِ النِّسَاءِ

١ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ

أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ

وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا

وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ

٢ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ

تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَةِ الْأُولَى

٣ مُحْصَنَاتٍ غَيْرِ مُسَافِحَاتٍ وَلَا

مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا

٤ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ

فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ

قَوْلًا مَعْرُوفًا

فِي الصَّلَاحِ وَالسَّلَامِ

١ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ

٣٢ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى

٣٣ وَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ

إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا

٣٤ لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا

فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ

٣٥ وَلِيَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ

٣٦ سَنَسِفُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ

٣٧ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ

قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ

قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا

٣٨ كَلَّا لَا وَزَرَ

٣٩ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ

٤٠ سَنُسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ

٤١ سَنَنْظُرُ أَصْدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ

الكَاذِبِينَ

فِي الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ

١ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ

أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا

وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً

٢ وَأَنْ تَعْلَمُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى وَلَا

تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ

٣ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا

حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا

إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا

٢ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ

٣ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ

٤ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا

٥ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ

الناس بخير ما تباينوا

١ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ

٢ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا فِي الْحَثِّ عَلَى الصَّدَقَةِ وَالنَّهْيِ

عَمَّا يَبْطِلُهَا

١ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ

٢ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ

٣ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى

٤ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى

٥ وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوفَّ إِلَيْكُمْ ٦ وَأَمَّا السَّائِلُ فَلَا تَنْهَرْ

فِي التَّحِيَةِ وَالِاسْتِئْذَانِ

١ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا

٢ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ

٣ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا

٤ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ

٥ فَإِنْ اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ

فِي آدَابِ الْمَشْيِ

١ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ

٢ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طَوْلًا

٣ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا

فِي التَّلَطُّفِ وَالِدَعْوَةِ وَالطَّلَبِ

١ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحُ مَا اسْتَطَعْتُ

٢ يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ

٣ هل أتبعك على أن تُعلِّمَنِي مِمَّا
علمتَ رَشَدًا

٤ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى

٥ إِنْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ

٦ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِيكَ صِرَاطًا سَوِيًّا

فِي الشُّرُورَى

١ وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ

٢ وَأَمَرَهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ

٣ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي

فِي الشَّفَاعَةِ

١ مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ

نَصِيبٌ مِمَّا مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً

سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِمَّا مِنْهَا

فِي الْخَطَا وَالْإِضْطِرَارِ

١ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ

بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ

٢ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ

فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ

فِي الْمَسْئُولِيَّةِ عَنِ الْعَمَلِ

١ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى

٢ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى

٣ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينَ

٤ وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنْقِهِ

٥ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ

فِي الْجِهَادِ

١ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ

وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ

عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ

٢ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ

٣ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ

أَجْرًا عَظِيمًا

٤ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ

بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ

فِي الْإِيمَانِ

١ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ

٢ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْصَةً لَأَيْمَانِكُمْ

٣ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا

فِي الْكَلَامِ وَالِاسْتِئْثَارِ

١ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً

طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ

وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ

حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا

٢ وَمِثْلَ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ

اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا

مِنْ قَرَارٍ

٧ وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَا دُونَ ذَلِكَ

وبضدها تتميز الأشياء

١ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ

ولو أعجبك كثرة الخبيث

٢ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى

من الله ورضوان خير أم من

أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ

هار فانهار به في نار جهنم

٣ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ

والبصير والسميع هل يستويان

مثلاً

٤ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ

فَرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ

أُجَاجٌ

٥ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ

أَهْدَى أَم مَنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

٦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ

وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

في الحث على العمل والسعي

والتنافس والمهاجرة

١ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا

٣ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ

أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ

وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُو الْأَلْبَابِ

٤ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا

٥ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ

وقولوا قولاً سديداً

٦ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ

٧ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا

في الجدل والمناظرة

١ وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي

هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ

٢ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ

وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي

هِيَ أَحْسَنُ

في تباين المذاهب وتفاوت الدرجات

١ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا

٢ وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيُّهَا

٣ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ

٤ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ

في الرزق

٥ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ

٦ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلْمٌ

٦ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان

٧ للذين أَحْسَنُوا الحسنى وزيادة

٨ فاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ

٩ وَإِنْ عُدْتُمْ عَدُنَا

١٠ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا

ما بأنفسهم

١١ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ

١٢ وما كان ربك ليهلك القرى

بظلم وأهلها مضاحون

١٣ جَزَاءُ وَفَاقًا

شبيه الشيء منجذب إليه

١ الخبيثاتُ للخبيثينَ والخبيثونَ

للخبيثاتِ ، والطيباتُ للطيبينَ

والطيبونَ للطيباتِ

في الإفساد والبغى والنهى عنهما

١ وَلَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا

٢ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ

٣ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لِبَغْيٍ

بعضهم على بعض

٤ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ

في المفسدين الكافرين

١ وَإِذَا قِيلَ لَهُم لَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ

٢ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ

٣ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا

فيها ؟ ؟

٤ فامشوا في مَنَازِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ

في الجزاء على العمل

١ ظَهَرَ الْفُسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا

كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ

بعض الذي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

٢ إِنْ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ

سَعْيُكُمْ مُّشْكُورًا

٣ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ

وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ

٤ وَأَنْ لِّيسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى

وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ

الْجَزَاءَ الْأَوْفَى

الجزاء من جنس العمل

١ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا

٢ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ

٣ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ

٤ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا

٥ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ

بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ

في سوء عاقبة الظالمين والشماتة

بما يصيبهم

١ فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين .

٢ انقلب على عقبيه خسر الدنيا

والآخرة ذلك هو الخسران المبين

٣ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين .

٤ فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق .

٥ فأتى الله بنيانهم من القواعد .

٦ فخر عليهم السقف من فوقهم

وأتاهم العذاب من حيث لا

يشعرون .

٧ فأصابهم سيئات ما عملوا وحق

بهم ما كانوا به يستهزئون .

٨ فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق

فيها .

الإعراض عن الدعوة

١ وإذا تتلى عليه آياتنا ولي مستكبراً

كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً

٢ كأنهم حمر مستنفرة فرّت من

قسورة

٣ ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم

أدبر واستكبر

قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم

هم المفسدون ولكن لا يشعرون .

٢ الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا

وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا

٣ ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم

هم الكاذبون .

في غرور الظلمة واستدراجهم

١ يوحى بعضهم إلى بعض زخرف

القول غروراً .

٢ يعدّهم ويمنّيهم وما يعدّهم الشيطان

إلا غروراً .

٣ بل إن يعدّ الظالمون بعضهم بعضاً

إلا غروراً .

٤ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل

الظالمون .

٥ وأملّ لهم إن كيدى متين .

٦ فذرهم في غمرتهم حتى حين .

٧ فلا تعجل عليهم إنما نعدّ لهم عداً

٨ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون

٩ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم

الآمل فسوف يعلمون .

- ٦ ولا تَتَّبِعُوا مَنْ رَوْحَ اللَّهِ .
 ٧ فلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ
 ٨ ولا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ
 مِمَّا يَمْكُرُونَ .
 ٩ ولا يَحْزَنْكَ قَوْلُهُمْ .
 ١٠ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا .

في الكيل والميزان

- ١ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ
 الْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ
 الْمُسْتَقِيمِ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ
 أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ
 مُفْسِدِينَ .
 ٢ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا
 عَلَى النَّاسِ يَسْتَوفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ
 أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ .

في النهي عن الرشوة

- ١ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ
 وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا
 فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ
 وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ .
 ٢ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا

- في التدخل في مالا يعنى والنهي عنه
 ١ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ
 ٢ لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِن تُبْدَ لَكُمْ
 تَسْأَلُكُمْ .
 ٣ عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلَّ
 ٤ فَلَا تَسْأَلْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .
 ٥ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ .

في الكرم والإكرام والضيافة

- ١ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمَنِينَ
 ٢ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا .
 ٣ فَكُلُّوه هَنِيئًا مَرِيئًا
 ٤ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا .
 ٥ وَفَاكِهَةً مِّمَّا يَتَخَيِّرُونَ وَلَحْمَ طَيْرٍ
 مِّمَّا يَشْتَهُونَ .
 ٦ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ
 بِهِمْ خَصَاصَةٌ .

في التعزية وتهوين الخطب

- ١ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ .
 ٢ كُلْ نَفْسٌ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ .
 ٣ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ .
 ٤ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ .
 ٥ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ
 يُسْرًا .

على ألا تعدلوا ، أعدلوا هو أقرب للتقوى .

٤ ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون .

في اتهام الأبرياء

١ ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد اختل بهتاناً وإثماً مبيناً .

٢ ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانه هذا بهتان عظيم .

٣ إذ تلقونه بالأسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم

٤ لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم .

في المكابرة في الحق والمعاندة

١ ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق .

٢ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً .

أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ منكم

في مال اليتيم ومتاعه

١ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن .

٢ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً .

٣ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً .

٤ فأمّا اليتيم فلا تقهر .

في صك الدين وإنظار المعسر

١ يا أيها الذين آمنوا إذا تدانيتُم بدينٍ إلى أجلٍ مسمى فكتبوه .

٢ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة .

في الأحكام والحكام

١ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل .

٢ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى .

٣ ولا يجرمكم شنآن قومٍ

٩ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك

بالحق وأحسن تفسيراً .

في أداء الشهادة

١ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين

بالقسط . شهداء لله ولو على أنفسكم

أو الوالدين والأقربين .

٢ ولا تكتنموا الشهادة ومن يكتنمها

فإنه آثم قلبه .

٣ فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا

عليهم .

٤ ولا ياب شهداء إذا ما دُعوا .

٥ وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار

الكتاب ولا شهيد .

٦ وأنا على ذلكم من الشاهدين .

٧ وما شهدنا إلا بما علمنا .

في الخبر اليقين

١ ما زاغ البصر وما طغى .

٢ فلنقصن عليهم بعلم وما كنا

غائبين .

٣ نحن نقص عليك نبأهم بالحق .

٤ أحطت بما لم تحط به .

٥ ولا يُنبئك مثل خبير .

٣ ما ضربوه لك إلا جدلاً .

٤ يُريدون أن يُطفئوا نور الله

بأفواههم .

٥ يجادلونك في الحق بعد ما تبين

٦ وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق

وهم يعلمون .

٧ أنظر كيف نصرف الآيات ثم

هم يصدفون .

في الحق والباطل

١ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ

ولو كره المجرمون

٢ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ .

٣ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ،

وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ

في الأرض .

٤ قَضَىٰ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ

الْمُبْطِلُونَ .

٥ الْحَقُّ أَحقُّ أَنْ يُتَّبَعَ .

٦ فماذا بعد الحق إلا الضلال .

٧ لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم

للحق كارهون .

٨ فوقع الحق وبطل ما كانوا

يعملون .

في الاستنكار والتعجب

١ إني لعملكم من القالين .

٢ لقد جئتم شيئاً إداً .

٣ لقد جئت شيئاً إمرأاً .

٤ لقد جئت شيئاً نكراً .

٥ مَا سَمِعْنَا بهذا في آبائنا الأولين .

٦ إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ .

في المحاماة والدِّفاع عن الأئمة

١ ها أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي

الحياة الدنيا فَمَنْ يَجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ

وكيلاً .

٢ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ

أَنْفُسَهُمْ .

٣ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ .

٤ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمَجْرِمِينَ .

في التحدي وعدم المبالاة

١ فاقض ما أَنْتَ قاضٍ .

٢ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا

٣ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ

٤ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

صادقين .

٥ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ

لنا .

في النجوى والمؤامرة

١ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا

النجوى .

٢ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ .

٣ أَمْ يَخْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ

ونجواهم .

في الظن والشك

١ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ الظَّنُّ

لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً .

٢ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ .

٣ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ

مُرِيبٍ .

٤ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى

الْأَنْفُسُ .

٥ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنْ

بَعْضُ الظَّنِّ إِثْمٌ .

في التبرؤ والتنصل

١ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى

عَقْبَيْهِ ، وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ

إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ .

في الإفحام والإلزام
 ١ إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم
 عليك حسيباً .
 ٢ هذا كتابنا ينطقُ عليكم بالحق
 إنا كنا نستنسخُ ما كنتم تعملون
 ٣ ووجدوا ما عملوا حاضراً

في اليأس واليئس
 ١ قَضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ
 ٢ فنادوا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ
 ٣ اصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا
 ٤ وَلَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا
 ٥ لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ
 في إمضاء الأمر

١ فإذا عَزَمْتَ فتوكل عَلَى اللَّهِ
 ٢ وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا
 ٣ إِفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ
 ٤ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ

في حال المجرمين وهم يعذبون
 ١ كلما أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا
 أُعِيدُوا فِيهَا
 ٢ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ

٢ أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مَا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ
 مما تَعْمَلُونَ
 ٣ فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ
 في موقف الظلمة والمجرمين
 أمام العدالة

١ وقضوهم إنهم مسئولون .
 ٢ هذا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ
 وَالْأَوَّلِينَ
 ٣ مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ
 ٤ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ
 ٥ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ
 ٦ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ
 ٧ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ

في حيرة المجرمين وإشفاقهم
 عند ظهور الحق
 ١ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ
 فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ

٢ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا
 فَهُمْ لَا يَنْتَقِمُونَ
 ٣ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمَجْرِمِينَ
 مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ .

في صفات الإنسان الفطرية

- ١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لظَلُومٌ كَفَّارٌ
- ٢ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا
- ٣ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ
- ٤ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ

٥ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا

- ٦ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ
- ٧ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا .
- ٨ قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ !

في الخوف

- ١ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ
- ٢ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ
- ٣ لَوْ أَطَّلَعْتُ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتُ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلَمْتُ مِنْهُمْ رُعْبًا
- ٤ ذَلِكَ الَّذِي يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ
- ٥ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً
- ٦ إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى .
- ٧ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُون
- ٨ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ

٣ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ

- ٤ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .

في الشيب والكبر والضعف

- ١ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا .
- ٢ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا .
- ٣ وَمَنْ نُعَمِّرُهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ
- ٤ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا .

جزع الناس ومظاهره عند البلاء

- ١ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئَدَتُهُمْ هَوَاءٌ
- ٢ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى .

- ٣ هَلْ تُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا .

- ٤ وَوُجُوهُ يَوْمٍ مُذْ عَلَيْهِمْ غَبْرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجِرَةُ
- ٥ فَاَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ

٩ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ

في التضجر والتحسر وإظهار الضعف

١ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا

٢ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا

٣ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ

نَسِيًّا مَنَسِيًّا

٤ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ

مُضِلٌّ مُبِينٌ

٥ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ

٦ يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ

٧ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي

في النفس الأمارة بالسوء

١ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا

أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ

٢ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ

لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي

في الخجل والاستحياء

١ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُنَّ تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ

٢ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ

مَا بُشِّرَ بِهِ

في النسيان

١ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ

٢ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا

٣ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ

٤ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ

٥ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ

٦ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى

٧ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ

في الرؤيا والأحلام

١ نَبَّأْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ

المحسنين

٢ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا

تَعْبُرُونَ

٣ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ

الأحلام بعالمين

٤ أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ

٥ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ

جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا

الفرح بزوال المكروه

١ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالِ

٢ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ

٣ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ

الظالمين

٤ فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا

والحمد لله رب العالمين

٢ وقال اركبوا فيها باسم الله مجريها
وَمُرْسَاهَا

٣ وهى تجرى بهم فى موج كالجبال
٤ أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه

مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ
سَحَابٌ ظِلْمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ
بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْ رَاهَا
٥ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ

٦ وحال بينهما الموج فكان من
المغرقين

٧ وله الجوار المنشآت فى البحر
كالأعلام

فى المطر والبرق والرعد والريح
١ يكاد سنا برقه يذهب بالابصار

٢ هذا عارض ممطرنا
٣ ريح فيها عذاب أليم

٤ وهو الذى يرسل الرياح بُشْرَى
بين يدي رحمتيه

فى البساتين والروح والريحان
١ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ

قطوفها تذليلا
٢ فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام

٥ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ

٦ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل
لم يمتسئسئهم سوء

٧ فوقاه الله سيئات ما مكروا
فى النعيم والسرور والقصور
وما حوت

١ تَعْرِفُ فى وجوههم نضرة النعيم
٢ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لَوْلَوْ أَمْثُورًا

٣ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ
مُسْتَبْشِرَةٌ

٤ فيها سُرُورٌ مَرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ
مَوْضُوعَةٌ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَائِبُ

مَبْنُوتَةٌ
٥ مُتَكَبِّينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ

اسْتَبْرَقٍ
٦ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ

وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا
٧ مُتَكَبِّينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ

فى الجبال والبحار والسفن والأمواج
١ وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ

مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ

وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ
٣ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ
وَوَيْلٌ لِلْمُصَدِّقِينَ ، وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ،
وَفَاكِهِةٍ كَثِيرَةٍ ، لَا مَقْطُوعَةَ
وَلَا مَمْنُوعَةَ

فِي التَّفَكُّرِ وَالنَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ

عَلَى الْخَالِقِ

١ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ
يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ
٢ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً
وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ
الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ .

٣ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ
وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ

٤ مَا خَلَقْكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنْفَسٍ
وَاحِدَةٍ

٥ لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ
مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

٦ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَمَا بَيْنَهُمَا لِاعْبِينَ

٧ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ

٨ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ

٩ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ

١٠ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ

يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا

١١ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحْوِنَا

آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ

مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ

وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ

١٢ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا

عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ

مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ

فِي الْعِظَةِ وَالْعِبَرَةِ

١ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَ لِمَنْ كَانَ لَهُ

قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ

٢ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ

٣ ذَلِكَ ذِكْرُ لِلذَّاكِرِينَ

٤ لَنَجْعَلَ لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيهَا أُذُنٌ

وَاعِيَةٌ

٥ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى

٦ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِيَ الْأَبْصَارِ

٧ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ

٨ لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى

الْأَلْبَابِ

وصف الدنيا وتحقير متاعها

- ١ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ .
- ٢ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ .
- ٣ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ .

في التحذير من النفس والشيطان
وغرور الدنيا

- ١ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ .
- ٢ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ .
- ٣ فَلَا تَغْرِبَنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرِبَنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ .

في التسليم بقضائه تعالى وقدره

- ١ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا .
- ٢ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ .
- ٣ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا .
- ٤ إِنَّ اللَّهَ بِالْغُلُومِ أَمَرٌ .
- ٥ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ .
- ٦ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ .
- ٧ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ .
- ٨ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ .

في نِعَم الله وفضله

- ١ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ .
- ٢ يَرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ .
- ٣ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا .
- ٤ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا .
- ٥ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ .

ما استأثر الله بعلمه

- ١ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ .

- ٢ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي .

في العمل لوجه الله

لا لجزاء الناس

- ١ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا .
- ٢ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ .

السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب .

٢ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن .

٣ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً .

في الدعاء والتضرع

إلى الله تعالى

١ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا .

٢ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ .

٣ رَبَّنَا فَاعْفُ عَنَّا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ .

٤ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا .

٥ رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا .

٦ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي .

٩ ألا إلى الله تصير الأمور .

١٠ لا يسأل عما يفعل .

في الترغيب والتقوى والإحسان

١ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا .

٢ إِنْ الْحَسَنَاتُ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ .

٣ إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ .

٤ وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ .

• لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحَسَنَى وَزِيَادَةٌ .

في الاعتماد على الله والتوكل

١ وعلى الله قصد السبيل .

٢ وما ذلك على الله بعزيز .

٣ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

٤ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ .

٥ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ .

٦ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ .

في الموت وعدم تخلف الآجال

١ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ .

٢ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ .

في التوبة والإنابة

١ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ

في فضل القرآن الكريم

١ ولقد يَسْرِنَا القرآنَ لِلذِّكْرِ فهل
مِنْ مُدِّكَرٍ .

٢ إِنَّ هَذَا القرآنَ يَهْدِي للتي هي
أَقْوَمُ .

٣ فاقْرَأُوا ما تيسر مِنَ القرآنِ .

٤ وَإِذَا قُرِئَ القرآنَ فاستمعوا لَهُ
وَأَنصِتُوا لعلَّكُمْ تَرْحَمُونَ .

في الإنبياء والامتناء

١ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبِيِّ العظيم
الذي هم فيه مختلفون .

٢ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بعضٍ
يَتَسَاءَلُونَ .

٣ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بعضٍ .

٤ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا .

٥ هل أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ .

في الكتب والكتابة والرسالة

١ إِذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ .

٢ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ .

٣ فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ .

٤ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَّةَ .

في الاقتراب والدنو

١ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ .

٢ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ؟ ؟

٣ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ .

٤ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى .

٥ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا .

في الضعف والعجز

١ فما اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وما كانوا
مُتَّصِرِينَ .

٢ فما اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وما
اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا .

٣ وما يَنْبَغِي لَهُمْ وما يَسْتَطِيعُونَ .

٤ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا .

٥ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ .

٦ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ .

٧ فما لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ .

٨ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا .

في البلاء وما يصاب به الناس

١ فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَمْ
بِالْأُمْنِ .

٢ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ .

٣ فَاصْبِرْ حَتَّى يَأْتِيَكَ بِهَا الْبَلَاءُ الْمُبِينُ .

٤ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا

جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ .

٢ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

٣ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً .

٤ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ .

في الامتدنان بالنعم

١ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ .

٢ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى .

٣ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ .

٤ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ .

٥ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا .

في التحدث بالنعمة

١ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا .

٢ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ .

٣ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ .

التأمين والطمأنينة

١ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ .

٢ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

٥ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ

أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ .

٦ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا .

٧ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ .

في الاغترار بالمظاهر

١ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ
وإن يقولوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ
خَشَبٌ مُسْتَنْدَةٌ .

٢ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ
لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا .

٣ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ
التَّعْطَفِ .

٤ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى .

٥ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ .

في البشري والتهنئة

١ يَا بُشْرَى هَذَا غَلَامٌ .

٢ بُشْرَاكُمْ الْيَوْمَ .

٣ بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ .

٤ وَبَشِّرُوهُ بَغْلَامٍ عَليم .

ما يقال عند الظفر بالحاجة

١ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي .

٣ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ .	٧ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ .
٤ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي .	٨ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ .
٥ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى .	٩ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ .
٦ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ .	

أمثال مختارة للعرب

إِنْ مِنْ الْبَيَانِ لَسِحْرًا (١) ، إِنْ الْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ (٢) ، إِنْ الْمُؤَصِّصِينَ بَنُو سَهْوَانَ (٣) ، إِنْ الشَّقَى وَافِدُ الْبَرَاجِمِ (٤) ، إِنْ الْبُغَاثُ بِأَرْضِنَا يَسْتَنْسِرُ (٥) ، إِنْ الْجَبَانَ حَتَفُهُ مِنْ فَوْقِهِ (٦) ، إِنْ الْمَعَافَى غَيْرُ مُخْدُوعٍ (٧) ، إِنْ فِي الشَّرْخِيَارِ ، إِنْ الْحَدِيدُ بِالْحَدِيدِ يُفْلَحُ ، إِنْ الشَّفِيقُ بِسَوْءِ ظَنٍّ مُوَلِّعٌ (٨) ، إِنْ وَرَاءَ الْأَكْسَةِ مَا وَرَاءَهَا ، إِنْ الْعَصَا مِنَ الْعَصِيَّةِ (٩) ، إِنْ الْعَوَانُ لَا تُعْلَمُ الْخَمْرَةُ (١٠) ، إِنْ الْغَنَى طَوِيلُ الذِّلِّ مِياس (١١) ، إِنْ اللَّيْلُ طَوِيلٌ وَأَنْتَ مُقْسِرٌ (١٢) ، إِنْ الْعَصَا قُرِعَتْ لَدَى الْجِلْمِ (١٣) ، إِنْ الْحَبِيبُ إِلَى الْإِخْوَانِ ذُو الْمَالِ ، إِنْ الْهَزِيلُ إِذَا شَبِعَ مَاتَ (١٤) ، إِنْ غَدًا لَنَظَرُهُ قَرِيبٌ ، إِنْ أَخَاكَ مَنْ آسَاكَ (١٥) ، إِنَّكَ لَا تَنْجِي مِنَ الشُّوْكِ الْعَنْبَ ، أَتَتَكَ بِحَائِنٍ رَجُلَاهُ ،

(١) يضرب في استحسان المنطق (٢) يضرب لمن أسىء إليه . (٣) يضرب لمن يسهو عن طلب شيء أمر به . (٤) البراجم : بطن من تميم ، يضرب لمن يوقع نفسه في هلكة طمعا . (٥) يضرب للضعيف يصير قويا . (٦) يضرب في أن الحذر لا ينجي من القدر . (٧) يضرب لمن يخدع فلا ينخدع . (٨) يضرب لمن يفشى على نفسه أمرا مستورا . (٩) يضرب في مشاكلة الفرع للأصل . (١٠) العوان : المرأة النصف ، والخمرة : لبس الخمار . يضرب في استغناء المجرب عن الارشاد . (١١) أي لا يستطيع ذو الفنى أن يكتمه . (١٢) يضرب للامر بالتصبر في طلب الحاجة . (١٣) يضرب لمن اذانبه انتبه . (١٤) يضرب فيمن استغنى فتجبر على الناس . (١٥) يضرب في الحث على مراعاة الاخوان .

إِنَّمَا أَكَلْتُ يَوْمَ أَكَلِ الثَّورَ الْأَبْيَضَ ، إِن يَبِغْ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبِغْ عَلَيْكَ الْقَمَرُ (١) ،
 إِن كُنْتَ رِيحاً فَقَدْ لَا قَيْتَ إِعْصَاراً (٢) ، إِن تَرُدَّ الْمَاءَ بِمَاءٍ أَكَيْسَ (٣) ، إِحْدَى حُطَيَّاتٍ
 لِقَمَانٍ (٤) ، أَكَلْ عَلَيْهِ الدَّهْرَ وَشَرِبْ (٥) ، إِنَّهُ لَيَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ تُؤْكَلُ الْكَتَفُ (٦) أَكَلْ
 لِحْمِي وَلَا أَدْعُهُ لَأَكَلِ (٧) ، إِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذِرُ مِنْهُ ، إِذَا زَلَّ الْعَالِمُ زَلَّ بَزَلْتُهُ عَالِمٌ ، أَنْتَ
 تَتَّقُ وَأَنَا مَتَّقٌ فَمَتَى نَتَفَقُ (٨) ، إِيَّاكَ أَغْنَى وَاسْمَعِي يَا جَارَةَ ، إِذَا حَانَ الْقَضَاءُ ضَاقَ
 الْفَضَاءُ (٩) ، أُمُّ الْجَبَانِ لَا تَفْرَحُ وَلَا تَحْزَنُ ، إِذَا جَاءَتِ السَّنَةُ جَاءَتْ مَعَهَا أَعْوَانُهَا (١٠) ، إِن
 حَالَتِ الْقَوْسُ فَهِيَ صَائِبٌ (١١) ، أَلَا مَنْ يَشْتَرِي سَهْرًا بِنَوْمٍ (١٢) ، إِذَا مَا الْقَارِظُ
 الْعَنْزَى آبَا (١٣) ، وَإِنْ كُنْتَ كَذُوبًا فَكُنْ ذُكُورًا (١٤) ، إِنَّمَا يَحْمِلُ الْكَلُّ عَلَى أَهْلِ
 الْفَضْلِ (١٥) ، إِذَا تَخَاصَمَ لِلصَّانِ ظَهْرُ الْمَسْرُوقِ (١٦) ، إِذَا تَفَرَّقَتِ الْغَنَمُ قَادَتِهَا الْعَنْزُ
 الْجَرِيَاءُ إِذَا عَابَ الْبِزَازُ ثُوبًا فَاعْلَمْ أَنَّهُ مِنْ حَاجَتِهِ (١٧) ، إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَطَاعَ فَسَلْ مَا يُسْتَطَاعُ
 إِنْ يَكُنِ الشَّغْلُ مُجَهِّدَةً فَإِنَّ الْفَرَاغَ مُفْسِدَةٌ ، إِذَا قَدِمَ الْإِخَاءُ سَمِحَ الثَّنَاءُ ، بَلَغَ السَّيْلُ
 الزُّبَى (١٨) ، بَعْضُ الشُّرَاهُونَ مِنْ بَعْضٍ (١٩) ، بَلَغَ السَّكِينُ الْعَظْمَ (٢٠) ، بَاقِعَةٌ مِنَ الْبَوَاقِعِ (٢١)

(١) يضرب للأمر المشهور . (٢) يضرب للمداهى الشديد يبلى بمن هو
 ادهى منه وأشد . (٣) يضرب للآخذ في الأمور بالاكتياط . (٤) يضرب في
 الشر يصدر عن عرف به ، وحطيات لقمان : سهامه (وفي القاموس خطأ)
 (٥) يضرب لمن طال عمره . (٦) يضرب في المجرب المحنك . (٧) يضرب في
 الرجل ينصر قريبه وإن كان عدوه . (٨) التثاق : السريع إلى الشر ، والمتق :
 السريع إلى البكاء يضرب للمختلفين أخلاقاً . (٩) يضرب لمن يخاطب
 شخصاً وهو يريد غيره تعريضاً ، (١٠) السنة القحط وأعوانها الجراد
 والأمراض ، يضرب في تجمع الشدائد . (١١) حالة القوس : زالت عن
 استقامتها . يضرب فيمن زالت نعمته ولم تزل مروءته . (١٢) يضرب لمن
 غمط النعمة وكره العافية . (١٣) يضرب في امتداد البعد والغيبة
 (١٤) يضرب الرجل يكذب ثم ينسى فيناقض نفسه . (١٥) الكل : الثقل .
 (١٦) يضرب في القوم يختلفون فيسود فيهم الإشرار . (١٧) البزاز : بائع الثياب
 (١٨) الزبى : جمع زبىة وهى أعلى الجبل ، يضرب لمن جاوز الحد .
 (١٩) يضرب في الشرين يختار أهونهما (٢٠) يضرب لمن جاوز الحد .
 (٢١) الباقعة : الداهية يقال في الرجل يكون داهياً منكراً .

إِيدَأْهُمْ بِالصُّرَاخِ يَفِرُّوْا (١) . أَبْدَى الصَّرِيحَ عَنِ الرِّغْوَةِ (٢) . بَعْضُ الْجَدْبِ
 أَمْرٌ لِلْهَزِيلِ (٣) . بَنَانٌ كَفَ لَيْسَ فِيهَا سَاعِدٌ (٤) . بَعْدَ الْبَلَاءِ يَكُونُ الشَّنَاءُ .
 أَبْلَغَ مِنْ قُسٍّ . أَبْخَلَ مِنْ مَادِرٍ . أَبْصَرَ مِنْ زُرْقَاءِ الْيَامَةِ ، وَمِنْ غُرَابٍ .
 أَنْقَى مِنَ الدَّهْرِ . أَبْقَى مِنْ وَحَى فِي حَجَرٍ (٥) . أَبْيَنُ مِنْ فَلَقِ الصَّبْحِ . أَبْكَرُ
 مِنْ غُرَابٍ . تَرَكَ الذَّنْبَ أَيْسَرَ مِنْ طَلَبِ التَّوْبَةِ . تَجَوَّعَ الْحَرَّةُ وَلَانَا كُلُّ بَشْدِيئِهَا (٦) .
 تَسْمَأُنِي بِرَامَتَيْنِ سُلْجَمًا (٧) تَجَشَّنَا لِقَمَانٍ مِنْ غَيْرِ شَبِيعٍ (٨) . تَضْرِبُ فِي حَدِيدٍ
 يَارِدٍ . تَلْدَغُ الْعُقْرَبَ وَتَصْئِءُ (٩) . تَرَكَتْهُمْ فِي حَيْصٍ يَبْئِصُ (١٠) . تَطْلُبُ أَثَرًا
 يَبْعَدُ عَيْنَ (١١) . تَسْمَعُ بِالْمُعِيدِ خَيْرَ مَنْ أَنْ تَرَاهُ (١٢) اتَّخَذَ اللَّيْلُ جَمَلًا (١٣) . تَرَى
 الْفَتَيَانَ كَالنَّخْلِ وَمَا يُدْرِيكَ مَا الدَّخْلُ (١٤) . التَّثَبُّتُ نَصْفُ الْعَفْوِ . تَقْطَعُ أَعْنَاقَ
 الرِّجَالِ الْمَطَامِعِ . أَتَبَعَ السَّيْئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا . اتَّقِ شَرَّ مَنْ أَحْسَنَتْ إِلَيْهِ (١٥)
 تَضَرَّعْ إِلَى الطَّبِيبِ قَبْلَ أَنْ تَمْرُضَ (١٦) . تَجْرَى الرِّيحُ بِمَا لَا تَشْتَهِي السَّفَنُ .
 تَلْتَقِدِيرُ أَحَدِ الْكَاسِبِينَ . التَّدْبِيرُ نَصْفُ الْمَعِيشَةِ . جَزَاءُ سَنَارٍ . أَسْمَعُ جَعَجَعَةٍ
 وَلَا أَرَى طَحْنًا . جَوَّعَ كَلْبِكَ يَتْبَعُكَ (١٧) . جَاوَزَ الْحَزَامَ الطَّبِيبِينَ (١٨) جَانِيكَ مِنْ
 يَجْنِي عَلَيْكَ (١٩) . جَلِيسُ السُّوءِ كَالْقَيْنِ (٢٠) . إِنْ لَمْ يَحْرِقْ ثَوْبُكَ دَخْنَهُ ،

(١) يضرب في الظالم يتظلم ليسكت عنه (٢) يضرب عند انكشاف الامر
 وظهوره (٣) يضرب فيمن لا يحسن احتمال الغنى بل يطفئ فيه (٤) يضرب
 فيمن له همة ولا قدرة له على بلوغ ما في نفسه (٥) الوحى : الكتابة
 (٦) أى لا تكون مرضعا ، يضرب في صيانة الرجل نفسه عن خسيس
 المكاسب . (٧) السلجم : اللقت ، يضرب لمن يطالب شيئا في غير موضعه
 (٨) يضرب لمن يدعى ما ليس يمك . (٩) يضرب لمن يظلم ويتظلم وصاءت
 العقرب : صوتت (١٠) يضرب فيمن وقع فيما لا مخلص له منه (١١) يضرب
 فيمن ترك الشيء ثم طأبه بعد ذهابه . (١٢) يضرب فيمن منظره دون مخبره
 (١٣) أى أدى واجبه من العمل ليلا (١٤) يضرب لذي المنظر لا خير فيه .
 (١٥) يضرب في مقابلة الاحسان بالاساءة (١٦) يضرب فيمن بعد ولا يفى
 (١٧) يضرب فيما ينبغي أن يعامل به اللئيم (١٨) يضرب في تفاسم الامر
 (١٩) رأى لا تزر وازرة وزر أخرى (٢٠) القين : الحداد .

جاءوا على بكرة أبيهم (١)، أجود من حاتم ومن كعب بن مامة، أجبن من صافر ومن نعامة (٢)، أجهل من فراشة، أجمع من نملة، حال الجريض دون القريض (٣)، حنّ قدح ليس منها (٤)، حسبك من شرماعه، حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق (٥). حبك الشيء يعمى ويصم، الحديث ذو شجون (٦)، حافظ على الصديق ولو في الحريق، أحشفاً وسوء كيلة (٧)، الحكمة ضالة المؤمن، العجبارى خالة الكروان، الحاجة تفتق الحيلة (٨)، أحقق من هبنقة، أحلم من الأحنف، أحكم من لقمان، أحذر من غراب ومن ذئب ومن ظليم (٩)، أحفظ من الشعبي، خذ من جذع ما أعطاك (١٠)، خالف تذكر، خرقاء وجدت صوفاً (١١)، خير المال عين خرارة في أرض خوارة (١٢)، أخطب من سحبان ومن قس، أخون من ذئب، دون ذا وينفق الحمار (١٣)، أدهى من قيس بن زهير ومن عمرو بن العاص. ذهبوا أيدي سبا (١٤)، الذئب خالياً أسد، ذكرتني الطعن وكنت ناسياً (١٥)، رمثني بدائها وانسلت (١٦)، رماه الله بثالثة الأثافي (١٧)، ربّ قول أشد من

(١) أي جاءوا جميعاً (٢) الصافر من الطيور بغائها وضعافها (٣) الجريض الفصاة والقريض: الشعر. يضرب في الأمر يتيسر حين لا ينفع (٤) يضرب في الرجل يفتخر بقوم ليس منهم أو يتمدح بما ليس فيه (٥) يضرب في المقالة السيئة وما يخشى منها. (٦) الشجون: الفنون. يضرب في الحديث يتذكر به غيره (٧) يضرب في الجمع بين خصلتين مكروهتين. (٨) يضرب في مناسبة أحد الشيئين للآخر. (٩) الظليم: ذكر النعام (١٠) جذع: اسم رجل. يضرب في اغتنام ما يوجد به البخل (١١) الخرقاء: التي لا تحسن العمل، يضرب لمن يفسد عمله بسوء تصرفه (١٢) الخوارة: الأرض التي فيها لين وسهولة (١٣) يضرب في المبالغة في المدح بغير احتياج إليه (١٤) أي تفرقوا تفرقاً لا اجتماع معه كما تفرقت سبا. (١٥) يضرب في تذكر الشيء بغيره. (١٦) يضرب فيمن يعير صاحبه بعيب هو فيه. (١٧) الأثافي: جمع ثغبة وهي الحجر توضع عليه القدر، وهما اثنتان وثالثتهما الجبل، والمراد بها الداهية العظيمة.

صَوْل (١)، رُبَّ أَخٍ لَكَ لَمْ تَلِدْهُ أَهْلَكَ، رَجَعَ بِخَفَى حَنِينٍ (٢)، رُبَّ رَمِيَةٍ مِنْ غَيْرِ رَامٍ،
لِرَأْوِيَةِ أَحَدِ الشَّاتِمِينَ (٣)، رُبَّ كَلِمَةٍ سَلَبَتْ نِعْمَةً، رُبَّ مَلُومٍ لَا ذَنْبَ لَهُ، رُبَّ
زَارِعٍ لِنَفْسِهِ حَاصِدٌ سِوَاهُ، أَرَوَى مِنْ ضَبٍّ (٤)، أَرْقَ مِنَ النَّسِيمِ وَمِنْ رَقْرَاقِ
السَّرَابِ وَمِنْ غِرْقَى الْبَيْضِ (٥)، الزَّيْتُ فِي الْعَجِينِ لَا يَضِيعُ (٦)، زَكَاةُ النُّعْمِ
المَعْرُوفُ، أَزْكَنُ مِنْ إِيَّاسٍ، أَزْهَى مِنْ طَاوُوسٍ (٧)، سَبَقَ السَّيْفُ الْعَدْلَ (٨)،
أَسَاءَ سَمْعًا فَأَسَاءَ إِيْجَابَةً، سَكَتَ أَلْفًا وَنَطَقَ خُلْفًا (٩)، سُرِقَ السَّارِقُ فَانْتَحَرَ (١٠)
السَّلِيمُ لَا يَنْزَامُ وَلَا يُنِيمُ (١١)، سَحَابَةٌ صَيْفٍ عَنْ قَلِيلٍ تَقَشَّعُ، شَرُّ الرَّأْيِ
الدَّبْرِيُّ (١٢)، شُخْبٌ فِي الْإِنَاءِ وَشُخْبٌ فِي الْأَرْضِ (١٣)، شَنْشَنَةٌ أَعْرَفُهَا مِنْ
أَحْزَمٍ (١٤)، شَرُّ مِنَ الْمَوْتِ مَا يُتَمَنَّى مَعَهُ الْمَوْتُ، أَشْأَمُ مِنَ الْبُسُوسِ، وَمِنْ
أَحْمَرِ عَادٍ، وَمِنْ غِرَابِ الْبَيْنِ (١٥)، أَشْكُرُ مِنْ كَلْبٍ، صَدَقَنِي سَنٌّ بِكَرِهِ (١٦)،
صَادَفَ دَرَّةً السَّيْلَ دَرَّةً يَصْدَعُهُ (١٧)، صَدْرُكَ أَوْسَعُ لِسْرِكَ، أَصْدَقُ مِنْ

(١) يضرب عند الكلام يؤثر فيمن يواجه به (٢) يضرب في الخيبة (٣) هذا
كقولنا شتمك من بلغك (٤) تزعم العرب أن الضب لا يحتاج إلى شرب الماء يفتح
فألهواء فيكون في ذلك ربه (٥) الفرقى القشرة الرقيقة الملتزمة ببياض البيضة
(٦) يضرب في الاحسان إلى الاقارب (٧) الزهو: العجب (٨) يضرب في الخطأ
يلام فاعله بعد وقوعه الخلف: الردى من القول (٩) يضرب لمن تنتزع من
يده ما ليس له فيجزع عليه .

(١١) السليم: الملدوغ . يضرب فيمن لا يستريح ولا يريح غيره .

(١٢) الدبرى ما يسنح بعد فوات الفرصة .

(١٣) الشخب: ما خرج من الضرع ممتدا من اللبن ، يضرب فيمن
يصيب مرة ويخطئ أخرى .

(١٤) الشنشنة: الطبيعة والعادة يضرب في مشابهة الفرع لأصله في الشر .

(١٥) البسوس: هى المرأة التى هاجت بسببها حرب بكر وتغلب ،
وأحمر عاد هو أحمر ثمود وهر الذى عقر الناقة فحل العذاب بثمود من
جزاء عمله .

(١٦) يضرب في الانسان يقول الحق على غير قصد منه .

(١٧) هذا كمن قال : لا يقل الحديد الا الحديد .

قطاة (١) ، أصعبُ من رد الشَّخْب في الضَّرْع ، ضَرَبَ أَخماساً لَأَسَداس (٢) ، أَضْيَقُ من ظِلِّ الرَّمح ، أضعفُ من بَعُوضَةٍ ، أَضْبَطُ . من نَمْلَةٍ ، أَطْرَقَ كِرا (٣) ، إِنَّ النِّعامة في القرى أطولُ صُحبة من الفرقَدَيْنِ ، أَطْمَعُ من أَشْعَب ، طَبِيبٌ يُدَاوِي الناس وهو مريض ، طَفِيلِيٌّ ومُقْتَرَح ، ظُئِرَ رَعُومٌ خَيْرٌ من أُم سَثُوم (٤) . عند الصباح يَحْمَدُ القوم السَّرى (٥) ، عند جُهينةَ الخبرِ اليقين (٦) ، عرض عليه خَصْلَتِي الضَّبُع (٧) ، عَشَ رَجَباً تر عجباً ، أعطى القوسَ ياريها ، أَعْرَضَ ثوب الملبس ، العَوْدُ أَحْمَدُ ، عند الامتحان يُكْرَمُ المرءُ أَوْيُهُان ، أَعَزُّ من كَلِيبٍ وَائِل ، أَعْيى من باقِل . أَعْدَى من الظَّليم ، ومن الشَّنْفَرى ، ومن السَّليكَ ، أَعْقَ من ذَنْبَةٍ ، أَعْقَدُ من ذَنْبِ الضَّبِّ ، وَأَعْجَزُ مَنْ قَتَلَ الدِّخَانَ (٨) ، غَدَّةٌ كغَدَةِ البَعير ، وموت في بيتِ سلُولِيَّة (٩) ، غَثُّكَ خَيْرٌ من سَمِينٍ غَيْرِكَ ، في الصَّيفِ ضَيَّعَتِ اللَّبن (١٠) في بيتِهِ يُؤْتَى الحَكَم ، في كلِّ شَجَرٍ نار ، واستَحْمَدَ المَرْح والعَقَّار (١١) ، أَفْرُسٌ من بسطام ، أَفْتَكُ من عمرو بن كلثوم ، قَطَعْتَ جَهِيْزةً قول كلِّ خطيب (١٢) . قد أَنَصَفَ القارة من راماما (١٣) ، قبل الرِّماء تَمَلُّ الكَنائِن (١٤) ، اقْتَلَوْنِي

(١) لأن صوت القطاة واحد لا يتغير (٢) يضرب فيمن يريد الشيء ويظهر غيره . (٣) الكرا : الكروان ، يضرب فيمن يتكلم بما لا يقدر عليه . (٤) الظئر : الحاضنة والرَّعُوم : العطوف (٥) يضرب في تحمل التعب رجاء الراحة (٦) يضرب في الرجل يعرف الشيء على وجهه كقولهم : على الخبر سقطت . (٧) تزعم العرب أن الضبع صادت ثعلبا وخيرته بين أن تأكله وأن تمزقه . يضرب فيمن يسوم غيره ما لا خيار له فيه من البلاء . (٨) يضرب فيمن إذا سألته عن أمر أبهم الجواب (٩) ساول قبيلة ذليلة ، يضرب في اجتماع خصلتين من الشر (١٠) يضرب لمن يطلب شيئاً قد فوته على نفسه (١١) المرح والعقار : شجرتان قويتا النار . يضرب في تفضيل بعض الشيء على بعض . (١٢) يضرب لمن يقطع على الناس ما هم فيه بحماقة يأتي بها (١٣) القارة : قبيلة من أبرع الناس في المراماة .

(١٤) يضرب في الاستعداد للامر قبل الشروع فيه .

ومالكاً (١) ، القول ما قالت حذام ، كان كُرَاعاً فصار ذراعاً (٢) ، كلام كالعمل
وفعل كالأسل (٣) ، كل فتاة بأبيها مُعجبة (٤) ، كطالب القرن جُدِعت أذنه (٥) ،
كُمُجِير أم عامر (٦) ، كيف أعادوك وهذا أثر فأسك (٧) ، كأن على رؤوسهم
الطير ، كالمستجير من الرمضاء بالنار ، لو ذات سوار لطمتني (٨) ، لو خُيرتُ
لاخترت ، لو ترك القطا ليلاً لنام (٩) ، لعل له عُذرا وأنت تلوم ، لأمر ما جدّع
قصير أنفه ، لكل مقام مقال ، لا مخبياً لِعِطره بعد عروس (١٠) ، لا تعدّم الحسناء
ذاماً (١١) ، لا تهرف بما لا تعرف (١٢) ، لا ناقي فيها ولا جملي ، لا في العير ولا في
النَّفير (١٣) لا يفل الحديد إلا الحديد ، لا تأمن الأحقق وبيده سكين (١٤) ، لا
تجزعن من سنة أنت سرتها ، ما وراك يا عصام ، ما يوم حليلة بسر (١٥) ، ما
أشبه الليلة بالبارحة ، مرعى ولا كالسعدان (١٦) ، ما كل بيضاء شحمة ، منك
أنفك وإن كان أجذع (١٧) ، من استرعى الذئب ظلم ، من مأمنه يؤتى الحذر ،

(١) يضرب فيمن يريد يصاحبه المكروه وان ناله هو منه ضرر
(٢) يضرب في الدليل يصبح عزيزاً (٣) الأسل : الرماح (٤) يضرب في
عجب الرجل رهطه وعشيرته (٥) أصل المثل في النعام ، ويضرب في طالب الأمر
يفضي بصاحبه الى التلف (٦) أم عامر الضبع وقد أكلت من أجارها .
يضرب في الذي يجزى على احسانه بالسوء (٧) يضرب فيمن لا يفي بالعهد
(٨) يضرب في الوضيع يقع منه العدوان (٩) يضرب فيمن حمل على مكروه
من غير ارادته (١٠) يضرب فيمن لا يدخر عنه نفيس (١١) يضرب في
الشيء الحسن لا يخلو من عيب (١٢) يضرب لمن يتعجل في مدح الشيء قبل
تمام معرفته .

(١٣) يضرب في الوضيع ليس فيه شيء من خلال الشرف

(١٤) يضرب في عسف الجاهل اذا قدر

(١٥) حليلة بنت ملك غسان ، يضرب للأمر المشهور الذي لا يكاد يجهل

(١٦) السعدان : نبت من أنفع الأعشاب للأبل ، يضرب في الشيء يفضل

على أشكاله وأقرانه

(١٧) يضرب فيمن يلزمك خيره وشره .

مواعيدُ عرقوبٍ ، مُكره أخوك لا بطل (١) ، أَمْنَعُ من عُقَابِ الجَوِّ ، نَفْسُ عِصَامٍ
سَوَدَتْ عِصَاماً (٢) نعيمُ كلبٍ في بُؤْسِ أَهْلِهِ (٣) أُنْدَمُ من الكُسْعَى ، وافق شَنْ
طبقة (٤) أوردتها سعد وسعد مشتمل (٥) ، أَوْفَى من السَّمَوِّالِ ، ومن الحارث بن عباد ،
هما كُفْرَسَى رَهان ، يَدَاكَ أَوْكُتَا ، وفُوكَ نَفَخَ (٦) ، اليوم خمر وغدا أَمْرٌ (٧) .

الفن الرابع في الأوصاف

الوصف (٨) عبارة عن بيان الأمر باستيعاب أحواله وضروب نُعُوتِهِ المُمَثِّلَةِ
لَهُ . وأُصُولُهُ ثلاثة :

الأول : أن يكون الوصف حقيقياً بالموصوف مفرزاً له عما سواه .

الثاني : أن يكون ذا طلاوة ورونق .

الثالث : أن لا يخرج فيه إلى حدود المبالغة والإسهاب ، ويكتفى بما كان
مناسباً للحال . وأنواعه كثيرة ، ولكنها ترجع إلى قسمين : وهما وصف
الأشياء ووصف الأشخاص — أمّا الأشياءُ الحُرِيَّةُ بالوصف فهي كالأمكنة
والحوادث ومناظر الطبيعة .

وأما وصف الأشخاص فيكون بوصف الصورة أو الطبع أو بوصفهما
معاً ، ولنذكر لك فِقْراً جارية على ألسنة البلغاء في صفات شتى ، ثم نتبعها
بمقالات في الوصف نشرّاً ونظماً .

(١) يضرب فيمن يحمل على ما ليس من شأنه (٢) يضرب في سؤدد الرجل
(٣) يضرب في التابع — كالخادم — يشغل سادته بمصيبته فيغتم ما قدر
عليه من أموالهم (٤) يضرب في تمام المشاكلة والاتفاق (٥) يضرب للمقصر
في الأمر (٦) يضرب لمن يجنى على نفسه (٧) يضرب في تقلب الأيام (٨) أحسن
طريقة للاجادة في الوصف أن ترسم أولاً في بدء وصفك منظراً عاماً جامعاً
لجمال الأمر الذي تحاول وصفه ثم تأخذ بإيراد مختلف الأجزاء قسماً
فقسماً وذلك إما على تتابع ورود هذا الأجزاء ، أو إثار ما كان يراه الكاتب
أشد مناسبة لغايته .

وصف البلدان

بَلَدَةٌ كَأَنَّهَا صُورَةُ جَنَّةِ الْخُلْدِ ، مَنْقُوشَةٌ فِي عَرْضِ الْأَرْضِ . بَلَدَةٌ كَأَنَّ مُحَاسِنَ الدُّنْيَا مَجْمُوعَةٌ وَمَحْصُورَةٌ فِي نَوَاحِيهَا . بَلَدَةٌ تُرَاكِبُهَا عُنْبُرٌ ، وَحَصْبَاؤُهَا عَفِيقٌ ، وَهَوَاؤُهَا نَسِيمٌ ، وَمَاؤُهَا رَحِيقٌ . بَلَدَةٌ مَعْشُوقَةُ السَّكْنَى ، رَحْبَةُ الْمَثْوَى (١) ، كَوَكْبُهَا يَقْظَانُ ، وَجُوهُهَا عُريَانُ ، يَوْمُهَا غَدَاةٌ ، وَلَيْلُهَا سَحَرٌ . بَلَدَةٌ وَاسِعَةٌ الرِّقْعَةُ ، طَيِّبَةُ الْبَقْعَةِ ، وَاسِطَةُ الْبِلَادِ وَسِرُّهَا ، وَوَجْهُهَا وَغُرَّتُهَا .

وصف القلاع

قَلْعَةٌ حَلَقَتْ (٢) بِالْجَوْتِ نَاجِي السَّمَاءِ بِأَسْرَارِهَا . قَلْعَةٌ تَتَوَشَّحُ بِالْغَيُومِ ، وَتَجْتَنِي النُّجُومَ . قَلْعَةٌ مُتَنَاهِيَةٌ فِي الْحَصَانَةِ ، مُتَنَعَةٌ عَنِ الطَّلَبِ وَالطَّالِبِ ، مَنْصُوبَةٌ عَلَى أَضْيَاقِ الْمَسَالِكِ وَأَوْعَرِ الْمَنَاصِبِ ، لَمْ تَزِدْهَا الْأَيَّامُ إِلَّا نَبْؤًا (٣) أَعْطَافَ ، وَاسْتِصْعَابَ جَوَانِبِ وَأَطْرَافَ ، قَدَمَلِ الْمُلُوكِ حَصَارَهَا ، فَفَارَقُوهَا عَنْ طَمَاحِ (٤) مِنْهَا وَشَمَاسِ (٥) وَسُمِّتَ الْجِيُوشُ ظِلَّهَا ، فَغَادَرَتْهَا (٦) بَعْدَ قَنُوطِ . وَإِيَّاسُ ؛ فَهِيَ حِمَى لِأَبْرَاعِ (٧) وَمَعْقِلٌ لَا يُسْتَطَاعُ ، كَأَنَّ الْأَيَّامَ صَالَحَتْهَا عَلَى الْإِعْفَاءِ مِنَ الْحَوَادِثِ وَاللِّيَالِ ، وَعَاهَدَتْهَا عَلَى التَّسْلِيمِ مِنَ الْقَوَارِعِ (٨) .

وصف الدور

دَارٌ قَرَارٍ تُوَسِّعُ الْعَيْنُ قُرَّةً ، وَالنَّفْسُ مَسْرَةً ، كَأَنَّ بَانِيَهَا اسْتَسْلَفَ الْجَنَّةَ فَجَعَلَتْ لَهُ . دَارٌ تَغَارُ مِنْهَا الدُّورُ ، وَتَتَقَاصِرُ عَنْهَا الْقُصُورُ . دَارٌ اقْتَرَنَ الْيَمْنُ (٩) بِيَمَانِهَا وَالْيَسْرُ بِيَسْرِهَا ، الْجِسْمُ مِنْهَا فِي حَضَرٍ ، وَالْعَيْنُ عَلَى سَفَرٍ ، دَارٌ دَارٌ بِالسَّعْدِ نَجْمُهَا وَفَازَ بِالْحَسَنِ سَهْمُهَا ، يَخْدُمُهَا الدَّهْرُ ، وَيَأْوِيهَا الْبَدْرُ ، وَيَكْنُفُهَا لَنْصَرٌ . هِيَ مَرْتَعُ النَّوَاطِرِ ، وَمَتْنَفَسُ الْخَوَاطِرِ ، أَخَذَتْ أَدَوَاتِ الْجَنَانِ ، وَضَحِكَتْ مِنَ الْعَبَقْرِ (١٠) الْحَسَانِ .

(١) الإقامة (٢) ارتفعت (٣) بعدا (٤) كبر وفخر (٥) إباء وامتناع (٦) تركتها (٧) لا يفزع ولا يخاف أحدا (٨) الحوادث والنوائب (٩) البركة (١٠) البسط المعجب شيكلها

وصف الديار الخالية

دار لَيْسَتْ الْبَيْلَى وتعتلت من الحلى ، صارت من أهلها خالية ، بعد ما كانت بهم حالية ، قد أنفذ البَيْنُ سكانها ، وأقعد حيطانها . دار شاهدُ اليأس منها ينطق ، وحبلُ الرَّجاءِ فيها يقصر ، كأنَّ عمرانها يُطْوَى ، وخرابها يُنشر ، أركانها قِيَامٌ وَقُعود ، وحيطانها رُكْعٌ وسجود .

بَكَتْ دارهم من بَعْدِهِمْ فتهللت دموعى فأتى الجازعين أَلُوم
أَمْسْتَعْبِراً يَبْكِي على اللهو والبلى أم آخر يَبْكِي شجوه فيهم ؟

وصف أيام الربيع

يَوْمٌ جلابيب غيومه رواق (١) وأوديةٌ نَسِيمه رقاق ، يوم سَمَآؤه فَاخْتِيَّةٌ ، وأرضه طَآوُوسِيَّةٌ ، يوم ممسك السماء ، مُعَصْفِرُ الهواء ، مُعَنْبِرُ الروض ، مصنَدَلُ الماء ، يوم تبسم عنه الربيع ، وتبرج عنه الروض المريع ، يوم كَانَ سَمَاءَهُ مُجِدُّ تَبَاكِي وأرضه عروس تتَجَلَّى ، يوم دجنه (٢) عَاكف ، وقطره واكف (٣) .

وصف الرياض

رَوْضَةٌ رقت حواشيها وتأنق واشيها (٤) ، روضة كَالْعُقُود المنظمة على البرود المنمنمة ، روضة قد راضتها أَكْفُ المطر ، ودبجتها أَيْدَى الندى . رياض كَالْعُرَائِس في حليها وزخارفها ، والقِيَان (٥) في وشيها ومطارفها (٦) ، باسطة زرابيها وأنمَاطها ، ناشرة برودها ورياطها ، زاهية بحمرائها وصفرائها ، تائهة بغيدانها وغدرانها ، كأنما احتفلت لوفد ، أوهى من حبيب على وعد . روضة قد تضوعت (٧) بالأراج (٨) الطيب أرجاؤها ، وتبرجت (٩) في ظلل الغمام صَحْرَاؤها . وتَدَافحت

(١) الكساء المرسل على مقدم البيت من أعلاه الى الارض (٢) الغيم (٣) سائل

(٤) حائكها وناقشها (٥) جمع قين : المغنية (٦) جمع مطرف رداء من خز مربع فيه أعلام والزرابى البسط ، والأنمَاط الأثواب التى تطرح على الهودج ، الرباط الأثواب الرفاق (٧) تحركت (٨) النفع : الريح الطيب (٩) تزينت .

بنوافح المسك أنوارها . وتعارضت بغرائب النطق أطيافها ، بُسْتَانُ أَنْهَارِهِ
محفوظة بالأزهار . وأشجاره مُرَقَرَّةٌ بالثمار ، أشجار كأن الحور أعارتها قُودُودَهَا
وكسَتْهَا بُرُودَهَا . وحانها عُقُودَهَا ، شَدَّقَتْ كَتِيجَانَ العقيق على رؤوس الزوج
كأنها أصداغ المسك على الوجنات الموردة ، كأن الشقيق جام (١) من عقيق
أحمر ، مُلِئَتْ قَرَارَتُهُ بِمَسْكِ أَذْفَرِ ، الأَرْضِ زُمُرْدَةٍ ، والأشجار وَشْيٌ ، والماء
سيوف ، والطيور قِيَان (٢) قد غردت خطباء الأطياف على منابر الأنوار والأزهار .

وصف طول الليل والسهر وما يعرض فيه من الهموم والفكر

ليلة قُصَّ جَنَاحُهَا ، وضل صبايحها . ليلٍ ليست لها أسحار ، وظلمات لا
تخللها أنوار . ليل ثابت الأظباب (٣) بطن الغوارب طامع الأمواج وافى الذوائب .
بات بلية ساورته (٤) فيها الهموم ، وسامرته النجوم ، واكتحل السهاد ، وافترش
القتاد ، واكتحل بماء السهر ، وتلمل على فراش الفكر ، قد أقض وهأذه (٥)
وقلِقَ وساده ، هموم تفرق بين الجنب والمهاد ، وتجمع بين العين والسهاد .

وصف انتصاف الليل وتناهيه وانتشار النور وأفول النجوم

قد اكهَل (٦) الظلام ، قد نصَّفنا عمر الليل واستغرقنا شبابه ، قد شاب رأس
الليل ، كادَيْمَ النسيم بالسحر ، قد انكشف غطاء الليل وستر الدجى ، هَرِمَ الليل
وشمِطَ ذوائبه ، قُوِّضَتْ (٧) خيام الليل ، وخلع الأفق ثوب الدجى ، تبسم الفجر
ضاحكا من شرقه ، ونصب أعلامه على منازل أفقه . اقتنص بازى الضوء غراب
الظلام ، وفَضَّ كافور النور من الغسق مسك الختام ، طرز قميص الليل بغرة
الصبح ، باح الصبح بسرهِ ، خلع الليل ثيابه وحَدَرَ (٨) الصبح نقابه ، بث
الصبح طلائعه ، تبرقع الليل بغرة الصبح ، أطار منادى الصبح غراب الليل ،

(١) اناء (٢) مغنيات (٣) حبال الخيمة (٤) شغلته وقاومته
(٥) خشن وتترب (٦) صار كهلا تشبيها بالرجل الكهل وهو من جاوز
الأربعين سنة . (٧) هدمت . (٨) أنزل .

عزلت نوافج الليل بجامات الكافور ، وانهزم جيش الظلام عن عسكر النور ،
مالت الجوزاء (١) للغروب ، وولّت مواكب الكواكب ، وتناثرت عقود
النجوم ، ووهى نطاق الجوزاء ، وانطفأ قنديل الثريا .

وصف طلوع الشمس وغروبها

بدأ حَاجِبُ الشمس ، أَلَقَتِ الْغَزَالَةُ (٢) لُعَابَهَا وَضَرَبَتِ الضُّحَى (٣) أَطْنَابَهَا ،
انتشر جناح الضوء في أفقِ الجوّ ، استوى شبابُ النهار على رونق الضحى ،
أبلغت الشمس كيدَ السماء ، قام قائمُ الهاجرة ورمت الشمس بجمرات الظهر .
اصفرت غلالة (٤) الشمس ، وصارت كأنها الدينارُ يلمع في قرار الماء ، نفضت تبراً
على الأصيل ، وشدت رَحْلَهَا للرَّحِيل ، جنحت الشمس إلى مغاربها ، ذلكت (٥)
دلوح (٦) واغبرَّ لَوْحُ اللوح (٧) تصوبت الشمس للمغيب ، وتَضَيَّفَت للغروب ،
فأذن جنبُها بالوجوب (٨) ، شاب النَّهَارُ وأقبل شباب الليل . استتر وجه الشمس
بالنقاب وتوارت بالحجاب . وكان هذا الأمر من مطلع الفلق إلى مجمع الغسق .

وصف الرعد والبرق

قام خَطِيبُ الرَّعْدِ . نَبَضَ (٩) عِرْق . سحابة ارتجزت (١٠) رُعُودُهَا . وذهبت
بِبُرُوقِهَا بِرُودُهَا . نطق لسانُ الرَّعْدِ . وَخَفَقَ قَلْبُ الْبَرْقِ . فالرعد ذو صخب (١١)
وانبرق ذو لهب . ابتسم البرق عن قَهْقَهة الرعد . زأرت أسود الرعد ولمعت
سُيُوفُ الْبَرْقِ . رعدت الغمام وبرقت . وانحلت غرى السماء فطبقت . هدرت
رواعِدُهَا ، وتربت أباغدها . وصدفت مواعدها .

(١) برج في السماء (٢) الشمس (٣) الضحى جمع ضحوة ، مؤنث
والضحا تذكر على أنها اسم (٤) الثوب الرقيق (٥) غريت (٦) السحابة
(٧) واللوح اللامع واللمعان من لاح يلوح لوحاً (٨) وجبت الشمس وجيباً
ووجوباً غابت (٩) تحرك (١٠) الرجز ضرب من الشعر ويقال رجز
الراجز وارتجز أيضاً
(١١) كثير اللفظ والجمابة .

وصف مقدمات المطر

لَبِست السماءَ سِرْبَها ، وَسَحَبتِ السُّحُبُ أَذْيالها . قد اَحْتَجَبَتِ السماءُ في سُرَادقِ الغيمِ ، لبَسَ الجوُّ مَظْرَفَه (١) الأَدَكُن (٢) ، باحَتِ الرِّيحُ بِأسرارِ النَّدى ، ضُربت خيمةُ الغمامِ ، ابتَلَّ جناحُ الهواءِ ، واغْرُورقت مُقَلَّةُ السماءِ ، هَبَّتْ شَمائلُ الجَنائِبِ ، لتأليفِ شَمْلِ السَّحائبِ ، تَأَلَّفَتِ أَشْتاتُ الغيومِ ، وآلَفَتِ السُّتورَ على النُّجومِ .

وصف الثلج والبرد وأيام الشتاء

مَدَّ الشتاءُ رواقَه ، وآلَى أوراقَه (٣) وحلَّ نطاَقَه . أَناخَ بنوازلِه ، وأرْسَى بكلاكِلَه ، وكلَحَ بوجْهَه ، وكشَرَ عن أنْيابِه ، قد عادتِ الجبالُ شُباباً ، ولبست من الثلوجِ ملاءً قشيباً (٤) . شابَتْ مفارِقُ البُرُوجِ بتراكمِ الثلوجِ ، أَلَمَ الشَّيبُ بها ، وابتَضَّتْ لَمَمُها (٥) ؛ برْدٌ يَقْضِضُ (٦) الأَعْضاءَ ، وينقُضُ الأحشاءَ ، برْدٌ يُجمِدُ الرِّيقَ في الأشْداقِ والدمعِ في الآماقِ ، يومَ كَأَنَّ الأرضَ شابَتْ لهوْلَه ، يومَ فضَى الجَلبابُ مسكى النِّقابِ ، عبوسَ قَمْطَرِيرِ (٧) ، كشَرَ عن نَابِ الزَّمْهَرِيرِ ، وفرَشَ الأرضَ بالقواريِرِ (٨) ، يومَ أَرَضَه كالقواريِرِ اللامعةِ ، وهوَّاهُ كالزَّنابيرِ اللاسعةِ .

وصف المطر والسحاب والماء والغدران

ماءٌ إِذا مَسَتْهُ أَيْدى النِّسيمِ (٩) ، حَكى سِلْسِلَ الفِضَّةِ ؛ غديرٌ تَرَقَّرَقَتْ (١٠) فيه دَمْرَعُ السَّحائبِ ، وتَوَاتَرَتْ عَليه أنْفاسُ الرِّياحِ الغرائِبِ ، انحلَّ عِقدُ السماءِ وانهلَّ دَمْعُ الأنواءِ (١١) ، انحلَّ سِلْكُ القَطَرِ عن دُرِّ البحرِ ، سَحابةٌ تَحْدُو من الغيومِ جَمالاً ، وتَمُدُّ من الأمطارِ جِبالاً . سَحابةٌ تَرسُلُ الأمطارَ أمواجاً

(١) رداء من خز مربع ذو اعلام (٢) المائل الى السواد (٣) جمع روق ، وهو والرواق بمعنى (٤) جديداً (٥) جمع لمة للشعر الذى يجاوز شحمة الأذان . (٦) يكسر ويضعف (٧) شديد مظلم (٨) جمع فارورة وهى الاناء من الزجاج (٩) شابته (١٠) تحركت (١١) جمع نوء : المطر

والأمواج أفواجاً . سحابةٌ يضحك من بكائها الروض ، وتخضر من سوادها الأرض ، سحابةٌ لا تجف جفونها ، ولا يخف أنينها ، ديمةٌ (١) روت أديم (٢) الثرى (٣) ، ونبهت عيون النور من الكرى (٤) ، سحابة ركبت أعناق الرياح ، وسحت كأفواه الجراح . مطرٌ كأفواه القرب

وصف القيظ. وشدة الحر

حرٌ يشبه قلب الصب ، ويذيب دماغ الضب (٥) قوى سلطان الحر ، ويسط. بساط الجمر ، أوقدت الشمس نارها ، وأذكت (٦) أوارها (٧) ، حرٌ يلفح حرّ الوجه ، هاجرةٌ كأنها من قلوب العشاق ، إذا اشتعلت فيها نار الفراق ، هاجرة تحكى نار الهجر ، وتذيب قلب الصخر ، حرٌ تهرب له الجرباء (٨) من الشمس ، قد صهرت (٩) الهاجرة الأبدان ، وركبت الجناذيب (١٠) العيدان ، حرٌ ينضج الجلود ، ويذيب الجلود ، أيام كأيام الفرقة امتداداً ، وحر كحرّ الوجه اشتداداً ، هاجرة (١١) كالسكير الهاجم ، يحز أذيال السمائم (١٢)

وصف الشيب

ذوى (١٣) غصن شبابه ، بدت في رأسه طلائع المشيب ، أقمر ليل شبابه ، ظهرت غرة القمر ، وأومض (١٤) البرق في ليل الشجر ، رمى فاحم العود (١٥) بضده واشتعل المبيض في مسوده ، لمع ضوء فرعه ، وتفرق شمل جمعه ، علاه غباره وقائع الدهر ، بينا هو راقدٌ في ليل الشباب ، إذ أيقظه صبح المشيب ، طوى مراحل الشباب ، وأنفق عمره بغير حساب ، جاوز من الشباب مراحل ،

(١) المطر بلا رعد (٢) وجه الأرض (٣) التراب (٤) النوم (٥) حيوان برى لا يعيش الا في الجهات الشديدة الحر (٦) أوقدت (٧) نارها (٨) حيوان يستقبل الشمس ويدور معها كيفما دارت ويتلون ألوانا بحر الشمس . (٩) أذابت . (١٠) الجراد . (١١) شدة الحر عند الزوال (١٢) الرياح الحارة (١٣) ذبل . (١٤) برق ولمع (١٥) معظم شعر الرأس مما يلى الأذن

وورد من الشيب مناهل ، فَلَّ (١) الدهرُ شباته ، ومحاسن رُواته ، طار غراب شبابه ، انتهى شبابه ، وشاب أترابه ، استبدل بالأدهم (٢) الأبلق (٣) وبالغراب العَقْعَق (٤) ، استعاض (٥) من الغراب بقادمة النسر ، أسَفَرَ صبحُ المشيب ، علتُهُ أهبةُ الكبر ، نفّض جبة الصبا ، وتولى داعية الحِجَا (٦) ، الشيب زُبْدَةُ مَخْضَتِهَا الأيام ، وفضة مَخْضَتِهَا التجارب . سرى في طريق الرشد بمصباح الشيب ، الشيبُ خطام المنية ، الشيب نذير الآخرة .

وصف آلات الكتابة

الدواة - المداد - الأقلام

الدواة من أنفع الأدوات ، وهى للكتابة عتاد (٧) ، وللخاطر زناد ، غدير لا يردُّ غير الأفهام ، ولا يمتح (٨) بغير أرشية (٩) الأقلام ، غدير تفيض ينابيع الحكمة من أقطاره ، وتنشأً محب البلاغة من قراره .

مداد كسواد العين ، وسويداء القلب ، وجناح الغراب ، ولُعَاب الليل ، وألوان دُهم الخيل ، مداد ناسب خافية الغراب ، واستعار لونه شرخ الشباب (١٠) أقلام جَمَّة المحاسن ، بعيدة عن المطاعن ، أنابيب ناسبت رماح الخط . فى أجناسها ، وشاكلت الذهب فى ألوانها ، وضاهت الحديد فى لمعانها ، أقلام كأنها الأميال استواءً ، والآجال مضاءً ، بطيئة الخفى قوية القوى . قلم لا ينبؤ (١١) إذا نبت الصَّفاح ، ولا يُخْجِم (١٢) إذا أحجمت الرِّماح ، قلم يسكت واقفاً ، وينطق ساكتاً .

وصف الخطباء

جَلَوْا بكلامهم الأبصار العلية ، وشحذوا بمواعظهم الأذهان الكليّة ، ونبهوا

(١) هزم (٢) الأسود (٣) الأبيض وأصله للرخام (٤) طائر قدر الحمامة (٥) جعله عوضاً (٦) العقل (٧) ما يعده الإنسان لحوادث الدهر (٨) لا يبرح (٩) حبال الدلاء (١٠) ربعانه (١١) لا يبعد (١٢) لا يتأخر

القلوب من رقتها ، ونقلوها عن سوء عاداتها ، فشفوا من داء القسوة ، وغبابة الغفلة وداووا من العى الفاضح ، ونهجوا لنا الطريق الواضح ، خطيب لا تناله حبسة ، ولا ترتنه لكنه ، ولا تتمشى في خطابه رنة (١) ، ولا تتحيف (٢) بيانه عجمة ، ولا تعترض لسانه عقدة ، خطيب جواهر نفثاته صحاح ، وعرائس أفكاره صباح ، خطيب تزينت بدّرر ألفاظه عقود المُلح ، لا عيب فيه إلا أن لفظه عطل الياقوت والدر ، خطيب مصقع ينشر لسانه اللؤلؤ المكنون ، هو الخطيب المصقع الذى أشخص بآيات خطبه الزاجرة عيون القوم وأبكاه ، هو الخطيب المصقع الذى تتلاعب بالعقول معانيه ، ويصاغ الدر من لفظه فيه ، هو الخطيب الذى تهزله المنابر ، وتنقاد إليه كلمات السحر متسابقة ، آخذاً بعضها برقاب بعض .

وصف العلماء

بدّر العلوم اللائح ، وقطرها الغادى والرائح ، وشبيراها (٣) الذى لا يزحم ، ومنيرها الذى ينبجلى به ليلها الأسحم (٤) ، أما فنون الأدب فهو ابن بجلدتها (٥) وأخو جملتها وأبو عذرتها ، ومالك أزميتها ، تستخرج الجواهر من بُحوره ، وتحلى لمعات الطروس بقلائد سطوره ، وتآليفه عقائل أصبح الدهر من خطابها ، له بدائع مائسات (٦) الأعطاف ، بحر البيان الزاخر ، شيخ المعارف وإمامها ومن فى يديه زمامها ، لديه تنشد ضوال الأعراب ، وتوجد شوارد اللغة والإعراب ، مالك أعنة العلوم ونهاج طريقها ، والمعارف بترصيعها وتنميقها ، الناظم لعقودها الرّاقم لبُردّها ، المُجيد لإرهاقها (٧) العالم بجلالها وزفافها ، ملك رق الكتابة والإنشاء ، وتصرف فى فنون الإبداع كيف شاء ، عالم يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ،

(١) العجمة . (٢) بمعنى تنقص (٣) المثابر المواظب . (٤) الأسود .
(٥) العالم بها المتقن لها . (٦) متبخرات مائلات . (٧) لرقتها
ولطفها .

صاحب المصنفات التي دلت على وفرة اطلاعه ، وغزارة مادته ، وحسن بيانه ، لم يترك معنى مغلقاً إلا فتاح صياصيه (١) ، ولا مشكلاً إلا أوضح مبانيه .

وصف البلغاء

فلان يحولُ الكلامَ على حسب الأمانى ، ويخيطُ الألفاظ على قدود المعانى . يجتنى من الألفاظ أنوارها ، ومن المعانى ثمارها ، يعبث (٢) بالكلام ويقوده بالئين زمام ، حتى كأن الألفاظ تتحاسد في التسابق إلى خواطره ، والمعانى تتغاير في الانثيال (٣) على أنامله . بليغ نسق (٤) من جواهر كلامه أكاليل درّ ، ما لمنظومها سلك بليغ تفكُّ سهام أفكاره الزرد ، ناظم سلك البلاغة وقائد زمام البراعة ، إذا أوجز أعجز ، وإذا شاء أطل ، وأطلق من البلاغة العتال ، إذا أذكى سراج الفكر ، أضاء ظلام الأمر ، يستنبط حقائق القلوب ، ويستخرج ودائع الغيوب .

وصف الشعراء والمنشئين ومحاسن النظم والنثر

مقدِّفُ حصي القريض وجماره ، ومطلعُ شموسه وأقماره ، نشره سحر البيان ونظمه قطع الجمان ، طلعت شمس الأدب من أفق أشعاره ، وتفجرت ينباعها من خلال آثاره ، شاعر توقدت جمرات أفكاره ، شاعر عرائس أفكاره صباح ، إن نشر فالنجوم في أفلاكها ، أو نظم فالجواهر في أسلاكها ، أخذت بمجامع القلوب كلمه ، إذا كتب انتسب إليه السحر أصبح انتساب ، ونسق (٥) المعجزات نسق حساب ، وأرى البدائع بيض الوجوه كريمة الأحساب ، إن نشر رأيت بحرًا يزخر ، وإذا نظم أزرى بنظم العقود بالجواهر ، وآتى بأحسن من رقم البرود ، إذا كتب ملأ المهارق (٦) بياناً ، وأرى

(١) جمع صيغة : الحصن المنيع (٢) يلعب (٣) الانصباب (٤) نظم

(٥) نظم (٦) جمع مهرق حرير ثوب أبيض ينقى الصمغ منه ويفسل ثم يكتب فيه .

السحر عياناً . هو الكاتب الذى تحسّد أرقام الطراز سطوراً قلمه . ويود التبرُّ لو كان مداد كلمه . هو الكاتب الذى تنقاد إلى يراعه (١) دقائق المعاني صاغرةً بزمام ، نشر كنشر الورد ، ونظم كنظم العقد ، نشر كالسحر أو أدق ، ونظم كالماء أو أرق ، نشر كما تفتح الزهر ، ونظم كما تنفس السحر ، رسالة تضحك عن غرر وزهر ، وقصيدة تنطوى على جبر ودُر ، كلام كما هب نسيم السحر ، على صفحات الزهر . كتاب مطلع مطلع أهلة الأعياد ، وموقعه موقع نيل المراد ، كتاب حسبته يطير من يديّ ليخفته ، ويلطف عن حسي لقتلته ، صحائف انطوت المحاسن تحت رق منشورها ، وصدحت حمائم البلاغة على أغصان سطورها ، صحائف تنوب عن الصفائح ، وقرطيس تزف إلى الأسماع عرائس القرائح ، صحائف ألبسها الحبر أثراً من الحبر (٢) ، ودبجها (٣) صوب (٤) الفكر ، لا صوب المطر .

وصف الأمراء والأشرف

فلان من شرف العنصر الكريم ، ومعدن الشرف الصميم (٥) ، أصل راسخ . وفرع شامخ (٦) ، ومجد باذخ (٧) ، قد ركّب الله دوحته (٨) ، في قرارة المجد وغرس نبعته (٩) في منبت الفضل ، المجد لسان أوصافه ، والشرف نسب أسلافه . دوحه رسب (١٠) عرقها وبسق (١١) فرعها وطلب عودها واعتدل عمودها وفيأت ظلالها ، وتهللت (١٢) ثمارها وتفرعت أغصانها ، وبرد مقيلها (١٣) ، أمير جيشه الهمم ، دوحه مجده وريفة (١٤) الظل وريقة (١٥) . أمير لا عيب في نداءه (١٦) إلا أنه يستعبد كل حرّ . هو غرة الجمال ، وصورة

(١) أقلامه (٢) الجبريات التى تلبسها النساء المصريات اذا خرجن (٣) نقشها (٤) المطر (٥) الخالص (٦) المرتفع (٧) العالى (٨) الشجرة العظيمة (٩) الشجر أيضا (١٠) نبت (١١) ارتفع (١٢) تدلت (١٣) مكانها . (١٤) ممتدة متسعة (١٥) مورقة (١٦) عطائه وهذا نوع من أنواع البديع يسمى تأكيد المدح بما يشبه الذم كقول بعضهم :

ولا عيب في معروفهم غير انه يبين عجز الشاكرين عن الشكر
وفي الحقيقة ليس بعيب بل نهاية في المدح .

الكمال . عقد المناصب به نصيد . أميرٌ عُبِّت من شوائده نَسَمَاتُ النَّد ،
وقطرت من سلسبيل أوصافه مياهُ المجد . جامعٌ ما تنفرق من شمل الفضائل ،
ناظم ما انتثر من عقد المآثر ، أنارت به نجوم المعالي وشموسها . له شرف
باذخ تعقد بالنجوم ذوائبه . أَلَقَتْ إِلَيْهِ الرِّياسة مقاليدها (١) . وملكته
طريفها وتليدها (٢) . أميرٌ تَفَرَّعَ من دَوْحَةِ سِناء (٣) ، وتحدر من سُلالة
أكابر ، ورقاة أسرة ومناير ، مُرْتَضِعٌ نَسْرَ المجد ، ومُنْتَرَشِحٌ حِجْرَ الفضل ،
له صدر تضيق به الدُّعَاءُ (٤) ، وتنزع إليه الدَّهْمَاءُ (٥) . له في كلِّ مَكْرَمَةٍ
غُرَّةُ الإصباح . وفي كل فضيلة قادمة الجناح ، له صورة تَسْتَنْطِقُ الأفواه
بالتسبيح ، ويترقرق فيها ماءُ الكرم . وتقرأ فيها صحيفة البشر ، ينباع
الجود تتفجر من أنامله ، وربيع السماك يضحك من فواصله ، له أخلاق
خلقن من الفضل وَشَيْمٌ تشام (٦) منها بوارق المجد ، أَرَجَ (٧) الزمان بفضله ،
وعقم النساء عن الإنيان بمثله ، ماله للعفاة (٨) مباح ، وفَعْلُهُ (٩) في ظلمة
الدهر مصباح ، مناقب تشدخ (١٠) في جبينها غُرَّةُ الصباح ، وتتهادى أنبأها (١١)
وُفُود الرياح ، سَأَلَتْ عن أخباره فكأنى حركت المسك فتيقاً ، أو صَبَّحت
الروض أنيقاً (١٢) هو رائش (١٣) نبيلهم ، ونُبْعَةٌ (١٤) فضلهم ، وواسطة (١٥)
عقدهم ، له هِمَّةٌ علا جناحها إلى عنان النجم ، وامتد صباحها من شرق إلى
غرب ، هَمَّتْهُ أَبْعَدَ من مناظ (١٦) الفرقَد ، وأَعْلَى من منكب الجوزاء (١٧) ،
موضعه من أهل الفضل موضع الواسطة من العقد ، وليلة التَّمُّ من الشهر ،
بل ليلة القدر إلى مطلع الفجر ، هطلت على سحائب عنايته ، ورفرفت

- (١) مفاتيحها . (٢) حديثها وقديمها (٣) مجد ورفعة (٤) الفلاة
الواسعة (٥) جماعة الناس (٦) تنظر (٧) فاحت منه رائحة طيبة
(٨) الطالبون للعطاء (٩) بفتح الفاء : كرمه (١٠) تفاق (١١) أخبارها
(١٢) معجبا (١٣) السهم ذى الريش (١٤) الشجرة (١٥) ما تكون وسط
العقد وهي أحسنه (١٦) محل علاقته (١٧) برج في السماء

حولى أجنحة رعايته ، وقد استظهرت على جَوْرِ الأيام بعده ، واستترتُ
 من دهرى بظله ، قد غرقتنى نعمه حتى استنفدتُ شكرَ لساني ويدي ،
 وتتابعتُ نعمه تتابع القطر على القفر ، وترادفت مِنْهُ ترادف اليسر إلى
 ذوى الفقر ، له أياد قد عمّت الآفاق ، وطوقت الأعناق ، أياد قد حبستُ
 عليه الشكر ، واستعبدت له الحر ، مِنْ توالى توالى القطر ، واتسعت سعة
 البر والبحر ، وأثقلت كاهل الحر .

وصف القلم

القلم أحد اللسانين ، وهو المخاطب للغيوب ، بسرائر القلوب ، على لغات
 مختلفة من معان معقولة ، بحروف معلومة ، متباينات الصور مختلفات
 الجهات ، لِقَاحُهَا التفكير ونتائجها التدبّر ، تخرس منفردات ، وتنطق
 مُزدوجات بلا أصوات مسموعة ، ولا ألسن محدودة ، ولا حركات ظاهرة ،
 خلا قلم حَرْفٍ باريه قَطُّته ، ليتعلق المداد به ، وأَرْهَفَ جانبيه ليرُدَّ ما انتشر
 عنه إليه ، وشق رأسه ليحتبس المداد عليه ، فهناك استمد القلم بشقه ،
 ونشر فى القرطاس بخطه حروفاً أَحْكَمَهَا التفكير ، وأولى الأسماع بها الكلام
 الذى سداه العقل ولحمته اللسان ونهسته اللهوات ، وقطعته الأسنان ، ولفظته
 الشفاه ، ووَعَتْهُ الأسماع عن أنحاء شتى من صفات وأسماء ، قال البُحتري :
 طعانٌ بِأَطرافِ القوافى كأنه طعانٌ بِأَطرافِ القنا المتكسر

وقال ابن المقفع : « القلم يريد القلب : يُخبر بالخبر ، وينظر بلا نظر » .

وقال أبو ذؤلف : « القلم صائغ الكلام يفرغ ما يجمعه العلم » .

وقال الجاحظ : « الدواة منهل ، والقلم مائح ، والكتاب عطن » .

وقال سهل بن هارون : « القلم أنف الضمير ، إذا رُفِعَ أَعْلَنَ وَأَبَانَ آثاره »

وقال عمرو بن مسعدة : « الأقلام مطايا الفِطن » .

وقال المأمون : « لله دَرَّ القلم كيف يحُوك وَشَى المملكة » .

- وقال جالينوس : « القلم طبيب المنطق » .
- وقال أحمد بن عبد الله : « القلم راقِدٌ في الأفئدة ، مُستيقظٌ في الأفواه »
- وقيل : « عُقول الرجال تحت أَقلامها » .
- وقال آخر : « القلم أَصمٌ يسمع النَّجوى ، وأَخرسٌ يفصح بالدعوى ،
وجاهلٌ يَعْلَمُ الفَحوى » .
- وقال أيضاً أحمد بن يوسف : « عبرات الأقلام في حدود كتبها أَحسن
من عِبَرَات الغواني في صُحُون خدودها » .
- وقال أيضاً : « القلم لسان البصر يُناجيه بما استتر عن الأسماع ؛ إذا نَسَج
حلله ، وأودعها حكمه » .
- وقال العتابي : « الأقلام مطايا الأذهان » .
- وقال عبد الحميد : « القلم شجرةٌ ثمرتها الألفاظ ، والفكر بحرٌ لؤلؤه الحكمة »
- وقيل : « بَرِيّ القلم تروى القلوب الظَّمِئة » .
- وقال ابن أبي دواد : « القلم سفير العقل ، ورسوله الأنبل ، ولسانه
الآطول ، وترجمانه الأفضل » .
- وقال أيضاً : « القلم الدنيا والآخرة » .
- وقال آخر : « بَنَوُ القلم تصوب الحكمة » .
- قال ابن ميثم : « من جلاله شأن القلم أنه لم يكتب لله تعالى كتاب قط . إلا به »
- وقالوا : « القلم قَسيم الحكمة » .
- وقال يحيى بن خالد البرمكي : « الخط صورة روحها البيان ، ويدها
السرعة وقدمها التسوية ، وجوارحها معرفة الفصول » .
- ووصف أحمد بن إسماعيل خطأً حسناً فقال : « لو كان نباتاً لكان زَهراً
ولو كان معدناً لكان تَبيراً ، أو مَدَاقاً لكان حلواً ، أو شراباً لكان صفواً » .

وقال إقليدس : « الخط. هندسة رُوحانيَّة ، وإن ظهرت بآلة جسمانيَّة » .
أخذَه النَّظَام فقال : « الخط. أصل في الروح وإن ظهر بالجسد » .
وقال بعض الملوك اليونانية : « أمر الدين والدُّنيا تحت شيئين :
قلم وسيف ، والسيف تحت القلم » .
وقال أفلاطون : « الخط. عَقَالُ العقل » .

وقال أرسططاليس : « القلم العَلَّةُ الفاعلة والمداد العَلَّةُ الهيولانيَّةُ ،
والخط. العَلَّةُ الصُّوريَّةُ ، والبلاغة العَلَّةُ السامية » .

سئل بعض الكُتَّاب عن الخط. : متى يستحق أن يُوصف بالجودة ؟
فقال : « إذا اعتدلت أقسامه ، وطالت أَلْفه ولأمه ، واستقامت سطورُه ،
وضاهى صعوده حدوره ، وتفتحت عيونه ، ولم تشبه راءه نونه ، وأشرق
قرطاسه ، وأظلمت أنفاسه ، ولم تختلف أجناسه ، وأسرع إلى العيون تصوُّره ،
وإلى العقول ثمره ، وقُدِّرَتْ فُصُوله ، واندمجت وصوله ، وتناسب رقيقه
وجليله ، وخرج عن نمط. الوراقين ، وبعد عن تصنُّع المحبرين ، وقام لكاتبه
مقام النسبة والخلية » .

وقالوا : « القلم أحدُ اللُّسانيين ، والعمُّ أحدُ الأبوين ، والتَّثْبُتُ أحدُ
العنوين ، والمَظَلُّ أحدُ المَنعِين ، وقَلَّةُ العيال أحدُ اليَسَارَيْن ، والقناعة
أحدُ الرِّزْقَيْن ، والوعد أحدُ الضُّرْبَيْن ، والإصلاح أحدُ الكُشْيَيْن ، والراوية
أحدُ الهاجيين ، والهجر أحدُ الفراقين ، واليأسُ أحدُ النُّجْحَيْن ، والمزاح
أحدُ السبابين » .

وقال آخر : « مَسَاقُ الدُّنيا بسين وقاف فيقال سق » يريد السيف والقلم
وقال آخر : « القلم لسانُ اليد » .

حدثني يحيى البحتري قال : حدثنا أبي عن ابن الترخمان - وكان
الوائقُ أنفذه إلى ملك الروم بهدايا - قال : وافقت لهم عيداً ، فرأيتهم قد
علَّقوا على باب بيعتهم كتباً بالعربية منشورة ، فسألت عنها ، فقيل :

هذه كُتِبَ المأمون بخط. أحمد بن أبي خالد الأحول ، استحسِنُوا صُورَهُ
وتقديره فجعلوه هكذا . فحدَّثْتُ أَنَا بهذا الحديث أَبَا عُبَيْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ بْنَ
دَاوُدَ بْنِ الْجَرَّاحِ فَقَالَ : هَذَا حَقٌّ ، قَدْ كَتَبَ سَلِيحُ بْنُ وَهْبٍ كِتَابًا إِلَى مَلِكِ
الرُّومِ فِي أَيَّامِ الْمُعْتَمِدِ فَقَالَ : مَا رَأَيْتُ لِلْعَرَبِ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْ هَذَا الشَّكْلِ ،
وَلَسْتُ أَحْسِبُهُمْ عَلَى شَيْءٍ حَسَدَى إِيَّاهُمْ عَلَيْهِ ، وَالطَّاغِيَةُ لَا يَقْرَأُ الْعَرَبِيُّ ،
وَلِنَا رَاقَهُ اعْتِدَالُهُ وَهَنْدَسَتُهُ وَحُسْنُ مَوْقِعِهِ وَمَرَاتِبِهِ .

وَقَالَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ لِأَعْرَابِيٍّ : انْظُرْ ، كَمْ عَلَى هَذَا الْمِيلِ مِنْ عَدَدِ
«الْأَمِيَالِ» ، وَكَانَ الْأَعْرَابِيُّ لَا يَحْسُنُ أَنْ يَقْرَأَ فَمَضَى وَنَظَرْتُمْ عَادَ فَقَالَ : رَأَيْتُ
كَرَأْسَ الْمَحْجَنِ مُتَّصِلًا بِحَلْقَةٍ صَغِيرَةٍ ، تَتْبَعُهُ ثَلَاثَةُ كَاطِبَاءِ الْكَلْبَةِ ، تَفْضِي
إِلَى هَنَةِ كَأَنَّهَا رَأْسُ قِطَاةٍ بَلَا مَنْقَارٍ . فَفَهِمَ بِوَصْفِهِ أَنَّهَا خَمْسَةٌ .

حَدَّثَنِي يَعْقُوبُ بْنُ بَيَانَ الْكَاتِبُ قَالَ : قَالَ بَعْضُ الْكُتَّابِ « الْقَلَمُ الرَّدِيُّ
كَالْوَلَدِ الْعَاقِ » .

وَقَالُوا : « رَدَاءَةُ الْخَطِّ . إِحْدَى الزَّمَانَتَيْنِ ، كَمَا أَنَّ حَسَنَهُ إِحْدَى الْبَلَاغَتَيْنِ »
حَدَّثَنِي طَلْحَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ :

اعْتَذَرَ رَجُلٌ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ مِنْ شَيْءٍ بَلَغَهُ عَنْهُ ، فَرَأَى
خَطَّهُ قَبِيحًا ، فَوَقَعَ فِي رَقْعَتِهِ : « أَرَدْنَا قَبُولَ عُذْرِكَ ، فَاقْتَطَعْنَا عَنْهُ مَا قَابَلْنَا
مِنْ قَبِيحِ خَطِّكَ وَلَوْ كُنْتَ صَادِقًا فِي اعْتِزَارِكَ لَسَاعَدْتِكَ حَرَكَةُ يَدِكَ ، أَوْ مَا عَلِمْتَ
أَنَّ حَسْنَ الْخَطِّ . يَنَاضِلُ عَنْ صَاحِبِهِ بِوُضُوحِ الْحُجَّةِ ، وَيُمْكِّنُ لَهُ دَرْكَ الْبَغْيَةِ » !
وَكَانَ أَبُو هَفَّانَ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ الْمُهْتَزِمِيٍّ مِنْ أَقْبَحِ النَّاسِ خَطًّا
وَكَانَ يَبْتَدِئُ الْخَطَّ . مِنْ رَأْسِ الْوَرَقَةِ وَيَعُوجُ سَطُورُهُ حَتَّى يَبْقَى آخِرُ سَطْرِ
فِي الْوَرَقَةِ كَلِمَةً وَاحِدَةً فَرْتَاهُ يَحْيَى بْنُ عَلِيٍّ فَقَالَ فِي مَرثِيَّتِهِ :

مَعَ خَطِّ . كَأَنَّهُ أَرْجُلُ الْبَطِّ . أَوْ الْحَطِّ . فِي ذَوِي الْفَتْيَانِ !

قَالُوا : « رَدَاءَةُ الْخَطِّ . زِمَانَةُ الْأَدِيبِ » .

نظر عبد الله بن طاهر إلى خط. بعض كتابه فلم يرضه ، فقال : « نَحْوُ هذا عن مرتبة الديوان فإنه عليل الخط . ، ولا يؤمن أن يُعدى غيره » .

أنشدني العنزي بن علي في قبح الخط :

جزعت من قُبْح خطي وفيه وضعي وحطّي
رجعتُ من بعد حذقٍ إلى تعلم حطّي

حدثنا أبو العباس الرّيعي قال حدثنا الطلحي قال حدثني أحمد بن إبراهيم قال : دخل على الرّشيد أعرابي فأنشده أرجوزة - وإسماعيل بن صبيح يكتب بين يديه كتاباً ، وكان أحسنَ النَّاسِ خطّاً ، وأسرعهم يداً - فقال الرّشيد للأعرابي : صف هذا ، فقال له : ما رأيْتُ أطيّش من قلمه ، ولا أثبت من حلمه ، ثم قال :

له قلمٌ بُؤسى ونعمى كلاهما سحابته في الحالتين درور
يناجيك عما في ضميرك لحظه ويفتح باب النّجح وهو عسير
فقال الرّشيد : « قد وجب لك يا أعرابي عليه حقٌّ ، هو يقضيك إياه ، وحق علينا فيه نحن أن نقوم به ، ادفعوا إليه دية الحر » فقال له : « على عبدك دية العبد » .

جاء يوماً عبد الله بن المعتز في المسجد الجامع إلى أبي العباس أحمد ابن يحيى ليسلم عليه فقام له وأجلسه مكانه ، فداس ابنُ المعتز قلماً فكسره ، فلما جلس قال لمن حوله :

لكفى ثأراً عند رجلى لأنّها أثارت قتيلاً ما لأعظمه جبرُ

فعجب الناس من سرعة بديته .

وأهدى رجلى إلى إبراهيم بن المدبر قلماً وكتب إليه :

قد وجهت إليك أعزك الله بمفاتح العلوم ، بادٍ جمالها ، تام كمالها ، فهي كما قال الشاعر :

ليس فيها ما يقالُ له كملت لو أن ذا كَمَلًا

كلّ جزءٍ من محاسنها كائنٌ من حسنه مثلاً
وقال أحمد بن إسماعيل :

وإذا نَمِمتُ بَنانَكَ خطأً مُعرباً عن إصَابَةِ سَدَادٍ

عجبَ الناسَ من بياضِ مَعَانٍ يُجَنِّني من سوادِ ذاكِ المِدَادِ

حدثنا أحمد بن يزيد المهلبي قال حدثني أبو هفان ، قال سألت وراقاً

عن حاله فقال :

«عَيْشِي أَضِيقُ من مجبرةٍ ، وجِسْمِي أَدْقُ من مِسْطَرَةٍ ، وَجَاهِي أَرْقُ
من الزجاج ، وَوَجْهِي عند النَّاسِ أَشَدُّ سَوَاداً من الحبر ، وَخَطِّي أَحَقَرُ من
شَقِّ القلم ، وَبَدَنِي أضعفُ من قصبة ، وَطَعَامِي أَمَرُّ من العَفْصِ ، وَسُوءُ
الحالِ أَلْزَمُ لي من الصَّبغِ » فقلتُ له عَبَّرْتَ عن بِلَاءٍ بِبِلَاءٍ (١) .

وُسئِلَ وراقٌ عن حاله فقال :

وإذا كنت بالليل لا أَكْتُبُ وطُولُ النهارِ أَنَا أَلْعَبُ

فَطَوَّراً يُبْطِئُني مَأْكُلٌ وطوراً يَبْطِئُني مَشْرَبٌ

فإنَّ دام هذا على ما أرى فبِيتي أَوَّلُ ما يَخْرُبُ

وصف الكتاب

الكتابُ نَعَمَ الأُنيسِ في ساعةِ الوَحْدةِ ، ونَعَمَ المَعْرِفَةُ في دارِ الغُرْبَةِ ،
ونَعَمَ القَرَيْنِ والدَّخِيلِ ، ونَعَمَ الزَّائِرُ والنَّزِيلِ ، وعَاءٌ مُلِئٌ علماً وظرفاً ، وإناءٌ
مُملِئٌ مَزْحاً وجدّاً ، وَحَبْدًا بستانٍ يحْمِلُ في خِرجٍ ، وروضٍ يَقلِبُ في حِجْرٍ ،
هل سمعتُ بشجرةٍ تَوْتِي أَكلها كلَّ حينٍ بألوانٍ مختلفةٍ وطعومٍ متباينةٍ ؟
هل سمعتُ بشجرةٍ لا تَذَوِي وزهر لا يَتَوَي (٢) وَثَر لا يَفْنِي . ومن لك بجلِيس

(١) ومثله قول قائلهم :

تَبالِرْزُقُ نازلٌ من شَقِّ هَذِي القَصْبَةِ
تَبالِه ، تَبالِه ما أَتَعِبُه ، ما أَتَعِبُه

(٢) يتوى : يهلك .

يفيد الشيء وخلافه ، والجنس وضده ، ينطق عن الموقى ويترجم عن الأحياء ،
 إن غضبت لم يغضب وإن عربت لم يصخب (١) ، أكتم من الأرض وأنم
 من الريح وأهوى من الهوى ، وأخدع من المني ، وأمتع من الضحى ، وأنطق
 من سحبان وائل ، وأعبي من باقل (٢) هل سمعت بعلم تحلى بخلال كثيرة
 وجمع أوصافاً عديدة ، عربى فارسى يونانى هندی سندی رومى ، إن وعظ-
 أسمع ، وإن ألهى أمتع ، وإن أبكى أدمع وإن ضرب أوجع ، يفيدك ولا يستفيد
 منك ، ويزيدك ولا يستزيد منك إن جدّ فعبرة ، وإن مزح فزهوة . قبر
 الأسرار ومخزن الودائع ، قيد العلوم وينبوع الحكم ، ومعدن المكارم ومؤنس
 لايزام . يفيدك علم الأولين ، ويخبرك عن كثير من أخبار المتأخرين .
 هل سمعت فى الأولين أو بلغك أن أحداً من السالفين جمع هذه الأوصاف
 مع قلة مؤنته ؟ وخفة محمله ، لا يرزؤك (٣) شيئاً من دنياك ، نعم المدخر
 لعدة (٤) ، والمشتغل والحرفة ، جليس لا يطريك (٥) ورفيق لا يملك ،
 يطيعك فى الليل طاعته فى النهار ، ويطيعك فى السفر طاعته فى الحضر .
 إن أطلت النظر إليه أطل إمتاعك (٦) وشحذ (٧) طباعك ، وبسط لسانك
 وجود بيانك ، وفخم ألفاظك ، إن ألفته خلد على الأيام ذكرك ، وإن
 درسته رفع فى الخلق قدرك ، وإن نعتته نوه عندهم باسمك ، يُقعد العبيد
 فى مقاعد السادات ، ويُجلس السوق فى مجالس الملوك ، فأكرم به من
 صاحب ، وأعز به من موافق .

(١) لم يصوت (٢) رجل من اباد يضرب به المثل فى العى ، ومن عيه انه
 اشترى طيباً فجعله على عاتقه، فسئل عن ثمنه ، فحل عنه يديه وفتح أصابعه
 وأشار بها ، وأخرج لسانه ، يريد أنه بأحد عشر درهما ، ولم يلهم أن يخبر
 عن سره بلسانه ، فصار عيه مثلاً .

(٣) لا ينقصك (٤) ما يعده الانسان لحوادث الدهر من سلاح وغيره

(٥) لا يمدحك

(٦) انتفاعك

(٧) أحدها وأقواها

وصف عاصفة لجلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ .

أتى عارض في ليلة الجمعة التاسعة من جمادى الآخرة ، وكانت فيه ظلماتٌ متكاثفة وبروق خاطفة ورياح عاصفة ، فقويت أهويتها ، واشتدَّ هبوبها فتدافعت لها أعنةٌ مُطلقات ، وارتفعت لها صواعقٌ مُصعقات ، فرجفت لها الجُدران واصطفقت ، وتلاقت على بعدها واعتنقت ، وثارَ بين السماء والأرض عجاجٌ فقيل لعلَّ هذه على هذه أطبقت .

وتحسب أنَّ جهنمَ قد سالَ منها وادٍ وعدا منها عادٍ ، وزاد عصف الرياح إلى أن انطفأت مصابيح النجوم ، ومزقَ أديمُ السماء ومُحى ما فوقه من الرقوم ، لا عاصِمَ من الخطف للأبصار ، ولا ملجأَ من الخطب إلا معاقل الاستغفار ، وفرَّ الناس نساءً ورجالاً ، ونفروا من دُورهم خفافاً وثقالاً ، لا يستطيعون حيلة ، ولا يهتدون سبيلاً . فاعتصموا بالمساجد الجامعة ، وأذعنوا للمنازلة بأعناق خاضعة ، ووجوه عافية ، ونفوس عن الأهل والمال سالية . ينظرون من طرف خفيٍّ ، ويتوقعون أيَّ خطبٍ جلى ، قد انقطعت من الحياة عُلقهم وعميت عن النجاة طرقهم ، ووقعت الفكرة فيما هم عليه قادمون ، وقاموا إلى صلاتهم وودُّوا أن لو كانوا من الذين هم عليها دائمون . إلى أن أذن الله في الرُكود وأسعف الهاجدين بالهجوم .

وأصبح كلُّ يسلمٍ على رفيقه ، ويُهْنئُه بسلامة طريقه ، ويرى أنه قد بُعثَ بعدَ النفخة ، وأفاق بعدَ الصيحة والصرخة ، وأنَّ الله قد ردَّ له الكرة وأدبُه بعدَ أن كاد يأخذُه على غرة ؛ ووردت الأخبار بأن كسرت المراكب في البحار ، والأشجار في القفار ، وأُتلف خلقٌ كثير من السفار . ومنهم من فرَّ فلم ينفعه الفرار .

وصف العلم لبدیع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ

العلم شئٌ بعيد المرام ، لا يصادُ بالسَّهام ، ولا يقسم بالأزلام (١) ، ولا يرى في المنام ، ولا يضبط. باللجام ، ولا يكتبُ للثام ، ولا يُورثُ عن الآباء والأعمام . وزرع لا يزكو (٢) إلا متى صادفَ من الحزم ثرى طيباً ، ومن التوفيق مطراً صيباً ، ومن الطبع جواً صافياً ، ومن الجهد رَوْحاً (٣) دائماً ، ومن الصبر سُقياً نافعاً .

وَعَرَضُ لا يصاب إلا بافتراش المدر (٤) ، واستِناد الحجر ، ورد الضجر ، وَرُكوب الخطر ، وإدمان السَّهر ، واصطحاب السَّفر ، وكثرة النَّظر ، وإعمال الفكر .

وصف رجل لخصمه

كان أحمدُ بن يوسف (٥) مُنصرفاً عن غَسَّان بن عباد ، وجرت بينهما هنات (٦) بحضرة المأمون ، ثم قال المأمون يوماً لخاصة أصحابه : « أخبروني

(١) الأزلام : جمع زلم - بفتح الزاي أو ضمها مع فتح اللام - وهي سهام لا نصل لها ولا ريش . كان العرب إذا أرادوا القمار أحضروا جزورا فنحروها وقسموا لحمها الى ثمانية وعشرين قسما ، ثم أتوا بعشرة أزلام ، فرسموا على واحد منها خطا ، وعلى الثاني خطين ، وعلى الثالث ثلاثة ، وهكذا الى السابع ، فيكون عليه سبعة وهو المسمى بالقدح المعلق ، وتبقى ثلاثة غفلا لا يرسم عليها شيء ، ثم يضعون الجميع في خريطة ويدخل رجل يده فيها فيخرج زلما باسم واحد من المقامرين ، فان كان مرسوما له عليه شيء أخذ من أقسام اللحم بقدره ، وان كان غفلا غرم ثمن الجزور . والمقصود من هذه العبارة أن العلم لا ينال بطريق البحث والمصادفة ، كما ينال اللحم المقسوم .

(٢) يزكو : ينمو ويطيب . (٣) الروح - بفتح فسكون - نسيم الريح .

(٤) المدر : قطع الطين اليابس ، وافترش المطر : نام عليه

(٥) كاتب بليغ من كتاب المأمون ، وكان بارعا في الرسائل ، ويكنى : ابا

جعفر (٦) الهنات : جمع هنة ، وقد تجمع على هنوات ، والمراد : أمون

عن غسان بن عباد ، فإنني أريده لأمر جسيم » وكان قد عزم على تقليده
 السند . فتكلم كل بما عنده في مدحه ، فقال أحمد بن يوسف : هو
 يا أمير المؤمنين رجل محاسنه أكثر من مساويه ، لا يتطرق (١) إلى أمر
 إلا تقدم فيه ، ومهما تخوف عليه فإنه لن يأتي أمراً يعتذر منه . قسم أيامه
 بين أفعال الفضل ، فجعل لكل خلق نوبة (٢) إذا نظرت في أمره لم تدر
 أي حالاته أعجب : أما هداه إليه عقله ؟ أم ما اكتسبه بأدبه ؟ فقال له
 المأمون : لقد مدحته على سوء رأيك فيه . قال : لأني في أمير المؤمنين
 كما قال الشاعر :

كفى ثمناً لما أسديت أني نصحتك في الصديق وفي عدائي
 وإنني حين تندبني لأمر يكون هواك أغلب من هوائي (٣)

وصف أبي دلف لعبد الله بن طاهر

دخل أبو دلف (٤) على المأمون بعد الرضا عنه ، فسأله عن عبد الله
 ابن طاهر (٥) فقال : خلفته يا أمير المؤمنين أمين غيب ، نصيح جيب (٦)
 أسداً عاتياً قائماً على برائته ، يسعد به وليك ، ويشقى به عدوك ، رخب

(١) تطرق الى الأمر : ابتغى اليه طريقاً .

(٢) النوبة : الفرصة والدولة والمرة ، جمعها نوب كعرف .

(٣) يريد هوى ، ومدته للضرورة .

(٤) أبو دلف - كعمر - هو القاسم بن عيسى البكري من قواد المأمون ثم
 المعتصم ، وكان جواداً شجاعاً ، وفيه يقول الشاعر :

انما الدنيا أبو دلف بين ناديه ومحتضره
 فاذا ولي أبو دلف ولت الدنيا على أثره

توفي سنة ٢٢٦ هـ .

(٥) هو عبد الله بن طاهر بن الحسن ، من كبار ولاة المأمون ولي مصر مدة
 سنتين تقريباً . قال صاحب كتاب أدب الخواص : ان البطيخ العبد لاوى
 الموجود بالديار المصرية منسوب اليه ، اهـ .

(٦) يقال : هو ناصح الجيب ، أي القلب والصدر .

الفداء لأهل طاعتك ، ذا بأسٍ شديد لمن زاغ عن قصد محجَّتكَ ، قد فقَّهه الحزم ، وأيقظه العزم ، فقام في نحر الأمور على ساق التشمير ، يبرمها بأيَّده (١) وكيده ، ويفلُّها بحده وجِدِّه ، وما أشبهه في الحرب إلا بقول العباس بن مرداس :

أَكْرُ على الكتيبة لا أبالي أحتفي كان فيها أم سواها
فقال قائل : ما أفصحه على جبلتيَّة ! فقال المأمون : إن بالجبل (٢)
قوماً أمجاداً (٣) كراماً أنجاداً (٤) ، وإنهم ليؤفون السيف حظه يوم
النزال ، والكلام حقه يوم المقال .

وصف أعرابي لرجل

وصف أعرابي رجلاً فقال :

إِنْ سَأَلَ أَلْحَفَ ، وَإِنْ سُئِلَ سَوَّفَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا صَنَعَ
أَتْلَفَ ، وَإِذَا هَمَّ بِالْفِعْلِ الْجَمِيلِ تَوَقَّفَ ، يَنْظُرُ بِنَظَرِ الْحَسُودِ ، وَيُعْرِضُ
إِعْرَاضَ الْحَقُودِ ، بَيْنَمَا هُوَ خَلٌّ وَدُودَ ، إِذَا هُوَ خَلٌّ وَدُودَ ، فَنَاوَهُ شَاسِعَ ،
وَضَيْفَهُ جَائِعَ ، وَشَرَّهُ شَائِعَ ، وَسَرَّهُ ذَائِعَ ، وَلَوْنُهُ فَاقِعَ (٦) ، وَجَفَنَهُ دَامِعَ ،

(١) الأيد : القوة .

(٢) الجبل . بلاد بين أذربيجان وعراق العرب وخوزستان وبلاد الديلم .

(٣) الأمجار - جمع ماجد أو مجيد ، كإشهاد في شاهد وشهيد - والماجد والمجيد : الحسن الخلق السمع .

(٤) الاتجاد - جمع نجد بكسر الجيم أو ضمها - وهو الشديد البأس ، ومن كلام علي : أما بنو هاشم فأنجاد أمجاد .

(٥) فناء البيت : الساحة أمامه ، وجمعه أفنية والشاسع : البعيد ، والجملة كناية عن أنه بخيل ، لأن من عادة البخيل عندهم أن يبني خباءه بعيداً عن الحى حتى لا يقصد ، قالت الفارعة :

ولا يحل إذا ما حل منتنيا يخشى الرزية بين الماء والبادي
(٦) الفاقع : الشديد الصفرة ، وربما أكد به الأبيض .

ودياره بلاقع ، رَدِيءُ الْمَنْظَرِ ، سَيِّئُ الْمَخْبَرِ ، يَبْخُلُ إِذَا أَيْسَرَ ، وَيَهْلَعُ (١) إِذَا أَعْسَرَ ، وَيَكْذِبُ إِذَا أَخْبَرَ ، إِنَّ عَاهِدَ غَدَرَ ، وَإِنْ خَاصَمَ فَجَرَ ، وَإِنْ خُوطِبَ نَفَرَ .

وصف الإمام العادل

كتب عُمرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ لَمَّا وَلِيَ الْخِلَافَةَ إِلَى الْحَسَنِ ابْنِ أَبِي الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ ، أَنْ يَكْتُبَ إِلَيْهِ بِصِفَةِ الْإِمَامِ الْعَادِلِ . فَكُتِبَ إِلَيْهِ الْحَسَنُ :

اعلم يا أمير المؤمنين أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ الْإِمَامَ الْعَادِلَ قَوَامَ كُلِّ مَثَلٍ ، وَقَصْدَ كُلِّ جَائِرٍ ، وَصَلَاحَ كُلِّ فَاسِدٍ ، وَقُوَّةَ كُلِّ ضَعِيفٍ ، وَنِصْفَةَ كُلِّ مَظْلُومٍ ، وَمَفْزَعَ كُلِّ مُلْهُوفٍ . وَالْإِمَامُ الْعَادِلُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَالرَّاعِي الشَّفِيقِ عَلَى إِبِلِهِ ، الرَّفِيقِ الَّذِي يَرْتَادُ لَهَا أَطْيَبَ الْمَرَاغَى ، وَيَذودُهَا عَنْ مَرَاتِعِ الْهَلَكَةِ ، وَيَحْمِيهَا مِنَ السَّبَاعِ ، وَيَكْنُفُهَا مِنْ أَذَى الْحَرِّ وَالْقَرِّ . وَالْإِمَامُ الْعَادِلُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، كَالْأَبِّ الْحَانِي عَلَى وَلَدِهِ . يَسْعَى لَهُمْ صَغَارًا ، وَيُعَلِّمُهُمْ كِبَارًا ، يَكْتَسِبُ لَهُمْ فِي حَيَاتِهِ وَيَدْتَخِرُ لَهُمْ بَعْدَ مَمَاتِهِ . وَالْإِمَامُ الْعَادِلُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، كَالْأُمِّ الشَّفِيقَةِ ، الْبِرَّةِ الرَّفِيقَةِ بَوْلَدِهَا . حَمَلَتْهُ كَرْهًا ، وَوَضَعَتْهُ كَرْهًا ، وَرَبَّتْهُ طِفْلًا ، تَسْهَرُ بِسَهْرِهِ ، وَتَكُنُّ بِسُكُونِهِ ، تُرْضِعُهُ تَارَةً ، وَتَقْطَعُهُ أُخْرَى ، وَتَفْرَحُ بِعَافِيَتِهِ ، وَتَغْنَمُ بِشِكَايَتِهِ . وَالْإِمَامُ الْعَادِلُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَصِيَّ الْيَتَامَى ، وَخَازِنُ الْمَسَاكِينِ . يُرَبِّي صَغِيرَهُمْ وَيُحْمِلُونَ كَبِيرَهُمْ ، وَالْإِمَامُ الْعَادِلُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، كَالْقَلْبِ بَيْنَ الْجَوَانِحِ . تَصْلُحُ الْجَوَانِحُ بِصَلَاحِهِ ، وَتَفْسُدُ بِفَسَادِهِ ، وَالْإِمَامُ الْعَادِلُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ . هُوَ الْقَائِمُ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ عِبَادِهِ ، يَسْمَعُ كَلَامَ اللَّهِ

(١) الهلع : أشد الجزع .

وَيُسَمِّعُهُمْ ، وَيَنْظُرُ إِلَى اللَّهِ وَيُرِيهِمْ ، وَيَنْقَادُ إِلَى اللَّهِ وَيَقُودُهُمْ - فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملّكك الله كعبد ائتمنه سيّده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال ، وشرّد العيال ، فافقر أهله وفرّق ماله .

واعلم يا أمير المؤمنين أنّ الله أنزل الحُدُودَ لِيُزَجَرَ بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا أتاها من يليها ؟ ! وأنّ الله أنزل القصاصَ حياةً لعباده ، فكيف إذا قتلهم من يقتص منهم ؟ ! واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلة أشياعك عنده ، وأنصارك عليه ، فتزوّد له ، ولما بعده من الفزع الأكبر .

واعلم يا أمير المؤمنين ، أنّ لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه ، يطول فيه ثوائك ، ويفارقك أحباؤك ، يُسلمونك في قعره فريداً وحيداً ، فتزوّد له ما يصحبك ، يَوْمَ يَفِرُّ المُرءى من أخيه ، وأُمّه وأَبِيه وصاحبته وبنيه - واذكر يا أمير المؤمنين ، إذا بُعِثَ ما في القبور ، وحُصِّلَ ما في الصدور ؛ فالأسرار ظاهرة ، والكتاب لا يُعَادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إِلَّا أحصاها - فالآن يا أمير المؤمنين وأنت في مهل قبل حلول الأجل ، وانقطع الأمل - لاتحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تُسلط المستكبرين على المستضعفين ، فإتّهم لا يرقبون في مؤمن إِلَّا ولا ذمّة ، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك ، ولا يَعْرِتُكَ الذين يتنعمون بما فيه بُؤسك ، ويأكلون الطيبات في دُنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك ، ولا تنظر إلى قُدْرَتِكَ اليوم ، ولكن انظر إلى قُدْرَتِكَ غداً ، وأنت مأسورٌ في حبائل الموت ، وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبیین والمرسلين ، وقد عنت الوجوه للحى القيوم . إني يا أمير المؤمنين ، وإن لم أبلغ بعظي ما بلغه أولو النهى من

قبل فلم آلك شفقةً ونُصحاً ، فأنزل كتابي إليك كمدأوى حبيبه ،
يسقيه الأدوية الكريمة ، لما يرجو له في ذلك من العافية والصحة .

وصف عمرو بن العاص مصر لسيدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب
مصر تربةً غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر (١) ،
يَخطُ وسطها نهر ميمون الغدوات ، مبارك الروحات ، يجري بالزيادة
والتقصان كجرى الشمس والقمر ، له أوان تظهر به عُيون الأرض وينابيعها ،
حتى إذا أصلح عجاجه ، وتعظمت أمواجه ، لم يكن وصول أهل القرى
إلى بعض إلا في خفاف القوارب (٢) وصغار المراكب ، فإذا تكاملت زيادته
نكص (٣) على عَقبيه كأول ما بدأ في شدته ، وطما (٤) في حدته ، فعند
ذلك يخرج القوم ليحرثوا بطن أوديته وروابه فيبذرون الحب ويرجون
الثمار من الرب ، حتى إذا أشرق وأشرف ، سقاه من فوقه الندى ، وغذاه
من تحته الثرى ، فعند ذلك يدُرُ حلابه ، ويغنى ذبابه - فبينما هي يا أمير
المؤمنين درة بيضاء ، إذا هي عنبرة سوداء ، فإذا هي زبرجدة خضراء ،
فتبارك الله الفعال لما يشاء .

وصف حرب لأبي منصور الثعالبي النيسابورى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ
عند ما دارت رَحا الحرب ، صمَّتْ الألسنة ، ونطقت الأسنَّة ،
وخطبت السيوف على منابر الرقاب ، وأقدمت الرماح على الخطط. الصَّعاب ،
وتلاصقت القنا والقنابل (٥) ، وتعانقت الصَّوارم (٦) والمناصل ، وبلغت
القلوب الحناجر ، وأدركت السيوف المناحر ، وضاق المجال ، وتحكمت

(١) أى عشر ليال ، لأن عادة العرب السير في الليل .
(٢) السفن الصغيرة (٣) رجع (٤) ارتفع
(٥) القنا : الرماح ، والقنابل : جمع قنبل ما بين الخمسين فصاعداً من
الخيول (٦) السيوف القاطعة ، وكذا المناصل

الآجال ، فلا ترى إِلَّا رُمُوساً تُنْدَرُ (١) وَدِمَاءٌ تَهْدُرُ ، وأعضاء تتطاير وتتناثر ،
وأجساماً تتزايل وتتايل حتى ثملت الرِّمَاحُ من الدِّمَاءِ ، فتعثرت في النحور ،
وتكسرت في الصدور ، فرجعوا الأعداء من جوانبهم ، وتمكّنوا من فض
مواكبهم .

وصف المطر شعراً لأبى الفضل الميكالى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ

مع مقدمة لعمر بن على المطوعى فى وصف ذلك المطر نثراً

حكى عمر بن على المطوعى قال : رأى الأمير السيد أبو الفضل عبد الرحمن
ابن أحمد أدام الله عزّه أيام مُقامِهِ بجُوفين (٢) أَن يطالع قرية من قرى
ضياعه (٣) تدعى «بجباب» على سبيل التنزه والتفرُّج ، فكنت فى جملة من
استصحبه إليها من أصحابه ، واتفق أَن وصلنا والسماء مُصحية (٤) ، والجو
صاف ، لم يُطرز ثوبه بعلم الغمام (٥) والأفق فيروزج لم يعبق به كافور
السحاب (٦) . فوق الاختيار على ظل شجرة باسقة الفروع (٧) ، مُتسعة
الأوراق والغصون ، قد سترت ما حوَالِها من الأرض طولاً وعرضاً ،
فنزّلنا تحتها مُستظّلين بِسَمَاوَةِ أَفْئانها (٨) مُستترين من وهج الشمس
بِستارة أغصانها (٩) ، وأخذنا نتجاذب أذيال المذاكرة (١٠) ، ونتسالب
أهداب المناشدة والمحاورة (١١) ، فما شَعُرْنَا بالسماء إِلَّا وقد أَرَعَدَتْ

-
- (١) تسقط (٢) كورة بخراسان ، وبلدة بسرخس من بلاد فارس .
(٣) والضياع : جمع ضيعة ، وهى العقار والأرض المغلة (٤) لا غيم
فيها (٥) عبارة عن خلو الجو من السحاب (٦) أى لونه مثل الفيروزج
وهو الزرقة ، ولم يعبق به : لم يلصق به ، والكافور : طيب يستخرج من
شجر كبير ، ولون هذا الطيب يصير أبيض بعد عناية تعمل فيه . والمعنى :
أنه لا يرى شئ من السحاب فى الأفق (٧) طوليتها (٨) الأفنان : الغصون ،
وسماوتها : يعنى أوراقها العريضة المتلاحمة تلاحماً يجعلها تشبه السقوف
(٩) وهج الشمس : شدة حرها وتوقدها
(١٠) عبارة عن تذاكرهم
(١١) عبارة عن تناشدهم الأشعار وتحاور بعضهم مع بعض تحاوراً أدبياً

وأبرقت (١) وأظلمت بعدما أشرقَتْ . ثم جادت بنظر كافؤاهِ القرب . فأجادت (٢)
وحكت أذامل الأجواد ، بل أوفت عليها وزادت (٣) ، حتى كاد غيثها يعود عيشاً (٤)
وهم وبلها أن يستحيل ويلا (٥) فصبرنا على أذاها وقلنا سحابة صيف عن قليل
تقشع (٦) فإذا نحن قد أمطرتنا بَرَد الثغور ، لكنها من ثغور العذاب (٧) لا من
الثغور العذاب (٨) ، فأيقننا بالبلاء ، وسلمنا لأسباب القضاء (٩) ، فما مرت
ساعة من النهار . حتى سمعنا خريراً الأنهار (١٠) ورأينا السيل قد بلغ الزبى (١١) والماء قد
غمر القيعان والربا (١٢) فبادرنا إلى حصن القرية ، لائذين من السيل بأفنيتهما (١٣) ،

(١) يقال : رعدت وبرقت ، أى جاءت بالرعد والبرق ، وأرعدت وأبرقت
يعنى تهددت بالرعد وتوعدت بالبرق . (٢) جادت : نكرمت، وأجادت: أحسنت
(٣) حكى : شابهت : وأنامل الاجواد : المقصود أيدى الكرام ، ومحركاتها
لأيدى الكريم يعنى مشابقتها لايديهم فى السخاء ، وأوفت وزادت بمعنى
واحد .

(٤) الغيث : المطر ، والغيث : الافساد (٥) الويل : المطر العظيم القطرات
والويل : الشر (٦) أى لا تمكث الا قليلا وتذهب (٧) البرد - بفتح
قطرات المطر المتجمدة تنزل على الأرض كالحب فى شكل الناج أو الجليد،
تشبه به أسنان الغوائى وثناياها عند اقترار الثغور ، والثغر : الفم ، وثغور
العذاب : فتحاته .

(٨) من الثغور العذبة الريق . (٩) وخضعنا لحكم المقادير .
(١٠) يعنى جرى الماء بشدة ، فصارىسمع له صوت كصوت مياه الأنهار .
(١١) السيل : الماء العظيم الذى يتجمع من المطر ، ويسيل بشدة ،
والزبى - جمع زبية - وهى الأرض المرتفعة ارتفاعا عظيما بحيث لا يعاوها
الماء عادة ، أو حفرة تحفر فيها ليصاد فيها الأسد .
(١٢) الربا - جمع ربوة - الأرض المرتفعة ارتفاعا ، والقيعان - جمع قاع
- وهو الأرض السهلة المطمئنة التى انفرجت عنها الجبال والأكام .
(١٣) فبادرنا : أسرعنا ، والحصن : الموضع الحصين المنيع ، الذى لا
يوصل الى جوفه ولائذين : محتمين متحصنين ، والأفنية - جمع فناء -
وهو المتسع أمام الدار .

وعائذين من القطر بأبنيتها (١) ، وأثوابنا قد صندل كافورها ماء الوبل (٢) .
 وغلف طرازها طين الوحل (٣) ، ونحن نحمد الله تعالى على سلامة الأبدان .
 وإن فقدنا بياض الأكمام والأردان (٤) ، ونشكره على سلامة الأنفس والأرواح .
 شكر التاجر على بقاء رأس المال ، إذا فجع بالأرباح (٥) فبتنا تلك الليلة
 تحت سماء تكيف ولا تكف (٦) ، وتبكي علينا إلى الصباح بأدمع هوام (٧) ، وأربع
 سجام (٨) ، فلما سل سيف الصبح من غمد الظلام (٩) ، وصرف بوالى الصحو
 عامل الغمام (١٠) ، رأينا صواب الرأى أن نوسع الإقامة بها رفضا (١١) ، ونتخذ
 الارتحال عنها فرضا ، فما زلنا نطوى الصحارى أرضا فأرضا ، إلى أن وافينا
 المستقر ركضا (١٢) ، فلما نفضنا غبار ذلك المسير (١٣) ، الذى جعلنا فى ربة
 الأسير (١٤) ، وأفضينا إلى ساحة التيسير (١٥) بعد ما أصبنا بالأمر العسير ،

(١) عائدين : ماتجئين ، والقطر : ما نزل من ماء المطر ، والأبنية : المباني
 (٢) صندل : استعماله متعديا بمعنى جعل لون الصندل أحمر ضاربا الى
 السواد ، والكافور والوبل تقدم معناهما (٣) غاف الشيء : جعل له غلافا
 أى حجابا وسترا ، والطراز : رسم الثوب ، والمعنى : أن رسم الثوب
 ستره الطين المتناثر من الوحل .

(٤) الأردن : أصول الأكمام (٥) أى أوجع بعدم الأرباح وفقد المكاسب
 (٦) تكف : تمطر ، ولا تكف : لا ينقطع مطرها (٧) هوام - جمع هام - من
 همى يهمى بمعنى سال (٨) لعله يريد أربع نواح يقطر منها الماء كثيرا .
 (٩) أى الصبح الشبيه بالسيف ، والظلام الشبيه بالغمد (١٠) الوالى :
 العامل أو الحاكم ، والمعنى أزال الصحو الغمام (١١) أى أن نرفض الإقامة
 بها رفضا باتا .

(١٢) وافينا : أتينا ، والمستقر : السكن ، وركضا : يعنى عدوا ، وجريا
 على الأقدام .

(١٣) يعنى لما أزلنا وسخ هذا السير بمعنى استرحنا (١٤) الربة :
 عروة تجعل فى جبل مع عرى غيرها ، ويربط فى هذا الجبل (ويسمى الربق)
 أولاد الضأن والمعز والبقر (١٥) أفضينا : وصلنا ، والساحة : رحبة
 واسعة بين الدور ، والتيسير : بمعنى اليسر والتسهيل .

وتذاكرنا ما لقينا من التعب والمَشَقَّة ، في قطع ذلك الطريق وطى تلك الشقة (١) أخذ الأمير السيد أطال الله بقاءه القلم فعلق هذه الأبيات ارتجالا :

دَهَمْنَا السَّمَاءَ غَدَاةَ السَّحَابِ بَغِيثٌ عَلَى أَفْقِهِ مُسْبِلٌ (٢)
فَجَاءَ بَرَعْدٌ لَهُ رَنَةٌ (٣) كَرَنَةٌ ثَكْلَى وَلَمْ تَثْكَلْ (٤)
وَتَنَى بِوَيْلٍ عِدَا طَوْرُهُ (٥) فَعَادَ وَبَالًا عَلَى الْمُحَلِّ (٦)
وَأَشْرَفَ أَصْحَابُنَا مِنْ أَذَاهُ عَلَى خَطَرٍ هَائِلٍ مُعْضَلٍ (٧)
فَمِنْ لَائِذٍ بِفَنَاءِ الْجِدَارِ (٨) وَآوٍ إِلَى نَفْقٍ مُهْمَلٍ (٩)
وَمِنْ مُسْتَجِيرٍ يُنَادِي الْغَرِيقَ هَذَاكَ وَمِنْ صَارِخٍ مَعُولٍ (١٠)
وَجَادَتْ عَلَيْنَا سَمَاءُ السَّقُوفِ بَدْمَعٍ مِنَ الْوَجْدِ لَمْ يُهْمَلِ (١١)

(١) طى تلك الشقة : أى قطع تلك المسافة (٢) الغداة : أول النهار ، يعنى دهمتنا السماء بمطر فى أول النهار الذى كان فيه غيم ، والغيث : المطر، والمسبل ، الهاطل يعنى دهمتنا السماء بمطر هاطل على الأفق الذى كان السحاب مخيما عليه

(٣) له رنة : أى دوى وصوت هائل .

(٤) الثكلى : التى فقدت ولدها ، ولم تثكل : يعنى لم يفقدها الله ولدها والمعنى كصوت الغائب عنها ولدها، مع أن الله لم يهلكه ، فهى تصوت على غيابه ولم ينقطع أملها من وجوده

(٥) الويل : تقدم تفسيره وهو المطر الشديد ، وعدا طوره : تجاوز حده .

(٦) فصار ثقيلا وخيما على المكان المحل الجذب المنقطع عنه المطر .

(٧) أشرف على كذا : قرب منه ، والمعضل : الذى لا دواء له .

(٨ و ٩) فمن متحصن بالأراضى المجاورة للجدران ، ومن لاجئ الى سرب فى الأرض لم يتعهده احد

(١٠) ينادى الغريق : أى يدعو الناس ويقول الغريق لينقذوه ، والمعول : الرافع صوته بالبكاء

(١١) همل الدمع : سال ، والمعنى : أنها جادت بدمع لم يكن السبب فى : اسباله لا الغرام ولا الوجد

- كَأَنَّ حَرَاماً لَهَا أَنْ تَرَى يَبِيساً مِنَ الْأَرْضِ لَمْ يَبْلُلْ (١)
وَأَقْبَلَ سَيْلٌ لَهُ رَوْعَةٌ (٢) فَأَدْبَرَ كُلَّ عَنِ الْمُقْبِلِ (٣)
يُقْلَعُ مَا شَاءَ مِنْ دَوْحَةٍ (٤) وَمَا يَلْقَى مِنْ صَخْرَةٍ يَحْمِلُ (٥)
فَمِنْ عَامِرٍ رَدَدَهُ غَامِراً (٦) وَمِنْ مُعَلِّمٍ عَادَ كَالْمَجْهَلِ (٧)
كَفَانَا بَلِيَّتُهُ رَبُّنَا فَقَدْ وَجِبَ الشُّكْرُ لِلْمُفْضِلِ (٨)
فَقُلْ لِلسَّمَاءِ ارْعُدِي وَابْرِقِي (٩) فَإِنَّا رَجَعْنَا إِلَى الْمَنْزِلِ

وصف حديقة لابن حبيب الحلبي المتوفى سنة ٩٧٧ هـ

لما صدأت مِرْآةُ الْجَنَانِ (١٠) قصدتُ لَجَلَاتِهَا بعضَ الجنانِ (١١) فدخلتُ
إِلَيْهَا ، وما كدتُ أَنْ أَقْدِمَ عَلَيْهَا . فإذا هِيَ جَنَّةٌ عَالِيَةٌ (١٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (١٣)
وَطَلْحُهَا مَنْضُودٌ (١٤) ، وظلُّهَا مُتْدَوِّدٌ (١٥) ، وَأَعْلَامُ أَشْجَارِهَا مَرْفُوعَةٌ (١٦) وفاكهتها

(١) كَانَ حَرَامًا لَهَا ، أَي كَانَ السَّمَاءُ مُحْرَمًا عَلَيْهَا أَنْ تَرَى أَرْضًا يَابِسَةً لَمْ
تَبْلُ بِالْمَاءِ .

(٢) الرَوْعَةُ : الْفَزَعَةُ . (٣) كُلُّ وَاحِدٍ يُؤَلَّى وَيَهْرَبُ مِمَّنْ يَقَابِلُهُ

(٤) يَقْتُلُ كُلَّ مَا يَرِيدُ مِنَ الشَّجَرِ الْعَظِيمِ

(٥) يَحْمِلُ كُلُّ مَا يَلْقَاهُ مِنَ الصُّخُورِ الضَّخَامِ

(٦) رَدَّهُ غَامِرًا : صَيَّرَهُ خَرَابًا (٧) مِنْ مَعْلُومٍ صَارَ كَالْمَجْهُولِ

(٨) كَفَانَا اللَّهُ شَرَّهُ . فَوَجِبَ الشُّكْرُ لَهُ لِأَفْضَالِهِ عَيْنًا

(٩) آيَتٌ بِالرَّعْدِ وَالْبَرْقِ

(١٠) الْجَنَانُ : الْقَلْبُ ، وَصَدَّتْ مِرْآةُ عِلْمِهِ عَلَى الْوَسْخِ ، وَالْمَعْنَى : لَمَّا كَلَّ
الْقَلْبُ ، وَمَلَّ الْعَمَلُ .

(١١) لَجَلَاتُهَا : أَيْ إِزَالَةُ الْوَسْخِ الَّذِي عَلَاهَا ، وَالْجَنَانُ - جَمْعُ جَنَّةٍ -
وَهِيَ الْحَدِيقَةُ ذَاتُ النَّخْلِ وَالشَّجَرِ (١٢) أَيْ مَرْتَفَعَةٌ (١٣) عِنَاقِيدهَا
مَتَدَلِّيَةٌ قَرِيبَةٌ مِنَ الْجَانِي .

(١٤) الطَّائِحُ : الْأَشْجَارُ الْعِظَامُ ، وَمَنْضُودٌ يَعْنِي مَتْرَاكِمَ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ

(١٥) أَيْ مَتَسِعَ (١٦) أَيْ أَغْصَانُهَا مَرْتَفَعَةٌ .

كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة^(١) . تجوس المياه خلال ديارها^(٢) وتُشرق
بآفاقها أنواراً نوّارها^(٣) ، نزهة النواظر^(٤) ، وشركُ الخواطر^(٥) ، بها
أشجار لا تحصى^(٦) ، وثمار لا تُعدُّ ولا تُستقصى^(٧) .

وصف البيان لأُمير المؤمنين ابن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ

البيان تُرجمان القلوب ، وصقيل العقول^(٨) ، ومُجلى الشبهة^(٩) ،
وموجب الحجة ، والحاكم عند اختصام الظنون ، والفرق بين الشك واليقين ،
وخير البيان ما كان مصرحاً عن المعنى ، ليسرع إلى الفهم تلقية ، أو موجزاً
ليخف على اللفظ . تعاطيه .

ووصف أيضاً المكارم فقال :

لن تكسب - أعزك الله - المحامد ، وتستوجب الشرف . إلا بالحمل
على النفس والihal . والنهوض بحمل الأثقال ، وبذل الجاه والمال ، ولو
كانت المكارم تُنال بغير مؤونة لاشارك فيها السفلى^(١٠) والأحرار ،
وتساهمها الوضعاء^(١١) وذوو الأخطار ، ولكن الله تعالى خصّ الكرماء الذين
جعلهم أهلها . فخفف عليهم حملها وسوّغهم فضلها وحظرها^(١٢) على السفلة
لصغر أقدارهم عنها وبُعد طباعهم منها ، ونفورها عنهم وأقشعراها منهم .

ووصف أيضاً القرآن الكريم فقال :

فضل القرآن على سائر الكلام معروف غير مجهول ، وظاهر غير خفي

(١) لا تقطع عن الطالب ولا تمنع عنه (٢) أى تتردد بين بيوتها
(٣) النوار : الزهر (٤) تتنزه فيها العيون (٥) تصطاد الخواصر وتسبى
العقول

(٦) لا يمكن الاتيان على عددها (٧) لايتأتى ادراك آخرها (٨) جلاؤها
(٩) كاشفها (١٠) السفلى : جمع سفلة ، وهم طغام الناس وغوغاؤهم .
(١١) جمع وضيع : وهو الساقط (١٢) منعها

يشهد بذلك عجز المتعاطين ، وَوَهْنُ (١) المتكلفين . وهو المبلِّغ الذي لا يَمَلُّ ،
والجديد الذي لا يَخْلُقُ (٢) والحق الصادع ، والنور الساطع ، والمأحى لظلم
الضلال ، ولسان الصدق النافي للكذب ، ومفتاح الخير ، ودليل الجنة -
إِنْ أَوْجَزَ كَانَ كَافِيًا وَإِنْ أَكْثَرَ كَانَ مُذَكِّرًا ، وَإِنْ أَمَرَ فَنَاصِحًا ، وَإِنْ
حَكَمَ فَعَادِلًا ، وَإِنْ أَخْبَرَ فَصَادِقًا . سراجٌ تستضيءُ به القلوب ، وبهر
العلوم ، وديوان الحكم ، وجوهر الكلم .

وصف البلاغة لفحول البلغاء

(١) قال الجوهري : أحسن الكلام نظاماً ما ثقبته يد الفكرة ، ونظمته
الفطنة ووُصل جوهر معانيه في سُموط (٣) ألفاظه . فاحتملته نُحُورُ الرواة .

(٢) وقال العطار : أطيبُ الكلام ما عُجِنَ عنبرُ ألفاظه بمسك معانيه ،
ففاح نسيم نشقه (٤) وسطعت رائحة عبقه ، فتعلقت به الرواة ، وتعطرت
به السراة .

(٣) وقال الصائغ : خير الكلام ما أحميته بكبير الفكر ، وسبكته
بمشاعل النظر ، وخلّصته من خبث الإطناب . فبرزَ برُوزَ الإبريز ، في معني
وجيز (٥) .

(٤) وقال الصيرفي : خير الكلام ما نقدته عين البصيرة ، وجلته يد
الروية ووزنته بمعيار الفصاحة ، فلا نظّر يزيفه (٦) ؛ ولا سماع يُبهرجه (٧) .

(٢) لا يلي

(١) ضعف

(٣) السمط : الخيط الذي ينظم فيه (٤) النشق : الاستنشاق ،
العبق : لصوق الطيب بالشيء ، وتغلف الرجل بالطيب : ادهن به ، والسراة :
الأشراف .

(٥) الكير : زق ينفخ فيه الحداد ، والمشاعل : جمع مشعل وهو القنديل
وهو موضع شعل النار أي الهابها . (٦) زيف الدراهم : أي أنها زائفة أي
مغشوشة . (٧) وبهرجها : أبطلها

(٥) وقال الحداد : أحسنُ الكلام ما نصبت عليه منفخة القريحة ،
وأشعلت عليه نار البصيرة ، ثم أخرجته من فحم الإفخام ورَّقَّتْهُ بغطيس
الأنفهام (١) .

(٦) وقال النجار : خير الكلام ما أحكمت بحر معناه بقُدوم التقدير ،
ونَشَرْتَه بمنشار التدبير ، فصار باباً لبيت البيان ، وعارضة (٢) لِسَقْف اللسان .
(٧) وقال الحائك : أحسن الكلام ما اتصلت لُحمة ألفاظه ، بُسْدَى
معانيه مفوفاً منيراً ، موشى محبراً (٣) .

(٨) وقال الجمال : البليغ من أخذ بخطام (٤) كلامه ، فأناخه في
مبرك المعنى ، ثم جعل الاختصار له عقالا ، والإجادة له مجالا ، فلم (٥)
يند عن الآذان ولم يشذ عن الأذهان .

وصف عمر بن الخطاب

قال معاوية بن أبي سفيان لصعصعة بن صوحان : صِفْ لِي عُمَرُ بن
الخطاب فقال : كان عالماً برعيته ، عادلاً في قضيته ، عارياً من الكبر
قبولا للعدر ، سهل الحجاب ، مصون الباب ، متحريراً للصواب ، رفيقاً
بالمضعيف ، غير محاب للقريب ولا جاف للغريب .

(١) الغطيس كسكين المطرقة العظيمة (٢) العارضة : الخشبة العليا التي
يدور فيها الباب وعوارض البيت خشب سقفه . (٣) الموقوف : الرقيق
من الثياب أو الذي فيه خطوط بيض ، والمنير : المنسوج على نسيجين أي
المضاعف النسيج ، والموشى : المنقوش والمحبر : المحسن (٤) الخطام : كل
ما وضع في أنف البعير ليقاد به ، وجمعه : خطم (٥) ند : هرب

وصف على بن أبي طالب

قال مُعاوية لِضرار الصَّدائى : يا ضرار صف لى عليّاً قال : اعفنى يا أمير المؤمنين قال : لتصفنّه ، قال : أما إذ لا بد من وصفه فكان والله بَعِيدَ المدى (١) شديد القوى ، يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً ، يتفجر العلمُ من جوانبه وتنطقُ الحكمة من نواحيه ، يَسْتَوْحِشُ من الدنيا وزَهرَتِها ، وَيَسْتَأْنَسُ بالليل ووحشته ، وكان والله غزير العبرة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ، وَيُخاطِبُ نفسه ، يُعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن ، وكان فينا كأحدنا يُجيبنا إذا سألناه وينبئنا إذا استنبأناه ، ونحن مع تقريبه إيانا ، وَقُرْبِهِ منا ، لا نكادُ نكلمه لهيبته ، ولا نبتدئه لعظمته ، يُعظم أهل اللين ، ويحب المساكين . لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله .

وصف كلام العرب لعتبة بن أبي سفيان

قال عُتبة بن أبي سفيان : إن للعرب كلاماً هو أرق من الهواء ، وأعذب من الماء ، مَرَقَ من أفواههم مَرُوق السهام من قسيها ، بكلمات مؤتلفات . إن فسرت بغيرها عُطلت (٢) . وإن بُدلت بسواها من الكلام استصعبت ، فسهولة ألفاظهم توهمك أنها لُكْنَة إذا سُمعت ، وصعوبتها تعلمك أنها مفقودة إذا طُلِبَت (٣) .

(١) المدى : الغاية

(٢) التعطيل : ترك الشيء ضياعاً

(٣) هذا النوع من الكلام يسمى المتنوع

وصف الكتاب للجاحظ.

قال الجاحظ : الكتاب وعاءٌ مليءٌ علماً وظرفٌ حشى ظرفاً ، وبستان يحملُ في رُذُن(١) وروضةٌ تقلبُ في حجر ، ينطق عن الموتى ، ويترجمُ كلام الأحياء ، ولا أعلم جاراً أبَر ، ولا خليطاً أنصف . ولا رفيقاً أطوع ، ولا معلماً أخضع ، ولا صاحباً أظهر كفاية ، وأقل جناية ، ولا أقل إملالاً وإبراماً ، ولا أقل خلافاً وإجراماً ، ولا أقل غيبة ، ولا أبعد من غضبه(٢) ، ولا أكثر أعجوبة وتصرفاً ، ولا أقل صلفاً(٣) وتكلفاً ولا أبعد من مرأى ، ولا أترك لشغب ، ولا أزهد في جدال ، ولا أكفَّ عن قتال — من كتاب ، ولا أعلم قريباً أحسن مواتاة(٤) ، ولا أعجل مكافأة ، ولا أخصر معونة ، ولا أقل مؤونة ، ولا شجرة أطول عمراً ولا أجمع أمراً ، ولا أطيب ثمرة ، ولا أقرب مُجتنى ، ولا أسرع إدراكاً في كل أوان ، ولا أوجد في غير إبان — من كتاب ، ولا أعلم نتاجاً في حداثة سنو ، وقرب ميلاده ، ورخص ثمنه ، وإمكان وجوده يجمع من التدابير الحسنة ، والعلوم الغربية ، ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحمود الأخبار اللطيفة ، ومن الحكم الرقيقة ، ومن المذاهب القديمة ، والتجارب الحكيمة والإخبار عن القرون الماضية والبلاد المتراخية والأمثال السائرة والأمم البائدة(٥) ما يجمع الكتاب .

وقيل لبعض العلماء : ما بلغ من سرورك بكتبك ؟

فقال : هي إن خلوت لذتي ، وإن اهتممتُ سلوكي ، وإن قلت : إن زهر البستان ونور الجنان يجلوان الأبصار ، ويمتعان بحسنهما الألباظ ، فإن

(١) الرذن : الكم ، وجمعه أردان . (٢) الغضبه : البهتان والنميمة .

(٣) الصلف : تمديح المرء بما ليس عنده . (٤) المواتاة : حسن المطاوعة والموافقة وأصله بالهمزة وفي الحديث : خير النساء المواتية لزوجها .

(٥) القديمة الهالكة .

بِسْتَانِ «الكتب» يَجْلُو الْعَقْلَ ، وَيَشْحَذُ الذَّهْنَ ، وَيُجَيِّ الْقَلْبَ ، وَيُقَوِّ الْقَرِيحَةَ ، وَيُعِينُ الطَّبِيعَةَ ، وَيَبْعَثُ نَتَائِجَ الْعُقُولِ ، وَيَسْتَشِيرُ دِفَائِنَ الْقُلُوبِ ، وَيُمْتَعُ فِي الْخُلُوةِ ، وَيُونَسُ فِي الْوَحْشَةِ ، وَيَضْحَكُ بِنَوَادِرِهِ ، وَيَسُرُّ بِغَرَائِبِهِ ، وَيُفِيدُ وَلَا يَسْتَفِيدُ ، وَيُعْطَى وَلَا يَأْخُذُ ، وَتَصِلُ لَذَّتُهُ إِلَى الْقَلْبِ مِنْ غَيْرِ سَامَةٍ تُذَرِّكُكَ ، وَلَا مَشَقَّةَ تَعْرِضُ لَكَ .

وصف التاريخ لابن الأثير

التاريخ : معاد (١) معنوى ، يعيد الأعصار وقد سلفت ، وَيَنْشُرُ أَهْلَهَا ، وقد ذهبت آثارهم وعفت (٢) ، وبه يستفيد عقول التجارب مَنْ كَانَ غِرًّا ، وَيَلْقَى مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الْأُمَمِ وَهَلُمَّ جَرًّا . فهم لديه أحياء ، وقد تَصَمَّنَتْهُمْ بَطُونُ الْقُبُورِ ، وعنه غَيْبٌ وقد جعلتهم الْأَخْبَارَ فِي عِدَادِ الْحُضُورِ ، ولولا التاريخ لجهلت الْأَنْسَابُ وَنُسِبَتِ الْأَحْسَابُ ، ولم يعلم الْإِنْسَانُ أَنَّ أَصْلَهُ مِنْ تَرَابٍ ، وكذلك لولاه لما انت الدول بموت زعمائها وَعَمِيَ (٣) عَلَى الْآوَاخِرِ حَالُ قَدَمَائِهَا ، ولم يُحَظَّ . علماً بما تداولته الْأَرْضُ مِنْ حَوَادِثِ سَمَائِهَا ، ولمكان العناية به لم يخل منه كتاب مِنْ كُتُبِ اللَّهِ الْمَنْزِلَةِ ، فمنها ما آتَى بِأَخْبَارِهِ الْمُجْمَلَةِ ، ومنها ما آتَى بِأَخْبَارِهِ الْمُفَصَّلَةِ ، وقد ورد في التوراة مُفْرَدًا فِي سِفَرٍ مِنْ أَسْفَارِهَا ، وتضمن تفصيل أحوال الْأُمَمِ السَّالِفَةِ وَمُدَدَ أَعْمَارِهَا .

وقد كانت العرب على جهلها بِالْقَلَمِ وَخَطِّهِ ، وَالكِتَابِ وَضَبْطِهِ ، تَصْرِفُ إِلَى التَّوَارِيخِ جُمْلَ دَوَاعِيهَا ، وَتَجْعَلُ لَهُ أَوَّلَ حَظٍّ . مِنْ مَسَاعِيهَا ، فَتَسْتَغْنَى بِحِفْظِ قُلُوبِهَا عَنْ حِفْظِ مَكْتُوبِهَا ، وَتَعْتَاضُ بِرَقْمِ صُدُورِهَا ، عَنْ رَقْمِ سَطُورِهَا ،

(١) معاد : يقصد أنه كالיום الآخر . (٢) عفا الشيء : هلك .

(٤) عمى عليه الأمر : التبس وكذلك عمى عنه .

كل ذلك عناية منها بأخبار أوائليها ، وأيام فضائلها ، وهل الإنسان إلا ما أسسه ذكره وبناه ؟ وهل البقاء لصورة لحمه ودمه لولا بقاء معناه !!

وصف الرجل الكامل

كتب الحسن (١) بن سهل إلى محمد (٢) بن سماعة القاضي ، يصف له الرجل الكامل :

أما بعد : فإنني احتجت لبعض أمورى إلى رجل جامع لخصال الخير ، ذى عفة ونزاهة ، طعمة (٣) قد هذبت له الآداب وأحكمته التجارب ، ليس بظنين (٤) فى رأيه ، ولا بمطعون فى حسبه ، إن أوتن على الأسرار قام بها ، وإن قلّد مهماً من الأمور أجزأ (٥) فيه ، له سن مع أدب ولسان ، وتقعده الرزانة ، ويسكنه الحلم قد فر (٦) عن ذكاء (٧) وفطنة ، وعض على قارحة (٨) من الكمال ، تكفيه اللحظة وترشده السكنة ، قد أبصر خدمة الملوك وأحكمها ، وقام فى أمورهم فحمد فيها له أناة الوزراء ، وصولة الأمراء ، وتواضع العلماء ! وفهم الفقهاء وجواب الحكماء ، لا يبيع نصيب يومه بجرمان غده ، يكاد يسترق (٩) قلوب الرجال بحلاوة لسانه . وحسن بيانه ، دلائل الفضل عليه لائحة ، وأمارات العلم شاهده .

(١) هو وزير المأمون وختنه أبو زوجه بوران توفى سنة ٢٢٦ هـ . (٢) من أصحاب محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة توفى سنة ٢٢٣ ، وقد بلغ مائة سنة وهو صحيح الحواس . (٣) الطعمة بالضم طريق الكسب وبالكسر هيئة الأكل والسير فيه . (٤) الظنين : المتهم (٥) أجزأ : أغنى (٦) فر الدابة : كشف عن أسنانها ليعرف مبلغ عمرها (٧) الذكاء تمام السن واكتماله أو حدة الذهن . (٨) الفرس القارح الذى استكمل القوة باكتمال العمر ونظيره فى الإبل البازل ، والسن التى تنبت له عند قروحه تسمى قارحا وقارحة والجملة كلها كناية عن استيفاء صفات الكمال (٩) يستعبد .

مُضْطَلَعًا (١) بما استنهض ، مستقلاً (٢) بما حُمِّلَ ، وقد آثرتك بطلِّبِه
وجبوتك بارئِيَّادِه (٣) ، ثِقَةً بفضل اختيارك ، ومعرفةً بحُسنِ تَأْتِيكَ (٤) .

وصف قناة السويس

للمرحوم أحمد شوقي بك

مخاطباً ابنه يوم أن عبرَ قناة السويس ميمماً الأندلس

حينما نفّته الأحكام العُرفِيَّةُ إبانَ الحربِ العالميَّةِ [الأولى]

يابنَيَّ : القناة لقومكما فيها حياة ، ذَكَرَى إِسْمَاعِيلَ وَرِيَّاهُ (٥) ، وَعُليَّا
مَفَاخِرَ دُنْيَاهُ ، دولة الشرق المرجاة ، وسلطانهُ الواسِعُ الجَاهُ ، طريقُ
التَّجَارَةِ ، والوسيلة والمَدَارَةِ ، ومشَرَعُ (٦) الحضارة .

تعبُرُانها اليومَ على مُزْجَاةٍ (٧) كأنَّها فُلُكُ النِّجَاةِ ، خرجت بنا بين طوفان
الحوادث ، وطُغْيَانِ الكَوَارِثِ ، تفارق براً مُعْتَصِبُهُ مُضَرِّيُّ (٨) الغَضْبَةِ . قد
أَخَذَ الأُهْبَةَ ، وَأَسْتَجْمَعَ كالأَسَدِ للوُثْبَةِ ، وتَلَاقَى بحرًا جُنْتُ جَوَارِيهِ ،
ونَزَتْ (٩) بالثَّرِّ نَوَازِيهِ ، وتمثَلَتْ بكل سبيل عواديهِ مملوءًا ببغعات الماء ،
مُترَعًا بفجاءات السماء من نون (١٠) يَنْسِفُ الدَّوَارِعَ ، أَوْطِيرُ (١١) يَقْذِفُ
البليض مصارعَ ، فقلت : سِيرِي ، عَوِّذْتُكَ بِوَدِيعَةِ (١٢) التَّابُوتِ ، وبِصَاحِبِ (١٣)

(١) يقال هو مضطلع لهذا الأمر وبه إذا كان قديرا عليه . (٢) استقل
بالحمل نهض . (٣) والارتداد : الطلب . (٤) تأتي للامر : ترفق وأتاه
من وجهه . (٥) الريا : الرائحة الطيبة (٦) المشرع : المورد . (٧) زجاء وأزجاء :
ساقه وسيره (٨) مضر فخذ من أفخاذ العرب ينسب لمضر بن نزار وهذا
مأخوذ من قول بشار :

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو نقطر الدما
(٩) النزو : الوثب ، والنازية : حدة الرجل الوثاب الى الشر وجمعها
نواز . (١٠) النون الحوت والمراد الغواصة (٧) يريد بالطير الطائرات
وبالبليض ما يلقى منها من مهلكات القذائف (١٢) هو موسى كليم الله
(١٣) هو نبي الله يويس .

الْحُوتُ ، وبالحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ، وَأَسْرَى يَا ابْنَةَ الْيَمِّ زَمَامُكُ الرُّوحِ (١) ،
وَرُبَّانُكَ (٢) نَرَحَ ، فَكَمْ عَلَيْكَ مِنْ مَّنْكَوَبٍ وَمَجْرُوحٍ .

إِنِّ لِلنِّفَى لِرَوْعَةٍ ، وَإِنِّ لِلنَّأَى لِلْوَعَةِ ، وَقَدْ جَرَتْ أَحْكَامُ الْقَضَاءِ ، بَانَ
نَعْبِرُ هَذَا الْمَاءِ ، حِينَ الشَّرُّ مُضْطَرَمٌ ، وَالْيَأْسُ مُحْتَدِمٌ ، وَالْعَدُوُّ مُنْتَقِمٌ ، وَالْخَصْمُ
مُحْتَكِمٌ ، وَحِينَ الشَّامِتُ جَذْلَانُ مُبْتَسِمٌ ، يَهْزَأُ بِالْدمَعِ ، وَإِنِّ لَمْ يَنْسَجِمِ (٣) .
نَفَاذًا حُكَّامٌ عُجَمٌ ، أَعْوَانُ الْعَدْوَانِ وَالظُّلْمِ ، خَلَفْنَاهُمْ يَفْرَحُونَ بِذَهَبِ اللَّجْمِ ،
وَعِمْرَحُونَ فِي أَرْسَانٍ يُسَمُّونَهَا الْحُكْمَ ، ضَرْبُونَا بِسَيْفٍ لَمْ يَطْبَعُوهُ ، وَلَمْ يَمْلِكُوا
أَنْ يَرْفَعُوهُ ، أَوْ يَضَعُوهُ ، سَامَحَهُمْ فِي حَقُوقِ الْأَفْرَادِ ، وَسَامَحُوهُ فِي حَقُوقِ
الْبِلَادِ ، وَمَا ذَنْبُ السَّيْفِ إِذَا لَمْ يَسْتَحِ الْجَلَادُ !!

مَاذَا تَهْمِسَانِ ! كَأَنِّي أَسْمَعُكُمَا تَقُولَانِ : أَى شَيْءٍ بَدَأَ لَهُ ، عَلَى هَذِهِ
الضَّاحِيَةِ (٤) ؟ وَمَاذَا شَجَا خِيَالَهُ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ ! أَى حَسَنِ أَوْ طِيبٍ لِلْمَلْحِ
يَتَصَبَّبُ فِي كَثِيبِ مَاءٍ عَكَرَ فِي رَمْلِ كَدَرٍ !!

قَنَاةَ حَمِيَّةٍ (٥) كَأَنَّمَا قَنَاةَ صَدِئَةٍ . بَلْ كَأَنَّمَا وَعِيرِيهَا (٦) رِمَالُ بَعْضِهَا
مَتَاسِكٌ وَبَعْضُهَا مَنَهَالٌ ، وَكَأَنَّ رَاكِبَ الْبَحْرِ مُضْجِرَ (٧) ، وَكَأَنَّ صَاحِبَ
الْبَرِّ مُبْهِرٌ ! رُوِيَ دُكُّمَا : لَيْسَ الْكِتَابُ بِزِينَةِ جِلْدِهِ ، وَلَيْسَ السَّيْفُ بِحَلِيَّةِ
غِمْدِهِ . تِلْكَ التَّنَائِفُ (٨) مِنْ تَارِيخِكُمْ صَحَائِفَ ، وَهَذِهِ الْقَفَارُ كَتَبَ مِنْهُ
وَأَسْفَارُ ، وَهَذَا الْمَجَازُ هُوَ حَقِيقَةُ السِّيَادَةِ ، وَوَثِيقَةُ الشُّقَاءِ أَوْ السَّعَادَةِ ،
خَيْطُ الرِّقْبَةِ ، مِنْ اغْتَصَبِهِ اخْتَصَّ بِالْغَلْبَةِ ، وَوَقَفَ لِلْأَعْقَابِ عَقِبَةً ، وَلَوْ
سَكَتُ لَنَطَقَتِ الْعَبِيرُ ، وَأَيَّنَ الْعَيَانَ وَأَيَّنَ الْخَبَرَ !

(١) جبريل . (٢) الربان رئيس الملاحين وجمعه ربانة . (٣) انسجم
الدمع : سال . (٤) الضاحية كل أرض بارزة للشمس . (٥) الحمئة :
التي فيها الحمأة أى الطين الأسود المنتن ، والقناة الأولى الترععة والقناة
الثانية الرمح . (٦) عبر النهر شاطئه . (٧) أصح سار في الصحراء
(٨) التنايف جمع تنوفة وهى المفازة .

انظروا : تربيا العبرين عبرة الأيام ، حصون وخيام ، جنود قعود وقيام ، جيش غيرنا ، فرسانه وقواده ، ونحن بُعْرانَه (١) وعلينا أزواده (٢) ، ديك على غير جداره خلا له الجوف فصاح ، وكلبٌ في غير داره انفرد وراء الدار بالتَّبَاح .
القَنَاة وما أدراك ما القناة ، حظَّ البلاد الأغر من التِّقَاءِ الأبيض والأحمر بَيَدَ أنها أحلام الأول ، وأماني الممالك والدَّول : الفراعنة حاولوها ، والبطالسة زاولوها (٣) ، والقياصرة تناولوها ، والعرب لأمر ما تجاهلوها (٤) ، إلى أن جرى القَدَر لغابته ، وأتى « إسماعيل » بآيته ، فانفتح البرزخ بعنانيته ، والتقى البحران تحت رايته في جمع من التَّيجان لم يشهده إكاليه (٥) ، قد كان يُتَوَجَّ فيه ؛ لو شهدته جيوشه وأساطيله ، وما إسماعيل إلا قَيَصَرٌ لو أنه وفق والإسكندر لو لم يُخَفَّق . ترك لكم عزَّ الغد وكنز الأبد ، والمنجم الأحد ، والوقف الذي إن فات الوالد فلن يَفُوت الولد .

ماذا على الرُّمَال من لمحات جلال وجمال ؟ ارجعا القَهْقَرَى بالخيال ، إلى العصر الخال واعرضا في حداثتها الأجيال ، تربيا على هذا المكان وجوهاً تتمثل وركاباً تتنقل ، وتربيا النبوة تتهلل ، والآيات تنزل ، وتربيا الملك يتَرَجَّل ، حتى كأنكما بالزمان الأول فها هنا وضع النبوة المهد ، وابتدأ بها العهد . فأقبل صاحب المقام ، ومحطم الأصنام ، وبناء البيت الحرام ، خليل ذى الجلال والإكرام (٦) .
هاجر إلى مصر أكرم من هاجر ، ثم انقلب منها بأمر العرب هاجِر (٧) ، ومن هذه الثنَيَّات طلع يوسف في القيد ، وهو للسيارة صيد ، يسير من كَيْدٍ إلى كَيْدٍ ، قَلْبٌ جرحته الإخوة ، وجنبٌ قَرَحَتْه النسوة ، فيالك « يوسف » من

(١) البعران جمع بعير كاعبر . (٢) الأزواد جمع زاد وهو الطعام .
(٣) زاول الشيء : حاوله . (٤) يروي ان هارون الرشيد فكر في أن يصل البحرين بقناة وأنه استشار يحيى بن خالد البرمكى في ذلك فقال له : ياأمير المؤمنين « ان خرق السويس خرق في الاسلام » فعدل عن رأيه !
(٥) الاكليل : التاج (٦) هو خليل الله ابراهيم (٧) هى جارية مصرية اهداها فرعون الى السيدة سارة زوج سيدنا ابراهيم فوهبتها له فاستولدها اسماعيل جد العرب المستعربة .

أُسوة (١)؛ عزُّ بعد هَوْنٌ ، وذلة بعد المنزل الدَّون ، وشُمُون أقدار وشُجُون ،
وسُهول حياة وحُزون ، وسجوف القُصُور بعد السجون إلى سجد الشمس
لك والقمر والكواكب الآخر .

وإلى هذا الفضاء خرج موسى حين زال زَوِيلُهُ (٢) ، وطلبه قتيله ، وزين له
الفرار خليله (٣) ، فحوته هذه الرمال ، فإذا الأَمْن سبيله ، وألْيَمْن دليله ، والسلامة
زاملته (٤) والسلم زميله ، ولو أطلعه الله على غيبه ، للَمَس النبوة بين يديه وجيبه
إلى أن رُفِع له المنار ، واكتحل بالنور واقتبس من النار ، وقيل له : كُنْ من
الأحرار الأحبار ، وارْجِع فسَلْطَ الحق على فرعون الجبار ، فكأن عليه
السلام أول من اقتحم على الفرد جبروته ، وهتك على المستبد طاغوته (٥) ،
وخطم (٦) المتأله (٧) وحطم عظموته ، ماء الحق على لُطفه ، ظفیر بنار الباطل
على عُنفِهِ ، ظهر العدل على الحيف ، وكسرت العَصَا السيف .

وعلى هذه الأرض مَشَت السماء (٨) الطاهرة ، والنَّيرة الزَّاهرة ، والآية
المتظاهرة أم الكلمة (٩) وطريدة الظلمة ، سرحوا في عرضها فأخرجوها من أرضها
غضربت في طول الأرض وعرضها ، يوسف حاديها ، وجبريل هاديها ، والقدس
ناديها ، والطهارة أرجاء واديها ، وعلى ذراعيها مصباح الحكمة وجناح الرحمة
والإصباح من الظلمة ، حتى هبطت به أكرم الأديم (١٠) فنشأ بين الحكيم والعليم

(١) الأسوة : القدوة ، وما يتأسى الحزين أى يتعزى (٢) زال زويله :
فزع وحذر (٣) يشير الى ما كان من امر موسى حين وجد قبطيا واسرائيليا
يقتتلان فاستنصره الاسرائيلى على القبطى فوكزه وكرة كانت القاضية ، فاما
أصبح وجد الاسرائيلى نفسه يقاتل قبطيا آخر فاستفاته فقال موسى انك
لغوى مبين . ثم هم بنصرته على القبطى فظن أنه يريد به بالأذى فصاح
الاسرائيلى ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس فذاع أمره ولم
يأبث أن جاءه رجل وقال يا موسى ان الملائكة ياتمرون بك ليقتلوك فاخرج انى لك
من الناصحين فخرج منها الى بلاد مدين (٤) الزاملة ما يحمل عليه من
الابل وغيرها . (٥) الطاغوت : الشيطان وكل رأس ضلال (٦) خطمه :
قهره أو ضرب أنفه (٧) أراد المتكبر غير أن معناها اللغوى المنسك
المتعبد . (٨) يريد السيدة مريم (٩) الكلمة سيدنا عيسى (١٠) الأديم :
وجه الأرض

وترعرع حيث ترعرع بالأمس الكليم . فيالك من دار لعبت على عُراصاتها
الأقدار ، نأوتت (١) موسى القريب ، وآويت عيسى الغريب ، نبوت (٢) بالنبي
وحبوت الأمن عيسى وهو صبي ، عُذرك لا تنضى (٣) إليه المطى ، فإنما
أغضبت القبطى لابنك القبطى .

ثم انظرا تريا إبلأ صعباً ، وخيلاً عرباً (٤) . وتريا الرعاة (٥) انقضوا على
الوادى ذئاباً ، فأخافوا القرى الآمنة ، وأخرجوا من مصر الفراعنة ، واستبدوا
بالمملك فيها آونة . وتريا الوحوش الضاربة والجوارح الكاسرة ، يقودها شر
الأكاسرة (٦) ، ملأت هذه الفجاج (٧) ، وكأنها حرجات (٨) الساج ، وأحركات
الأمواج ، ثم تدفقت تكتسح الديار ، باغية السيف طاغية النار ، تدك
الهياكل والمعاقل ، وتهتك العقائد والعقائل .

وتريا الإسكندر الكريم ، قد لمع كالصارم من هذا الضريم (٩) ، يحمل
الحمالات النجائب ويفتح بالكتب والكتائب .

وتريا ابن العاص والصحابه ، مروا من هذه الأرجاء مر السحابه ،
يفتحون للحق ويفتكون بالرق ، حتى أخلوا القصور من القياصرة ، وأراحوا
مصر الصابرة من صلف الجبابرة .

وتريا صلاح الدين يخنف كالبدرو يبدو ، ويروح كالغيث ويغدو ، بعوث
بلا عدد ، ومدد إثر مدد ، وذخائر وعدد ، وبشرى كل يوم بفتوح جدد .

وتريا نابليون قدركب طيشه ، وأركب الغرر جيشه . وتريا إبراهيم بن
علي مشهور الجراز ، موفور الجهاز ، ملك سورية وضبط الحجاز . وتريا إسماعيل

(١) ناواه ونواه : عاداه (٢) نبا به المكان : لم يوافقه (٣) انضى المطية :
هزلها (٤) العرب من الخيل والأبل العربية (٥) العمالة الذين ملكوا
مصر مدة من الدهر (٦) قمبيز (٧) الفجاج : الطرق الواسعة
(٨) الحرجة : الشجرة الملتفة والساج شجر يعظم جدا ويذهب طولاً وعرضاً
له ورق عريض جدا . (٩) الضريم : الرمل

بعث الحشرين ، وحشد الحافرين . وقرب المسافة للمسافرين ، غير وجهه .
السفر ، فقليل : بلغ غاية الظفر ، وقيل : وقع الحافر فيما حفر .
ثم انظرا اليوم تريا القناة في يد القوم إن آمنوا ركزوها ، وإن خافوا هزوها

وصف فرس

قال محمد بن الحسين يصف فرساً :

هو حسنُ القميص ، جيدُ الفُصوص ، وثيقُ القصب ، نقيُّ العصب ، يُبصر
بأذنيه ، ويتبوع بيديه ، ويدخل برجليه ، كأنه موج في لجةٍ أو سيل في حُدُور
يناهب المشي قبل أن يبعث ، ويلحق الأرانب في الصعوداء ، ويجاوز جوارى
الظباء في الاستواء ، ويسبق في الحدود جرى الماء ، إن عُطِفَ جار ، وإن
أُرسل طار ، وإن كُلف السير أمعن وسار ، وإن حبس صفن ، وإن استوقف
قطن ، وإن رعى أنن ، فهو كما قال تَابُطُ شراً :

ويسبق وفد الريح من حيث تُنحى بمنخرق من شدة المتدارك

وصف العصا

لقى الحجاجُ أعرابياً . فقال : من أين أقبلت ؟ قال من البادية قال : ما بيدك ؟
قال : عصاً أركزها لصلاتي ، وأعدّها لعدائي ، وأسوق بها دابتي وأقوى بها على
سفري ، وأعتمد عليها في مشي ، ليتسع بها خطوى ، وأعبر بها النهر فتؤمنني
وألقي عليها كساء فيسترني من الحر ، ويقيني من القُر ، وتدني ما بعدمني ، وهي
محملُ سُفرتي وعلاقة إداوتي (١) ومشجبُ ثيابي ، أعتمد بها عند الضراب وأقرع
بها الأبواب ، وأتقي بها عقور الكلاب . تنوب عن الرُمح في الطعان ، وعن
الحربة عند مُنازلة الأقران ورثتها عن أبي ، وأورثها بعدي ابني ، وأهش بها
على غنمي ، ولي فيها مآرب أخرى ، كثيرة لا تحصى .

(١) الاداة : وعاء ماء يتطهر به .

وصف كرة القدم لمولف الكتاب

قاتل الله الكرة : ما أعجب أمرها ، وما أدق سرها ، قد جمعت الأضداد واسترقت النجباء والأوغاد ، فهي كبيرة الحجم ، مَفُوقَة الجسم ، لكنها خفيفة الوزن ، سريعة الثوب ، وهي ناعمة اللمس ، مليحة الرقص ، لكنها تأتي الوخز ولا تطيق اللكز ، وهي تفر من المداعبة والملاعبة ، ولكنها لا تمل من ضرب ولا تكل من دحرجة ، وهي محبوبة مألوفة ، تنقل على الأيدي والأحضان ، لكنها تطرد بالأرجل والعصى ، فهي عزيزة ذليلة ، حقيرة جليلة ، تُشبه القنابل في صورها ، والدُفوف في أصواتها ، والطير في امتطاء الهواء ، واختراق الفضاء .

وصف جيوش لابن الرومي المتوفى سنة ٢٨٢ هـ

وصار فلان في جيوش ، عليهم أردية السيوف ، وأقمصة الحديد ، وكان رماحهم قرون الوعول (١) ، وكان أذراعهم زبد السيول على خيل تأكل الأرض بحوافرها وتمد بالنقع سرادقها ، قد نُشرت في وجوها غرر (٢) كأنها صحائف الرق (٣) وأمسكها تحجيل (٤) كأنها أسورة اللجين وقرطت عذرا (٥) كأنها الشنوف تتلقف الأعداء أوائلها ، ولم تنهض أواخرها ، قد صب عليهم وقار الصبر ، وهبت معهم ريح النصر .

وصف الحسد للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ

الحسد - أبقاك الله - داء ينهك الجسد ، علاجه عسيرٌ وصاحبه ضجر ، وهو باب غامض (٦) وما ظهر منه فلا يداوى ، وما بطن منه فمداويه في عناء ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « دَب (٧) إليكم داء الأمم من قبلكم الحسد والبغضاء » الحسد عقيد (٨) الكفر ، وحليف الباطل (٩) وضد الحق ، منه تتولد

(١) جمع وعل وهو تيس الجبل (تيس الشاة الجبلية) وقرونه طويلة .
 (٢) جمع غرة وهي بياض في جهة الفرس (٣) الرق جلد رقيق أبيض يكتب فيه (٤) التحجيل بياض قوائم الفرس (٥) أى السبب عذرا وهو ما على خد الفرس من اللجام . (٦) أى مسالك خفي يعسر الخروج منه (٧) سرى فيكم (٨) أى معاهدة ومخالفة (٩) ملازمة

العداوة ، وهو سبب كل قطيعة (١) ومُفرق كل جماعة ، وقاطع كل رحم من الأقرباء (٢) ، ومُحدث للفرق بين القرناء (٣) ، ومُلحق الشر بين الحلفاء (٤) ووصف أيضاً أفضل الكلام - وقال :

أفضل الكلام ما كان قليله يُغنى عن كثيره ، ومعناه ظاهراً في لفظه ، وكأنَّ الله قد ألبسه من ثياب الجلالة ، وغشاه (٥) من نور الحكمة ، على حسب نية صاحبه وتقوى قائله - فإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً صحيح الطبع بعيداً من الاستكراه (٦) مُنزهاً عن الاختلال ، مَصُوناً عن التكلف ، صنع في القلوب صنيع الغيث (٧) في التربة الكريمة ، ومتى قُصِّلت الكلمة على هذه الشريطة ونفذت من قائلها على هذه الصفة ، كساها الله من التوفيق ، ومنحها من التأييد ما لا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة ، ولا يذهل عن فهمها معه عُقول الجهلة .

وصف الشعراء المحدثين

قال ابن دُرَيْد : سألت أبا حاتم عن « أبي نواس » فقال : إنَّ جدَّ أحسن وإنَّ هزل ظرف ، وإنَّ وصف بالغ ، يُلقَى الكلام على عواهنه لا يُبالى مِنْ أَيْنَ أَخَذَ ، قلت : « فبشار بن بُرْد » قال : نظار غَوَاصٌ مطيلٌ مجيد يصف ما لم يره كأنه رآه على أنَّ في شعره خللاً كثيراً ، قلت : « فمروان بن أبي حفصة » قال : شاعر راض عن نفسه يستحسن كل ما جاء منه معجبٌ به ، لا يرى أنَّ من سبقه يتقدمه ، كثير الصواب ، كثير الخطأ ، ليس لشعره صنعة قلت : « فمسلم بن الوليد » ؟ قال : خليج صافٍ ينزع من بحر كدر ، كالزندیوري تارةً ويصلد أخرى ، قلت : « فأبو العتاهية » قال : غناء جَمٌّ ، واقتدار سهل وشعر كخرز الزجاج ، وربما أشبهه الياقوت والزبرجد ، قلت : « فعباس بن

(١) انفصال (٢) كل قرابة واتصال (٣) المناظر (٤) مولد الشر بين المتحالفين (٥) كساء (٦) أى من احبار الفكر (٧) المطر

«الأحنف» قال : يُلقَى دلوهُ في الدلاء فيغترف الصفو أحياناً والحمأة أحياناً ، على أن كدره أكثر من صفوه ، قلت « فسلم الخاسر » قال : مُقِلُّ مداح ، شعره ديباج وعهن ، يُموّه الردى حتى يشبهه الجيد ، قلت « فأبو الشيص » قال : جده كله فيه حلاوة وبشاعة كالسدرة التي نفضت ففيها المستعذب والمستبشع قلت « فعلى بن جبلة » قال : بَحَّاثٌ عن الكلام الفخْم ، والمعنى الرائع ، لا ينال مرتبة القدماء ، ويجل عن منزله النظراء . قلت « فأبو تمام » قال : سيل كثير الغناء ، غزير الغمار ، جم النظاف ، فإذا صفا فهو السلاف بالماء الزلال ، قلت : « فعبد الصمد بن المعتدل » قال : خَرَّاجٌ ولَّاجٌ ، يعتسف تارة ويهتدى أخرى ، قلت « فعلى بن الجهم » قال كلام رصين ومسلِكٌ وعَرٌ ، عقله أَغْلَبُ على شعره من طبعه ، قلت « فبكر بن النطاح » قال : تشبه بالأعراب فأفرط . وتجاوز حد المولدين فأسهب ، فهو الساقط . بين القريتين .

وصف ابن الأثير المتوفى سنة ٨٥٩ هـ أبا تمام والبحتري والمتنبي

قال : لقد وقفت من الشعر في كل ديوان ومجموع ، وأنفدت شطرا من العمر في المحفوظ . منه والمسموع ، فألفيته بحرًا لا يوقف على ساحله ، وكيف يُحصى قول لم تُحصِ أسماء قائله ؟ فعند ذلك اقتصرت منه على ما تكثر فوائده ، وتشعب مقاصده ، ولم أكن ممن أخذ بالتقليد والتسليم ، في اتباع من قصر نظره على الشعر القديم ، إذ المراد من الشعر إنما هو إبداع المعنى الشريف ، في اللفظ . الجزل اللطيف فمتى وجدت ذلك فكل مكان خيمت فهو بابل ، وقد اكتفيت من هذا بشعر أبى تمام ، والبحتري والمتنبي ، وهؤلاء الثلاثة هم (لَاتُ الشعر وعُزَاهُ ومناتهُ) الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومُستحسناته ، وقد حَوَتْ أشعارهم غرابة المحدثين وفصاحة القدماء ، وجمعت بين الأمثال السائرة ، وحكمة الحكماء . أما أبو تمام : فإنه ربُّ معانٍ وصيقل أذهان ، وقد شهد له بكل معنى مُبتكر ، لم يمش فيه على أثر ، فهو غير مُدافع عن مقام الإعراب ، الذي برز فيه

على الأضراب . ولقد مارست من الشعر كل أول وأخير ، ولم أقل ما أقوله إلا بعد التنقيير ، فمن حفظ . شعر الرجل وكشف عن غامضه ، وراض فكره برائضه أطاعته أعنة الكلام ، وكان قوله في البلاغة ما قالت « حذام » فخذ منى في ذلك قول حكيم وتعلم (ففوق كل ذي علم عليم) .

وأما البُحترى : فإنه أحسن في سبك اللفظ . على المعنى ، ولقد حاز طرفي الرقة والجزالة على الإطلاق ، فبينما يكون في شطف نجد ، إذ يتشبث بريف العراق ، وسُئِلَ المتنبى عنه وعن أبي تمام وعن نفسه فقال : أنا وأبو تمام حكيمان ، والشاعر البُحترى . ولعمري إنه أنصف في حكمه ، وأعرب بقوله هذا عن متانة علمه ، فإن البُحترى أتى في شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء ، في اللفظ المصوغ من سلافة الماء ، فأدرك بذلك بُعد المرام ، مع قربه إلى الأفهام ، وما أقول إلا أنه أتى في معانيه بالنوادر الغالية ، ورقى في ديباجة لفظه إلى الدرجة العالية . وأما المتنبى فإنه أراد أن يسلك مسلك أبي تمام ، فقصرت عنه خطاه ، ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه ولكنه حُطِيَ في شعره بالحكم والأمثال . واختص بالإبداع في وصف مواقف القتال وأنا أقول قولاً لست فيه مُتأثماً ، ولا منه مُتَلثماً ، وذلك أنه إذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها ، وأشجع من أبطالها . وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ، حتى يظن أن الفريقين قد تقابلا ؛ والسلاحين قد تواصلوا فطريقه في ذلك تضل بسالكه ، وتقوم بعذر تاركة ، ولا شك أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة فيصف لسانه ، ما أداه إليه عيانه ، ومع هذا فإن رأيت الناس عادلين عن سنن التوسط . فيما مفرط . في وصفه وإما مفرط . على أنه إذا كان انفراد بطريق صار أبا عذره ، ولقد صدق في قوله من أبيات يمدح بها سيف الدولة :

لا تطلبن كريماً بعد رؤيته إن الكرام بأسخاهم يداً خُتموا
ولا تبال بشعر بعد شاعره قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

وصف المنفل الضبي المتوفى سنة ٤٣٠ هـ مروره ببعض أحياء العرب

رَوَى المفضل الضبي قال : نزل علينا بنو ثعلبة في بعض السنين وكنتُ مشغوقاً
بسماع أخبار العرب وجمعها ، فأخذتُ أجول بين خيامهم ، وأتحمسُ من أحوالهم
وإذا أنا بامرأة واقفة في فناء خبائها آخذة بيد غلام قلماً رأيتُ مثله في
حسنه وجماله وهي تعاتبه بلسان رطب ، وكلام عذب ، يسترقه السمع ويترشفه
القلب ، فكان أكثر ما أسمعُه منها (بنى - وأى بنى) وهو يتبسم في وجهها
وقد غلب عليه الحياء والخجل كأنه من ربات الحجال فلا يحير جواباً ، ولا
يبدي خطاباً ، فاستحسنْتُ ما رأيتُ ، واستحليت ما سمعتُ ، فدنوتُ فسلمت
فرد عليّ السلام ووقفتُ أنظر إلى المرأة والغلام ، فقالت لي : يا حضري ما حاجتك ؟
قلت : الاستكثارُ مما أسمعُ ، والاستمتاع بما أرى ، فابتسمت وقالت : يا هذا
إن شئتُ سقتُ إليك ما هو أحسنُ مما رأيتُ ، فقلت هات حفظك الله ، قالت :
ولد هذا الغلام فكان ثالث أبويه فرببني بيننا كانه شبلٌ ، وكنتُ أقيه برد
الشتاء وحرّ الهجير ، حتى إذا ماتمتُ له خمس سنين ، أسلمتُهُ إلى المؤدّب فحفظه
القرآن فتلاه ، وعلمه الشعر فرواه ، ورغب في مُفاخرة قومه ، وطلب ما ثر آبائه
وأجداده فلما اشتدَّ عظمه وكُمِّل خلقه ، حملته على عِتاق الخيل فتفرس وتمرس
ولبس السلاح ومشى لخيلاء بين بيوتات الحى ، وأصغى إلى أصوات ذوى
الحاجات ، فأخذ في قرى الضيف وإطعام الطعام ، وأنا عليه وجلة أحرصه من العيون
أن تصيبه ، ومن الألسن أن تعيبه ، إلى أن نزلنا في بعض الأيام منهالاً من المناهل
بين أحياء العرب ، فخرج فتيان الحى في طلب ثأر لهم وشاء الله تعالى أن أصابت
لغلام وعكة شغلته عن الخروج ، حتى إذا أمعن القوم ولم يبق في الحى غيره .
ونحن آمنون وادعون ، فوربك ما هو إلا أن أدبر الليل وأقبل الصبح
حتى طلعت علينا طلائع العدو وغرر الجياد ثواراً لا زواراً ، فما كان

إلا هنيهة حتى أحرزوا الأموال ، وهو يسألني ما الخبر ؟ وأنا أسترده عنه إشفاقاً عليه وضناً به ، حتى إذا علت الأصوات وبُرُزَت المخدرات ، رمى دثاره وثار كما يثور الصرغام إذا أغضب ، فأمر بإسراج فرسه ، ولبس درج حربه ، وأخذ رمحه بيده ، وركب حتى لحق حماة القوم وأنا أنظر إليه فطعن أذناهم منه فرمى به ، ولحق أبعدهم فقتله ، فانصرف إليهِ وجوه الفرسان ، فرأوه غلاماً صغيراً لا مدد وراءه ، فحملوا عليه ، فأسرع يوم البيوت ، حتى إذا خلفهم وراءه وامتدوا في أثره عطف عليهم ففرق شملهم وشتت جمعهم وقلل كثرتهم ومزقهم كل ممزق ، ومَرَق كما يمرق السهم من الرمية ، وناداهم خلوا عن المال فوالله لا رجعت إلا به . أو لأهلكن دونه ، فتداعت إليه الأفران ، وتمايلت نحوه الفرسان . وتميزت له الفتیان وحملوا عليه وقد رفعوا إليه الأسنة ، ومالوا عليه بالأعنة ، فوثب عليهم وهو يزأر كالأسد ، وجعل لا يحمل على ناحية إلا حطمها ، ولا كتيبة إلا هزمها ، حتى لم يبق من القوم إلا من نجا به فرسه ، ففاز بالأموال وأقبل بها ، فكبرت القوم عند رويته ، وفرحوا فرحاً عظيماً بسلامته ، فوالله ما رأينا قط يوماً كان أصبح صباحاً وأحسن رواحاً من ذلك اليوم ، ولقد سمعته ينشد في وجوه فتيات الحى هذه الأبيات :

تأملنَ فعلى هل رأيتن مثله	إذا حشرجت نفس الكمي عن الكرب
وضاقت عليه الأرض حتى كأنه	من الخوف مسلوب العزيمة والقلب
ألم أعط. كلاً حقه ونصيبه	من السمهرى اللدن والصارم العضب
أنا ابن أبي هند بن قيس بن خالد	سليل المعالي والمكارم والسيب
أبي لي أن أعطى الظلامة مُرهفٌ	وطرف قوى الظهر والجوف والجنب
وعزم صحيحٌ لو ضربت بحدده	شماريخ رضوى لانحططن إلى الترب
وعرض نقي أتقى أن أعيبه	وبيت شريف في ذراً ثعلب الغلب
فإن لم أقاتل دُونكن وأحتمى	لكن وأحميكن بالطعن والضرب

وأبذل نفساً دونكن عزيزة على لأطراف القنا وطلبى القضب
فلم تصدق اللاتي مشين إلى أبي يهنئنه بالفارس البطل الندب
وصف نهج البلاغة للإمام المرحوم الشيخ محمد عبده المتوفى سنة ١٣٢٣ هـ
أوفى لي حكم القدر بالإطلاع على كتاب (نهج البلاغة) صدفةً بلا تعمد ،
أصبت على تغير حال ، وتبلبل بال ، وتزاحم أشغال ، وعطلة من أعمال ،
فحبسته تسلية وحيلة ، فتصفحت بعض صفحاته ، وتأملت جملاً من
عباراته من مواضع مختلفات ، ومواضيع متفرقات ، وكان يخيل لي في كل مقام
أن حروباً شبت ، وغارات شنت ، وأن للبلاغة دولة ، ولل فصاحة صولة ، وأن
للأوهام عرامة (١) ، وللريب دعارة (٢) ، وأن جحافل الخطابة ، وكتائب الذرابة ،
في عقود النظام ، وصفوف الانتظام ، تنافح بالصفيح الأبلج (٣) والقويم الأملج (٤) ،
وتمتلج ٥ المهج بروائع الحجج ، وتفل دعارة الوسوس وتصيب مقاتل الخوانس (٦)
فما أنا إلا والحق منتصر . والباطل منكسر ، ومَرَج الشك في خمود ، وهَرَج
الريب في ركود ، وأن مدير تلك الدولة ، وباسل الصولة هو حامل لوائها الغالب ،
أمير المؤمنين على بن أبي طالب ؛ بل كنت كلما انتقلت من موضع إلى موضع
أحس بتغير المشاهد ، وتحول المعاهد ، فتارة كنت أجدي في عالم تعمه من المعاني
أرواح عالية ، في حلل من العبارات الزاهية ، تطوف على النفوس الزاكية ، وتدنو
من القلوب الصافية توحى إليها رشادها ، وتقوم منها منادها ، وتنفر بها عن
مداحض المزال إلى جواد الفضل والكمال ، وطورا كانت تتكشف لي الجمل عن
وجوه باسرة ، وأنياب كاشرة ، وأرواح في أشباح النمر ، ومخالب النور ،
وقد تحفزت للوثاب ، ثم انقضت للاختلاب فخلبت القلوب عن هواها ، وأخذت

(١) العرامة : الشراسة (٢) الدعارة : سوء الخلق (٣) الصفيح :
السيف ، والأباج : اللامع البياض (٤) الرمل الأملج : الاسمر (٥) تمتلج :
تمتص (٦) الخوانس خواطر السوء تسلك من النفس مسالك الخفاء

الخواطر دون مرماها . واغتالت فاسد الأهواء ، وباطل الآراء ، وأحياناً كنت أشهد أن عقلاً نورانياً لا يشبه خلقاً جسدياً فُصل عن الموكب الإلهي . واتصل بالروح الإنساني . فخلعه عن غاشيات الطبيعة وسما به إلى الملكوت الأعلى ، ونما به إلى مشهد النور الأجل . وسكن به إلى عمار جانب التقديس ، بعد استخلاصه من شوائب التلبيس . وآتات كَأَنِّي أسمع خطيبَ الحكمة ، يُنادي بأعلياء الكلمة ، وأولياء أمر الأمة . يُعرفهم مواقع الصواب ، ويُبصرهم بمواضع الارتباب ويُحذّرهم مزالق الاضطراب . ويُرشّدهم إلى دقائق السياسة ، ويهديهم طريق الكياسة ، ويرتفع إلى منصات الرياسة . ويصعدهم شرف التدبير ، ويُشرف بهم على حسن المصير .

وصف حفلة للمرحوم المؤيدحي المتوفى سنة ١٩٣٠ م

لو كان لليالي لسانٌ ينطق بالفخار ، وجنانٌ يجرى بنظم الأشعار ، لأنشدت ليلة الحفلة (الخديوية) قصيدةً تسجل لها في ديوان العصور والدهور ، مالم تبلّغه ليلة قبلها في تكامل الفرح والسرور ، ولو كان الدهر يُفصح لنا يوماً عن انشراحه وابتهاجه . لأنبأنا بأنه ادّخرها غرةً لجبينه ، ودرةً لتاجه . لا زالت أيام الجنب العالی ولياليه مُشرقةً بالسعد والهناء . مُتألقة تآلق البدور في أفق السماء .

ووصف أيضاً متحفاً من مقامه له

قال عيسى بن هشام : زایلنا الأهرام وخليناها ، تندب من شادها وتنعي من بناها . وملنا إلى دار التُّحف ومستودع الآثار ، لمشاهدة ما حفظته لنا من صنوف الطرف وعيون الأخبار ، وما أخرجته الأيام من عالم الخفاء إلى عالم الظهور . بعد أن كان سرّاً مكتوماً في خواطر العصور والدهور ، وما صانته بطون القبور من الفناء والدثور ، وحمته أحشاء الرُّموس من العفاء والدُّروس وما أخبته

أرحام المعابد والهياكل من بقايا الماضين وخبايا الأوائل ، وما انكشفت عنه
سُجُوف الأحقاب وديعة الأسلاف للأعقاب ، من مكثون الدفائن ومكنوز الخزائن
وعجائب الفن الدقيق ، وبدائع البدع الأنيق ، وغرائب الصنع العتيق ، بليت
في اصطحابها بطون الأيام والليالي ، وانحنت في احتضانها ظهور العصور الخوالى .
وانقلبت البحار وهاداً ، وأصبحت الوهاد أطواداً ، وغدت الأغوار أنجاداً ،
وأضحى العمار خراباً والخرابُ عماراً ، والغمارُ سراباً ، والسرابُ غماراً ،
وتمدنت بواد ، وتبدت مدائن (١) ، وبادت مواطن وقامت مواطن (٢) ، ومضت
دول ، وذهبت أولُ إثر أول ، وبدت أحوالٌ وحالت ، وظهرت أعمالٌ وزالت ،
وهى كما تركها أهلها ، مَصُونٌ وَضُعُهَا ، محفوظٌ . شكلها ، خبرٌ صادق ،
ولسانٌ ناطق تخبر بالعبر ، وتحدث عن غبر :

مضت غبرات العيش وهى غواير على الدهر مكتوبٌ عليها حبايس

وصف الفونوغراف « الحاكي » للمرحوم مصطفى بك نجيب المتوفى سنة ١٣٢٠ هـ
مثال القوة الناطقة ، من غير إرادة سابقة ، يقتطف الألفاظ . اقتطافاً ،
ويختطف الصوت اختطافاً ، مطبعة الأصوات ، ومِرآة الكلمات ، ينقل الكلام
من ناحية إلى ناحية ، نقل كلام عمر رضى الله عنه إلى سارية (٣) أشد من الصدى
في إعادة الصوت على أصله ، كأنه الحروف على يد الطابع ، والوتر عن يد الضارب
والقصب على فم القاصب ، يحفظ الكلام ولا يبيده ، ومتى استعدته منه يعيده ،
من غير أن يبقى لفظاً في صدره ، أو يكتُم شيئاً من أمره ، كأنما حفظ الوديعة
في نفسه طبيعة ، فلو تقدّم له الوجود في مرتبه الزمن لما احتجنا في الإخبار إلى
عننة (٤) . ولا في الدعاوى إلى بيّنة ، بل كان يُسمِعنا كلام السيد المسيح في المهد ،

(١) البادية : الصحراء (٢) مواطن الأولى - جمع موطن - أى مكان
الانسان ومقره ، ومواطن الثانية : مشاهد الحرب (٣) ابن زيد الذى ناداه
عمر رضى الله عنه على المنبر (٤) مراده الأخبار عن النبى صلى الله عليه
وسلم التى تروى عن فلان عن فلان .

وصوت عاذر (١) من اللحد ، وكانت استودعته الفلاسفة حكمتهم ، وأنشدوه
كلمتهم ، فرأينا غرائب اليونان وبدائع الرومان ؛ وربما سمعنا خطب سحبان
وشعر سيدنا حسن بذلك اللسان ، وأصبح وجود الإنسان غير محدود بزمن
من الزمان . لله دره من تلميذ يستوعب ما عند المعلم ، ويستخلصه في لحظة
معيدا لقوله ، ناقلا لصوته ونفظه :

لقد وجدت مكان القول ذا سعةٍ فإن وجدت لساناً قائلاً فقل
نديم ليس فيه هفوة النديم ، وسمير لا ينسب إليك تقصير ، تُسكته
وتستعيده تدمه وتستجيده ، تنقصه وتستزیده ، وهو في كل هذه الأحوال
راض بما يقال ، لا يكل من تحديث ، ولا يمل من حديث ، نمامٌ ينم لك كما ينم
عليك ، وينقل لغيرك كما ينقل إليك ، فهو المصور لكل فن ، المتكلم بكل
لغة ، المتحدث عن كل إنسان ، المؤرخ لكل زمان ، الشاعر النائر ، المغنى العازف
لا تعجزه العبارة ، ولا يُجهد الأداء ، ولا يضره اختلاف شكل ، ولا تبأين أصل
بل تعهدت شدة حفظه للبشرية من اللغات ، إلى حفظ أصوات العجاوات
إلى اصطكاك الجمادات

وقال ووصف أيضاً نظارة ويشكر من أهداها :

ورد الكتاب المطرز بحلى الكرم . المحلى بجميل النعم ، واستلمت الهدية
فسلمت يد أهدتها ، وحفظت السجيا التي محاسن الأعمال هدتها ، ودامت
رحاب مثل هذه الحسنات فيها مجال ، وللمحسنات بهاء وجمال ، وللآمال محط
رحال ، وللمقاصد كعبة إقبال ، وطابت نفس تعالى الله أن تماثلها نفس عصام
فإنها نسخت آية الكرم والإقدام ، بآية الجود والإكرام ، وفعلت في القلوب
بالعطاء والنوال ، ما قصرت عنه الرماح الطوال ؛ وتاملتها فأرتنى العين رأت

(١) هو الذى أحياه عيسى عليه السلام .

وَأَظْهَرْتُ مِنْ مَحَاسِنِ الْمَنَاطِرِ مَا أَمَرْتُ وَقَرِيتُ كُلَّ مَنْظُورٍ بَعِيدٍ ، وَتَلْتُ
 «فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» وَصَفَا وَقَتِي بِصَفَائِهَا ، فَلَمْ
 أَشْتَهُ شَيْئاً إِلَّا جَمَعْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنِي ، وَصَحَّ عَلَيْنَا قَوْلُ الْقَائِلِ : «رَأَيْتَ بَعَيْنَهَا
 وَرَأَتْ بَعَيْنِي» ثُمَّ سَرَّحْتُ نَظْرِي فِي الْأَطْلَالِ وَالرُّسُومِ ، حَتَّى نَظَرْتُ نَظْرَةً فِي
 النُّجُومِ فَلَمْ تُخَفِّ عَنِّي شَجْراً وَلَا مَدَراً ، وَلَا نَجْماً وَلَا قَمَراً :

يَزِيدُ وَجْهَهَا حُسْنًا إِذَا مَا زِدْتَهُ نَظْرًا

بِبَهَاءٍ يَخِيلُ لِي أَنَّهَا صَيَّغَتْ مِنْ ضِيَاءٍ ، فَلَا عَيْبَ فِيهَا غَيْرَ أَنِّي نَظَرْتُ
 بِهَا فِي سَمَاءِ فَضْلِكَ الْبَاهِرِ ، وَأُفُقِ شَرْفِكَ الظَّاهِرِ ، فَلَمْ يَنْكَشِفْ لِي بِهَا
 لُجُودُكَ آخِرٌ ، لَا زَالَ كَرَمُكَ بَعِيداً حَدُّهُ عَلَى كُلِّ نَازِلٍ وَبَاصِرٍ ، وَفَضْلُ
 مَنَاهِلِكَ غَايَةً تَقْصِدُهَا الْأَوَائِلُ وَالْآخِرُ .

وصف سان استفانو بالإسكندرية لمؤلف الكتاب

كَتَبَانِي وَالْقَلَمُ فِي الْبَنَانِ ، يُسَطِّرُ مَا يَمْلِكُهُ الْجَنَانُ ، عَلَى مَحَاسِنِ ذَلِكَ الْمَكَانِ
 الْمَشْهُورِ بِ (سان استفانو) . هُنَاكَ تَرَى الْبَحْرَ كَالْمَرَّاةِ تَمَثَّلَتْ فِيهَا السَّمَاءُ ،
 فَكَأَنَّمَا الْمَاءُ سَمَاءٌ ، وَالسَّمَاءُ مَاءٌ ، وَتَمْخَالُ الشَّاطِئُ مَرْتَعاً لِلْظُّبِيَّاتِ الْآنَسَاتِ ،
 أَوْ سُوقِ جَمَالٍ تُبَاعُ فِيهِ الْقُلُوبُ عَلَى الْغَانِيَّاتِ .

هُنَاكَ الشَّبِيبَةُ وَاللَّعِبُ ، وَالزَّهْرُ وَالطَّرْبُ ، وَقَدْ اعْتَلَّ الصَّبَا ، وَصَحَّ
 الصَّبَا ، حُورٌ وَوِلْدَانٌ يَمْرَحُونَ بِنَشَاطِ الشَّبَابِ ، وَيَتَهَادُّونَ بِنَشْوَةِ الدَّلَالِ
 وَالْإِعْجَابِ ، فَمِنْ «غَادَاتِ» رَوَائِحِ وَغَادِيَّاتِ ، قُدُودُهُنَّ الرِّمَاحُ الطَّاعِنَاتُ
 وَلِحَاطَهُنَّ الْقَاتِلَاتُ الْمُحْيِيَّاتُ .

وَمِنْ «وِلْدَانٍ» يَلْعَبُونَ بِالْكُرَةِ وَالصُّوْلُجَانِ ، فَالْكُرَةُ قَلْبُ الْمُحِبِّ الْمُتَيْمِّمِ ،
 وَالصُّوْلُجَانُ الَّذِي يَدْفَعُهَا شَوْقُ الْعَاشِقِ الْمَغْرَمِ ، هُنَاكَ نَغْمَاتُ الْأَوْتَارِ تَدْعُو إِلَى
 اغْتِنَامِ الْأَوْتَارِ ، تَهْدِي الْأَرْتِيَّاحُ إِلَى الْأَرْوَاحِ ، وَتُبْدِلُ الْأَفْرَاحَ مِنَ الْأَتْرَاحِ

هَناكَ الكَوْوُسُ على قُطْبِ الخِلاعةِ تَدُورُ ، فَهِيَ بِرَشْفَاتِهَا الثَّغُورُ ، وَبِنُورِهَا
الْبُدُورُ تَشْرِقُ مِنَ الحِناَنِ وَتَغْرُبُ فِي أَفْواهِ النَّدَمَانِ . فَيَعْلُو الوُجُوهَ الشَّفَقُ ،
فَتَبَارِكُ المَبْدِعُ فِيمَا خَلَقَ .

هَناكَ فَرِيقٌ مِنْ أَهْلِ الهَوَى . حُلَفَاءُ الأَسَى وَالْجَوَى ، يَخْتَلِسُونَ النِّظَرَاتِ
وَتَحْتِهَا سِهَامَ صائِبَاتِ ، تَقْصِدُ قُلُوبَهُمْ وَلَا راحِمَ لَهُمْ ، يَنادُونَ مِنْ يُحِبُّونَ فَلَا
يُجَابُونَ . وَيتَذَلُّونَ لِعِزِّ الجِمالِ على أَنَّهُمْ لَا يُحَابُّونَ . يَتَمَنُّونَ الرِّضا بَعْدَ الهَجَرِ
وَحِلْوِ اللَّقا بَعْدَ الصَّبْرِ ، وَفَرِيقٌ آخَرٌ قَدِ وَا فاهِمِ السَّعدِ فَذالُوا الأَماني ، تَعْلُو وَجُوهَهُمْ
نُضْرَةُ النِّعَمِ بِما نالوه مِنْ إِشارةٍ أَوْ تَسليمِ ، يَتَبادَلُونَ التَّحِيَّاتِ بِالْحَواجِبِ ،
وَيُشْفِقُونَ على القُلُوبِ فيَضِعُونَ الأَيْدِي فَوْقَ التَّرائِبِ ، حَتَّى إِذا اللَّيْلُ سَجَا ،
وَسَتَرَهُمُ رِداءُ مِنَ الدُّجَى ، يَتَلَقَّونَ إِلى جِنايِبِ اليَمِّ ، وَيَتَهامِسُونَ وَالْفَمُّ قَرِيبِ
مِنَ الفَمِّ ، تَراهِمُ على الأَرائِكِ جَنباً بِجَنبِ ، وَعُنُقاً على كَتِفِ . مَبْتَعِدِينَ عَنِ
الْعُيُونِ هَنا وَهَنا ، وَقَدِ بَلَغُوا الآرابَ وَالْمُنَى ، يَجْتَنُّونَ الثَّمَرَ مِنَ السَّمرِ ، وَيَلْتَمِسُونَ
الرَّاحَ بِالرَّاحِ ، وَلَا يَزَالُونَ فِي مَسرَّةٍ وَهَنا وَأَنسَ وَصَفاءَ ، حَتَّى يُنادِي مُنادى
المَوائِدِ بِحَيٍّ على شَهِيِّ الطَّعامِ ، وَهَلُمُّوا إِلى رَأْتِى المَذامِ ، فَيَجْلِسُونَ مِثْنَى وَثَلَاثَ
وَرُبَّاعٍ مَحْفُوفِينَ بِيانِعِ الأَزْهارِ ، مُسْتَضِيئِينَ بِأَزْهِى الأَنْوارِ . وَالْغُلَّامانِ عَنِ يَمِينِهِمْ
وَشِمالِهِمْ قائِمُونَ بِحِوائِجِهِمْ ، وَهَمٌّ فِي لِباسِهِمْ كَأَقْمارِ ، وَفِي خِفَّتِهِمْ كَلِمَحِ الأَبْصارِ
فِيما كَلُونِ وَيَشْرَبُونَ ، وَيَضْحَكُونَ وَيَلْعَبُونَ بَيْنَ نِغْمَةٍ بِالْحَدِيثِ الرَّخِيمِ ، وَنِشْوةٍ
بِالمِدامِ القَدِيمِ ، حَتَّى إِذا أَخَذَتْ كُلُّ حاسَةٍ حَظَّها ، وَتَلْجَلَجَتِ الأَلْسِنَةُ فَلَا تَفْهَمُ
لَفْظَها ، هَناكَ تَراهِمُ كَسَرَبِ الطِّباءِ رائجٍ وَغادِ ، هَذهَ مائِلَةٌ وَهَذا مُتَهادٍ ، إِلى أَنَّ
يَتَمَشَّى النُّومُ فِي الجَفُونِ . فَتَذِلُّ العُيُونُ فَيَنْصَرِفُونَ إِلى المَنامِ ، وَيَحْمِلُونَ
بِلَذِيذِ الأحْلامِ ، بَعْدَ أَنْ يَتَعاْهَدُوا على الأَوْبَةِ وَيَحْسِنُوا الخِتامَ بِالتَّوبَةِ .

وصف الشمس

الشمس كوكبٌ مضىءٌ بذاته ، وهى أعظم الكواكب المرئية لنا منظراً ،

وَأَسْطَعُهَا ضَوْئًا ، وَأَغْزَرَهَا حَرَارَةً ، وَأَجْزَلُهَا نَفْعًا لِلْأَرْضِ الَّتِي نَسْكُنُهَا ، وَلَكَثِيرٍ مِنْ أَخَوَاتِهَا ، سَيَارَاتِ الشَّمْسِ وَبَنَاتِهَا .

والشمس كرة متأججة ناراً ، حرارتها أشد من حرارة أى ساعور (١) أرضي ، ويبلغ ثقلها ثلثمائة وزن من ثقل الأرض ، وهى أكبر منه جرمًا بثلاثمائة ألف وألف مرة .

وتدور الشمس على محورها من الغرب إلى الشرق مرة واحدة فى نحو خمسة وعشرين يوماً . وتبعد عنا بنحو اثنين وتسعين ألف ألف ميل وخمسمائة ألف ميل وهى مع كل هذا العظم الهائل لاتعد فى النجوم الكبرى ، بل إن فى أكثر ما نشاهد من النجوم الثابتة شمس أكبر من الشمس بألوف الألوف ، والشمس بسياراتها تابع من توابع أحدها .

وسطح الشمس مهب عواصف وزوابع نيرانية شديدة ، تشير فى جوها أشوطة (٢) هائلة تندلع (٣) ألسنتها المتأججة عن محيط كرتها أميالاً ، وقد وصف بعض العلماء لها ارتفاع من سطحها لأول وهلة نحو أربعين ألف ميل فى الفضاء ، ثم ازداد بريقاً (٤) ثم ارتفع بعد نصف ساعة إلى خمسين وثلثمائة ألف ميل ، ثم جعل يَضُول ويضعف ، فلم يمض ساعتان حتى اضمحل اضمحلالاً ، غير أن ما وصفه هذا العالم ليس إلا من قبيل النوادر ، ولكن ارتفاع اللهب نحو مائة ألف ميل ليس بغير العادى وكثيراً ما تبلغ سرعة اللهب مائة ميل فى الثانية ، وأكثر مادة الشمس من عنصر المُنْخَذَى (الأيديروجين) المتقدم .

وبرصد الشمس مراراً بالمرقب المغشى بالسواد شوهد فى صفحة قرصها نكت سود ، وكلف يشوه محياها ، كأنما هى كرة سوداء الباطن غلفت

(١) الساعور : النار نفسها أو موقدها (٢) الشواظ اللهب

(٣) اندلاع اللسان خرج من الفم . (٤) تلاؤوا

يَسْطَحٍ سَاطِعٍ مِنَ الصَّعَادَاتِ يَتَخَلَّلُهُ نَقَبٌ يَظْهَرُ تَحْتَهَا السَّوَادُ ، وَلَا تَزَالُ حَقِيقَةُ هَذِهِ الْبَقْعِ مَوْضُوعَ الْبَحْثِ وَالتَّعْلِيلِ عِنْدَ الْفَلَاحِيِّينَ ، وَمِنْ تَنْقِلِ هَذِهِ النِّكْتِ عَرَفْتَ دَوْرَتَهَا عَلَى مَحْوَرِهَا .

وللشمس سياراتٌ أو أَبْدَانٌ انفصلت منها مِنْذُ أَزْمَانٍ سَحِيقَةٍ ، عَلِمَ مِنْهَا إِلَى الْآنَ نَحْوُ ثَمَانِيَةِ ، هِيَ عَلَى تَرْتِيبِ الْأَقْرَبِ مِنْهَا فَالْأَقْرَبُ : عَطَارِدُ ، فَالْزَهْرَةُ ، فَالْأَرْضُ ، فَالْمَرْيَخُ ، فَالْمَشْرَى ، فَزُحْلُ ، فَأَرَانُوسُ ، فَنِپْتُونُ . وَلَمْ تَعْلَمْ كُلُّ شَيْءٍ هَذِهِ السَّيَارَاتِ حَقَّ الْعِلْمِ ، وَإِنَّمَا أَلَمَ الْعُلَمَاءُ بِمَعْرِفَةِ مَوَادِّهَا وَكَذَاتِهَا وَأَبْعَادِهَا .

ولكن أَمَرَ الْحَيَاةَ فِيهَا لَمْ يَزَلْ مَبْهَمًا مُسْتَغْلَقًا - اللَّهُمَّ إِلَّا فِي الْأَرْضِ وَقَمَرِهَا .
أَمَّا مِقْدَارُ النِّعَمِ الَّتِي سَخَّرَهَا اللَّهُ لَنَا بِوُجُودِ الشَّمْسِ فَمِمَّا لَا يُحْصِيهِ الْعَدُّ ، فَهِيَ مَبْعَثُ حَيَاتِنَا وَحَيَاةِ الْحَيَوَانِ الَّذِي يَعْيشُ مَعَنَا ، وَمَصْدَرُ نُورِنَا وَنَارِنَا وَحَرَّتِنَا وَبَرْدِنَا ، وَهِيَ الَّتِي تَحِيلُ مِيَاهَ الْبَحَارِ بَخَارًا ، وَتَقْلُهَا فِي الْجَوِّ غَيُومًا ، وَتَنْزِلُهَا عَلَى الْأَرْضِ أَمْطَارًا ، حَيْثُ تَجْرَى جُدَاوِلُ وَأَنْهَارًا ، فَتَرْوِي زَرْعَنَا ، وَتَنْمِي غَرَاثِنَا وَتَشِيرُ الرِّيَّاحُ ، وَتَطْلُعُ الْأَنْوَاءُ ، وَتَزْجِي (١) السُّفُنَ وَالْبَوَاخِرَ فِي عِبَابِ الْمَاءِ وَتَدْفَعُ الْقَطَرَاتِ الْحَدِيدِيَّةَ ، وَتُدِيرُ آلَاتِ الْبَخَارِيَّةَ ، وَتَنْيرُ الْمَصَابِيحَ الدِّخَانِيَّةَ وَالزَّيْتِيَّةَ إِذْ لَيْسَ الْفَحْمُ الْحَجَرِيُّ وَالزَّيْتُ الْأَرْضِيُّ إِلَّا حَرَارَةٌ نَارُهَا الْمُدْخَرَةُ مِنْذُ قَدِيمِ الدَّهْوَرِ ، لِيَنْتَفِعَ بِهَا أَحْيَاءُ هَذِهِ الْعُصُورِ ، وَمَا النَّهَارُ الْمُبْصِرُ ، وَاللَّيْلُ الْمَظْلَمُ إِلَّا آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْمُسَخَّرَةِ لَنَا بِتَسْخِيرِ هَذَا الْمَخْلُوقِ الْعَجِيبِ ، فِي النَّهَارِ نَسْعَى فِي مَنَاكِبِ الْأَرْضِ لَابْتِغَاءَ رِزْقِنَا ، وَتُدْبِيرِ مَعَاشِنَا ، وَتَنْظِيمِ شُؤْنِ حَيَاتِنَا ، وَنُسَبِّحُ بِحَمْدِ رَبِّنَا وَنَعْتَبِّرُ بِآثَارِ مَنْ سَبَقَنَا ، وَفِي اللَّيْلِ نَسْكُنُ لِارَاحَةِ أَبْدَانِنَا ، وَاسْتِجْمَاعِ (٢) قَوَانِنَا ، وَاسْتِيفَاءِ حَظِّنَا مِنَ النَّوْمِ الَّذِي بِهِ نَسْتَدِيمُ صِحَّتَنَا ، وَنَسْتَعِيشُ مَا فَقَدْنَاهُ بِأَعْمَالِنَا ، وَنَنْظُرُ فِي

(٢) استجماع .

(١) تسير .

ملكوت السموات وما خلق الله من شئ في حركات الكواكب وانتقالها ،
وبديع صُورها وألوانها . فتعنو وجوهنا ، ويتضاءل كبرياؤنا ، أمام قدرة
خالقنا العظيم ، فسبحانه من إله حكيم .

وما الألوان التي نراها في نور الأزهار ، وريش الطيَّار ، ونفائس
المصنوعات إلا أثر وقوع أضوائها على هذه المرئيات وانعكاسها (١) على أبصارنا ؛
فإن نور الشمس الأبيض مؤلف من سبعة ألوان أصلية (٢) تنشأ منها كل
الألوان الفرعية وهي : الأحمر ، والبُرْتُقالى ، والأصفر ، والأزرق ، والأخضر
والنَّيلجى ، والبنفسجى . فمن الأجسام ما لا يمتص شيئاً من هذه الألوان ،
بل يعكسها كلها على العين ، فيبدو أبيض ناصعاً كزهرة الياسمين ، ومنها
ما تمتص بعضها ويعكس باقيها ، فيَتَلَوَّنْ بِلَوْنٍ ما يعكس منها ، فإذا أبصرت
ورقة الشجر خضراء عرفت أنها اختزنت من ضوء الشمس ستة ألوان ، وردت
إلى عينيك سابعها وهو الأخضر لأن فيما ادخرته نفعا لها ، وليس بها إلى
ما لَفَظَتُهُ افتقار ، ومنها ما يرد لونين أو أكثر ، فيبدو لونه مزيجاً بين
هذه الألوان السبعة ، وهذه الألوان من عجائب صنع الله في الأرض لتمييز
بعضها من بعض ، فقد يَمَاطُلُ الشَّيْئَانِ شَكْلًا وَحِجْمًا وصلابةً وليناً وشمًا ،
ثم لا يتباينان إلا من حيث اللون فيكون اللون آيةً تباينهما ، وأكثر
ما يكون ذلك في الأزهار .

وتنوع الألوان هو السرُّ في جمال المرئيات من مشاهد الطبيعة وبدائع
الصناعة . وإن أعظم المصورين وأمهر النقاشين لم يبرزوا على غيرهم ، ويدلوا
على ذكائهم ونبوغهم إلا ببراعتهم محاكاة ألوان الطبيعة المتولفة وأشكالها
المتجانسة ، وإنما يتم لهم ذلك إذا عَرَفُوا كيف يمزجون من الأصباغ ما
يستخدمون به ألوان النور خيرَ استخدام ، وينتفعون به أحسن انتفاع ،

(١) انعكس مضارع عكس كما في الأساس .

(٢) أمكن ارجاع هذه الألوان في الصناعة الى ثلاثة .

وقد سخر علماء الطب تباين الألوان في كشف النقاب عن حقائق الجراثيم ، فإنَّ منها ما لا يتضح للعين في المِجْهَرِ إلا إذا أُلْقِيَ عليه صبغٌ خاصٌّ يُؤثِّرُ فيه فيُصبِغُ به .

ولأمواج الشمس الضوئية سرعةٌ معلومةٌ تسيرُ بها ، فإذا انخفضت هذه السرعة عما هي عليه لم تعد العينُ قادرة على رؤيتها ، لأنَّها تستحيل إلى مظهرٍ آخر غير مظهر الضوء والحرارة ، وليس ينكر ما للضوء والحرارة معاً من الأثر الحسن في تنقية المساكن مما يَقْطُنُها من الجراثيم القتالة ، والعفن المضنى ، ولذلك قيل إنَّ الدار التي تدخلها أشعة الشمس لا يدخلها الطبيبُ .

وصف القمر

القمرُ أجملُ الكواكب صورةً : وأبينها منظرًا ، وأسهلها رصدًا ، وأكبرها في رأى العين بعد الشمس جرمًا ، وهو سيارٌ كروىٌ أصغر من الأرض بنحو تسع وأربعين مرةً ، انفصل منها زمن التكوين وصار تابعاً لها ، طائفاً حولها ، مُستمدداً نوره من الشمس مثلها دائراً حول الشمس معها ، غير أنَّ طواف الأرض بقمرها حولها يتمُّ في سنةٍ شمسيةٍ ، وطواف القمر حول الأرض يتمُّ في شهر قمرى : أى مُدَّة تسع وعشرين يوماً ونصف يوم تقريباً ، ومع أنَّه خاضعٌ لنظام الأرض لا يقلُّ بُعدُه عنها عن واحد وعشرين ألفاً ومائتى ألف ميل .

والذى يسترعى أنظارنا كما استرعى أنظار من قبلنا اختلافُ أشكاله وتعدد مطالعه ، مما جعله مبعث تخيل القدماء ، ومثار تفكر الحكماء ، ومقصداً لعبادة الجُهلاء ، فتراه يلوح ليلة أول الشهر إثر غروب الشمس ضئيلاً مُقَوَّساً ، لا يلبث أن يغرب ويغيب في شفق الشمس ، ثم يهل في الليلة الثالثة أبين صورة وأبقى زمناً لازدياد تأخره في الغروب عن الشمس ، ولا يزال نوره في تزايد ، ومطالعه في تقدُّم نحو المشرق حتى يطلع من المشرق في الليلة الرابعة عشرة عند غروب

الشمس بدرًا كاملاً ، بهيَّ الطلعةِ باهرَ الأنوار ؛ فتبارك الله أحسنَّ الخالقين .
ولكنَّ الكمال لله وحده ، فإنَّ مُنتهى الزيادة مُبتدأ النقص ، ففي الليلة الخامسة عشرة يتأخر طلوعه من المشرق ، وينقصُ من حافةِ نوره التي كانت موضع هلاله الأول زيقٌ لا يُشعرُ به إلا في الليالي التالية ، ولا تزال مطالعُه في تقهقر ونوره في تناقص حتى قرب آخر الشهر فيشرق قبيلَ الفجر هلالاً ضئيلاً يكادُ يكونُ مُقلوبَ الهلالِ الأول ، في الليلة الأخيرة يكونُ عند الصباح في الأفق الشرقى مُظلماً لا يرى منه شيء ، وهو ليلة المحاق أو السرار ويظل بعضُ النهار كذلك ثم يتولدُ هلاله الجديد . ولكنه لا يظهر إلا بعد أن يغيب قرص الشمس فيلوح هلاله ، ثم يختفي كما قدمنا .

وعِلَّةُ ذلك : أن نورَ القمر كنور الأرض مُستفاد من الشمس ، وهو لا يُقابل الأرض إلا بوجهٍ واحد لا يتغير ، وهذا الوجه بالنسبة إلى حركته مع الأرض حول الشمس لا يقابل الشمس مقابلةً تامةً إلا في وضع واحد ومرة واحدة هي الليلة الرابعة عشرة ، فيغشاه ، نورها ويصير بدرًا ، أما بقية الليالي التي قبلها والتي بعدها فينحرفُ قليلاً أو كثيراً عنها ، حتى يصير كله ظلاماً ليلة المحاق ، فيطوى خبره ويكون الوجه الآخر الذي لا يرى لنا بدرًا كاملاً ، ثم يتولدُ هلاله خلقاً جديداً .

وكذلك شأن الأرض في استمداد نورها أو ما نسميه نهاراً ، ولو كان في القمر سكان ، لكانت الكرة الأرضية في رأى أعينهم أكبر كوكب في السماء ، ولشاهدوها أكبر من الجرم الذي نشاهد القمر عليه أضعافاً مضاعفة ولكانت عندهم أروع جمالاً وأبعد من قمرهم في نظرنا تشكلاً ، فبدورانها على نفسها يرونها كلها جزءاً فجزءاً ، وتظهر قاراتها ومحيطاتها واضحة عليها في وقت الصحو ، ومُظَلَّلًا بعضها بالغمام في وقت الدجن ، وتبدو أهليتها وبُدورها ضخمة باهرة ، ولكن لا يراها إلا سكان النصف المقابل لنا أو الذين يريدون التفرج برويتها من أهل النصف الثاني .

ولقرب القمر منا وخلو جوّه من الهواء سهل رصده علينا ، فترى في صفحته عند الشروق ليلة التمام كثيراً من المَحْو (١) يجعلُ صورته أشبه بوجه إنسان ذى أنف وفم وحاجبين وعينين إحداهما مُغضيةٌ ، ولا يزال كذلك حتى يتعدى خطّ زوال مكان الناظر . فإذا مال إلى المغرب انحرفت هذه الصورة حتى يصير عليها سافلها ، وليس هذا المحو إلا ظلام بطون الأودية والسهول البعيدة الغور وظلال الجبال والهضاب الشاهقة الطول شهوقاً يكاد يمنع استدارته . أما قمم الجبال وسطوحها المقابلة للشمس فتُرى لامعة ساطعة فتبين سلاسل الجبال طرائق مضيئة وقممها نقطاً لامعة وفوهات جبال ناره الشديدة السعة ، البعيدة الغور التي تعد بعشرات الألوف ، كأنها حلقات وسطها نقط سود .

وقد ظنّ القدماء في علّة المحو ظنوناً ، بعضها صادف الحقيقة ، وبعضها جانبها حتى ظهر غاليليو ، واخترع سنة ١٦٠٦ ، مرقباً يقرب الأشباح ثلاثين مسافة فأثبت وجود الجبال والأودية فيه ، وزاد عليه غيره في تحسين المراقب المكبرة حتى أصبح القمر يُرى كأنه على بُعد أربعين ميلاً منا ، على أن هذا القرب لا يجعلنا نرى الأشباح الصغيرة التي من نوع الحيوان لنتحقق أن للقمر سكانا كما للأرض أو لا ؟ ولكن قد أصبح من المرجح إن لم يكن من المحقق أنه خال من الماء ومن السحاب والضباب الناشئين منه ومن النبات ، إذ لو كان به شيء منها لتغيّر شكله من حال إلى حال ، ويُشكُّ أن له هواءً ، وإن كان له هواء فلعله لا يزيد على قمم جباله ، ولا شك أن الماء والهواء هما ينبوعا الحياة ، وتجرده منهما ، وخمود جبال ناره ، ويُبس جرمه يجعل برده شديداً جداً في الليل ، وحرّه عظيماً جداً في النهار على فرط طولهما البالغ فيه خمسة عشر يوماً مما يجعل الحياة فيه متعسرة بل مستحيلة ، اللهم إلا أن تكون حياة غير حياتنا .

(١) المحو : السواد في القمر .

وَبُرْجَحُونَ أَنَّ الْقَمَرَ كَانَ فِي أَزْمَانٍ سَحِيقَةٍ عَلَى طَبِيعَةٍ تَقْرُبُ مِنْ طَبِيعَةِ أُمَّةِ الْأَرْضِ ، فَكَانَ آهِلًا بِالْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ ، إِلَّا أَنْ صَغَرَ جَسْمُهُ جَعَلَهُ يَسْبِقُ الْأَرْضَ فِي الْيُسْبُ وَالْبُرُودَةِ فَتَقَبَّضَ وَبَرَدَ وَانْتَهَتْ دُنْيَاهُ ، وَأَصْبَحَ كَأَسْفَنْجَةٍ مَشْعَثَةٍ ذَاتِ شَعْبٍ وَنَخَارِيبٍ (١) تَكْوِينُهَا مِنْ جَنْسِ تَكْوِينِ الْأَرْضِ .

ولقد خلق الله القمر مسخرًا لأهل الأرض خاصة . فهو يعكس نور الشمس عليهم هداية لهم في ظلمات البر والبحر ، ولقد قضى الإنسان عُصُورًا وَدُهورًا وليس له مصباح في جُح الظلام غيره ، ولا يزال كذلك لأهل البدو وقبائل الهمج . وهو باختلاف أشكاله تقويم فطري لهم فبإهلاله يُعَرَفُ أَوَّلُ الشَّهْرِ وبالتربيع الأول يعرف رُبْعُهُ ، وببدره (٢) يعرف نصفه ، وبالتربيع الأخير ثلاثة أرباعه ، وبمحاقه تعرف نهايته .

وإذا مرَّ الإنسان على النظر في تقدير ضوئه ، وأوقات مطالعه ، عرف الشهر يومًا يومًا ، والليل ساعة ساعة ، قال تعالى : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحُجَّ » .

وباتحاد جذب الشمس للأرض ينشأ المدُّ والجزرُ ، وفائدتهما في تسهيل الملاحة لا تنكر ، فكم موانئ ومرافئ لولاهما لَسُدَّتْ بِرَوَاسِبِ الْأَنْهَارِ وَالسِّيُولِ .

ولضوء القمر في إنضاج الثمار والبقول أثر أيما أثر حتى إن بعضها لا ينمو ويزهو لونه إلا في لياليه البيض .

الفن الخامس : في المقامات

المقامة عبارة عن كتابة حسنة التأليف ، أنيقة التصنيف ، تتضمن نكتة

(١) جمع نخروب ، وهي الثقوب التي تكون في مثل خلايا النحل .
(٢) مصدر بدر البدر يبدد بدرا . وبالمصدر سمي هذا الكوكب عند تمام نوره كأنه يبادر الشمس بالشروق في ليلة التمام عند غروبها .

أدبيّة ، ومدارُها على رواية لطيفة مختلفة تُسندُ إلى بعض الرواة ، ووقائع شتى تُعزى إلى أحد الأدباء ؛ والمقصود منها غالباً جمعُ دُررٍ وغرر البيان ، وشوارد اللغة ونوادر الكلام ، منظوم ومنثور . فضلاً عن ذكر الفرائد البديعية ، والرقائق الأدبية ، كالرسائل المُبتكرة ، والخطب المُحبرة . والمواعظ المبكية والأصاحيك الملهمية (١) ولنذكر منتخباتٍ من مقامات مختلفة فنقول :

قال الحريرى (٢) المتوفى سنة ٦١٥ هـ - المقامة التاسعة الاسكندرانية :

أخبر الحارث بن همّام قال : طحاني (٣) مَرَحُ (٤) الشباب وهو الاكتساب (٥) إلى أن جُبِتُ (٦) ما بين فرغانة (٧) وغابة (٨) أخوضُ الغمار (٩) لأجنى الثمار وأقتحم الأخطار (١٠) لكى أدرك الأوطار (١١) ، وكنتُ لَقِفْتُ من أفواه العلماء وثقفت (١٢) من وصايا الحكماء ، أنه يلزمُ الأديب الأريب (١٣) إذا دخلَ البلد الغريب ، أن يستميل قاضيه (١٤) ويستخلص مراضيه ليشدّ ظهره عند الخصام ، ويأمن في الغربة جورَ الحكام ؛ فاتخذتُ هذا الأدبَ إماماً وجعلته لمصالحى زماماً ، فما دخلت مدينة ، ولا ولجت عرينة إلا وامتزجت

(١) اعلم أن المقامات تعرف بالمكان الذى تجرى فيه فيقال المقامة الحلبية او الموصلية بناء على أن محل وقوعها حلب أو الموصل ، وربما نسبت الى المروى عنه ، ويستحب فى راوى المقامة أن يمثل رجلاً ظريف النفس كثير الأسفار حسن الرواية متفرغاً لفنون الأدب جاداً فى طلب غرره كادا ذهنه فى تحصيل درره كالحارث بن همّام فى المقامات الحربية وعيسى بن هشام فى المقامات البديعية ، ومخترع هذا الفن هو بديع الزمان الهمدانى وبعده الحريرى ، واشتهر بعدهما كثيرون ممن نسجوا المقامات على منوالهما وان لم يباغوا ساوهما .

(٢) تقدم أنه توفى سنة ٦١٥ هـ (٣) ذهب بى . (٤) هو النشاط وشدة الفرح (٥) أى محبة اكتساب المال (٦) قطعت (٧) بلد بأقصى المشرق (٨) مدينة بالمغرب (٩) بالكسر جمع غمرة : الماء الكثير ، وهنا الأمور الصعبة (١٠) أى أدخل فى القحمة بالضم وهى الشدة ، والأخطار : الأمور العظيمة . (١١) الحجاب (١٢) أدركت (١٣) العاقل (١٤) يرغبه ويتراضاه .

بحاكمها امتزاج الماء بالراح ، وتقويته بعنايته تقوى الأجساد بالأرواح ؛ فبينما أنا عند حاكم الإسكندرية ، فى عشية عرية (١) وقد أحضر مال الصدقات ، ليفضه (٢) على ذوى الفاقات (٣) إذ دخل شيخ عفرية (٤) تعتله (٥) امرأة مُصبية (٦) فقالت : أيد (٧) الله القاضى ، وأدام به التراضى (٨) ، إني امرأة من أكرم جرثومة (٩) ، وأطهر أرومة (١٠) ، وأشرف خؤولة وعمومة ، ميسمى (١١) الصون (١٢) ، وشيمتى (١٣) الهون (١٤) ، وخلقى نعم العون (١٥) ، وبنى وبينى جارتى بون (١٦) وكان أبى إذا خطبنى بُناة (١٧) المجد وأرباب الجدد ، سكتهم (١٨) وبكتهم (١٩) وعاف وصلتهم (٢٠) وصلتهم (٢١) واحتج بأنّه عاهد الله تعالى بحلفه ، أن لا يُصاهر (٢٢) غير ذى حرفة (٢٣) ، فقيض القدر (٢٤) لنسبى ووصبى (٢٥) أن حضر هذا الخدعة (٢٦) نادى أبى (٢٧) فأقسم بين رهطه (٢٨) أنه وفق شرطه ، وادعى أنه طالما نظم دُرّة ، فباعها ببدره (٢٩) فاغتر أبى بزخرفة محاله ، وزوجنيه قبل اختبار حاله ، فلما استخرجنى من كناسى (٣٠) ورحلنى عن أناسى ، ونقلنى إلى كسره (٣١) وحصلنى تحت أمّ ره ، وجدته قعدة جُثمة (٣٢) وألفيته ضبعة نُرمة (٣٣)

(١) أى شديدة البرد (٢) يفرقه (٣) أى الفقراء المحتاجين . (٤) أى شديد الدهاء (٥) تجره بعنف (٦) أى ذات صبيان (٧) قواه ونصره (٨) أراد رضا الخصوم بحكمه الغالب والمغلوب (٩) أى أصل (١٠) الأرومة: أصل الشجرة ثم استعير لأصل الحسب (١١) علامتى ، والميسم : الآلة التى يكوى بها (١٢) الحفظ والعفاف (١٣) خلقتى وعاداتى (١٤) الرفق (١٥) أى الرفيق الظهير (١٦) أى تفاوت فى الفضل (١٧) جمع بان (١٨) قال لهم كلاما لا جواب له (١٩) ألزمهم الحجة (٢٠) كره قربها (٢١) أعطاهم (٢٢) يزوج ابنته (٢٣) صناعته (٢٤) يعنى قدر الله تعالى (٢٥) لتسبى (٢٦) المخادع (٢٧) مجالس أبى (٢٨) قومه وعشيرته (٢٩) البدره عشرة آلاف درهم (٣٠) أى منزلى ، وأصله بيت الظبى (٣١) بفتح الكاف وكسرها جانب بيته (٣٢) كثير القعود كثير الجنوم أى يلزم الموضع الذى يقعد فيه (٣٣) الضبعة والنومة أصاه العاجز الذى لا يتصرف ، والمعنى انه عاطل عن العمل .

صحبتة برياش وزى وأثاث (١) ورى (٢) فما برح يبيعه فى سوق الهضم (٣) ، ويتلف ثمنه فى الخضم والقضم (٤) إلى أن مزق مالى بأسره (٥) ، وأنفق مالى فى عسره ، فلما أنسا فى طعم الراحة ، وغادر بيتى أنقى من الراحة (٦) قالت له : يا هذا إنه لا مخبأ بعد بوس (٧) ولا عطر بعد عروس (٨) فانهض للاكتساب بصناعتك ، واجتن (٩) ثمرة براعتك (١٠) فزعم أن صناعته قد رُميت بالكساد (١١) لما ظهر فى الأرض من الفساد ولى منه سلاله (١٢) كأنه خلالة (١٣) وكلانا ما ينال منه شبعة (١٤) ولا ترقأ (١٥) له من الطوى (١٦) دمة ، وقد قدته (١٧) إليك وأحضرتة لديك ، لتعجم (١٨) عود دعواه وتحكم بيننا بما أراك الله - فأقبل القاضى عليه ، وقال له : قد وعيت (١٩) قصص عرسك . فبرهن الآن عن نفسك ، وإلا كشفت عن لبسك (٢٠) وأمرت بحبسك . فأطرق إطراق الأفعوان (٢١) ثم شمر للحرب العوان (٢٢) وقال :

اسمع حديثى فإنه عجبٌ يضحك من شرحه وينتجب (٢٣)
أنا امرو ليس فى خصائصه (٢٤) عيبٌ ولا فى فخاره ريب
سروج دارى التى ولدتُ بها والأصل غسان (٢٥) حين أنتسب

(١) رياش : مال ولباس فاخر ، زى : هيئة حسنة ، اثاث : متاع البيت .
(٢) حسن حال وكثرة نعمة وهو بكسر الراء وفى الأصل اسم من روى
(٣) المراد ببيعه بأقل من القيمة (٤) الأكل بأطراف الأسنان وقيل الخضم
أكل بأطراف الاسنان والقضم بمقدمها وقيل الخضم أكل الرطب والقضم
أكل اليباس : تريد أنه يصرف ثمنه فى أكل الأكل واللذات (٥) أى فرق الذى
لى بأجمعه (٦) بطن الكف لقائه من الشعر (٧) أى فقر (٨) مثل قالتة
امراة من العرب مات عنها زوجها واسمه عروس فتزوجها رجل أبحر
وأمرها أن تتعطر فقالتة (٩) أى الجنى : جمع الثمار (١٠) أى فضلك
على أقرانك (١١) هو خمود السوق وقلة البيع ضد التفاق بالفتح
(١٢) يعنى ولدا (١٣) ما يتخلل به (١٤) قدر ما يشبع به مرة (١٥) أى
لا تسكن (١٦) الجوع (١٧) أتيت به (١٨) لنقضى وتختبر (١٩) فهمت
وحفظت ما قصته زوجها (٢٠) أظهر أشكالك وتعمية أمرك (٢١) ذكر
الافاعى أو العظيم منها (٢٢) الحرب التى قبلها وهى تكون أشد من الأولى
(٢٣) الانتحاب رفع الصوت بالبكاء (٢٤) خصاله وطباعه (٢٥) اسم ماء
نزل عليه قوم من الأزدي فنسبوا اليه منهم أبو جفنة وزهط الملوك وقيل
غسان قبيلة .

وشغلى الدرس والتبحرُ فى الع
ورأس مالى سحر الكلام (١) الذى
أغوص فى لُجَّة البيان فاخ
وأجتنى (٤) اليناع (٥) الجنى (٦)
وآخذ اللفظ. فضة فإذا
وكننت من قبل أمترى نسباً (٨)
ويعتطى (٩) أخمصى (١٠) لحرمته
وطالما زُفَّت الصَّلَات إلى
فالיום من يعلقُ الرجاء به
لا عرض أبنائه يُصان ولا
كأنهم فى عراضهم (١٦) جيف
فحار لُبى (١٧) لما منيت به (١٨)
وضاق ذرعى (٢٠) لضيق ذات يدى
وقادنى دهرى المليم (٢٢) إلى
لم طلابى وحبذا الطلبُ
منه يصاغ القريض (٢) والخطبُ
تار اللآلى منها (٣) وأنتخبُ
من القول وغيرى للعود يحتطبُ
ما صغته (٧) قيل إنه ذهبُ
بالأدب المقتنى وأحتلبُ
مراتباً ليس فوقها رُتبُ
ربعى (١١) فلم أرض من يَهَبُ (١٢)
أكسُدُ شىء فى سوقه الأدب (١٣)
يرقب (١٤) فيهم إل (١٥) ولا نسب
يبعد من ننتها ويؤجتنبُ
من اللبلى وصرفها (١٩) عجبُ
وساورتنى (٢١) الهموم والكربُ
سلوك ما يستشينه (٢٣) الحسب (٢٤)

(١) هو ما لطف مأخذه وراق (٢) الشعر (٣) أى أتعق فى بليغ المعانى
وانتقى منه الملح (٤) أفتطف (٥) الزاهى (٦) الطرى من التمر الذى
جنى حديثاً (٧) سبكته (٨) أى اكتسب مالا (٩) أى يركب (١٠) ما
ارفع من باطن القدم عن الأرض (١١) أى حملت الجوائز والهدايا الى منزلى
(١٢) أى لم أكن تحت منة كل حد بل لم أنل الا من العظماء (١٣) أى أن ما
يتعلق به الأمل ويرجى منه النوال لا يستعمل الأدب والمعارف حتى صار
ذلك كالساعة الكاسدة عنده . (١٤) يحفظ (١٥) بخفض الهمزة وتشديد
اللام - العهد والقراة والجوار (١٦) جمع عرصة وهى فناء الدار أى كأنهم
فى مواضعهم (١٧) تحير عقلى (١٨) بليت به (١٩) تقلبها (٢٠) القبض
قلبى (٢١) انتابتنى وغلبتنى (٢٢) الذى يأتى بما يلام عليه (٢٣) يستشعنه
(٢٤) ما يعد من مفاخر الابهاء أو الدين وقيل الكرم .

فبعث حتى لم يبق لى لبد ^(١)	ولا بتات ^(٢) إليه أنقلب ^١
وَأَدْنَتْ ^(٣) حتى أَثْقَلْتُ سالفتي ^(٤)	بحمل دَيْنٍ من دونه العطب ^٢
ثم طويت الحشا على سَغْبٍ ^(٥)	خمساً ^(٦) فلما أَمْضَيْتِ ^(٧) السَّغْبُ
لم أَرَّ إِلَّا جهازها عرضاً ^(٨)	أَجُولُ في بيعه وأضطرب ^٣
فَجَلْتُ فيه والنفس كارهة ^٤	والعين عبرى ^(٩) والقلب مكتئب ^(١٠)
وما تجاوزت ^(١١) إذ عَبَّثْتُ ^(١٢) به	حَدَّ التَّرَاضَى ^(١٣) فيحدث الغضب ^٥
فإن يكن غاظها توهَّمها	أَنْ بنانى بالنظم نكتسب ^٦
أو أَننى إذ عزمت خطبتها	زخرفتُ قولى لينجَحَ الأرب ^(١٤)
فوالذى سارت الرفاق ^(١٥) إلى	كعبته تَسَحِّثُهَا ^(١٦) النُّجْبُ ^(١٧)
ما المكر بالمَحْصَنَاتِ ^(١٨) من خُلَى	ولا شعارى ^(١٩) التمويه ^(٢٠) والكذب
ولا يدى مُدُّ نَشَاتٍ نِيْطَ بها ^(٢١)	إلا مواضى اليرَاع ^(٢٢) والكتب ^٧
بل فكرتى تنظم القَلَائِدَ ^(٢٣) لا	كفى وشعرى المنظوم لا السُّخْبُ ^(٢٤)

(١) يقال ماله سبد ولا لبد أى لا شعر ولا صوف والمراد ذوات الشعر والصوف من المواشى ، وأراد الحريرى أنه لم يبق له كثير ولا قليل كناية عن شدة الفقر والحاجة (٢) الزاد ومتاع البيت (٣) تدانيت (٤) صفحة العنق وقيل مقدمه (٥) جوع (٦) خمس ليال (٧) أحرقتى (٨) حطام الدنيا ، وهو المال قل أو كثر (٩) دامعة باكية (١٠) حزين (١١) تعديت (١٢) فعلت به ما لا يليق فعله (١٣) أى حد الرضا (١٤) الحاجة (١٥) جمع رفقة ، وهو جمع رفيق (١٦) تستعجلها (١٧) جمع نجبية ، وهى الكريمة من الأبل (١٨) جمع محصنة أى النساء العفاف . (١٩) تخلقى (٢٠) تزيين الكلام وأصله أن يطأى المعدن غير الذهب والفضة بأحدهما أو الفضة بالذهب (٢١) علق بها (٢٢) جمع يراعة وهى القصبة الجوفاء والمراد بها الأفلام (٢٣) جمع قلادة أصله ما تقلد به المرأة من الذهب والمراد ما ينظم من القصائد والأشعار (٢٤) جمع سخاب وهو القلادة من القرنفل والمسك ليس فيها من الجواهر شيء تجعل فى أعناق الأطفال .

فهذه الحرفة المشارُ إلى ما كنت أحوى بها وأَجْتَلِبُ
فأَذُنْ لشرحي كما أَذْنَتْ لها وَلَا تُرَاقِبْ (١) واحكم بما يجبُ

قال : فلما أحكم ما شاده (٢) ، وأكمل إنشاده ، عطف القاضي إلى الفتاة ،
بعد أن شغف (٣) بالأبيات ، وقال : أما أنه قد ثبت عند جميع الحكام ، وولاية
الأحكام انقراضُ (٤) جيل الكِرَام (٥) وميل الأيام إلى اللثام ؛ وإني لأخال (٦)
بَعْلِكَ (٧) صدوقاً في الكلام بَرِيئاً من الملام ، وها هو قد اعترف لك بالقرض ،
وصرح عن المخض (٨) ، وَبَيَّنَ مُصْداقَ النظم ، وتبين أنه معروف العظم (٩) ،
وَإِعْتَنَاتُ المَعْدِر مَلَامَةٌ (١٠) ، وحبس المعسر (١١) مَلَمَةٌ (١٢) ، وكتان الفقر زهادة
وانتظار الفرج بالصبر عبادة ، فارجعني إلى خدرك (١٣) ، واعذري أبا عُدْرِكَ (١٤)
وَنَهْنِهِي من غَرْبِكَ (١٥) ، وسلمي بقضاء ربك - ثم إنه فرض لهما في الصَّدَقَاتِ
حِصَّةً ، وناول لهما من دارهما قبضة (١٦) . وقال لهما : تعللا (١٧) بهذه العُلالة (١٨) ،
وتنديا بهذه البلالة (١٩) وصبراً على كيد الزمان وكده ، فعسى الله أن يأتي بالفتح

(١) أى لا تنظر الى واحد منا والمراد لا تعدل عن الحق (٢) أى اتقن ما
بناه والانشاد من أشاد البناء اذا طلاه بالشيد وهو الجص . (٣) ويروى
بالعين المهملة من شغف الحب فؤاده أى علاه وشمله - وبالعين المعجمة أى
فتن وبإغ حبها شغافه ، وهو غلاف القلب . (٤) انقطاع وفناء (٥) أى
جماعة الكرم ، والجيل أهل زمان واحد (٦) بكسر الهمزة - أى لا أظن
(٧) زوجك (٨) الخالص (٩) كناية عن الهزال يقال عظم معروف اذا أخذ
ماعليه من اللحم (١٠) الاعتات : الحمل على المشقة الشديدة والمعذر
البالغ فى العذر أو هو الذى يأتى بما يعذر به ويطلق على المحقق العذر ،
وعلى الذى بان عذره والملامة اللؤم . (١١) العاجز عن قضاء الدين .
(١٢) ايلام (١٣) بيتك وسترك (١٤) أبو عذر المرأة أول زوج لها .
(١٥) أى كفى وازجرى نفسك عن الحدة (١٦) هى ما يتناوله الانسان
بأطراف أصابعه (١٧) تشاغلا وتلاهيا (١٨) ما يتعلل به وأصلها بقية الابن
(١٩) قدر ما يبيل به الشيء واسم لبقية أيضاً

أو أمرٍ من عنده ؛ فنهضا وللشيخ فرحة المطلق من الأسار (١). وهزّة الموسر بعد الإعسار .

قال الراوى : وكنت عرفت أنه أبو زيد ، ساعة بزغت شمسُه ، ونزعت (٢) عرسُه وكدتُ أفصح عن افتنانه (٣) ، وأثار أفنانه (٤) ثم أشفقت (٥) من عُثور (٦) القاضى على بُهتانِه (٧) ، وتزويق (٨) لسانِه ، فلا يرى عند عرفانه (٩) أن يُرشحه (١٠) لإحسانِه ، فأخجمت (١١) عن القول إجمامَ المرتاب (١٢) ، وطويت ذكره كطى السّجل للكتاب (١٣) ، إلا أنى قلت بعد ما فصل (١٤) ووصل إلى ما وصل ، لو أن لنا مَنْ يَنْطلق فى أثره لآتانا بفصّ خبره (١٥) ، وما يُنشر من خبرِه (١٦) ، فأتبعه (١٧) القاضى أحد أُمَنائِه ، وأمره بالتجسّس (١٨) عن أنبائه (١٩) ، فما لبث أن رجع مُتدهداً (٢٠) ، وقَهقر مُتَهقهاً (٢١) ، فقال له

(١) القيد الذى يشد به الأسير (٢) خبث والنزع الذكر بالقبيح والافساد بين الناس ومعناه خاصته عرسه (٣) يقال افتن الرجل فى حديثه اذا جاء بالافانين وهى الأساليب والمراد هنا تصرفه فى الفنون والمعارف (٤) جمع فنن بالتحريك وهو طرف الغصن (٥) خفت (٦) اطلاع . (٧) كذبه (٨) التزويق التحسين ، والتزويق مأخوذ من الزاويق ، وهو الزئبق (٩) معرفته (١٠) الترشيح والتربية ، والتأهيل من ترشيح الطيبة ولدها ، لأنها اذا بلغ ولدها السعى سعت به حتى عرق فتقوى ، ويأتى بمعنى التقوية أيضا (١١) تأخرت (١٢) الشاك (١٣) السجل : الصحيفة فيها الكتابة - أى كما تطوى الصحيفة الكتابة (١٤) ذهب . (١٥) بحقيقة حاله (١٦) الحبر أردية يمانية موشاة جمع حبرة وهى : ما تلبسه المرأة المصرية ، والمراد ما يذكره من الكلام المسجع الشبيه بالحبر فى الحسن . (١٧) أى أرسل وراءه من يتبعه (١٨) أى بالبحث سرا بحيث لا يشعر (١٩) أخباره (٢٠) التدهده : الاسراع من دهدهت الحجر اذا دحرجته وتبدل الهاء الأخيرة ياء فيقال تدهدى تدهديا . (٢١) القهقرى المشى الى الوراء ، والقهقهة الضحك بصوت مرتفع .

القاضي : مَهِيْمَ (١) يا أبا مريم (٢) ؟ فقال له : لقد عاينت عجباً ، وسمعت ما أنشأ
لى طرباً . فقال له : ماذا رأيت ؟ وما الذى وعيت ؟ قال : لم يزل الشيخ مُدْخِرُج
يُصَفِّقُ بيديه ، ويخالف بين رجليه (٣) ، ويُغَرِّدُ بملءِ شذقيه . ويقول :

كَذْتُ أَصْلَى (٤) بِبَيْلِهِ من وقاح (٥) شَمْرِيهِ (٦)
وَأَزُورُ السُّجْنَ لولا حاكم الإسكندرية

فَضَحَكَ القاضي حتى هوت (٧) لدنيتّه (٨) . ودوت (٩) سكينته (١٠) . فلما
فَاءَ (١١) إلى الوقار . وَعَقَّبَ الاستغفار بالاستغفار ، قال : اللهم بِحُرْمَةِ عبادك
المقربين حَرِّمْ حبسى على المتأدبين ، ثم قال لذلك الأَمِين : على به (١٢) . فانطلق
مُجِدِّاً فى مطلبه ، ثم عاد بعد لآيه (١٣) مخبراً بنأيه (١٤) ، فقال له القاضي :
أما إنه لو حضر لكُفْيَى الحذر (١٥) ، ثم لَأَوَّلَيْتُهُ ما هو به أُولَى ، ولَأَرَيْتَهُ
الآخرة خير له من الأولى . قال الحارث بن همام : فلما رأيت صَفْوَ (١٦) القاضي
إليه ، وفوت ثمره التنبيه عليه غَشِيَتْنِي (١٧) ندامة الفرزدق (١٨) حين أَبَانَ

(١) أى ما الخبر ، وهى كلمة لأهل اليمن معناها : ما خبرك وما شأنك
(٢) يقال لعون القاضي أبو مريم (٣) أى يرقص (٤) احترق (٥) الوقاح :
قليلة الحياء بينة القحة والوقاحة ، وحافر وقاح : صلب (٦) الشمرى :
الماضى فى الأمور الجاد فيما يحاول (٧) وقعت (٨) بتشديد النون والياء
جميعاً : قلنسوة طويلة يابسها القضاة كأنها منسوبة الى لدن (٩) ذبلت
وفترت (١٠) وقاره (١١) رجع (١٢) أى أتت به واحضره (١٣) اللأى
كالسعى : الإبطاء والاحتباس (١٤) أى يبعده (١٥) ما يحتار منه ويخاف
(١٦) ميله (١٧) أتتني وحضرتنى (١٨) هو همام بن غالب التميمي الشاعر

النَّوَار (١) وَالْكُسْعِيَّ (٢) لَمَّا اسْتَبَانَ النَّهَار .

المقامة البشرية لبديع الزمان الهمداني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ

حدثنا عيسى بن هشام ، قال : كان بشر بن عوانة العبدى صعلوكا ، فأغار على ركب فيهم امرأة جميلة فتزوج بها ، وقال : ما رأيت كاليوم ، فقالت :

أَعْجَبَ بِشْرًا حَوَّرَ فِي عَيْنِي وساعد أبيض كاللُّجَيْنِ
ودونه مَسْرُجٌ طُرف العين خَمَصَانَةٌ ترفل في حَجَلَيْنِ
أحسن من يَمْشِي على رجلين لو ضَمَّ بِشْرٌ بينها وَبَيْنِي
لَأَسْفَرَ الصَّبْحُ لَذَى عَيْنَيْنِ

قال بشر : وَيَحْكُ من عنيت ؟ فقالت : بنت عمك فاطمة ، فقال : أهى من الحسن بحيث وصفت ؟ فقالت : وأزيد وأكثر ، فأنشأ يقول :

(١) النوار - على وزن سحاب - اسم زوجة الفرزدق . وكان قد طلقها ثم ندم على ذلك ، ومن شعره في ذلك قوله :

ندمت ندامة الكسعى لما غدت منى مطلقة نوار
وكانت جنتى فخرجت منها كآدم حين أخرجه الضرار
ولو أنى ملكت يدى وأمرى لكن على للقدر الخيار

(٢) الكسعى هو عامر بن الحارث نسبة الى كسع ، بضم الكاف وفتح السين ، حى من بنى ثعلبة ، كان راعيا وعمل قوسا بعد طول تعب ثم رمى عنها ليلا فنفذت في الرمية ووقع السهم في حجر ففقد منه الشرر فظن أن السهم أخطأ الرمية ، فرمى ثانيا وثالثا الى آخر الأسهم وكانت خمسا ، وهو يظن خطأها فعمد الى قوسه فكسرها ، ثم بات فلما أصبح تبين أن أسهمه كلها أصابت فندم ندما شديدا فضربت العرب المثل به في الندامة .

وَيَحْكُ يا ذات الثَنَائِيَا الْبَيْضَ ما خَلَّتْنِي مِنْكَ بِمُسْتَعِضٍ
فَالآنَ إِذْ لَوْحَتْ بِالْتَعْرِيزِ خَلَوْتُ جَوْاً فَاصْفِرِي وَبِيضِي
لَا ضُمَّ جَفْنَايَ عَلَى تَغْمِيزِ ما لَمْ أَشْلُ عَرْضِي مِنَ الْحُضِيِّضِ
فَقَالَتْ :

كَمْ خَاطِبٍ فِي أَمْرِهَا أَلْحَا وَهِيَ إِلَيْكَ ابْنَةُ عَمٍّ لَحَا
ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى عَمِّهِ يَخْطُبُ ابْنَتَهُ ، وَمَنْعَهُ الْعَمُّ أُمْنِيَّتَهُ ، فَأَلَى أَلَا يَرَعَى عَلَى
أَحَدٍ مِنْهُمْ إِنْ لَمْ يُزَوِّجْهُ ابْنَتَهُ ، ثُمَّ كَثُرَتْ مَضْرَاتُهُ فِيهِمْ وَاتَّصَلَتْ مَعْرَاتُهُ إِلَيْهِمْ ،
فَاجْتَمَعَ رِجَالُ الْحَيِّ إِلَى عَمِّهِ ، وَقَالُوا : كُفْ عَنَّا مَجْنُونُكَ ، فَقَالَ : لَا تُلْبِسُونِي
عَاراً وَأَمْهَلُونِي حَتَّى أَهْلِكَهُ بَعْضُ الْحَيْلِ ، فَقَالُوا : أَنْتَ وَذَاكَ . ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِ
عَمُّهُ : إِنِّي آلَيْتُ أَنْ لَا أُزَوِّجَ ابْنَتِي هَذِهِ إِلَّا مِنْ يَسُوقُ إِلَيْهَا أَلْفَ نَاقَةٍ مَهْراً ،
وَلَا أَرْضَاهَا إِلَّا مِنْ نُوقٍ خَزَاعَةٍ .

وَكَانَ غَرَضُ الْعَمِّ أَنْ يَسْلُكَ بِشَرِّ الطَّرِيقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَزَاعَةِ فَيَفْتَرُسُهُ الْأَسَدُ ،
لَأَنَّ الْعَرَبَ قَدْ كَانَتْ تَحَامَتُ عَنْ ذَلِكَ الطَّرِيقِ ، وَكَانَ فِيهِ أَسَدٌ يُسَمَّى « دَاذًا »
وَحِيَّةٌ تُدْعَى « شُجَاعَا » يَقُولُ فِيهِمَا قَائِلُهُمْ :

أَفْتَنَكَ مِنْ « دَاذٍ » وَمِنْ « شُجَاعٍ » إِنْ يَكُ دَاذٌ سَيِّدُ السَّبَاعِ
فَإِنَّهَا سَيِّدَةُ الْأَفَاعِي

ثُمَّ إِنْ بِشَرًّا سَلَكَ ذَلِكَ الطَّرِيقَ ، فَمَا نَصَفَهُ حَتَّى لَقِيَ الْأَسَدَ ، وَقَمَصَ مُهْرَهُ
فَنَزَلَ وَعَقَرَهُ ، ثُمَّ اخْتَرَطَ . سَيْفَهُ إِلَى الْأَسَدِ وَاعْتَرَضَهُ وَقَطَعَهُ ، ثُمَّ كَتَبَ بِدَمِ الْأَسَدِ
عَلَى قَمِيصِهِ إِلَى ابْنَتِهِ عَمُّهُ :

أَفَاطُمُ لَوْ شَهِدْتَ بِبَطْنِ خَبْتٍ وَقَدْ لَاقَى الْهَزْبِرُ أَخَاكَ بِشَرًّا
إِذَا لَرَأَيْتِ لَيْثاً أُمَّ لَيْثاً هَزْبَرًا أَغْلَبَا لَاقَى هَزْبَرًا
تَبْهَنْسَ حِينَ أَحْجَمَ عَنْهُ مُهْرِي مُحَاذَرَةً ، فَقُلْتُ : عَقُرْتُ مُهْرًا

أَنِلْ قَدَمِيْ ظَهْرَ الْأَرْضِ إِنِّيْ رَأَيْتُ الْأَرْضَ أَثْبِتَ مِنْكَ ظَهْرَهَا
 وَقُلْتُ لَهُ وَقَدْ أَبْدَى نِصَالاً مُحَدَّدةً وَوَجْهًا مَكْفَهْرَهَا
 يُكْفِكِفُ غِيْلَةً إِحْدَى يَدَيْهِ وَيَبْسُطُ لِلْوُثُوبِ عَلَى أُخْرَى
 يُدِلُّ بِمِخْلَبٍ وَبِحَدِّ نَابٍ وَبِاللَّحْظَاتِ تَحْسِبُهُنَّ جَمْرًا
 وَفِي يُمْنَايَ مَاضِي الْحَدِّ أَبْغَى بِمَضْرِبِهِ قِرَاعَ الْمَوْتِ أَثْرًا
 أَلَمْ يَبْلُغْكَ مَا فَعَلْتَ ظَبَاهُ بِكَاطِمَةِ غَدَاةٍ لَقِيتُ عَمْرًا
 وَقَلْبِي مِثْلُ قَلْبِكَ لَيْسَ يَخْشَى مُصَاوَلَةً ، فَكَيْفَ يَخَافُ دُعْرًا
 وَأَنْتَ تَرُومُ لِلْأَشْبَالِ قُوْتًا وَأَطْلُبُ لَابِنَةَ الْأَعْمَامِ مَهْرًا
 فَفِيمَ تَسْوِمٍ مِثْلِي أَنْ يُولَى وَيَجْعَلُ فِي يَدَيْكَ النَّفْسَ قُسْرًا
 نَصَحْتُكَ فَالْتِمَسْ يَا لَيْثَ غَيْرِي طَعَامًا إِنْ لَحْمِي كَانَ مُرًّا
 فَلَمَّا ظَنَنْتُ أَنَّ الْعِشَّ نُصْحِي وَخَالَفْنِي كَأَنِّي قُلْتُ هُجْرًا
 مَشَى وَمَشَيْتُ مِنْ أَسْدِيْنَ رَامَا مَرَامًا كَانَ إِذْ طَلَبَاهُ وَعَرَا
 هَزَزْتُ لَهُ الْحَسَامَ فَخَلَّتْ أُنَى سَلَلْتُ بِهِ لَدَى الظُّلْمَاءِ فَجْرًا
 وَجُدْتُ لَهُ بِجَائِشَةٍ أَرْتَهُ بِأَنَّ كَذَبَتَهُ مَا مَدَّتْهُ عَذْرًا
 وَأَطْلَقْتُ الْمُهَنْدَ مِنْ يَمِينِي فَقَدَّ لَهُ مِنَ الْأَضْلَاعِ عَشْرًا
 فَخَرَّ مَجْنُودًا بِلَدَمٍ كَأَنِّي هَدَمْتُ بِهِ بِنَاءً مُشْمَخِرًا
 وَقُلْتُ لَهُ : يَعْزُ عَلَى أَنِّي قَتَلْتُ مُنَاسِبِي جَلْدًا وَفَخْرًا
 وَلَكِنْ رُمْتُ شَيْئًا لَمْ يَرُمَهُ سِوَاكَ فَلَمْ أَطُقْ يَا لَيْثَ صَبْرًا
 تُحَاوِلُ أَنْ تَعْلَمَنِي فِرَارًا لَعَمْرُ أَبِيكَ قَدْ حَاوَلْتُ نَكْرًا
 فَلَا تَجْزِعْ فَقَدْ لَا قَيْتَ حُرًّا يَحَازِرُ أَنْ يُعَابَ فَمُتَّ حُرًّا

فلما بلغت الأبيات عمه ندم ، على ما منعه تزويجها ، وخشى أن تغتاله

الحية ، فقام في أثره وبلغه ، وقد ملكته سورة الحية .

فلما رأى عمه أخذته حمية الجاهلية ، فجعل يده في فم الحية وحكّم سيفه فيها وقال :

بِشْرٌ إِلَى الْمَجْدِ بَعِيدَ هَمِّهِ لَمَّا رَأَى بِالْعِرَاءِ عَمَّهُ
قَدْ ثَكَلَتْهُ نَفْسُهُ وَأُمُّهُ جَاشَتْ بِهِ جَائِشَةُ تَهْمِهِ
قَامَ إِلَى ابْنِ الْفَلَا يَوْمَهُ فَغَابَ فِيهِ يَدُهُ وَكُمُّهُ
وَنَفْسُهُ نَفْسِي وَسَمِيَّ سَمِهِ

فلما قتل الحية قال عمه : إني عرضتك طمعاً في أمر قد ثنى الله عناني عنه ، فارجع لأزوجك ابنتي .

فلما رجع جعل بِشْرٌ يَمْلَأُ فَمَهُ فَخَرّاً حَتَّى طَلَعَ أَمْرَدَ كَشَقِّ الْقَمَرِ عَلَى فَرْسِهِ مَدْجِجاً فِي سِلَاحِهِ . فَقَالَ بِشْرٌ : إني أسمع حس صيد وخرج ، فإذا بغلام على قيد فقال : ثكلتك أمك يا بشر أن قتلت دودة وبهيمة تملأ ماضغيك فخراً ، أنت في أمان إن سلمت عمك ، فقال بِشْرٌ : مَنْ أَنْتَ ؟ لَا أُمَّ لَكَ . قال : اليوم الأسود والموت الأحمر . فقال بِشْرٌ : ثكلتك من سلحتك . فقال : يا بشرُ وهن سلحتك . وكرّر كل واحد منهما على صاحبه ، فلم يتمكن بِشْرٌ منه ، وأمّكن الغلام عشرين طعنة في كُلِّية بشر ، كلما مسه شيا السنان حماء عن بدنه إبقاءً عليه ، ثم قال : يا بشر كيف ترى ، أليس لو أردت لأطعمتك أنياب الرمح ! ثم ألقى رمحه ، واستل سيفه فضرب بِشْرّاً عشرين ضربة بعرض السيف ، ولم يتمكن بشر من واحدة . ثم قال : يا بشر سلم عمك واذهب في أمان . قال : نعم . ولكن على شريطة أن تقول لي من أنت . فقال : أنا ابن المرأة التي دلتك على ابنة عمك فقال بشر :

تلك العصا من هذه العصية وهل تلد الحية إلا الحية

وحلف لا ركب حصاناً ، ولا تزوج حصاناً ، ثم زوج ابنة عمه لابنه .

الفن السادس : فى الروايات

الرواية عبارة عن ذكر قولٍ أو فعلٍ حدثا ، أو أمكن حدوثهما .
 وخواصها أربعة : الإيضاح ، والإيجاز ، والإمكان ، والتلطف .
 فالإيضاح : يكون بتقديم فرش للحديث ، وتوطئة للخبر ، يُقَرَّبُ مأخذُ
 الرواية ، وبمراعاة الترتيب الطبيعى فى إيراد ظُرُوف الخبر مالم يكن لِلرأوى
 غرضٌ لتجاوز هذا النظام ، وبالعُدُول عن كثرة الاستطرادات فى إنشاء الحديث
 لأن ذلك يصرفُ العقلَ عن الرواية ويذهب برونقها .

والإيجاز : حذفُ فضول حشو الكلام مع انتقاء أخصّ الظروف وأنسبها
 للغاية ، ولا بأس بالإطناب إذا ما دعا إليه مقتضى الحال .

والإمكان : ترشيح الرواية للقبول فى ذهن السامع .
 والتلطف فى الرواية : أن يبلغ الكاتب كنهَ القلوب ، ويأخذ بمجامع
 اللبِّ بأن ينتقل فيها من حال إلى حال لأن النفس قد جُبِلت على محبة
 التحول ، وطُبعت على إثارة التنقل .

وللرواية ثلاثة أجزاء : صدرها ، وعقدتها ، وختمها . فالصدر : التوطئة للواقع
 بحيث يقف السامع على أسماء الأشخاص وطباعهم ، وعلى مكان الواقع وسوابق العمل .
 والعقدة : هى الجزء الذى على محور تدور الرواية ، وهو المجال الأوسع الذى
 تتقابل فيه الأشخاص وتشتبك الأحوال وتضطرم فى النفس لواعجُ الشوق
 للوقوف على عاقبة الأمر ، فتنتقل من الرجاء إلى الخوف ، ومن الفرح إلى الحزن .
 والختام : الجزء الأخير من الرواية الذى به تُفكُّ الإربة وتُحل رباقي الحديث
 فتنال النفوس بذلك مرآتها وتفوز بوطرها ، وسِمته أن يكون فجائياً مُرتبطاً
 مع ما قبله ارتباطاً محكماً وافياً بالمراد بحيث ترضى به النفوس ، وترتاح
 إليه القلوب . وشواهد الرواية كثيرة لأنطيل بذكرها ، أفردها الأدباء بالتأليف
 العديدة ، ولنذكر هنا بعض ملح لا يستغنى عنها المقام .

ليلى الأخيلية مع الحجاج

رَوَى بعضهم : أَنَّهُ بَيْنَمَا كَانَ الْحَجَّاجُ فِي مَجْلِسٍ ، وَمَعَهُ عُنْبَسَةُ بْنُ سَعِيدٍ ، إِذْ دَخَلَ الْحَاجِبُ فَقَالَ : امْرَأَةٌ بِالْبَابِ ، فَقَالَ لَهُ الْحَجَّاجُ : أَدْخِلْهَا ؛ فَدَخَلَتْ فَلَمَّا رَأَاهَا الْحَجَّاجُ طَاطَأَ رَأْسَهُ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنْ ذَفَنَهُ قَدْ أَصَابَ الْأَرْضَ ، فَجَاءَتْ حَتَّى قَعَدَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ فَنَظَرْتُ فَإِذَا امْرَأَةٌ قَدْ أَسْنَتْ ، حَسَنَةُ الْخَلْقِ ، وَمَعَهَا جَارِيَتَانِ لَهَا وَإِذَا هِيَ لَيْلَى الْأَخِيلِيَّةُ ، فَسَأَلَهَا الْحَجَّاجُ عَنْ نَسَبِهَا ، فَانْتَسَبَتْ لَهُ ، فَقَالَ لَهَا : يَا لَيْلَى مَا أَتَى بِكَ ؟ فَقَالَتْ : إِخْلَافُ النُّجُومِ وَقَلَّةُ الْغَيُومِ ، وَكَلْبُ الْبَرْدِ ، وَشِدَّةُ الْجَهْدِ ، وَكُنْتُ لَنَا بَعْدَ اللَّهِ الرَّفْدُ ، فَقَالَ لَهَا ، صَنِي لَنَا الْفَجَّاجُ ، فَقَالَتْ : الْفَجَّاجُ مُغْبِرَةٌ ، وَالْأَرْضُ مَقْشَعْرَةٌ ، وَالْمَبْرُكُ مَعْتَلٌ ، وَذِي الْعِيَالِ مَخْتَلٌ ، وَالِهَالِكُ لِلْقُلِّ وَالنَّاسِ مَسْتَنُونَ ، رَحِمَهُ اللَّهُ يَرْجُونَ ، وَأَصَابَتْنَا سَنُونَ مَجْحُفَةٌ مُبْلَطَةٌ ، لَمْ تَدَعْ لَنَا هُبْعًا وَلَا رُبْعًا ، وَلَا عَافِظَةً وَلَا نَافِظَةً ، أَذْهَبَتِ الْأَمْوَالُ ، وَمَزَقَتِ الرِّجَالُ وَأَهْلَكَتِ الْعِيَالُ ، ثُمَّ قَالَتْ : إِنِّي قُلْتُ فِي الْأَمِيرِ قَوْلًا ، قَالَ : هَاتِ ؛ فَأَنْشَأَتْ تَقُولُ :

أَحْجَّاجٌ لَا يَفْلُلُ سِلَاحُكَ	إِنَّمَا الْمَنَايَا بِكَفِ اللَّهِ	حَيْثُ يَرَاهَا
أَحْجَّاجٌ لَا تَعْطِ الْعَصَاةَ مِنْهُمْ	وَلَا اللَّهُ يُعْطِي لِلْعَصَاةِ مِنْهَا	
إِذَا هَبَطَ الْحَجَّاجُ أَرْضًا مَرِيضَةً	تَتَبَّعُ أَقْصَى دَائِهَا فَشَفَاهَا	
شَفَاهَا مِنَ الدَّاءِ الْعُضَالِ الَّذِي بَهَا	غَلَامٌ إِذَا هَزَّ الْقَنَاةَ سَقَاهَا	
سَقَاهَا فَرَوَاهَا بِشَرْبِ سَجَالِهِ	دُمَاءَ رَجَالٍ حَيْثُ مَالُ حَشَاهَا	
إِذَا سَمِعَ الْحَجَّاجُ رِزْ كَتِيبَةً	أَعَدَّ لَهَا قَبْلَ النُّزُولِ قِرَاهَا	
أَعَدَّ لَهَا مَضْقُولَةً فَارْسِيَّةً	بِأَيْدِي رَجَالٍ يَحْلِبُونَ صَرَاهَا	
فَمَا وَلَدَ الْأَبْكَارَ وَالْعَوْنَ مِثْلَهُ	بِبَحْرِ وَلَا أَرْضٍ يَجِفُّ ثَرَاهَا	

قَالَ : فَلَمَّا قَالَتْ هَذَا الْبَيْتَ ، قَالَ الْحَجَّاجُ : قَاتِلْهَا اللَّهُ ، مَا أَصَابَ صِفَتِي شَاعِرٌ مِنْذُ دَخَلْتُ الْعِرَاقَ غَيْرَهَا ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَى عُنْبَسَةَ بْنِ سَعِيدٍ فَقَالَ : وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعِدُّ لِلْأَمْرِ عَسَى أَنْ لَا يَكُونَ أَبَدًا ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَيْهَا فَقَالَ : حَسْبُكَ ، قَالَتْ : إِنِّي

قد قلت أكثر من هذا . قال : حسبك ، وَيَحْكُ حَسْبُكَ ، ثم قال : يا غلام اذهب بها إلى فلان ، فقل له اقطع لسانها ، فذهب بها فقال له : يقول لك الأمير اقطع لسانها . قال : فَأَمَرَ بِإِحْضَارِ الْحَجَّامِ ، فالتفتت إليه فقالت : تُكَلِّتُكَ أَمْلَكَ أَمَا سمعت ما قال ؟ إِنَّمَا أَمْرُكَ أَنْ تَقْطَعَ لِسَانِي بِالصَّلَةِ ، فبعثت إليه يستثبته ، فاستشاط الحجاج غضباً ، وَهَمَّ بِقَطْعِ لِسَانِهِ ، وقال : ارُدُّهَا ، فلما دخلت عليه قالت : كاد (وَأَمَانَةُ اللَّهِ) يَقْطَعَ مِقُولِي ، ثم أَنْشَأَتْ تقول :

حجاج أنت الذى ما فوِّقه أحدٌ إلا الخليفةُ والمستغفر الصمد
حجاج أنت شهاب الحرب إن لقمحت وأنت للناس نور فى الدجى يقدُ
ثم أقبل الحجاج على جلسائه فقال : أتدرون من هذه ؟ قالوا : لا والله أيها الأمير ، إنا لم نَرَ قَطُّ . أَفَصَحَّ لِسَانًا ، ولا أحسن مُحَاوَرَةً ، ولا أَمْلَحَ وَجْهًا ، ولا أَرَضَنَ شَعْرًا منها . فقال : هذه ليلي الأخيلىة التى ماتت توبة الخفاجي من حبها ، ثم التفت إليها فقال : أنشدينا يا ليلي بعض ما قال فيك توبة ، قالت : نعم أيها الأمير هو الذى يقول :

وهل لَيْلَى تَبْكِيَنِي إِذَا مِتَ قَبْلَهَا وقام على قبرى النساءِ النوائح
كما لو أَصَابَ المَوْتُ لَيْلَى بِكِيَتُهَا وجاد لها دمعٌ من العينِ سافحُ
وَأَغْبَطُ . من لَيْلَى بما لا أَنَالَهُ بلى كل ما قَرَّتْ به العينُ طائِحُ
ولو أَنَّ لَيْلَى الأَخْيَلِيَّةَ سَلَّمَتْ عَلَى ودونى جَنْدَلُ و صفائحُ
لَسَلَّمْتُ تسليمَ البشاشةِ أَوْ زَقَا إِلَيْهَا صَدَى من جانبِ القبرِ صائحُ

ثم قال : سلى يا ليلي تُعْطَى ، قالت : أَعْطِ . فمثلُكَ أَعْطَى فَأَحْسَنَ ، قال : لك عشرون ، قالت : زِدْ ، فمثلُكَ زَادَ فَأَجْمَلَ ، قال : لك أربعون ، قالت : زِدْ فمثلُكَ زَادَ فَأَكْمَلَ ، قال : لك ثمانون ، قالت : زِدْ فمثلُكَ زَادَ فَتَمَمَ ، قال : مائة واعلمى أنها غنم ، قالت : معاذ الله أيها الأمير ، أنتَ أَجْوَدُ جَوْدًا ، وَأَمْجَدُ مَجْدًا ، وَأَوْرى زَنْدًا من أَنْ تجعلها غنما ، قال : فما هى ويحك يا ليلي ؟ قالت :

مائة من الابل برُعَاتِهَا ، فَأَمَرَ لَهَا بِهَا ، ثُمَّ قَالَ : أَلَيْكَ حَاجَةٌ بَعْدَهَا ؟ قَالَتْ : يَدْفَعُ إِلَيَّ النَّابِغَةُ الْجَعْدَى . قَالَ : قَدْ فَعَلْتُ . وَقَدْ كَانَتْ تَهْجُوهُ وَيَهْجُوهَا . فَبَلَغَ النَّابِغَةُ ذَلِكَ فَخَرَجَ هَارِباً عَائِثاً بَعْدَ الْمَلِكِ ، فَاتَّبَعَتْهُ إِلَى الشَّامِ فَهَرَبَ إِلَى قَتِيبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ بِخِرَاسَانَ فَاتَّبَعَتْهُ عَلَى الْبَرِيدِ بِكَتَابِ الْحِجَاجِ إِلَى قَتِيبَةَ بِقَوْمَسَ وَيُقَالُ بِحُلُوَانَ .

بنات الشاعر المقتول

كَانَ لِشَاعِرٍ عَدُوٌّ فَبَيْنَمَا هُوَ سَائِرُ ذَاتِ يَوْمٍ فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ إِذَا هُوَ بِعَدُوِّهِ ؛ فَعَلِمَ الشَّاعِرُ أَنَّ عَدُوَّهُ قَاتِلُهُ لَا مَحَالَةَ ؛ فَقَالَ لَهُ : يَا هَذَا ، أَنَا أَعْلَمُ أَنَّ الْمَنِيَّةَ قَدْ حَضَرَتْ وَلَكِنْ سَأَلْتُكَ اللَّهَ إِذَا أَنْتَ قَتَلْتَنِي أَنْ أَمُضَ إِلَى دَارِي ، وَقِفْ بِالْبَابِ وَقُلْ : « أَلَا أَيُّهَا الْبَنْتَانِ إِنِّي أَبَاكُمَا » فَقَالَ : سَمِعاً وَطَاعَةً . ثُمَّ إِنَّهُ قَتَلَهُ . فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ قَتْلِهِ أَتَى إِلَى دَارِهِ ، وَوَقَفَ بِالْبَابِ وَقَالَ : « أَلَا أَيُّهَا الْبَنْتَانِ إِنِّي أَبَاكُمَا » فَأَجَابَتْهُ بِفَمٍّ وَاحِدٍ : « قَتِيلٌ خُذَا بِالشَّارِ مِنْ أَتَاكُمَا » ثُمَّ تَعَلَّقْنَا بِالرَّجُلِ . وَرَفَعْتَاهُ إِلَى الْحَاكِمِ فَاسْتَقَرَّرَهُ فَأَقْرَبَ بِقَتْلِهِ فَقَتَلَهُ .

المرأة المتكلمة بالقرآن الكريم

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ : خَرَجْتُ حَاجِجاً إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ وَزِيَارَةَ قَبْرِ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . فَبَيْنَمَا أَنَا فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ إِذْ أَنَا بِسَوَادٍ ؛ فَتَمَيَّزَتْ ذَاكَ فَإِذَا هِيَ عَجُوزٌ عَلَيْهَا دِرْعٌ مِنْ صُوفٍ وَخِمَارٌ مِنْ صُوفٍ . فَقُلْتُ : السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ . فَقَالَتْ : « سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ » فَقُلْتُ لَهَا : يَرْحَمُكَ اللَّهُ مَا تَصْنَعِينَ فِي هَذَا الْمَكَانِ ؟ قَالَتْ : « وَمَنْ يُضِلُّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ » فَعَلِمْتُ أَنَّهَا ضَالَّةٌ عَنِ الطَّرِيقِ فَقُلْتُ لَهَا : أَيْنَ تُرِيدِينَ ؟ قَالَتْ : « سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى » فَعَلِمْتُ أَنَّهَا قَدْ قَضَتْ حَاجَتَهَا وَهِيَ تُرِيدُ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ . فَقُلْتُ لَهَا : أَنْتِ مُنْذُ كَمْ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ؟ قَالَتْ : « ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا » فَقُلْتُ : مَا أَرَى مَعَكَ طَعَامًا تَأْكُلِينَ . قَالَتْ :

« هو يُطعمُنِي ويسقيُنِي » فقلت : فبأى شئ تتوضئين ؟ قالت : « فإن لم تجدوا ماءً فتيممُوا صعيداً طيباً » فقلت لها : إن معى طعاماً فهل لك فى الأكل ؟ قالت : « ثم أتمُوا الصَّيَامَ إلى الليل » فقلت : ليس هذا شهر رمضان . قالت : « وَمَنْ تَطَوَّعَ خيراً فإن الله شاكرٌ عليمٌ » فقلت : قد أبيع لنا الإفطار فى السَّفر . قالت : « وأن تصوموا خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون » فقلت : لِمَ لا تكلمينى مثل ما أكلمك ؟ قالت : « ما يلفظُ من قول إلا لديه رقيبٌ عتيدٌ » فقلت : فمن أى الناس أنت ؟ قالت : « ولا تَقِفْ ما ليس لك به علمٌ إن السَّمْعَ والبصرَ والفؤادَ كل أولئك كان عنه مسئولا » فقلت : قد أخطأتُ فاجعلينى فى حلٍّ . قالت : « لا تشربَ عليكم اليوم يغفر الله لكم » فقلت : فهل لك أن أحملك على ناقتى هذه فتدركى القافلة ؟ فقالت : « وما تفعلوا من خير يعلمه الله » قال : فأنخنت ناقتى قالت : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » فغضضت بصرى عنها ، وقلت : أركبى . فلما أرادت أن تركب نفرّت الناقة ، فمزقت ثيابها فقالت : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » فقلت لها : اصبرى حتى أعقلها ، قالت : « ففهمناها سليمان » فعقلت الناقة وقلت لها : أركبى فلما ركبت قالت : « سبحانه الذى سخر لنا هذا وما كنّا له مقرنين وإنّا إلى ربنا لمنقلبون » قال : فأخذت بزمام الناقة وجعلت أسرع وأصيح ، فقالت : « واقصد فى مشيك واغضض من صوتك » فجعلت أمشى رويداً رويداً وأترنم بالشعر ، فقالت : « فاقرءوا ما تيسر من القرآن » فقلت لها : لقد أوتيت خيراً كثيراً قالت : « وما يذكر إلا أولو الألباب » فلما مشيتُ بها قليلاً قلت : ألك زوج ؟ قالت : « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » فسكتُ ولم أكلّمها حتى أدركت بها القافلة ، فقلت لها : هذه القافلة فمن لك فيها ؟ فقالت : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » فعلمتُ أن لها أولاداً ، فقلت : وما شأنهم فى الحج ؟ قالت : « وعلاماتٍ وبالنجم هم يهتدون » فعلمت أنهم أدلاء الركب فقصدت بها القيّاب والعمارات فقلت : هذه القيّاب فمن لك فيها ؟ قالت :

«وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا» «وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا» «يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ» فنادت يا إبراهيم يا موسى يا يحيى فإذا أنا بشُبان كأنهم الأقمار قد أقبلوا، فلما استقر بهم الجلوس، قالت: «فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه» فمضى أحدهم فاشترى طعاماً فقدموه بين يدي، وقالت: «كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية» فقلت: الآن طعامكم على حرام حتى تخبروني بأمرها. فقالوا: هذه أمنا منذ أربعين سنة لم نتكلم إلا بالقرآن، مخافة أن تزل فيسخط عليها الرحمن، فسبحان القادر على ما يشاء، فقلت: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم».

مروان بن الحكم، وعبد الله بن الزبير

روى عقيل بن خالد عن ابن شهاب أن مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير اجتمعا ذات يوم في حجرة عائشة (والحجاب بينهما وبينها) يحدثانها ويسألانها، فجري الحديث بين مروان وابن الزبير ساعة، وعائشة تسمع. فقال مروان:

فمن يشا الرحمن يخفّض بقدره وليس لمن لم يرفع الله رافع

فقال ابن الزبير:

فقوّض إلى الله الأمور إذا اعترت وبالله، لا بالأقربين، أدافع

فقال مروان:

وداؤ ضمير القلب بالبر والتقى فلا يستوى قلبان قاس وخاشع

فقال ابن الزبير:

ولا يستوى عبدان هذا مكذب عتل لأرحام العشيرة قاطع

فقال مروان:

وعبدٌ يُجافى جنبه عن فراشه يبيتُ يُناجى ربّه وهو راکع

فقال ابن الزبير :

وللخير أهلٌ يُعرفون بهديهم إذا اجتمعت عند الخطوب المجامعُ

فقال مروان :

وللشر أهلٌ يُعرفون بشكلهم تُشيرُ إليهم بالفُجور الأصابعُ
فسكت ابن الزبير ولم يُجب ، فقالت عائشة : يا عبد الله مالك لم تُجب
صاحبك ؟ فوالله ما سمعتُ تجاؤلاً في نحو ما تجاؤلتما فيه أعجب إلى من
تجاؤلكما ، فقال ابن الزبير : إني خِفْتُ عَوَارِ القول فكففتُ .

عُبَيْدُ بن الأبرص ، وامرؤ القيس

قيل : إِنَّ عُبَيْدَ بن الأبرص لقي امرأ القيس يوماً فقال له : كيف
معرفتكَ بالآوَابِد ؟ قال : ما أَحْبَبْتُ ، فقال :

ما حَبَّةٌ قَامَتْ بِمِيتَتِهَا دَرْدَاءٌ ما أَنْبَتَتْ نَاباً وَأَضْرَاساً

فقال امرؤ القيس :

تلك الشعيرة تُسْقَى في سَنَابِلِهَا

قد أَخْرَجْتَ بعد طُولِ المكثِ أَكْدَاساً

فقال عُبَيْد :

ما السُّودُ والبيضُ والأَسْمَاءُ واحدةٌ لا تستطيعُ لهنَّ النَّاسُ تَمَسَاماً

فقال امرؤ القيس :

تلك السَّحَابُ إذا الرَّحْمَنُ أَنْشَأَهَا رَوَّى بهنَّ مُحُولُ الأرضِ أَيْبَاساً

فقال عُبَيْد :

ما مُرْتَجَاتٌ على هَوْلِ مَرَاكِبِهَا يَقْطُنُّ بعد المدى سِيراً وَأَمْرَاساً

فقال امرؤ القيس :

تلك النُّجُومُ إذا حَانَتْ مَطَالِعُهَا شَبَّهَتْهَا في سوادِ الليلِ أَقْبَاساً

فقال عُبَيْد :

ما القاطعاتُ لأَرْضٍ لَا أَنِيْسَ بِهَا تَأْتِي سِرَاعاً وما يَرْجِعُنْ أَكْثَا
فقال امرؤ القيس :

تلك الرِّيحُ إِذَا هَبَّتْ عَوَاصِفُهَا كُنِي بِأَذْيَالِهَا لِلتُّرْبِ كُنَّاسَا
فقال عُبَيْد :

ما الفاجعاتُ جَهَاراً فِي عِلَانِيَةٍ أَشَدُّ مِنْ فَيْلَقٍ مَلْحُومَةٍ بَاسَا
فقال امرؤ القيس :

تلك المَنَايَا فَمَا يَبْقِيْنَ مِنْ أَحَدٍ يَأْخُذْنَ حَمَقِي وَمَا يُبْقِيْنَ أَكْيَاسَا
فقال عُبَيْد :

ما السَّابِقَاتُ سِرَاعُ الطَّيْرِ فِي مَهْلٍ لَا يَشْتَكِيْنَ وَلَوْ طَالَ الْمَدَى بَاسَا
فقال امرؤ القيس :

تلك الجِيَادُ عَلَيْهَا الْقَوْمُ مَذْنُجَتٍ كَانُوا لَهَا غِدَاةَ الرُّوعِ أَحْلَاسَا
فقال عُبَيْد :

ما القاطعاتُ لأَرْضِ الْعِجْوِ فِي طَلْقٍ قَبْلَ الصَّبَاحِ وَمَا يَسْوِيْنَ قَرْطَاسَا
فقال امرؤ القيس :

تلك الْأَمَانِيَّ يَتَرَكْنَ الْفَتَى مَلَكاً دُونَ السَّمَاءِ وَلَمْ تُرْفَعْ لَهُ رَاسَا
فقال عُبَيْد :

ما الْحَاكِمُونَ بِلَا سَمْعٍ وَلَا بَصَرٍ وَلَا لِسَانٍ فَصِيحٍ يُعْجِبُ النَّاسَا
فقال امرؤ القيس :

تلك الْمَوَازِينُ وَالرَّحْمَنُ أَرْسَلَهَا رَبُّ الْبَرِيَّةِ بَيْنَ النَّاسِ مَقْيَاسَا

أبو تراب ، والشريف العباسي

اجتمع يوماً أبو تراب هبة الله بن السريجي ، والشريف العباسي وكانا شاعرين

فقال أبو تراب :

أَسْلُوتُ حَبَّ بُدُورَ أُمِّ تَتَجَلَّدُ وسهرت ليلك أُمُّ جُفُونِكَ تَرَقْدُ

فأجاب الشريف بديهاً :

لَا بِلَهُمْ أَلِفُوا الْقَطِيعَةَ مِثْلَ مَا أَلِفُوا نَزُولَهُمْ بِهَا فَتَبَعَدُوا

فقال أبو تراب :

فِي الْإِلَامِ تَصْبِيرُ وَالْفُؤَادُ مُتِّيمٌ وَلِظَى اسْتِيقَاكِ فِي الْحَشَى يَتَوَقَّدُ

فأجاب الشريف :

مَا دَامَ لِي جِلْدُ فَلَسْتُ بِجَازِعٍ إِذَا كَانَ صَبْرِي فِي الْعَوَاقِبِ يُحْمَدُ

فقال أبو تراب :

أَحْسَنْتَ ! كَتَمَانَ الْهُوَى مُسْتَحْسَنٌ لَوْ كَانَ مَاءُ الْعَيْنِ مِمَّا يَجْمَدُ

فأجاب الشريف :

إِنْ كَانَ جَفْنِي فَاضِحِي بَدْمَوْعِهِ أَظْهَرْتَ لِلْجُلَسَاءِ أَنِّي أَرْمَدُ

فقال أبو تراب :

فَهَبِ الدَّمُوعَ إِذَا جَرَتْ مَوَّهَتُهَا فَيَقَالُ لِمَ أَنْفَاسُهُ تَتَصَعَّدُ

فأجاب الشريف :

أَمْشِي وَأُسْرِعُ كَيْ يَظُنُّوا أَنَّهَا مِنْ ذَلِكَ الْمَشْيِ السَّريْعِ تُولَدُ

فقال أبو تراب :

هَذَا يَجُوزُ وَمِثْلُهُ مُسْتَعْمَلٌ لَكِنَّ وَجْهَكَ بِالْمَحَبَّةِ يَشْهَدُ

فأجاب الشريف :

إِنْ كَانَ وَجْهِي شَاهِدًا بِهُوَيِّ فَمَا يَدْرِي إِلَى مَنْ بِالْمَحَبَّةِ أَقْصِدُ

فقال أبو تراب :

إِخْضَعْ وَذَلِكَ لِمَنْ تَحَبُّ فَلَيْسَ فِي حُكْمِ الْهُوَى أَنْفٌ يَشَالُ وَيَعْقَدُ

فأجاب الشريف :

ذا لا يَكُونُ مع الحبيب وإنما مع ساقط. مُتَحِيلٌ يتعمدُ
المأمون والمرأة المتظلمة

جلس المأمون يوماً للمظالم فكان آخر من تقدم إليه ، وقد همَّ بالقيام امرأةً عليها هيئة السفر ، وعليها ثياب رثة فوقفت بين يديه فقالت : « السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » فنظر المأمون إلى يحيى (١) بن أكنم ، فقال لها يحيى : وعليك السلام يا أمة الله ، تكلمي في حاجتك ، فقالت :

ياخيرَ مُتَنَصِّفٍ يَهْدِي له الرشد ويا إماماً به قد أَشْرَقَ البلدُ
تشكُّو إليك عَمِيدَ القوم أَرْمَلَةٌ عدا عليها فلم يترك لها سَبَدَ (٢)
وابتَزَّ مِنِّي ضياعي حتى مُنِعْتُهَا ظُلماً وَفَرَّقَ مِنِّي الأهل والولد
فأطرق المأمون حيناً ثم رفع رأسه إليها وهو يقول :

في دُونِ ما قلت زال الصبر والجَلَدُ عَنِّي وأُقرح مني القلب والكَبِدُ
هذا أَوَّانُ صلاة العصر فانصرفي وَأَحْضِرِي الخَصْمَ في اليوم الذي أَعِدُ
والمجلس السبت إن يُقَضَّ الجلوس لنا نُنْصِفُكَ منه وإلا المجلس الأَحَدُ (٣)
فلما كان يومُ الأحد جلس فكان أول من تقدم إليه تلك المرأة فقالت :

« السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » فقال : وعليك السلام ، أين الخصم ؟ فقالت : الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين ، وأومأت إلى العباس ابنه فقال : يا أحمد بن خالد خذ بيده فأجلسه معها مجلس الخصوم ، فجعل كلامها يعلو كلام العباس . فقال لها أحمد بن خالد : يا أمة الله إنك بين يدي أمير المؤمنين وإنك تكلمين الأمير فاخفضي من صوتك . فقال المأمون : دعها

(١) يحيى بن أكنم قاضي قضاة الدولة العباسية لعهد المأمون ومن سلالة أكنم ابن صيفي توفي سنة ٢٤٢ (٢) أصل السيد : القليل من الشعر . ويقال ما له سبد ولا لبد أي لا قليل ولا كثير (٣) قوله : والا المجلس . استقط منه فاء الجواب للضرورة .

يا أحمد، فإن الحق أنطقها وأخرسها، ثم قضى لها برد ضيعتها إليها، وأمر بالكتاب لها إلى العامل ببلدها أن يوقر لها ضيعتها، ويحسن معونتها وأمر لها بنفقة.

عمر بن الخطاب، والهريمان

لما أتى بالهريمان أسيراً إلى عمر بن الخطاب قيل له: يا أمير المؤمنين هذا زعيم العجم وصاحب رئيسهم، فقال له عمر: أعرض عليك الإسلام نصحاً لك في عاجلك وآجلك، قال: يا أمير المؤمنين إنما أعتقد ما أنا عليه، ولا أرغب في الإسلام فدعا له عمر بالسيف فلما هم بقتله، قال يا أمير المؤمنين شربة من ماء أفضل من قتلى على ظمأ، فأمر له بشربة من ماء، فلما أخذها قال أنا آمن حتى أشربها؟ قال: نعم، فرمى بها وقال: الوفاء يا أمير المؤمنين نور أبلج، قال: صدقت لك التوقف عنك والنظر في أمرك، ارفعوا عنه السيف، فلما رفع عنه قال: الآن يا أمير المؤمنين أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وما جاء به حق من عنده، فقال عمر: أسلمت خير إسلام فما أخرتك؟ قال: كرهت أن تظن أنني أسلمت جزعاً من السيف، فقال عمر: إن لأهل فارس عقولاً بها استحقوا ما كانوا فيه من الملك، ثم أمر به أن يبر ويكرم، وكان بعد يشاوره في توجيه الجيوش لأهل فارس.

إبراهيم بن المهدي، وابن بختيشوع

قال العنبي: تنازع إبراهيم بن المهدي وابن بختيشوع الطبيب بين يدي أحمد بن أبي دؤاد في مجلس الحكم في عقار بناحية السواد، فأراني (١) عليه إبراهيم وأغلظ له (٢) فأغضب ذلك ابن أبي دؤاد فقال:

يا إبراهيم إذا نازعت في مجلس الحكم امرأة فلا أعلمن أنك رفعت عليه صوتاً ولا أشرت بيد، وليكن قصدك أمماً (٣) وريحك ساكنة، وكلامك معتدلاً،

(١) أربي عليه: زاد . (٢) أحفظه: أغضبه، والحفيظة: الحمية
(٣) الأمم: البين من الامر والوسط .

ووفَّ مجالس الخليفة حُقوقها من التعظيم والتوقير والاستِكانة والتَّوجُّه إلى الواجب ، فإن ذلك أشبه بك ، وأشكل بمذهبك في مَحْتَدك (١) ، وعظيم خطرك ولا تعجلن فرُبَّ عجلة تَهْبُ ريشاً (٢) . والله يَعِصُكُمْ من خطل القول والعمل ، ويتم نعمته عليكم كما أتمها على أبويك من قبل إن ربك حكيم عليم .

فقال إبراهيم : أَصْلَحَكَ اللهُ ، أمرت بسداد ، وَخَصَّضْتَ على رشاد ، ولست عائداً لما يَثْلُمُ (٣) مُرُوعَتِي عندك ، وَيُسْقِطُنِي من عينيك ، وَيُخْرِجُنِي من مقدار الواجب إلى الاعتذار ، فهأنذا معتذر إليك من هذه البادرة اعتذار مُقَرَّرٍ بذنبه مُعْتَرَفٍ بجرمه ، ولا يزال الغضبُ يَسْتَفِرُّنِي (٤) ببوادره ، فيردُّني مثلك بحلمه ، وتلك عادة الله عندك وعندنا منك ، وقد جعلت حَقِّي في هذا العقار لابن بختيشوع فليت ذلك يكون وافياً بأرش (٥) الجناية عليه « ولم يتلف مال أفاد مَوْعِظَةٌ » حَسْبُنَا اللهُ ونعم الوكيل .

الأحنف بن قيس ، وقيس بن عاصم

قيل لِلأحنف بن قيس : تَمَنَّيْتِ الحِلْمَ ؟ قال : من قيس بن عاصم المِنْقَرَى رَأَيْتُهُ قَاعِداً بِفِنَاءِ داره مُحْتَبِياً (٦) بِحِمَائِلِ سيفه يُحَدِّثُ قومه حتى أَتَى برجل مكتوف ، ورجل مقتول ، فقيل له : هذا ابن أخيك قتل ابنك ، فوالله ما حَلَّ حَبِوتِهِ ولا قَطَعَ كلامه ، ثم التفت إلى ابن أخيه وقال له : يا ابن أخي أَسَأْتَ إلى رحمك ، ورَمَيْتَ نَفْسَكَ بِسَهْمِكَ ، وقتلت ابن عمك ، ثم قال لابن له آخر : قُمْ يا بُنَيَّ فَحَلِّ كَتَافِ ابن عمك ووارِ أَخَاكَ ، وَسُقْ إلى أمه مائة ناقة دِيَّةَ ابنها ، فإنها غريبةٌ ، ثم أَنشَأَ يقول :

إِنِّي أَمْرُؤٌ لَا يَطْبِي حَسْبِي دَنْسٌ يُوْهَجُّهُ وَلَا أَفْنُ (٧)

(١) المحتد : الأصل (٢) الريث : الإبطاء والمقدار (٣) ثلم الاناء : كسره من حرفه (٤) استخفه وأزعجه (٥) الأرض : الدية وما يعطى تعويضاً (٦) احتبى : جمع بين ظهره وساقيه بعمامة أو نحوها ، والاسم من ذلك الحبة (٧) أطباه : دعاه واستهواه . والأفن : ضعف الراي وفعله كفرح

من منقبرٍ في بيت مكرمة والغصنُ ينبت حوله الغصنُ
خطباء حين يقول قائلهم بيضُ الوجوه مصاقعُ لسنٍ (١)
لا يفطنون لعيب جارهم وهم لحفظ جواره فطن (٢)

معن بن زائدة وجاره بين يدي المهدي

قال سعيد بن مسلم : نذر المهدي دم رجل من أهل الكوفة ، كان يسعى في فساد سُلطانه . وجعل لمن دل عليه أو جاء به مائة ألف درهم ، فأقام الرجل حيناً متوارياً ثم إنه ظهر بمدينة السلام (٣) . فكان ظاهراً كغائب خائفاً مترقباً ، فبينما هو يمشي في بعض نواحيها إذ بصُرَ به رجل من أهل الكوفة فعرفه ، فأهوى إلى مجامع (٤) ثوبه ، وقال : هذا بُغية أمير المؤمنين فأمكن الرجل من قياده ، ونظر إلى الموت أمامه ، فبينما هو على تلك الحال ، إذ سمع وقع حوافر الخيل من وراء ظهره فالتفت فإذا معن بن زائدة ، فقال : يا أبا الوليد أجزني أبارك الله فوقك وقال للرجل الذي تعلق به : وما شأنك ؟ قال : بغية أمير المؤمنين الذي نذر دمه ، وأعطى لمن دلَّ عليه مائة ألف درهم . فقال : يا غلام انزل عن دابتك واحمل أخانا ، فصاح الرجل يا معشر الناس يحال بيني وبين من طلبه أمير المؤمنين ! قال معن : اذهب فأخبره أنه عندي ، فانطلق إلى باب أمير المؤمنين فأخبر الحاجب فدخل إلى المهدي فأخبره فأمر بحبس الرجل ، ووجه إلى معن من يحضره ، فأتته رُسُل أمير المؤمنين وقد لبس ثيابه وقربت إليه دابته فدعا أهل بيته ومواليه ، وقال : لا يُخلصن إلى هذا الرجل وفيكم عين تطرف (٥) ، ثم ركب ودخل حتى سلم على المهدي ، فلم يرد عليه وقال : يا معن أتجير عليّ ؟ قال : نعم

(١) رجل لسن والسن فصيح ، ويجمع السن على لسن كأحمر وحمر
(٢) فطن : جمع فطن . كجون : جمع جون ، وهذا جمع نادر (٣) مدينة السلام : هي بغداد ، أو قسم منها (٤) مجامع الثوب : ما احاط بالجيب ويقال لها تلايب (٥) طرفت العين : تحركت

يا أمير المؤمنين ، قال : ونعم أيضاً ؟ واشتد غضبه ، فقال معن : يا أمير المؤمنين قتلت في طاعتكم باليمن في يوم واحد خمسة عشر ألفاً ، ولي أيام كثيرة قد تقدم فيها بلائي وحسن غنائى ، فما رأيتموني أهلاً أن تهبوا لى رجلاً واحداً استجار بى ؟ فأطرق المهدي طويلاً ثم رفع رأسه وقد سُرى (١) عنه فقال : قد أجزنا من أجرت ، قال معن : فإن رأى أمير المؤمنين أن يصله فيكون قد أحياه وأغناه ، فعل ، قال : قد أمرنا له بخمسة آلاف ، قال : يا أمير المؤمنين إن صلوات الخلفاء على قدر جنایات الرعية ، وإن ذنب الرجل عظيم فأجزل الصلة ، قال : قد أمرنا له بمائة ألف ، قال فتعجلها يا أمير المؤمنين بأفضل الدءاء ثم انصرف ولحقه المأل ، فدعا الرجل وقال له : خذ صلتك والحق بأهلك وإيّاك ومخالفة خلفاء الله تعالى .

معن بن زائدة والأسود

روى مروان بن أبى حفصة عن معن بن زائدة أنه قال : لما جد المنصور فى طلبى ، وجعل لمن يحملنى إليه مالاً ، اضطررت لشدة الطلب أن تعرضت للشمس حتى لوحث (٢) وجهى ، وخففت عارضى (٣) ، ولبست جبة صوف ، وركبت جملًا وخرجت متوجهاً إلى البادية لأقيم بها ، فلما خرجت من باب حرب ، وهو أحد أبواب بغداد ، تبغى أسود متقلد سيفاً ، حتى إذا غبت عن الحرس قبض على خيطام الجمل فأناخه وقبض على يدى ، فقلت له : ما بك ؟ فقال : أنت (٤) طلبة أمير المؤمنين ، فقلت : ومن أنا حتى أطلب ؟ فقال : أنت معن بن زائدة ، فقلت له : يا هذا ، اتق الله عز وجل ، وأين أنا من معن ؟ فقال : دع هذا ، فإنى والله لأعرف بك منك ، فلما رأيت منه الجد قلت له : هذا عقد جوهر ، قد حملته معى بأضعاف ما جعله المنصور لمن ينجيئه بى فخذهُ ولا تكن سبباً

(١) سرى عنه الهم : انكشف ، وقد يحذف المرفوع اكتفاء بالجار والمجرور
(١) لوحه العطش والسفر : غيره ولوحث وجهه الشمس : غيرت لونه .
(٣) العارضان جانباً الوجه ، وما يكون عليهما من اللحية (٤) الطلبة : الحاجة وما يطالب .

لَسَفْكَ دَمِي، قال : هاته، فَأَخْرَجَتْهُ إِلَيْهِ . فَنَظَرَ إِلَيْهِ سَاعَةً وَقَالَ : صَدَقْتَ فِي قِيَمَتِهِ
وَلَسْتُ قَابِلَهُ مِنْكَ حَتَّى أَسْأَلَكَ عَنْ شَيْءٍ فَإِنْ صَدَقْتَنِي أَطْلُقْتِكَ ، فَقُلْتَ : قُل ،
قال : إِنَّ النَّاسَ قَدْ وَصَفُوكَ بِالْجُودِ ، فَأَخْبِرْنِي هَلْ وَهَبْتَ مَا لَكَ كُلَّهُ قَطُّ ؟ قُلْتَ :
لَا ، قال : فَانْصَفْهُ ؟ فَقُلْتَ : لَا ، قال : فَثُلُثْهُ ؟ قُلْتَ : لَا ، حَتَّى بَلَغَ الْعُشْرَ ،
فَاسْتَحْيَيْتَ وَقُلْتَ : أَظُنُّ أَنِّي قَدْ فَعَلْتُ هَذَا ، قال : مَا ذَاكَ بِعَظِيمٍ ؛ أَنَا وَاللَّهِ
رَاجِلٌ (١) ، وَرَزَقَنِي مِنْ أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ كُلَّ شَهْرٍ عَشْرُونَ دِرْهَمًا وَهَذَا الْجَوْهَرُ
قِيَمَتُهُ أَلُوفٌ دِينَارٍ ، وَقَدْ وَهَبْتُهُ لَكَ وَوَهَبْتُكَ لِنَفْسِكَ وَالْجُودُكَ الْمَأْثُورُ بَيْنَ النَّاسِ
وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مَنْ هُوَ أَجُودُ مِنْكَ فَلَا تَعَجِبُكَ نَفْسُكَ وَلَتَحْقُرَ بَعْدَ هَذَا
كُلَّ جُودٍ فَعَلْتَهُ وَلَا تَتَوَقَّفَ عَنْ مَكْرُمَةٍ ، فَقُلْتَ : يَا هَذَا قَدْ وَاللَّهِ فَضَحْتَنِي
وَلَسَفْكَ دَمِي عَلَى أَهْوَنَ مِمَّا فَعَلْتُ ، فَخَذَ مَا دَفَعْتُهُ لَكَ فَإِنِّي غَنِيٌّ عَنْهُ ، فَضَحَكَ
وَقَالَ : أَرَدْتُ أَنْ تَكْذِبَنِي فِي مَقَالِي هَذَا . وَاللَّهِ لَا أَخَذْتُهُ وَلَا آخِذٌ لِمَعْرُوفٍ ثَمَنًا
أَبَدًا ، وَمَضَى لِسَبِيلِهِ ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ طَلَبْتَهُ بَعْدَ أَنْ أَمْنْتُ ، وَبَذَلْتُ لِمَنْ يَجِيءُ
بِهِ مَا يَشَاءُ ، فَمَا عَرَفْتُ لَهُ خَبِيرًا ، وَكَأَنَّ الْأَرْضَ ابْتَلَعَتْهُ .

معاوية والأعرابية

خَرَجَ مَعَاوِيَةُ مُتَنَزِّهًا ، فَمَرَّ بِحَوَاءٍ (٢) ضَخْمٍ ، فَقَصَدَ قَصْدَ بَيْتٍ مِنْهُ ،
فَإِذَا بِفَنَائِهِ امْرَأَةً بَرَزَةً (٣) ، فَقَالَ لَهَا : هَلْ مِنْ غَدَاءٍ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ حَاضِرٌ ، قَالَ :
وَمَا غَدَاؤُكَ ؟ قَالَتْ : خُبْزٌ خَمِيرٌ ، وَمَاءٌ نَمِيرٌ . وَحَيْثُ (٤) فَطِيرٌ . وَلَبَنٌ هَجِيرٌ (٥) ،
فَقَتْنِي وَرِكَه وَنَزَلَ ، فَلَمَّا تَغَدَّى قَالَ : هَلْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ ؟ فَذَكَرَتْ حَاجَةَ أَهْلِ
الْحَوَاءِ ، قَالَ : هَاتِ حَاجَتِكَ فِي خَاصَةِ نَفْسِكَ ، قَالَتْ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
إِنِّي أَكْرَهُ أَنْ تَنْزَلَ وَادِيًا (٦) فَيَرِفَ أَوَّلُهُ وَيَقِفَ آخِرُهُ (٧) .

(١) الراجل : غير الراكب (٢) الحواء ككتاب : جماعة البيوت المتدانية
(٣) البرزة من النساء : الكهلة الجلييلة تبرز للقوم وتحديثهم مع العفة .
(٤) الحيس : تمر يخلط بسمن ولبن مخوض (٥) الهجير : الخائر من
اللبن (٦) رف النبات : اهتز (٧) قف النبات : يبس

الأحنف بين يدي معاوية

وَقَدْ أَحْنَفَ بَن قيس على مُعَاوِيَة مع أهل العراق : فخرج الآذُن فقال
 إن أمير المؤمنين يَعَزِمُ عليكم أن لا يتكلم أحدٌ إلا لنفسه ، فلما وصلوا إليه قال
 الأحنف : لولا عَزْمَة أمير المؤمنين لَأَخْبَرْتُهُ أَن دَافَّة دَفَت (١) ، ونازلة نزلت ،
 ونابطة نبتت ، كلهم بهم حاجة إلى معروف أمير المؤمنين وبره ، فقال
 معاوية : حَسْبُكَ يَا أَبَا بَحْرٍ فقد كَفَيْت الشاهد والغائب .

الأحنف بين يدي عمر بن الخطاب

قدم الأحنف بن قيس التميمي على عمر بن الخطاب في أهل البصرة ، وأهل
 الكوفة ، فتكلموا عنده في أنفسهم وما يَنْوِبُ كل واحدٍ منهم ، وتكلم الأحنف
 فقال : يا أمير المؤمنين ، إن مفاتيح الخير بيد الله ، وقد أَّتَكَ وفود أهل العراق
 وإخواننا من أهل الكوفة والشام ومصر نزلوا منازل الأمم الخالية ، والملوك
 الجبابرة ، ومنازل كسرى وقيصر وبنى الأصفر (٢) ، فهم من المياه العذبة والجنان
 المختلفة في مثل حَوْلَاءِ السَّلَى (٣) وَحَدَقَةِ البعير (٤) ، تأتِيهم ثمارهم غَضَّة (٥) لم تَخْصُرْ
 وإنا أَنزَلْنَا أَرْضاً طَرَفٌ فِي فَلَاةٍ ، وَطَرَفٌ فِي مَلَحٍ أَجَاجٍ ، جانب منها منابت
 القصب وجانبٌ سَبْخَةٌ نَشَاشَةٌ (٦) لا يَجِفُ ثَرَاهَا ، ولا يَنْبُتُ مَرْعَاهَا ، يخرج الرجل
 الضعيف منا يستعذبُ الماء من فرسخين ، وتخرج المرأة بمثل ذلك تُرَنِّقُ (٧) لولدها
 ترنيق العنز ، تخَافُ عليه العدو والسَّبعُ فيالترفع خسيستنا ، وتَنْعَشُ (٨) ركيستنا

(١) يقال : دفت دافة أى أثت فئة مهاجرة (٢) بنو الأصفر عند
 العرب : هم الروم (٣) السلى غلاف رقيق يكون فيه المولود ، والحولاء :
 جلدة خضراء مماعة ماء تخرج مع الولد وهذا يكون به عن الخصب وكثرة
 الماء والخضرة (٤) قال في اللسان : وفي حديث الأحنف نزلوا في مثل حدقة
 البعير أى نزلوا في خصب وشبهه بحدقة البعير لأنها رياء من الماء (٥) غضة :
 طرية (٦) أرض سبخة نشاشة : لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها .
 (٧) رنق الماء : صفا (٨) نعشة : رفعه كأنعشه ، والركية الضعيفة

وتَجَبَّرُ فَاقْتَنَّا ، وَتَزِدُ فِي عِيَالِنَا عِيَالًا . وَفِي رِجَالِنَا رِجَالًا ، وَتُصَغِّرُ دِرْهَمِنَا ، وَتَكْبِرُ قَفِيزِنَا (١) ، وَتَأْمُرُنَا بِحَفْرِ نَهْرٍ نَسْتَعَذُّ بِهِ الْمَاءَ وَإِلَّا هَلَكْنَا ، فَقَالَ عَمْرٌ : هَذَا وَاللَّهِ السَّيِّدُ ؟ هَذَا وَاللَّهِ السَّيِّدُ ! ثُمَّ كَتَبَ إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ أَنْ يَحْتَفِرَ لَهُمْ نَهْرًا .

أُسَيْدُ بْنُ عُنْقَاءٍ - وَعُمِيلَةُ الْفَزَارِيُّ

كَانَ أُسَيْدُ بْنُ عُنْقَاءٍ الْفَزَارِيُّ مِنْ أَكْبَرِ أَهْلِ زَمَانِهِ ، وَأَشَدَّهُمْ عَارِضَةً وَلِسَانًا ، وَطَالَ عَمْرُهُ . وَنَكَبَهُ دَهْرُهُ ، وَاخْتَلَتْ حَالُهُ ، فَخَرَجَ عَشِيَّةً يَتَبَقَّلُ (٢) لِأَهْلِهِ ، فَهَمَّرَ بِهِ عَمِيلَةُ الْفَزَارِيُّ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَقَالَ : يَا عَمُّ مَا أَصَارَكَ إِلَى مَا أَرَى ؟ قَالَ بُخْلٌ مِثْلَكَ بِمَالِهِ ، وَصَوْنٌ وَجْهِي عَنْ أَمْوَالِ النَّاسِ ، فَقَالَ : لَئِنْ بَقِيتُ إِلَى غَدٍ لَأُغَيِّرَنَّ مَا أَرَى مِنْ حَالِكَ . فَرَجَعَ ابْنُ عُنْقَاءٍ إِلَى أَهْلِهِ ، فَأَخْبَرَهَا بِمَا قَالَ لَهُ عُمِيلَةُ ، فَقَالَتْ لَهُ : لَقَدْ غَرَّكَ كَلَامُ غُلَامٍ ، فِي جَنْحِ ظِلَامٍ (٣) فَكَيْفَ نَأْتِيكَ فَاهُ حَجَرًا ، فَبَاتَ مُتَمَلِّمًا بَيْنَ رِجَاءٍ وَيَأْسٍ ، فَلَمَّا كَانَ السَّحَرُ سَمِعَ رُغَاءَ الْإِبِلِ وَثَغَاءَ الشَّاةِ وَصَهِيلَ الْخَيْلِ وَلَجَجَبَ الْأَمْوَالُ (٤) فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ فَقَالُوا : هَذَا عُمِيلَةُ ، سَأَلَكَ مَالَهُ ، فَخَرَجَ ابْنُ عُنْقَاءٍ لَهُ ، فَفَقَسَمَ عُمِيلَةُ مَالَهُ شَطْرَيْنِ ، وَسَاهَمَهُ (٥) ، عَلَيْهِ ، فَأَنْشَأَ ابْنُ عُنْقَاءٍ يَقُولُ :

رَأَيْتُ عَلَى مَا بِي عُمِيلَةُ فَاشْتَكَيْتُ	إِلَى مَالِهِ حَالِي أَسْرَّ كَمَا جَهَرَ
دَعَانِي فَآسَأَنِي وَلَوْ ضَنْ لَمْ يُلِمَّ	عَلَى حِينٍ لَا بَدْوُ يُرَجَّى وَلَا حَضَرُ
فَقُلْتُ لَهُ خَيْرًا وَأَثْنَيْتُ فَعَلَهُ ،	وَأَوْفَكَ مَا أَبْلَيْتُ مِنْ ذِمٍّ أَوْ شَكَرُ
وَلَمَّا رَأَى الْمَجْدَ اسْتُعِيرْتُ ثِيَابَهُ	تَرَدَّى رِدَاءً سَابِغَ الذَّيْلِ وَاتَزَرَ (٦)
غُلَامٌ رَمَاهُ اللَّهُ بِالْخَيْرِ مُقْبِلًا	لَهُ سَيْمِيَاءُ لَا تَشْقُ عَلَى الْبَصْرِ (٧)
إِذَا قِيلَتْ الْعَوْرَاءُ أَغْضَى كَأَنَّهُ	ذَلِيلٌ بَلَا ذُلَّ وَلَوْ شَاءَ لَانْتَصَرَ (٨)

(١) القفيز : مكيال (٢) يتقبل : خرج يطلب البقل (٣) جنح الليل أو الظلام الطائفة منه (٤) اللجب : الجلبة والصياح واضطراب موج البحر (٥) ساهمه : قارعه أي ضرب القرعة (٦) أتزر من الأزار - قلبت الهمزة تاء الافتعال (٧) السيمياء والسيماء ، والسيمياء والسيماء : العلاماة يقول يفرح به من يراه للطف محياه . (٨) العوراء : الكلمة القبيحة ، وقرب من هذا البيت قوله :

يَصُمُّ عَنِ الْفَحْشَاءِ حَتَّى كَأَنَّهُ إِذَا ذَكَرْتُ فِي مَجْلِسِ الْقَوْمِ غَائِبٌ

الفضل وجعفر ابنا يحيى البرمكي

قال محمد بن عبد الرحمن الهاشمي (١) : كانت أم جعفر بن يحيى تزور أمي وكانت لبينة من النساء ، حازمة فصيحة برزة ، يعجبني أن أجدها عند أمي فاستكثر من حديثها ، فقلت لها يوماً : يا أم جعفر . إن بعض الناس يفضل جعفرًا على الفضل . وبعضهم يفضل الفضل على جعفر ، فأخبريني ، قالت : ما زلنا نعرف الفضل للفضل فقلت : إن أكثر الناس على خلاف هذا ، فقالت : هاأنا ذه أحدثك واقض أنت وذلك الذي أردت منها ، فقالت : كانا يوماً يلعبان في داري ، فدخل أبوهما فدعا بالغداء وأحضرهما . فطعما معه ، ثم أنسهما بحديثه ، ثم قال لهما : أتلعبان بالشطرنج فقال جعفر وكان أجراًهما : نعم ! قال : فهل لاعبت أخاك بها ؟ قال جعفر : لا ، قال : فالعبا بها بين يدي لأرى لمن الغلب ؟ فقال جعفر : نعم ! وكان الفضل أبصر منه بها ، فجيء بالشطرنج فصُفِّت بينهما . وأقبل عليها جعفر ، وأعرض عنها الفضل فقال له أبوه : مالك لا تلاعب أخاك ؟ فقال : لا أحب ذلك ، فقال جعفر : إنه يرى أنه أعلم بها مني فيأنف من ملاعبي ، وأنا ألاعبه مخاطرة ، فقال الفضل لا أفعل ، فقال أبوه : لاعبه وأنا معك . فقال جعفر : رَضِيت ، وأبى الفضل ، واستغنى أباه ، فأعفاه . ثم قالت لي : قد حدثتك فاقض ، فقلت : قد قضيت بالفصل لجعفر على أخيه ، فقالت : لو علمت أنك لا تحسن القضاء لما حكمتك ، أفلا ترى أن جعفرًا قد سقط . أربع سقطات تنزه الفضل عنهن ؟

فسقط . حين اعترف على نفسه بأنه يلعب بالشطرنج ، وكان أبوه صاحب جِدٍّ . وسقط . في التزام مُلاعبة أخيه وإظهار الشهوة لغلبيه والتعرض لغضبه . وسقط . في طلب المقامرة وإظهار الحرص على مال أخيه . والرابعة قاصمة الظهر حين قال أبوه لأخيه لاعبه وأنا معك ، فقال أخوه لا .

(١) هو محمد بن غسان بن عبد الرحمن صاحب صلاة الكوفة

وقال هو نعم ؟ فذاصب صفًا فيه أبوه وأخوه ؟ فقلت : أحسنت ، والله وإنك لأفقى من الشعبي : ثم قلت لها : عزمت عليك أخبريني هل خفى مثل هذا على جعفر ؟ وقد فطن له أخوه . فقالت : لولا العزمة لما أخبرتك ، إن أباهما لما خرج قلت للفضل خالية به : ما منعك من إدخال السرور على أبيك بملاعبة أخيك ؟ فقال : أمران ؛ أحدهما : لو أنى لاعتبه لغلبته فأخجلته ، والثانى : قول أبى لآعبة وأنا معك فما يسرنى أن يكون أبى معى على أخى ، ثم خلوت بجعفر ، فقلت له : يسأل أبوك عن اللعب بالشطرنج فيصمت أخوك وتعترف ، وأبوك صاحب جد ؟ فقال : إنى سمعت أبى يقول : نِعْمَ لَهُوَ الْبَالُ الْمَكْدُودُ (١) وقد علم ما نلقاه من كد التعلم والتأدب ولم آمن أن يكون بلغه أنا نلعبُ بها ، ولا أن يُبادر فيُنكر فبادرت بالإقرار إشفاقاً على نفسى وعليه . إن كان توبيخُ قديته من المواجهة به . فقلت له : يا بنى . فلم تقول لأعبه مخاطرة ! كأنك تقامر أخاك وتستكثر ماله . فقال : كلا . ولكنه يستحسنُ الدواة التى وهبها لى أمير المؤمنين فعرضتها عليه فأبى قبولها ، وطمعت أن يُلاعبنى فأخاطرته عليها . وهو يغلبنى فتطيب نفسه بأخذها . فقلت لها : يا أمّاه ما كانت هذه الدواة ؟ فقالت : إن جعفرًا دخل على أمير المؤمنين ، فرأى بين يديه دواة من العقيق الأحمر ، محلاة بالياقوت الأزرق والأصفر ، فرآه ينظر إليها فوهبها له . فقلت : إيه . فقالت ثم قلت لجعفر : هبك اعتذرت بما سمعت . فما عذرُك من الرضا بمناصبة أبيك حين قال لآعبه وأنا معك ! فقلت أنت : نعم . وقال هو : لا ؟ فقال : عرفت أنه غالى . ولو فتر لعبه لتغالبت له ، مع ماله من الشرف والسرور بتحيز أبيه إليه . قال محمد ابن عبد الرحمن : فقلت : بَخِ بَخِ (٢) هذه والله السيادة ! ثم قلت لها : يا أمّاه ، أكان منهما من بلغ الحلم ؟ فقالت : يا بنى ، أين يُذهب بك ! أخبرك عن

(١) كده : أجهده وأتعبه

(٢) يقال : بَخِ بَخِ - وبَخِ بَخِ ، اعجابا بالشئ واطهارا للسرور به

صبيين يلعبان . فتقول : « أكان منهما من بلغ الحلم » ؟ ! لقد كنا ننهى
المصبي إذا بلغ العشر ، وحضر من يُسْتَحَى منه ، أن يبتسم .

براعة الرشيد في الأدب

دخل سهل بن هرون على الرشيد وهو يضاحك المأمون فقال : اللهم
زده من الخيرات ، وابسط له من البركات ، حتى يكون في كل يوم من
أيامه مُرَبِّياً على أَمْنِهِ ، مقصراً عن غده .

فقال له الرشيد : يا سهل ، من روى من الشعر أحسنه وأرصنه ، ومن
المحدث أفصحهُ وأوضحه ، إذا رام أن يقول لم يعجزه القول .

فقال سهل : يا أمير المؤمنين ما ظننت أن أحداً تقدمني إلى هذا المعنى ،
قال بل أعشى همدان حيث يقول :

رَأَيْتُكَ أَمْسَ خَيْرَ بَنِي لُؤَى وَأَنْتَ الْيَوْمَ خَيْرُ مَنْكَ أَمْسِ
وَأَنْتَ غَدًا تَزِيدُ الْخَيْرَ ضِعْفاً كَذَاكَ تَزِيدُ سَادَةَ عَبْدِ شَمْسِ

الواثق وابن أبي دؤاد

قال أبو العيذاء : دخل ابن أبي دؤاد على الواثق فقال له : ما زال اليوم
قوم في ثلبك ونقصك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لكل امرئٍ منهم ما
اكتسب من الإثم ، والذي تولى كبره منهم له عذابٌ عظيم ، والله ولى جزائه
وعقاب أمير المؤمنين من ورائه ، وما ذلَّ يا أمير المؤمنين من كنت ناصره ،
ولا ضاع من كنت حافظه ، فماذا قلت لهم يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت :
يا أبا عبد الله :

وَسَعَى إِلَى بَعِيبٍ «عَزَّة» مَعْشَرٌ جَعَلَ الْإِلَهَ خُدُودَهُنَ نِعَالَهَا

المنصور والربيع بن يونس (١)

قال سعيد بن مسلم بن قتيبة دعا المنصور بالربيع فقال : سَلْنِي مَا تَرِيدُ ؟
فقد سكت حتى نطقت (٢) وخففتَ حتى ثقلت ، وأقللتَ حتى أكثرْتَ ،
فقال : والله يا أمير المؤمنين ، ما أَرْهَبُ بِخَلْكِ ، ولا أَسْتَقْصِرُ عَمْرَكَ ، ولا
أَسْتَصْغِرُ فَضْلَكَ ، ولا أَعْتَمُ مَالَكَ ، وإن يَوْمِي بِفَضْلِكَ عَلَى أَحْسَنِ مَنْ أَمْسَى ،
وَعَدَّكَ فِي تَأْمِيلِي أَحْسَنَ مِنْ يَوْمِي ، ولو جاز أَن يشْكركَ مثلي بغير الخدمة
والمناصحة لما سبقني في ذلك أحد .

قال : صدقت ، علمي بهذا منك أَحَلَّكَ هذا المحل ، فسَلْنِي مَا شِئْتَ ؟ ؟
قال : أَسْأَلُكَ أَن تقربَ عبدك « الفضل » وتؤثره وتُجِبه .
قال : ياربيع ، إن الحب ليس بمال يوهب ، ولا رُتْبة تُبدل ، وإنما
تؤكدُه الأسباب .

قال : فاجعل لي طريقاً إليه بالتفضل عليه .
قال : صدقت ، وقد وصلته بألف ألف درهم ، ولما أَصَلَ بها أحداً غير
عمومتي لتعلم ماله عندي ، فيكون منه ما يستدعي به محبتي ، وكيف سألت
له المحبة يا ربيع ؟

قال : لأنها مفتاح كل خيرٍ ، ومِغْلَاقُ كل شر ، تستتر بها عندك
عُيُوبُهُ وتصير حسناتٍ ذنوبه ، قال : صدقت ، وأتيت بما أردت .

الأعرابي السائل

وقف أعرابي يسأل ، فعَبِثَ به فتى ، وقال : مِمَّنْ أَنْتَ ؟

فقال الأعرابي : من بني عامر بن صعصعة قال : من أيهم ؟

(١) الربيع بن يونس هو صاحب المنصور توفي سنة ١٧٠ هـ
(٢) يقول : انك اطلت السكوت فنبهت بذلك على نفسك ، فقام
السكوت مقام الكلام ، وعلى هذا القياس ما بعده

قال : إن كنت أردت عاطفة القرابة فليكنك هذا المقدار من المعرفة فليس مقامى بمقام مجادلة ولا مُفاخرة ، وأنا أقول : فإن لم أكن من هاماتهم (١) فلست من أعجازهم .

فقال الفتى : ما رويت عن فضيلتك إلا النقص فى حَسَبِكَ .

فامتعض (٢) الأعرابي لذلك ، فجعل الفتى يعتذر ، ويخلط. الهزل والدُّعابة (٣) باعتذاره ، وأطال الكلام ، فقال له الأعرابي : يا هذا ! إنك منذ اليوم أدبتنى بمزحك ، وقطعتنى عن مسألتى بكلامك واعتذارك ، وإنك لتكشف من جهلك بكلامك ما كان السكوت يُستره من أمرك ، ويَحْك ! إن الجاهل إن مزح أسخط ، وإن اعتذر أفرط . ، وإن حدث أسقط . (٤) ، وإن قدر تسلط . وإن عزم على أمر تورط . (٥) ، وإن جلس مجلس الوقار تبسَّط . (٦) ، أعوذ منك ومن حال اضطررتنى إلى احتمال مثلك .

معاوية والأحنف بن قيس

لما عزم معاوية على البيعة ليزيد ، كتب إلى زياد أن يُوجِّه إليه بوفد أهل العراق ، فبعث إليه بوفد البصرة والكوفة ، فتكلَّمت الخطباء فى يزيد والأحنف بن قيس ساكت ، فلما فرغوا ؛ قال : قل يا أبا بحر فإن العيون إليك أشَّرع (٧) منها إلى غيرك ، فقام الأحنف فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

يا أمير المؤمنين : إنك أعلمنا بيزيد فى ليله ونهاره ، وإعلانه وإسراره ،

(١) الهامات : الرءوس (٢) امتعض : تألم (٣) الدعابة : اللعب والزاح (٤) أسقط : أخطأ (٥) تورط فى الأمر : وقع وارتبك . (٦) تبسَّط : أكثر من القول وجانب الاحتشام (٧) أشَّرع : أرفع وأكثر نظرا .

فإن كنت تعلمه لله رضا . فلا تُشاور فيه أحدا . ولا تُقيم له الخطباء والشعراء ، وإن كنت تعلم بعده من الله . فلا تُزوِّده من الدنيا وترحل أنت إلى الآخرة فإنك تصير إلى يوم يفرُّ المرءُ من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه ، فكأنه أفرغ على معاوية ذنوب (١) ماء بارد .

فقال له : أقعد يا أبا بحر . فإن خيرَ الله تجرى ، وقضائه يمضى ، وأحكامه تنفذ ، لا مُعقَّب لحكمه ، ولا راد لقضائه (٢) ، وإن «يزيد» فتى بَلَوْنَاهُ ولم نجد في قريش فتى هو أجدر بأن يجتمع عليه منه .

فقال : يا أمير المؤمنين ، أنت تحكى عن شاهد ، ونحن نتكلم على غائب ، وإذا أراد الله شيئا كان .

الحجاج ورسول المهلب

يُروى أن المهلب (٣) لما فرغ من أمرِ عبدِ ربِّه الحروري (٤) ، دعا بشر بن مالك ، فأنفذه بالبشارة إلى الحجاج ، فلما دخل على الحجاج قال : ما اسمك؟ قال : بشر بن مالك ، فقال الحجاج : بشارَةُ ومُلك ، كيف خلفت المهلب؟ قال : خلفته وقد آمنَ ما خاف ، وأدرك ما طلب ، قال : كيف كانت حالكم مع عدوكم؟ قال : كنْتُ البُداعةَ لهم ، والعاقبة لنا . قال الحجاج : العاقبة للمتقين ، فما حال الجند؟ قال : وسِعهم الحق وأغناهم النفل (٦) ، وإنهم لمع رجل

(١) الذنوب : الدلو المלאى ، جمعه أذنية وذنائب (٢) أى لا راد لقضائه (٣) هو المهلب بن أبى صفرة الأزدي ، كان شجاعا مهيبا وقائدا من أكبر قواد الجيوش في الدولة الأموية ، وهو الذى شتت الخوارج ومزقهم كل ممزق . ويقال للبصرة بصرة المهلب لأنه حماها من الخوارج توفى ٨٣ . (٤) الحروري : نسبة الى حروراء على غير القياس وهى بلدة بقرب الكوفة والحرورية : فرقة من الخوارج كالأزارقة (٥) كذا في زهر الآداب . وفي تاريخ ابن خلكان أن اسم الرسول مالك بن بشير . (٦) النفل : الغنيمة وجمعه أنفال

يسوسهم بسياسة الملوك ويقاتل بهم قتال الصُّعْلوك ، فلهُم منه بر الوالد ، وله منهم طاعة الولد ، قال : فما حال ولد المهلب ؟ قال : رُعاة البيات حتى يأمّنوا . وحماة السرح (١) حتى يرُدُّوه ، قال : فأَيُّهم أفضل ؟ قال : ذلك إلى أبيهم . قال : وأنت أيضاً ، فإني أرى لك لساناً وعبارة ، قال : هم كالحلقة المفرغة (٢) لا يُدْرى أين طرفاها ، قال : ويحك ! ! أَكُنْتَ أَعَدَدْتَ لهذا المقام هذا المقال ؟ قال : لا يعلم الغيب إلا الله ، فقال الحجاج لجلسائه : هذا - والله - الكلام المطبوع ، لا الكلام المصنوع .

حديث معاوية وليلى (٣) الأخيلية

قال بعض الرواة : بينا معاوية يسير إذ رأى راكباً فقال لبعض شُرَطه اثنى به وإياك أن ترّعه فأتاه فقال : أجب أمير المؤمنين ، فقال : إياه أردت ، فلما دنا الراكب حذرَ لثامه ، فإذا ليلي الأخيلية ، فأنشأت تقول :

مُعاوِيَ لم أكد آتيك تهوى برحلى نحو ساحتك الركابُ
تجوبُ الأرض نحوك ما تنأى إذا ما الأكم قنّعها السَّرابُ (٤)
وكنت المُرْتجى وبك استعاذت لتنعشها إذا بَخِلَ السَّحابُ

فقال : ما حاجتك ؟ قالت : ليس مثلى يطلبُ إلى مثلك حاجة ، فتخير أنت أعلى عَيْناً ، فأعطاها خمسين من الإبل ، ثم قال : أخبريني عن مُضر ، قالت فاخر بمُضر ، وحاربُ بقيس ، وكاثر بتميم ، وناظر بأسد (٥) .

فقال : ويحك يا ليلي ؟ أَكَمَا يقول الناس كان توبة ؟ قالت : يا أمير

(١) السرح : الماشية في المرعى (٢) الحلقة المفرغة : المصوبة قطعة واحدة وهذه الجملة مثل : لا امرأة عربية (٣) ليلي الأخيلية : اشعر امرأة عربية بعد الخنساء (٤) الأكم : واحده أكمة - وسكنت الكاف لا وزن - تقول : أن ركابها تجول في الأرض قاصدة معاوية ، ولا تنأى عند اشتداد الحر إذ تتغطى الأكام بالسراب (٥) مُضر : أصل لقيس و تميم وأسد : تقول : أن مُضر ذات مجد عظيم وقيس أهل البسالة والاقدام و تميم ذوو الكثرة والعُدَد وأسد أهل الحجة واللدد

المؤمنين ليس كل الناس يقول حقاً ، الناس شجرة بغى يحسدون النعم حيث كانت وعلى من كانت ، كان يا أمير المؤمنين : سبط. البنان ، حديد اللسان ، شجى الأقران ، كريم المخبر ، عفيف المئزر ، جميل المنظر ، وكان كما قلت ، ولم أبعد عن الحق فيه :

بعيد المدى لا يبلغ القرم غوره ألد ملد يغلب الحق باطله (١)
فقال معاوية : ويحك يا لىلى ! يزعم الناس أنه كان عاهراً فاجراً :
فقال من ساعته مرتجلة :

معاذ النهى قد كان والله توبة	جواداً على العلات جماً نوافله (٢)
أغر خفاجياً يرى البخل سبة	تحالف كفاه الندى وأنامله
عفيفاً بعيد الهم صلباً قناته	جميلاً مَحِيَّاه قليلًا غوائله (٣)
وكان إذا ما الضيف أرغى بغيره	لديه أتاؤه نيله وفواضله
وقد علم الحذب الذى كان سارياً	على الضيف والجيران أنك قاتله
وأنك رَحْب الباع ياتوب بالقرى	إذا ما لثيم القوم ضاقت منازلته
بييت قرير العين من كان جاره	ويُضحى بخير ضيفه ومنازله

فقال لها معاوية : ويحك يا لىلى ! لقد جُزّت بتوبة قدره ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، والله لو رأيته وخبرته لعلمت أنى مُقَصِّرة فى نعته ، لا أبلغ كنه ما هوله أهل ، فقال لها معاوية : فى أى سن كان توبة ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين :

أنته المنايا حين تم تمامه وأقصر عنه كل قرن يُناضله
وصار كليت الغاب يحمى عرينه فترضى به أشباله وحلائله

(١) القرم السيد . والألد : الشديد الخصومة . والملد مبالغة فى الالذ . تقول : لا يدرك غوره مع شدة عارضة تجعل باطله يغلب الحق (٢) على العلات : أى على كل حال . والنوافل : العطايا (٣) الفوائل : الدواهي . وفلان قليل الفوائل : أى ليس فيه ما يعيبه العشير .

عطوفٌ حَاميٌ حين يُطلبُ حلمه وُسْمٌ زُءافٌ لا تصابُ مقاتلُهُ

فأمر لها بجائزة ، وقال : أى ما قلت فيه أشعر ؟

قالت : يا أمير المؤمنين ، ما قلت شيئاً إلا والذي فيه من خصال الخير
أكثر ، ولقد أجدتُ حيث أقول :

جزى الله خيراً والجزاء بكفه فتى من عقيل ساد غير مكلف
فتى كانت الدنيا تهون بأسرها عليه فلم ينفك جَمّ التصرف
ينال عليّات الأمور بهونة إذ هي أعيت كل خرق مسوف (١)

الحارث (٢) بن عوف المرى ومصاهرته أوس (٣) بن حارثة الطائى

يروى أن الحارث بن عوف المرى : قال يوماً لخارجة بن سنان المرى ، أترانى
أخطب إلى أحد فيردنى ؟ قال : نعم ، قال : ومن ذاك ؟ قال : أوس بن حارثة بن
لأم الطائى ، فقال الحارث لغلّامه : ارحل بنا ، ففعل ، فركبا حتى أتيا أوساً . فلما
رأى الحارث بن عوف قال : مرحباً بك يا حارث ، قال : وبك ، قال : ماجاء
بك ؟ قال : جئتُك خاطباً ، قال : لست (٤) هناك ، فأنصرف ولم يكلمه ، ودخل
أوس على امرأته مُغضباً - وكانت من بنى عبس (٥) - فقالت : مَنْ
الرجل الذى وقف عليك فلم يُطَل ولم تكلمه ؟ قال : ذاك سيد العرب الحارث

(١) الهونة : التؤدة . والخرق : الفتى الحسن الكريم السجاياء
والمسوف : من يصنع ما شاء لا يردده أحد (٢) هو أحد عظماء ذبيان .
ومرة : بطن من ذبيان . والحارث أحد السيدى اللذين سعيّا فى الصّاح
بين عبس وذبيان فى حرب داحس والغبراء التى دامت نحو أربعين سنة
وقد احتملا فى مالهما خاصة غرامة تلك الحرب (٣) هو سيد طىء فى
زمانه ، وفيه يقول الشاعر :

الى أوس بن حارثة بن لام ليقتضى حاجتى فيمن قضاها
فما وطىء الحصا مثل ابن سعدى ولا لبس النعال ولا احتذاها
(٤) أى لست كفؤاً (٥) عبس وذبيان أبناء عم

ابن عوف المرى ، قالت : فما لك لا تستنزله ؟ قال : إنه استَحَمَ (١) ، قالت : وكيف ؟ قال : جاءنى خاطباً ، قالت : أفتريد أن تزوجَ بذاتك ؟ قال : نعم ، قالت : فإذا لم تزوجَ سيد العرب ، فمن ؟ قال : قد كان ذلك . قالت : فتدارك ما كان منك ، قال : بماذا ؟ قالت : تلحُّته فترده ؟ قال : وكيف وقد فرط . منى ما فرط . إليه ؟ قالت : تقول له : إنك لقيتني مُقتضِباً (٢) بأمر لم يتقدم منى فيه قول ، فلم يكن عندى فيه من الجواب إلا ما سمعت ، فانصرف ولك عندى كل ما أحببت . فإِذه سيفعلُ ، فركب فى أثرهما . قال خارجة بن سنان : فوالله إني لأسيرُ إذ حانت منى التفاتةً ، فرأيتَه قاقبلت على الحارث وما يكلمنى غمًّا ، فقلت له : هذا أوس بن حارثة فى أثرنا قال : وما نصنع به ؟ امض ، فلما رأنا لا نقف عليه ، صاح : يا حارثُ أربع (٣) على ساعة . فوقفنا له ، فكلَّمنا بذلك الكلام ، فرجعَ مسروراً .

فبَلغنى أن أوساً لما دخل منزله قال لزوجته : ادعى لى فلانة - لأكبر بناته - فأتته ، فقال : يا بُنية هذا الحارث بن عوف سيدُ من سادات العرب ، قد جاءنى طالباً خاطباً ، وقد أردت أن أزوجه منه ، فما تقولين ؟ قالت : لا تفعل ، قال : ولِمَه ؟ قالت : لأننى امرأة فى وجهى ردةً (٤) وفى خلقى بعض العُهدَة (٥) ، ولست بابنة عمه فيرعى رحمى ، وليس بجارك فى البلد فيستحى منك ، ولا آمن أن يرى منى ما يكره فيُطلقنى ، فيكون علىّ فى ذلك ما فيه ، قال : قومى بارك الله عليك ادعى لى فلانة - لابنته الوسطى - فدعتها ، ثم قال لها مثل قوله لأختها فأجابته بمثل جوابها وقالت : إني خرقاء (٦) وليست بيدي صنعة ، ولا آمن أن يرى

(١) استحقم : فعل فعل الحمقى (٢) الاقتضاب : المفاجأة (٣) ربع عليه : وقف أو مال إليه (٤) يقال فى وجهه ردة ، أى قبح مع شئ من الجمال (٥) العهدَة ، الضعف (٦) الخرقاء ، التى لا تحسن صنعة

منى ما يكره فيُطَلِّقنى : فيكون على فى ذلك ما تعلم ، وليس بابن عمى فيرعى حتى ولا جارك فى بلدك فيستحيك ، قال : قومى بارك الله عليك ، ادعى لى «بُهَيْسَة» – يعنى الصغرى – فأثنى بها ، فقال لها كما قال لهما ، فقالت : أنت وذاك ، فقال لها : قد عرضت ذلك على أختيك فأبتاه ، فقالت – ولم يذكر لها مقاتليهما : لكنى والله الجميلة وجهاً ، الصناعات (١) يداً ، الرفيعة خلقاً ، الحسبية أباً ، فإن طلقنى فلا أخلف الله عليه بخير ، فقال : بارك الله عليك .

قال خارجه : ثم خرج إلينا فقال : قد زوجتك يا حارث «بهيسة» بنت أوس ، قال : قبلت . ثم أمر أمها أن تهيبها ، وتصلح من شأنها ، ثم أمر ببيت فضرِب (٢) له ، وأنزله إياه ، فلما هبَّت بعث بها إليه ، فلم يلبث عندها إلا هنيئة (٣) ثم خرج إلى ، فقلت : أبنييت بأهلك ؟ قال : لا والله ، فإنى لما دنوت منها قالت : مه أعند أبى وإخوتى ؟ هذا والله ما لا يكون ، قال خارجه : ثم ارتحلنا بها فسيرنا ما شاء الله ثم انتحى بها ناحية ، ولم يلبث أن عاد إلى ، فقلت : أبنييت بأهلك ؟ قال : لا والله فقد قالت : أكما يفعل بالأمه الجليبة (٤) ! والسبية الأخيذة (٥) ! لا والله حتى تنحر الجزر ، وتذبح الغنم ، وتدعو العرب وتعمل ما يعمل لثلى ، قلت : والله إنى لأرى همة وعقلاً ، وأرجو أن تكون المرأة منجبة إن شاء الله ، فرحلنا حتى قدمنا وأخضر الإبل والغنم ، ثم خلا بها ، ولم ينشب أن خرج فقلت : أبنييت بأهلك ! قال : لا – فقد قلت لها أحضرنا من المال ما قد تريدين ، فقالت : والله لقد ذكرت لى من الشرف ما لا أراه فيك ، قلت : وكيف ؟ قالت : أفرغ للنساء والعرب يقتل بعضها بعضاً – وذلك فى أيام حرب عبس وذبيان – قلت : فماذا تريدين ؟ قالت : اخرج إلى هؤلاء القوم

(١) امرأة صناعات : حاذقة فى الصناعات (٢) ضرب : اقيم ، وبنى له بيت (٣) الهنيئة : الزمن اليسير (٤) الجليبة : المجاورة (٥) الأخيذة : المأخوذة

فأصلح بينهم ، ثم ارجع إلى أهلِكَ فلن يفوتك ، قال خارجه ، فقلت : والله
إني لأرى همة وعقلاً ، قال : فاخرج بنا فخرجنا حتى أتينا القوم فمشينا
فيما بينهم بالصلح ، فاصطلحوا وحملنا عنهم الديات ، فكانت ثلاثة آلاف
بغير في ثلاث سنين ، فانصرفنا بأجمل الذكر (١) :

ولو كان النساء - كمثُل هذِي - لفضلت النساء على الرجال

سودة بنت عماره ومعاوية

قال عامر الشعبي : وفدت سودة بنت عماره بن الأشتر الهمدانية على معاوية
ابن أبي سفيان ، فاستأذنت عليه فأذن لها ، فلما دخلت عليه سلمت ، فقال لها :
كيف أنت يا ابنة الأشتر ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال لها : أنت
القائلة لأخيك :

شمرٌ لفعل أبيك يا ابن عماره	يوم الطعان ومُلتقى الأقران
وانصُرْ علياً والحسين ورَهْطَه	واقصد لهند (٢) وابنها بهوان
إنَّ الإمامَ أخا النبيِّ محمد	عَلِمُ الهدى ومنارةُ الإيمانِ
فَقَدِّ الجيوش وسِرِّ أمام لوائه	قُدُماً بأبيض صارم وسانِ

قالت : يا أمير المؤمنين مات الرأس وبُتر الذنب ، فدع عنك تذكاري ما قد
نسيت ، قال : هيهات ، ليس مثل مقام أخيك نسي ، قالت : صدقت ، والله يا أمير
المؤمنين ، ما كان أخى خفى المقام ، ذليل المكان ، ولكن كما قالت الخنساء :
وإن صَخراً لتأتهم الهداة به كانه علمٌ في رأسه نارُ

(١) وقد خلد زهير هذا الذكر الجميل في معاقته اذ يقول من ابيات
كثيرة :

يمينا لنعم السيدان وجدتما	على كل حال من سحيل ومبسر
نداركتما عبسا وذبيان بعدما	تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
(٢) هند : هي أم معاوية	

وبالله أسألك يا أمير المؤمنين لإعفائي مما استعفيتهُ ، قال : فعلت ،
فقلولي حاجتك ، قالت :

يا أمير المؤمنين ، إنك للناس سيد ، ولأُمُورهم مُقلِّدٌ ، والله سائلُك عما افترض
عليك من حقنا ، ولا تزال تقدمُ علينا من ينهض بعزك ، ويبسُطُ بسلطانك ،
فيحصدنا حِصاد السُّبُل ، ويدوسنا دِباس البقر ، ويسومنا الخسيصة (١) ويسألنا
الجليلة ، هذا ابن أُرطاة ، قدم بلادى وقتل رجالى ، وأخذ مالى ، ولولا الطاعة ،
لكان فينا عزاً ومنعةً ، فإما عزله فشكرناك ، وإمّا لا فعرفناك ، فقال معاوية :
أيّاي تُهدِّدين بقومك ؟ والله لقد هممت أن أَرُدَّكَ إليه على قَتَبِ أَشْرَسَ (٢)
فَيُنْفِذَ حكمه فيك ، فسكنت ، ثم قالت :

صَلَّى الإله على روح تَضَمَّنَه قَبْرُ فَأَصْبَحَ فيه العدل مدفوناً
قد حالف الحق لا يبغي به ثمناً فصار بالحق والإيمان مقروناً
قال : ومن ذلك ؟ قالت : على بن أبى طالب ، قال : ما أرى عليك منه أثراً ،
قالت : بلى ، أتيتهُ يوماً فى رجل ولَّاه صدقاتنا ، فكان بيننا وبينه ما بين الغث
والسمين ، فوجدته قائماً يُصَلِّي فانفتل (٣) عن الصلاة ثم قال برأفة وتعطف : ألك
حاجة ؟ فأخبرته خبر الرجل ، فبكى ثم رفع يديه إلى السماء وقال : اللهم إني لم
آمرهم بظلم خلقك ، ولا ترك حقك ، ثم أخرج من جيبه قطعةً من جِرَابٍ ،
فكتب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم « قد جاءكم بيّنة من ربكم فأوفوا الكيل
والميزان ولا تبخوسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، بَقِيَّةُ الله خيرٌ
لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ . » إذا أتاك كتابي هذا فاحتفظْ .
بما فى يديك حتى يأتى من يقبضهُ منك والسلام . فعزله يا أمير المؤمنين ما خزمه
بخزام ولا ختمه بختام ، فقال معاوية : اكتبوا لها بالإنصاف لها والعدل عليها ،

(١) سلمه الأمر : كلفه إياه . تقول : يجشعنا دنايا الأمور (٢) القتب :
الرجل الصغير ، والأشرس : الخشن الغليظ (٣) انفتل : انصرف

فقلت : ألي خاصة أم لقومي عامة ؟ قال : وما أنت وغيرك ؟ قالت : هي والله إذن
الفحشاء واللؤم ، إن كان عدلاً فشاملاً ، وإلا يسعني ما يسعُ قومي ، قال :
هيهات ، لمظكم (١) ابن أبي طالب الجرأة ، وغرّكم قوله :

فلو كنت بواباً على باب جنة لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وقوله :

زاديت همدان والأبواب مغلقة ومثل همدان سني فتحة الباب
كالهذؤاني لم تفلل مضاربه وجه جميل وقلب غير وجاب
اكتبوا لها بحاجتها .

أم سنان بنت جشمة ومعاوية

قال سعيد بن أبي خذافة : حبس مروان وهو والي المدينة غلاماً من
بنى ليث في جناية جناها ، فأنته جدة الغلام - وهي أم سنان بنت جشمة
المذحجية - فكلمته في الغلام ، فأغلظ مروان لها ، فخرجت إلى معاوية فدخلت
عليه فانتسبت فعرفها فقال : مرحباً بابنة جشمة ، ما أقدمك أرضنا ، وقد
عهدتك تشميننا وتحضين علينا عدونا ؟ قالت : إن لبني عبد مناف أخلاقاً
طاهرة ، وأحلاماً وافرة ، لا يجهلون بعد علم ، ولا يشفهون بعد حلم ، ولا
ينتقمون بعد عفو ، وإن أولى الناس باتباع ما سنّ آباؤه لأنت ، قال :
صدقت ، نحن كذلك ، فكيف قواك :

عزب الرقاد فمقلتي لا ترقد والليل يُصدر بالهموم ويورد
يا آل مذحج لا مقام فشمرُوا إن العدو لآل أحمد يقصد
هذا علي كاللهال تحفه وسط الساء من الكواكب أسعد

خيرُ الخلائف وابن عم محمد إن يهدكم بالنور منه تهتدوا
ما زال مُدَّ شهد الجروب مُظفراً والنصر دون لوائه ما يعقد
قالت : كان ذلك يا أمير المؤمنين ، وأرجو أن تكون لنا خلفاً ، فقال
رجل من جلسائه : كيف يا أمير المؤمنين ؟ وهى القائلة :

إما هلكت أبا الحسين فلم تزل بالحق تُعرف هادياً مهدياً
فاذهب عليك صلاة ربك ما دعت فوق الغصون حمامةً قمريةً
قد كنت بعد محمد خلفاً كما أوصى إليك بنا فكنت وفيّاً
واليوم لا خلف يُؤمل بعده هيهات نأمل بعده إنسياً

قالت : يا أمير المؤمنين لسان فطن ، وقول صدق ، ولئن تحقق ما ظننا
فحظك الأوفر ، والله ما ورتك الشنآن لى قلوب المسلمين إلا هولاء ،
فأدحض مقالتهم ، وأبعد منزلتهم ، فإنك إن فعلت ذلك تزد من الله قرباً
ومن المؤمنين حباً ، قال : وإنك لتقولين ذلك ، قالت : سبحان الله ! والله
ما مثلك مدح بباطل ولا اعتذر إليه بكذب ، وإنك لتعلم ذلك من رأينا
وضمير قلوبنا .

شكراً لربى الذى أعاننى على طبع الجزء الأول ، ويليه الجزء الثانى

وأوله : « الفن السابع فى التاريخ »